موسوعة
الإمام المهدي (ع)

(١)

الرؤية القرآنية للقضية المهدوية

نشر الفقاهة

موسوعة

الإمـــام المهـــدي(عج)

(١)

الرؤية القرآنية للقضيـــة المهـــدويـــة

● تأليف : عرفان محمود ○

● تحقيق : لجنة التحقيق ○

● اشراف : أبو الفضل الإسلامي ○

● موضوع : كلام وتاريخ ○

● الطبعة : الأُولى ○

● المطبعة : باقريان ○

● الكمية : ١٠٠٠ ○

● صف الحروف : الطالبي ○

● التاريخ : ١٤٢٥هـ ○

«نشـر الفقاهـة» ـ قـم

شابك : ٩ ـ ٠٠ ـ ٧٩١١ ـ ٩٦٤ ISBN: 964 - 7911 - 00 - 9

بسم الله الرحمن الرحيم

وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ
فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً
وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَارِثِينَ

القصص: ٥

المقدمة:

﴿ونريد ان نمن على الّذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمّة ونجعلهم الوارثين﴾

١ ـ لقد جرت سنن الله في الحياة الإنسانية على ضرورة خلود الرسالة الإسلامية الخاتمة وضرورة انتصارها في نهاية المطاف بظهورها على سائر الرسالات السماوية وغيرها من المذاهب والمدارس الفكرية والثقافية والسياسية واستقرار الدين الحق في كافة مرافق الحياة البشرية في شرق الأرض وغربها وشمالها وجنوبها، بالرغم من كلّ الأعاصير والخطوط المناوئة؛ إذ سوف تنحسر جميعها و تثبت للعالم أجمع فشلها وعدم قدرتها على استيعاب البشرية وتحقيق العدالة في ربوعها وعجزها عن ايصالها إلى سعادتها المنشودة.

وعلى هذا تظافرت نصوص القرآن الكريم وبشّرت بذلك أحاديث النبي العظيم ﷺ وسائر خلفائه المهديين من أهل بيته المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين.

٢ ـ وإنما يتحقق هذا الهدف الكبير ـ الّذي صرّح القرآن الكريم بأن الدين الحقّ قد جاء من أجل تحقّقه بقوله عزّ من قائل: ﴿هو الّذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾ [١] ـ من خلال الاختيار الفذّ للقيادات الربانية الكفوءة لنشر وتطبيق هذه الرسالة الربانية تطبيقاً صحيحاً

---

(١) انظر سورتي التوبة والصف الآيات ٣٢ ـ ٣٣ و ٨ ـ ٩.

و دقيقاً يكفل للإنسانية تحقيق أهدافها المنشودة في هذه الرسالة الّتي صاغتها يد السماء وأهدتها إلى البشرية لتنعم في ظلالها وتسعد بتطبيقها والاهتداء بهديها(١).

٣ ـ إن هذه القيادات الربانية الكفوءة علمياً وادارياً تغطّي كلّ الساحة الزمنية الّتي تشغلها الرسالة الخالدة، وهي كما نصّ عليه الرسول ﷺ اثنا عشر ومن قريش بل من بني هاشم بالذات وهي ذات علاقة نسبية بالرسول الأعظم ﷺ صاحب الرسالة والأمين عليها، وهي معصومة ومسدّدة من قبل السماء، تقف بوجه الأعاصير العاتية وتضحي بكلّ ما لديها في سبيل رسالة الله ونوره الّذي أطلّ على الإنسانية من غار حراء ليكتسح ربوع الأرض بكلّ دقّة وأناة.

٤ ـ إن هذه الأعاصير وإن كانت عاتية ودامية ولكنها في ميزان الله وأمام الدماء الطاهرة الّتي تقدّمها هذه القيادات الربانية وأتباعها بسخاء فإنها لا تشكّل خطراً كبيراً و ماحقاً للرسالة بل هي نفثة عاجزة أمام نور الله الجليّ ورحمته الواسعة وحكمته البالغة:

﴿ *يريدون ليطفئوا نور الله بأفواهم والله متم نوره ولو كره الكافرون* ﴾(٢) بل كما قال أيضاً في نصّ أكثر صراحة وأدلّ على المقصود:

﴿ *يريدون أن يطفؤا نور الله بأفواههم ويأبى الله الّا أن يتم نوره ولو كره الكافرون* ﴾(٣). فإن ارادة الله هي الغالبة وهي الّتي تتحقق في نهاية الصراع الّذي يكشف زيف الباطل على مصراعيه لكلّ ناظر وبصير.

---

(١) انظر سورة المائدة، تفسير الآيات.

(٢) الصف، الآية ٨.

(٣) التوبة، الآية ٣٢.

نعم يأبىٰ الله ألّا أن يتم نوره فقد بشر الرسول العظيم قائلاً: «لولم يبق من الدنيا إلّا يوم لطوّل الله ذلك اليوم حتّى يخرج المهدي من ولدي ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما تملأ ظلماً و جوراً».

٥ ـ إن قضية المصلح العالمي الّذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً والّتي يحققها الإمام المهدي من عترة الرسول الأعظم محمّد بن عبدالله ﷺ ليست قضية شيعية فحسب وليست ذات طابع اسلامى خاص، لأنها قضية بشّرت بها الأديان السماوية قاطبة، بل هي تعبير عن طموح اتجهت إليه البشرية بمختلف اتجاهاتها؛ لأنها صياغة سنينة ومنطقية لإلهام فطري أدركت الإنسانية من خلاله أن لها يوماً موعوداً على الأرض تتحقق فيه الغاية الكبرى لرسالات السماء، وتجد فيه الإنسانية المتعبة طمأنينتها بعد عناءٍ طويل.

٦ ـ إنّ هذا المبدأ الفطري والإنساني والّذي رافق البشرية منذ ولادتها هو أقدم من الإسلام الخاتم لرسالات السماء غير أن ما بشّر به الإسلام من تفاصيل أصبح أقوى إثارة لأحاسيس المظلومين والمستضعفين في الأرض، حيث حوّله الإسلام من غيب إلى واقع ومن مستقبل إلى حاضر. ومن تطلّع تتمخض عنه الدنيا في المستقبل البعيد المجهول إلى ايمانٍ بوجود منقذٍ بالفعل يتطلّع مع المتطلعين إلى هذا اليوم العالمي الموعود، ينتظر بفارغ الصبر وبعظيم الجهد والكدح اكتمال الظروف اللازمة لتسمح له بممارسة دوره العظيم.

٧ ـ إذاً فليس الإمام المهدي المنتظر عليه السلام بعد الإمام الحسن العسكري عليه السلام قائد يُنتظر ولادته ونبوءة يتطلّع المسلمون ولادتها، بل هو واقع قائم فاعل، وهو إنسان يعيش بلحمه ودمه يرى الناس ويرونه، يعيش آمالهم وآلامهم ويشاركهم أحزانهم وأفراحهم ويشهد كلّ ما تزخر به الساحة من بؤس وعذاب

مظلم ويكتوي بنار الأحداث من قريب وبعيد وينتظر مع كلّ المنتظرين بلهفة بالغة تلك اللحظة الّتي يُتاح له فيها أن يمدّ يد العون إلى كلّ المظلومين ليقطع دابر المتكبّرين الظالمين بالرغم من أنه قد اضطرّ لئلّا يعلن عن نفسه ولا يكشف للآخرين عن تفاصيل حياته وإن كان يعيش معهم و بين ظهرانيهم منتظراً ساعة الصفر الّتي يُسمح له فيها بالظهور وإعلان ثورته العارمة على جميع أنواع الظلم وكلّ الظالمين.

٨ ـ إنّ مبدأ الرفض المطلق لكلّ ظلم والّذي يمثّله الإمام المهدي هذا الإمام الحي طيلة هذه القرون الطويلة ـ باعتباره سيظهر وليس في عنقه بيعة لظالم إذ قد غاب منذ ولد ـ قد أعطى للمسلمين زخماً كبيراً وطاقة جبّارة حتى أصبح مصدراً للثورات المستمرة ضد الطغاة والعتاة باسم الدين على مدى قرون متتالية.

إنّ الإمامة الّتي أقرها الإسلام بحد ذاتها تعتبر موقعاً متميّزاً كانت تطمح إليه النفوس الحريصة على الملك والسلطان فاستأثرت به وحالت بين أهل بيت الرسالة وبين ممارستهم لمهمة التطبيق الشامل للرسالة، وأصبح علمهم باغتصابهم لهذا الحقّ من أهله يشكّل أوّل هاجس مرعب لهم فإنّ توقّع ادّعاء أصحاب الحقّ حقّهم يرعبهم ويخوفهم من كلّ ممارسة تصدر منهم يُحتمل فيها أنّهم يخطّطون لاسترداد هذا الحق الّذي جعله الله لأهله الكفوءين عليه وكلّفهم مهمّة الحفاظ عليه واستأمنهم من خلاله على الرسالة الّتي يمهّدون لتطبيقها الشامل في الحياة.

وقد وقف هؤلاء المستأثرون بالسلطان والقدرة باسم الدين وخلافة الرسول ﷺ من خلال الأخبار المتواترة على أن زوال ملك الجبابرة الظلمة على يد القائم والمهدي من أهل بيت الرسالة الّذي نصّ على إمامتهم جدّهم الأمين

وعيّنهم بأسمائهم وصفاتهم، وهم لا يشكّون باغتصابهم لحق أهل هذا الحق وهم أهل البيت عليهم السلام.

من هنا سعوا بكلّ جدّ لإبادة نسلهم لئلا يولد القائم منهم، أو ليقتل إن كان قد ولد، فأبىٰ الله أن يكشف أمره لواحد منهم كما صرّح بذلك الإمام الحسن العسكري عليه السلام ويأبى الله إلّا أن يتم نوره ولو كره المشركون[1].

٩ ـ وهكذا أصبح مبدأ الإصلاح العالمي والمصلح العالمي الّذي يجسّده المهدي من أهل البيت عليهم السلام نقطة اشعاع مهمة ومركز الأمل الكبير للمسلمين وهم يعيشون أحلك الظروف وأظلمها. ممّا حدى بالمستعمرين (أعداء الإسلام القدامى والمحدثين) الطامعين في إحكام السيطرة على جميع مصادر الثروة الإسلامية إلى التصدّي لتزييف هذا المبدأ والتشكيك فيه وتربية شخصيات تقوم بنقده و ... وانكاره ليفقد فاعليته وقدرته على مناجزة الظالمين المستبدين بالمال والسلطان لأنه مصدر رعب لهم جميعاً في الوقت الّذي يستعدون فيه بكلّ ما يملكون من طاقات وأسلحة لمواجهة هذا المصلح إن باغتهم في ظهوره وقيامه وثورته.

١٠ ـ لقد صرّح أحد كبار الباحثين والمنظّرين الصهاينة حين اجتمعوا للبحث عن أسباب وعوامل عدم انهيار الشيعة بالرغم من كلّ ما أحاطت بهم من عوامل التصفية والدمار الشامل على مدى قرون التاريخ، وبالرغم من كلّ الأساليب الّتي استخدمت لفت عزائمهم وتسهيل سبل انهيارهم فقال: إن الشيعة يمتلكون عنصرين أساسيين من عناصر الديمومة والبقاء والردّ على التحديات الّتي تعترض طريقهم في الحياة.

---

(١) منتخب الأثر: ٣٥٩ ط ثانية.

العنصر الأوّل : الثورة الحسينية العملاقة الّتي تمثل الأصالة والعمق والامتداد بجذور ضاربة إلى أعماق التاريخ، وتضخ في اتباع الحسين ومحبيه روح العز والابداع والشموخ والشهادة والاستبسال في سبيل الحقّ.

والعنصر الثاني : الأمل الكبير بالنصر وباهتزاز راية الحقّ في ربوع الأرض المتمثل في الإيمان العميق بالمهدي المنتظر الّذين وعد الله به الأُمم فهو رمز العدل الشكل الّذي يسيطر على كلّ أنواع الظلم والطغيان.

وما انتصار الثورة الإسلامية في ايران وما أعقبها من هزائم منكرة للقوات الامريكية والاسرائيلية الّتي كانت تسيطر على لبنان والجبل الأشم إلّا نماذج من هذه الروح الحسينية المهدويّة الّتي هي من خصائص شيعة الحسين والمهدي عليه السلام وبمثل هذا الإيمان الحي ستتحرر أرض الإسلام من براثن الكفر والشرك والنفاق، وستهتز راية الإسلام على ربوع الأرض بإذن الله الّذي سن للحياة الدنيا سننها الّتي تلخصت في وراثة المتقين للأرض وبذلك وعدهم وهو أصدق القائلين : ﴿*ونريد ان نمن على الّذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمّة ونجعلهم الوارثين ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون*﴾ (١).

إن هذا اليوم الّذي وعد الله به الأُمم لقريب جداً في ميزان الله ومعاييره حيث يقول انهم يرونه بعيداً ونراه قريباً.

* * *

ومنذ أمد بعيد كنت أفكر في تدوين بحوث تكشف النقاب عن زوايا من حياة بقية الله الأعظم الإمام المهدي عليه السلام وراجعت في ذلك أُستاذي ومعتمدي

---

(١) القصص : ٥.

آية الله السيّد حسن الموسوي الشالي واستشرت بعض اخواني في الله لا سيّما أخي الفاضل السيّد منذر الحكيم فاقترح الأُستاذ عرفان محمود ليكون صاحب هذا الوسام والشرف. وقد نوقشت الاطروحة وتم الاتفاق على أن تخرج الموسوعة في أقسام خمسة كما يلي:

القسم الأوّل: في الرؤية القرآنية للقضية المهدوية.

القسم الثاني: في رؤية السنة ـ المتفق على صحتها بين جميع طوائف المسلمين ـ للقضية المهدوية.

القسم الثالث: في ولادة الإمام المهدي عليه السلام وأدلة إثبات وقوعها المعتبرة.

القسم الرابع: في غيبة الإمام المهدي عليه السلام وإثباتها وتوضيح عللها وحكمتها.

القسم الخامس: في رؤية الإمام عند ولادته وبعدها وفي فترة الغيبة حسب الترتيب الزمني.

وقد تم إنجاز هذه الموسوعة المباركة بإذن الله تعالى وها نحن نقدمها للأعزاء المنتظرين لراية العدل الّتي يحملها الإمام المهدي الحجّة ابن الحسن العسكري عليه السلام .

وفي الختام أتقدم بجزيل الشكر للأخ العزيز والكاتب الكريم عرفان محمود للقيام بهذا المجهود المبارك ولآية الله السيّد حسن الموسوي الشالي لما أولاه من اهتمام ودعم مادي ومعنوي لتخرج هذه الموسوعة بإذن الله.

كما أتقدم بالشكر لأخي السيّد منذر الحكيم لما بذله من جهد خلال سيرة العمل وتدوين مقدمة الموسوعة وللأخ الفاضل الحاج كمال الكاتب لما بذله من جهد لتصحيح الكتاب وتدقيقه ولقرّة عيني العزيز الشيخ مهدي الإسلامي

لجهوده في متابعة الأُمور من بدايتها الى نهايتها، المنتهية الى إخراج هذا الكتاب القيّم الماثل بين يديك. ولسائر الأخوة الأعزاء لا سيّما آية الله العظمى الشيخ لطف الله الصافي الكلبايكاني دام ظله لما أبداه من ملاحظات وإرشادات بعد مطالعته القسم الأوّل من الموسوعة.

وأسأله تعالى العون والتوفيق لكلّ المساهمين في هذا الجهد الميمون آملين الحظوة بلقاء عميدهم وسيّدهم وإمامهم الموعود. إنّه سميع مجيد.

الحوزة العلمية بقم المقدسة

أبو الفضل الإسلامي

التقديم

اهتمام النصوص الشرعية بالقضية المهدوية:

تحظىٰ قضيّة الاعتقاد بالإمام المهديّ المنتظر سلام الله عليه كقائدٍ ربّاني يحقّق الله تبارك وتعالىٰ علىٰ يديه أهداف الأنبياء في إقامة القسط والعدل الإلهيّ وإنهاء الظلم والجور الأرضي في كلّ الأرض بأهمّيةٍ بالغةٍ في الحياة الإسلامية تكشف عنها كثرة النصوص الشرعية الواردة بشأنها في القرآن والسنّة النبوية الشريفة[1]. كما تكشف عنها كثرة البحوث والكتب والرسائل

---

(١) سيأتي في هذا الكتاب الأوّل من الموسوعة ـ الخاصّ بعرض الرؤية القرآنية للقضية المهدوية ـ ذكر الآيات الكريمة المتحدّثة عن هذه القضية بصورةٍ مباشرة، إذ تختصّ بتوضيح بعض تفصيلاتها أو أُطرها العامّة أو بصورة غير مباشرة واستناداً إلىٰ تطبيق الرسول الأكرم والأئمّة من عترته الطاهرة عليهم السلام لطائفة من الآيات الكريمة علىٰ هذه القضية كأحد أو أهمّ المصاديق الّتي تتحدّث عنها هذه الآيات، ويربو مجموع هذه الآيات الكريمة على المائة والخمسين آية كما سيأتي.

أما بالنسبة للأحاديث الشريفة المروية عن الرسول الأعظم والأئـمّة عليهم السلام والواردة بشأن قضية المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه الشريف فقد احصي منها في الأجزاء الخمسة من كتاب «معجم أحاديث الإمام المهديّ» (١٩٤١) حديثاً. روي منها في الجزءين الأوّلين منه (٥٦٠) حديثاً مروياً عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله من طرق الفريقين. وروي في الجزءين الثالث والرابع منه (٨٧٦) حديثاً مسنداً إلى الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام روي الكثير منها في كتب أهل السنّة. فيما اشتمل الجزء الخامس منه علىٰ (٥٠٥) أحاديث مروية عن النبيّ والأئمّة من أهل البيت صلوات الله عليهم أجمعين في تفسير الآيات الكريمة في هذا الباب.

الّتي صنّفها علماء الإسلام بمختلف مذاهبهم عنها، واستمرار التأليف عنها دون انقطاع علىٰ مدىٰ قرون التأريخ الإسلامي مُنذ بدء حركة التأليف في القرن الهجري الثاني وإلى اليوم[١].

ومعلومٌ أنّ القرآن الكريم والرسول الأكرم وعترته الطاهرة صلوات الله عليهم وتبعاً لهم علماء الإسلام يولون كلّ قضية إسلامية من الأهمّية بمقدار تأثيرها في حياة الفرد المسلم والمجتمع الإسلامي فيما يرتبط بهدايته إلى الصراط الإلهيّ المستقيم وإعانته علىٰ سلوكه، لأنّ هذه هي المهمّة الأُولىٰ للقرآن الكريم المنزّل هدىً للناس يخرجهم من الظلمات إلى النور وبه يهدي الله مَن اتبع رضوانه سُبل السلام ويهديهم إلىٰ صراط مستقيم[٢]، كما أنه ليس بالهزل[٣] فلا يتطرّق لما لا فائدة فيه ولا ارتباط بهذه المهمّة التربوية المقدّسة.

والأمر نفسه يصدق على الرسول الأكرم ﷺ المبعوث لإبلاغ شرائع الإسلام وتعريف الإنسان بكلّ ما يحتاجه لطيّ مسيرة الوصول إلى الله تبارك وتعالىٰ وتحقيق الغاية من خلقه، فلا تجد في كلامه ﷺ ما يخرج عن نطاق هذه المهمّة المقدّسة فهو لا ينطق عن الهوىٰ[٤].

وهذه أيضاً مهمّة ورثته الأئمّة المعصومين من أهل بيته سلام الله عليهم فهم الهداة إلى الله والقادة إلىٰ سبيله بكلّ أقوالهم وأفعالهم، فلا يوجد فيها لغو أو عبث[٥] ولا اهتمام بالفضول الّتي لا ترتبط بهذه المهمّة الإلهيّة التربوية. لذلك

---

(١) راجع دراسة «تأريخ ومناهج التأليف عن القضية المهدوية» المنشورة في العدد السادس عشر من مجلة الفكر الإسلامي الصادرة في مدينة قم المقدسة عن مجمع الفكر الإسلامي.

(٢) إقتباس من سورة المائدة: ١٥ وغيرها كثير.

(٣) إقتباس من سورة الطارق: ١٤.

(٤) إقتباس من سورة النجم: ٣.

(٥) وهذا هو مقتضىٰ آية التطهير وحديث الثقلين وغيرهما من الآيات والأحاديث النبوية الصحيحة كما هو ثابت في الدراسات الخاصّة بموضوع الإمامة.

فإنّ اهتمام الرسول الأكرم وأهل بيته المنتجبين صلوات الله عليهم بتعريف المسلمين بقضية الإمام المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه هو اهتمام بالغ ومشهود، يعكس من جهة اهتمام القرآن بها، كما انعكس اهتمامهم بها من جهة أُخرىٰ في اهتمام ورثتهم من علماء الإسلام في التأليف عنها وبكثافة ملحوظة يكشف شدّة تأثير الإيمان بهذه العقيدة في النجاة من الضلالة والخلاص من ميتة الجاهلية والسير على الصراط المستقيم.

ضرورات التعرّف على العقيدة الإسلامية في المهديّ الموعود:

من هنا فإنّ معرفة هذا الاهتمام البالغ من قبل ينابيع الوحي بقضية الإمام المهديّ عجّل الله فرجه ينبغي أن تشكّل دافعاً لكلّ مسلم للتعرّف عن هذه القضية من خلال الرجوع إلىٰ مصادر الوحي وأحاديثها بشأنها، واستماع الأقوال الواردة في تفسير هذه الأحاديث وتمحيصها واختيار أحسنها في الاستناد إلى الأدلّة النقلية السليمة والبراهين العقلية الصحيحة، ثمّ تبنّي هذا القول الأحسن عقيدة راسخة والتعرف علىٰ مقتضياتها ولوازمها العملية والعمل بها للنجاة من الضلالة وميتة الجاهلية والفوز بالحياة الطيبة في الدارين.

وما نعرضه هنا ـ في هذه الموسوعة ـ هو عقيدة الإمامية الاثني عشرية في المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه والّتي نراها ووجدناها ـ عبر البحث والتحقيق ـ القول الأحسن من بين الأقوال الواردة في هذه القضية، والعقيدة الأصحّ في فهم وتفسير النصوص الشرعية والبراهين العقلية.

وهذا الأمر يتضح من خلال مقارنة هذه العقيدة بالأقوال الأُخرىٰ وتقويم أدلّة كلّ الأقوال، لذلك فإنّ عرضنا لهذه العقيدة يشتمل ضمنياً علىٰ عرض الأقوال الأُخرىٰ وأدلّتها، كما يشتمل علىٰ إبراز الخصوصيات الّتي تمتاز بها عقيدة الإمامية عن غيرها في هذا الباب.

مميّزات عقيدة الإمامية في الإمام المنتظر:

ونحن عندما نقول بأنّ ما نعرضه هنا هو عقيدة الإمامية الاثنى عشرية فإنّ ذلك لا يعني بحالٍ من الأحوال أنّ أدلّتها تقتصر علىٰ ما تبنّته هذه الطائفة الإسلامية الكبيرة من قناعات وحسب ولا علىٰ طرقها الخاصّة في الرواية عن الرسول الأكرم ﷺ أو في تفسير القرآن الكريم ولا علىٰ أحاديث وتعاليم أئمتها عليهم السلام وحدهم.

فرغم أنّ حجّية أقوال هؤلاء الأئمّة المعصومين صلوات الله عليهم وأفعالهم ثابتة بالأدلّة النقلية الكثيرة المتفق علىٰ صحّتها بين مختلف فِرق المسلمين والبراهين العقلية المتينة[(١)] يُضاف إلىٰ ذلك إذعان جميع علماء المسلمين بمختلف اتجاهاتهم للقول بنزاهة هؤلاء الأئمّة وسموّ مقاماتهم العلمية والعملية وكمالاتهم الروحية وتبحّرهم في مختلف فروع العلوم الإسلامية[(٢)] إلّا أنه وإلىٰ جانب ذلك فإنّ ما نعرضه هنا يستند في جميع أُصول عقيدة الإمامية في المهديّ المنتظر والكثير من تفصيلاتها إلىٰ أدلّة نقلية تسالم جميع المسلمين علىٰ صحتها وإلىٰ براهين عقلية يذعن لصحتها كلّ مَن تدبّرها بإنصاف وموضوعية.

وهذه الخصوصية في عقيدة الإمامية بشأن القضية المهدوية تجعل دائرة

---

(١) راجع موسوعات «الغدير» للشيخ عبدالحسين الأميني، و «عبقات الأنوار» للسيد مير حامد حسين الموسوي، و «ملحقات إحقاق الحقّ» للسيّد شهاب الدين المرعشي النجفي، فقد حفلت بالكثير من الأدلة النقلية من مصادر أهل السنّة علىٰ صحة إمامة الأئمّة الأثني عشر بما يكفي ويزيد في إقناع المنصف بذلك. يُضاف إليها الكثير من المختصرات وأهمّها كتب العلّامة شرف الدين وخاصّة كتابه القيّم «المراجعات».

(٢) كما يُستفاد من تراجمهم المذكورة في كتب التراجم لأهل السنّة. راجع كتاب «قادتنا كيف نعرفهم» للسيد محمّد هادي الميلاني.

المخاطبين بها ـ الّذين يمكن دعوتهم للإيمان بها وعرضها عليهم وفتح أبواب الحوار معهم بشأنها ـ واسعة تشمل:

١ـ جميع شيعة أهل البيت النبوي الّذين يؤمنون بحجّية القرآن الكريم وصحاح السنّة النبوية وتعاليم أهل بيت النبوّة والبرهان العقلي السليم.

٢ـ وجميع المسلمين ـ من مختلف الطوائف ـ الّذين يؤمنون بحجّية القرآن المجيد وما صح نقله من طرقهم من أحاديث سيد المرسلين صلوات الله عليه وآله، وما أقرّه العقل السليم وهم يكنّون إلىٰ جانب ذلك الاحترام والود للأئمّة عليهم السلام وأقوالهم ويذعنون لتبحرهم في علوم الإسلام وصدقهم في الرواية عن جدّهم سيد الرسل صلوات الله عليه وآله.

٣ـ وجميع أتباع الأديان السماوية الّذين يؤمنون بفكرة حتمية المنقذ العالمي الديني ويقرّون بما أقرّه العقل السليم حتّىٰ لو لم يؤمنوا بحجّية الأدلّة النقلية الإسلامية.

٤ـ كما تشمل كلّ مَنْ يؤمن بحجّية حكم العقل السليم.

الاستناد إلى المتّفق عليه من النقل والعقل:

إنّ ما نقوله بثقةٍ هو أنّ عقيدة الإمامية الاثني عشرية في المهديّ المنتظر سلام الله عليه جديرة بعرضها علىٰ كلّ هذه الفئات، لأنها تستند إلىٰ أدلّة نقلية صحيحة وبراهين عقلية متينة وقادرة علىٰ إقناع كلّ عاقل منصف بها، فهي لذلك تمتلك مقوّمات العقيدة ذات البُعد العالمي.

إنّها تقدّم مصداقاً واضح المعالم للمصلح الديني العالمي الّذي تتفق على الإيمان بحتمية ظهوره جميع الأديان السماوية[1]، بل وحتّى التيارات غير

---

(١) راجع مثلاً كتاب «بشارات العهدين» للشيخ الصادقي، وكتاب «ثلاثة ينتظرهم العالم» ←

السماوية كما أثبتت ذلك بعض الدراسات الحديثة الّتي عرضت لآراء الفِرق المختلفة ـ السماوية والأرضية ـ بهذا الشأن[١].

البُعد الإصلاحي الأصيل:

تشتمل عقيدة الإمامية في المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه علىٰ بُعد تغييري إصلاحي صريح وأصيل تشارك في أصل هذا البُعد عقائد الفِرق الأُخرىٰ لكنها تتميّز عنها بوضوحٍ كامل في الصورة الّتي ترسمها له. فهي تشاركها في أصل الاعتقاد بقيام هذا القائد المصلح بإنهاء الظلم والجور وإقامة القسط والعدل ،لكنها تتميّز عنها بعرض تفصيلات كثيرة بشأن طبيعة الحكم في عهده وشكل النظام القضائي وطبيعة الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وحدود الدولة الّتي يحكمها وصفات الولاة والقادة الإداريين والعسكريين الّذين يستعين بهم في إدارة شؤون المجتمع البشري، وغير ذلك من التفصيلات الّتي لا نجدها لدى العقائد الأُخرىٰ.

وواضحٌ أنّ الفرق كبيرٌ بين صورة عامّة مجملة تحيط الإبهامات بالكثير من تفصيلاتها وبين صورة متكاملة واضحة محدّدة المعالم والتفصيلات، فالثانية أقدر بالطبع علىٰ جذب الأنصار وتشجيعهم للتحرّك البنّاء في سبيل التمهيد لثورة هذا المصلح العالمي وإنجاز مهمّته التغييرية وإقامة الدولة العادلة المطلوبة.

← للأُستاذ عبداللطيف عاشور المصري، وكتاب «مفتاح باب الأبواب» للدكتور ميرزا محمّد مهدي خان الّذي نقل عقائد الأديان السماوية الستة بحتمية ظهور المصلح الديني العالمي.

(١) راجع مثلاً كتاب «الإمامة وقائم القيامة» للدكتور مصطفىٰ غالب، وكتاب «المهديّ الموعود ودفع الشبهات عنه» للسيّد عبدالرضا الشهرستاني، ومقدّمة «بحث حول المهديّ» للسيّد الشهيد محمّد باقر الصدر.

وضوح هوية المصلح العالمي:

كما تتميّز هذه العقيدة بأنّها تحدّد بوضوح هوية هذا المصلح الربّاني الكبير وتقول: إنّه موجود بالفعل وإنّه يتحرّك عملياً لإنجاز هذه المهمّة وإنهاء الظلم وإقامة العدل، في حين أنّ العقائد الأُخرىٰ تقول: إنّه سيولد فيما بعد دون أن يكون له في الوقت الحاضر أيّ دور عملي ـ لا مشهود ظاهر ولا خفيّ مستور ـ في التمهيد لانجاز هذه المهمّة الإصلاحية الكبرىٰ.

واستناداً إلىٰ هذه الخصوصية تشكّل هذه العقيدة محوراً توحيدياً مهمّاً لاستقطاب دعاة الإصلاح وتوحيد جهود ونشاطات الحركات الإصلاحية الإسلامية وغير الإسلامية الساعية لتحقيق هذين الهدفين أي ـ إنهاء الظلم والجور وإقامة القسط والعدل ـ بعنوانيهما العريضين. فما دامت هذه الحركات تسعىٰ لهما فمن الممكن دعوتها للالتفاف حول راية هذا المصلح الربّاني الكبير الموجود بالفعل، والّذي يسعىٰ عملياً لتحقيق هذين الهدفين ويحمل رسالتهما وينتظر توفّر العدد اللازم من الأنصار وأرضية الاستجابة لتفجير ثورته الإصلاحية الكبرىٰ. ومعلومٌ أنّ مثل هذه الدعوة وهذه الخصوصية التوحيدية لا يمكن تصوّرها في ظلّ العقائد الأُخرىٰ.

المنطلق التوحيدي:

وتتميّز هذه العقيدة ـ وكما أشرنا آنفاً ـ بأنّها تقدّم التفسير الوحيد المقبول حسب الأدلة الشرعية والمعقول حسب القوانين المنطقية والعقلية لطائفةٍ من الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الّتي يجمع المسلمون بمختلف مذاهبهم علىٰ صحّتها وينقلونها في مجاميعهم الروائية المعتمدة عندهم من الأُصول الستة المعتبرة عند أهل السنّة وغيرها.

والحصول علىٰ تفسير مقبول ومعقول لهذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة أمرٌ مهمّ وضروري حتّىٰ لو كانت تتحدّث عن قضايا ذات أهمّية ثانوية بالنسبة للفرد والمجتمع المسلم، لأنّها في كلّ الأحوال لا تتحدّث إلّا عمّا ينفعه ويعينه علىٰ طيّ مسيرته التكاملية كما أسلفنا، فكيف يكون الحال وهي تتحدّث عن قضيةٍ مصيريةٍ بالنسبة للوجود الإسلامي ترتبط بإقامة دولته الإلهيّة العادلة وإظهار دينه على الدين كلّه وتحقّق وعدٍ إلهيّ جميل بتوريثه الأرض، لإقامة أسمىٰ صوَر توحيد الله وعبادته، وزوال الخوف من المنافقين والكافرين، وشيوع الأمن في جميع أرجاء المعمورة، وإنزال الحقّ تبارك وتعالىٰ للنِعم الجليلة الخاصّة علىٰ عباده؟

وكيف يكون الحال وهي تتحدّث ـ وخاصّة الأحاديث الشريفة ـ عن قضايا مصيرية بالنسبة للفرد والمجتمع الإسلامي، مثل الهداية إلىٰ سُبل النجاة من الضلالة وقيام الدين وظهور معالمه والخلاص من ميتة الجاهلية؟

لا ريب بأنّ تناول الآيات والأحاديث المقصودة لهذه الأُمور يضاعف من أهمّية وضرورة الوصول إلىٰ تفسير معقول ومقبول لها، وهذا ما تتميّز عقيدة الإمامية الاثني عشرية في المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه الشريف بتقديمه للمسلمين جميعاً بلغةٍ واضحةٍ وصريحة.

واستناداً إلىٰ هذه الخصوصية فإنّ عقيدة الإمامية هذه تمتلك القدرة علىٰ أن تكون منطلقاً توحيدياً يقوم علىٰ أُسس يتفقون على الايمان بأدلّتها، يدعوهم للالتفاف حول راية إمام من العترة الطاهرة، ومن أهل بيت النبوّة الّذين يجمع المسلمون علىٰ احترامهم وحبّهم ومودّتهم والإذعان بنزاهتهم، فهذا الإمام ـ حسب عقيدة الإمامية وتفسيرها الدقيق لتلك النصوص الشرعية ـ موجود بالفعل يمارس مهامّ الإمامة من خلف أستار الغَيبة، لا أنّه سيوجد لاحقاً.

وبعبارةٍ أُخرىٰ: إنّ هذا المحور التوحيدي موجود فعلاً، لذا يمكن الالتفاف حول رايته الآن، ولا مبرّر لتأخير تجسيد الوحدة عملياً إلىٰ حين ظهوره، أي أنّ البُعد الوحدوي في عقيدة الإمامية في الإمام المهديّ سلام الله عليه موجود بالفعل وليس بالقوّة، كما هو الحال في العقائد الأُخرىٰ.

الصورة الكاملة للإنتظار الإيجابي:

كما تتميّز هذه العقيدة ببُعدٍ إيجابيّ واضح ودقيق في تحديد مفهوم الانتظار والترقب لظهور الإمام المهديّ عجّل الله فرجه وتفجّر ثورته الإصلاحية الكبرىٰ.

هذه العقيدة تشتمل علىٰ بلورةٍ دقيقة لمفهوم الانتظار الإيجابي البنّاء كأحد واجبات المسلمين في عصر غَيبة الإمام أو لنقُل قبل ظهوره، فتقيم هذا المفهوم علىٰ أساس تكليف المسلم بالتمهيد لظهوره وتحدّد للمؤمنين واجبات محدّدة على الصعيد الفردي والبناء الذاتي وعلى الصعيد الاجتماعي وبناء المجتمع الصالح والأُمّة الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر والجديرة بذلك بنصرة الإمام المهديّ في ثورته الإصلاحية الكبرىٰ. وبذلك تُحصّن هذه العقيدة المسلم من آفة الإنتظار السلبي والتقاعس عن الإصلاح، وهي الآفة الّتي تؤخّر الظهور المقدّس.

هذه الخصوصية تجعل عقيدة أتباع أهل بيت النبوّة صلوات الله عليهم منطلقاً وقاعدةً رصينة لتوحيد جهود الحركات الإصلاحية الإسلامية المؤمنة بالمهديّ المنتظر، تجعل لإيمانها به أثراً عملياً في التمهيد له، فهي تقدّم منهجاً متكاملاً للتحرّك الإصلاحي البنّاء اللازم للتمهيد لظهوره عجّل الله فرجه، وهو ما تفتقده العقائد الأُخرىٰ.

وهذه الدعوة يمكن أن توجّه للمؤمنين بأنه موجود فعلاً يرعىٰ مسيرة التحرّك الإسلامي، وكذلك للّذين لا يؤمنون بذلك والقائلين بأنّه سيولد فيما بعد، وإن كان الإيمان بوجوده ﷺ فعلاً أقوىٰ تأثيراً في دفع المسلم إلى التحرّك الإيجابي البنّاء للتمهيد لظهوره ﷺ، كما سنلاحظ في الخصوصية اللاحقة.

التّحريك للإصلاح الفردي والاجتماعي:

تتميز عقيدة أتباع أهل البيت في المهديّ المنتظر بأنّها تزوّد المؤمن بها بعاملٍ قويّ في دفعه لتجسيد مفهوم الانتظار الإيجابي لظهوره عجّل الله فرجه والتحرّك الإصلاحي الإيجابي ـ فردياً واجتماعياً ـ والسعي لاستعادة المجد الإسلامي ومواجهة الانحرافات الحاصلة في حياة المسلمين وتصحيح مسيرتهم، وهذا العامل هو الإيمان بوجود الإمام المعصوم الّذي تعرض عليه أعمال المسلمين فيؤذيه وقوعهم في المعاصي والانحرافات ويسرّه إقبالهم على الأعمال الصالحة، والّذي يرعىٰ حركة المسلم ويراقب مسيرته ويدعم ويسدّد تحرّكه باتجاه تحقيق الأهداف الإسلامية الإصلاحية الّتي يتبنّاه القائد المنتظر.

ومفهومٌ أنّ هذا العامل التربوي المهمّ تفتقده العقائد الأُخرىٰ القائلة بأنّ المهديّ المنتظر سيُولد فيما بعد، فلا دور له في قيادة الأُمّة الإسلامية ـ ولو بصورة خفية غير مباشرة ـ للتمهيد لظهوره قبل وقوعه.

يُضاف إلىٰ ذلك أنّ عقيدة الإمامية تتضمّن تحديد واجبات وتكاليف شرعية للمؤمنين تجاه إمامهم الغائب سلام الله عليه، والعمل بهذه الواجبات ينصبّ في صالح إزالة الأسباب الموجبة لغيبته وبالتالي التمهيد لظهوره.

ولعلّ فقدان العقائد الأُخرىٰ لهذه الخصوصية هو الّذي أدّىٰ إلىٰ غفلة أتباعها

عن التحرّك الإيجابي البنّاء للتمهيد لثورة الإمام المهديّ الإصلاحية. يُضاف إلىٰ ذلك فقدان هذه العقائد لبلورة واضحة لمسؤوليات وواجبات المسلمين تجاه إمام زمانهم والتمهيد لظهوره، وفي ذلك تجاهل لأحد الأركان الأساسية لمعرفته المنقذة من الميتة الجاهلية، في حين أنّ عقيدة الإمامية تقوم علىٰ أساس الإيمان بوجود هذا الإمام المعصوم وقيامه بمهامّ الإمامة من خلف أستار الغَيبة والانتفاع به مثلما يُنتفع بالشمس إذا غيّبتهما عن الأبصار السحاب ـ كما ورد في الأحاديث الشريفة ـ وتحدّد واجبات تجاهه ﷺ، ولذلك فإنّها توفّر للمؤمن شعوراً عميقاً برعاية عمله وتحرّكه من قِبل الإمام المعصوم سلام الله عليه، وكلّ ذلك ينصبّ في صالح التحرّك لتحقيق الأهداف المقدّسة الّتي يتحرّك لتحقيقها المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه.

حفظ الارتباط الفاعل بالسماء:

كما تتميّز عقيدة أهل البيت سلام الله عليهم بخصوصية مهمّة أُخرىٰ هي أنها تحفظ للمسلم الارتباط بالسماء عن طريق الإمام المعصوم وهو حبل الله المتين.

ولهذه الخصوصية تأثيرٌ بالغٌ في حفظ مسيرته من الانحراف وظهور أبواب نمط من الاجتهاد الديني في الاستنباط من النصوص الشرعية يتميّز بكونه مدعوماً بتسديد الإمام المعصوم، كما دلّت علىٰ ذلك عدّة من الروايات المصرّحة بحالات من هذا الدعم والتسديد الّتي تجعل حركة الاجتهاد الديني قادرة على الاستجابة لمتطلّبات الزمان والمكان.

وقد تنبّه لهذه الخصوصية عددٌ من الّذين درسوا عقائد مذهب أهل البيت عليهم السلام وقارنوها بعقائد الفِرق والطوائف الإسلامية الأُخرىٰ، وهي

خصوصية واضحة التفت إليها حتى بعض الباحثين من غير المسلمين، فمثلاً يقول الباحث الفرنسي الدكتور هنري كوربن استاذ الفلسفة في جامعة السوربون الفرنسية وأحد المتخصّصين في دراسة الأديان الإلهيّة:

«أعتقد أن المذهب الشيعي هو المذهب الوحيد الّذي حفظ الوجود المستمرّ لعلاقة الهداية الإلهيّة بين الله وخلقه، فجعل رابطة الولاية حيّة فاعلة بشكل مستمرّ.

فالمذهب اليهودي ختم النبوّة ـ وهي رابطة حقيقية بين الله والإنسان ـ بموسى ولم يذعن بعد ذلك لنبوّة السيّد المسيح والرسول محمّد، وبذلك قطع هذه الرابطة. والأمر نفسه يصدق على المسيحيين الّذين ختموا النبوّة بالمسيح، وهكذا حال أهل السنّة من المسلمين فقد قطعوا هذه الرابطة بعد وفاة نبيّ الإسلام ومع ختم النبوّة به فهم لا يحفظون رابطة بين الخالق والمخلوق.

ولكن المذهب الشيعي وحده هو الّذي يعتقد بختم النبوّة بالرسول محمّد من جهة وباستمرار الولاية ـ وهي رابطة الهداية والتكميل الإلهيّ ـ فيعتقدون باستمرارها حية إلى يوم القيامة....»[١].

محور للحوار وتمييز الأقوال:

هذه الخصوصيات وغيرها من الخصوصيات المميّزة لعقيدة أهل البيت النبوي في المهديّ المنتظر أرواحنا فداه ستتضح أكثر في طيّات بحوث هذه الموسوعة مدعمة بالأدلّة النقلية والبراهين العقلية المبيّنة لها.

ونحن نقدّم هذه البحوث محوراً للحوار البنّاء بشأن هذه القضية الإسلامية

---

(١) الكتاب السنوي «مدرسة التشيّع» السنة الثانية: ٢٠ ـ ٢١ (بالفارسية).

المهمّة، ومنطلقاً لمناقشة وتمحيص الأقوال الواردة بشأنها واختيار القول الأحسن علىٰ ضوء المعايير الشرعية والعقلية السليمة والالتزام به والعمل بمقتضياته.

وما نأمله من القارئ الكريم أن يتدبّر في هذه البحوث وأدلّتها بعين الإنصاف بعيداً عن القناعات المسبقة ـ سواءً كانت مذهبية أو غير مذهبية ـ فإنّها حجب تصدّه عن الوصول إلى الحقيقة، فعليه أن ينظر إلى الأدلّة والبراهين ويمحّص صحّتها بغضّ النظر عن القائل بها، ثمّ يختار القول الأحسن الّذي تدلّ عليه محكمات الآيات الكريمة وصحاح السنّة الشريفة المتّفق عليها، وتعضده البراهين العقلية المنطقية المتينة، فيتبنّاه ويلتزم به وبالعمل بمقتضياته.

محتويات الموسوعة: الرؤية القرآنية للقضية المهدوية:

الانطلاقة تكون من القرآن الكريم وهو الذكر الحكيم الّذي يجمع المسلمون بمختلف مذاهبهم على الإيمان به وبمرجعيّته لكلّ عداه، فهو المحفوظ بالقدرة الإلهيّة من كلّ تحريف وتزوير والمخلّد نبراساً لهداية المهتدين ومعياراً إلهياً تعرض عليه كلّ النصوص الشريفة فضلاً عن غيرها، فنأخذ ما وافقه ونترك ما خالفه كما أمر بذلك أئمة الهدىٰ صلوات الله عليهم.

فالكتاب الأوّل من هذه الموسوعة خاصّ بعرض الرؤية القرآنية للقضية المهدوية نتناول في الباب الأوّل منه وضمن فصلين عرض الآيات الكريمة المبيّنة لحتمية وجود الإمام المهديّ والمحدّدة لصفاته وعلاماته الفارقة عليه السلام والّتي يُستفاد منها وقوع غَيبته أيضاً بحكم عدم وجود إمامٍ ظاهر تتوفّر فيه هذه الصفات والعلامات. كما نتناول في هذا الباب الآيات الّتي تبيّن دور المهديّ الموعود عجّل الله فرجه التأريخي في الحياة الإسلامية وما يحقّقه الله علىٰ يديه

من وعودٍ جميلة ترتبط بالغاية الأصلية من خلق الإنسان.

أمّا الباب الثاني فهو مخصّص للآيات المؤوّلة أو المطبقة على القضية المهدوية كأحد أو أبرز مصاديقها، والاستناد في ذلك هو على الأحاديث الشريفة الواردة في تطبيق هذه الآيات على القضية المهدوية. وسنشير لاحقاً إلىٰ تفصيلات أُخرىٰ بشأن هذا الموضوع ضمن الحديث عن منهج العمل في هذا الكتاب.

القضية المهدوية في المتّفق عليه من السنّة:

في الكتاب الثاني تُعرض الصورة الّتي ترسمها الأحاديث الشريفة المتّفق علىٰ صحّتها بين جميع طوائف المسلمين للقضية المهدوية، مستندين في ذلك إلى المرويّ منها في الكتب الستة المعتبرة عند أهل السنّة، وخاصّة كتابي: البخاري ومسلم، فنتناول أوّلاً الأحاديث الشريفة المبيّنة لدلالات الآيات الكريمة الدالّة علىٰ وجود المهديّ الموعود فعلاً وغَيبته والمصرّحة بذلك والمفصّلة لما أجمله القرآن الكريم في هذا الباب.

ثمّ نتناول سائر الأحاديث الشريفة المصرّحة بهويته ﷺ ودوره التأريخي وخصائص دولته وعلائم ظهوره والحوادث السابقة لظهوره وغير ذلك من تفصيلات قضيته، ثمّ نلخّص دلالاتها للتعرّف على العقيدة السليمة الّتي تفترها والّتي تنسجم مع دلالاتها والصورة الّتي ترسمها الأحاديث المتّفق عليها لهذه القضية.

وعليه، فهذا الكتاب يحدّد الصورة العامّة للعقيدة المهدوية طبق ما ورد في الأحاديث المتّفق عليها، فهي تصلح أن تُسمىٰ: الصورة المتّفق عليها بين مختلف الفِرق الإسلامية، وبالتالي يمكن أن تكون معياراً في محاكمة الأقوال

المختلفة الواردة بشأن هذه العقيدة وتمييز الصحيح منها بمعرفة انسجامه مع دلالات هذه الصورة العامّة.

ولادة المهديّ المنتظر:

ونخصّص الكتاب الثالث من هذه الموسوعة لموضوع ولادة الإمام المهديّ عليه السلام وأدلّة إثبات وقوعها المعتبرة والأحاديث الّتي أخبرت بها قبل وقوعها بزمنٍ طويل وفيها تحديد صريح لهويته، كما نتناول فيه عرض الأوضاع السياسية الّتي زامنت ولادته عليه السلام وأسباب إخفائها، وعدم تأثير هذا الإخفاء علىٰ ثبوتها وطرق الإخبار عنها ووسائل حفظ الوليد المبارك، ونستعرض كذلك أقوال المؤرّخين بشأنها والقائلين بوقوع الولادة من علماء المذاهب الأُخرىٰ والمصرّحين بأنّ هذا الوليد هو المهديّ الّذي بشّر به خاتم المرسلين صلى الله عليه وآله. ونتطرّق فيه لقضية ثبوت بقائِهِ عليه السلام حيّاً بعد ثبوت أصل الولادة.

غَيبة الإمام:

أمّا الكتاب الرابع منها فهو مخصّص لموضوع غَيبته عليه السلام وإثباتها وتوضيح عللها وحكمتها وارتباطها بالسنن الإلهيّة الجارية في خلقه تبارك وتعالىٰ، وأوجه الانتفاع بوجوده المقدّس في غَيبته وقيامه بمهامّ الإمامة ومسؤولياتها خلال عصر الغَيبة، وتوضيح تفصيلات ما أجملته الآيات الكريمة بهذا الشأن، وواجبات وتكاليف المؤمنين في عصر الغَيبة، وقضية الانتظار ومفهومه وشروطه والتمهيد لظهوره، وخصوصيات عصر الغَيبة السياسية والاجتماعية، وصفات أنصاره عليه السلام في غَيبته، وغير ذلك من الموضوعات المرتبطة بها، مثل التوقيعات الصادرة عنه في فترة الغَيبة.

رؤية الإمام:

الكتاب الخامس من هذه الموسوعة مخصّص لقضية رؤية الإمام عليه السلام عند ولادته وبعدها وفي فترة الغَيبة حسب الترتيب الزمني واستناداً للروايات المنقولة في الكتب المعتبرة، وفيه بحث بشأن موضوع رؤية الإمام في فترة الغَيبة الكبرىٰ وإمكانيتها وأقوال العلماء في ذلك، والأعمال العبادية الواردة في طلب رؤيته.

منهج العمل في الموسوعة

الانطلاق من النصوص الشرعية:

الإطار العامّ لمنهجنا في العمل في هذه الموسوعة عموماً هو إطار المنهج الروائي، فالأصل هو نقل النصوص الشرعية الواردة في هذه القضية وتبويبها حسب محاور العمل، ملتزمين بالنسبة للأحاديث والروايات بالنقل من المصادر المعتبرة وتحرّي النقل من المصادر الأُولىٰ لها قدر الإمكان، وقد أعاننا علىٰ ذلك كتاب وبرنامج «معجم أحاديث الإمام المهديّ عليه السلام»، كما التزمنا بنقل السند الكامل للروايات من المصادر الّتي ثبتت نسبتها لمؤلّفيها المتفق علىٰ توثيقهم.

وإلىٰ جانب نقل هذه النصوص سعينا إلىٰ وضع عناوين كاشفة عن مضامينها وأعقبناها بملخّص للدلالات المستفادة منها فيما يرتبط بموضوع كلّ باب.

أمّا الآيات الكريمة فقد اعتمدنا في تفسيرها بالدرجة الأُولىٰ علىٰ تفسير «الميزان» للعلّامة السيّد محمّد حسين الطباطبائي رحمه الله، لشدّة التزامه بالعمل بمنهج تفسير القرآن بالقرآن، بمعنى استكشاف ما تهدي إليه الآيات الكريمة

نفسها في فهم كلّ آية بعيداً عن القناعات والآراء المسبقة الصادرة عن التعرّف على المعنى الحقيقي للآيات.

وواضح أنّ هذا المنهج هو الأقرب في الحصول على الرؤية القرآنية الخالصة والأقدر علىٰ إقناع الجميع، كما أنّ تفسير الميزان غنيٌّ عن التعريف بعد المكانة العلمية السامية الّتي حصل عليها في المحافل العلمية كأجمع وأشمل كتاب تفسيري تحقيقي كامل لكل القرآن الكريم. يُضاف إلىٰ ذلك منهجه الاستدلالي القويم في مناقشة مختلف الآراء التفسيرية وتوضيح نقاط القوّة والضعف فيها واختيار المنسجم منها مع دلالات الآيات الكريمة نفسها. وكذلك اشتماله على الأبحاث الروائية المهمّة المبيّنة للأحاديث الشريفة الواردة في تفسير الآيات، وتوضيح ما تكشفه من أسرار وتمييز الوارد منها في تفسير مفاهيم الآيات عن الوارد في تطبيقها عن بعض مصاديقها.

لذلك فقد عمدنا ـ في معظم الموارد في الكتاب الأوّل ـ إلىٰ نقل تفسيره للآيات مورد البحث بصورةٍ كاملة أو ملخّصة أحياناً، ثمّ تلخيص الدلالات وتسجيل المستفاد منها فيما يرتبط بموضوع البحث كبلورة للصورة الّتي تحدّدها مع التأكيد علىٰ ضرورة التدبّر في التفسير نفسه وعدم الاكتفاء بالملخّص الّذي نعرضه للدلالات المستفادة منه، لأنّ هذه الدلالات تستند أساساً إلىٰ فهم الآيات نفسها.

وقد اجتنبنا ـ باستثناء بعض الموارد القليلة ـ في معظم البحث في الباب الأوّل من هذا الكتاب نقل الأحاديث الشريفة المروية بشأنها والمؤيدة لتفسيرها، لكي يكون البحث قرآنياً بالكامل يُستند إليه في الحصول على الرؤية القرآنية دون التأثر بشيءٍ آخر من مصادر المعرفة.

أمّا بالنسبة للآيات الكريمة المؤوّلة أو المطبقة على القضية المهدوية فقد

استندنا بالدرجة الأُولىٰ على الأحاديث الشريفة الواردة في تطبيقها، ولكن عمدنا إلىٰ نقل تفسير ظاهرها وأوضحنا وجه تطبيقها على القضية المهدوية وانسجام هذا التطبيق عليها كأحد مصاديق مفهومها مع دلالات الآيات نفسها، ثمّ تسجيل الدلالات المستفادة من التدبّر في الآيات نفسها ومن التأمّل في مضامين الأحاديث المطبقة لها.

ثمّ صنّفنا هذه الآيات الكريمة ضمن أبواب معنونة ترتبط بمختلف أبعاد العقيدة المهدوية فوجدنا أنها تفصل في الواقع الجملات الّتي حدّدتها بصورة مباشرة آيات الطائفة الأُولىٰ المبيّنة لأبعاد هذه القضية علىٰ نحو التنزيل والتفسير المباشر وليس علىٰ نحو التأويل أو عرض القضية المهدوية كأحد أو أبرز مصاديقها. فوجدنا الرؤية القرآنية لهذه القضية شاملة لجميع أبعاد هذه القضية ـ كما هو واضحٌ من مراجعة عناوين فصول الكتاب وبحوثها المفصّلة ـ ومنسجمة بالكامل مع تفصيلات عقيدة مذهب أهل البيت عليهم السلام في المهديّ المنتظر أرواحنا فداه.

والتزمنا بوضع خاتمة لكلّ كتاب من كتب الموسوعة تشتمل علىٰ تلخيص النتائج والدلالات المتحصّلة من بحوثه المختلفة يرسم الصورة النهائية الّتي تحدّدها النصوص الشريفة والدلالات المستفادة منها، وذلك إعانة على امتلاك الصورة الكاملة وتذكيراً بها وتسهيلاً لحفظها.

كما عمدنا في طيّات الأبواب المختلفة إلىٰ نقل تحقيقات العلماء الأعلام بشأن دلالات النصوص الشرعية في عدّة موارد حفظاً لجهودهم ورجوعاً لاستنباطات المتخصّصين لضمان الوصول إلى الدلالات السليمة.

وما نقدّمه بين يدي القارئ الكريم هو الكتاب الأوّل من هذه الموسوعة الّذي سعينا فيه لعرض الرؤية القرآنية ضمن بابين:

الأوّل في التنزيل القرآني بمعنىٰ تناول الآيات الكريمة الّتي تدلّ مباشرةً علىٰ أُصول العقيدة المهدوية، فهي توضّح عدداً من الحقائق القرآنية الّتي يمكن الاستناد إليها في إثبات وجود الإمام المهديّ فعلاً وغيبته وقيامه بمهامّ الإمامة في غَيبته، وكذلك في توضيح دوره التأريخي وما يحققه الله علىٰ يديه كما أشرنا لذلك آنفاً.

في حين نخصّص الباب الثاني لعرض جملة من الآيات الكريمة المؤوّلة أو المطبقة علىٰ هذه القضية. سائلين الله تبارك وتعالىٰ أن يتقبّل منّا هذا القليل مساهمةً في نشر معرفة حجّته علىٰ خلقه بين عباده، ويعيننا علىٰ إكمال الكتب الأُخرىٰ من هذه الموسوعة، راجين من القرّاء الكرام المساهمة في إبداء الملاحظات المسدّدة في تحقيق هذا الهدف المهمّ. والله من وراء القصد.

غرّة محرّم الحرام ١٤١٨ للهجرة المباركة

عرفان محمود

الباب الأول

القضية المهدوية

في التنزيل القرآني

مدخـل:

نتناول في هذا الباب ـ وضمن فصلين ـ الآيـات الكـريمة الّتي تـدلّ دلالةً مباشرةً علىٰ أُصول الرؤية القرآنية للعقيدة الإسلامية في المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه، وغَيبته، وطبيعة دوره في الحياة والمسيرة الإسـلامية، وخـصـائص دولته العالمية، وما يحقّقه الله علىٰ يديه بعد ظهوره.

فالحديث في هذا الباب سيكون في دائرة «التنزيل القرآني» وليس التأويل أو التطبيق، أي سيكون قرآنيـاً بـالكامل لا يتطرّق إلىٰ تـطبيق الآيـات عـلى القضية المهدوية كأحد مصاديقها، بل يحدّد دلالة الآيات المـباشرة المـرتبطة بالعقيدة المهدوية، ثمّ نـتعرّف عـلى القـول الأحسـن فـي تـفسيرها وتـحديد مصداقها المنسجم مع دلالاتها الظاهرة.

ونـقدّم لهـذا البـاب بـالإشارة إلىٰ قـضية مـهمّة فـيما يـرتبط بـالموضوع والدلالات المستفادة من الآيات الكريمة وهي أنّ مـن المـعلوم أن مـن سـنّة القرآن الكريم تناول القضايا المهمّة في تربية الإنسان وهدايته إلى الله تـبارك وتعالىٰ، بصورةٍ مجملةٍ والاكتفاء بتحديد أُطرها العامّة واُمّهات اُصولها وترك تبيانها وتحديد تفصيلاتها للرسول الأكرم ﷺ كما صرّح بذلك القرآن الكريم في عدّة آيات محكمات، وفي ذلك حكـمة إلهـية تستهدف إشعار الإنسـان بالحاجة إلى الرجوع لهداية وقيادة المعصوم الهادي بأمر الله سواءٌ كـان نـبيّاً أو وصياً كما هو ثابت في محلّه.

هذه السنّة جارية أيضاً بخصوص القضية المهدوية، فقد عرض القرآن المجيد أُطرها العامّة، فلا يمكن القبول بالادّعاء القائل بأنّ عدم تصريحه بذكر الإمام المهديّ أو اسمه سلام الله عليه، أو عدم تطرّقه لمعظم تفصيلات ثورته الإصلاحية يقلّل من أهمّية هذه القضية، فمثل هذا القول يقلّل في الواقع من أهمّية معظم القضايا العقائدية والتشريعية المهمّة في الإسلام، إذ لم يذكر القرآن أكثر تفصيلاتها كما هو معروف.

ونتناول في الفصل الأوّل من هذا الباب الآيات الكريمة الدالّة مباشرةً علىٰ وجود الإمام المهديّ بالفعل، وقيامه بمهامّ الإمامة في غَيبته علىٰ نحو الإجمال. فيما نبحث في الفصل الثاني منه عن الآيات المتحدّثة عن دوره التأريخي في تصحيح المسيرة الإسلامية، وخصائص دولته، وما يحقّقه الله علىٰ يديه.

الفَصْلُ الأوَّلُ

دلالات الآيات
علىٰ وجود الإمام وغَيبته

مدخـل:

توجد في القرآن الكريم مجموعة من الآيـات الكـريمة تـناولت مـوضوع «الإمامة» وبيّنت وجه الحاجة إليها، والفرق بينها وبين النبوّة، وأكدت الحاجة إلىٰ وجود إمام في كلّ زمان يكون حجّةً لله علىٰ خلقه، وحدّدت صفات هـذا الإمام، وما ينبغي أن يكون عليه ودوره في حياة الناس، كما نبّهت إلى استمرار سلسلة الإمامة بعد ختم سلسلة النبوّة بخاتم الأنبياء محمّد ﷺ.

وهذه الآيات تنصّ صراحةً أو بلغةٍ غير مباشرة علىٰ تـعلّق الإرادة الإلهـيّة بجعل حجّة لله تبارك وتعالىٰ علىٰ خلقه في كلّ زمان، فهي بالتالي تحدّد هـوية الجهة الّتي تنصب الإمام.

كما أنّها تحدّد مسؤولياته في هداية أهل عصره إلى الصراط المستقيم بأمر الله وقيادة مسيرتهم التكاملية، وتميّزه عن غيره من الدعاة إلى الحقّ.

كما أنها تبيّن أوجه التسديد الإلهيّ لإمام كلّ عصر للقيام بمهمّته الأصلية، مهماكانت طبيعة الأوضاع القائمة ومهماكانت طبيعة مواقف الناس منه، لأنّ الأمر يتعلّق باللطف الإلهيّ في توفير أسباب الهداية للعباد. لذا فهو يقوم بمهامّ الإمامة سواءً كان ظاهراً مشهوراً أقبل الناس عليه وأطاعوه، أو غائباً مستوراً أعرضوا عنه وخذلوه، فهو قائم في الحالين بمهامّ الإمامة بالمقدار الممكن لتعلّق الإرادة الإلهيّة واللطف الربّاني بذلك.

فهذه الآيات تثبت في الواقع وجود الإمام المهديّ من الله الهادي بأمره في كلّ زمان، ويمكن الاستناد إلىٰ دلالاتها في إثبات وجود الإمام المهديّ الموعود وغَيبته وقيامه بمهامّ الإمامة في غَيبته من باب عدم صدق الدلالات والصفات الّتي تصرّح بها الآيات الكريمة علىٰ غيره كما سنرىٰ ذلك مفصّلاً.

وقد تناول العلماء الأعلام هذه الآيات في بحوثهم وكتبهم الّتي صنّفوها في مباحث النبوّة والإمامة وبيّنوا دلالاتها الصريحة على المراد بصورةٍ شافيةٍ وكافية، ونحن هنا نذكر الآيات ذات الارتباط المباشر بقضية وجود الإمام المهديّ عليه السلام وغَيبته، ونُرجع القارئ الكريم إلى الكتب المصنّفة في هذا الباب[1] للحصول على التفاصيل المطلوبة بشأن موضوع الإمامة.

---

(١) يشمل هذا الباب البحث في دلالة الآيات الكريمة المتحدّثة عن فضائل الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام وبعض شؤونهم علىٰ إمامتهم وعصمتهم ووجوب طاعتهم وغير ذلك من مباحث الإمامة، وعادةً ما تقرن دلالة هذه الآيات بما صحّ لدىٰ جميع المسلمين من الأحاديث الشريفة المروية عن خاتم الأنبياء. ومن المصادر المهمّة في هذا الباب ما ألّفه الشيخ المفيد والسيّد المرتضىٰ والشيخ الطوسي رحمهم الله من المتقدّمين، أمثال كتاب العيون والمحاسن والشافي في الإمامة وتلخيص الشافي وغيرها كثير. وواضحٌ أنّ إثبات إمامة العترة النبوية يشمل إثبات إمامة المهديّ المنتظر ويحدّد هويته.

أوّلاً: دعوة أهل كلّ عصر بإمامهم:

قوله تعالىٰ:

﴿يَومَ نَدعُو كُلَّ أُناسٍ بإمامِهِم فَمَن أُوتيَ كِتابَهُ بِيَمينِهِ فَأُولئِكَ يَقرأُونَ كِتابَهُم ولا يُظلَمُونَ فَتيلاً * وَمَن كانَ في هذِهِ أعمَىٰ فَهُوَ في الآخِرَةِ أعمَىٰ وَأضَلُّ سَبيلاً﴾ [(١)]

تتحدّث الآية الكريمة الأُولىٰ عن أنّ كلّ قومٍ ـ علىٰ نحو الإطلاق في كلّ زمانٍ ومكانٍ ومن أيّة ملّةٍ كانوا ـ سيُدعون يوم القيامة بنسبتهم إلىٰ إمام زمانهم الّذي اقتدوا به دونما تحديد إن كان إمام هدىً أو إمام ضلال.

فيما تكشف الآية الثانية عن أنّ الاحتجاج الإلهيّ علىٰ كلّ قومٍ وأُناس والّذي تتضمّنه هذه الدعوة لهم يوم الحساب يقوم علىٰ أساس إتمام الحجّة عليهم في الدنيا في توفير إمام حقّ يُهتدىٰ به لكلّ قوم ـ في كلّ زمان ـ فيكون الاهتداء إليه واتّباعه في الدنيا وسيلة الاهتداء إلى الحياة الكريمة والنجاة في الدارين، والعكس صحيح أيضاً.

تفسير الآية:

ولمعرفة هوية هذا الإمام ودلالة هذا المقطع القرآني نعمد أوّلاً إلىٰ نقل تفسيره من تفسير الميزان للعلّامة الطباطبائي طبقاً لمنهج تفسير القرآن بالقرآن، ثمّ نبيّن مدلولاته فيما يرتبط بموضوع البحث، يقول ﷺ في تفسير هذا المقطع القرآني:

قوله تعالى: ﴿يوم ندعو كلّ أُناسٍ بإمامهم﴾ اليوم يوم القيامة والظرف متعلّق

---

(١) الاسراء: ٧١ ـ ٧٢.

بمقدّر أي اذكر يوم كذا، والإمام المقتدىٰ وقد سمّى الله سبحانه بهذا الاسم أفراداً من البشر يهدون الناس بأمر الله كما في قوله: ﴿ قال إني جاعلك للناس إماماً ﴾ (١) وقوله: ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ﴾ (٢) وأفراداً آخرين يُقتدىٰ بهم في الضلال كما في قوله: ﴿ فَقَاتِلوا أئمّةَ الكُفر ﴾ (٣).

وسمّى به أيضاً التوراة كما في قوله: ﴿ وَمِن قَبلِهِ كِتابُ موسىٰ إماماً وَرَحمَةً ﴾ (٤)، وربما استفيد منه أنّ الكتب السماوية المشتملة على الشريعة ككتاب نوح وإبراهيم وعيسىٰ ومحمّد عليهم السلام جميعاً أئمة.

وسمّى به أيضاً اللوح المحفوظ كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿ وَكلَّ شَيءٍ أَحصيناهُ في إمامٍ مُبين ﴾ (٥).

ولمّا كان ظاهر الآية أنّ لكلّ طائفة من الناس إماماً غير ما لغيرها فإنّه المستفاد من إضافة الإمام إلى الضمير الراجع إلى كلّ أُناس لم يصلح أن يكون المراد بالإمام في الآية اللوح لكونه واحداً لا اختصاص له بأُناس دون أُناس.

وأيضاً ظاهر الآية أنّ هذه الدعوة تعمّ الناس جميعاً من الأوّلين والآخرين وقد تقدّم في تفسير قوله تعالى: ﴿ كَانَ النَاسُ أُمةً واحِدَةً فَبعثَ اللهُ النبيّين مُبشِّرينَ وَمُنذِرينَ وَأنزلَ مَعَهمُ الكِتاب ﴾ (٦) أنّ أوّل الكتب السماوية المشتملة على الشريعة هو كتاب نوح عليه السلام ولا كتاب قبله في هذا الشأن، وبذلك يظهر عدم

---

(١) البقرة: ١٢٤.

(٢) الأنبياء: ٧٣.

(٣) التوبة: ١٢.

(٤) هود: ١٧.

(٥) يس: ١٢.

(٦) البقرة: ٢١٣.

صلاحية كون الإمام في الآية مراداً به الكتاب وإلّا خرج من قبل نوح من شمول الدعوة في الآية.

الإمام في الآية مَن يقتدىٰ به من البشر(١):

فالمتعيّن أن يكون المراد بإمام كلّ أُناس من يأتمّون به في سبيلي الحقّ والباطل كما تقدّم أنّ القرآن يسميهما إمامين أو إمام الحقّ خاصّة وهو الّذي يجتبيه الله سبحانه في كلّ زمان لهداية أهله بأمره نبيّاً كان كإبراهيم ومحمّد عليهما الصلاة والسلام أو غير نبي، وقد تقدّم تفصيل الكلام فيه في تفسير قوله: ﴿ *وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمهُنّ قالَ إنّي جاعِلُك للناسِ إماماً قالَ وَمِن ذُرّيتي قَالَ لَا يَنالُ عَهدِي الظَّالِمين* ﴾(٢).

لكن المستفاد من مثل قوله في فرعون وهو من أئمة الضلال: ﴿ *يَقدمُ قَومَهُ يَومَ القِيامةِ فأورَدَهُمُ النار* ﴾(٣)، وقوله: ﴿ *لِيَميزَ اللهُ الخَبِيثَ مِنَ الطـيّبِ وَيـجعَلَ الخَبيثَ بعضَهُ عَلَى بَعضٍ فَيركُمَه جَمِيعاً فَيجعَلَهُ فِـي جَـهَنم* ﴾(٤) وغيرهما من الآيات وهي كثيرة أنّ أهل الضلال لا يفارقون أولياءهم المتبوعين يوم القيامة، ولازم ذلك أن يصاحبوهم في الدعوة والإحضار.

على أنّ قوله: ﴿ *بإمامهم* ﴾ مطلق لم يقيّد بالإمام الحقّ الّذي جعله الله إماماً هادياً بأمره، وقد سمّى مقتدى الضلال إماماً كما سمّى مقتدى الهدى إماماً، وسياق ذيل الآية والآية الثانية أيضاً مشعر بأنّ الإمام المدعوّ به هو الّذي اتخذه

(١) العناوين ليست من الأصل بل وضعناها لمزيد التوضيح.
(٢) البقرة: ١٢٤.
(٣) هود: ٩٨.
(٤) الانفال: ٣٧.

الناس إماماً واقتدوا به في الدنيا لا من اجتباه الله للإمامة ونصبه للهداية بأمره سواء اتبعه الناس أو رفضوه.

فالظاهر أنّ المراد بإمام كلّ أُناس في الآية من ائتمّوا به سواء كان إمام حقّ أو إمام باطل، وليس كما يظنّ أنّهم ينادون بأسماء أئمتهم فيقال: ياأُمّة إبراهيم ويااُمّة محمّد ويا آل فرعون ويا آل فلان فإنّه لا يلائمه ما في الآية من التفريع أعني قوله: ﴿ *فمن أُوتي كتابَه بيمينهِ* ﴾ ﴿ *وَمَن كانَ في هذهِ أعمَى* ﴾... الخ، إذ لا تفرّع بين الدعوة بالإمام بهذا المعنى وبين إعطاء الكتاب باليمين أو العمى.

بل المراد بالدعوة ـ على ما يعطيه سياق الذيل ـ هو الإحضار، فهم محضرون بإمامهم ثمّ يأخذ من اقتدى بإمام حقّ كتابه بيمينه، ويظهر عمى من عمي عن معرفة الإمام الحقّ في الدنيا واتّباعه، هذا ما يعطيه التدبر في الآية.

الأقوال في تفسير «الإمام» في الآية:

وللمفسّرين في تفسير الإمام في الآية مذاهب شتّى مختلفة:

منها: أنّ المراد بالإمام الكتاب الّذي يؤتمّ به كالتوراة والإنجيل والقرآن، فينادىٰ يوم القيامة: ياأهل التوراة وياأهل الإنجيل وياأهل القرآن، وقد تقدّم بيانه وبيان ما يرد عليه.

ومنها: أنّ المراد بالإمام النبيّ لمن كان على الحقّ، والشيطان وإمام الضلال لمبتغي الباطل، فيقال: هاتوا متّبعي إبراهيم، هاتوا متّبعي موسى، هاتوا متّبعي محمّد، فيقوم أهل الحقّ الّذين اتّبعوهم فيعطون كتب أعمالهم بأيمانهم، ثمّ يقال: هاتوا متّبعي الشيطان هاتوا متبعي رؤساء الضلال.

وفيه: أنّه مبنيّ على أخذ الإمام في الآية بمعناه العرفي وهو من يؤتمّ به من العقلاء، ولا سبيل إليه مع وجود معنىً خاصّ له في عرف القرآن وهو الّذي

يهدي بأمر الله والمؤتمّ به في الضلال.

ومنها : أنّ المراد كتاب أعمالهم فيقال: ياأصحاب كتاب الخير وياأصحاب كتاب الشرّ، ووجه كونه إماماً بأنّهم متبعون لما يحكم به من جنة أو نار.

وفيه: أنّه لا معنى لتسمية كتاب الأعمال إماماً، وهو يتبع عمل الإنسان من خير أو شرّ، فإن يُسمّى تابعاً أولى به من أن يسمّى متبوعاً، وأمّا ما وجّه به أخيراً ففيه أنّ المتّبع من الحكم ما يقضي به الله سبحانه بعد نشر الصحف والسؤال والوزن والشهادة، وأمّا الكتاب فإنما يشتمل على متون أعمال الخير والشرّ من غير فصل القضاء.

ومنه يظهر أن ليس المراد بالإمام اللوح المحفوظ ولا صحيفة عمل الأُمّة، وهي الّتي يشير إليها قوله: ﴿*كُلُّ أُمَّةٍ تُدعىٰ إلى كِتابِها*﴾[1] لعدم ملائمته قوله ذيلاً: ﴿*فَمَن أُوتيَ كتابهِ بيمينهِ*﴾ الظاهر في الفرد دون الجماعة.

ومنها : أنّ المراد به الأُمهات ـ بجعل إمام جمعاً لأُمّ فيقال: يابن فلانة ولا يقال يابن فلان، وقد رووا فيه رواية.

وفيه: أنّه لا يلائم لفظ الآية فقد قيل: ﴿*ندعو كلّ أُناسٍ بإمامهم*﴾ ولم يقل ندعو الناس بإمامهم أو ندعو كلّ إنسان بأُمّه، ولو كان كما قيل لتعيّن أحد التعبيرين الأخيرين، وما أُشير إليه من الرواية على تقدير صحّتها وقبولها رواية مستقلّة غير واردة في تفسير الآية.

على أنّ جمع الأُمّ بالإمام لغة نادرة لا يُحمل على مثلها كلامه تعالى، وقد عدّ في الكشّاف هذا القول من بدع التفاسير.

ومنها : أنّ المراد به المقتدى به والمتّبع عاقلاً كان أو غيره حقّاً كان أو

---

(١) الجاثية: ٢٨.

باطلاً كالنبي والوليّ والشيطان ورؤساء الضلال والأديان الحقّة والباطلة والكتب السماوية وكتب الضلال والسنن الحسنة والسيّئة، ولعلّ دعوة كلّ أُناس بإمامهم على هذا الوجه كنايةً عن ملازمة كلّ تابع يوم القيامة لمتبوعه، والباء للمصاحبة.

وفيه ما أوردناه على القول بأنّ المراد به الأنبياء ورؤساء الضلال، فالحمل على المعنى اللغوي إنّما يحسن فيما لم يكن للقرآن فيه عرف، وقد عرفت أنّ الإمام في عرف القرآن هو الّذي يهدي بأمر الله أو المقتدى في الضلال، ومن الممكن أن يكون الباء في «بإمامهم» للآلة، فافهم ذلك.

على أنّ هداية الكتاب والسنّة والدين وغير ذلك بالحقيقة ترجع إلى هداية الإمام، وكذا النبيّ إنّما يهدي بما أنه إمام يهدي بأمر الله، وأمّا من حيث إنبائه عن معارف الغَيب أو تبليغه ما أُرسل به فإنّما هو نبيّ أو رسول وليس بإمام، وكذا إضلال المذاهب الباطلة وكتب الضلال والسنن المبتدعة بالحقيقة إضلال مؤسّسيها والمبتدعين بها.

قوله تعالى: ﴿ *فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَأُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً* ﴾ الفتيل هو المفتول الّذي في شقّ النواة، وقيل: الفتيل هو الّذي في بطن النواة، والنقير في ظهرها، والقطمير شقّ النواة.

وتفريع التفصيل على دعوتهم بإمامهم دليل على أنّ ائتمامهم هو الموجب لانقسامهم إلى قسمين وتفرّقهم فريقين: من أُوتي كتابه بيمينه، ومن كان أعمى وأضلّ سبيلاً. فالإمام إمامان: إمام هدى وإمام ضلال، وهذا هو الّذي قدّمناه أنّ تفريع التفصيل يشهد بكون المراد بالإمام أعمّ من إمام الهدى.

ويشهد به أيضاً تبديل إيتاء الكتاب بالشمال أو من وراء الظهر كما وقع

في غير هذا الموضع من قوله: ﴿ *وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعمَى* ﴾... الخ.

والمعنى ـ بإعانة من السياق ـ: فيتفرّقون حينئذ فريقين، فالذين أعطوا صحيفة أعمالهم بأيمانهم فاولئك يقرؤن كتابهم فرحين مستبشرين مسرورين بالسعادة ولا يظلمون مقدار فتيل بل يوفون أُجورهم تامة كاملة.

قوله تعالى: ﴿ *وَمَن كَانَ فِي هذهِ أعمَى فهو في الآخِرةِ أعمَىٰ وَأَضَلّ سَبِيلاً* ﴾ المقابلة بين قوليه: ﴿ *في هذه* ﴾ و ﴿ *في الآخرة* ﴾ دليل على أنّ الإشارة بهذه إلى الدنيا كما أنّ كون الآية مسوقة لبيان التطابق بين الحياة الدنيا والآخرة دليل على أن المراد بعمى الآخرة عمى البصيرة كما أنّ المراد بعمى الدنيا ذلك قال تعالى: ﴿ *فإنّها لا تَعمىَ الأبصَارُ وَلَكِن تَعمَى القُلوُبُ الّتي فِي الصُّدُور* ﴾[1] ويؤيد ذلك أيضاً تعقيب عمى الآخرة بقوله: ﴿ *وأضلّ سبيلاً* ﴾.

والمعنى: ومن كان في هذه الحياة الدنيا لا يعرف الإمام الحقّ، ولا يسلك سبيل الحقّ فهو في الحياة الآخرة لا يجد السعادة والفلاح ولا يهتدي إلى المغفرة والرحمة.

ثمّ قال ﷺ في بحثه الروائي عن تفسير الآية الكريمة:

وفيه عن الفضيل قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله: ﴿ *يَومَ نَدعُو كلّ أناسٍ بإمامهم* ﴾ قال: يجيء رسول الله ﷺ في قومه وعلي عليه السلام في قومه والحسن في قومه والحسين في قومه، وكلّ من مات بين ظهراني إمام جاء معه.

وفي تفسير البرهان عن ابن شهر آشوب عن الصادق عليه السلام: ألا تحمدون الله؟ إنه إذا كان يوم القيامة يُدعى كلّ قومٍ إلى من يتولّونه، وفزعنا إلى

(١) الحجّ: ٤٦.

رسول الله ﷺ وفزعتم أنتم إلينا.

أقول: ورواه في المجمع عنه عليه السلام وفيه دلالة على أنّ رسول الله ﷺ إمام الأئمّة كما أنه شهيد الشهداء وأنّ حكم الدعوة بالإمام جار بين الأئمّة أنفسهم.

وفي مجمع البيان: روى الخاصّ والعامّ عن علي بن موسى الرضا عليه السلام بالأسانيد الصحيحة أنّه روى عن آبائه عن النبيّ ﷺ أنّه قال فيه: يُدعى كلّ أُناسٍ بإمام زمانهم وكتاب ربّهم وسنّة نبيّهم.

أقول: ورواه في تفسير البرهان عن ابن شهر آشوب عنه عن آبائه عن النبيّ ﷺ بلفظه، وقد أسنده أيضاً إلى رواية الخاصّ والعامّ.

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن مردويه عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿ يوم ندعو كلّ أُناسٍ بإمامهم ﴾ قال: يُدعى كلّ قومٍ بإمام زمانهم وكتاب ربّهم وسنّة نبيّهم.

وفي تفسير العيّاشي عن عمّار الساباطي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لا يترك الأرض بغير إمام يحلّ حلال الله ويحرّم حرامه، وهو قول الله: ﴿ يوم ندعو كلّ أُناسٍ بإمامهم ﴾ ثمّ قال: قال رسول الله ﷺ: من مات بغير إمامٍ مات ميتة جاهلية...الحديث.

أقول: ووجه الاحتجاج بالآية عمومٌ لدعوة فيها لجميع الناس.

وفيه عن إسماعيل بن همام عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله: ﴿ يوم ندعو كلّ أُناسٍ بإمامهم ﴾ قال: إذا كان يوم القيامة قال الله: أليس العدل من ربّكم أن يولّوا كلّ قومٍ من تولّوا ؟ قالوا: بلى، قال: فيقول: تميّزوا فيتميّزون.

أقول: وفيه تأييد لما قدّمنا أنّ المراد بالدعوة بالإمام إحضارهم معه دون النداء بالاسم، والروايات في المعاني السابقة كثيرة[1].

---

(١) تفسير الميزان: ١٣ / ١٦٥ ـ ١٧١.

دلالات النصّ القرآني:

المستفاد من تفسير الآيتين الكريمتين والتدبّر فيهما أُمور أبرزها فيما يرتبط بموضوع البحث:

١ـ أنّ لكلّ أُناسٍ ـ في كلّ عصرٍ ومكان ـ إماماً يُدعون به يوم القيامة ومقتضىٰ دعوتهم به في يوم القيامة ـ وهو يوم الحساب ويوم الجزاء ـ محاسبتهم على اقتدائهم لهذا الإمام ومسوغات اتّباعهم له، إذ أنّ معنى الإمام هو مَن يُقتدىٰ به حسب الاصطلاح القرآني.

٢ـ و «الإمام» في هذا المورد ليس من الكتب السماوية ولا اللوح المحفوظ ،كما هو الواضح من التدبر في منطوق الآيتين الكريمتين، بل هو من بني الإنسان أنفسهم.

٣ـ ملاحظة الاستخدام القرآني لمفردة «الإمام» تقودُ إلىٰ معرفة أنّ المراد بالإمام في هذا المورد هو إمام الهدى الّذي يهدي إلى الله تبارك وتعالىٰ ويقود الناس على الصراط المستقيم بأمره سبحانه وتعالىٰ وهو إمام الحقّ، أو إمام الضلال الّذي يقود أتباعه إلى الضلالة والخسران في الدنيا والآخرة، وهذا هو مصداق أئمّة الباطل والضلال.

٤ـ واتّباع الإمام هو الّذي يؤدّي إلىٰ تمايز الناس بين من يأخذ كتابه يوم القيامة بيمينه فيكون من أصحاب اليمين، وبين من يكون من الضالّين العمي في الدنيا والآخرة.

٥ـ من هنا فإنّ المستفاد من الآيتين الكريمتين ـ وخاصّةً الثانية ـ الدعوة والحثّ علىٰ معرفة إمام الهدىٰ والحقّ واتّباعه للفوز بالحياة الطيّبة في الدنيا والآخرة والفوز يوم الحساب ﴿*يوم يُدعىٰ كلّ أُناسٍ بإمامهم*﴾ والحذر من العمىٰ

من معرفته والاهتداء إليه في الحياة الدنيا ، لأنه يؤدّي إلىٰ مزيد العمىٰ في الآخرة إذ يكون يومئذٍ أضلّ سبيلاً.

وبهذا يتّضح أنّ المقصود من الأحاديث النبوية ـ المروية لدىٰ أهل السنّة والشيعة والداعية إلىٰ معرفة إمام الزمان ومبايعته تعبيراً عن اتّباعه وطاعته ، والمحذّرة من أن يموت الإنسان دون معرفة إمام زمانه ودون أن تكون في عنقه بيعة له فقد مات ميتةً جاهلية[1] ـ ليس مبايعة من يمتلك زمام السلطة من المسلمين ، بل المراد معرفة ومبايعة إمام العصر الّذي يهدي إلى الله تبارك وتعالىٰ.

٦ـ والمستفاد من النصّ القرآني المتقدّم علىٰ دعوة كلّ أُناس بإمامهم ومحاسبتهم على اتّباعه لزوم وجود إمام هدىً في كلّ عصر يكون حجّة لله تبارك وتعالىٰ علىٰ خلقه يحتجّ به عليهم علىٰ معرفته واتّباعه ، وإلّا لما كان لدعوة أهل العصر الّذي لا يوجد فيه مثل هذا الإمام الهادي إلى الحقّ به معنىً يوم الحساب ، والآية تصرّح بأنّ الدعوة موجّهة لأهل كلّ زمان بإمامهم.

ولا يصحّ القول بأنّ المراد دعوة كلّ أُناسٍ بمن اقتدوا به من الأئمّة حتّىٰ لو لم يكن عصرهم ، فهذا لا ينسجم مع منطوق الآيتين كما اتّضح من تفسيرهما ، إذ أنّ هذا المعنىٰ خلاف الاستخدام القرآني لوصف الإمام. وسيتّضح الأمر أكثر في الحديث عن دلالات الآية اللاحقة بإذن الله.

---

(١) روي هذا الحديث الشريف بألفاظ عدّة ترجع إلىٰ معنى واحد في معظم المجاميع الحديثية المعتبرة للسنّة والشيعة ، فهو مرويّ في صحيح البخاري: ٥ / ١٣ ، وصحيح مسلم: ٦/٢١ـ٢٢ ، ومسند أحمد: ٢ / ٨٣ ، و ٣ / ٤٤٦ ، ومستدرك الحاكم: ١ / ٧٧ ، ومعجم الطبراني الكبير: ١٠ / ٣٥٠ ، ومجمع الزوائد للهيثمي: ٥ / ٢١٨ ، وغيرها. كما روته كتب الحديث الشيعية مثل الكافي: ١ / ٣٠٣ ، وكمال الدين: ٢ / ٤١٢ ، وغيرها.

٧ـ وعليه تكون خلاصة دلالات الآيتين الكريمتين فيما يرتبط بموضوع البحث هي: لزوم وجود إمام هدىً في كلّ عصر يكون حجّة لله تبارك وتعالىٰ علىٰ خلقه يحتجّ به عليهم يوم القيامة ويدعوهم به، ويكون اتّباعه سبيل الناس للنجاة والفوز يوم القيامة، هذا أوّلاً.

وثانياً: إنّ من الواجب السعي للتعرّف علىٰ إمام الحقّ واتّباعه، لأنّ العمىٰ عنه في الدنيا يجرّ صاحبه إلى العمىٰ في الآخرة بل يكون فيها أضلّ سبيلاً.

وهذه الدلالات تؤكّدها الآية اللاحقة وتصرّح بأنّ الله تبارك وتعالىٰ ـ الّذي يدعو كلّ أُناسٍ بإمامهم يوم القيامة ـ قد اقتضت حكمته أن يجعل لكلّ منهم إمام هدىً كما نرىٰ فيما يلي:

ثانياً: لكلّ قومٍ هاد:

قوله تعالىٰ:

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ (١)

ومورد الاستشهاد هو الجواب الإلهيّ في الشطر الثاني من الآية حيث تضمّن التصريح بسنّةٍ إلهية ثابتة هي جعل هادٍ بأمر الله لكلّ قوم، فلا تتحدّد هذه السنّة الإلهيّة بزمانٍ معيّن «وقد جرت سنّة الله في عباده أن يبعث في كلّ قومٍ هادياً يهديهم. والآية تدلّ علىٰ أنّ الأرض لا تخلو من هادٍ يهدي الناس إلى الحقّ، إمّا نبيّ منذر، وإمّا هادٍ غيره يهدي بأمر الله»(٢).

---

(١) الرعد: ٧.

(٢) تفسير الميزان: ١١ / ٣٠٥.

وقد قيّدنا الهادي بأن تكون هدايته الناس بأمر الله تبارك وتعالىٰ تبعاً للقرآن الكريم الّذي صرّح بذلك في عدّة آياتٍ محكمات، منها قوله تعالىٰ: ﴿ *قُلِ اللهُ يَهدِي لِلحقّ أَفَمَن يَهدِي إِلَى الحقِّ أحقُّ أن يُتَبَعَ أمَّن لَّا يهدِّي إلَّا أن يُهدىٰ فَمَا لَكُم كَيفَ تَحكُمُون* ﴾(١).

يقول العلّامة الطباطبائي في تفسيره حول هذا المقطع القرآني:

ظاهر قوله ﴿ *لا يهدّي إلّا أن يُهدىٰ* ﴾، وقد حذف متعلّقات الفعل فيه أنّه إنّما يهتدي بغيره لا بنفسه. والكلام قد قوبل فيه قوله ﴿ *يهدي إلىٰ الحقّ* ﴾ بقوله ﴿ *مَن لا يهدّي* ﴾ مع أنّ الهداية إلى الحقّ يقابلها عدم الهداية إلى الحقّ، وعدم الاهتداء إلى الحقّ يقابله الاهتداء إلى الحقّ، فلازم هذه المقابلة الملازمة بين الاهتداء بالغير وعدم الهداية إلى الحقّ، وكذا الملازمة بين الهداية إلى الحقّ والاهتداء بالذات، فالذي يهدي إلى الحقّ يجب أن يكون مهتدياً بنفسه لا بهداية غيره، والّذي يهتدي بغيره ليس يهدي إلى الحقّ أبداً.

هذا ما تدلّ عليه الآية بحسب ظاهرها الّذي لا ريب فيه، وهو أعدل شاهد علىٰ أنّ الكلام موضوع فيها على الحقيقة دون التجوّزات المبنية على المساهلة الّتي تبني عليها ونداولها فيما بيننا معاشر أهل العرف، فننسب الهداية إلى الحقّ إلىٰ كلّ من تكلّم بكلمة حقّ ودعا إليها وإن لم يعتقد بها أو اعتقد ولم يعمل بها أو عمل ولم يتحقّق بمعناها، وسواء اهتدىٰ إليها بنفسه أو هداه إليها غيره.

بل الهداية إلى الحقّ ـ أعني الإيصال إلىٰ صريح الحقّ ومتن الواقع ـ ليس إلّا لله سبحانه أو لمن اهتدىٰ بنفسه، أي هداه الله سبحانه من غير واسطة تتخلّل

---

(١) يونس: ٣٥.

بينه وبينه فاهتدىٰ بالله وهدىٰ غيره بأمر الله سبحانه... وقد تبيّن بما قدّمناه أُمور:

الهداية المقصودة الإيصال للمطلوب[١]:

أحدها: أنّ المراد بالهداية إلى الحقّ ما هو بمعنى الإيصال إلى المطلوب دون ما هو بمعنىٰ إرادة الطريق المنتهي إلى الحقّ، فإنّ من الضروري (الواضح) أنّ وصف طريق الحقّ يتأتّىٰ من كلّ أحد سواء اهتدىٰ إلى الحقّ بنفسه أو بغيره أو لم يهتد.

وثانيهما: أنّ المراد بقوله ﴿ *مَن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهدَىٰ* ﴾ مَن لا يهتدي بنفسه، وهذا أعمّ من أن يكون ممّن يهتدي بغيره أو يكون ممن لا يهتدي أصلاً لا بنفسه ولا بغيره، كالأوثان والأصنام الّتي هي جماد لا يَقبل هداية من غيره، وذلك أنّ قوله ﴿ *إِلاَّ أَن يُهدَىٰ* ﴾ استثناء من قوله ﴿ *مَن لا يَهِدِّي* ﴾ الأعمّ من أن لا يهتدي أصلاً أو يهتدي بغيره. والمأخوذ في قوله: ﴿ *أَن يُهدَىٰ* ﴾ فعل دخلت أن المصدرية المؤوّلة إلى المصدر، والجملة الفعلية المؤوّلة إلى المصدر كذلك لا يدلّ على التحقّق بخلاف المصدر المضاف إلىٰ معموله، ففرق بين قوله: ﴿ *وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُم* ﴾[٢]، فلا يدلّ على الوقوع وبين نحو قوله: ﴿ *إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُم لَغَافِلِينَ* ﴾[٣] فيدلّ على الوقوع، ويُقال: ضربك زيداً عجيب، إذا ضربته، و: أن تضرب زيداً عجيب، إذا هممت أن تضربه.

فقوله: ﴿ *مَن لا يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهدَىٰ* ﴾ معناه مَن لا يكون هداه من نفسه إلّا أن

---

(١) هذه العناوين ليست من الأصل وقد وضعناها لمزيد التوضيح.

(٢) البقرة: ١٨٤.

(٣) يونس: ٢٩.

تأتيه الهداية من ناحية الغير، ومن المعلوم أنها إنّما تأتيه من الغير إذا كان في طبعه أن يقبل ذلك، وأمّا إذا لم يقبل فإنّما يبقىٰ له من الوصف أنّه لا يهتدي، فافهم ذلك...

وثالثها: أنّ الهداية إلى الحقّ بمعنى الإيصال إليه إنّما هي شأن من يهتدي بنفسه، أي لا واسطة بينه وبين الله سبحانه في أمر الهداية، إمّا من بادئ أمره أو بعناية خاصّة من الله سبحانه كالأنبياء والأوصياء من الأئمّة.

وأمّا الهداية بمعنىٰ إراءة الطريق ووصف السبيل فلا يختصّ به تعالىٰ ولا بالأئمة من الأنبياء والأوصياء، كما يحكيه الله تعالىٰ عن مؤمن آل فرعون إذ يقول: ﴿ *وَقَالَ الَّذي آمَنَ ياقومِ اتّبعِوني أهدِكُم سَبِيلَ الرَّشَاد* ﴾[1][2].

مهتدٍ بنفسه هادٍ بأمر الله:

إذن، ما تقرّره الآيات الكريمة المتقدّمة هو أنّ الإرادة الإلهيّة شاءت أن تجعل لله تبارك وتعالىٰ في كلّ عصرٍ حجّة وهادٍ يهدي الناس بأمره تعالىٰ إلى الحقّ بمعنىٰ أنّه يوصلهم إليه وليس يرشدهم إليه وحسب، فهذا ممّا لا يختصّ به الله تبارك وتعالىٰ فلا يشكّل حجّة كاملة له علىٰ عباده.

والهادي بأمر الله تبارك وتعالىٰ يجب أن يكون مهتدياً بنفسه من قِبل الله سبحانه مباشرةً سواءٌ عِبر الوحي كما هو حال الأنبياء أو عبر عناية خاصّة من الله سبحانه يحيطه بها ليكون حجّة له علىٰ عباده، وهذا هو حال الأوصياء من عترة النبيّ الأكرم صلوات الله عليه وعليهم، كلّ منهم في عصره.

ولا يوجد تفسير مقبول لمنطوق هذه الآيات الكريمة يستجيب لشروطها

---

(١) غافر: ٣٨.

(٢) تفسير الميزان: ١٠ / ٥٧ ـ ٦١.

المحدّدة في هوية الهادي بعد خاتم الأنبياء ﷺ غير ما تقدّمه عقيدة الإمامية الاثني عشرية في الأئمّة الاثني عشر وآخرهم المهديّ المنتظر الّذي تقول بوجوده عليه السلام فعلاً وتسلّمه مهامّ الإمامة والهداية إلى الحقّ خلفاً لوالده الحسن العسكري والأئمّة الهداة من آبائه عليهم السلام الّذين توفرت فيهم الشروط الّتي حدّدتها الآيات الكريمة المتقدّمة واللاحقة.

ثالثاً: استمرار الموكّلين بحفظ الدين:

قوله تعالىٰ:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ (١)

تأتي الآية الكريمة في سياق مجموعة من الآيات الكريمة المتحدّثة عن اتّصال سلسلة الهداة من ذرّية إبراهيم الخليل سلام الله عليه المهديّين إلى الصراط المستقيم، وقد أعقبت مجموعة من الآيات المتحدّثة عن قصّة إبراهيم.

والمستفاد من ظاهر الآية الكريمة أنّ الله تبارك وتعالىٰ قد وكّل من عباده الّذين لا يكفرون بالكتاب والحُكم والنبوّة طرفة عين أمر رسالته ليحفظوها ولتستمرّ بهم سلسلة الهداية بعد رسول الله ﷺ.

وللتعرّف بصورة أدقّ وأوضح علىٰ هذه الدلالة والصفة البارزة في هؤلاء الموكّلين من قِبل الله تبارك وتعالىٰ بحفظ الكتاب والحُكم والنبوّة، نراجع

---

(١) الأنعام: ٨٩.

تفسير العلّامة الطباطبائي للآية الكريمة ومناقشته للآراء الواردة في تفسيرها قبل تسجيل دلالاتها. قال ﷺ :

تفسير الآية:[١]

قوله تعالى: ﴿ فَإِن يَكفُر بِهَا هَؤُلاءِ فَقَد وَكَّلنا بِها قَوماً لَيسُوا بِها بِكَافِرين ﴾ الضميران في قوله: ﴿ يكفر بها ﴾ وقوله: ﴿ وكّلنا بها ﴾ راجعان إلى الهدى ويجوز فيه التذكير والتأنيث من جهة أنه هداية، أو راجعان إلى الكتاب والحُكم والنبوّة الّتي هي من آثار الهداية الإلهيّة، ولا يخلو أوّل الوجهين عن بُعد، والمشار إليه بقوله: ﴿ هؤلاء ﴾ الكافرون بالدعوة من قوم النبيّ ﷺ والمتيقن منهم بحسب مورد الآية كفّار مكّة الّذين أشار الله سبحانه إليهم بقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِم أأنذرتَهم أم لَمْ تُنذِرهُم لا يُؤمِنُون ﴾[٢].

والمعنى على الوجه الأوّل: فإن يكفر مشركو قومك بهدايتنا وهي طريقتنا فقد وكّلنا بها من عبادنا من ليس يكفر بها، والكفر والإيمان يتعلّقان بالهداية وخاصّة إذا كانت بمعنى الطريقة كما ينسبان إلى الله سبحانه وآياته، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعنَا الهُدَى آمَنَّا بِهِ ﴾[٣] وقال: ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوفٌ عَلَيهِم وَلا هُم يَحزَنُون ﴾[٤].

وعلى الوجه الثاني: فإن يكفر بالكتاب والحُكم والنبوّة ـ وهي الّتي تشتمل على الطريقة الإلهيّة والدعوة الدينية ـ مشركو مكّة فقد وكّلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين.

---

(١) هذه العناوين ليست من الأصل وقد وضعناها لمزيد التوضيح.

(٢) البقرة: ٦.

(٣) الجن: ١٣.

(٤) البقرة: ٣٨.

مَن هم الموكّلون بحفظ الدين في الآية:

وأمّا أنّ هؤلاء القوم مَن هم ؟ ـ وفي تنكير اللفظ دلالة على أنّ لهم خطراً عظيماً ـ فقد إختلف فيهم أقوال المفسّرين :

فمِن قائل : إنّ المراد بهم الأنبياء المذكورون في الآيات السابقة وهم ثمانية عشر نبيّاً أو مطلق الأنبياء المذكورين بأسمائهم أو بنعوتهم في قوله : ﴿ *وَمِنْ آبَائِهِم وَذُرِّيَّاتِهِم وَإِخْوَانِهِم* ﴾ (١). وفيه : أنّ سياق اللفظ لا يلائمه إذ ظاهر قوله : ﴿ *ليسوا بها بكافرين* ﴾ نفي الحال أو الاستمرار في النفي ، والمذكورون من الأنبياء عليهم السلام لم يكونوا موجودين حال الخطاب ولو كان المراد ذلك لكان المتعيّن أن يقال : لم يكونوا بها بكافرين ، وليس رسول الله صلى الله عليه وآله معدوداً منهم بحسب هذه العناية ، وإن كان هو منهم وأفضلهم ، فإنّ الله سبحانه يذكره صلى الله عليه وآله بعد ذلك بقوله : ﴿ *أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِه* ﴾ (٢).

ومِن قائل : إنّ المراد بهم الملائكة. وفيه ـ كما قيل ـ: أنّ القوم وخاصّة إذا أُطلق من غير تقييد لا يطلق على الملائكة ولا يسبق إلى الذهن على أنّ في الآية بحسب السياق نوع تسلية للنبيّ صلى الله عليه وآله ، ولا معنى لتسليته في كفر قومه بإيمان الملائكة.

ومِن قائل : إنّ المراد بهم المؤمنون به صلى الله عليه وآله عند نزول السورة في مكّة أو مطلق المهاجرين. وفيه : أنّ بعض هؤلاء قد ارتدّوا بعد إيمانهم كالذي قال : سأُنزل مثل ما أنزل الله ، وقد تعرّض سبحانه لأمره في هذه السورة بعد آيات ، وقد كان فيهم المنافق فلا ينطبق عليهم قوله : ﴿ *ليسوا بها بكافرين* ﴾.

---

(١) الأنعام: ٨٧ .

(٢) الأنعام: ٩٠.

ومِن قائل: إنّ المراد بهم الأنصار أو المهاجرون والأنصار جميعاً أو أصحاب النبيّ ﷺ من المهاجرين والأنصار وهم الّذين أقاموا هذه الدعوة على ساقها ونصروا النبيّ ﷺ يوم العسرة، وقد مدحهم الله في كتابه أبلغ المدح. وفيه: أنّ كرامة جماعتهم ورفعة منزلتهم بما هم جماعة ممّا لا يدانيه ريب، لكن كان بينهم من ارتدّ بعد ايمانه والمنافق الّذي لم يظهر حاله بعد، ولا ينطبق على من هذا نعته مثل قوله تعالى: ﴿ ***فقد وكّلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين*** ﴾ وظاهره أنه لا سبيل للكفر إليهم، ولم يقل: فقد وكّلنا بها قوماً يؤمنون بها أو آمنوا بها.

وربما يستفاد من كلمات بعضهم أنّ المراد به قيام الإيمان بجماعتهم وإن أمكن أن يتخلّف عن إقامته آحاد منهم، وبعبارة أُخرى قوله: ﴿ ***ليسوا بها بكافرين*** ﴾ وصف للمجتمع ولا ينافي خروج بعض الأبعاض اتّصاف المجتمع بوصفه القائم بالمجموع من حيث هو مجموع، والمؤمنون به ﷺ من الأنصار أو منهم ومن المهاجرين أو الصحابة ثبت الإيمان فيهم ثبوتاً من غير زوال، وإن زال عن بعض أفرادهم.

وهذا الوجه لو تمّ لدلّ على أنّ المراد بالقوم جميع الأُمّة المسلمة أو المؤمنون من جميع الأُمم، ولا دليل من تخصيصه بقومٍ دون قوم، وإختصاص بعضهم بمزايا وكرامات دينية كتقدّم المهاجرين في الإيمان بالله والصبر على الأذى في جنب الله أو تبوّء الأنصار الدار والإيمان وإعلاؤهم كلمة التوحيد لا يوجب إلّا فضل اتّصافهم بهذا النعت لا اختصاصه بهم وحرمان غيرهم منه مع مشاركته إيّاهم في معناه.

إلّا أنه يرد على هذا الوجه: أنّ المألوف من كلامه في الأوصاف الاجتماعية

الّتي لا تستوعب جميع أفراد المجتمع أن يستثني المتخلّفين عنها لو كان هناك متخلف أو يأتي بما في معنى الاستثناء كقوله: ﴿لَقَد خَلَقنَا الإنسانَ فِي أَحسَنِ تَقوِيم * ثُمَّ رَددنَاه أَسفَلَ سَافِلِين * إلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (١).

وقوله: ﴿مُحمّدٌ رَسُولُ اللهِ والّذِينَ مَعَهُ أَشِدّاءُ عَلَى الكُفّارِ رُحَمَاءُ بينَهُم ـ إلى أن قال ـ وَعدَ اللهُ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مغفِرةً وَأجراً عَظِيماً﴾ (٢) وقوله: ﴿إنّ المنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأسفَلِ مِن النار ـ إلى أن قال ـ إلّا الّذِينَ تَابُوا وَأَصلَحُوا واعتَصَمُوا بِاللهِ وَأخلَصُوا دِينَهُم للهِ﴾ (٣) وقوله: ﴿كَيفَ يَهدِي اللهُ قَوماً كَفَرُوا بَعدَ إيمانِهِم (٤) ـ إلى أن قال ـ إلّا الّذِينَ تَابُوا مِن بعدِ ذَلِكَ وَأَصلَحُوا﴾ (٥) وهذا المعنى كثير دائر في القرآن الكريم، فما بال قوله: ﴿قَومَاً لَيسُوا بِهَا بِكَافِرِين﴾ لم يستثن منه المتخلّف عن الوصف من القوم مع وجوده فيهم؟

وأغرب منه قول بعضهم: إنّ المراد بوصف القوم بأنهم ليسوا بها بكافرين ـ والقوم على قوله هم الأنصار ـ الإشارة إلى أنهم وإن لم يؤمنوا بها بعد لكنهم لم يكفروا بها كما كفر بها مشركو مكّة. وفيه: مضافاً إلى أنه لا يسلم ممّا تقدّم من الإشكال على الوجوه السابقة أنّ أهل المدينة من الأنصار كانوا حين نزول الآيات مشركين يعبدون الأصنام ولا معنى لنفي الكفر عنهم، اللّهمّ إلّا بمعنى الردّ بعد الدعوة وهو الاستكبار والاستنكاف، ولا دليل على كون الكفر في الآية بهذا المعنى مع كون الآيات مسوقة لوصف الهداية الإلهيّة المقابلة للإشراك كما

---

(١) التين: ٦.

(٢) الفتح: ٢٩.

(٣) النساء: ١٤٥ ـ ١٤٦.

(٤) آل عمران: ٨٦.

(٥) آل عمران: ٨٩.

جرى على هذا المجرى في قوله: ﴿ *وَلَو أَشرَكُوا لَحَبِطَ عَنهُم مَا كَانُوا يَعمَلُون* ﴾[(١)]. وفيه: أنّ التوكيل المذكور في الآية يفيد معنى الحفظ، ولا معنى لقولنا: إن يكفر بها هؤلاء فقد حفظناها بقومٍ لم يؤمنوا بها ولم يردّوها بعد.

ومِن قائل: إنّ المراد بهم العجم ولم يكونوا يؤمنوا بها يومئذٍ، وكأنّه مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ *إن يشأْ يُذهبكُم أيُّها النَّاس ويأتِ بآخَرين* ﴾[(٢)] فقد ورد أنّ المراد بالآخرين هم العجم، لكن يرد عليه ما يرد على سابقه.

ومِن قائل: إنّ المراد بالقوم هم المؤمنون من أُمة محمّد ﷺ أو المؤمنون من جميع الأُمم. وفيه: إنّه يرد عليه ما أُورد على ما قبلهُ من الوجوه. نعم يمكن أن يوجّه بأنّ المراد بهم نفوس من هذه الأُمّة أو من جميع الأُمم يؤمن بالله إيماناً لا يعقبه كفر ما دامت تعيش في الدنيا، فهؤلاء قوم مؤمنون وليسوا بها بكافرين وإن لم يمتنع الكفر عليهم، لكن دوامهم على الإيمان بدعوة التوحيد من غير كفر أو نفاق يستدعي صدق قوله ﴿ *قوماً ليسوا بها بكافرين* ﴾ عليهم ويتمّ به معنى الآية في أنها مسوقة لتسلية النبيّ ﷺ وتطييب قلبه الشريف إذ كان يحزنه كفر المشركين من قومه واستكبارهم عن إجابة دعوة الحقّ والإيمان بالله وآياته،وفي أنّها دالّة على إعتزازه تعالى بحفظ هدايته وطريقته الّتي أكرم بها عباده المكرمين وأنبياءه المقرّبين.

لكن يتوجّه إليه أنّ بناء هذا الوجه على قضية اتّفاقية وهي إيمان المؤمنين بها إيماناً يتّفق أن يبقى سليماً من الزوال من غير ضامن يضمن بقاءه، ولا يلائمه قوله تعالى: ﴿ *وكّلنا بها* ﴾ فإن التوكيل يفيد معنى الاعتماد ويتضمّن

---

(١) الأنعام: ٨٨.

(٢) النساء: ١٣٣.

معنى الحفظ والكلاءة، ولا وجه للاعتزاز والمباهاة بأمر لا ضامن لثباته ولا حافظ لاستقراره وبقائه.

على أنّ الله سبحانه يذمّ كثيراً من الإيمان إذ يقول: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾[1] وهذه الآيات إمّا تصف التوحيد الفطري المحض والهداية الإلهيّة الطاهرة النقية الخالية عن شوب الشرك والظلم الّتي أكرم الله بها خليله إبراهيم ومن قبله وبعده من الأنبياء المكرمين عليهم السلام كما يذكره إبراهيم عليه السلام في قوله على ما يحكيه الله سبحانه عنه: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[2] والهداية الّتي هذا شأنها لا يعد كلّ متلبس بالإيمان حافظاً لها موكلاً بها من الله يحفظها الله به من الضيعة والفساد البتة، وفيهم الطغاة والبغاة والفراعنة والمستكبرون والجفاة الظلمة وأهل البدع والمتوغّلون في الفجور وأنواع الفحشاء والفسق.

الموكّلون هم أهل العصمة الإلهيّة:

والّذي ينبغي أن يقال في معنى الآية ـ أعني قوله: ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ ـ أنّ الآيات لمّا كانت تصف التوحيد الفطري والهداية الإلهيّة الطاهرة من شوب الشرك بالله سبحانه، وتذكّر أنّ الله سبحانه أكرم بهذه الهداية سلسلة متّصلة متّحدة من أنبيائه، واصطفاهم بها ذرّيةً بعضها من بعض واجتباهم وهداهم إلىٰ صراط مستقيم لا ضلال فيه وآتاهم الكتاب والحُكم والنبوّة، ثمّ فرّع على ذلك قوله: ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ وسياقه سياق إعتزاز منه تعالىٰ وتسلية للنبيّ صلى الله عليه وآله وتطييب

---

(١) يوسف: ١٠٦.

(٢) الأنعام: ٨٢.

لنفسه لئلّا يوهنه الحزن ويفسخ عزيمته في الدعوة الدينية ما يشاهده من كفر قومه واستكبارهم وعمههم في طغيانهم، فمعناه أن لا تحزن بما تراه من كفرهم بهذه الهداية الإلهيّة والطريقة الّتي تشتمل عليها الكتاب والحُكم والنبوّة الّتي آتيناها سلسلة المهديّين من الأنبياء الكرام، فإنّا قد وكّلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين، فلا سبيل للضيعة والزوال إلىٰ هذه الهداية الإلهيّة، لأنّا وكّلناهم بها واعتمدنا عليهم فيها وأُولئك غير كافرين بها البتة.

فهؤلاء قوم لا يتصوّر في حقّهم كفر ولا يدخل في قلوبهم شرك، لأنّ الله وكّلهم بها واعتمد عليهم فيها وحفظها بهم، ولو جاز عليهم الشرك وأمكن فيهم التخلّف كان الاعتماد عليهم فيها خطأً وضلالاً، والله سبحانه لا يضلّ ولا ينسى. فالآية تدلّ ـ والله أعلم ـ على أنّ لله سبحانه في كلّ زمان عبداً أو عباداً موكّلين بالهداية الإلهيّة والطريقة المستقيمة الّتي يتضمّنها ما آتاه أنبياءه من الكتاب والحُكم والنبوّة يحفظ الله بهم دينه عن الزوال وهدياته عن الانقراض، ولا سبيل للشرك والظلم إليهم لاعتصامهم بعصمة إلهية وهم أهل العصمة من الأنبياء الكرام وأوصيائهم عليهم السلام.

فالآية خاصّة بأهل العصمة وقصارىٰ ما يمكن أن يتوسع به أن يلحق بهم الصالحون من المؤمنين ممّن اعتصم بعصمة التقوى والصلاح ومحض الإيمان عن الشرك والظلم وخرج بذلك عن ولاية الشيطان، قال تعالى: ﴿ *إنّه ليس لَهُ سُلطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِم يَتَوكَّلون* ﴾[١] إن صدق عليهم أنّ الله وكّلهم بها واعتمد عليهم فيها[٢].

---

(١) النحل: ٩٩.

(٢) تفسير الميزان: ٧ / ٢٥٥ ـ ٢٦٠.

دلالات الآية:

يُستفاد من التدبّر في تفسير الآية الكريمة والسياق القرآني الّذي جاءت فيه أُمورٌ أبرزها فيما يرتبط بموضوع البحث:

١ـ أنّ الآية الكريمة تأتي في مقام تطييب نفس النبيّ ﷺ عندما كان يُواجه بكفر قومه بالرسالة النبوية السماوية الّتي جاء بها. فهي تتضمّن أخباراً بأنّ كفر قومه برسالته لا يضرّ بها؛ لأنّ الله تبارك وتعالىٰ قد قضىٰ ـ علىٰ نحو التحقيق المستفاد من الإتيان بالتوكيل بصيغة الفعل الماضي المسبوق بحرف التحقيق «قد» ـ بتوكيل قومٍ بحفظ منهج الهداية الإلهيّة الّذي ورثه خاتم الأنبياء من سلسلة المُصطفين من عباد الله تبارك وتعالىٰ الّذين اجتباهم وآتاهم الكتاب والحُكم والنبوّة.

٢ـ وحيث إنّ الرسول الأكرم ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين، لذا فإنّ هؤلاء القوم الموكّلين إلهياً بحفظ رسالته هم ليسوا من الأنبياء حتماً وإتيان الكتاب والحُكم والنبوّة لهم علىٰ نحو توريثهم لها وإحاطتهم بالرعاية الإلهيّة الخاصّة الّتي تمكّنهم من الوصاية علىٰ رسالة الهداية الإلهيّة وحفظها بعد الرسول الأعظم ﷺ.

٣ـ وحيث إنّ الرسول ﷺ هو خاتم الرسل والأنبياء ورسالته خاتمة الرسالات السماوية، لذا فإنّ وجود الأوصياء الموكّلين بحفظها مستمرّ بعد وفاته ﷺ إلىٰ يوم القيامة. وهذا الأمر يُؤكّده السياق القرآني الّذي جاءت الآية الكريمة في وسطه، فهو يتحدّث عن استمرار وجود واحد أو أكثر في كلّ عصر من سلسلة الإمامة والهداية بأمر الله من ذرّية إبراهيم من الّذين اجتباهم الله تبارك وتعالىٰ وآتاهم الكتاب والحُكم والنبوّة ليحفظوا دينه والهداية إليه

بأمره قبل ظهور النبيّ الخاتم ﷺ، وهذا يعني استمرار وجود من يقوم بهذه المهمّة أيضاً بعد وفاة خاتم الأنبياء من الّذين وكّلهم الله بحفظها في كلّ زمن دونما انقطاع مثلماكانت سلسلة الهداة الإبراهيميين مستمرّة دونما انقطاع أيضاً. غاية الأمر أن لا نبيّ بعده ﷺ، لذا فإنّ الّذين يقومون بهذه المهمّة بعده هم من الأوصياء وليسوا من الأنبياء.

٤ـ ولهؤلاء القوم الموكّلين بحفظ الرسالة المحمّدية ومنهج الهداية الإلهيّة بعد وفاة سيد الرسل ﷺ مقامات سامية وخطر عظيم، كما هو المستفاد من تنكير لفظ «القوم» في وصفهم.

٥ـ وتنصّ الآية الكريمة علىٰ أنّ أولىٰ صفاتهم أنّهم مصطفون لهذه المهمّة المقدّسة من قِبل الله تبارك وتعالىٰ: ﴿ *فقد وكّلنا بها* ﴾. كما أنّهم لا يكفرون بالله طرفة عين، كما هو المستفاد من إطلاق نفي الكفر عنهم وتنكيره والإتيان به بصيغة «ليس» ذات الدلالة على النفي المستمرّ.

٦ـ وهذا يعني اتصافهم بمراتب العصمة الإلهيّة من الشرك والظلم وكلّ ما يؤدّي إلىٰ أيّ مرتبة من مراتب الكفر، لأنّ ذلك يناقض اجتباء الله تبارك وتعالىٰ لحفظ نهج الهداية الإلهيّة، لأنّ وجود أيّ مرتبة من مراتب الكفر أو الشرك فيهم يؤدّي إلى الإخلال وعجزهم عن القيام بحفظ هذا النهج بالمقدار المتعلّق بهذه المرتبة من مراتب الكفر.

٧ـ وحصيلة ما تقدّم هي أنّ الآية الكريمة تدلّ علىٰ عدم خلوّ زمنٍ من الأزمان من عبدٍ أو عبادٍ لله تبارك وتعالىٰ من الّذين اختارهم لحفظ دينه وهدايته من الانقراض وعصمهم بالعصمة الإلهيّة اللازمة للقيام بهذه المهمّة، ووجود مثل هؤلاء مستمرّ دونما انقطاع بعد وفاة سيد الرسل ﷺ في

الأوصياء عليهم السلام مثلما كان مستمراً قبله صلى الله عليه وآله في وجود الأنبياء وأوصيائهم صلوات الله عليهم أجمعين.

مقارنة الدلالات بعقيدة الإمامية:

إذن فالآية الكريمة مؤيدةٌ لما دلّت عليه الآيات الكريمة الّتي تقدّم البحث عنها في الفقرتين الأُولىٰ والثانية من هذا الفصل من لزوم وجود إمام هادٍ إلى الله بأمره تبارك وتعالىٰ، إذ أنها تنصّ علىٰ لزوم وجود من يحفظ نهج الهداية الإلهيّة في كلّ زمان. وتضيف لذلك النصّ أنه من الّذين يحظون بالعصمة الإلهيّة، وهؤلاء وجودهم مستمرّ إلىٰ يوم القيامة، وأنّهم مصطفون من قِبل الله تبارك وتعالىٰ ولديهم مواريث الكتاب والحُكم والنبوّة.

وهذا ما تقول به عقيدة الإمامية في المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه، فهي تصرّح بأنه إمام العصر الّذي لديه مواريث الكتاب والحُكم والنبوّة، وأنّه خاتم الأوصياء على الرسالة المحمّدية عليهم السلام الّذين لا يخلو منهم زمن من الأزمان إلىٰ يوم القيامة، وأنّه يحظىٰ بالعصمة الإلهيّة ويتولّىٰ حفظ منهج الهداية الإلهيّة في غَيبته وظهوره بأساليب تناسب كلّ منهما، فهي في زمن الغَيبة خفية غير ظاهرة تتناسب مع شروط الغَيبة. كما تنصّ علىٰ أنّ العلّة المباشرة في غَيبته هي حفظ وجود الإمام الهادي الموكّل بحفظ الرسالة ونهج الهداية بسبب تعريضه للخطر الماحق، لذلك فإنّ غَيبته هي بأمر الله تبارك وتعالىٰ الّذي اقتضت حكمته عدم خلوّ زمنٍ من الأزمان من حجّة له علىٰ عباده يهديهم بأمره ويحفظ به دينه وهدايته من الانقراض.

ولا نجد في الأقوال الأُخرىٰ مَن يقدّم مصداقاً للآية الكريمة تصدق عليه

المواصفات الّتي تحدّدها، بل لا نجد فيها ذكراً لمثل هذا الحجّة الموكّل بحفظ الرسالة الإلهيّة في هذا العصر.

رابعاً: الإمام الهادي معصوم من الذرية الإبراهيمية:

قوله تعالىٰ:

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰ إِبراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِين ﴾[1]

تفسير الآية

التدبّر الدقيق في هذه الآية الكريمة يوصل إلىٰ ما أفادته الآيات السابقة ويضيف إليه تحديد أوضح لصفات هداة الناس إلى الحق، وأنهم من ذرّية إبراهيم الخليل، كما يتّضح من البحث القرآني المعمّق الّذي أورده العلّامة آية الله الطباطبائي رضوان الله عليه في تفسيره القيّم «الميزان». ونحن ننقل هنا بحثه القرآني بصورةٍ ملخّصة، ثمّ نبيّن وجه ارتباطه بعقيدة الإمامية في المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه الشريف، يقول العلّامة:

فقوله تعالى: ﴿ وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه.. الخ ﴾ إشارة إلىٰ قصّة إعطائه الإمامة وحبائه بها، والقصّة إنما وقعت في أواخر عهد إبراهيم عليه السلام[2] بعد كبره وتولّد

(١) البقرة: ١٢٤.

(٢) تكمن ثمرة معرفة زمن وقوع القصّة هو معرفة الفرق بين النبوّة ـ الّتي تعني تبليغ الرسالة الإلهيّة ـ وبين الإمامة الّتي تعني قيادة الناس على الصراط المستقيم عملياً وعدم الاكتفاء بمجرّد التبليغ.

إسماعيل وإسحاق له وإسكانه إسماعيل وأُمّه بمكّة، كما تنبه به بعضهم أيضاً، والدليل على ذلك قوله ﷺ على ما حكاه الله سبحانه ـ بعد قوله تعالىٰ له: ﴿إنّي جاعِلُك لِلنّاسِ إماماً﴾ ـ ﴿وَمِن ذُرّيتي﴾ فإنّه ﷺ قبل مجيء الملائكة ببشارة إسماعيل وإسحاق ماكان يعلم ولا يظنّ أن سيكون له ذرّية من بعده حتّى أنّه بعد ما بشّرته الملائكة بالأولاد خاطبهم بما ظاهره اليأس والقنوط كما قال تعالىٰ: ﴿وَنَبِّئهُم عَن ضَيفِ إبراهِيمَ * إذ دَخَلوا عَلَيهِ فَقَالوا سَلاماً قَالَ إنّا مِنكُم وَجِلون * قَالوا لا تَوجَل إنّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ * قَالَ أبشّرتُموني عَلَى أن مَسّنيَ الكِبَر فَبِمَ تُبَشِّرون * قَالوا بَشّرنَاكَ بِالحَقِّ فَلا تَكُن مِنَ القَانِطِين﴾[1] وكذلك زوجته على ما حكاه الله تعالىٰ في قصّة بشارته أيضاً إذ قال تعالىٰ: ﴿وَامرأتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَت * فَبَشَّرنَاها بإسحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إسحاقَ يَعقُوب * قَالَت يَاويلَتىٰ ءأَلِدُ وَأنا عَجُوزٌ وَهذَا بَعلي شَيخاً إنّ هَذا لَشَيءٌ عَجيب * قَالوا أَتَعجَبِينَ مِن أَمرِ الله رَحمةُ اللهِ وَبَركَاتُهُ عَلَيكُم أهلَ البَيتِ إنّه حَمِيدٌ مجِيد﴾[2]. وكلاهما كما ترىٰ يلوح منه آثار اليأس والقنوط، ولذلك قابلته الملائكة بنوع كلام فيه تسليتهما وتطييب أنفسهما، فما كان هو ولا أهله يعلم أن سيُرزق ذرّية، وقوله ﷺ: ﴿ومن ذرّيتي﴾ بعد قوله تعالىٰ: ﴿إني جاعلك للناس إماماً﴾ قول من يعتقد لنفسه ذرّية، وكيف يسع من له أدنىٰ دربة بأدب الكلام وخاصّة مثل إبراهيم الخليل في خطاب يخاطب به ربه الجليل أن يتفوّه بما لا علم له به؟ ولو كان ذلك لكان من الواجب أن يقول: ومن ذرّيتي إن رزقتني ذرّية أو ما يؤدّي هذا المعنىٰ فالقصّة واقعة، كما ذكرنا في أواخر عهد إبراهيم بعد البشارة.

على أنّ قوله تعالى: ﴿وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمهنّ قال إني جاعلك

---

(١) الحجر: ٥١ ـ ٥٥.

(٢) هود: ٧١ ـ ٧٣.

للناس إماماً ﴾، يدلّ على أنّ هذه الإمامة الموهوبة إنّما كانت بعد ابتلائه بما ابتلاه الله به من الامتحانات، وليست هذه إلّا أنواع البلاء الّتي ابتلي عليه السلام بها في حياته، وقد نصّ القرآن على أنّ من أوضحها بلاءً قضية ذبح إسماعيل، قال تعالى: ﴿ *قَالَ يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ* ـ إلى أن قال: ـ *إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ* ﴾(١).

والقضية إنّما وقعت في كبر إبراهيم، كما حكى الله تعالىٰ عنه من قوله: ﴿ *الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ* ﴾(٢).

الابتلاء بالكلمات(٣):

ولنرجع إلى ألفاظ الآية فقوله: ﴿ *وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه* ﴾، الابتلاء والبلاء بمعنى واحد تقول: إبتليته وبلوته بكذا، أي امتحنته واختبرته، إذا قدّمت إليه أمراً أو أوقعته في حدث فاختبرته بذلك واستظهرت ما عنده من الصفات النفسانية الكامنة عنده كالإطاعة والشجاعة والسخاء والعفّة والعلم والوفاء أو مقابلاتها، ولذلك لا يكون الابتلاء إلّا بعمل، فإنّ الفعل هو الّذي يظهر به الصفات الكامنة من الإنسان دون القول الّذي يحتمل الصدق والكذب، قال تعالى: ﴿ *إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ* ﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿ *إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ* ﴾(٥).

---

(١) الصافات: ١٠٦.

(٢) إبراهيم: ٣٩.

(٣) هذه العناوين ليست من الأصل وقد وضعناها لمزيد التوضيح.

(٤) القلم: ١٧.

(٥) البقرة: ٢٤٩.

فتعلّق الابتلاء في الآية بالكلمات إن كان المراد بها الأقوال إنّما هو من جهة تعلّقها بالعمل وحكايتها عن العهود والأوامر المتعلّقة بالفعل كقوله تعالى: ﴿ وَقُولُوا لِلنَاسِ حُسناً ﴾ (١) أي عاشروهم معاشرةً جميلة.

وقوله: ﴿بكلمات فأتمهنّ﴾ الكلمات وهي جمع كلمة وإن أُطلقت في القرآن على العين الخارجي دون اللفظ والقول، كقوله تعالى: ﴿ وكلمةٍ منه اسمه المسيح عيسى بن مريم ﴾ (٢)، إلّا أنّ ذلك بعناية إطلاق القول كما قال تعالى: ﴿ إنّ مَثَلَ عيسىٰ عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَه مِن تُرابٍ ثُمّ قَالَ لَهُ كُن فَيكُون ﴾ (٣).

معنى «الكلمات» في لغة القرآن:

وجميع ما نسب إليه تعالى من الكلمة في القرآن أُريد بها القول كقوله تعالى: ﴿ وَلَا مُبدِّلَ لِكَلِمَاتِ الله ﴾ (٤) وقوله: ﴿ لَا تَبدِيلَ لِكَلِمَاتِ الله ﴾ (٥)، وقوله: ﴿ أن يُحقَّ الحقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ (٦) وقوله: ﴿ إنّ الّذِينَ حَقَّت عَلَيهِم كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤمِنُون ﴾ (٧) وقوله: ﴿ وَلَكن حَقَّت كَلِمَةُ العَذَاب ﴾ (٨) وقوله: ﴿ وَكَذلِكَ حَقَّت كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهم أصحَابُ النَّار ﴾ (٩) وقوله: ﴿ وَلَولَا كَلِمَةٌ سَبَقَت

---

(١) البقرة: ٨٣.
(٢) آل عمران: ٤٥.
(٣) آل عمران: ٥٩.
(٤) الأنعام: ٣٤.
(٥) يونس: ٦٤.
(٦) الأنفال: ٧.
(٧) يونس: ٩٦.
(٨) الزمر: ٧١.
(٩) غافر: ٦.

مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسمّى لَقُضِيَ بَينَهُم ﴾[١] وقوله: ﴿ وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُليَا ﴾[٢] وقوله: ﴿ قَالَ فَالحَقُّ وَالحَقَّ أَقُولُ ﴾[٣] وقوله: ﴿ إِنَّما قَولُنا لِشَيءٍ إِذا أَردنَاهُ أَن نَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونَ ﴾[٤].

فهذه ونظائرها أُريد بها القول بعناية أنّ القول توجيه ما يريد المتكلّم إعلامه المخاطب ما عنده كما في الأخبار أو لغرض تحميله عليه كما في الإنشاء، ولذلك ربما تتّصف في كلامه تعالى بالتمام كقوله تعالى: ﴿ وَتَمَّت كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدقاً وَعَدلاً لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾[٥] وقوله تعالى: ﴿ وَتَمّت كَلِمَةُ رَبِّكَ الحُسنىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسرائِيل ﴾[٦]، كأنّ الكلمة إذا صدرت عن قائلها فهي ناقصة بعد، لم تتمّ حتّىٰ تلبس لباس العمل وتعود صدقاً.

وهذا لا ينافي كون قوله تعالى فعله، فإنّ الحقائق الواقعية لها حكم، وللعنايات الكلامية اللفظية حكم آخر، فما يريد الله سبحانه إظهاره لواحد من أنبيائه أو غيرهم بعد خفائه، أو يريد تحميله على أحد قول وكلام له لاشتماله علىٰ غرض القول والكلام وتضمّنه غاية الخبر والنبأ والأمر والنهي، وإطلاق القول والكلمة على مثل ذلك شائع في الاستعمال إذا اشتمل على ما يؤدّيه القول والكلمة، تقول: لأفعلنّ كذا وكذا، لقول قلته وكلمة قدّمتها، ولم تقل قولاً ولا قدّمت كلمة، وإنّما عزمت عزيمة لا تنقضها شفاعة

---

(١) الشورىٰ: ١٤.
(٢) التوبة: ٤٠.
(٣) ص: ٨٤.
(٤) النحل: ٤٠.
(٥) الأنعام: ١١٥.
(٦) الأعراف: ١٣٧.

شفيع أو وهن إرادة، ومنه قول عنترة:

وقولي كلمّا جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي

يريد بالقول توطين نفسه على الثبات والعزم، على لزومها مكانها لتفوز بالحمد إن قتل، وبالاستراحة إن غلب.

الأهلية للإمامة:

إذا عرفت ذلك ظهر لك أنّ المراد بقوله تعالى: ﴿بكلمات﴾ قضايا ابتلى بها وعهود إلهية أُريدت منه[1]، كابتلائه بالكواكب والأصنام، والنار والهجرة، وتضحيته بابنه، وغير ذلك. ولم يبيّن في الكلام ما هي الكلمات، لأنّ الغرض غير متعلّق بذلك. نعم قوله: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾ من حيث ترتّبه على الكلمات تدلّ على أنها كانت أُموراً تثبت بها لياقته عليه السلام لمقام الإمامة.

فهذه هي الكلمات، وأمّا إتمامهنّ فإن كان الضمير في قوله تعالى: ﴿أتمهنّ﴾ راجعاً إلى إبراهيم كان معنى إتمامهنّ إتيانه عليه السلام ما أُريد منه وامتثاله لما أُمر به، وإن كان الضمير راجعاً إليه تعالى كما هو الظاهر كان

---

(١) فيما يرتبط بمهام الإمامة كالتحلّي بتحمّل صعوباتها وثقل أمانتها وإنجاز المطلوب منها في كلّ الأحوال، والمعيار في ذلك علم الله جلت قدرته بقدرة وأهلية الّذي يختاره لهذا المنصب الإلهيّ على الوفاء بهذه العهود والمواثيق، وهذه الحقيقة تشير إليها الفقرة التالية من دعاء الندبة الّذي يستحبّ تلاوته في الأعياد الأربعة: «اللّهمّ لك الحمد على ما جرى به قضاؤك في أوليائك الّذين استخلصتهم لنفسك ودينك... بعد أن شرطت عليهم الزهد في درجات هذه الدنيا الدنية وزخرفها وزبرجها فشرطوا لك ذلك وعلمت منهم الوفاء به فقبلتهم وقرّبتهم... ورفدتهم بعلمك وجعلتهم الذريعة إليك والوسيلة إلى رضوانك...» مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي: ٥٣٢ من الطبعة المعربة.

المراد توفيقه لما أُريد منه ومساعدته علىٰ ذلك. وأمّا ما ذكره بعضهم: أنّ المراد بالكلمات قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾ إلىٰ آخر الآيات فمعنىٰ لا ينبغي الركون إليه إذ لم يعهد في القرآن إطلاق الكلمات علىٰ جمل الكلام.

الإمامة غير النبوّة:

قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾ أي مقتدىً يقتدي بك الناس ويتّبعونك في أقوالك وأفعالك، فالإمام هو الّذي يقتدي ويأتمّ به الناس، ولذلك ذكر عدّة من المفسّرين أنّ المراد به النبوّة، لأنّ النبيّ يقتدي به أُمّته في دينهم، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ﴾ (١)، لكنه في غاية السقوط.

أمّا أوّلاً: فلأن قوله: ﴿إماماً﴾ مفعول ثانٍ لعامله الّذي هو قوله: ﴿جاعلك﴾ واسم الفاعل لا يعمل إذاكان بمعنى الماضي، وإنّما يعمل إذاكان بمعنى الحال أو الاستقبال، فقوله ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾ وعدٌ له عليه السلام بالإمامة في ما سيأتي، مع أنّه وحي لا يكون إلّا مع نبوّة، فقدكان عليه السلام نبيّاً قبل تقلّده الإمامة، فليست الإمامة في الآية بمعنى النبوّة (ذكره بعض المفسّرين).

وأما ثانياً: فلأنا بيّنا في صدر الكلام أن قصّة الإمامة إنّما كانت في أواخر عهد إبراهيم عليه السلام بعد مجيء البشارة له بإسحاق وإسماعيل، وإنّما جاءت الملائكة بالبشارة في مسيرهم إلىٰ قوم لوط وإهلاكهم، وقدكان إبراهيم حينئذٍ نبيّاً مرسلاً، فقدكان نبيّاً قبل أن يكون إماماً، فإمامته غير نبوّته.

---

(١) النساء: ٦٤.

تمييز المصطلح القرآني عن غيره[1]:

ومنشأ هذا التفسير وما يشابهه الابتذال الطارىء على معاني الألفاظ الواقعة في القرآن الشريف في أنظار الناس من تكرّر الاستعمال بمرور الزمن، ومن جملة تلك الألفاظ لفظ الإمامة، ففسّره قوم: بالنبوّة والتقدّم والمطاعية مطلقاً، وفسّره آخرون بمعنى الخلافة أو الوصاية أو الرئاسة في أُمور الدين والدنيا، وكلّ ذلك لم يكن، فإنّ النبوّة معناها تحمّل النبأ من جانب الله، والرسالة معناها تحمّل التبليغ، والمطاعية والإطاعة قبول الإنسان ما يراه أو يأمره غيره، وهو من لوازم النبوّة والرسالة، والخلافة نحو من النيابة، وكذلك الوصاية، والرئاسة نحو من المطاعية وهو مصدرية الحكم في الاجتماع. وكلّ هذه المعاني غير معنى الإمامة الّتي هي كون الإنسان بحيث يقتدي به غيره بأن يطبق أفعاله وأقواله على أفعاله وأقواله بنحو التبعية، ولا معنى لأن يُقال لنبيّ من الأنبياء مفترض الطاعة: إنّي جاعلك للناس نبيّاً أو مطاعاً فيما تبلغه بنبوّتك، أو رئيساً تأمر وتنهى في الدين، أو وصيّاً، أو خليفةً في الأرض تقضي بين الناس في مرافعاتهم بحكم الله.

وليست الإمامة تخالف الكلمات السابقة وتختصّ بموردها بمجرّد العناية

---

(١) معرفة المصطلح القرآني تعينُ كثيراً على معرفة وفهم مراد الآيات الكريمة، وهذه من ثمار منهج تفسير القرآن بالقرآن، فهو يستند إلى معرفة مفهوم ومعنى المفردات اللغوية من الاستخدام القرآني لها وليس من الاصطلاح الرائج لها، فصحيح أن الاصطلاح الرائج قد تكون له جذور قرآنية، إلّا أن ثمة عوامل أُخرى تتدخل في صياغته الأخيرة تبعده عن الاستخدام القرآني الأصلي، فقد تكون الصياغة الأخيرة له محددة بأحد مصاديق الاستخدام القرآني للمفردة المعيّنة، والاستناد إلى هذه الصياغة يعيق الباحث عن معرفة المراد من الحديث القرآني في الحالات الأُخرى غير الّتي حصر بها الاصطلاح الرائج استخدام المفردة فيها.

اللفظية فقط، إذ لا يصحّ أن يقال لنبيّ ـ من لوازم نبوّته كونه مطاعاً بعد نبوّته ـ: إنّي جاعلك مطاعاً للناس بعد ما جعلتك كذلك، ولا يصحّ أن يقال له ما يؤول إليه معناه وإن اختلف بمجرّد عناية لفظية، فإنّ المحذور هو المحذور، وهذه المواهب الإلهيّة ليست مقصورة علىٰ مجرّد المفاهيم اللفظية، بل دونها حقائق من المعارف الحقيقية، فلمعنى الإمامة حقيقة وراء هذه الحقائق.

معنىٰ الإمامة:

والّذي نجده في كلامه تعالى أنّه كلّما تعرّض لمعنى الإمامة تعرّض معها للهداية تعرّض التفسير، قال تعالى في قصص إبراهيم ﷺ: ﴿ *وَوَهبنَا لَهُ إسحَاقَ وَيَعقُوبَ نَافِلَةً وَكُلّاً جَعَلنَا صَالِحِين * وَجَعَلنَاهُم أئِمةً يَهدُونَ بِأمرِنَا* ﴾ [1] وقال سبحانه: ﴿ *وَجَعَلنَا مِنهُم أئمةً يَهدُونَ بِأمرِنَا لمّا صَبَروا وَكَانُوا بِآياتِنا يُوقِنُون* ﴾ [2]، فوصفها بالهداية وصف تعريف، ثمّ قيدها بالأمر، فبيّن أنّ الإمامة ليست مطلق الهداية، بل هي الهداية الّتي تقع بأمر الله، وهذا الأمر هو الّذي بيّن حقيقته في قوله: ﴿ *إنّما أمرُهُ إذا أرَادَ شيئاً أن يَقُولَ لَهُ كُن فَيكُون * فَسُبحَانَ الّذِي بِيدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيء* ﴾ [3] وقوله: ﴿ *وَمَا أمرُنا إلّا وَاحِدَةٌ كَلَمحٍ بِالبَصَر* ﴾ [4]، وسنبيّن في الآيتين أنّ الأمر الإلهي ـ وهو الّذي تسمّيه الآية المذكورة بالملكوت ـ وجه آخر للخلق، يواجهون به الله سبحانه، طاهر مطهّر من قيود الزمان والمكان، خالٍ من التغير والتبدّل وهو المراد بكلمة «كن» الّذي ليس

---

(١) الأنبياء: ٧٢ ـ ٧٣.

(٢) السجدة: ٢٤.

(٣) يس: ٨٢ ـ ٨٣.

(٤) القمر: ٥٠.

إلّا وجود الشيء العيني، وهو قبال الخلق الّذي هو وجه آخر من وجهي الأشياء، فيه التغير والتدريج والانطباق على قوانين الحركة والزمان، وليكن هذا عندك على إجماله حتّى يأتيك تفصيله إن شاء الله العزيز.

مسؤولية الإمام:

وبالجملة، فالإمام هادٍ يهدي بأمرٍ ملكوتيّ يصاحبه، فالإمامة بحسب الباطن نحو ولاية للناس في أعمالهم، وهدايتها إيصالها إيّاهم إلى المطلوب بأمر الله دون مجرّد إراءة الطريق الّذي هو شأن النبيّ والرسول، وكلّ مؤمن يهدي إلى الله سبحانه بالنصح والموعظة الحسنة. قال تعالى: ﴿ *وَمَا أَرسَلنَا مِن رَسُولٍ إلّا بِلسانِ قومِهِ لِيُبيّنَ لَهُم فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاءُ وَيَهدي مَن يَشاء* ﴾ (١) وقال تعالى في مؤمن آل فرعون: ﴿ *وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَاقَومِ اتَّبِعُونِ أَهدِكُم سَبِيلَ الرَّشَادِ* ﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿ *فَلَولَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرقَةٍ مِنهُم طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَومَهُم إِذَا رَجَعُوا إِلَيهِم لَعَلَّهُم يَحذَرُونَ* ﴾ (٣)، وسيتّضح لك هذا المعنى مزيد اتّضاح.

ثمّ إنّه تعالى بيّن سبب موهبة الإمامة بقوله: ﴿ *لمّا صَبَروا وَكَانُوا بِآياتِنا يُوقِنُون* ﴾ (٤) الآية، فبيّن أنّ الملاك في ذلك صبرهم في جنب الله، وقد أطلق الصبر، فهو في كلّ ما يبتلي ويمتحن به عبد في عبوديته، وكونهم قبل ذلك موقنين، وقد ذكر في جملة قصص إبراهيم ﷺ قوله: ﴿ *وَكَذَلِكَ نُري إبراهيمَ مَلَكُوتَ السَمَاواتِ وَالأرضِ وَلِيَكُونَ مِنَ المُوقِنِين* ﴾ (٥) والآية كما ترى تعطي

---

(١) إبراهيم: ٤.

(٢) غافر: ٣٨.

(٣) التوبة: ١٢٢.

(٤) السجدة: ٢٤.

(٥) الأنعام: ٧٥.

بظاهرها: أن إراءة الملكوت لإبراهيم كانت مقدّمة لإفاضة اليقين عليه، ويتبيّن به أنّ اليقين لا ينفكّ عن مشاهدة الملكوت كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ (١) وقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ * كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ـ إلى أن قال ـ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (٢)، وهذه الآيات تدلّ على أنّ المقرّبين هم الّذين لا يحجبون عن ربّهم بحجاب قلبيّ وهو المعصية والجهل والريب والشكّ، فهم أهل اليقين بالله، وهم يشهدون علّيّين كما يشهدون الجحيم.

صفات الإمام:

وبالجملة، فالإمام يجب أن يكون إنساناً ذا يقين مكشوفاً له عالم الملكوت ـ متحققاً بكلماتٍ من الله سبحانه ـ وقد مرّ أنّ الملكوت هو الأمر الّذي هو الوجه الباطن من وجهي هذا العالم، فقوله تعالى: ﴿يهدون بأمرنا﴾ يدلّ دلالة واضحة على أن كلّ ما يتعلّق به أمر الهداية ـ وهو القلوب والأعمال ـ فللإمام باطنه وحقيقته، ووجهه الأمري حاضر عنده غير غائب عنه، ومن المعلوم أنّ القلوب والأعمال كسائر الأشياء في كونها ذات وجهين، فالإمام يحضر عنده ويلحق به أعمال العباد، خيرها وشرّها، وهو المهيمن على السبيلين جميعاً، سبيل السعادة وسبيل الشقاوة. وقال تعالى أيضاً: ﴿يَومَ نَدعو كلّ أناسٍ بإمامِهِم﴾ (٣)، وسيجيء تفسيره بالإمام الحقّ دون كتاب الأعمال، على ما يظنّ من ظاهرها، فالإمام هو

---

(١) التكاثر: ٥ و ٦.

(٢) المطفّفين: ١٤ ـ ٢١.

(٣) الإسراء: ٧١.

الّذي يسوق الناس إلى الله سبحانه يوم تبلى السرائر، كما أنّه يسوقهم إليه في ظاهر هذه الحياة الدنيا وباطنها، والآية مع ذلك تفيد أنّ الإمام لا يخلو عنه زمان من الأزمنة وعصر من الأعصار لمكان قوله تعالى: ﴿*كلّ أناس*﴾ على ما سيجيء في تفسير الآية من تقريبه.

ثمّ إنّ هذا المعنىٰ ـ أعني الإمامة ـ علىٰ شرافته وعظمته لا يقوم إلّا بمن كان سعيد الذات بنفسه، إذ الّذي ربّما تلبّس ذاته بالظلم والشقاء فإنّما سعادته بهداية من غيره وقد قال الله تعالى: ﴿ *أَفَمَن يَهدي إلى الحقِّ أَحَقُّ أن يتّبع أم مَن لَا يَهدّي إلّا أن يُهدىٰ* ﴾ [1]. وقد قوبل في الآية بين الهادي إلى الحقّ وبين غير المهتدي إلّا بغيره، ـ أعني المهتدي بغيره ـ وهذه المقابلة تقتضي أن يكون الهادي إلى الحق مهتدياً بنفسه، أنّ المهتدي بغيره لا يكون هادياً إلى الحقّ البتة.

عصمة الإمام والتسديد الإلهيّ:

ويُستنتج من هنا أمران، أحدهما: أنّ الإمام يجب أن يكون معصوماً عن الضلال والمعصية، وإلّا كان غير مهتدٍ بنفسه ـ كما مرّ ـ كما يدلّ عليه أيضاً قوله تعالى: ﴿ *وَجعلناهُم أئمّةً يَهدُونَ بِأمرِنَا وَأوحَينا إليهِم فِعلَ الخَيراتِ وَإقَامَ الصَّلاةِ وَإيتاءَ الزكَاةِ وَكَانُوا لنَا عَابدِين* ﴾ [2]. فأفعال الإمام خيرات يهتدى إليها لا بهداية من غيره بل باهتداءٍ من نفسه بتأييدٍ إلهي وتسديد ربّاني، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ *فعل الخيرات* ﴾ بناءً على أنّ المصدر المضاف يدلّ على الوقوع، ففرق بين مثل قولنا: وأوحينا إليهم أن افعلوا الخيرات فلا يدل على التحقّق والوقوع، بخلاف قوله: ﴿ *وأوحينا إليهم فعل الخيرات* ﴾ فهو يدلّ على أنّ ما

(١) يونس: ٣٥.

(٢) الأنبياء: ٧٣.

فعلوه من الخيرات إنّما هو بوحيٍ باطني وتأييدٍ سماوي.

الثاني: عكس الأمر الأوّل، وهو أنّ من ليس بمعصوم فلا يكون إماماً هادياً إلى الحقّ البتة.

وبهذا البيان يظهر أنّ المراد بالظالمين في قوله تعالى، ﴿ *قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ* ﴾[1] مطلق من صدر عنه ظلم مّا، من شركٍ أو معصية، وإن كان منه في برهةٍ من عمره، ثمّ تاب وصلح.

وقد سئل بعض أساتيذنا رحمة الله عليه عن تقريب دلالة الآية على عصمة الإمام فأجاب:

إنّ الناس بحسب القسمة العقلية على أربعة أقسام: مَن كان ظالماً في جميع عمره، ومَن لم يكن ظالماً في جميع عمره، ومَن هو ظالم في أول عمره دون آخره، ومَن هو بالعكس هذا. وإبراهيم عليه السلام أجلّ شأناً من أن يسأل الإمامة للقسم الأوّل والرابع من ذرّيته، فبقي قسمان وقد نفى الله أحدهما، وهو الّذي يكون ظالماً في أول عمره دون آخره، فبقي الآخر، وهو الّذي يكون غير ظالم في جميع عمره، إنتهىٰ.

وقد ظهر ممّا تقدّم من البيان أُمور:

الأوّل: أنّ الإمامة لمجعولة.

الثاني: أنّ الإمام يجب أن يكون معصوماً بعصمة إلهية.

الثالث: أنّ الأرض وفيه الناس لا تخلو عن إمام حقّ.

الرابع: أنّ الإمام يجب أن يكون مؤيّداً من عند الله تعالى.

الخامس: أنّ أعمال العباد غير محجوبة عن علم الإمام.

---

(١) البقرة: ١٢٤.

السادس : أنه يجب أن يكون عالماً بجميع ما يحتاج إليه الناس في أُمور معاشهم ومعادهم.

السابع : أنه يستحيل أن يوجد فيهم من يفوقه في فضائل النفس.

فهذه سبعة مسائل هي أُمّهات مسائل الإمامة، تعطيها الآية الشريفة بما ينضمّ إليها من الآيات والله الهادي.

فإن قلت : لو كانت الإمامة هي الهداية بأمر الله تعالىٰ وهي الهداية إلى الحقّ الملازم مع الاهتداء بالذات كما استفيد من قوله تعالىٰ : ﴿ *أفمن يهدي إلى الحقّ أحقّ أن يتّبع.. الآية* ﴾ كان جميع الأنبياء أئمةً قطعاً، لوضوح أن نبوّة النبيّ لا يتمّ إلّا باهتداء من جانب الله تعالىٰ بالوحي، من غير أن يكون مكتسباً من الغير، بتعليم أو إرشاد ونحوهما، وحينئذٍ فموهبة النبوّة تستلزم موهبة الإمامة، وعاد الإشكال إلى أنفسكم.

قلت : الّذي يتحصّل من البيان السابق المستفاد من الآية أنّ الهداية بالحقّ ـ وهي الإمامة ـ تستلزم الاهتداء بالحقّ، وأما العكس وهو أن يكون كلّ من اهتدى بالحقّ هادياً لغيره بالحقّ، حتّىٰ يكون كلّ نبيّ لاهتدائه بالذات إماماً، فلم يتبيّن بعد، وقد ذكر سبحانه هذا الاهتداء بالحقّ، من غير أن يقرنه بهداية الغير بالحقّ في قوله تعالى : ﴿ *وَوَهَبنَا لَهُ إِسحَاقَ وَيَعقوبَ كُلّاً هَدينَا وَنُوحاً هَدينَا مِن قبلُ وَمِن ذرّيّته دَاوُدَ وَسُلَيمانَ وأيّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسىٰ وَهَرون وَكَذلِكَ نَجزي المُحسِنين * وَزَكريّا وَيَحيىٰ وَعِيسَىٰ وَإليَاسَ كُلٌّ مِن الصَّالِحين * وَإسمَعِيلَ وَاليَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلّاً فَضّلنَا عَلَى العَالِمين * وَمِن آبائِهم وَذرّيَاتِهم وَإخوانِهِم واجتَبيناهُم وَهَدينَاهُم إلَىٰ صِرَاطٍ مُستقِيم * ذَلِكَ هُدىٰ اللهِ يَهدي بِهِ مَن يَشاءُ مِن عِبادِهِ وَلَوْ أشرَكُوا لَحبِطَ عَنهم مَا كَانُوا يَعمَلُون * أُولئكَ الّذِينَ آتَيناهُمُ الكِتَاب*

*وَالحُكمَ وَالنُبوَّةَ فإن يَكفُر بِهَا هَؤلاَءِ فَقَد وَكَلنَا بِها قَوماً لَيسُوا بِها بِكافِرين * أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُداهمُ اقتِده* ﴾ (١).

وسياق الآيات كما ترى يعطي أنّ هذه الهداية أمر ليس من شأنه أن يتغيّر ويتخلّف، وأنّ هذه الهداية لن ترتفع بعد رسول الله عن أُمّته، بل عن ذرّية إبراهيم منهم خاصّة، كما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿ *وَإذ قَالَ إبراهيمُ لأبِيهِ وَقَومِهِ إنَّني بَرَاءٌ مِمَا تَعبُدُون * إلّا الّذِي فَطَرني فإنَّه سَيهدِينِ * وَجَعَلَها كَلِمَةً باقيَةً فِي عَقبهِ لَعلَّهم يَرجِعون* ﴾ (٢) فأعلم قومه ببراءته في الحال وأخبرهم بهدايته في المستقبل، وهي الهداية بأمر الله حقّاً، لا الهداية الّتي يعطيها النظر والاعتبار، فإنّها كانت حاصلة مدلولاً عليها بقوله: ﴿ *إنني براء مما تعبدون * إلّا الّذي فطرني* ﴾، ثمّ أخبر الله أنه جعل هذه الهداية كلمةً باقيةً في عقِب إبراهيم، وهذا أحد الموارد الّتي أطلق القرآن الكلمة فيها على الأمر الخارجي دون القول، كقوله تعالى: ﴿ *وَألزَمَهُم كَلِمَةَ التَّقوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا* ﴾ (٣).

الإمامة في ذرّية إبراهيم:

وقد تبيّن بما ذكر: أن الإمامة في ولد إبراهيم بعده، وفي قوله تعالى: ﴿ *قال ومن ذرّيتي قال لا ينال عهدي الظالمين* ﴾ إشارة إلىٰ ذلك، فإنّ إبراهيم عليه السلام إنّما كان سأل الإمامة لبعض ذرّيته لا لجميعهم، فأُجيب بنفيها عن الظالمين من ولده، وليس جميع ولده ظالمين بالضرورة حتىٰ يكون نفيها عن الظالمين نفياً لها عن الجميع، ففيه إجابة لما سأله مع بيان أنّها عهد، وعهده تعالىٰ لا ينال الظالمين.

---

(١) الأنعام: ٨٤ ـ ٩٠.
(٢) الزخرف: ٢٦ ـ ٢٨.
(٣) الفتح: ٢٦.

قوله تعالى: ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾، في التعبير إشارة إلىٰ غاية بعد الظالمين عن ساحة العهد الإلهيّ، فهي من الاستعارة بالكناية[1].

دلالات الآية:

إذن المستفاد من هذه الآية الكريمة والآيات الأُخرىٰ المبيّنة لمضامينها أُمورٌ أبرزها فيما يرتبط بموضوع البحث:

١ـ أنّ الإمامة غير النبوّة، فهي نمطٌ من الهداية بأمر الله ﴿وجعلناهم أئمةً يهدون بأمرنا﴾، تتضمّن الأخذ بأيدي المهتدين على الصراط المستقيم وإيصالهم إلى المطلوب، فلا تقتصر على الإرشاد إلى الصراط المستقيم، كما هو حال مهمّة النبوّة في التبليغ. وقد أصبح إبراهيم إماماً بعدما كان نبيّاً، فنبوّته عليه السلام سابقة لإمامته.

ولذلك فحاجة البشر للإمام الهادي بأمر الله قائمة في زمن النبيّ أو بعده، لأنّ مهمّته لا تقتصر على التبليغ والارشاد والهداية العامّة للمطلوب، بل تتضمّن الإيصال والإعانة علىٰ سلوك الصراط المستقيم. لذا يجب أن لا تخلو الأرض من حجّة لله وهادٍ يهدي إليه بأمره تبارك وتعالىٰ، سواءٌ كان هذا الهادي هو النبيّ المنذر أو من يخلفه في الوصاية علىٰ شريعته.

٢ـ وإمامة الهداية بأمر الله سبحانه وتعالىٰ هي عهدٌ من الله لبعض عباده ﴿لا ينال عهدي﴾.

٣ـ والله تبارك وتعالىٰ هو الّذي يختار لهذا العهد من يشاء من عباده، فالإمامة مجعولة منه عزّوجلّ لبعض عباده ﴿إنّي جاعلك للناس إماماً﴾،

---

(١) تفسير الميزان: ١ / ٢٦٨ ـ ٢٧٦.

﴿ *وجعلناهم أئمةً يهدون بأمرنا* ﴾ ، ﴿ *وجعلنا منهم أئمةً يهدون بأمرنا* ﴾.

٤ـ وهذا الاختيار يستند إلىٰ توافر شروطه في المختارين للإمامة ﴿ *وإذ إبتلىٰ إبراهيمَ ربُّه بكلماتٍ فأتمهنّ* ﴾ ، ﴿ *... وكانوا لنا عابدين* ﴾ ، ﴿ *وجعلنا منهم أئمةً يهدون بأمرنا لمّا صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون* ﴾ ، ﴿ *لا ينال عهدي الظالمين* ﴾.

٥ـ ومحور هذه الأهلية هو العصمة من كلّ ظلم ﴿ *لا ينال عهدي الظالمين* ﴾ والمعرفة الكاملة بأمر الله الّذي يهدون به ، واليقين وتمام العبودية. والاطّلاع علىٰ أحوال الناس الّذين يتولّون بهدايتهم وبالتالي امتلاك نمط من المعرفة الملكوتية ، وليس المعرفة العادية اللازمة لأداء مهمّة الهداية ،كما تقدّم في بحث العلّامة الطباطبائي مفصّلاً.

٦ـ واختيار بعض العباد لهذه المهمّة يستتبع إحاطتهم بنمطٍ خاصّ من العصمة والهداية الإلهيّة المباشرة ، فالهادون بأمر الله مهتدون به مباشرةً لا بغيره ﴿ *أفمن يهدي إلى الحقّ أحقّ أن يتّبع أم من لا يهدّي إلّا أن يُهدىٰ* ﴾ أي يُهدىٰ بغيره كما تقدّم ، ولذلك فهم يحظون برعاية إلهية خاصّة : ﴿ *وَوَهَبنَا لَهُ إسحَاقَ وَيَعقوبَ نافلةً وَكلاً جَعلنَا صَالِحين * وَجَعَلنَاهُم أئمّةً يَهدونَ بِأمرِنَا وأوحينَا إليهم فَعلَ الخيراتِ وإقَامَ الصلاةِ وَإيتاء الزكاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابدِين* ﴾.

وحيث إنّ المتأهّل لهذا المقام يختاره الله تبارك وتعالىٰ مباشرةً وجب أن يكون منصوصاً علىٰ إمامته من الله تبارك وتعالىٰ لاستحالة معرفة توفّر هذه الصفات وهي قلبية وغيبية في شخص بدون الإخبار عن الله بشأنه ، فيجب أن يكون ممّن ورد تعيّنهم والنصّ عليهم من قنوات الوحي الإلهيّ.

٧ـ تفيد الآية الكريمة أن المتأهّلين لمقام إمامة الهداية العامّة بأمر الله هم من ذرّية إبراهيم عليه‌السلام وهم المعصومون وغير الظالمين من ذرّيته ،

وفيهم تبقىٰ كلمة الإمامة، كما تنصّ علىٰ ذلك الآية اللاحقة كما سنرىٰ بإذن الله.

خامساً: عدم انقطاع الإمامة في ذرّية إبراهيم عليه السلام:

قوله تعالىٰ:

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُم يَرجِعُون﴾ [1]

تفسير الآية:

تأتي الآية الكريمة في سياق حديث قرآني عن إعلان إبراهيم الخليل سلام الله عليه للبراءة من مختلف أشكال الشرك ودعوته إلى التوحيد الخالص وعن أنّ الله جلّت قدرته سيهديه، وهي تدلّ على استمرار وجود هذه الهداية للتوحيد في ذرّيته إلىٰ يوم القيامة، لنلاحظ تفسير الآية الكريمة ـ كما عن الميزان ـ قبل التطرّق إلىٰ دلالاتها.

قوله تعالى: ﴿وجعلها كلمةً باقيةً في عقِبه لعلّهم يرجِعون﴾ الظاهر أنّ ضمير الفاعل المستتر في «جعلها» لله سبحانه، والضمير البارز ـ على ما قيل ـ لكلمة البراءة الّتي تكلّم بها إبراهيم عليه السلام ومعناها معنى كلمة التوحيد، فإنّ مفاد «لا إله إلّا الله» نفي الآلهة غير الله لا نفي الآلهة وإثبات الإله تعالىٰ [2] وهو ظاهر فلا حاجة إلىٰ ما تكلّف به بعضهم أنّ الضمير لكلمة التوحيد المعلوم ممّا تكلّم به إبراهيم عليه السلام.

والمراد بعقِبه ذرّيته وولده، وقوله: ﴿لعلّهم يرجِعون﴾ أي يرجعون من

---

(١) الزخرف: ٢٨.

(٢) وذلك أنّ «الله» فيها مرفوع على البدلية لا منصوب على الاستثناء.

عبادة آلهةٍ غير الله إلىٰ عبادته تعالىٰ، أي يرجع بعضهم ـ وهم العابدون لغير الله بدعوة بعضهم وهم العابدون لله ـ إلىٰ عبادته تعالىٰ، وبهذا يظهر أنّ المراد ببقاء الكلمة في عقِبه عدم خلوّهم عن الموحّد ما داموا، ولعلّ هذا عن استجابة دعائه عليه السلام، إذ يقول: ﴿ وَاجنُبني وَبَنيَّ أن نَعبُدَ الأصنَام ﴾ (١).

وقيل: الضمير في «جعل» لإبراهيم عليه السلام فهو الجاعل هذه الكلمة باقية في عقِبه رجاء أن يرجعوا إليها، والمراد بجعلها باقية فيهم وصيته لهم بذلك، كما قال تعالى: ﴿ وَوَصّىٰ بها إبراهيمُ بَنيهِ وَيَعقُوبَ يابَنيَّ إنّ الله اصطفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فلا تَمُوتُنّ إلّا وَأنتُم مُسلِمُون ﴾ (٢).

وأنت خبير بأنّ الوصية بكلمة التوحيد لا تسمّىٰ جعلاً للكلمة باقية في العقِب، وإن صحّ أن يقال: أراد بها ذلك لكنه غير جعلِها باقية فيهم!

وقيل: المراد أنّ الله جعل الإمامة كلمة باقية في عقِبه، وسيجيء الكلام فيه في البحث الروائي الآتي إن شاء الله.

ويظهر من الآية أنّ ذرّية إبراهيم عليه السلام لا تخلو من هذه الكلمة إلىٰ يوم القيامة (٣).

ثمّ قال رحمه الله في بحثه الروائي عن تفسير الآية الكريمة:

في المجمع في قوله تعالى: ﴿ وجعلها كلمةً باقيةً في عقِبه ﴾ وقيل: الكلمة الباقية في عقبه هي الإمامة إلىٰ يوم الدين. عن أبي عبد الله عليه السلام.

أقول: وفي هذا المعنى روايات أُخر، وقد طبّقت الآية في بعضها على الإمامة في عقِب الحسين عليه السلام.

---

(١) إبراهيم: ٣٥.

(٢) البقرة: ١٣٢.

(٣) تفسير الميزان: ١٨ / ٩٦ ـ ٩٧، ١٠٦.

والتأمّل في الروايات يعطي أنّ بناءها على إرجاع الضمير في «جعلها» إلى الهداية المفهومة من قوله: «سيهدين» وقد تقدّم في تفسير قوله تعالى: ﴿إنّي جاعلك للناس إماماً﴾ أنّ الإمام وظيفته هداية الناس في ملكوت أعمالهم، بمعنىٰ سوقهم إلى الله سبحانه بارشادهم وإيرادهم درجات القرب من الله سبحانه وإنزال كلّ ذي عملٍ منزله الّذي يستدعيه عمله، وحقيقة الهداية من الله سبحانه وتنسب إليه بالتبع أو بالعرض.

وفعلية الهداية النازلة من الله إلى الناس تشمله أوّلاً، ثمّ تفيض عنه إلىٰ غيره، فله أتمّ الهداية ولغيره ما هي دونها، وما ذكره إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿فإنّه سيهدين﴾ هداية مطلقة تقبل الانطباق علىٰ أتمّ مراتب الهداية الّتي هي حظّ الإمام منها فهي الإمامة وجعلها كلمة باقية في عقِبه جعل الإمامة كذلك[1].

دلالات الآية:

يُستفاد من الآية الكريمة فيما يرتبط بموضوع البحث:

١ ـ بقاء «الكلمة» الّتي يُهتدىٰ بها إلى التوحيد الخالص والبراءة من أشكال الشرك في ذرّية إبراهيم الخليل صلوات الله عليه إلىٰ يوم القيامة. بمعنى استمرار وجود أشخاصٍ من ذرّيته في كلّ جيل يمكن الرجوع إليهم في كلّ عصر للوصول إلى البراءة من العبوديات الشركية والفوز بالتوحيد الخالص. أي أن يوجد متأهّل من الذرّية الإبراهيمية في كلّ عصر للرجوع إليه في الهداية للتوحيد الخالص.

---

(١) تفسير الميزان: ١٨ / ٩٦ ـ ٩٧، ١٠٦.

٢ـ وبقاء هذه «الكلمة» هو «جعل» من الله تبارك وتعالىٰ، لذا فمن المحال تخلّفه.

٣ـ والمعنى الوحيد المنسجم مع دلالة الآية الكريمة وما قبلها والآيات الأُخرى الواردة في الموضوع نفسه هو أن يكون المقصود بالكلمة في الآية الكريمة هو «الإمامة» لأنها هي وسيلة الوصول إلى التوحيد الخالص والنجاة من أشكال الشرك والوثنية.

٤ـ وعليه، فالآية تعاضد دلالات الآيات الكريمة الأُخرىٰ الّتي تحدّثنا عنها في هذا الباب والدالّة علىٰ لزوم وجود إمام هادٍ إلى الله تبارك وتعالىٰ في كلّ عصر منتخب لهذه المهمّة من قِبل الله تبارك وتعالىٰ، وتضيف إليها النصّ على استمرار الإمامة في الذرّية الإبراهيمية دونما انقطاع إلىٰ يوم القيامة.

٥ـ وحيث لم يرد نصّ قرآني على استمرار الإمامة بهذا المعنىٰ في غير الذرّية الإبراهيمية، لذا يُستفاد من الآية الكريمة شرط آخر من شروط الإمام الهادي بأمر الله الّذي يجب معرفته واتّباعه، والّذي لا يخلو من مصداقٍ له أيّ زمان وهو أن يكون من الذرّية الإبراهيمية.

٦ـ وعليه، فالآية الكريمة تعاضد وتكمل الآيات الأُخرىٰ المتقدّمة في الدلالة علىٰ وجود الإمام المهديّ وغَيبته عجّل الله فرجه لعدم وجود إمام ظاهر تنطبق عليه المواصفات والشروط الّتي تحدّدها له غير ما تقول به عقيدة مذهب أهل البيت في المهديّ المنتظر عليه السلام، وكذلك لتأكيد الآيات الكريمة علىٰ حتمية وجود مثل هذا الإمام في كلّ عصر. فالآية الكريمة تدلّ علىٰ عقيدة الإمامية في المهديّ المنتظر سلام الله عليه علىٰ نحو

التنزيل والتفسير لا علىٰ نحو التأويل والتطبيق.

ملخّص دلالات آيات الفصل

مَن هو الإمام الجامع للصفات المذكورة في الآيات؟

وهنا يثار السؤال التالي: مَن هو الإمام الإبراهيمي الهادي بأمر الله في عصرنا الحاضر؟

المستفاد من التدبر في هذه الطائفة من الآيات الكريمة هو أنّ اللطف الإلهيّ اقتضىٰ لزوم وجود إمامٍ هادٍ من ذرّية إبراهيم عليه السلام يهدي الناس بأمر الله إليه تعالىٰ في كلّ عصر ولكل قوم، وعصرنا هو أحد هذه العصور، ولم يرد أيّ تخصيص له يستثنيه من القاعدة العامّة الّتي تبيّنها هذه الطائفة من الآيات الكريمة، فمَنْ هو إمام هذا العصر وأين هو؟

نرجع إلىٰ هذه الآيات الكريمة ودلالاتها المبيّنة سالفاً لتدلّنا على الجواب، فهي تقول بأنّ هذا الإمام الهادي بأمر الله قد يكون إماماً نبيّاً يجمع النبوّة والإمامة، كما هو حال إبراهيم ومن ذرّيته إسحاق ويعقوب ومحمّد عليهم السلام، وقد يكون غير نبي كما هو حال غير الظالمين من ذرّيته من الّذين ينالهم العهد الإلهيّ الخطير هذا. وحيث إننا نعيش في عصر ما بعد ختم النبوّة بسيّد الرسل وخاتمهم النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله لذلك وجب أن يكون هذا النبيّ الهادي من غير الأنبياء، أي أن يكون إماماً معصوماً غير نبي.

وحيث إنّ شريعة النبيّ الخاتم صلى الله عليه وآله هي خاتمة الشرائع الإلهيّة والشريعة الباقية إلىٰ يوم القيامة وجب أن يكون الإمام الهادي بأمر الله عارفاً بالكامل بها

وبكلمتها الفصل الحقّ تجاه الإختلافات الحاصلة بين المسلمين في فهم الشريعة وتشعّب الآراء وتباينها، لكي يكون بالإمكان معرفة الحقّ، وكلمة الشريعة المحمّدية الخاتمة بالرجوع إليه.

وحيث إنّ القرآن هو الدستور الخالد لهذه الشريعة لزم أن يكون هذا الإمام الهادي لصيقاً به لا يفترق عنه عارفاً بتأويله علىٰ نحو اليقين لا الحدس ولا الظنّ.

وحيث إنّ إمامة الهداية بأمر الله مجعولة من الله تبارك وتعالىٰ مباشرةً وجب أن يكون هذا الإمام الهادي العارف بالشريعة وبالقرآن وبتأويله قد اختاره الله وجعله إماماً هادياً لنا بأمره. وهذا الاختيار لن يكون حجّةً عن الناس إذا لم يكن معلناً لهم بنصٍّ صريح. وهذا النصّ لا يكتسب صيغة الحجّة الإلهيّة والمشرعية إلّا إذا كان من طريق المنذر الخاتم المبلّغ لما أُنزل إليه من الأوامر الإلهيّة. لذا وجب أن يكون هذا الإمام ممّن نصّ عليهم النبيّ وأبلغ أمر الله فيهم وأنّهم من العارفين بالشريعة وبالقرآن وتأويله، وأنّ التمسّك بهم هو سبيل النجاة من الضلالة، وأنّ الرجوع إليهم هو طريق الأمان من الحيرة الناتجة من الاختلاف في تفسير وفهم الشريعة.

انسجام عقيدة الإمامية في المهديّ مع دلالات الآيات:

فمَن هو الّذي تجتمع هذه الصفات ـ المستفادة من تطبيق دلالات الآية الكريمة علىٰ عصرنا الحاضر ـ لكي نرجع إليه في أمر الهداية ؟

مهما بحثت عن الجواب فلن تجده إلّا في عقيدة أهل البيت النبوي صلوات الله عليهم في المهديّ المنتظر، فهي وحدها الّتي تستجيب بالكامل وبكل

وضوح لكلّ الدلالات الّتي تنصّ عليها الآيات الكريمة المتقدّمة ولكلّ الصفات الّتي تبيّنها في الإمام الهادي بأمر الله تبارك وتعالىٰ، فهي تقول: إنه موجود بالفعل يمارس مهامّ الإمامة، وإنّه يتحلّىٰ بالعصمة ومؤهّلات الاختيار للعهد الإلهيّ، وإنّه من عترة النبيّ الخاتم ﷺ وبالتالي من خيرةِ ذرّية إبراهيم الخليل عليه السلام وإنّ النصّ الإلهيّ قد ثبت صدوره من المنذر الخاتم ﷺ كاشفاً عن جعل الله تبارك وتعالىٰ إماماً للناس يهديهم بأمره، وهي تستدلّ علىٰ كلّ ما تقدّم بأقوىٰ الأدلّة النقلية المتّفق عليها وأصدق البراهين العقلية المتسالم علىٰ صحّتها وأوضح الأدلّة الوجدانية الّتي لا يمكن لأيّ منصف إنكارها، كما هو مشهود لمن اطّلع عليها وتدبّر فيها بإنصافٍ وموضوعية.

دلالة القرآن علىٰ وجود المهديّ وغَيبته:

أي أنّ هذه الطائفة من الآيات الكريمة تثبت بوضوح حتمية وجود الإمام الهادي بأمر الله عزّوجلّ والعارف بالشريعة الإلهيّة بالكامل بما يؤهّله لكي يكون مرجعاً للخلاص من الاختلاف في هذا العصر ـ كما هو الحال في كلّ عصر ـ، وحيث إنّه لا يوجد إمام ظاهر تتوفّر فيه الصفات الّتي تنصّ عليها هذه الآيات الكريمة فلا مناص من القول بأنه غير ظاهر وغائب مستور، إذ لا يمكن القول بأنّ عدم ظهوره دليلٌ علىٰ عدم وجوده، لأنّ ذلك خلاف ما أخبرت عنه الآيات الكريمة من حتمية وجود إمام بمثل هذه الصفات في كلّ عصر.

كما لا يمكن القول بأنّ غَيبته تمنعه من القيام بأصل مهمّته الأُولىٰ وهي الهداية، لأنّ في ذلك نقض لما نصّت عليه هذه الطائفة من الآيات الكريمة من

أنّ حكمة وجود الإمام هي الهداية بأمر الله عزّ وجلّ، لذا فلابدّ من القول واستناداً لهذه الآيات الكريمة ومدلولاتها بأنه يقوم بهذه المهمّة بأساليب غير ظاهرة فيكون الانتفاع به كالانتفاع بالشمس إذا حجبتها السحاب عن الابصار.

وهذا هو جوهر عقيدة مذهب أهل البيت صلوات الله عليهم في المهديّ المنتظر ووجوده وغَيبته، فهذه الآيات الكريمة دالّة على صحّة أُسس هذه العقيدة مثبِتة لها.

الفَصلُ الثَّاني

منجزات الظهور المهدوي

مدخـل:

نـتناول فـي هـذا الفـصل الآيـات الكـريمة المـبيّنة لدور الإمـام المـهديّ المنتظر عليه السلام بعد ظهوره وما سيحقّقه الله تبارك وتعالىٰ علىٰ يديه، وهي وإن لم تصرّح باسم الإمام سـلام الله عـليه إلّا أنّـه مـن غـير المـمكن تـقديم التـفسير المعقول لها إلّا بالعقيدة الإسلامية في المهديّ المنتظر طبق ما بيّنته الأحاديث الشريفة المفصّلة لما أجملته الآيات الكريمة. ولكن رغم ذلك فإنّ من الممكن الاهتداء إلى الصفات اللازمة في القائد الربّاني الّذي يحقّق الله علىٰ يديه الوعود الإلهيّة الصادقة الّتي صرّحت بها الآيات الكريمة، وتحديد هويته مـن خـلال التدبّر في هذه الآيات بصورة دقيقة وحتّىٰ دون اللجوء إلى الأحاديث الشريفة، إذ يكفي التدبّر في منطوقها وملاحظة الشروط اللازمة لتحقّق ما تتحدّث عنه.

لذا فالبحث في هذه الطائفة من الآيات الكريمة سيكون قرآنياً صرفاً يهدي إلىٰ عقيدة الإمامية في المهديّ المنتظر خاصّة فيما يـرتبط بـالدولة المـهدوية

العادلة الّتي بشّر بها القرآن المجيد، وهوية الإمام الّذي سيحقّق الله على يديه هذا الوعد الجميل.

أوّلاً: إتمام النور الإلهيّ وإظهار الإسلام على الدين كلّه:

ورد هذا الوعد الإلهيّ الجميل في ثلاث من السوَر القرآنية الكريمة:

﴿ يَرِيدُونَ أن يُطفِئُوا نُورَ اللهِ بِأفواهِهِم وَيَأبىٰ اللهُ إلّا أن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَو كَرِهَ الكَافِرُون * هُوَ الّذِي أرسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَىٰ وَدِينِ الحَقّ لِيُظهِرَهُ عَلىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلو كَرِهَ المُشرِكُون ﴾ (١)

﴿ يُرِيدُون لِيُطفِئُوا نُورَ اللهِ بِأفواهِهِم وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَو كَرِهَ الكَافِرُون * هُوَ الّذِي أرسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَىٰ وَدِينِ الحَقّ لِيُظهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَو كَرِهَ المُشرِكُون ﴾ (٢)

﴿ هُوَ الّذِي أرسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَىٰ وَدِينِ الحَقّ لِيُظهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيداً ﴾ (٣)

تفسير الآيات:

وللتعرّف علىٰ دلالات الآيات الكريمة نتعرّض أوّلاً لما أورده العلّامة الطباطبائي في تفسير الآيتين المذكورتين من سورة التوبة، فقال ﷺ:

---

(١) التوبة: ٣٢ و ٣٣.

(٢) الصف: ٨ و ٩.

(٣) الفتح: ٢٨.

قوله تعالىٰ: ﴿ *يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم* ﴾ إلىٰ آخر الآية، الإطفاء: إخماد النار أو النور، والباء في قوله: «بأفواههم» للآلة أو السببية.

وإنّما ذكر الأفواه لأنّ النفخ الّذي يُتوسل به إلىٰ إخماد الأنوار والسرج يكون بالأفواه، قال في المجمع: وهذا من عجيب البيان مع ما فيه من تصغير شأنهم وتضعيف كيدهم، لأنّ الفم يؤثر في الأنوار الضعيفة دون الأقباس العظيمة، إنتهىٰ.

وقال في الكشّاف: مثل حالهم في طلبهم أن يبطلوا نبوّة محمّد ﷺ بالتكذيب بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم منبثّ في الآفاق يريد الله أن يزيده، ويبلغه الغاية القصوى في الإشراق والإضاءة ليطفئه بنفخه ويطمسه، انتهىٰ.

والآية إشارة إلىٰ حال الدعوة الإسلامية، وما يريده منه الكافرون، وفيها وعد جميل بأنّ الله سيتمّ نوره.

قوله تعالى: ﴿ *هو الّذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون* ﴾ الهدى. : الهداية الإلهيّة الّتي قارنها برسوله ليهدي بأمره، ودين الحقّ هو الإسلام بما يشتمل عليه من العقائد والأحكام المنطبقة على الواقع الحقّ.

والمعنى أنّ الله هو الّذي أرسل رسوله وهو محمّد ﷺ مع الهداية ـ أو الآيات والبيّنات ـ ودين فطري ليظهر وينصر دينه الّذي هو دين الحقّ على كلّ الأديان ولو كره المشركون ذلك.

وبذلك ظهر أنّ الضمير في قوله: «ليظهره» راجع إلىٰ «دين الحقّ» كما هو المتبادر من السياق، وربما قيل: إنّ الضمير راجع إلى الرسول، والمعنى ليظهر رسوله ويعلمه معالم الدين كلّها، وهو بعيد.

إظهار الإسلام بأيدي المؤمنين:

وفي الآيتين من تحريض المؤمنين على قتال أهل الكتاب والإشارة إلىٰ وجوب ذلك عليهم ما لا يخفىٰ، فإنّهما تدلان على أنّ الله أراد انتشار هذا الدين في العالم البشري فلابدّ من السعي والمجاهدة في ذلك، وأنّ أهل الكتاب يريدون أن يطفئوا هذا النور بأفواههم فلابدّ من قتالهم حتّىٰ يفنوا أو يستبقوا بالجزية والصغار، وأنّ الله سبحانه يأبىٰ إلّا أن يتمّ نوره، ويريد أن يظهر هذا الدين علىٰ غيره، فالدائرة بمشية الله لهم علىٰ أعدائهم، فلا ينبغي لهم أن يهنوا ويحزنوا وهم الأعلون إن كانوا مؤمنين[١].

الآية الكريمة صريحة في إثبات تعلّق الإرادة الإلهيّة بإظهار الإسلام علىٰ جميع الأديان الأُخرىٰ ذات الانتماء السماوي أو الأرضي، فلابدّ من تحقّق ذلك حتماً. وهي تؤكّد أنّ تحقّق ذلك يكون بأيدي المؤمنين من عباده فلا ينقطع جهادهم في سبيل هذا الهدف في زمن معيّن، فلابدّ من القول باستمرار هذا الجهاد وباستمرار وجود قائد ربّاني عارف بالإسلام بالكامل يقود هذه الحركة الجهادية بصورةٍ مباشرة أو غير مباشرة، ظاهرة أو خفية، وهذا ما يتحقّق في سيرة الأئمّة المعصومين ﷺ الّذين واصلوا جهودهم بنشر الإسلام علىٰ مدىٰ تأريخهم، فلم تنقطع حركتهم، فهي مستمرّة في غَيبة خاتمهم المهديّ أيضاً وبقيادته.

آيتا سورة الصف:

ويقول العلّامة الطباطبائي في تفسير الآيتين المنقولتين من سورة الصفّ:

---

(١) تفسير الميزان: ٩ / ٢٤٧.

قوله تعالى: ﴿ *يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم* ﴾... الخ، إطفاء النور إبطاله وإذهاب شروقه، وإطفاء النور بالأفواه إنّما هو بالنفخ بها.

وقد وقعت الآية في سورة التوبة وفيها: ﴿ *يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم* ﴾قال الراغب: قال تعالى: ﴿ *يريدون أن يطفئوا نور الله* ﴾والفرق بين الموضعين أنّ في قوله: ﴿ *يريدون أن يطفئوا* ﴾ يقصدون إطفاء نور الله، وفي قوله: ﴿ *ليطفئوا* ﴾ يقصدون أمراً يتوصّلون به إلىٰ إطفاء نور الله. إنتهىٰ. ومحصّله أنّ متعلّق الإرادة في قوله: ﴿ *يريدون أن يطفئوا نور الله* ﴾ نفس الإطفاء، وفي قوله: ﴿ *يريدون ليطفئوا نور الله* ﴾ السبب الموصل إلى الإطفاء وهو النفخ بالأفواه، والإطفاء غرضٌ وغاية.

والآية وما يتلوها كالشارح لمعنى ما تقدّم في الآية السابقة من ظلمهم برمي الدعوة بالسحر وعدم هدايته تعالىٰ لهم بما أنّهم ظالمون. والمحصّل أنهم يريدون إطفاء نور الله بنفخة أفواههم، لكنّ الله لا يهديهم إلىٰ مقصدهم بل يتمّ نوره ويظهر دينه على الدين كلّه.

فقوله: ﴿ *يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم* ﴾ أي بالنفخ بالأفواه كما يطفأ الشمعة بالنفخة كناية عن أنهم زعموا أنّ نور الله وهو دينه نور ضعيف كنور الشمعة يُطفأ بأدنىٰ نفخة فرموه بالسحر وانقطاع نسبته إلى الله.

وقد أخطأوا في مزعمتهم فهو نور الله الّذي لا يُطفأ وقد شاء أن يتمّه ولو كره الكافرون والله بالغ أمره، وهو قوله: ﴿ *والله متمُّ نوره ولو كره الكافرون* ﴾.

قوله تعالى: ﴿ *هو الّذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون* ﴾ الإضافة في «دين الحقّ» بيانية كما قيل، والظاهر أنّها في الأصل إضافة لاميّة بعناية لطيفة هي أنّ لكلّ من الحقّ والباطل ديناً يقتضيه

ويختصّ به، وقد ارتضى الله تعالىٰ الدين الّذي للحقّ ـ وهو الحقّ تعالىٰ ـ فأرسل رسوله.

غلبة الإسلام علىٰ كلّ الأديان:

وإظهار شيء علىٰ غيره نصرته وتغليبه عليه، والمراد بالدين كلّه كلّ سبيل مسلوك غير سبيل الله الّذي هو الإسلام، والآية في مقام تعليل قوله في الآية السابقة: ﴿ *والله متمّ نوره* ﴾، والمعنى: والله متمّ نوره، لأنه هو الّذي أرسل رسوله بنوره الّذي هو الهدى ودين الحقّ ليجعله غالباً علىٰ جميع الأديان ولو كره المشركون من أهل الأوثان.

ويستفاد من الآيتين أن دين الحقّ نور الله في الأرض، كما يستفاد ذلك من قوله: ﴿ *مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ* ﴾[1] الآية، وقد تقدّم في تفسير الآية[2].

والمضمون نفسه تؤكّده آية سورة الفتح المباركة.

دلالات الآيات

المستفاد من تفسير الآيات الكريمة المتقدّمة هو:

١ ـ أنها تحمل وعداً إلهياً جميلاً بأن يُتمّ الله جلّت قدرته نوره، ويظهر الإسلام علىٰ جميع الأديان الأُخرىٰ السماوية المنسوخة به والأرضية المادّية كما يُستفاد من قوله ﴿ *على الدين كلّه* ﴾.

٢ ـ كما أنّ إطلاق الآيات الكريمة وعدم وجود مقيّد لها في الآيات والنصوص الشرعية الأُخرىٰ يفيد أنّ إظهار الإسلام على الدين كلّه وإتمام النور

---

(١) النور: ٣٥.

(٢) تفسير الميزان: ١٩ / ٢٥٥.

الإلهيّ يشمل الأرض كلّها ولا يختصّ ببقعةٍ معيّنة، فهي إذن تحمل بشرىٰ قرآنية بعالمية إظهار الإسلام على الأديان الأُخرىٰ في كلّ الأرض.

عدم تحقّق هذا الوعد إلى الآن:

١ـ وبناءً علىٰ ما تقدّم يتّضح أنّ من غير الصحيح القول بتحقّق هذه البشرىٰ في عهد الرسول الأكرم ﷺ بسيطرة الإسلام على الجزيرة العربية ولا في عهد الخلفاء اللاحقين بفتح المسلمين لبعض أقطار المعمورة مع بقاء القسم الأكبر منها تحت سيطرة الكافرين، فمثل هذا القول لا ينسجم مع إطلاق الآيات الكريمة.

٢ـ لذلك فإنّ المستفاد ممّا تقدّم عدم تحقّق هذا الوعد الإلهيّ الجميل إلى الآن، فالآيات الكريمة إذن من آيات الملاحم الّتي تتحدّث عمّا سيقع في المستقبل.

٣ـ كما أنّ تحقّق هذا الوعد حتمي، لأنّ الله جلت قدرته هو صادق الوعد ولتعلّق إرادته به.

معنىٰ إظهار الإسلام على الدين كلّه:

أمّا بالنسبة للإظهار المقصود في هذه الآيات الكريمة فواضحٌ أنه يشمل مختلف أشكال الغلبة والسيطرة والحاكمية، وهذا المستفاد من الإطلاق الوارد في عبارات الآيات الكريمة وعدم وجود مقيّدات بنمطٍ معيّن من الإظهار كظهور الأفضلية أو قوّة الحجّة وأمثال ذلك، بل إنّ سياقها دالٌّ علىٰ أنّ عدم تحقّق هذا الوعد الإلهيّ الصادق إلّا بكامل غلبة الإسلام على الأديان وإظهاره عليها عملياً، وهذا ما فهمه معظم المفسّرين من الآية، يقول الفخر الرازي في تفسيره:

واعلم أنّ ظهور الشيء علىٰ غيره قد يكون بالحجّة وقد يكون بالكثرة والوفور وقد يكون بالغلبة والاستيلاء. ومعلومٌ أنه تعالىٰ بشّر بذلك ولا يجوز أن يبشّر إلّا بأمرٍ مستقبل غير حاصل، وظهور هذا الدين بالحجّة مقرّر معلوم، فالواجب حمله على الظهور بالغلبة[1].

بشرىٰ بإقامة الدولة الإسلامية العالمية:

١ـ وعليه يتّضح أنّ البشرى الّتي تحملها الآيات الكريمة تتضمّن إقامة دولة إسلامية عالمية يتغلّب فيها الإسلام علىٰ جميع الأديان السماوية المنسوخة والأرضية المادّية وتكون الحاكمية المطلقة للشريعة الإسلامية، فإذاكان الحكم لشريعة السماء الخاتمة، فهذا يعني تطهير الأرض من جميع أشكال الظلم والجور والشرك والكفر والإلحاد ونشر القسط والعدل فيها.

٢ـ ومعلومٌ أنّ سنّة الله تبارك وتعالىٰ في خلقه هو أن يدفع الناس بعضهم ببعض، وهذه السنّة هي أساس تشريع الجهاد في الإسلام، لذا فإن تحقّق هذا الوعد الإلهيّ الجميل يكون علىٰ يد طائفةٍ من عباده الصالحين، من أُولي البأس الشديد الّذين يجاهدون في سبيله ولا يخافون فيه لومة لائم، من الأشدّاء على الكفّار والرحماء بينهم، المنصهرين في بوتقة القيم الإسلامية.

إقامة هذه الدولة يكون بالجهاد:

والسبيل لتحقيق هذا الوعد الصادق علىٰ يديهم يكون بالجهاد المدعوم بالتأييد الإلهيّ، فينصرهم الله علىٰ أعدائه ويشفي بأيديهم صدور قومٍ مؤمنين،

---

(١) التفسير الكبير: ١٦ / ٤٠.

ولذلك نلاحظ أنّ جميع الآيات الكريمة المذكورة في السوَر الثلاث جاءت في سياق آياتٍ تحرّض المؤمنين علىٰ مجاهدة الكافرين والمشركين وتبيّن مفاسد هؤلاء.

فالآيات الّتي سبقت الآيات المذكورة من سورة التوبة وتلتها تأمر بتطهير المسجد الحرام من المشركين وتبيّن مفاسدهم وتأمر بقتال أهل الكتاب وتبيّن انحرافاتهم العقائدية والسلوكية عن دين الحقّ وظلمهم وجورهم وأكلهم أموال الناس بالباطل وصدّهم عن سبيل الله.

كما تضمّنت الآيات الكريمة ـ الّتي سبقت الآيات الكريمة المنقولة من سورة الصفّ ـ النصّ علىٰ مدح المقاتلين في سبيل الله وتبيان انحرافات أهل الكتاب وظلمهم وتحريفهم لشريعة السماء، ودعت الآيات اللاحقة لها إلى الجهاد بلهجةٍ تحريضية ترغيبية، فاعتبرته مفتاح الحصول على الفوز العظيم في الآخرة، والنصر الإلهيّ المحبوب والفتح القريب وبشرى المؤمنين في الدنيا.

أمّا آية سورة الفتح فقد سبقها حديث مفصّل عن مظاهر النصرة الإلهيّة للمجاهدين في سبيله وطائفة من أحكام الجهاد، وتلتها الآية الشهيرة الجامعة في وصف المحمّديين الصادقين الّذين يتحلّون بالصفات اللازمة لكي يحبوهم الله تبارك وتعالىٰ بأن يحقّق الله علىٰ أيديهم الوعد الإلهيّ الجميل بإظهار الإسلام على الدين كلّه.

القائد الّذي يُظهر الله الإسلام علىٰ يديه:

وواضحٌ أنّ إنجاز هذه المهمّة الربانية وقيادة هؤلاء المجاهدين لإقامة هذه الدولة الإسلامية العالمية العادلة، وإظهار الإسلام وإقامة القسط والعدل وإنهاء

جميع اشكال الظلم والجور يستلزم توفّر قائد ربّاني عارف بأمر الله لكي يهدي الناس إليه، فهو من مصاديق «الهادي بأمر الله» الّذي ذكرته آيات الفصل الأوّل، فيكون من الّذين يحظون بالهداية الإلهيّة المباشرة برعايةٍ إلهيةٍ خاصّة، وإلّا فلن يكون قادراً علىٰ هداية غيره وإيصالهم إلى الحقّ، كما عرفنا من التدبر في منطوق آيات الفصل الأوّل.

كما يجب أن يكون معصوماً منزّهاً عن جميع أشكال الظلم، فإنّ مَن فيه شيءٌ من الظلم لا يناله عهد الله جلّت قدرته، كما أنّ مَن فيه شيءٌ من الظلم لا يستطيع إزالة الظلم ـ وما تلبّس به على الأقل ـ وتطهير الأرض منه وإقامة العدل والقسط.

ومثل هذا القائد الربّاني الهادي بأمر الله والمعصوم المنزّه عن كلّ ظلمٍ إمّا أن يكون نبيّاً وهذا محال لثبوت أنّ نبيّ الإسلام هو خاتم الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، وإمّا أن يكون إماماً عادلاً معصوماً من الأوصياء الّذين حباهم الله جلّت قدرته برعايةٍ خاصّةٍ لكي يحفظ بهم دينه ويقيمه ويظهره على الدين كلّه إلىٰ يوم القيامة.

وهذه الصفات الّتي أوصلنا إليها التدبر في دلالات هذه الآيات الكريمة هي الّتي تتضمّنها عقيدة أهل بيت النبوّة سلام الله عليهم في المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه.

وعليه، يتّضح أنّ ما تضمّنته الآيات الكريمة هو تحديد المهمّة الأساسية للمهديّ المنتظر في إقامة الدولة الإسلامية العالمية في كلّ الأرض وإقامة القسط والعدل وإنهاء الظلم والجور بعد انتشارهما في الأرض.

اشتهار دلالة الآيات علىٰ الدولة المهدوية:

ويظهر من الروايات أن فهم دلالة هذه الآيات الكريمة علىٰ دولة المهديّ العالمية كان شائعاً في صدر الإسلام، وهو مرويّ في كتب أهل السنّة من طرقهم، فقد نقل القرطبي في تفسيره والفخر الرازي في التفسير الكبير وغيرهما أنّ السدّي سئل عن تفسير الآية المتقدّمة من سورة التوبة فقال: ذلك عند خروج المهديّ[1]. وقال ابن جزي في تفسيره للآية: وإظهاره: جعله أعلى الأديان وأقواها حتّىٰ يعمّ المشارق والمغارب[2]. وروي عن أبي هريرة في تفسير الآية نفسها أنّه قال: هذا وعدٌ من الله بأنه تعالىٰ يجعل الإسلام عالياً علىٰ جميع الأديان[3]. وعن قتادة قال في تفسير قوله ﴿ *ليظهره على الدين كلّه* ﴾: هو الأديان الستة ـ الّذين آمنوا والّذين هادوا والصابئين والنصارىٰ والمجوس والّذين أشركوا ـ فالأديان كلّها تدخل في دين الإسلام والإسلام، لا يدخل في شيءٍ منها، فإنّ الله قضىٰ بما حكم وأنزل أن يظهر دينه على الدين كلّه ولو كره المشركون[4]، وفي الدرّ المنثور: «أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي في سننه عن جابر ﷺ في قوله تعالىٰ: ﴿ *ليظهره على الدين كلّه* ﴾ قال: لا يكون ذاك حتّىٰ لا يبقىٰ يهودي ولا نصراني صاحب ملّة إلّا الإسلام[5].

أمّا ما روي عن الرسول الأكرم والأئمّة من أهل بيته ﷺ في التصريح بأنّ

---

(١) تفسير القرطبي: ٨ / ١٢١، التفسير الكبير: ١٦ / ٤٠.

(٢) تفسير ابن جزي: ٢٥٢.

(٣) تفسير الطبري: ١٤ / ٢١٥، التفسير الكبير: ١٦ / ٤٠، تفسير القرطبي: ٨ / ١٢١ وتفسير الدرّ المنثور للسيوطي: ٤ / ١٧٦.

(٤) الدرّ المنثور: ٤ / ١٧٦.

(٥) الدرّ المنثور: ٤ / ١٧٥.

المقصود في الآية هي دولة الإمام المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه فهي أحاديث كثيرة سننقل نماذج منها ضمن نقل الآيات المُطبقة عن القضية المهدوية، لأنّ البحث هنا هو قرآنيّ بحت، وما نقلناه من أقوال المفسّرين هو للاستشهاد علىٰ وضوح دلالة الآيات الكريمة على المقصود دونما تأويل أو تطبيق.

ثانياً: استخلاف صالحي المؤمنين في الأرض:

تبيّن مجموعة من الآيات الكريمة أنّ الدولة العالمية الإسلامية الّتي يُظهر فيها الله تبارك وتعالى الإسلام على الدين كلّه إنّما يقيمها الله جلّت قدرته علىٰ أيدي صالحي المؤمنين به، فهي تصرّح بهوية وصفات الّذي يحقّق الله تبارك وتعالىٰ وعده الجميل بإتمام نوره وإشراق كلّ الأرض به، أي أنها تصرّح بما توصلنا له من تحليل الآيات السابقة والتدبّر فيها والتعرّف علىٰ مقتضياتها ولوازمها.

وبعبارة أُخرىٰ: إنّ هذه الآيات تكمل المعنى الّذي صرّحت به سابقاتها بشأن دولة المهديّ المنتظر عليه السلام وتعرض بعض التفصيلات المهمّة بشأن شكل هذه الدولة إلىٰ جانب تبيين هوية القائمين بها.

وهذه الآيات هي:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (١)

﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

---

(١) الأنبياء: ١٠٥.

لَيَستخلِفَنَّهم في الأرْضِ كَمَا استَخلَفَ الَّذِينَ مِن قَبلِهِم وَلَيُمكِّنَنَّ لَهُم دينَهُمُ الَّذِي ارتَضَىٰ لَهُم وَلَيبدِلَنَّهُم مِن بعدِ خَوفهِم أمناً يَعبُدُونني لَا يُشرِكُون بي شيئاً وَمَن كَفَرَ بَعدَ ذَلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الفَاسِقُون ﴾ (١)

﴿ الَّذِينَ إن مَّكَّنَّاهُم فِي الأَرضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالمَعُروفِ وَنَهَوا عَنِ المُنكَرِ وَللهِ عَاقِبَةُ الأُمورِ ﴾ (٢)

تفسير الآيات:

الآية الكريمة الأُولىٰ تفصح عن سنّةٍ إلهية جارية في خلقه يختصّ الله تبارك وتعالىٰ بها طائفة خاصّة من المؤمنين هم «صالحو عباد الله» بوراثة الأرض. فيما تذكر الآية الثانية بلغةٍ صريحة تطبيق هذه السنّة الإلهيّة في تكريم صالحي عباد الله جلّت قدرته على الأُمّة المحمّدية بالذات فتصرّح بوعدٍ جميل من الله وهو الصادق الوعد لطائفةٍ معيّنةٍ من مؤمني هذه الأُمّة بوراثة الأرض واستخلافهم فيها ليقيموا أصلح مجتمع توحيدي عرفه التأريخ الإنساني. أمّا الآية الثالثة فهي تصرّح بما يفعله المؤمنون الصالحون عندما يمكّن الله تبارك وتعالىٰ لهم في الأرض.

للتعرّف علىٰ طبيعة دلالات هذه الآيات الكريمة والصورة الّتي ترسمها نعمد ـ قبل تسجيل دلالاتها ـ إلىٰ نقل تفسيرها من كتاب الميزان للعلّامة

---

(١) النور: ٥٥.

(٢) الحجّ: ٤١.

الطباطبائي الّذي يناقش عادةً جميع الآراء الواردة في تفسير كلّ آية ويبيّن مدى انطباقها على منطوق وظاهر الآية ويختار التفسير المنسجم مع منطوق الآية استناداً لمنهج تفسير القرآن بالقرآن وهو أبعد مناهج التفسير عن منزلقات تفسير القرآن بالرأي والقناعات المسبقة والعقائد المتبنّاة.

يقول ﷺ في تفسير آية سورة الأنبياء:

آية سورة الأنبياء:

قوله تعالى: ﴿ *ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون* ﴾ الظاهر أنّ المراد بالزبور كتاب داود ﷺ وقد سمّي بهذا الاسم في قوله: ﴿ *وآتينا داوُد زبُوراً* ﴾[1] وقيل: المراد به القرآن، وقيل: مطلق الكتب المنزّلة على الأنبياء أو على الأنبياء بعد موسى، ولا دليل على شيء من ذلك.

والمراد بالذكر قيل: هو التوراة وقد سمّاها الله به في موضعين من هذه السورة وهما قوله: ﴿ *فاسألوا أهلَ الذِّكرِ إن كُنتُم لَا تَعلمُون* ﴾[2] وقوله: ﴿ *وذِكراً لِلمتّقِين* ﴾[3]، وقيل: هو القرآن وقد سمّاه الله ذكراً في مواضع من كلامه وكون الزبور بعد الذكر على هذا القول بعدية رتبية لا زمانية، وقيل: هو اللوح المحفوظ، وهو كما ترى.

وقوله: ﴿ *أنّ الأرض يرثها عباديَ الصالحون* ﴾ الوراثة والإرث على ما ذكره الراغب انتقال قنية إليك من غير معاملة.

والمراد من وراثة الأرض انتقال التسلّط على منافعها إليهم واستقرار بركات

---

(١) النساء: ١٦٣، الإسراء: ٥٥.

(٢) الأنبياء: ٧.

(٣) الأنبياء: ٤٨.

الحياة بها فيهم ، وهذه البركات إمّا دنيوية راجعة إلى الحياة الدنيا كالتمتّع الصالح بأمتعتها وزيناتها فيكون مؤدّي الآية أنّ الأرض ستتطهرّ من الشرك والمعصية ويسكنها مجتمع بشري صالح يعبدون الله ولا يشركون به شيئاً كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ وعَدَ اللهُ الّذين آمنوا مِنكُم وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيستخلفنّهم في الأرض ـ إلىٰ قوله ـ يَعبُدُونني لا يُشرِكُون بِي شيئاً ﴾ [١].

وإمّا أُخروية وهي مقامات القرب الّتي اكتسبوها في حياتهم الدنيا ، فإنّها من بركات الحياة الأرضية وهي نعيم الآخرة كما يشير إليه قوله تعالى حكاية عن أهل الجنّة : ﴿ وَقَالُوا الحمدُ للهِ الّذي صَدَقَنا وَعدَهُ وَأورَثَنا الأرضَ نَتَبوّءُ مِنَ الجنّةِ حيثُ نَشَاءُ ﴾ [٢] وقوله : ﴿ أولئِكَ هُمُ الوَارِثُونَ الّذِينَ يَرِثُونَ الفِردَوس ﴾ [٣].

ومن هنا يظهر أنّ الآية مطلقة ولا موجب لتخصيصها بإحدى الوراثتين كما فعلوه ، فهم بين مَن يخصّها بالوراثة الأُخروية تمسّكاً بما يناسبها من الآيات ـ وربما استدلّوا لتعيّنه بأنّ الآية السابقة تذكر الإعادة ولا أرض بعد الإعادة حتّىٰ يرثها الصالحون ، ويرده أنّ كون الآية معطوفة على سابقتها غير متعيّن ، فمن الممكن أن تكون معطوفة على قوله السابق : ﴿ فَمَن يَعمَلَ مِنَ الصَّالِحَاتِ ﴾ [٤] كما سنشير إليه ـ وبين مَن يخصّها بالوراثة الدنيوية ويحملها على زمان ظهور الإسلام أو ظهور المهديّ عليه السلام الّذي أُخبر به النبيّ صلى الله عليه وآله في الأخبار المتواترة المروية من طرق الفريقين ، ويتمسّك لذلك بالآيات المناسبة له الّتي أومأنا إلىٰ بعضها.

---

(١) النور: ٥٥.

(٢) الزمر: ٧٤.

(٣) المؤمنون: ١١.

(٤) الأنبياء: ٩٤.

وبالجملة: الآية مطلقة تعمّ الوراثتين جميعاً غير أنّ الّذي تقتضيه الاعتبار بالسياق أن تكون معطوفة على قوله السابق: ﴿ *فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن* ﴾... الخ المشير إلىٰ تفصيل حال المختلفين في أمر الدين من حيث الجزاء الأُخروي، وتكون هذه الآية مشيرة إلىٰ تفصيلها من حيث الجزاء الدنيوي. ويكون المحصّل أنّا أمرناهم بدينٍ واحد لكنّهم تقطّعوا واختلفوا فاختلف مجازاتنا لهم، أمّا في الآخرة فللمؤمنين سعيٌ مشكور وعملٌ مكتوب وللكافرين خلاف ذلك، وأمّا في الدنيا فللصالحين وراثة الأرض بخلاف غيرهم[1].

دلالات الآية:

إذن المستفاد من تفسير الآية الكريمة والسياق الّذي جاءت فيه أنّ الحكمة الإلهيّة اقتضت اختصاص خطّ الإيمان بالله والصلاح في العمل له بجزاءٍ دنيوي غير الجزاء الأُخروي، وهذا الجزاء الدنيوي يتمثّل في وراثة الأرض، بمعنىٰ أنّ حكمها بالكامل سيكون في نهاية المطاف للصالحين من عباده تعالىٰ، فيطهّرونها ـ بمقتضىٰ كونهم من عباد الله الصالحين ـ من الشرك والمعصية ويقيمون الدولة العادلة والمجتمع الصالح الّذي تحدّد مواصفاته الآية اللاحقة وتظهر منافع الأرض وبركاتها لهم.

وعليه، نحصل من التدبر في الآية الكريمة على الدلالات التالية:

١ ـ أنّها تشتمل علىٰ قضاء إلهي حتمي بتكريم خطّ الإيمان والصلاح بجزاء دنيوي ـ فضلاً عن الجزاء الأُخروي ـ يتمثّل في وراثة الأرض وحكمها.

---

(١) تفسير الميزان: ١٤ / ٣٢٩ ـ ٣٣١.

٢ـ ومقتضىٰ وراثتهم للأرض وحكمها لهم أن يقوموا ـ بمقتضىٰ صلاحهم ـ بتطهيرها من الشرك والمعصية وتحقيق آمال وأهداف جميع العباد الصالحين علىٰ مدى التأريخ.

صفات وارثي الأرض:

١ـ ومفهومٌ أنّ مَن يقوم بهذه المهمّة ينبغي أن يكون علىٰ أعلىٰ درجات الصلاح، بمعنىٰ أنّهم طائفة متميّزة من العباد الصالحين يتميّزون بقدرتهم علىٰ تحقيق آمال وطموحات جميع الصالحين علىٰ مدى التأريخ.

٢ـ وهذا يعني أن يكون هؤلاء العباد الصالحون عارفين بالأهداف والأماني الخيّرة لخطّ الإيمان والصلاح بالكامل محيطين بسبُل تحقيقها عملياً بالكامل أيضاً أو متّبعين للعارف بذلك بصورةٍ كاملة.

٣ـ وبالتالي فهذا يعني أن يكونوا عارفين بالكامل بالرسالة الإلهيّة الخاتمة الّتي تجمع أهداف جميع الصالحين.

٤ـ كما ينبغي أن يكونوا منزّهين بالكامل عن التبعية لأيّ شكلٍ من أشكال الأهواء، لأنّ أياً من الأهواء يصدّ عن تطبيق أحد الأهداف الخيّرة المعارضة له، أو مطيعين لمن يتحلّىٰ بهذه النزاهة بالكامل.

هذه الشروط هي الّتي تقول بها عقيدة منهج أهل البيت عليهم السلام في المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه وتحدّدها بوضوح فيه عليه السلام وفي انتهائه وصفاته وفي الخطّ الّذي يمثّله وأنصاره وأتباعه بالتالي.

آية سورة النور:

ونـنتقل إلى الآية الثانية وتفسيرها المكمل لما دلّت عليه سابقتها

والمصرّحة بما أشارت إليه ـ كما سنرىٰ فيما يلي ـ يقول العلّامة الطباطبائي في تفسيرها:

ظاهر وقوع الآية موقعها أنها نزلت في ذيل الآيات السابقة من السورة، وهي مدنية ولم تنزل بمكّة قبل الهجرة على ما يؤيّده سياقها وخاصّة ذيلها.

فالآية على هذا وعدٌ جميلٌ للّذين آمنوا وعملوا الصالحات أنّ الله تعالى سيجعل لهم مجتمعاً صالحاً يخصّ بهم، فيستخلفهم في الأرض، ويمكّن لهم دينهم، ويبدّلهم من بعد خوفهم أمناً، لا يخافون كيد منافق ولا صدّ كافر، يعبدونه لا يُشركون به شيئاً.

فقوله: ﴿ *وعَدَ اللهُ الّذِينَ آمَنُوا مِنكُم وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ* ﴾ من فيه تبعيضية لا بيانية والخطاب لعامّة المسلمين وفيهم المنافق والمؤمن وفي المؤمنين منهم من يعمل الصالحات ومن لا يعمل الصالحات، والوعد خاصّ بالذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات محضاً.

وقوله: ﴿ *ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الّذين من قبلهم* ﴾ إن كان المراد بالاستخلاف إعطاء الخلافة الإلهيّة كما ورد في آدم وداود وسليمان ﷺ، قال تعالى: ﴿ *إنّي جاعِلٌ فِي الأرضِ خَليفَة* ﴾ [1] وقال: ﴿ *يا داوُدُ إنّا جَعَلنَاكَ خَليفَةً فِي الأرضِ* ﴾ [2] وقال: ﴿ *وَوَرِثَ سُليمانُ داودَ* ﴾ [3]، فالمراد بالّذين من قبلهم خلفاء الله من أنبيائه وأوليائه، ولا يخلو من بُعد كما سيأتي.

---

(١) البقرة: ٣٠.

(٢) ص: ٢٦.

(٣) النمل: ١٦.

المقصود باستخلافهم في الأرض:

وإن كان المراد به إيراث الأرض وتسليط قوم عليها بعد قوم كما قال: ﴿ إِنَّ الأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَالعَاقِبَةُ لِلمُتَّقِين ﴾ [1] وقال: ﴿ أَنَّ الأَرضَ يَرِثُهَا عِبادِيَ الصَّالِحون ﴾ [2]، فالمراد بالّذين من قبلهم المؤمنون من أُمم الأنبياء الماضين الّذين أهلك الله الكافرين والفاسقين منهم ونجّى الخلّص من مؤمنيهم كقوم نوح وهود وصالح وشعيب كما أخبر عن جمعهم في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِم لَنُخرِجَنَّكُم مِن أَرضِنا أو لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا فَأَوحَى إِليهِم رَبُّهُم لَنُهلِكَنَّ الظَّالِمِين * وَلَنُسكِنَنَّكُمُ الأَرضَ مِن بَعدِهِم ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيد ﴾ [3]، فهؤلاء الّذين أخلصوا لله فنجّاهم فعقدوا مجتمعاً صالحاً وعاشوا فيه حتّىٰ طال عليهمُ الأمد فقست قلوبهم.

وأمّا قول من قال: إنّ المراد بالذين استخلفوا من قبلهم بنو إسرائيل لمّا أهلك الله فرعون وجنوده فأورثهم أرض مصر والشام ومكّنهم فيما كما قال تعالى فيهم: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ استُضعِفُوا فِي الأَرضِ وَنَجعَلَهُم أَئمةً وَنَجعَلَهُمُ الوارِثِين * وَنُمكِّنَ لَهُم فِي الأَرضِ ﴾ [4].

ففيه أنّ المجتمع الإسرائيلي المنعقد بعد نجاتهم من فرعون وجنوده لم يصف من الكفر والنفاق والفسق ولم يخلص للّذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا حيناً على ما ينصّ عليه القرآن الكريم في آياتٍ كثيرة، ولا وجه لتشبيه

---

(١) الأعراف: ١٢٨.

(٢) الأنبياء: ١٠٥.

(٣) إبراهيم: ١٣ و١٤.

(٤) القصص: ٥ و ٦.

استخلاف الّذين آمنوا وعملوا الصالحات باستخلافهم وفيهم الكافر والمنافق والطالح والصالح.

ولو كان المراد تشبيه أصل استخلافهم بأصل استخلاف الّذين من قبلهم ـ وهم بنو إسرائيل ـ كيفما كان لم يحتج إلىٰ إشخاص المجتمع الإسرائيلي للتشبيه به وفي زمن نزول الآية وقبل ذلك أُمم أشدّ قوّةً وأكثر جمعاً منهم كالروم والفارس وكلدة وغيرهم، وقد قال تعالى في عاد الأُولى وثمود: ﴿ *إذ جَعَلَكُم خُلَفَاءَ مِن بعدِ قَومِ نُوح* ﴾[1] وقال: ﴿ *إذ جَعَلَكُم خُلَفَاءَ مِن بعدِ عاد* ﴾[2] وقد خاطب بذلك الكفار من هذه الأُمّة فقال: ﴿ *وَهُوَ الّذِي جَعَلَكُم خلائِفَ الأرض* ﴾[3] وقال: ﴿ *هُوَ الّذِي جَعَلَكُم خَلائِفَ فِي الأرضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفرُهُ* ﴾[4].

فإن قلت: لم لا يجوز أن يكون التشبيه ببني إسرائيل ثمّ يؤدّي حقّ هذا المجتمع الصالح بما يعقبه من قوله: ﴿ *وليمكننّ لهم دينهم* ﴾ إلى آخر الوعد؟

قلت: نعم، ولكن لا موجب حينئذٍ لاختصاص استخلاف بني إسرائيل لأن يشبّه به، وأن يكون المراد بالّذين من قبلهم بني إسرائيل فقط كما تقدّم.

تمكين الإسلام وإظهاره:

وقوله: ﴿ *وليمكننّ لهم دينهم الّذي ارتضى لهم* ﴾ تمكين الشيء إقراره في مكان وهو كناية عن ثبات الشيء من غير زوال واضطراب وتزلزل بحيث

(١) الأعراف: ٦٩.
(٢) الأعراف: ٧٤.
(٣) الأنعام: ١٦٥.
(٤) فاطر: ٣٩.

يؤثّر أثره من غير مانع ولا حاجز، فتمكّن الدين هو كونه معمولاً به في المجتمع من غير كفر به واستهانة بأمره، ومأخوذاً بأُصول معارفه من غير اختلاف وتخاصم، وقد حكم الله سبحانه في مواضع من كلامه أنّ الاختلاف في الدين من بغي المختلفين كقوله: ﴿ *وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُم* ﴾ (١).

والمراد بدينهم الّذي ارتضى لهم دين الإسلام، وأضاف الدين إليهم تشريفاً لهم ولكونه من مقتضى فطرتهم (٢)

سيادة الأمن:

وقوله: ﴿ *وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً* ﴾ هو كقوله: ﴿ *وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ* ﴾ عطف على قوله: ﴿ *لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم* ﴾ وأصل المعنى: ولَيبدلنّ خوفهم أمناً فنسبة التبديل إليهم إمّا على المجاز العقلي أو على حذف مضاف يدلّ عليه قوله: ﴿ **من بعد خوفهم** ﴾ والتقدير ولَيبدلنّ خوفهم، أو كون ﴿ *أمناً* ﴾ بمعنى: آمين.

والمراد بالخوف على أيّ حال ماكان يقاسيه المؤمنون في صدر الإسلام من الكفّار والمنافقين.

---

(١) البقرة: ٢١٣.

(٢) ولعلّ نسبة الدين لهذه الطائفة الخاصّة من المؤمنين الصالحين إشارة إلى التفسير والفهم الّذي تحمله هذه الطائفة للإسلام مقابل التيّارات الأُخرىٰ، فتكون هذه النسبة تصديقاً لصحّة هذا التفسير والفهم وكونه يمثّل الإسلام الصحيح مقابل الاجتهادات الأُخرىٰ في تفسير نصوص الشريعة. ويعزّز هذا المعنىٰ تبعيض هذه الطائفة من عامّة المؤمنين والتصريح بتمكين دينها، حيث إنّ من الواضح أنّ التمكين هو للدين الحقّ، فهو الموعود بأن يظهره على الدين كلّه، فيكون المقصود أنّ الدين المنسوب لهذه الطائفة من المؤمنين الصالحين هو الدين الحقّ الّذي اختُلف فيه.

زوال الشرك:

وقوله: ﴿ يعبدونني لا يُشركون بي شيئاً ﴾ الأوفق بالسياق أن يكون حالاً من ضمير ﴿ ولَيبدلنّهم ﴾ أي ولَيبدلنّ خوفهم أمناً في حال يعبدونني لا يُشركون بي شيئاً.

والالتفات في الكلام من الغَيبة إلى التكلّم، وتأكيد ﴿ يعبدونني ﴾ بقوله: ﴿ لا يُشركون بي شيئاً ﴾ ووقوع النكرة «شيئاً» في سياق النفي الدالّ على نفي الشرك على الإطلاق. كلّ ذلك يقضي بأنّ المراد عبادتهم لله عبادة خالصة لا يداخلها شرك جلي أو خفي. وبالجملة: يبدّل الله مجتمعهم مجتمعاً أمناً لا يُعبد فيه إلّا الله ولا يتّخذ فيه ربّ غيره.

وقوله: ﴿ ومَن كفر بعد ذلك فأُولئك هم الفاسقون ﴾ ظاهر السياق كون «ذلك» إشارة إلى الموعود، والأنسب على ذلك كون «كفر» من الكفران مقابل الشكر، والمعنى: ومن كفر ولم يشكر الله بعد تحقّق هذا الوعد بالكفر أو النفاق أو سائر المعاصي الموبقة، فأُولئك هم الفاسقون الكاملون في الفسق، وهو الخروج عن زيّ العبودية.

أقوال المفسّرين في مصداق الآية:

وقد اشتدّ الخلاف بين المفسّرين في الآية، فقيل: إنّها واردة في أصحاب النبيّ ﷺ وقد أنجز الله وعده لهم باستخلافهم في الأرض وتمكين دينهم وتبديل خوفهم أمناً بما أعزّ الإسلام بعد رحلة النبيّ في أيام الخلفاء الراشدين، والمراد باستخلافهم استخلاف الخلفاء الأربعة بعد النبي ﷺ أو الثلاثة الأوّل منهم، ونسبة الاستخلاف إلى جميعهم مع اختصاصه ببعضهم وهم الأربعة أو

الثلاثة من قبيل نسبة أمر البعض إلى الكل كقولهم: قتل بنو فلان وإنّما قتل بعضهم.

وقيل: هي عامّة لأُمّة محمّد ﷺ، والمراد باستخلافهم وتمكين دينهم وتبديل خوفهم أمناً إيراثهم الأرض، كما أورثها الله الأُمم الّذين كانوا قبلهم، أو استخلاف الخلفاء بعد النبيّ ﷺ على اختلاف التقرير وتمكين الإسلام وانهزام أعداء الدين، وقد أنجز الله وعده بما نصر الإسلام والمسلمين بعد الرحلة ففتحوا الأمصار وسخّروا الأقطار.

وعلى القولين الآية من ملاحم القرآن حيث أخبر بأمرٍ قبل أوان تحقّقه ولم يكن مرجوّاً ذلك يومئذٍ.

وقيل: إنّها في المهديّ الموعود عليه السلام الّذي تواترت الأخبار على أنّه سيظهر فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً. وإنّ المراد بالّذين آمنوا وعملوا الصالحات النبيّ ﷺ والأئمّة من أهل بيته عليهم السلام.

المصداق المنسجم مع دلالات الآية:

والّذي يعطيه سياق الآية الكريمة على ما تقدّم من البحث بالتحرّز عن المسامحات الّتي ربما يرتكبها المفسّرون في تفسير الآيات هو أنّ الوعد لبعض الأُمّة لا لجميعها ولا لأشخاص خاصّة منهم، وهم الّذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات، فالآية نصٌّ في ذلك، ولا قرينة من لفظٍ أو عقلٍ يدلّ على كونهم هم الصحابة أو النبيّ وأئمة أهل البيت عليهم الصلاة والسلام، ولا على أنّ المراد بـ «الّذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات» جميع الأُمّة، وإنّما صرف الوعد إلىٰ طائفة خاصّة منهم تشريفاً لهم أو لمزيد العناية بهم، فهذا كلّه تحكّم من غير وجه.

والمـراد باستخلافهم في الأرض كما استخلف الّذين من قبلهم عقد مجتمعٍ مؤمنٍ صالحٍ منهم يرثون الأرض، كما ورثها الّذين من قبلهم من الأُممِ الماضين أُولي القوّة والشوكة. وهذا الاستخلاف قائم بمجتمعهم الصالح من دون أن يختصّ به أشخاص منهم، كما كان كذلك في الّذين من قبلهم.

وأمّا إرادة الخلافة الإلهيّة بمعنى الولاية على المجتمع كما كان لداود وسليمان ويوسف عليهم السلام وهي السلطنة الإلهيّة فمن المستبعد أن يعبّر عن أنبيائه الكرام بلفظ ﴿*الّذين من قبلهم*﴾ وقد وقعت هذه اللفظة أو ما بمعناها في أكثر من خمسين موضعاً من كلامه تعالى ولم يقصد ولا في واحدٍ منها الأنبياء الماضين مع كثرة ورود ذكرهم في القرآن. نعم ذكرهم الله بلفظ ﴿*رُسُل مِن قَبلكِ*﴾ (١) أو ﴿*رُسُلٌ مِن قبلي*﴾ (٢) أو نحوهما بالإضافة إلى الضمير الراجع إلى النبيّ صلى الله عليه وآله.

زوال الاختلاف في الدين:

والمراد بتمكين دينهم الّذي ارتضى لهم كما مرّ ثبات الدين على ساقه بحيث لا يزلزله اختلافهم في أُصوله ولا مساهلتهم في إجراء أحكامه، والعمل بفروعه وخلوص المجتمع من وصمة النفاق فيه.

والمراد من تبديل خوفهم أمناً انبساط الأمن والسلام على مجتمعهم بحيث لا يخافون عدوّاً في داخل مجتمعهم أو خارجه متجاهراً أو مستخفياً على دينهم أو دنياهم.

---

(١) وقد وردت في سبعة موارد من القرآن الكريم.

(٢) آل عمران: ١٨٣.

وقول بعضهم «إنّ المراد الخوف من العدوّ الخارج من مجتمعهم، كما كان المسلمون يخافون الكفّار والمشركين القاصدين إطفاء نور الله وإبطال الدعوة» تحكّمٌ مدفوعٌ بإطلاق اللفظ من غير قرينة معيّنة للمدّعى. على أنّ الآية في مقام الامتنان وأيّ امتنان على قومٍ لا عدوّ يقصدهم من خارج، وقد أحاط بمجتمعهم الفساد وعمّته البليّة لا أمن لهم في نفسٍ ولا عرضٍ ولا مال، الحرّية فيه للقدرة الحاكمة والسبق فيه للفئة الباغية.

والمراد بكونهم يعبدون الله لا يُشركون به شيئاً ما يعطيه حقيقة معنى اللفظ وهو عموم إخلاص العبادة وانهدام بنيان كلّ كرامة إلّا كرامة التقوى.

الآية تعد بمجتمعٍ صالحٍ خالٍ من الكفر والنفاق:

والمتحصّل من ذلك كلّه أنّ الله سبحانه يعد الّذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات أن سيجعل لهم مجتمعاً صالحاً خالصاً من وصمة الكفر والنفاق والفسق يرث الأرض لا يحكم في عقائد أفراده عامّة ولا أعمالهم إلّا الدين الحقّ، يعيشون آمنين من غير خوفٍ من عدوٍّ داخلٍ أو خارج، أحراراً من كيد الكائدين وظلم الظالمين وتحكّم المتحكّمين.

وهذا المجتمع الطيّب الطاهر على ما له من صفات الفضيلة والقداسة لم يتحقّق ولم ينعقد منذ بُعث النبيّ ﷺ إلى يومنا هذا، وإن انطبق فلينطبق على زمن ظهور المهديّ عليه السلام على ما ورد من صفته في الأخبار المتواترة عن النبيّ ﷺ وأئمّة أهل البيت عليهم السلام، لكن على أن يكون الخطاب للمجتمع الصالح لا له عليه السلام وحده.

فإن قلت: ما معنى الوعد حينئذٍ للّذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات وليس

المهديّ عليه السلام أحد المخاطبين حين النزول، ولا واحد من أهل زمان ظهوره بينهم ؟

قلت: فيه خلط بين الخطابات الفردية والاجتماعية، أعني الخطاب المتوجّه إلىٰ أشخاص القوم بما هم أشخاص بأعيانهم، والخطاب المتوجّه إليهم بما هم قوم على نعت كذا، فالأوّل لا يتعدّى إلىٰ غير أشخاصهم ولا ما تضمّنه من وعدٍ أو وعيدٍ أو غير ذلك يسري إلىٰ غيرهم، والثاني يتعدّى إلى كلّ من اتصف بما ذكر فيه من الوصف ويسري إليه ما تضمّنه من الحكم، وخطاب الآية من القبيل الثاني على ما تقدّم.

ومن هذا القبيل أغلب الخطابات القرآنية المتوجّهة إلى المؤمنين والكفّار، ومنه الخطابات الذامّة لأهل الكتاب وخاصّةً اليهود بما فعله أسلافهم وللمشركين بما صنعه آباؤهم.

ومن هذا القبيل خاصّة ما ذكر من الوعد في قوله تعالى: ﴿ *فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ* ﴾[1] فإنّ الموعودين لم يعيشوا إلىٰ زمن إنجاز هذا الوعد، ونظيره الوعد المذكور في قول ذي القرنين على ما حكاه الله: ﴿ *فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً* ﴾[2]، وكذا وعده تعالى الناس بقيام الساعة وانطواء بساط الحياة الدنيا بنفخ الصور كما قال: ﴿ *ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً* ﴾[3]، فوعد الصالحين من المؤمنين بعنوان أنّهم مؤمنون صالحون بوعدٍ لا يدركه أشخاص زمان النزول بأعيانهم، ولما يوجد

---

(١) الإسراء: ٧.

(٢) الكهف: ٩٨.

(٣) الأعراف: ١٨٧.

أشخاص المجتمع الّذي يدرك إنجاز الوعد ممّا لا ضير فيه البتة.

الدولة المهدوية هي مصداق الآية:

فالحقّ أنّ الآية إن أُعطيت حقّ معناها لم تنطبق إلّا على المجتمع الموعود الّذي سينعقد بظهور المهديّ عليه السلام وإن سومح في تفسير مفرداتها وجملها، وكان المراد باستخلاف الّذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات استخلاف الأُمّة بنوعٍ من التغليب ونحوه، وبتمكين دينهم الّذي ارتضاه لهم كونهم معروفين في الدنيا بالأُمّة المسلمة وعدّهم الإسلام ديناً لهم وإن تفرّقوا فيه ثلاثاً وسبعين فرقة يكفّر بعضهم بعضاً ويستبيح بعضهم دماء بعض وأعراضهم وأموالهم، وبتبديل خوفهم أمناً يعبدون الله ولا يُشركون به شيئاً، عزّة الأُمّة وشوكتها في الدنيا وانبساطها علىٰ معظم المعمورة وظواهر ما يأتون به من صلاةٍ وصومٍ وحجٍّ وإن ارتحل الأمن من بينهم أنفسهم وودّعهم الحقّ والحقيقة، فالوجه أنّ الموعود بهذا الوعد الأُمّة، والمراد باستخلافهم ما رزقهم الله من العزة والشوكة بعد الهجرة إلىٰ ما بعد الرحلة، ولا موجب لقصر ذلك في زمن الخلفاء الراشدين، بل يجري فيما بعد ذلك إلىٰ زمن انحطاط الخلافة الإسلامية.

وأمّا تطبيق الآية على خلافة الخلفاء الراشدين أو الثلاثة الأُول أو خصوص علي عليه السلام فلا سبيل إليه البتة.

قوله تعالى: ﴿ *وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلّكم تُرحمون* ﴾ مناسبة مضمون الآية لما سيقت لبيانه الآيات السابقة تعطي أنّها من تمامها.

فقوله: ﴿ *وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة* ﴾ أمر في الحقيقة بطاعته تعالى فيما شرّعه لعباده، وتخصيص الصلاة والزكاة بالذكر لكونهما ركنين في التكاليف

الراجعة إلى الله تعالى وإلى الخلق، وقوله: ﴿ *وأطيعوا الرسول* ﴾ إنفاذ لولايته ﷺ في القضاء والحكومة.

وقوله: ﴿ *لعلّكم تُرحمون* ﴾ تعليل للأمر بما في المأمور به من المصلحة، والمعنى ـ على ما يعطيه السياق ـ: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، فإنّ في هاتين الطاعتين رجاء أن تشملكم الرحمة الإلهيّة فينجز لكم وعده أو يعجل لكم إنجازه فإن ارتفاع النفاق من بين المسلمين وعموم الصلاح والاتفاق على كلمة الحقّ مفتاح انعقاد مجتمعٍ صالح يدرّ عليهم بكلّ خير.

قوله تعالى: ﴿ *لا تحسبنّ الّذين كفروا معجزين في الأرض ومأواهمُ النار ولَبئس المصير* ﴾ من تمام الآيات السابقة، وفيها تأكيد ما مرّ من وعد الاستخلاف في الأرض وتمكين الدين وتبديل الخوف أمناً.

يخاطب تعالى نبيه ﷺ بعد الوعد بخطاب مؤكّد أن لا يظنّ أنّ الكفّار معجزون لله في الأرض فيمنعونه بما عندهم من القوّة والشوكة من أن ينجز وعده، وهذا في الحقيقة بشرى خاصّة بالنبيّ ﷺ بما أكرم به اُمّته، وأنّ أعداءه سينهزمون ويُغلبون، ولذلك خصّه بالخطاب على طريق الالتفات.

ولكون النهي المذكور في معنى أنّ الكفّار سينتهون عن معارضة الدين وأهله عطف عليه قوله: ﴿ *ومأواهمُ النار* ﴾... الخ، كأنه قيل: هم مقهورون في الدنيا ومسكنهم النار في الآخرة وبئس المصير[1].

دلالات الآية:

يُستفاد من تفسير الآية الكريمة اُمورٌ عدّة أبرزها فيما يرتبط بموضوع البحث:

---

(١) تفسير الميزان: ١٥ / ١٥١ ـ ١٥٧ وقد نقلنا تفسير الآيتين اللاحقتين لارتباطهما في سياقٍ واحدٍ مع الآية مورد البحث.

الاستخلاف لطائفة من المسلمين:

١ـ تتضمّن الآية الكريمة وعداً جميلاً لطائفةٍ معيّنةٍ من المسلمين «منكم» باستخلافهم في الأرض، وتحدّد الوصف العامّ لهذه الطائفة بأنهم ﴿ *الّذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات* ﴾ فيما تدلّ فقرات الآية الأُخرىٰ علىٰ صفاتٍ تفصيليةٍ أُخرىٰ لهذه الطائفة.

٢ـ ويكون استخلاف هذه الطائفة من المؤمنين الصالحين ـ بما يعنيه الاستخلاف من تسليطهم على الأرض وحكمها ـ مقروناً بتمكين الدين الحقّ الّذي تحمله وتدعو له هذه الفرقة من المؤمنين كما يفهم من نسبة الدين التكريمية إليهم. فيكون الإسلام في عهدهم ظاهراً مستقرّاً يحكم المجتمع دونما كفران به أو استهانةٍ بأمره.

٣ـ كما يكون مقروناً بإزالة أيّ دور أو تأثير للكفر والنفاق وكيدهما وآذاهما للمؤمنين، فيسود الأمن بالكامل لهم وتتوفّر الأوضاع اللازمة لكي يعبدُ هذا المجتمع المؤمن الصالح الله تبارك وتعالىٰ وحده بلا أدنىٰ خوفٍ من إظهار شيءٍ من حقائق التوحيد الخالص. فلا يبقىٰ اختلاف في الدين الحقّ.

٤ـ وواضحٌ أنّ مجتمعاً بهذه الخصائص لم يتحقّق في تأريخ المسلمين فلا مناص من القول بأنه سيتحقق في المستقبل حتماً لاستحالة تخلّف الوعد الإلهيّ.

٥ـ ويُفهم من الخصائص الّتي تذكرها الآية الكريمة لهذا المجتمع الصالح أنّ ثمّة صفات تفصيلية أُخرىٰ لهذه الطائفة الخاصّة الّتي وعدها الله تبارك وتعالىٰ بتشكيل المجتمع الصالح الموعود وإظهار الإسلام وتمكين الدين وإزالة الشرك والنفاق والحكم بما أنزل الله تبارك وتعالىٰ. فواضح أنّ إنجاز هذه

المهمّة السامية يستلزم تحلّي هؤلاء المؤمنين الصالحين بمراتب سامية من العلم بالشريعة والجدّية في العمل والنزاهة والإخلاص والتجربة والخبرة العملية تؤهّلهم للقيام بهذه المهمّة الخطيرة.

المستخلفون عصارة الخطّ الإيماني:

وحيث إنّ الله تبارك وتعالىٰ قد وعد بأن يستخلف هؤلاء المؤمنين الصالحين في الأرض لكي يقيموا هذا المجتمع الصالح، لذا فمن الطبيعي أن يتولّىٰ تربية هذا الجيل الصالح من المؤمنين، لأنّ الاستخلاف ليس للإمام المعصوم وحده كما اتّضح من تفسير الآية بل هو للأُمّة المؤمنة الصالحة كخطٍّ إيمانيّ ربّاني، فيكون الجيل الموعود هو ثمرة وخلاصة عملية تمحيص طويلة لهذا الخطّ الإيماني تغربله وتخلّصه من الشوائب المعيقة عن تشكيل المجتمع التوحيديّ الموعود، وتكسبه التجربة والخبرة المطلوبة للقيام بهذه المهمّة. وسيأتي مزيد توضيح لآثار عملية التمحيص هذه ضمن الحديث عن الآيات المطبقة علىٰ غَيبة الإمام المهديّ عجّل الله فرجه وأسرارها.

مقارنة بعقيدة أهل البيت ﴿عليهم السلام﴾:

هذه هي أبرز الدلالات المستفادة من التدبّر في الآية الكريمة، وعندما نرجع إلىٰ عقيدة مذهب أهل البيت في المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه نجدها منسجمة بالكامل مع هذه الدلالات بل مستندة إليها ومنطلقة منها. فهي تبيّن أنّ إقامة المجتمع الصالح الخالي من الشرك والنفاق الآمن من كيد الكافرين والمنافقين المنزّه عن الاختلاف في فهم الشريعة ومن اتّباع الأهواء في تفسير نصوصها العابد لله تبارك بالعبودية التوحيدية الخالصة، المجتمع الّذي يسوده

الأمن وتُقام فيه الأحكام الإلهيّة العادلة بالكامل، هذا المجتمع سينعقد بظهور المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه.

وهي تنصّ على أنّ لهذا الإمام المنتظر غَيبة طويلة يقود فيها مسيرة المؤمنين الصالحين من خلف أستار الغَيبة، وتكمن الحكمة الأُولىٰ في هذه الغَيبة في تمحيص المؤمنين وغربلتهم وتأهيلهم للقيام بتلك المهمّة الإلهيّة الكبرىٰ علىٰ الصعيد العالمي.

وهي تصرّح بأنّ أنصاره الّذين يقيمون هذا المجتمع الصالح هم من العارفين بالشريعة والعدول الأتقياء والحكّام والقضاة وأصحاب الخبرة الادارية العالية ومن الموحّدين الخالصين الّذين عرفوا الله حقّ معرفته، وبالتالي فهم مؤهّلون للقيام بهذه المهمّة.

وهي تصرّح بأنّ هذه الفترة الطويلة من التمحيص ستتمخّض عن اتّضاح صورة الإسلام النقيّ الّذي جاء به خاتم الأنبياء محمّد ﷺ، فيظهر ثانيةً غريباً كما بدأ غريباً.

آية سورة الحجّ:

وآية سورة الحجّ تكشف حقيقةً إيمانية تعزّز دلالات الآيات السابقة في صفة الّذين يقيمون المجتمع الصالح من المؤمنين الصالحين، فلنلاحظ أوّلاً تفسيرها كما ذكره صاحب «الميزان» ﵀ :

قوله تعالى: ﴿ *الّذين إن مكّنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر* ﴾... الخ، توصيف آخر للّذين آمنوا المذكورين في أوّل الآيات، وهو توصيف المجموع من حيث هو مجموع من غير نظر إلى لأشخاص، والمراد من تمكينهم في الأرض إقدارهم على اختيار ما يريدونه

من نحو الحياة من غير مانعٍ يمنعهم أو مزاحمٍ يزاحمهم.

يقول تعالى : إنّ من صفتهم أنّهم إن تمكّنوا في الأرض وأُعطوا الحرّية في اختيار ما يستحبّونه من نحو الحياة عقدوا مجتمعاً صالحاً تقام فيه الصلاة وتؤتى فيه الزكاة ويؤمر فيه بالمعروف ويُنهى فيه عن المنكر، وتخصيص الصلاة من بين الجهات العبادية والزكاة من بين الجهات المالية بالذكر لكون كلّ منهما عمدة في بابها.

وإذ كان الوصف للّذين آمنوا المذكورين في صدر الآيات، والمراد به عقد مجتمعٍ صالح وحكم الجهاد غير خاصّ بطائفةٍ خاصّة، فالمراد بهم عامّة المؤمنين يومئذٍ بل عامة المسلمين إلىٰ يوم القيامة والخصّيصة خصّيصتهم بالطبع، فمن طبْع المسلم بما هو مسلم الصلاح وإن كان ربّما غشيته الغواشي.

وليس المراد بهم خصوص المهاجرين بأعيانهم سواء كانت الآيات مكّية أو مدنية وإن كان المذكور من جهة المظلومية هو إخراجهم من ديارهم وذلك لمنافاته عموم الموصوف المذكور في صدر الآيات وعموم حكم الجهاد لهم ولغيرهم قطعاً.

على أنّ المجتمع الصالح الّذي عقد لأوّل مرّة في المدينة ثمّ انبسط فشمل عامّة جزيرة العرب في عهد النبيّ ﷺ وهو أفضل مجتمع متكوّن في تاريخ الإسلام تُقام فيه الصلاة وتُؤتى فيه الزكاة وتؤمر فيه بالمعروف وتُنهى فيه عن المنكر مشمول للآية قطعاً، وكان السبب الأوّل، ثمّ العامل الغالب فيه الأنصار دون المهاجرين.

ولم يتّفق في تاريخ الإسلام للمهاجرين خاصّة أن يعقدوا وحدهم مجتمعاً من غير شركة من الأنصار فيقيموا الحقّ ويميطوا الباطل فيه، اللّهمّ إلّا أن يقال : إنّ المراد بهم أشخاص الخلفاء الراشدين أو خصوص عليّ عليه السلام على الخلاف بين

أهل السنّة والشيعة، وفي ذلك إفساد معنى جميع الآيات.

على أنّ التاريخ يضبط من أعمال الصدر الأوّل وخاصّة المهاجرين منهم أُموراً لا يسعنا أن نسمّيها إحياءً للحقّ وإماتةً للباطل، سواء قلنا بكونهم مجتهدين معذورين أم لا، فليس المراد توصيف أشخاصهم بل المجموع من حيث هو مجموع.

وقوله : ﴿ ولله عاقبة الأمور ﴾ تأكيد لما تقدّم من الوعد بالنصر وإظهار المؤمنين على أعداء الدين الظالمين لهم[١].

صفات المستخلفين في الأرض:

تصرّح الآية الكريمة بأنّ هؤلاء المؤمنين الّذين يقيمون المجتمع الصالح يتولّون بأنفسهم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا الأمر يؤكّد ما أشرنا إليه من أنّ الّذين يستخلفهم الله تبارك وتعالىٰ في الأرض هم الّذين يقيمون المجتمع الصالح استناداً بالدرجة الأُولىٰ للأسباب الطبيعية، وإن كان عملهم وتحرّكهم مدعوماً بالتسديد الإلهيّ.

وحيث إنّ مهمّة المستخلفين ـ في حسب الوعد الإلهيّ الوارد في الآية السابقة ـ شاملة للعالم كلّه، لذا فمن الطبيعي أن يكون هؤلاء علىٰ درجة عالية من المعرفة بالشريعة والجدّية في العمل والخبرة الإدارية والعسكرية وغيرها من الصفات الّتي أشرنا إليها سابقاً لكي يتمكّنوا من إنجاز هذه المهمّة بالمستوى المطلوب الّذي يقيم أفضل مجتمع عرفه التأريخ الإنساني.

ولذلك لزم أن يكونوا عصارة تجارب الخطّ الإيماني والثمار النقية لعملية

---

(١) تفسير الميزان: ١٤ / ٣٨٦ ـ ٣٨٧.

التمحيص والغربلة الربّانية الّتي تقدّم الحديث عنها سابقاً باعتبارها الحكمة الأُولىٰ لغَيبة الإمام المهديّ عجّل الله فرجه. وفي هذه النقطة تشترك هذه الآية مع الآية السابقة في كونها تشكّل منطلقاً لعقيدة الإمامية في القضية المهدوية خاصّة فيما يرتبط بحكمةِ الغَيبة في التمحيص، وتربية الجيل الإيماني الجديد بإنجاز المهمّة الإلهيّة المذكورة.

وإقامة هذا المجتمع الصالح الّذي وعد به الله جلّت قدرته تمثّل في واقعها المصداق الأكمل لتحقّق الغاية من خلق الإنسان وعلى الصعيد الاجتماعي وليس الفردي وحسب وهي عبادة الله تبارك وتعالىٰ، فأبرز خصائص هذا المجتمع الصالح هو أنّه يعبد الله سبحانه العبادة التوحيدية الخالصة من جميع أشكال الشرك، وفي ذلك تجسيد للغاية من خلق الإنسان، وحيث إنّ الحكمة الإلهيّة قد اقتضت تحقّق هذه الغاية، لذا فإنّ تخلّفها يكون مستحيلاً. وهذه الدلالة مستفادة من آية سورة الذاريات الّتي يمكن الاستناد إليها في وجوب تحقّق هذا المجتمع الصالح، كما سنرىٰ في الفقرة اللاحقة.

ثالثاً: تحقّق غاية خلق الإنسان:

قوله تعالىٰ:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنسَ إلّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (١)

الغاية من خلق الإنسان: تفسير الآية:

الآية الكريمة من غرر الآيات، وهي تحدّد بصراحة الغاية من خلق الإنسان

---

(١) الذاريات: ٥٦.

والمجتمع الإنساني، وهي تلقي مزيداً من الأضواء علىٰ طبيعة الدور المنتظر من المجتمع الصالح الموعود في تحقيق الغاية من الخلق، كما أشارت إلىٰ ذلك آية سورة النور فيما تضيف هذه الآية دليلاً آخر علىٰ حتمية تحقّق هذا المجتمع. لنلاحظ تفسير الآية أوّلاً كما ذكره العلّامة الطباطبائي ﵀ في «الميزان»:

قوله تعالى: ﴿ *وما خلقتُ الجنَّ والإنس إلّا ليعبُدون* ﴾ فيه التفات من سياق التكلّم بالغير إلى التكلّم وحده، لأنّ الأفعال المذكورة سابقاً المنسوبة إليه تعالى كالخلق وإرسال الرسل وإنزال العذاب كلّ ذلك ممّا يقبل توسيط الوسائط كالملائكة وسائر الأسباب، بخلاف الغرض من الخلق والإيجاد فإنّه أمرٌ يختصّ بالله سبحانه لا يشاركه فيه أحد.

وقوله: ﴿ *إلّا ليعبُدون* ﴾ إستثناءٌ من النفي لا ريب في ظهوره في أنّ للخلقة غرضاً وأنّ الغرض العبادة بمعنى كونهم عابدين لله لا كونه معبوداً، فقد قال: «ليعبُدون» ولم يقل: لِأُعبَد أو لأكون معبوداً لهم.

العبادة الحقّة غاية الخلق:

على أنّ الغرض كيفما كان أمرٌ يستكمل به صاحب الغرض ويرتفع به حاجته، والله سبحانه لا نقص فيه ولا حاجة له حتّىٰ يستكمل به ويرتفع به حاجته. ومن جهة أُخرى الفعل الّذي لا ينتهي إلىٰ غرض لفاعله لغوٌ سفهي، ويستنتج منه أنّ له سبحانه في فعله غرضاً هو ذاته لا غرض خارج منه، وأنّ لفعله غرضاً يعود إلىٰ نفس الفعل[1] وهو كمالٌ للفعل لا لفاعله، فالعبادة غرضٌ

(١) فالله تعالىٰ خلق الإنسان ليثيبه والثواب عائدٌ إلى الإنسان وهو المنتفع به والله غنيّ عنه، وأمّا غرضه تعالى فهو ذاته المتعالية وإنما خلقه لأنه الله عزّ اسمه (منه رضوان الله عليه).

لخلقة الإنسان وكمالٌ عائدٌ إليه هي وما يتبعها من الآثار كالرحمة والمغفرة وغير ذلك ولو كان للعبادة غرضٌ كالمعرفة الحاصلة بها والخلوص لله كان هو الغرض الأقصى والعبادة غرضاً متوسّطاً.

فإن قلت: ما ذكرته من حمل اللام في ﴿لِيعبدون﴾ على الغرض يعارضه قوله تعالى: ﴿ولايَزالُونَ مُختَلِفِين إلّا مَن رَّحِمَ ربُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُم﴾[١] وقوله: ﴿وَلَقَد ذَرأنا لِجَهنَّمَ كَثيراً مِنَ الجِنّ والإنسِ﴾[٢] فإنّ ظاهر الآية الأُولى كون الغرض من الخلقة الاختلاف، وظاهر الثانية كون الغرض من خلقٍ كثير من الجنّ والإنس دخول جهنّم فلا محيص عن رفع اليد من حمل اللام على الغرض وحملها على الغاية.

قلت: أمّا الآية الأُولى فالإشارة فيها إلى الرحمة دون الاختلاف، وأمّا الآية الثانية فاللام فيها للغرض لكنّه غرضٌ تبعيّ وبالقصد الثاني لا غرض أصلي وبالقصد الأول، وقد تقدّم إشباع الكلام في تفسير الآيتين.

فإن قلت: لو كان اللام في ﴿لِيعبدون﴾ للغرض كانت العبادة غرضه تعالى المراد من الخلقة، ومن المحال أن يتخلّف مراده تعالى عن إرادته، لكن من المعلوم المشاهد عياناً أنّ كثيراً منهم لا يعبدونه تعالى، وهذا نِعمَ الدليل على أنّ اللام في الآية ليست للغرض، أو أنّها للغرض لكن المراد بالعبادة العبادة التكوينية كما في قوله: ﴿وَإن مِن شَيءٍ إلّا يُسبّحُ بِحمدِهِ﴾[٣].

أو أنّ المراد بخلقهم للعبادة خلقهم على وجهٍ صالح، لأنْ يعبدوا الله بجعلهم ذوي اختيارٍ وعقلٍ واستطاعة، وتنزيل الصلاحية والاستعداد منزلة الفعلية

---

(١) هود: ١١٩.

(٢) الأعراف: ١٧٩.

(٣) الإسراء: ٤٤.

مجاز شائع كما يقال: خُلق البقر للحرث، والدار للسكنى.

قلت: الإشكال مبنيّ على كون اللام في الجنّ والإنس للاستغراق، فيكون تخلّف الغرض في بعض الأفراد منافياً له وتخلّفاً من الغرض، والظاهر أنّ اللام فيهما للجنس دون الاستغراق فوجود العبادة في النوع في الجملة تحقّقٌ للغرض لا يضرّه تخلّفه في بعض الأفراد. نعم لو ارتفعت العبادة عن جميع الأفراد كان ذلك بطلاناً للغرض، ولله سبحانه في النوع غرضٌ كما أنّ له في الفرد غرضاً[1].

وأمّا حمل العبادة على العبادة التكوينية فيضعفه أنها شأن عامّة المخلوقات لا موجب لتخصيصه بالجنّ والإنس مضافاً إلى أنّ السياق سياق توبيخ الكفّار على ترك عبادة الله التشريعية وتهديدهم على إنكار البعث والحساب والجزاء، وذلك متعلّق بالعبادة التشريعية دون التكوينية.

وأمّا حمل العبادة على الصلوح والاستعداد بأن يكون الغرض من خلق الجنّ والإنس كونهما بحيث يصلحان للعبادة ويستعدّان لها أو لتعلّق الأمر والنهي العباديّين فيضعّفه أنّ من البين أنّ الصلوح والاستعداد إنّما يتعلّق به الطلب لأجل الفعلية الّتي يتعلّق به الصلوح والاستعداد، فلو كان الغرض المطلوب من خلقهما كونهما بحيث يصلحان للعبادة أو لتعلّق الأمر والنهي العباديّين فقد تعلّق الغرض أوّلاً بفعلية عبادتهما ثمّ بالصلوح والاستعداد لمكان المقدّمية.

---

(١) الّذي يتحقّق في عهد ظهور المهديّ الموعود عجل الله فرجه هو تحقّق هذا الغرض من الخلق على صعيد المجتمع الإنساني، حيث يقيم المجتمع الصالح الّذي يعبد الله وحده لا شريك له ويجسّد العبودية الحقّة لله تبارك وتعالى، فيكون هذا المجتمع عصارة تحقّق هذا الغرض على مستوى الأفراد طوال التأريخ الإنساني، وبذلك يتحقّق الغرض على الصعيد الفردي وعلى الصعيد الاجتماعي في مجتمع يمثّل عصارة النوع الإنساني.

ففي حمل العبادة على الصلوح والاستعداد اعترافٌ بكون الغرض من الخلق أوّلاً وبالذات نفس العبادة، ثمّ الصلوح والاستعداد، فيعود الإشكال لو كان هناك إشكال.

فالحق أنّ اللام في «الجنّ والإنس» للجنس دون الاستغراق، والمراد بالعبادة نفسها دون الصلوح والاستعداد، ولو كان المراد هو الصلوح والاستعداد للعبادة لكان ذلك غرضاً أدنى مطلوباً لأجل غرض أعلى هو العبادة. كما أنّ نفس العبادة بمعنى ما يأتي به العبد من الأعمال بالجوارح من قيام وركوع وسجود ونحوها غرضٌ مطلوبٌ لأجل غرض آخر هو المثول بين يدي ربّ العالمين بذلّة العبودية وفقر المملوكية المحضة قبال العزّة المطلقة والغنى المحض. كما ربما أُستفيد من قوله تعالى: ﴿ قُل مَا يَعبأُ بِكُم رَبّي لَولَا دُعَاؤُكُم ﴾[1] حيث بدل العبادة دعاء.

فحقيقة العبادة نصب العبد نفسه في مقام الذلّة والعبودية وتوجيه وجهه إلىٰ مقام ربّه، وهذا هو مراد من فسّر العبادة بالمعرفة، يعني المعرفة الحاصلة بالعبادة.

فحقيقة العبادة هي الغرض الأقصى من الخلقة، وهي أن ينقطع العبد عن نفسه وعن كلّ شيء ويذكر ربّه.

هذا ما يعطيه التدبّر في قوله تعالى: ﴿ وما خلقتُ الجنّ والإنس إلّا ليعبُدون ﴾. ولعلّ تقديم الجنّ على الإنس لسبق خلقهم على خلق الإنس، قال تعالى: ﴿ وَالجَانَّ خَلقنَاهُ مِن قَبلُ مِن نَّارِ السَّمُوم ﴾[2]، والعبادة هي غرض الفعل

---

(١) الفرقان: ٧٧.
(٢) الحِجر: ٢٧.

أي كمالٌ عائدٌ إليه لا إلى الفاعل على ما تقدّم.

ويظهر من القصر في الآية بالنفي والاستثناء أن لا عناية لله بمن لا يعبده، كما يفيده أيضاً قوله: ﴿قل ما يعبأ بكم ربّي لولا دعاؤكم﴾ [1].

دولة المهديّ وتحقّق العبادة:

إذن، فالثابت من تفسير الآية الكريمة دلالتها على أنّ تحقّق العبادة الحقيقية لله تبارك وتعالىٰ هي الغاية من خلق الجنّ والإنس، واتضح أنّ المقصود بالعبادة هي انقطاع العبد عن نفسه وعن كلّ شيء ـ وهذه هي أعلىٰ مراتب التوحيد ونفي الشرك ـ وذكره لربّه باستمرار. وأكمل صورها هو ما صرّحت به آية سورة النور المتقدّمة ﴿يعبدونني لا يُشركون بي شيئاً﴾، حيث توضح أنّ تحقّق الوعد الإلهيّ الجميل باستخلاف صالحي المؤمنين في الأرض وتمكين دينهم وإقامتهم الصلاة وإيتاء الزكاة والنهي عن المنكر والأمر بالمعروف وإزالة حاكمية الشرك والكفر والنفاق ومكائدهم الصادّة عن العبادة الحقّة لله تبارك وتعالىٰ، كلّ ذلك يوفر الأوضاع المواتية لتحقّق العبادة الحقّة لله تبارك وتعالىٰ على الصعيد الفردي والاجتماعي بإقامة المجتمع الصالح الموعود.

حتمية ظهور المهديّ:

وعليه، يتّضح أنّ تحقّق الوعد الإلهيّ الجميل باستخلاف صالحي المؤمنين في الأرض هو السبيل لتحقّق الغاية من الخلق الّتي نصّت عليها آية سورة

---

(١) تفسير الميزان: ١٨ / ٣٨٦ ـ ٣٨٩.

الذاريات. وحيث إنّ تحقّق هذه الغاية حتمي لتعلّق الحكمة الإلهيّة به وحيث إنّ تحقّقه يكون باستخلاف صالحي المؤمنين في الأرض بالصورة الّتي تبيّنها آية سورة النور لاستحالة تحقّق العبادة الحقيقية علىٰ الصعيد الاجتماعي مع وجود الاختلاف أو تأثيرات الكفر والشرك والنفاق، لذا يمكن الاستدلال بهذه الآية الكريمة علىٰ حتمية ظهور الإمام المهديّ وإقامة دولته العادلة بالصورة المذكورة. وهذا ما يؤكّد عليه السيّد محمّد الصدر ويستدلّ عليه بآية سورة الذاريات وبعض الآيات المتقدّمة، ويفصّل الحديث عن سبل تحقّق هذه الغاية وشروط تحقّقها، ضمن ثمان نقاطٍ، ننقل هنا بحثه العقائدي في هذا الباب لنسجّل بعد ذلك الدلالات العامّة المتحصّلة من الاستدلال بهذه الآية علىٰ عقيدة منهج أهل البيت في المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه، يقول السيّد الصدر بعد التمهيد للنقطة الأُولىٰ:

النقطة الأُولىٰ: **الحصول على الكمال**[1]:

إنّ الله تبارك وتعالىٰ خلق الخلق متفضّلاً ولم يخلقهم عبثاً ولم يتركهم هملاً، بل خلقهم وهو غنيّ عنهم، لأجل حصولهم على مصالحهم الكبرى ووصولهم إلىٰ كمالهم المنشود، المتمثّل باخلاص العبادة لله تعالى. قال عزّ من قائل: ﴿ *وما خلقتُ الجنّ والإنس إلّا ليعبدون* ﴾.

اذن، فالغرض من الخليقة هو الحصول على هذا الكمال العظيم المتمثّل بتوجيه العقيدة والمفهوم إلى الله عزّوجلّ، وقصر السلوك على طاعته وعدله في كلّ حركةٍ وسكون. وإذا نظرنا إلى حقيقة هذا الكمال من جوانبه المتعدّدة

---

(١) هذه العناوين ليست في المتن وإنّما وضعناها لمزيد التوضيح.

واستطعنا تحصيل الفكرة المتكاملة عنه عرفنا الهدف الإلهيّ المقصود الّذي أصبح هدفاً لايجاد الخليقة.

الجانب الأوّل: إيجاد الفرد الكامل، من حيث إنّ قصر الإنسان نفسه على التربية بيد الحكمة الإلهيّة الكبرى وتحت إشرافها وتدبيرها يوجد فيه الإنسان العادل الكامل، الّذي يعيش محظ الحرّية عن انحرافات العاطفة والمصالح الضيّقة، والمساوق في انطلاقه مع انطلاقة الكون الكبرى إلى الله عزّوجلّ.

الجانب الثاني: إيجاد المجتمع الكامل والبشرية الكاملة المتمثّلة من مجموعة الأفراد الّذين يعيشون على مستوى العدل والاخلاص، والتجرّد من كلّ شيء سوى عبادة الله تعالى، تلك العبادة الّتي تتضمّن تربية الفرد والمجتمع، والارتباط بكلّ شيء على مستوى العدل الإلهيّ.

الجانب الثالث: إيجاد الدولة العادلة الّتي تحكم المجتمع بالحقّ والعدل بشريعة الله الّذي لا تخفىٰ عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وتكون هي المسؤولة الأساسية عن السير قدماً بالمجتمع والبشرية نحو زيادة في التكامل في الطريق الطويل غير المتناهي الخطوات.

فهذا هو معنى العبادة المقصود في الآية، وكلّ ماكان على خلاف ذلك فهو تقصير في العبادة الحقيقية تجاه الله عزّوجلّ. ولا يمكن أن نفهم من الآية هذا المعنى القاصر بطبيعة الحال.

النقطة الثانية:

إنّ الآية واضحة الظهور في أنّ الغاية الأساسية والغرض الأصلي من إيجاد البشرية هو إيجاد هذه العبادة الكاملة في ربوع البشرية، أو إيصالها إلىٰ هذا المستوى الرفيع، وذلك بقرينة وجود التعليل في قوله تعالى: ﴿ *ليعْبُدون* ﴾ مع

الحصر المستفاد من الآية من وقوع أداة الاستثناء «إلّا» بعد النفي حين قال عزّ من قائل : ﴿ *وما خلقتُ الجنّ والإنس إلّا ليعبُدون* ﴾.

إذن، فهذا هو الهدف الوحيد المنحصر الّذي لا شيء وراءه من خلقة البشرية، المعبّر عنهم بالإنس. وهذا الهدف ملحوظ ومخطّط بشكل خاصّ منذ بدأ الخلقة، ويبقى بطبيعة الحال مواكباً لها ما دامت البشرية في الوجود.

وهذا بالضبط هو ما نعنيه حين نقول : إنّ الله تعالى لم يخلق البشرية لأجل مصلحته، فإنّه غنيّ عن العالمين، وإنّما خلقهم لأجل مصلحتهم، وأيّ مصلحة يريدها الله لعباده غير كمالهم ورشدهم وصلاحهم المتمثّل بالعبادة المخلصة والتوجّه إليه بالخيرات نحوه عزّ وعلا.

النقطة الثالثة :

إنّ الغرض الإلهيّ من خلق البشرية ما دام هو ذلك إذن فلابدّ أن يشاء الله تعالىٰ إيجاد كلّ ما يحقّقه والحيلولة دون كلّ ما يحول عنه، شأن كلّ غرض إلهيّ مهمّ، فإنّ الحكمة الأزلية حين تتعلّق بوجود أيّ شيء، فإنّ تخلّفه يكون مستحيلاً، وتكون إرادة الله تعالى متعلّقة بإيجاده لو كان شيئاً آنياً فورياً، أو التخطيط لوجوده لو كان شيئاً مؤجّلاً ومحتاجاً إلىٰ مقدّمات من الضروري أن توجد قبله.

تحقّق الغاية بالسنن الطبيعية:

وقد برهنّا في رسالتنا الخاصّة بالمفهوم الإسلامي للمعجزة أنّ الغرض الإلهيّ المهمّ إذا تعلّق بهدف من الأهداف، فإنّه لابدّ من وجود ذلك الهدف ولو استلزم بوجوده أو ببعض مقدّماته خرق قوانين الطبيعة وإيجاد المعجزات. فإنّ القوانين الطبيعية إنّما أوجدها الله تعالى في كونه لأجل تنفيذ أغراضه من إيجاد

الخلق، فإذا توقفت تلك الأغراض على انخرام تلك القوانين وحدوث المعجزات أحياناً أو في كثير من الأحيان كانت تلك القوانين الطبيعية قاصرة عن المانعة والتأثير.

وهذا هو الّذي يلقي الضوء على الفكرة الأساسية الّتي يقوم عليها (قانون المعجزات) الّذي أشرنا إليه، ونؤجّل الغوص في تفاصيل ذلك إلىٰ رسالتنا الخاصّة بها.

النقطة الرابعة:

إنّنا نجد بالوجدان القطعي أنّ هذا العرض الإلهيّ المهمّ الّذي نطقت به الآية بالمعنى الّذي فهمناه لم يحدث في تأريخ البشرية على الإطلاق منذ وجودها إلى العصر الحاضر. إذن فهو باليقين سوف يحدث في مستقبل عمر البشرية بمشيئة خالقها العظيم، وهذه هي الفكرة الأساسية الّتي ننطلق فيها إلى التسليم بالتخطيط الإلهيّ لليوم الموعود.

آياتٌ أُخرىٰ مؤيّدة:

ولئن كان المنطلق الأساسي في هذا البرهان هو قوله تعالى: ﴿ *وما خلقتُ الجنّ والإنس إلّا ليعبُدون* ﴾.. فإنّه يمكن الانطلاق إلىٰ نفس النتيجة من آيات قرآنية أُخرىٰ نذكر منها آيتين، مع بيان الوجه في الاستدلال مختصراً، ونحيل التفصيل إلى الكتاب الخامس من هذه الموسوعة الخاصّ بإثبات وجود المهديّ عليه السلام عن طريق القرآن الكريم.

الآية الاولى:

﴿ *وعَدَ اللهُ الّذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات لَيستخلفنّهم في الأرض كما*

استَخلَفَ الّذِينَ مِن قَبلِهِم ولَيُمكنَنَّ لَهُم دينَهُمُ الّذي ارتضىٰ لَهُم ولَيُبدّلَنَّهُم مِن بعدِ خَوفِهِم أمناً يعبُدُونني لا يُشرِكُون بي شيئاً وَمَن كَفَرَ بعدَ ذلك فأُولئِكَ هُمُ الفَاسِقُون ﴾ [١].

فهذا وعدٌ صريحٌ من الله عزّ وجّل ـ و ﴿ *إنّ الله لَا يُخلِفُ الميعَاد* ﴾ [٢] للبشرية المؤمنة الصالحة الّتي قاست الظلم والعذاب في عصور الانحراف وبذلت من التضحيات الشيء الكثير ـ بأن يستخلفهم في الأرض، بمعنى أنّه يوفّقهم إلى السلطة الفعلية على البشرية وممارسة الولاية الحقيقية فيهم. فإذن استطعنا أن نفهم من «الأرض» كلّ القسم المسكون من البسيطة، كما هو الظاهر من الكلمة والمعنى الواضح منها حملاً للام على الجنس بعد عدم وجود أيّ قرينة على انصرافها إلىٰ أرض معيّنة. ومعنى حملها على الجنس : أنّ كلّ أرض على الإطلاق سوف تكون مشمولة لسلطة المؤمنين واستخلافهم وسيحكمون وجه البسيطة.

وهذا هو المناسب مع الجمل المتأخّرة في الآية الكريمة، كقوله تعالى : ﴿ *ولَيُمكنَنّ لهم دينَهم الّذي ارتضىٰ لهم* ﴾ فإنّ التمكين التامّ والاستقرار الحقيقي للدين لا يكون إلّا عند سيادته في العالم أجمع، وكقوله تعالى : ﴿ *ولَيُبَدلنّهم من بعد خوفهم أمناً* ﴾ بعد أن نعرف أنّ المؤمنين كانوا قبل الاستخلاف يعانون الخوف في كلّ مناطق العالم لسيادة الظلم والجور في العالم كلّه. فلا يكون الخوف قد تبدّل إلى الأمن حقيقة إلّا بعد أن تتمّ لهم السلطة على وجه البسيطة كلّها.

---

(١) النور: ٥٥.

(٢) آل عمران: ٩، الرعد: ٣١، وغيرهما بألفاظ مشابهة.

فإذا تمّ لنا من الآية ذلك ولاحظنا وجداننا الّذي ذكرناه وهو أنّ هذا الوضع الاجتماعي العالمي الموعود لم يتحقّق علىٰ مدى التاريخ منذ فجر البشرية إلىٰ عصرنا الحاضر. إذن فهو ممّا سيتحقّق في مستقبل الدهر يقيناً طبقاً للوعد الإلهيّ القطعي غير القابل للتخلّف أو التمييع.

الآية الثانية:

قوله تعالى: ﴿ *هُوَ الَّذي أرسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلّهِ وَلَو كَرِهَ الْمُشرِكُون* ﴾[1].

وهي تعطينا بوضوح الغاية والغرض الرئيسي من إرسال رسول الإسلام ﷺ ودين الحقّ. يدلّنا على ذلك قوله تعالى «ليظهره» حيث دلّت لام التعليل على الغاية، والسبب في إنزال شريعة الإسلام وهو أن يُظهره أي يجعله منتصراً ومسيطراً على غيره من الأديان والعقائد كلّها. وذلك لا يكون إلّا بسيطرة دين الحقّ على العالم كلّه.

وإذا كان هذا غاية من إرسال الإسلام إذن فهو يقينيّ الحدوث في مستقبل الدهر؛ لأنّ الغايات الإلهيّة غير قابلة للتخلّف.

ولئن دلّت هاتان الآيتان على نفس المطلوب إلّا أنّ قوله تعالى: ﴿ *وما خلقتُ الجنّ والإنس إلّا ليعبُدون* ﴾ أهمّ في مقام الاستدلال على ذلك، لأنّها تدلّنا على الغرض الأسمى لخلق البشرية أساساً، ذلك الغرض الّذي كان موجوداً منذ بدء الخلق، بخلاف الآيتين الأخيرتين، فإنّهما مختصّتان بمضامين محدودة نسبياً، كما يتّضح لمن فكّر في مدلوليهما.

وإنّ هاتين الآيتين في الواقع من تطبيقات ذلك الغرض الأسمى الّذي نطقت

---

(١) التوبة: ٣٣، الصفّ: ٩، وانظر سورة الفتح: ٢٨.

به الآية الكريمة الأُولى، كما سيتّضح بعد قليل عند معرفتنا بتفاصيل التخطيط الإلهيّ لليوم الموعود.

النقطة الخامسة:

إنّ تكامل الفرد وبالتالي تكامل المجتمع البشري يتوقّف ـ بعد أن وهبه الله عزّ وعلا العقل والاختيار ـ على عاملين: عامل خارجي وعامل داخلي، أو قل: عامل موضوعي وعامل ذاتي.

أمّا العامل الخارجي الموضوعي فهو إفهام الفرد وبالتالي المجتمع معنى العدل والكمال الّذي ينبغي أن يستهدفه والمنهج الّذي يجب عليه أن يتّبعه في حياته ويقصر عليه سلوكه.

وهذا الإفهام لا يمكن صدوره إلّا عن الله عزّوجلّ، بعد البرهنة على عدم إمكان توصّل البشرية إلىٰ كمالها ومعرفتها بالعدل الحقيقي إذا عزلت فكرياً عن الحكمة الأزلية الإلهيّة، كما صحّ البرهان عليه في بحوث العقائد الإسلامية. ومن ثمّ لا يمكن أن يتحقّق الغرض الإلهيّ المهمّ في هداية البشرية وإيجاد العبادة الكاملة في ربوعها إذا أوكلت البشرية إلىٰ نفسها وفكرها القاصر، وأُلقي حبلها علىٰ غاربها. إذن فلابدّ من أجل التوصّل إلىٰ ذلك الغرض الكبير من أن يفهمها الله تعالىٰ معنى العدل والكمال وتفاصيل السلوك الصالح الّذي يجب اتّخاذه.

دور الأنبياء في التمهيد للدور المهدوي:

وحيث إنّ إفهام البشر من قِبل الله تعالىٰ بالمباشرة والمواجهة مستحيل ـ كما صحّ البرهان عليه في بحوث العقائد الإسلامية ـ احتاجت البشرية إلى أن يرسل

الله تعالى إليها أنبياء مبشّرين ومنذرين، وأن يكون إرسالهم وإثبات صدقهم طبقاً لقانون المعجزات، لأنّ هذه المعجزات تقع في طريق هداية البشر والوصول إلىٰ إيجاد الغرض المهمّ من إيجادهم.

ومنه نستطيع أن نلاحظ كيف أنّ خطّ الأنبياء الطويل والأعداد الكبيرة منهم إنّما كان باعتبار التقديم والتمهيد للغرض الكبير، باعتبار أنّ البشرية حين أوّل وجودها كانت قاصرة عن فهم تفاصيل العدل الكامل، فلم يكن في الإمكان إيجاد المجتمع العادل الكامل الموعود في ربوعها لأوّل وهلة، بل كان لابدّ أن تتربّى البشرية تدريجاً إلى أن تصل إلى المستوى اللائق الّذي يؤهّلها لمجرّد فهم العدل الكامل الّذي يريد الله تعالىٰ تطبيقه في اليوم الموعود.

ومن هنا نعرف أنّ الأنبياء إنّما تعددوا وتكثّروا من أجل إعداد البشرية وتربيتها للوصول إلىٰ هذا المستوى اللائق لكي يتمّ لها هذا العامل الخارجي الأساسي وهو إفهامها العدل الكامل والأُطروحة النظرية التامّة للعدل التشريعي الّذي يريد الله تعالىٰ تطبيقها علىٰ وجه الأرض، والّتي بها تتحقّق العبادة الكاملة الّتي يرضاها الله تعالىٰ لخلقه، وبها يتحقّق الهدف الأساسي لإيجاد الخليقة.

تنامي الإخلاص للشرع الإلهيّ:

وأمّا العامل الداخلي الذاتي فهو الشعور بالمسؤولية تجاه الأُطروحة العادلة الكاملة، باعتبار أنّها إنّما تضمن العدل فيما إذا أطاعها الأفراد وطبّقت في حياتهم، وهي إنّما تضمن الطاعة التامّة مع وجود الشعور بالمسؤولية. إذن فلابدّ من أجل وجود العدل أن يوجد هذا العامل الداخلي الذاتي في الإنسان.

وإنّما يوجد الشعور بالمسؤولية وينمو نتيجةً لأسباب ثلاثة مقترنة :

السبب الأول: إدراك العقل لأهمّية طاعة الله والخضوع له والانصياع إلى أوامره ونواهيه، باعتباره مستحقّاً للعبادة مع غضّ النظر عن أيّ اعتبارٍ آخر.

السبب الثاني: الشعور بأهمّية طاعة الله تعالىٰ، باعتبارها الضامن الحقيقي للعدل المطلق على المستويين الفردي والاجتماعي، أو بتعبير آخر: تربية الإخلاص الذاتي لطاعة الله باعتبار المعرفة الواضحة بضمانها للعدل المطلق.

السبب الثالث: العامل الأُخروي المتمثّل بالطمع بالثواب الّذي رصده الله تبارك وتعالى للمطيعين، والخوف من العقاب الّذي توعّد به العاصين والمذنبين.

وهناك فرقٌ أساسي في طرق إيجاد هذه الأسباب. فالسبب الأول والأخير يوجدان بالتربية النظرية فقط، ويتحقّقان بمجرّد إلفات الفرد إليهما وتصديقه بصحتهما. وأمّا السبب الثاني فالبرهنة النظرية عليه غير كافية بطبيعة الحال، بشكلٍ ينتج الإخلاص والوعي الحقيقيّين والاستعداد للتفاني في سبيل العدل المطلق في سبيل الله تعالى، بل يحتاج ذلك إلىٰ تمرينٍ طويل الأمد وتجربةٍ وممارسة.

ومن هنا تنبثق أهمّية هذه التجربة والممارسة في تربية الإخلاص بشكلٍ خاصّ، والتكامل بشكل عامّ، بصفة إحدى المقدّمات الأساسية والأسباب الرئيسية لإيجاد المجتمع العادل الّذي يتحقّق فيه الغرض الأساسي لإيجاد البشرية.

النقطة السادسة:

إنّ التجربة والممارسة الّتي عرفنا أهمّيتها في تربية الإخلاص والاندفاع إلى

الطاعة إذا لاحظناها على أساسٍ فردي لم تكتسب أهمّية أكثر من إنتاج الإخلاص والتكامل للفرد الواحد، وأمّا إذا لاحظناها على أساس عامّ وقلنا إنّ المجتمع بصفته مكوّناً من أفراد، والأُمّة بصفتها مكوّنة من مجتمعات يجب أن تمرّ بدور التربية والتجربة الّتي تنمي فيها روح الإخلاص والطاعة تجاه تعاليم الله عزّ وجلّ.

الصعوبات إعداد للأُمّة:

إذن، تكتسب تربية الأُمّة والتجربة الّتي يجب أن تمرّ بها الأُمّة نفس الأهمّية الكبرىٰ، باعتبارها مقدّمة حقيقية للغرض الإلهيّ الكبير من إيجاد الخليقة. فإذا علمنا ـ كما سبق ـ أنّ الله تعالى يفعل أيّ شيء يكون مقدّمة لوجود غرضه الأساسي. إذن فهو بكلّ تأكيد سوف يخطّط لتربية الأُمّة على هذا الطريق.

وقد يخطر في الذهن هذا السؤال: إنّ هذه التربية حين تكون مقدّمة للغرض الإلهيّ ويكون الغرض مهمّاً بحيث عرفنا أنه يمكن إقامة المعجزات في سبيل التمهيد إليه، فلماذا لا توجد هذه التربية في ربوع الأُمّة دفعةً واحدةً عن طريق المعجزة؟

والجواب علىٰ هذا السؤال يكون من وجوه ثلاثة:

الوجه الأول: إنّ إيجاد الإيمان والإخلاص في أنفس الأفراد بطريق المعجزة يؤدّي بنا إلى القول بأنّ الله تعالىٰ يجبر الأفراد على الطاعات وترك المعاصي، وهذا مبرهن علىٰ بطلانه وفساده في بحوث العقائد الإسلامية.

الوجه الثاني: إنّ هذا الأُسلوب المقترح من المعجزة ينافي قانون المعجزات، إذن فلا يمكن وجود مثل هذه المعجزة.

والسبب في ذلك هو أنّ قانون المعجزات ـ كما عرفناه ـ يقضي بعدم قيام المعجزة ما لم يكن قيامها طريقاً منحصراً لإقامة الحجّة وهداية البشرية. وأمّا إذا كانت للنتيجة المطلوبة أساليب طبيعية غير إعجازية كان عدم قيام المعجزة حتمياً، وأوكل الله تعالىٰ إيجاد النتيجة إلى أسبابها الطبيعية نفسها مهما طال الزمن بهذه الأسباب والنتائج. فإنّ الله تعالىٰ طويل الأناة ولا يفرق في ذاته مرور الزمان.

فإذا طبّقنا ذلك علىٰ مورد حديثنا وجدنا أنّ لتربية الأُمّة أسباب طبيعية، سوف نعرض لها في النقطة الآتية، يمكن أن تنتج نتائجها خلال زمان طويل، ومعه يكون عدم قيام المعجزة لإيجاد تلكمُ النتائج حتمياً.

الوجه الثالث: إنّنا لو تنزّلنا جدلاً عن الوجهين السابقين وقلنا بإمكان تربية الأُمّة عن طريق المعجزات فيكون الأمر دائراً ومردّداً بين تربية الأُمّة عن هذا الطريق أو تربيتها عن الطريق الطبيعي. عندئذٍ يمكن القول: إنّ الأهداف التربوية الّتي يمكن إيجادها بالطرق الطبيعية أفضل بكثير من الأهداف التربوية الّتي يمكن إيجادها بالمعجزات. ولا تتحقّق العبادة الكاملة المطلوبة لله عزّوجلّ إلّا باختيار أفضل الفردين. ومن هنا لابدّ من الالتزام بعدم قيام المعجزات، لأنّها الطريق الأردأ في تربية الأُمّة.

والسبب في ذلك هي: أنّ التربية إن وجدت بطرقها الطبيعية كانت متضمّنة لمرتبة عالية من الرشد والنضج من الناحية السلوكية والعقائدية، لأنّ من الطرق الطبيعية للتربية ـ على ما سنعرف ـ التمحيص والاختبار، والمرور بالتجارب القاسية. فإذا خرج الفرد من التمحيص والتجربة ناجحاً منتصراً كان إخلاصه قد اكتسب نضجاً ورشداً لم يكن في السابق، باعتبار أنّ الفرد أصبح يعرف ما هي

ردود الفعل المطلوبة تجاه المصاعب، وما هي قيمة العدل في حلّ مشاكل البشرية بإزاء الحلول الأُخرى الفاشلة الّتي عرضها الآخرون، وكلّ ذلك لا يكون إلّا خلال ردحٍ طويلٍ من الزمن.

بخلاف المعجزة، فإنّها ان أحدثت المجتمع الصالح فإنّها لا يمكن أن توجد نضجه ورشده بأيّ حال، بل سوف يكون مجتمعاً فجّاً وعدلاً صورياً بطبيعة الحال، ما لم تفترض أُمور أُخرى إضافية كنزول الوحي على كلّ أفراد الأُمّة، أو نحو ذلك ممّا لم تقم عليه الدعوة الإلهيّة علىٰ طول خطّ التأريخ الطويل.

النقطة السابعة:

في محاولة التعرّف على الأسباب الطبيعية للتربية وإيجاد الاخلاص. تتوقّف التجربة والممارسة الّتي يجب أن تمرّ بها الأُمّة في تربيتها الطويلة على أحد عاملين:

العامل الأول: التطبيق الفعليّ الحي للمجتمع العادل المطلق، حتّىٰ يراه الناس ويحبّوه ويقدّموا مصالحه العامّة علىٰ مصالحهم الخاصّة. فإنّ شعور الناس بوجود العدل المطلق مطبقاً علىٰ وجه الأرض يكفي بمجرّده في توجيه عواطف الناس وصهر إخلاصهم إلىٰ حدٍّ بعيد.

العامل الثاني: مرور الأُمّة خلال تربيتها بعوامل صعبة وظروف ظالمة عسرة تجعلها تتوفّر شيئاً فشيئاً على التعمّق الفكري والعاطفي، وتصوغ منها في نهاية المطاف أُمّة شاعرة بالمسؤولية قوية الارادة والعزم علىٰ تطبيق الأُطروحة العادلة الكاملة، وذلك بعد أن تعيش الأُمّة الشعور بأمرين مقترنين:

أحدهما: الشعور بأفضليّة الأُطروحة العادلة، لا بشكل نظري فحسب، بل بشكل حسّي معاش، بعد أن تمّت المقارنة لدى الأُمّة بكلّ وضوح بين هذه

الأُطروحة وبين سائر النظم والقوانين والنظريات المخالفة لها. وثبت بالتجربة فشل سائر النُظم والنظريات، وأدائها إلى أنواع مختلفة من الظلم والتعسّف. باعتبار النقص الذاتي الموجود في سائر النُظم، ذلك النقص الّذي تبرأ منه وتعلو عليه الأُطروحة الكاملة.

ثانيهما: الشعور بأهمّية التضحية الحقيقية على مختلف المستويات في سبيل الأُطروحة الكاملة الّتي يؤمنون بها، والإحساس المباشر بلزوم الصبر والمثابرة والصمود أمام القوى الظالمة تمسّكاً بالحقّ.

وبالرغم من صحّة العاملين كليهما وأثرهما الأكيد في تربية الأُمّة، إلّا أننا إذا فرضنا كلّاً منهما معزولاً عن الآخر، نجد أنّ العامل الثاني أهمّ من الأوّل من جهتين أساسيّتين:

أوّلاً: إنّ محبّة الأُطروحة العادلة والإخلاص لها عند تطبيقها أمرٌ موافقٌ للهوىٰ والمصالح الشخصية، لأنها تضمن للإنسان سعادته ورفاهه الفردي والاجتماعي.

وأمّا محبّة الأُطروحة العادلة في ظروف الظلم والتضحية فهي محبّة واعية عميقة تدفع الإنسان إلى المكافحة والجهاد في سبيل إيجاد الواقع الاجتماعي العادل.

ومن المعلوم أنّ المحبّ المخلص على الشكل الأوّل إذا لم يمرّ بتجارب التضحية يكون مهدّداً بالانحراف والارتداد عند مواجهة أوّل صعوبة يجابهها، يشعر خلالها بالتنافي بين مصالحه الخاصّة والمصالح العامّة، فإذا كانت هذه الظاهرة عامّة بين الأفراد لم يكن ذلك التطبيق قابلاً للاستمرار والبقاء، ولا يمكن أن تكون هذه الظاهرة عامّة بأيّ حال لو كان الإخلاص ناتجاً عن تضحيةٍ وصمود.

ثانياً: نعرف ممّا تقدّم أنّ العامل الثاني يجب أن يكون متقدّماً زماناً على العامل الأول، باعتبار توقّف التطبيق الحقيقي عليه. فإنّ العدل لا يكون عميقاً وأساسياً في المجتمع ما لم يكن كلّ الأفراد أو جلّهم ـ على أقلّ تقدير ـ ممّن شحذت إخلاصه التجارب ورفعت إيمانه وإرادته التضحيات، فإنّهم يكونون أقدر على العمل وأسرع إنتاجاً وأكثر تحمّلاً للصعوبات، ممّا يجعل العدل أعمق أثراً وأضمن للبقاء والاستمرار.

إذن، فالغرض الإلهيّ في إيجاد البشرية يتوقّف وجوده على الإخلاص المنصقل بالتجارب والتضحيات، ومن المعلوم أنّ هذا الصقل لا يمكن حصوله إلّا بالمرور في تيّار التجارب والتضحيات نفسه، وهذا التيار ليس إلّا الظروف الصعبة والأزمنة المظلمة الظالمة الّتي تمرّ بها البشرية خلال الأجيال.

إذن، يتبرهن بكلّ وضوح توقّف الغرض الإلهيّ في هداية البشر وإيجاد مجتمع العبادة الكاملة علىٰ مرور البشرية في ظروف صعبة ظالمة، ليكونوا عند ابتداء التطبيق علىٰ مستوى المسؤولية المطلوبة للعدل، ويستطيعون بجدارة القيام به وبسهولة الإنسجام معه.

النقطة الثامنة:

إنّه من هذا المنطلق بالذات نعرف أهمّية التمحيص والاختبار الّذي دلّت عليه الأخبار ـ كما سوف نسمع ـ وارتباطه الأساسي بالتقديم للهدف الإلهيّ الكبير.

لزوم التمحيص والاختبار:

باعتبار أنّ ما تعيشه البشرية من ظروف ظالمة من ناحية وأُمور مغرية من ناحية أُخرى وكم للخوف والإغراء من قوّة في الاندفاع ومن تأثير على النفس

فيكون ذلك حاملاً للفرد على الانحراف عن الله تعالى والخروج علىٰ تعاليمه العادلة، ويصبح تطبيق هذه التعاليم علىٰ نفسه وغيره من أصعب الأُمور، كما قد وصف في بعض الأخبار بأنه كالقبض على الجمر.

ومن هنا تكون هذه الظروف ومحاولة هذا التطبيق محكّاً أساسياً لمدى الاخلاص وقوة الإرادة لدى الأفراد، فينهار العدد الأغلب من البشر في أحضان الظلم والإغراء، تبعاً لضعف إرادتهم وتقديم مصالحهم الشخصية وراحتهم القريبة على الأهداف الكبرىٰ والغايات القصوىٰ. ويبقى العدد الأقلّ صامدين مكافحين، تشتدّ إرادتهم وتقوىٰ عزيمتهم، ويشعرون باللذّة والفخر في مكافحة تيارات الانحراف والفساد. ولا يزالون في تكامل وصمود حتّىٰ يبلغوا مستوى المسؤولية الكبرىٰ في مواجهة العالم بالعدل المطلق في اليوم الموعود.

ويكون العالم عند تمخّض قانون التمحيص هذا عن نتائجه كما نطقت به بعض الأخبار متكوّناً من فسطاطين أو معسكرين: فسطاط كفر لا إيمان فيه، وفسطاط إيمان لا كفر فيه، على ما سنسمع في الناحية الثانية من هذا الفصل.

فإن قال قائل: كيف يمكن التوفيق بين ما قلناه قبل قليل من لزوم كون الأُمّة بشكل عامّ، المتمثّلة في أكثر أفرادها مخلصةً إخلاصاً حقيقياً نتيجةً للتجربة والتمحيص، وبين ما قلناه الآن من أنّ أغلب الناس سوف ينهارون تجاه الظلم والاغراء ولا يبقىٰ من ذوي الاخلاص الحقيقي إلّا القليل؟

نقول في جواب ذلك: أنّه يمكن القول إنّ النتائج الصالحة للتمحيص لا تختصّ بالقليل من البشر، وإن اختصّ هؤلاء بدرجات رفيعة من الإخلاص لا يضارعهم بها غيرهم من الناس.

فإنّنا يمكن أن نرتفع بنتائج التمحيص من الزاوية الّتي نتوخاها الآن إلى أربعة درجات:

الدرجة الأُولى: الإخلاص التامّ والوعي الكامل، الّذي يتمثّل باستعداد الفرد بالتضحية بكلّ غالٍ ورخيصٍ على الاطلاق في سبيل العدل الإلهيّ، وتطبيق تعاليم الربّ العظيم وأهدافه الكبرىٰ.

ويكون مثل هذا الفرد مؤهّلاً لنيل بعض درجات القيادة والسلطة العسكرية أو المدنية في اليوم الموعود.

الدرجة الثانية: الإخلاص الثابت المهمّ الّذي يتمثّل في قدرة الفرد على السيطرة بإرادته على كلّ صعوبة وإغراء مرّ به في حياته من درجات الخوف والطمع المعروفة، بغضّ النظر عن أنّه لو مرّ في حياته بدرجةٍ أعلىٰ من التمحيص والمصاعب فهل يستطيع النجاح أيضاً أو لا؟ وهذا هو الّذي يفرّق هذه الدرجة عن سابقتها.

وهذه الدرجة هي الّتي تؤهّل الفرد لأن يكون واحداً من القواعد الشعبية الصالحة لدولة الحقّ في اليوم الموعود، أو أن يكون جندياً محارباً خلال الفتح العالمي في ذلك اليوم.

الدرجة الثالثة: الإخلاص الاقتضائي، وهو أن يكون الفرد محبّاً للحقّ والعدل الإلهيّ في دخيلة نفسه، ومسايراً لظروف الظلم أو الاغراء إلىٰ حدٍّ ما أيضاً.

فإنّنا نجد في كثير من الأفراد انفكاكاً بين العقيدة والسلوك، فبينما نجد عقيدته صالحة نجد سلوكه منحرفاً نتيجةً لاضطراره وظروفه الشاذّة واحتياجه إلىٰ لقمة العيش. وهو في ذات الوقت من الممكن أن يكون مدركاً لمعنى الظلم وفظاعته، وللمسؤولية تجاه تعاليم الله العادلة، ولكنّه يشعر بالقصور عن تطبيقها نتيجةً لظروف الضغط والظلم الّتي يعيشها، ومن ثمّ فهو يدفن عقيدته ووعيه في قلبه ويساير الظلم والإغراء إلىٰ بعض الخطوات.

ويمكن في حقّ مثل هذا الفرد أنه بمجرّد أن ترتفع ظروف الظلم ويبدأ التطبيق العادل فإنّه سوف ينطلق إخلاصه الاقتضائي الكامن بعد أن ارتفع عنه المانع ويكون له حركة فعّالة في المشاركة والتعاون في ظروف التطبيق الجديد.

الدرجة الرابعة: أن لا يوجد الإخلاص بأيّ درجة من درجاته السابقة، ولكن يكون الفرد قد شعر بوضوح نتيجةً لظروف التمحيص العالمي بفشل التجارب الّتي عاشتها المبادئ والفلسفات الّتي ادّعت حلّ مشاكل العالم وتذليل مصاعبه ونشر العدالة والرفاه في ربوعه. فإنّ هذه المبادئ بعد أن تعيش التجربة والتطبيق وتتمخّض عن نتائجها الرئيسية سوف يبدو بوضوح للأعمّ الأغلب من البشر أنها لم تتمخّض إلّا عن الفساد والضياع نتيجةً لقصورها الذاتي ـ كما سبق أن أشرنا ـ وقد أضافت إلىٰ مشكلات العالم لا أنّها قد ذلّلت منها شيئاً.

عندئذٍ ينبثق شعور خفي في اللاشعور بالحاجة العالمية الماسّة إلى الحلّ الناجز الّذي ينقذ العالم من ورطته ويخرجه من وهدته ويوقظه من رقدته.

وهذا الحلّ وإن لم يكن ملتفتاً إليه بوضوح أو معروفاً بتفاصيله ولكنّه على أيّ حال توقّع نفسيّ غامض يمكن انطباقه على أوّل دعوة رئيسية جديدة تدّعي حلّ مشاكل العالم وتذليل مصاعبه. ومن هنا تفوز مثل هذه الدعوة بتأييد كلّ من يمثّل هذه الدرجة من نتائج التمحيص ريثما كانت هذه الدعوة محتملة الصدق علىٰ أيّ حال.

فإذا كانت هذه الدعوة هي دعوة الحقّ في يومها الموعود فسيكون لهذا الجوّ النفسيّ العالمي أثره الكبير في دعم التطبيق العادل في ذلك اليوم.

فهذه هي الدرجات الأربعة الّتي يتمخّض عنها التمحيص الإلهيّ الكبير في عصر ما قبل الظهور، والّتي تشارك بشكلٍ وآخر في بناء العدل في اليوم الموعود.

ونحن نستطيع أن نلاحظ بوضوح أنّ هذه الدرجات كلّما ارتفعت قلّ الأفراد المتّصفون بها من البشر، وكلّما نزلت كثر الأفراد المتّصفون بها بطبيعة الحال. ومن هنا كان المتّصفون بالدرجة الأُولىٰ من الإخلاص قليلين في البشر، وهم الّذين سبق أن برهنّا على أنّ الإمام المهديّ عليه السلام يمكن أن لا يحتجب عنهم خلال غَيبته الكبرىٰ. كما كان المتّصفون بالدرجة الرابعة هم أكثر البشرية في العصر المباشر لما قبل الظهور. وتختلف الدرجتان الثانية والثالثة فيما بين هذين الحدّين من العدد.

ومن هنا نستطيع أن نقول لمن يوجّه السؤال السابق: إنّ الدرجات الصالحة الناتجة عن التمحيص الإلهيّ تمثّل بمجموعها عدداً كبيراً من البشر، بل الأعمّ الأغلب منهم، وليس العدد قليلاً كما تخيّله السائل، وإنّما العدد القليل منحصرٌ بالدرجة العليا من الإخلاص، وهو ممّا لا يؤثّر على التطبيق العادل الموعود شيئاً، باعتبار أنّ الأفراد الّذين يمثّلون هذه الدرجة سيكونون بالمقدار الكافي الّذي يقومون خلاله بمسؤولية القيادة الناجحة في اليوم الموعود. وليس من المتوقّع من كلّ البشر أن يكونوا قوّاداً، بطبيعة الحال.

وعلى أيّ حال، فقد اتّضحت من هذه النقاط الثمانية المناشئ الحقيقية للتخطيط الإلهيّ لهداية البشر وتحقيق العبادة التامّة في ربوعهم، كما اتّضح البرهان علىٰ وجود هذا التخطيط، حيث يحتاج الأمر إلىٰ مقدّمات طويلة طبيعية غير إعجازية. كما اتّضحت جملة من ملامح هذا التخطيط وما يلعبه الظلم والانحراف الّذي تعانيه البشرية علىٰ مدى التاريخ من دور في هذا التخطيط الإلهيّ الكبير[1].

---

(١) تاريخ الغَيبة الكبرىٰ: ٢٣٤ ـ ٢٥١.

خلاصة الاستدلال بالآية:

نلخّص الدلالات المستفادة من تفسير الآية الكريمة والآيتين المؤيّدتين لها والبحث العقائدي في مقتضياتها ضمن النقاط التالية :

١ـ إنّ المستفاد من إطلاق مفهوم العبودية الّذي نصّت الآية أنّه الهدف الأساس من خلق الإنسان والإتيان بصيغة الإنس كتعبير عن النوع الإنساني عموماً هو أنّ تحقّق هذا الهدف يكون بإيجاد الفرد الكامل والمجتمع الكامل والدولة العادلة علىٰ وفق الصورة الإلهيّة ، ومع فقدان أيّ عنصر من هذه العناصر الثلاثة لا يكتمل تحقّق الهدف المذكور.

٢ـ إنّ هذا الهدف حتميّ التحقّق كما هو المستفاد من حصر الغاية من الخلق به في الآية الأُولىٰ ، ومن المحال تخلّف مخلوق عن الوصول إلى الغاية من خلقه في نهاية المطاف ، كما اتّضح من تفسير العلّامة الطباطبائي للآية.

٣ـ الآيتان الأُخريان تقدّمان أدلّة إضافية علىٰ حتمية تحقّق هذا الهدف ؛ لأنّه يعبّر عن وعد إلهي بذلك ، والله لا يخلف الميعاد ، ولأنّ الهدف من إرسال الرسول بالهدىٰ هو إظهاره على الدين كلّه.

٤ـ وهما تؤكّدان أنّ الصورة المطلوبة لتحقّق هذا الهدف الإلهيّ هو إيجاد الفرد الكامل والمجتمع الصالح الّذي يعبد برمّته الله وحده لا شريك له كما هو المستفاد من أُولاهما ، وإيجاد الدولة العادلة المستقرّة كما هو المستفاد من الآيتين ، إذ لا يتحقّق الاستخلاف في الأرض لجماعة المؤمنين الصالحين والتمكين لهم وإظهار الإسلام على الدين كلّه بدون إقامة هذه الدولة العادلة.

٥ـ ومن الثابت تأريخياً أنّ هذا الهدف لم يتحقّق طوال التأريخ البشري فلابدّ من تحقّقه في مستقبله لحتمية تحقّقه ، كما هو المستفاد من الآيات المتقدّمة جميعاً.

٦ـ ولا يمكن القول بتحقّقه بطريق المعجزة أو غيرها؛ لأنّه يستلزم الجبر على الطاعة، وهذا خلاف سنّة الله تبارك وتعالىٰ في خلق الإنسان مختاراً وخلاف سنّته في ربط الأُمور بأسبابها، فلابدّ أن يكون تحقّقه بالأسباب الطبيعية الّتي أوجدها الله جلّت قدرته لتحقيق أهدافه من الخلق، وعلىٰ وفق معايير العدل والحكمة الإلهيّة ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيىٰ من حيّ عن بيّنة.

٧ـ والأسباب الطبيعية لتحقّق هذه الغاية تقتضي أن يتعرّف المجتمع البشري تدريجياً على المنهج الإلهيّ الّذي يربّي الفرد الكامل والمجتمع الكامل وتُقام الدولة العادلة علىٰ أساسه، وهذا ما قام به الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين بصورةٍ تدريجية، وعلىٰ شكل مراحل تأهّلية للمجتمع البشري تكمل فيها كلّ رسالة نبوية سابقتها في تبليغ هذا المنهج الإلهيّ حتّى اكتمل في صورته الشاملة بالرسالة المحمّدية.

٨ـ كما أنّ الأسباب الطبيعية لتحقّق الغاية المذكورة من الخلق تقتضي مرور المجتمع البشري بتجربة طويلة يتعرّف فيها على المناهج الأُخرىٰ غير الإلهيّة ويكتشف بطلانها وعجزها عن تحقيق السعادة الّتي ينشدها، ويدرك أنّ ما يطمح إليه لا يحقّقه له سوى المنهج الإلهيّ، ويطمئنّ بأنه الخيار الوحيد لتحقيق ما ينشده، فيتوفّر فيه الإخلاص لهذا المنهج وهو عنصر مطلوب للعمل به علىٰ وفق الصورة الكاملة الّتي يتضمّنها مفهوم العبادة الحقة لله تعالىٰ.

٩ـ كما يلزم أن يكون هذا الإخلاص للمنهج الإلهيّ والإقبال علىٰ تطبيقه مقروناً بالاستعداد للتضحية في سبيله لدىٰ شريحةٍ كافية من المجتمع البشري، لكي تكون قادرة علىٰ خوض التحدّيات اللازمة للانتصار على القوى

المعارضة له والصادّة عنه، وعلىٰ نصرة القائد الّذي يقود عملية تحقيق أهدافه.

كما ينبغي أن يكون هذا الإخلاص مقروناً لدىٰ شريحةٍ أقلّ من المجتمع البشري بالقدرة علىٰ تطبيق هذا المنهج وإدارة شؤون المجتمع البشري علىٰ وفق قوانينه. وإيجاد الاستعداد للتضحية والكفاءة المطلوبة مرهونٌ ـ طبق الأسباب الطبيعية الّتي ربط الله جلّت قدرته بها الأُمور ـ بالمرور بتجارب مريرة وقاسية وأوضاع مضادّة مظلمة وعسيرة وممارسة في مواجهة الانحراف والظلم بمختلف أشكاله، حيث تمثّل هذه الأوضاع الصعبة بوتقة للتمحيص والغربلة والاختيار لإيجاد هذه الشرائح المخلصة للرسالة الإلهيّة المستعدّة للتضحية في سبيلها القادرة علىٰ إدارة المجتمع البشري علىٰ وفق المنهج الإلهيّ لتحقّق الغاية من الخلق.

دلالات الآية والعقيدة المهدوية:

هذه هي خلاصة الدلالات المستفادة من تفسير الآية الكريمة في مورد البحث والمؤيّدة بالآيتين الكريمتين المذكورتين في البحث المتقدّم. وبالتدبّر فيها وفي أركان عقيدة الإمامية في المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه يتضح أنّ هذه العقيدة تعبّر عن مخطّط المصداق الوحيد لتحقيق الغاية من الخلق المنسجم مع الدلالات المستفادة من تفسيرها.

فهي تقول بأنّ دور الإمام المهديّ عجّل الله فرجه هو إيجاد الفرد الكامل والمجتمع الكامل والدولة العالمية العادلة طبق ما تدلّ إليه الآية الأُولىٰ، وترسم صورته بوضوح الآيتان الأُخريان.

وهي تقول بأنّ تحقّق هذا الهدف يكون عبر الأسباب الطبيعية الّتي اقتضت

حكمة الباري تعالىٰ ربط الأُمور بها، وأنّ غَيبة الإمام المهديّ عجّل الله فرجه جاءت في هذا الإطار كوسيلة لتنفيذ سنّة التمحيص والاختبار، فلم يواجه الظلم والانحراف عن خطّ الولاية المعصومة الّذي أدّىٰ إلىٰ غَيبته بالإعجاز والقهر، بل فسح المجال للسنن الطبيعية لأداء دورها لكي يتولّد الإحساس العامّ بأنّ المنهج الإلهيّ الّذي يمثّله الإمام المهديّ هو الخيار الوحيد لتحقيق السعادة المنشودة، بعد أنْ يجرّب المجتمع البشري الخيارات الأُخرىٰ فيكتشف زيفها وبطلانها، ويتولّد لدىٰ المقدار الكافي من أبنائه الاستعداد المطلوب للتضحية والكفاءة في تطبيق المنهج الإلهيّ من خلال التجربة الطويلة من الممارسة في مواجهة الانحراف.

وهي تقول بأنّ الإمام المهديّ عجّل الله فرجه يمارس من خلف أستار الغَيبة وبمختلف الوسائل المتاحة الّتي لا تتعارض مع مبدأ الغَيبة العامّ رعاية المسيرة وإعانة المتأهّلين في عملية التمحيص والغربلة لاكتساب الكفاءات المطلوبة ونقلها إلى الأجيال اللاحقة.

وهي تقول بأنّه يرعىٰ بالتسديد عملية الترشيد هذه للمجتمع البشري لتحقيق نتائجها المطلوبة، الّتي لا يمكن أن تعطي ثمارها دون وجود راعٍ للمسيرة يسدّد خطى العاملين والمضحّين في مواجهة الانحراف والظلم.

وهي تقول بأنه يحقّق أهداف الأنبياء صلوات الله عليهم والأوصياء من آبائه عليهم السلام لأنّ كلّ جهودهم وتضحياتهم في تبليغ رسالات السماء وحفظها استهدفت ـ فيما استهدفت ـ تحقيق الهدف الإلهيّ الكبير من خلق الإنسان الّذي يحقّقه الله جلّت قدرته علىٰ يده عجّل الله فرجه.

وكلّ هذه الأُمور والتفصيلات لا نجدها في العقائد والأقوال الأُخرىٰ بشأن المهديّ الموعود.

رابعاً: إنهاء الردة عن الدين الحقّ:

تدلّ مجموعة من الآيات الكريمة علىٰ وقوع الانحراف في مسيرة المسلمين ورجوعهم عن الإسلام وخضوعهم وتبعيّتهم للنصارىٰ، وتبيّن حتمية مجيء قومٍ من أحبّاء الله يتولّون مهمّة تصحيح هذه المسيرة. وهذه الآيات ـ وهي من آيات الملاحم ـ علىٰ صنفين يُكمل أحدهما دلالة الآخر، ونبدأ بالصنف الأول:

﴿يا أيُّها الّذين آمنُوا لا تتّخِذوا اليهودَ والنّصارىٰ أولياءَ بعضُهم أولياءُ بعضٍ وَمَن يتولَّهم منكُم فإنّه مِنهُم إنَّ اللهَ لا يهدي القومَ الظالمينَ * فترى الّذين في قُلُوبِهم مرضٌ يُسارِعُونَ فيهم يَقُولُونَ نخشىٰ أن تُصيبَنا دائرةٌ فعسى اللهُ أن يأتِيَ بالفتحِ أو أمرٍ من عندِهِ فيُصبِحوا علىٰ ما أسرُّوا في أنفُسِهم نادِمينَ * ويقولُ الّذين آمنُوا أهؤلاءِ الّذينَ أقسمُوا باللهِ جهدَ أيمانِهِم إنّهُم لَمَعَكُم حَبِطت أعمالُهم فأصبَحُوا خاسِرين * يا أيُّها الّذين آمنُوا مَن يرتدَّ منكُم عن دينِهِ فَسَوفَ يأتي اللهُ بِقومٍ يُحبُّهم ويُحبُّونَه أذِلّةٍ على المؤمنينَ أعِزّةٍ على الكافرينَ يُجاهِدونَ في سبيلِ اللهِ ولا يَخافُونَ لومَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضلُ اللهِ يُؤتيهِ مَن يَشاءُ واللهُ واسعٌ عَليم﴾[1].

---

(١) المائدة: ٥١ ـ ٥٤.

تفسير الآيات الكريمة:

تعاضد هذه المجموعة من الآيات الكريمة ما دلّت عليه الآيات السابقة ـ ضمنياً واستناداً إلى الأُصول العقائدية ـ من أنَّ تحقّق الغاية من الخلق وتشكيل المجتمع الصالح في عهد المهديّ المنتظر عجّل الله تعالى فرجه يأتي بعد مرور المسلمين بتجربةٍ قاسيةٍ تشتمل علىٰ نمطٍ خطيرٍ من الانحرافات، لكنّها تشتمل علىٰ عدد من الثمار المهمّة، لأنّ الله جلّت قدرته غالبٌ علىٰ أمره، ومنها الاستعداد للفتح الإلهيّ وأمره الفصل المتمثّل بالإتيان بأحبّائه ليشكّلوا المجتمع الصالح الموعود.

ولأهمّية الدلالات الّتي تحملها هذه الآيات الكريمة فقد خصّص العلّامة الطباطبائي لتفسيرها قرابة الأربعين صفحة ناقش فيها الآراء الواردة في تفسيرها ليصل إلى التفسير المنسجم مع منطوقها، ولأهمّية بحثه هذا ننقله بالكامل فيما يلي، ثمّ نعقبه ببحثٍ تفسيريّ آخر لأحد علماء أهل السنّة، ثمّ نعقب بتثبيت الدلالات المتحصّلة. يقول ﷺ:

مقدّمة والمعنى الإجمالي:[1]

السير الإجمالي في هذه الآيات يوجب التوقّف في اتّصال هذه الآيات بما قبلها، وكذا في اتّصال ما بعدها كقوله تعالى: ﴿ *إنّما وليّكم الله ورسوله* ﴾ ...إلى آخر الآيتين، ثمّ اتّصال قوله بعدهما: ﴿ *يا أيّها الّذين آمنوا لا تتّخذوا الّذين اتّخذوا دينكم هزواً* ﴾ إلىٰ تمام عدّة آيات ثمّ في اتّصال قوله: ﴿ *يا أيّها الرسول بلّغ... الآية* ﴾.

---

(١) كما أشرنا سابقاً فإنّ العناوين الجانبية ليست من أصل المصدر وإنّما وضعناها لمزيد التوضيح.

أمّا هذه الآيات الأربع فإنّها تذكر اليهود والنصارى، والقرآن لم يكن ليذكر أمرهم في آياته المكّية لعدم مسيس الحاجة إليه يومئذٍ، بل إنّما يتعرّض لحالهم في المدينة من الآيات، ولا فيما نزلت منها في أوائل الهجرة، فإنّ المسلمين إنّما كانوا مبتلين يومئذٍ بمخالطة اليهود ومعاشرتهم أو موادعتهم أو دفع كيدهم ومكرهم خاصّة دون النصارى، إلّا في النصف الأخير من زمن إقامة النبيّ ﷺ بالمدينة، فلعلّ الآيات الأربع نزلت فيه، ولعلّ المراد بالفتح فيها فتح مكّة.

لكن تقدّم أنّ الاعتماد على نزول سورة المائدة في سنة حجّة الوداع وقد فتحت مكّة، فهل المراد بالفتح فتحٌ آخر غير فتح مكّة؟ أو أنّ هذه الآيات نزلت قبل فتح مكّة وقبل نزول السورة جميعاً؟

ثمّ إنّ الآية الأخيرة ـ أعني قوله: ﴿ *يا أيّها الّذينَ آمنُوا مَن يَرتَدّ مِنكُم...الآية* ﴾ ـ هل هي متّصلة بالآيات الثلاث المتقدّمة عليها؟ ومَن المراد بهؤلاء القوم الّذين تتوقّع ردّتهم؟ ومَن هؤلاء الآخرون الّذين وعد الله أنه سيأتي بهم؟ كلّ واحد منها أمرٌ يزيد إبهاماً على إبهام، وقد تشتّت ما ورد من أسباب النزول وليست إلّا أنظار المفسّرين من السلف كغالب أسباب النزول المنقولة في الآيات، وهذا الاختلاف الفاحش أيضاً ممّا يشوّش الذهن في تفهّم المعنى، أضف إلىٰ ذلك كلّه مخالطة التعصّبات المذهبية الأنظار القاضية فيها، كما سيمرّ بك شواهد تشهد على ذلك من الروايات وأقوال المفسّرين من السلف والخلف.

والّذي يعطيه التدبّر في الآيات أن هذه الآيات الأربع ـ على ما نقلناها ـ متّصلة الأجزاء منقطعة عمّا قبلها وما بعدها، وأنّ الآية الرابعة من متمّمات

الغرض المقصود بيانه فيها غير أنه يجب التحرّز في فهم معناها عن المساهلات والمسامحات الّتي جوّزتها أنظار الباحثين من المفسّرين في الآيات وخاصّةً فيما ذكر فيها من الأوصاف والنعوت على ما سيجيء.

وإجمال ما يتحصّل من الآيات أنّ الله سبحانه يحذّر المؤمنين فيها اتّخاذ اليهود والنصارىٰ أولياء، ويهدّدهم في ذلك أشدّ التهديد، ويشير في ملحمةٍ قرآنية إلىٰ ما يؤول إليه أمر هذه الموالاة من انهدام بنية السيرة الدينية، وأنّ الله سيبعث قوماً يقومون بالأمر، ويعيدون بنية الدين إلىٰ عمارتها الأصلية.

تفصيل تفسير الآيات:

قوله تعالى: ﴿ *يا أيّها الّذين آمنوا لا تتّخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض* ﴾ قال في المجمع: الاتّخاذ هو الاعتماد على الشيء لإعداده لأمر، وهو إفتعال من الأخذ، وأصله الائتخاذ فأُبدلت الهمزة تاء، وأدغمتها في التاء الّتي بعدها، ومثله الاتّعاد من الوعد. والأخذ يكون على وجوه تقول: أخذ الكتاب إذا تناوله، وأخذ القربان إذا تقبّله، وأخذه الله من مأمنه إذا أهلكه، وأصله جواز الشيء من جهةٍ إلىٰ جهةٍ من الجهات، إنتهى.

وقال الراغب في المفردات: الولاء والتوالي أن يحصل شيئان فصاعداً حصولاً ليس بينهما ما ليس منهما، ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان، ومن حيث النسبة ومن حيث الدين، ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد، إنتهى موضع الحاجة، وسيأتي استيفاء البحث في معنى الولاية.

معنى التولّي والولاية:

وبالجملة، الولاية نوع اقتراب من الشيء يوجب ارتفاع الموانع والحجب

بينهما من حيث ما اقترب منه لأجله ، فإن كان من جهة التقوى والانتصار فالولي هو الناصر الّذي لا يمنعه عن نصرة من اقترب منه شيء ، وإن كان من جهة الالتيام في المعاشرة والمحبة الّتي هي الانجذاب الروحي ، فالولي هو المحبوب الّذي لا يملك الإنسان نفسه دون أن ينفعل عن إرادته ويعطيه فيما يهواه ، وإن كان من جهة النسب فالولي هو الّذي يرثه مثلاً من غير مانع يمنعه ، وإن كان من جهة الطاعة فالولي هو الّذي يحكم في أمره بما يشاء.

ولم يقيّد الله سبحانه في قوله : ﴿ *لا تتّخذوا اليهود والنصارى أولياء* ﴾ الولاية بشيء من الخصوصيات والقيود فهي مطلقة ، غير أنّ قوله تعالى في الآية التالية : ﴿ *فترى الّذين في قلوبهم مرضٌ يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة* ﴾ ، يدلّ على أنّ المراد بالولاية نوع من القرب والاتّصال يناسب هذا الّذي اعتذروا به بقولهم : ﴿ *نخشى أن تصيبنا دائرة* ﴾ وهي الدولة تدور عليهم ، وكما أنّ الدائرة من الجائز أن تصيبهم من غير اليهود والنصارى فيتأيّدوا بنصرة الطائفتين بأخذهما أولياء النصرة ، كذلك يجوز أن تصيبهم من نفس اليهود والنصارى فينجوا منها باتّخاذهما أولياء المحبّة والخلطة.

والولاية بمعنى قرب المحبة والخلطة تجمع الفائدتين جميعاً ـ أعني فائدة النصرة والامتزاج الروحي ـ فهو المراد بالآية ، وسيجيء ما في القيود والصفات المأخوذة في الآية الأخيرة : ﴿ *ياأيها الّذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه* ﴾ من الدلالة على أنّ المراد بالولاية هاهنا ولاية المحبّة لا غير.

وقد أصرّ بعض المفسّرين على أنّ المراد بالولاية ولاية النصرة وهي الّتي تجري بين إنسانين أو قومين من الحلف أو العهد على نصرة أحد الوليّين الآخر عند الحاجة ، واستدلّ على ذلك بما محصّله أنّ الآيات ـ كما يلوح من ظاهرها ـ منزلة قبل حجّة الوداع في أوائل الهجرة أيام كان النبيّ ﷺ والمسلمون لم

يفرغوا من أمر يهود المدينة ومن حولهم من يهود فدك وخيبر وغيرهم ومن ورائهم النصارى، وكان بين طوائف من العرب وبينهم عقود من ولاية النصرة والحلف. وربما انطبق على ما ورد في أسباب النزول أنّ عبادة بن الصامت من بني عوف بن الخزرج تبرّأ من بني قينقاع لمّا حاربت رسول الله ﷺ وكان بينه وبينهم ولاية حلف، لكن عبد الله بن أُبيّ رأس المنافقين لم يتبرّأ منهم وسارع فيهم قائلاً :نخشى أن تصيبنا دائرة.

أو ما ورد في قصّة أبي لبابة لمّا أرسله رسول الله ﷺ ليخرج بني قريظة من حصنهم وينزلهم على حكمه، فأشار أبو لبابة بيده إلىٰ حلقه : أنه الذبح.

أو ما ورد أنّ بعضهم كان يكاتب نصارى الشام بأخبار المدينة، وبعضهم كان يكاتب يهود المدينة لينتفعوا بمالهم ولو بالقرض.

أو ما ورد أنّ بعضهم قال : إنّه يلحق بفلان اليهودي أو بفلان النصراني إثر ما نزل بهم يوم أُحد من القتل والهزيمة.

وهذه الروايات كالمتفقة في أنّ القائلين : ﴿ *نخشى أن تصيبنا دائرة* ﴾ كانوا هم المنافقين. وبالجملة فالآيات إنّما تنهي عن المخالفة وولاية النصرة بين المسلمين وبين اليهود والنصارى.

وقد أكّد ذلك بعضهم حتّى ادّعى أنّ كون الولاية في الآية بمعنى ولاية المحبّة والاعتماد ممّا تتبرّأ منه لغة الآية في مفرداتها وسياقها كما يتبرّأ منه سبب النزول والحالة العامّة الّتي كان عليها المسلمون والكتابيون في عصر التنزيل.

وكيف يصحّ حمل الآية على النهي عن معاشرتهم والاختلاط بهم وإن كانوا ذوي ذمّة أو عهد، وقد كان اليهود يقيمون مع النبيّ ﷺ ومع الصحابة في المدينة، وكانوا يعاملونهم بالمساواة التامّة ؟ إنتهى ما ذكره ملخّصاً.

وهذا كلّه من التساهل في تحصيل معنى الآية، أمّا ما ذكروه من كون الآيات نازلة قبل عامّ حجّة الوداع وهي سنة نزول سورة المائدة فممّا ليس فيه كثير إشكال، لكنه لا يوجب كون الولاية بمعنى المحالفة دون ولاية المحبّة.

وأمّا ما ذكروه من أسباب النزول ودلالتها على كون الآيات نازلة في خصوص المحالفة وولاية النصرة الّتي كانت بين أقوام من العرب وبين اليهود والنصارى ففيه: (أوّلاً) أنّ أسباب النزول في نفسها متعارضة لا ترجع إلىٰ معنى واحد يوثق ويعتمد عليه. و(ثانياً) أنها لا توجّه ولاية النصارى وإن وجّهت ولاية اليهود بوجه إذ لم يكن بين العرب من المسلمين وبين النصارىٰ ولاية الحلف يومئذٍ. و(ثالثاً) أنا نصدق أسباب النزول فيما تقتضيها إلّا أنك قد عرفت فيما مرّ أنّ جلّ الروايات الواردة في أسباب النزول على ضعفها متضمّنة لتطبيق الحوادث المنقولة تأريخاً على الآيات القرآنية المناسبة لها، وهذا أيضاً لا بأس به.

وأمّا الحكم بأنّ الوقائع المذكورة فيها تخصّص عموم آية من الآيات القرآنية أو تقيّد إطلاقها بحسب اللفظ فممّا لا ينبغي التفوّه به، ولا أنّ الظاهر المتفاهم يساعده. ولو تخصّص أو تقيّد ظاهر الآيات بخصوصية في سبب النزول غير مأخوذة في لفظ الآية لمات القرآن بموت من نزل فيهم، وانقطع الحجاج به في واقعة من الوقائع الّتي بعد عصر التنزيل، ولا يوافقه كتاب ولا سنّة ولا عقل سليم.

وأمّا ما ذكره بعضهم: «أنّ أخذ الولاية بمعنى المحبّة والاعتماد خطأ تتبرّأ منه لغة الآية في مفرداتها وسياقها، كما يتبرّأ منه أسباب النزول والحالة العامّة الّتي كان عليها المسلمون والكتابيون في عصر التنزيل» فممّا لا يرجع إلىٰ معنى محصّل بعد التأمّل فيه، فإنّ ما ذكره من تبرّي أسباب النزول وما ذكره

من الحالة العامّة أن تشمل الآيات ذلك وتصدق عليه إذا لم يأب ظهور الآية من الانطباق عليه، وأمّا قصر الدلالة على مورد النزول والحالة العامّة الموجودة وقتئذٍ فقد عرفت أنه لا دليل عليه بل الدليل ـ وهو حجّية الآية في ظهورها المطلق ـ على خلافه، فقد عرفت أنّ الآية مطلقة من غير دليل على تقييدها فتكون حجّة في المعنى المطلق، وهو الولاية بمعنى المحبّة.

وما ذكره من تبرّي الآية بمفرداتها وسياقها من ذلك من عجيب الكلام، وليت شعري ما الّذي قصده من هذا التبرّي الّذي وصفه وحمله على مفردات الآية ولم يقنع بذلك دون أن عطف عليها سياقها ؟

وكيف تتبرّأ من ذلك مفردات الآية أو سياقها وقد وقع فيها بعد قوله : ﴿ لا تتّخذوا *اليهود والنصارى أولياء* ﴾ قوله تعالى : ﴿ *بعضهم أولياء بعض* ﴾ ؟ ولا ريب في أنّ المراد بهذه الولاية ولاية المحبّة والاتّحاد والمودّة، دون ولاية الحلف إذ لا معنى لأن يقال : لا تحالفوا اليهود والنصارى بعضهم حلفاء بعض، وإنّما كان ما يكون الوحدة بين اليهود ويردّ بعضهم إلىٰ بعض هو ولاية المحبّة القومية، وكذا بين النصارى من دون تحالفٍ بينهم أو عهدٍ إلّا مجرّد المحبّة والمودّة من جهة الدين.

وكذا قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ ومن يتولّهم منكم *فإنّه منهم* ﴾ فإنّ الاعتبار الّذي يوجب كون موالي جماعة من تلك الجماعة هو أنّ المحبّة والمودّة تجمع المتفرّقات وتوحّد الأرواح المختلفة وتتوحّد بذلك الإدراكات وترتبط به الأخلاق وتتشابه الأفعال، وترى المتحابّين بعد استقرار ولاية المحبّة كأنهما شخصٌ واحد ذو نفسيةٍ واحدة وإرادةٍ واحدة وفعلٍ واحد لا يخطّئ أحدهما الآخر في مسير الحياة ومستوى العشرة.

فهذا هو الّذي يوجب كون من تولّى قوماً منهم ولحوقه بهم، وقد قيل : من

أحبّ قوماً فهو منهم، والمرء مع من أحبّ، وقد قال تعالى في نظيره نهياً عن موالاة المشركين: ﴿ ياأيها الّذين آمنوا لا تتّخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء تلقون إليهم بالمودّة وقد كفروا بما جاءكم من الحقّ ـ إلى أن قال بعد عدّة آيات: ـ ومن يتولّهم منكم فأولئك هم الظالمون ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴾[٢]، وقال تعالى في تولّي الكافرين ـ واللفظ عامّ يشمل اليهود والنصارى والمشركين جميعاً ـ: ﴿ لا يتّخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلّا أن تتّقوا منهم تقاة ويحذّركم الله نفسه ﴾[٣] والآية صريحة في ولاية المودّة والمحبّة دون الحلف والعهد، وقد كان بين النبيّ ﷺ وبين اليهود وكذا بينه وبين المشركين يومئذٍ ـ أعني زمان نزول سورة آل عمران ـ معاهدات وموادعات.

وبالجملة: الولاية الّتي تقتضي بحسب الاعتبار لحوق قوم بقوم هي ولاية المحبّة والمودّة دون الحلف والنصرة، وهو ظاهر، ولو كان المراد بقوله: ﴿ ومن يتولّهم منكم فإنّه منهم ﴾ أنّ من حالفهم على النصرة بعد هذا النهي فإنّه لمعصيته النهي ظالم ملحق بأُولئك الظالمين في الظلم كان معنى ـ على ابتذاله ـ بعيداً من اللفظ يحتاج إلىٰ قيود زائدة في الكلام.

ومن دأب القرآن في كلّ ما ينهي عن أمر كان جائزاً سائغاً قبل النهي أن يشير إليه رعايةً لجانب الحكم المشروع سابقاً، واحتراماً للسيرة النبوية الجارية قبله كقوله: ﴿ إنّما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم

---

(١) الممتحنة: ١ و ٩.

(٢) المجادلة: ٢٢.

(٣) آل عمران: ٢٨.

هَذا ﴾[١]، وقوله: ﴿ *فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُم وَكُلُوا وَاشرَبُوا* ﴾[٢]، وقوله: ﴿ *لا يَحِلُّ لَكَ النِساءُ مِن بَعدُ وَلَا أن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِن أزوَاجٍ* ﴾[٣]، إلىٰ غير ذلك.

فقد تبيّن أنّ لغة الآية في مفرداتها وسياقها لا تتبرّأ من كون المراد بالولاية ولاية المحبّة والمودّة، بل إن تبرّأت فإنّما تتبرّأ من غيرها.

وأمّا قولهم: إنّ المراد بـ ﴿ *الّذين في قلوبهم مرض* ﴾ المنافقون فسيجيء أنّ السياق لا يساعده.

النهي عن تبعية اليهود والنصارىٰ:

فالمراد بقوله: ﴿ *لا تتّخذوا اليهود والنصارى أولياء* ﴾ النهي عن مودّتهم الموجب لتجاذب الأرواح والنفوس الّذي يفضي إلى التأثير والتأثّر الأخلاقيين، فإنّ ذلك يقلّب حال مجتمعهم من السيرة الدينية المبنية علىٰ سعادة اتّباع الحقّ إلىٰ سيرة الكفر المبنية علىٰ اتّباع الهوىٰ وعبادة الشيطان والخروج عن صراط الحياة الفطرية.

وإنّما عبّر عنهم باليهود والنصارىٰ ولم يعبّر بأهل الكتاب كما عبّر بمثله في الآية الآتية لما في التعبير بأهل الكتاب من الإشعار بقربهم من المسلمين نوعاً من القرب يوجب إثارة المحبّة فلا يناسب النهي عن اتّخاذهم أولياء.

وأمّا ما في الآية الآتية: ﴿ *يا أيّها الّذين آمنوا لا تتخذوا الّذين اتّخذوا دينكم هُزواً ولعباً من الّذين أُوتوا الكتاب من قبلكم والكفّار أولياء* ﴾ من وصفهم بإيتائهم

(١) التوبة: ٢٨.
(٢) البقرة: ١٨٧.
(٣) الأحزاب: ٥٢.

الكتاب مع النهي عن اتّخاذهم أولياء فتوصيفهم باتخاذ دين الله هزواً ولعباً يقلّب حال ذلك الوصف ـ أعني كونهم ذوي كتاب ـ من المدح إلى الذمّ، فإنّ من أُوتي الكتاب الداعي إلى الحقّ والمبيّن له ثمّ جعل يستهزئ بدين الحقّ ويلعب به أحقّ وأحرىٰ به أن لا يتّخذ ولياً وتجتنب معاشرته ومخالطته ومودّته.

اتّحاد اليهود والنصارىٰ على المسلمين:

وأمّا قوله تعالى: ﴿ بعضهم *أولياء* بعض ﴾ فالمراد بالولاية ـ كما تقدّم ـ ولاية المحبّة المستلزمة لتقارب نفوسهم وتجاذب أرواحهم المستوجب لاجتماع آرائهم على اتّباع الهوى، والاستكبار عن الحقّ وقبوله، واتّحادهم على إطفاء نور الله سبحانه، وتناصرهم على النبيّ ﷺ والمسلمين، كأنهم نفسٌ واحدة ذات ملّةٍ واحدة، وليسوا علىٰ وحدة من الملّية لكن يبعث القوم على الاتّفاق، ويجعلهم يداً واحدة على المسلمين.

إنّ الإسلام يدعوهم إلى الحقّ ويخالف أعزّ المقاصد عندهم وهو اتّباع الهوىٰ والإسترسال في مشتهيات النفس وملاذ الدنيا.

فهذا هو الّذي جعل الطائفتين: اليهود والنصارى ـ على ما بينهما من الشقاق والعداوة الشديدة ـ مجتمعاً واحداً يقترب بعضه من بعض، ويرتدّ بعضه إلىٰ بعض، يتولّى اليهود النصارى وبالعكس، ويتولّى بعض اليهود بعضاً، وبعض النصارىٰ بعضاً، وهذا معنىٰ إبهام الجملة: ﴿ بعضهم *أولياء* بعض ﴾ في مفرداتها، والجملة في موضع التعليل لقوله: ﴿ *لا تتّخذوا اليهود والنصارىٰ أولياء* ﴾ والمعنىٰ لا تتّخذوهم أولياء؛ لأنّهم علىٰ تفرّقهم وشقاقهم فيما بينهم يدٌ واحدة عليكم لا نفع لكم في الاقتراب منهم بالمودّة والمحبّة.

وربما أمكن أن يستفاد من قوله: ﴿ بعضهم *أولياء* بعض ﴾ معنىٰ آخر، وهو

أن لا تتخذوهم أولياء لأنكم إنّما تتخذونهم أولياء لتنتصروا ببعضهم الّذي هو أولياؤكم على البعض الآخر، ولا ينفعكم ذلك، فإنّ بعضهم أولياء بعض فليسوا ينصرونكم على أنفسهم.

نتيجة موالاة اليهود والنصارىٰ:

قوله تعالى: ﴿ *ومن يتولّهم منكم فإنّه منهم إنّ الله لا يهدي القوم الظالمين* ﴾ التولّي اتّخاذ الولي، و «من» تبعيضية. والمعنىٰ أنّ من يتّخذهم منكم أولياء فإنّه بعضهم، وهذا إلحاق تنزيلي يصير به بعض المؤمنين بعضاً من اليهود والنصارىٰ، ويؤول الأمر إلى أنّ الإيمان حقيقة ذات مراتب مختلفة من حيث الشوب والخلوص والكدورة والصفاء، كما يستفاد ذلك من الآيات القرآنية، قال تعالى: ﴿ *وَمَا يُؤمِنُ أَكثَرُهُم بِاللهِ إِلّا وَهُم مُشرِكُون* ﴾ [1] وهذا الشوب والكدر هو الّذي يعبّر تعالىٰ عنه بمرض القلوب فيما سيأتي من قوله: ﴿ *فترى الّذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم* ﴾.

فهؤلاء الموالون لأُولئك أقوام عدّهم الله تعالى من اليهود والنصارى وإن كانوا من المؤمنين ظاهراً، وأقلّ ما في ذلك أنّهم غير سالكي سبيل الهداية الّذي هو الإيمان بل سالكو سبيلٍ اتّخذه اولئك سبيلاً يسوقه إلىٰ حيث يسوقهم وينتهي به إلىٰ حيث ينتهي بهم.

ولذلك علّل الله سبحانه لحوقه بهم بقوله: ﴿ *إنّ الله لا يهدي القوم الظالمين* ﴾ فالكلام في معنىٰ: أنّ هذا الّذي يتولاّهم منكم هو منهم غير سالك سبيلكم؛ لانّ سبيل الإيمان هو سبيل الهداية الإلهيّة، وهذا المتولّي لهم ظالم مثلهم، والله

---

(١) يوسف: ١٠٦.

لا يهدي القوم الظالمين.

والآية كما ترى تشتمل على أصل التنزيل ـ أعني تنزيل من تولّاهم من المؤمنين منزلتهم من غير تعرّض لشيءٍ من آثاره الفرعية واللفظ وإن لم يتقيّد بقيد لكنه لمّا كان من قبيل بيان الملاك ـ نظير قوله: ﴿ وأن تَصُومُوا خَيرٌ لَكُم ﴾ [١] وقوله: ﴿ إنّ الصَّلاةَ تَنهىٰ عَن الفَحشاءِ وَالمُنكَرِ وَلَذِكرُ اللهِ أكبرَ ﴾ [٢] إلىٰ غير ذلك ـ لم يكن إلّا مهملاً يحتاج التمسّك به في إثبات حكمٍ فرعيّ إلىٰ بيان السنّة، والمرجع في البحث عن ذلك فنّ الفقه.

حجج اتباع اليهود والنصارىٰ:

قوله تعالى: ﴿ فترى الّذين في قلوبهم مرضٌ يسارعون فيهم ﴾ تفريع علىٰ قوله في الآية السابقة: ﴿ إنّ اللهَ لَا يَهدي القَوم الظالِمين ﴾ فمن عدم شمول الهداية الإلهيّة لحالهم ـ وهو الضلال ـ مسارعتهم فيهم واعتذارهم في ذلك بما لا يسمع من القول، وقد قال تعالى: ﴿ يسارعون فيهم ﴾ ولم يقل: يسارعون إليهم، فهم منهم وحالّون في الضلال محلّهم، فهؤلاء يسارعون فيهم لا لخشية إصابة دائرة عليهم فليسوا يخافون ذلك، وإنّما هي معذرة يختلقونها لأنفسهم لدفع ما يتوجّه إليهم من ناحية النبيّ ﷺ والمؤمنين من اللوم والتوبيخ، بل إنّما يحملهم علىٰ تلك المسارعة تولّيهم أُولئك (اليهود والنصارى).

ولمّا كان من شأن كلّ ظلم وباطل أن يزهق يوماً ويظهر للملأ فضيحته وينقطع رجاء من توسّل إلى أغراض باطلة بوسائلٍ صورتها صورة الحقّ كما

---

(١) البقرة: ١٨٤.

(٢) العنكبوت: ٤٥.

قال تعالى : ﴿ *إنّ الله لا يهدي القوم الظالمين* ﴾ كان من المرجوّ قطعاً أن يأتي الله بفتحٍ أو أمرٍ من عنده فيندموا علىٰ فعالهم، ويظهر للمؤمنين كذبهم فيما كانوا يظهرونه.

وبهذا البيان يظهر وجه تفرّع قوله : ﴿ *فترى الّذين* ﴾... الخ على قوله : ﴿ *إنّ الله لا يهدي القوم الظالمين* ﴾ وقد تقدّم كلام في معنىٰ عدم اهتداء الظالمين في ظلمهم.

فهؤلاء القوم منافقون من جهة إظهارهم للنبيّ ﷺ والمؤمنين ما ليس في قلوبهم، حيث يعنونون مسارعتهم في اليهود والنصارىٰ بعنوان الخشية من إصابة الدائرة، وعنوانه الحقيقي الموافق لما في قلوبهم هو تولّي أعداء الله، فهذا هو وجه نفاقهم. وأمّا كونهم منافقين بمعنى الكافرين المظهرين للإيمان فسياق الآيات لا يوافقه.

وقد ذكر جماعة من المفسّرين أنهم المنافقون كعبد الله بن اُبيّ وأصحابه على ما يؤيّده أسباب النزول الواردة، فإنّ هؤلاء المنافقين كانوا يشاركون المؤمنين في مجتمعهم ويجاملونهم من جانب، ومن الجانب الآخر كانوا يتولّون اليهود والنصارىٰ بالحلف والعهد على النصرة استدراراً للفئتين وأخذاً بالاحتياط في رعاية مصالح أنفسهم ليغتبطوا علىٰ أيّ حال، ويكونوا في مأمنٍ من إصابة الدائرة علىٰ أيّ واحدة من الفئتين المتخاصمتين دارت.

وما ذكروه لا يلائم سياق الآيات فإنّها تتضمّن رجاء أن يندموا بفتحٍ أو أمرٍ من عنده، والفتح فتح مكّة أو فتح قلاع اليهود وبلاد النصارىٰ أو نحو ذلك على ما قالوا، ولا وجه لندمهم علىٰ هذا التقدير، فإنّهم احتاطوا في أمرهم بحفظ الجانبين، ولا ندامة في الاحتياط، وإنّما كان يصحّ الندم لو انقطعوا

من المؤمنين بالمرّة واتّصلوا باليهود والنصارىٰ ثمّ دارت الدائرة عليهم، وكذا ما ذكره الله تعالىٰ من حبط أعمالهم وصيرورتهم خاسرين بقوله: ﴿ *حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين* ﴾ لا يلائم كونهم هم المنافقين الآخذين بالحائطة لمنافعهم ومطالبهم، إذ لا معنىٰ لخسران من احتاط بحائطة اتّقاء من مكروه يخافه علىٰ نفسه ثمّ صادف أن لم يقع ماكان يخاف وقوعه، والاحتياط في العمل من الطرق العقلائية الّتي لا تستتبع لوماً ولا ذمّاً.

إلّا أن يقال: إنّ الذمّ إنّما لحقهم لأنهم عصوا النهي الإلهيّ ولم تطمئنّ قلوبهم بما وعده الله من الفتح، وهذا وإن كان لا بأس به في نفسه لكن لا دليل عليه من جهة لفظ الآية.

الفتح الإلهيّ الفصل:

قوله تعالى: ﴿ *فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمرٍ من عنده فيصبحوا على ما أسرّوا في أنفسهم نادمين* ﴾ لفظة «عسى» وإن كان في كلامه تعالى للترجّي كسائر الكلام ـ على ما قدّمنا أنه للترجّي العائد إلى السامع أو إلى المقام ـ لكن القرينة قائمة على أنه ممّا سيقع قطعاً، فإنّ الكلام مسوق لتقرير ما ذكره بقوله: ﴿ *إن الله لا يهدي القوم الظالمين* ﴾ وتثبيت صدقه، فما يشتمل عليه واقعٌ لا محالة.

والّذي ذكره الله تعالىٰ من الفتح ـ وقد ردّد بينه وبين أمرٍ من عنده غير بيّن المصداق بل الترديد بينه وبين أمرٍ مجهول لنا ـ لعلّه يؤيّد كون اللام في «الفتح» للجنس لا للعهد حتّىٰ يكون المراد به فتح مكّة المعهود بوعد وقوعه في مثل قوله تعالى: ﴿ *إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرآنَ لَرادُّكَ إِلىٰ مَعَادٍ* ﴾[1]

---

(١) القصص: ٨٥.

وقوله : ﴿ لَتَدخُلُنّ المَسجِدَ الحَرَامَ إن شَاءَ اللّهُ ﴾ [١] وغير ذلك.

معنى الفتح في الآية:

والفتح الواقع في القرآن، وإن كان المراد به في أكثر موارده هو فتح مكّة لكن بعض الموارد لا يقبل الحمل على ذلك كقوله تعالى : ﴿ وَيقُولُونَ مَتىٰ هَذَا الفتحُ إن كُنتُم صَادِقِين * قُل يَومَ الفَتحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إيمانَهُم وَلَا هُم يُنظَرُون * فأعرض عَنهُم وَانتَظِر إنّهم مُنتظِرُون ﴾ [٢] فإنّه تعالىٰ وصف هذا الفتح بأنّه لا ينفع عنده الإيمان لمن كان كافراً قبله، وأنّ الكفّار ينتظرونه وأنت تعلم أنه لا ينطبق علىٰ فتح مكّة ولا علىٰ سائر الفتوحات الّتي نالها المسلمون حتّى اليوم، فإن عدّ نفع الإيمان وهو التوبة إنّما يتصوّر لأحد أمرين ـ كما تقدّم بيانه في الكلام على التوبة [٣] ـ: إمّا بتبدّل نشأة الحياة وارتفاع الاختيار لتبدّل الدنيا بالآخرة، وإمّا بتكوّن أخلاق وملكات في الإنسان يقسو بها القلب قسوةً لا رجاء معها للتوبة والرجوع إلى الله سبحانه، قال تعالى : ﴿ يَومَ يَأتي بَعضُ آياتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفساً إيمَانُها لَم تَكُن آمَنَت مِن قَبلُ أو كَسَبَت فِي إيمانها خَيراً ﴾ [٤] وقال تعالى : ﴿ وَلَيسَتِ التوبةُ لِلّذِينَ يَعمَلُون السيِّئاتِ حَتّى إذا حَضَرَ أحَدَهُمُ المَوتُ قَالَ إنّي تُبتُ الآنَ وَلَا الّذِينَ يَمُوتُون وَهُم كُفّار ﴾ [٥].

وكيف كان، فإن كان المراد بالفتح أحد فتوحات المسلمين كفتح مكّة أو

---

(١) الفتح: ٢٧.
(٢) السجدة: ٢٨ ـ ٣٠.
(٣) في الكلام على قوله تعالى: ﴿إنّما التوبة على الله... الآيتين﴾ النساء : ١٧ و١٨ في الجزء الرابع من الكتاب إن شاء الله.
(٤) الأنعام: ١٥٨.
(٥) النساء: ١٨.

فتح قلاع اليهود أو فتح بلاد النصارىٰ فهو، إلّا أنّ في انطباق ما ذكره الله تعالىٰ بقوله: ﴿ *فيصبحوا على ما أسرّوا* ﴾... الخ وقوله: ﴿ *ويقول الّذين* ﴾... الخ عليه خفاء تقدّم وجهه.

وإن كان المراد به الفتح بمعنى القضاء للإسلام على الكفر والحكم الفصل بين الرسول وقومه فهو من الملاحم القرآنية الّتي ينبئ تعالىٰ فيها عمّا سيستقبل هذه الأُمّة من الحوادث، وينطبق علىٰ ما ذكره الله في سورة يونس من قوله: ﴿ *وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم* ﴾ إلىٰ آخر الآيات[١].

وأمّا قوله: ﴿ *فيصبحوا على ما أسرّوا في أنفسهم نادمين* ﴾ فإنّ الندامة إنّما تحصل عند فعل ما لم يكن ينبغي أن يفعل أو ترك ما لم يكن ينبغي أن يترك، وقد فعلوا شيئاً، والله سبحانه يذكر في الآية التالية حبط أعمالهم وخسرانهم في صفقتهم، فإنّما أسرّوا في أنفسهم تولّي اليهود والنصارىٰ لينالوا به وبالمسارعة فيهم ماكانت اليهود والنصارىٰ يريدونه من انطفاء نور الله والتسلّط علىٰ شهوات الدنيا من غير مانع من الدين.

فهذا ـ لعلّه ـ هو الّذي أسرّوه في أنفسهم، وسارعوا لأجله فيهم، وسوف يندمون علىٰ بطلان سعيهم إذا فتح الله للحقّ.

ندم الموالين لليهود والنصارىٰ:

قوله تعالى: ﴿ *ويقول الّذين آمنوا* ﴾... إلىٰ آخر الآية، وقرئ «يقول» بالنصب عطفاً علىٰ قوله: «يصبحوا» وهي أرجح لكونها أوفق بالسياق، فإنّ ندامتهم علىٰ ما أسرّوه في أنفسهم وقول المؤمنين: «أهؤلاء»... الخ جميعاً

---

(١) يونس: ٤٧ ـ ٥٦.

تقريع لهم بعاقبة تولّيهم ومسارعتهم في اليهود والنصارى، وقوله : «هـؤلاء» إشارة إلى اليهود والنصارىٰ، وقوله : «معكم» خطاب للّذين في قلوبهم مرض، ويمكن العكس، وكذا الضمير في قوله : ﴿ حبطت أعمالهم فأصبحوا ﴾، يمكن رجوعه إلى اليهود والنصارىٰ وإلى الّذين في قلوبهم مرض.

لكنّ الظاهر من السياق أنّ الخطاب للّذين في قلوبهم مرض، والإشارة إلى اليهود والنصارىٰ، وقوله : ﴿ حبطت أعمالهم ﴾ كالجواب لسؤال مقدّر، والمعنىٰ : وعسىٰ أن يأتي الله بالفتح أو أمرٍ من عنده فيقول الّذين آمنوا لهؤلاء الضعفاء الإيمان عند حلول السخط الإلهيّ بهم : أهؤلاء اليهود والنصارىٰ هم الّذين أقسموا بالله جهد أيمانهم أي أيمانهم ؟ الّتي بالغوا وجهدوا فيها جهداً أنهم لمعكم فلماذا لا ينفعونكم ؟! ثمّ كأنه سئل فقيل : فإلى مَ انتهىٰ أمر هؤلاء الموالين ؟ فقيل في جوابه : حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين.

كلامٌ في معنىٰ مرض القلب:

وفي قوله تعالى : ﴿ في قلوبهم مرض ﴾ دلالة على أنّ للقلوب مرضاً فلها لا محالة صحّة، إذ الصحّة والمرض متقابلان لا يتحقّق أحدهما في محلّ إلّا بعد إمكان تلبّسه بالآخر كالبصر والعمىٰ، ألا ترىٰ أنّ الجدار مثلاً لا يتّصف بأنه مريض لعدم جواز اتّصافه بالصحّة والسلامة.

وجميع الموارد الّتي أثبت الله سبحانه فيها للقلوب مرضاً في كلامه يذكر فيها من أحوال تلك القلوب وآثارها أُموراً تدلّ علىٰ خروجها من استقامة الفطرة، وانحرافها عن مستوى الطريقة كقوله تعالىٰ : ﴿ وإذ يَقُولُ الْمُنَافِقُون والّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرضٌ مَا وَعَدَنا اللهُ وَرَسُولُه إلّا غُرُوراً ﴾[1]، وقوله تعالى : ﴿ وإذ

(١) الأحزاب : ١٢.

يَقُولُ المُنَافِقُونَ وَالّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُم ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿ لِيجعَلَ مَا يُلقي الشيطَانُ فِتنةً لِلّذينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرضٌ وَالقاسِيَةِ قُلُوبُهُم ﴾[٢]، إلىٰ غير ذلك.

وجملة الأمر أنّ مرض القلب تلبّسه بنوعٍ من الارتياب والشكّ يكدر أمر الإيمان بالله والطمأنينة إلى آياته، وهو اختلاط من الإيمان بالشرك، ولذلك يرد علىٰ مثل هذا القلب من الأحوال، ويصدر عن صاحب هذا القلب في مرحلة الأعمال والأفعال ما يناسب الكفر بالله وبآياته.

وبالمقابلة تكون سلامة القلب وصحته هي استقراره في استقامة الفطرة ولزومه مستوى الطريقة، ويؤول إلىٰ خلوصه في توحيد الله سبحانه وركونه إليه عن كلّ شيء يتعلّق به هوى الإنسان، قال تعالى: ﴿ يَومَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلّا مَن أتَى اللهَ بِقَلبٍ سَلِيمٍ ﴾[٣].

الّذين في قلوبهم مرض غير المنافقين:

ومن هنا يظهر أنّ الّذين في قلوبهم مرض غير المنافقين كما لا يخلو تعبير القرآن عنهما بمثل قوله: ﴿ المُنافِقُونَ وَالّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ في غالب الموارد عن إشعارٍ مّا بذلك، وذلك أنّ المنافقين هم الّذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، والكفر الخالص موت للقلب لا مرض فيه، قال تعالى: ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيّتاً فَأَحيينَاه وَجَعَلنَا لَهُ نُوراً يَمشي بِهِ فِي النَاسِ ﴾[٤] وقال: ﴿ إِنَّما يَستجِيبُ

(١) الأنفال: ٤٩.
(٢) الحجّ: ٥٣.
(٣) الشعراء: ٨٩.
(٤) الأنعام: ١٢٢.

﴿الَّذِينَ يَسمَعُونَ وَالمَوتىٰ يَبعَثُهُمُ اللهُ﴾ [١].

فالظاهر أنّ مرض القلب في عرف القرآن هو الشكّ والريب المستولي علىٰ إدراك الإنسان فيما يتعلّق بالله وآياته، وعدم تمكّن القلب من العقد علىٰ عقيدة دينية.

فالذين في قلوبهم مرض ـ بحسب طبع المعنىٰ ـ هم ضعفاء الإيمان، الّذين يصغون إلىٰ كلّ ناعق، ويميلون مع كلّ ريح، دون المنافقين الّذين أظهروا الإيمان واستبطنوا الكفر رعايةً لمصالحهم الدنيوية ليستدروا المؤمنين بظاهر إيمانهم والكفّار بباطن كفرهم.

نعم، ربّما أُطلق عليهم المنافقون في القرآن تحليلاً لكونهم يشاركونهم في عدم اشتمال باطنهم علىٰ لطيفة الإيمان، وهذا غير إطلاق الّذين في قلوبهم مرض علىٰ من هو كافر لم يؤمن إلّا ظاهراً، قال تعالى: ﴿بَشِّرِ المُنافِقِين بأَنَّ لَهُم عَذَاباً أليماً * الّذِينَ يَتّخِذُون الكافِرِين أَولياءَ مِن دُونِ المُؤمنِينَ أَيبتَغُون عِندَهُمُ العِزّةَ فَإِنَّ العِزّةَ للهِ جَميعاً * وَقَد نَزّل عَلَيكُم فِي الكتابِ أَن إذا سَمِعتُم آياتِ اللهِ يُكفَرُ بِها وَيُستهزأُ بِها فَلا تَقعُدُوا مَعَهُم حَتّىٰ يَخوضُوا في حَديثٍ غَيرِهِ إنّكُم إذاً مِثلُهم إنّ اللهَ جَامِعُ المُنَافِقِينَ وَالكَافِرِينَ فِي جَهنّمَ جَميعاً﴾ [٢].

وأمّا قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَمِنَ النّاسِ مَن يَقُولُ آمنّا بِاللهِ وَبِاليَومِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤمِنِين ـ إلى أن قال: ـ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ فَزَادَهُم اللهُ مَرَضاً ـ إلى أن قال: ـ وَإِذَا قِيلَ لَهُم آمِنُوا كَمَا آمَنَ النّاسُ قَالُوا أَنُؤمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهاءُ... الآيات﴾ [٣]

---

(١) الأنعام: ٣٦.

(٢) النساء: ١٣٨ ـ ١٤٠.

(٣) البقرة: ٧ ـ ٢٠.

فإنّما هو بيان لسلوك قلوبهم من الشكّ في الحقّ إلى إنكاره، وأنهم كانوا في بادئ حالهم مرضیٰ بسبب كذبهم في الإخبار عن إيمانهم، وكانوا مرتابين لم يؤمنوا بعد، فزادهمُ الله مرضاً حتّیٰ هلكوا بإنكارهم الحقّ واستهزائهم له.

وقد ذكر الله سبحانه أنّ مرض القلب على حدّ الأمراض الجسمانية ربّما أخذ في الزيادة حتّیٰ أزمن وانجرّ الأمر إلى الهلاك وذلك بإمداده بما يضرّ طبع المريض في مرضه، وليس إلّا المعصية، قال تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً ﴾ (١)، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَت سُورَةٌ - إلى أن قال: - وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ فَزَادَتهُم رِجساً إِلَىٰ رِجسِهِم وَمَاتُوا وَهُم كَافِرُون * أَوَ لَا يَرَونَ أَنَّهُم يُفتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَو مَرَّتَينِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُم يَذَّكَّرُون ﴾ (٢)، وقال تعالى - وهو بيان عامّ -: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوءَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَكَانُوا بِهَا يَستَهزِئُون ﴾ (٣).

ثمّ ذكر تعالى في علاجه الإيمان به، قال تعالى - وهو بيان عامّ -: ﴿ يَهدِيهِم رَبُّهُم بِإِيمَانِهِم ﴾ (٤)، وقال تعالى: ﴿ إِلَيهِ يَصعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالعَمَلُ الصَّالِحُ يَرفَعُهُ ﴾ (٥). فعلى مريض القلب - إن أراد مداواة مرضه - أن يتوب إلى الله، وهو الإيمان به وأن يتذكّر بصالح الفكر وصالح العمل، كما تشير إليه الآية السابقة الذكر: ﴿ ثمّ لا يتوبون ولا هم يذّكّرون ﴾.

وقال سبحانه وهو قولٌ جامع في هذا الباب: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا

---

(١) البقرة: ١٠.
(٢) التوبة: ١٢٤ ـ ١٢٦.
(٣) الروم: ١٠.
(٤) يونس: ٩.
(٥) فاطر: ١٠.

*الكَافِرِينَ أولياءَ مِن دُونِ المُؤمِنِين أتريدُونَ أن تجعلُوا للهِ عَلَيكُم سُلطَاناً مُبِيناً * إنّ المُنافِقِينَ فِي الدرْكِ الأسفَلِ مِنَ النّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُم نَصِيراً * إلّا الّذِينَ تَابُوا وأصلَحُوا واعتَصَمُوا بِاللهِ وأَخلَصُوا دِينَهُم للهِ فَأُولئِكَ مَعَ المُؤمِنِينَ وَسَوفَ يُؤتِ اللهُ المُؤمِنِينَ أجْراً عَظِيماً* ﴾[1]. وقد تقدّم أنّ المراد بذلك الرجوع إلى الله بالإيمان والاستقامة عليه والأخذ بالكتاب والسنّة ثمّ الإخلاص.

معنى الردّة المقصودة في الآية:

قوله تعالى: ﴿ *يا أيها الّذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه* ﴾ ارتدّ عن دينه رجع عنه، وهو في اصطلاح أهل الدين الرجوع من الإيمان إلى الكفر سواء كان إيمانه مسبوقاً بكفرٍ آخر كالكافر يؤمن ثمّ يرتدّ أو لم يكن، وهما المسمّيان بالارتداد الملّي والفطري (حقيقةً شرعية أو متشرعية).

ربما يسبق إلى الذهن أنّ المراد بالارتداد في الآية هو ما اصطلح عليه أهل الدين، وتكون الآية على هذا غير متّصلة بما قبلها، وإنّما هي آية مستقلّة تحكي عن نحو استغناء من الله سبحانه عن إيمان طائفة من المؤمنين بإيمان آخرين.

لكن التدبّر في الآية وما تقدّم عليها من الآيات يدفع هذا الاحتمال، فإنّ الآية على هذا تذكّر المؤمنين بقدرة الله سبحانه على أن يُعبد في أرضه، وأنّه سوف يأتي بأقوامٍ لا يرتدون عن دينه بل يلازمونه كقوله تعالى: ﴿ *فإن يَكفُر بِها هؤلاءِ فَقَد وكّلنا بِهَا قوماً ليسُوا بِهَا بِكَافِرِين* ﴾[2] أو كقوله تعالى: ﴿ *وَمَن كَفَرَ فَإنّ*

---

(١) النساء: ١٤٣ ـ ١٤٦.

(٢) الأنعام: ٨٩.

﴿اللهَ غَنِيٌّ عَنِ العَالَمِينَ﴾ (١)، وقوله تعالى: ﴿إِن تَكفُرُوا أَنتُم وَمَن فِي الأَرضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيد﴾ (٢).

والمقام الّذي هذه صفته لا يقتضي أزيد من التعرّض لأصل الغرض، وهو الإخبار بالإتيان بقومٍ مؤمنين لا يرتدّون عن دين الله، وأمّا أنّهم يحبّون الله ويحبّهم، وأنّهم أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين إلى آخر ما ذكر في الآية من الأوصاف فهي أُمور زائدة يحتاج التعرّض لها إلى اقتضاء زائد من المقام والحال.

آثار موالاة اليهود والنصارىٰ:

ومن جهة أُخرى نجد أنّ ما ذكر في الآية من الأوصاف أُمور لا تخلو من الارتباط بما ذكر في الآيات السابقة من تولّي اليهود والنصارى فإنّ اتّخاذهم أولياء من دون المؤمنين لا يخلو من تعلّق القلب بهم تعلّق المحبّة والمودّة، وكيف يحتوي قلبٌ هذا شأنه على محبّة الله سبحانه وقد قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِن قَلبينِ فِي جَوفِهِ﴾ (٣).

ومن لوازم هذا التولّي أن يتذلّل المؤمن لهؤلاء الكفّار، وأن يتعزّز على المؤمنين ويترفّع عنهم، كما قال تعالى: ﴿أَيبتَغُونَ عِندَهُمُ العِزّة فَإِنَّ العِزَّةَ للهِ جَمِيعاً﴾ (٤).

ومن لوازم هذا التولّي المساهلة في الجهاد عليهم والانقباض عن مقاتلتهم،

(١) آل عمران: ٩٧.
(٢) إبراهيم: ٨.
(٣) الأحزاب: ٤.
(٤) النساء: ١٣٩.

والتحرّج من الصبر على كلّ حرمان، والتحمّل لكلّ لائـمة في قـطع الروابـط الاجتماعية معهم، كما قال تعالى: ﴿ ياأيّها الّذِينَ آمَنُوا لا تتّخِذُوا عَدوّي وَعُدوّكُم أولياءَ تُلقُون إليهِم بالمَودَّةِ وَقَد كَفرُوا بِمَا جَاءكُم مِن الحقّ - إلى أن قال: - إن كُنتُم خَرَجتُم جِهاداً في سَبيلي وَابتِغاءَ مَرضاتِي تُسِرُّون إليهِم بالمَوَدَّة ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ قَد كَانَت لَكُم أُسوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إبراهيمَ وَالّذِينَ مَعَهُ إذ قَالُوا لِقَومِهِم إنّا بُرآءُ مِنكُم وَمِمّا تعبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ كَفَرنَا بِكُم وَبَدَا بَينَنَا وَبَينَكُمُ العَدَاوَةُ والبَغضَاءُ أبَداً حَتّىٰ تُؤمِنُوا باللهِ وَحدَهُ ﴾[٢].

وكذلك الارتداد بمعناه اللغوي أو بالعناية التحليلية صادق على تولّي الكفّار، كما قال تعالى في الآية السابقة (آية: ٥١): ﴿ وَمَن يَتَولّهُم مِنكُم فَإنّه مِنهُم ﴾[٣]، وقال أيضاً: ﴿ وَمَن يَفعَل ذَلِكَ فَلَيسَ مِنَ اللهِ فِي شيء ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿ إنّكُم إذاً مثلُهُم ﴾[٥].

فقد تبيّن بهذا البيان أنّ للآية اتّصالاً بما قبلها من الآيات، وأنّ الآية مسوقة لإظهار أنّ دين الله في غنى عن أُولئك الّذين يخاف عليهم الوقوع في ورطة المخالفة وتولّي اليهود والنصارى لدبيب النفاق في جماعتهم، واشتمالها على عدّة مرضى القلوب لا يبالون باشتراء الدنيا بالدين، وإيثار ما عند أعداء الدين من العزّة الكاذبة والمكانة الحيوية الفانية على حقيقة العزّة الّتي هي لله ولرسوله وللمؤمنين، والسعادة الواقعية الشاملة على حياة الدنيا والآخرة.

---

(١) الممتحنة: ١.

(٢) الممتحنة: ٤.

(٣) المائدة: ٥١.

(٤) آل عمران: ٢٨.

(٥) النساء: ١٤٠.

الآيات تتحدّث عن ملحمة غَيبية:

وإنّما أظهرت الآية ذلك بالإنباء عن ملحمة غَيبية أنّ الله سبحانه في قبال ما يلقاه الدين من تلوّن هؤلاء الضعفاء الإيمان، واختيارهم محبّة غير الله على محبّته، وابتغاء العزّة عند أعدائه ومساهلتهم في الجهاد في سبيله، والخوف من كلّ لومة وتوبيخ، سيأتي بقوم يحبّهم ويحبّونه أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله لا يخافون لومة لائم.

وكثير من المفسّرين وإن تنبّهوا على اشتمال الآية على الملحمة وأطالوا في البحث عمّن تنطبق عليه الآية مصداقاً غير أنّهم تساهلوا في تفسير مفرداتها فلم يعطوا ما ذكر فيها من الأوصاف حقّ معناها، فآل الأمر إلى معاملتهم كلام الله سبحانه معاملة كلام غيره وتجويز وقوع المسامحات والمساهلات العرفية فيه كما في غيره.

فالقرآن وإن لم يسلك في بلاغته مسلكاً بدعاً ولم يتّخذ نهجاً مخترعاً جديداً في استعمال الألفاظ وتركيب الجمل ووضع الكلمات بحذاء معانيها بل جرى في ذلك مجرى غيره من الكلام ولكنه يفارق سائر الكلام في أمرٍ آخر، وهو أنّا معاشر المتكلّمين من البليغ وغيره إنّما نبني الكلام على أساس ما نعقله من المعاني، والمدرك لنا من المعاني إنّما يدرك بفهم مكتسب من الحياة الاجتماعية الّتي اختلقناها بفطرتنا الإنسانية الاجتماعية، ومن شأنها الحكم بالقياس، وعند ذلك ينفتح باب المسامحة والمساهلة على أذهاننا فنأخذ الكثير مكان الجميع، والغالب موضع الدائم، ونفرض كلّ أمرٍ قياس أمراً مطلقاً، ونلحق كلّ نادر بالمعدوم، ونجري كلّ أمرٍ يسير مجرى ما ليس بموجود، يقول قائلنا: كذا حسن أو قبيح، وكذا محبوب أو مبغوض، وكذا محمود أو

مذموم، وكذا نافع أو ضارّ، وفلان خير أو شرّير، إلىٰ غير ذلك، فنطلق القوم في ذلك، وإنّما هو كذلك في بعض حالاته وعلى بعض التقادير، وعند بعض الناس، وبالقياس إلىٰ بعض الأشياء لا مطلقاً. لكن القائل إنّما يلحق بعض التقادير المخالفة بالعدم تسامحاً في إدراكه وحكمه، هذا فيما أدركه من جهات الواقع الخارج. وأمّا ما يغفل عنه لمحدودية إدراكه من جهات الكون المربوطة فهو أكثر، فما يخبر به الإنسان ويحدّثه عن الخارج وخيّلت له الإحاطة بالواقع إدراكاً وكشفاً فإنّما هو مبنيّ على التسامح في بعض الجهات، والجهل في بعض آخر، وهو من الهزل إن قدرنا على أن نحيط بالواقع ثمّ نطبق كلامه عليه، فافهم ذلك.

فهذا حال كلام الإنسان المبنيّ على ما يحصل عنده من العلم، وأمّا كلام الله سبحانه فمن الواجب أن نجلّه عن هذه النقيصة، وهو المحيط بكلّ شيء علماً، وقد قال تعالى في صفة كلامه: ﴿ *إنّه لقولٌ فصل * وَمَا هُوَ بِالهَزل* ﴾[1].

وهذا من وجوه الأخذ بإطلاق كلامه تعالى فيما كان بظاهره مطلقاً لم يعقب بقيد متّصل أو منفصل، ومن وجوه إشعار الوصف في كلامه بالعلّية فإذا قال: «يحبّهم» فليس يبغضهم في شيء وإلّا لاستثنى، وإذا وصف قوماً بأنّهم أذلّة على المؤمنين كان من الواجب أن يكونوا أذلّاء لهم بما هم مؤمنون، أي لصفة إيمانهم بالله سبحانه، وأن يكونوا أذلّاء في جميع أحوالهم وعلى جميع التقادير، وإلّا لم يكن القول فصلاً.

نعم، هناك معانٍ تُنسب إلىٰ غير صاحبها إذا جمعها جامع يصحّح ذلك كما في قوله: ﴿ *وَلَقَد آتينا بَني إسرائيلَ الكِتَابَ وَالحُكمَ وَالنبوَّةَ وَرَزَقنَاهُم مِنَ الطيّباتِ*

---

(١) الطارق: ١٣ و ١٤.

وَفَضَّلْنَاهُم عَلَى العَالَمِين ﴾[١]، وقوله : ﴿ هُوَ اجتَبَاكُم وَمَا جَعَلَ عَلَيكُم فِي الدِّينِ مِن حَرَج ﴾[٢]، وقوله : ﴿كُنتُم خَيرَ أُمَّةٍ أُخرِجَت لِلنَّاسِ تَأمُرُونَ بِالمَعرُوفِ وَتَنهَونَ عَنِ المُنكَرِ ﴾[٣]، وقوله : ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيكُم شَهِيداً ﴾[٤]، وقوله : ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يارَبِّ إِنَّ قَومِي اتَّخَذُوا هَذَا القُرآنَ مَهجُوراً ﴾[٥] إلىٰ غير ذلك من الآيات المشتملة على أوصاف اجتماعية يتصف بها الفرد والمجتمع، وليس شيء من ذلك جارياً مجرى التسامح والتساهل بل هي أوصاف يتّصف بها الجزء والكلّ والفرد والمجتمع لعناية متعلّقة بذلك، كمثل حفنة من تراب مشتملة على جوهرة يقبض عليها لأجل الجوهرة، فالتراب مقبوض والجوهرة مقبوضة، والأصل في ذلك الجوهرة، ولنرجع الىٰ ماكنّا فيه :

موالاة اليهود والنصارىٰ ردّة عن الدين:

أمّا قوله تعالى : ﴿ ياأيها الّذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه ﴾ فالمراد بالارتداد والرجوع عن الدين بناءً على ما مرّ هو موالاة اليهود والنصارى، وخصّ الخطاب فيه بالمؤمنين لكون الخطاب السابق أيضاً متوجّهاً إليهم، والمقام مقام بيان أنّ الدين الحقّ في غنىً عن إيمانهم المشوب بموالاة أعداء الله، وقد عدّه الله سبحانه كفراً وشركاً حيث قال : ﴿ ومن يتولّهم منكم فإنّه منهم ﴾

---

(١) الجاثية: ١٦.
(٢) الحجّ: ٧٨.
(٣) آل عمران: ١١٠.
(٤) البقرة: ١٤٣.
(٥) الفرقان: ٣٠.

لما أنّ الله سبحانه هو وليّ دينه وناصره، ومن نصرته لدينه أنّه سوف يأتي بقومٍ براء من أعدائه يتولّون أولياءه ولا يحبّون إلّا إياه.

إنهاء الله للردّة ونصرته لدينه:

وأمّا قوله: ﴿فسوف يأتي الله بقوم﴾ نسب الإتيان إلىٰ نفسه ليقرّر معنى نصره لدينه المفهوم من السياق المشعر بأنّ لهذا الدين ناصراً لا يحتاج معه إلىٰ نصرة غيره، وهو الله عزّ اسمه.

وكون الكلام مسوقاً لبيان انتصار الدين بهؤلاء القوم تجاه من يقصده هؤلاء الموالون لأعدائه من الانتصار القومي، وكذا التعبير بالقوم والإتيان بالأوصاف والأفعال بصيغة الجمع كلّ ذلك مشعرٌ بأنّ القوم الموعود إيتاؤهم إنّما يبعثون جماعة مجتمعين لا فرادى ولا مثنى، كأن يأتي الله سبحانه في كلّ زمان برجل يحبّ الله ويحبّه الله ذليل على المؤمنين عزيز على الكافرين يجاهد في سبيل الله لا يخاف لومة لائم.

وإتيان هذا القوم في عين أنّه منسوب إليهم منسوب إليه تعالى، وهو الآتي بهم لا بمعنى أنّه خالقهم إذ لا خالق إلّا الله سبحانه، قال: ﴿الله خالق كلّ شيء﴾[1] بل بمعنى أنّه الباعث لهم فيما ينتهزون إليه من نصرة الدين، والمكرم لهم بحبّه لهم وحبّهم له، والموفّق لهم بالتذلّل لأوليائه والتعزّز لأعدائه والجهاد في سبيله والإعراض عن كلّ لائمة، فنصرتهم للدين هي نصرته تعالى له بسببهم ومن طريقهم، وقريب الزمان وبعيده عند الله واحد، وإن كانت أنظارنا لقصورها تفرّق في ذلك.

---

(١) الزمر: ٦٢.

إنهاء الردّة بأيدي أحبّاء الله:

وأمّا قوله تعالى: ﴿ يحبّهم ويحبّونه ﴾ فالحبّ مطلق معلّق على الذات من غير تقييده بوصف أو غير ذلك، أمّا حبّهم لله فلازمه إيثارهم ربّهم على كلّ شيء سواه ممّا يتعلّق به نفس الإنسان من مالٍ أو جاهٍ أو عشيرةٍ أو غيرها، فهؤلاء لا يوالون أحداً من أعداء الله سبحانه، وإن والوا أحداً فإنّما يوالون أولياء الله بولاية الله تعالى.

وأمّا حبّه تعالى لهم فلازمه براءتهم من كلّ ظلم، وطهارتهم من كلّ قذارة معنوية من الكفر والفسق بعصمة أو مغفرة إلهية عن توبة، وذلك أنّ جمل المظالم والمعاصي غير محبوبة لله كما قال تعالى: ﴿ فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ (١)، وقال: ﴿ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢)، وقال: ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (٣)، وقال: ﴿ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٤)، وقال: ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (٥)، وقال: ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ (٦)، وقال: ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ (٧)، إلىٰ غير ذلك من الآيات.

وفي هذه الآيات جماع الرذائل الإنسانية، وإذا ارتفعت عن إنسان بشهادة محبّة الله له اتّصف بما يقابلها من الفضائل، لأنّ الإنسان لا مخلّص له عن أحد طرفي الفضيلة والرذيلة إذا تخلّق بخلق.

---

(١) آل عمران: ٣٢.
(٢) آل عمران: ٥٧.
(٣) الأنعام: ١٤١.
(٤) المائدة: ٦٤.
(٥) البقرة: ١٩٠.
(٦) النحل: ٢٣.
(٧) الأنفال: ٥٨.

فهؤلاء هم المؤمنون بالله حقّاً غير مشوب إيمانهم بظلم، وقد قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُهْتَدُون﴾ [١] فهم مأمونون من الضلال، وقد قال تعالى: ﴿فَإِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلّ﴾ [٢] فهم في أمنٍ إلهي من كلّ ضلالة، وعلى اهتداءٍ إلهي إلىٰ صراطه المستقيم، وهم بإيمانهم الّذي صدّقهم الله فيه مهديّون إلىٰ اتّباع الرسول والتسليم التامّ له كتسليمهم لله سبحانه، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُم ثُمّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِم حَرَجاً مِمَّا قَضَيتَ وَيُسَلِّمُوا تَسلِيماً﴾ [٣].

وعند ذلك يتمّ أنهم من مصاديق قوله تعالى: ﴿قُل إِن كُنتُم تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحبِبكُمُ اللهُ﴾ [٤] وبه يظهر أنّ اتّباع النبيّ ﷺ ومحبّة الله متلازمان، فمن اتّبع النبيّ أحبّه الله، ولا يحبّ الله عبداً إلّا إذا كان متّبعاً لنبيّه ﷺ.

وإذا اتّبعوا الرسول اتّصفوا بكلّ حسنة يحبّها الله ويرضاها كالتقوى والعدل والاحسان والصبر والثبات والتوكّل والتوبة والتطهّر وغير ذلك قال تعالى: ﴿فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَّقِين﴾ [٥]، وقال: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُحسِنِين﴾ [٦]، وقال: ﴿وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِين﴾ [٧]، وقال: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُون فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَرصُوص﴾ [٨]، وقال: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَوَكِّلِين﴾ [٩]، وقال: ﴿إِنَّ

---

(١) الأنعام: ٨٢.
(٢) النحل: ٣٧.
(٣) النساء: ٦٥.
(٤) آل عمران: ٣١.
(٥) آل عمران: ٧٦.
(٦) البقرة: ١٩٥.
(٧) آل عمران: ١٤٦.
(٨) الصف: ٤.
(٩) آل عمران: ١٥٩.

الله يُحِبُّ التَوّابِين ويُحِبُّ المُتطهِّرين ﴾[١] إلىٰ غير ذلك من الآيات.

وإذا تتبعت الآيات الشارحة لآثار هذه الأوصاف وفضائل تتعقّبها عثرتَ على أُمور جمّة من الخصال الحسنة، ووجدتَ أنّ جميعها تنتهي إلىٰ أنّ أصحابها هم الوارثون الّذين يرثون الأرض، وأنّ لهم عاقبة الدار كما تومي إليه الآية المبحوث عنها: ﴿ *ياأيها الّذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه* ﴾ وقد قال تعالى ـ وهي كلمة جامعة ـ: ﴿ *والعَاقِبَةُ للتقوىٰ* ﴾[٢] وسنشرح معنى كون العاقبة للتقوى فيما يناسبه من المورد إن شاء الله العزيز.

من صفات أحبّاء الله:

قوله تعالى: ﴿ *أذلّةٍ على المؤمنين أعزّةٍ على الكافرين* ﴾ الأذلّة والأعزّة جمعا الذليل والعزيز، وهما كنايتان عن خفضهم الجناح للمؤمنين تعظيماً لله الّذي هو وليّهم وهم أولياؤه، وعن ترفّعهم من الاعتناء بما عند الكافرين من العزّة الكاذبة الّتي لا يعبأ بأمرها الدين كما أدّب بذلك نبيّه في قوله: ﴿ *لَا تَمُدَّنَّ عَينَيكَ إلىٰ مَا مَتَّعنَا بِهِ أزوَاجاً مِنهُم وَلَا تَحزَن عَلَيهِم وَاخفِض جَنَاحَكَ لِلمُؤمِنِين* ﴾[٣].

ولعلّ تعدية «أذلّة» بعلى لتضمينه معنى الحنان أو الحنو كما قيل.

قوله تعالى: ﴿ *يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم* ﴾ أمّا قوله: ﴿ *يجاهدون في سبيل الله* ﴾ فقد اختصّ بالذكر من بين مناقبهم الجمّة لكون الحاجة تمسّ إليه في المقام لبيان أنّ الله ينتصر لدينه بهم، وأمّا قوله: ﴿ *ولا يخافون لومة لائم* ﴾ فالظاهر أنّه حال متعلّق بالجمل المتقدمة لا بالجملة الأخيرة فقط ـ وإن كانت هي المتيقنة في أمثال هذه التركيبات ـ وذلك لأنّ نصرة الدين

---

(١) البقرة: ٢٢٢.

(٢) طه: ١٣٢.

(٣) الحِجر: ٨٨.

بالجهاد في سبيل الله كما يزاحمها لومة اللائمين الّذين يحذرونهم تضييع الأموال وإتلاف النفوس وتحمل الشدائد والمكاره كذلك التذلل للمؤمنين والتعزز على الكافرين وعندهم من زخارف الدنيا ومبتغيات الشهوة، وأمتعة الحياة ما ليس عند المؤمنين هما ممّا يمانعه لومة اللائم، وفي الآية ملحمة غيبية سنبحث عنها في كلام مختلط من القرآن والحديث إن شاء الله تعالى.

بحث روائي

مناقشة المصاديق المذكورة للآيات:

في الدرّ المنثور في قوله تعالى: ﴿ *يا أيّها الّذين آمنوا لا تتّخذوا اليهود* ﴾...الآية: أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الدلائل وابن عساكر عن عبادة بن الوليد أنّ عبادة بن الصامت قال: لمّا حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ تشبّث بأمرهم عبد الله بن أُبيّ ابن سلول وقام دونهم، ومشى عبادة بن الصامت إلىٰ رسول الله ﷺ وتبرّأ إلى الله وإلىٰ رسوله من حلفهم، وكان أحد بني عوف بن الخزرج، وله من حلفهم مثل الّذي كان لهم من عبد الله بن أُبيّ فخلعهم إلىٰ رسول الله ﷺ، وقال: أتولّى الله ورسوله والمؤمنين، وأبرأ إلى الله ورسوله من حلف هؤلاء الكفّار وولايتهم.

وفيه: وفي عبد الله بن أُبيّ نزلت الآيات في المائدة: ﴿ *يا أيّها الّذين آمنوا لا تتّخذوا اليهودَ والنصارىٰ أولياء بعضهم أولياء بعض* ـ إلىٰ قوله: ـ *فإنّ حزبَ الله هُم الغالِبون* ﴾.

وفيه: أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن عطية بن سعد قال: جاء عبادة

ابن الصامت من بني الحارث بن الخزرج إلىٰ رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله إنّ لي موالي من يهود كثير عددهم ، وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود ، وأتولّى الله ورسوله.

فقال عبد الله بن أُبيّ : إنّي رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من ولاية موالي ، فقال رسول الله ﷺ لعبد الله بن أُبيّ : ياأبا الحباب أرأيت الّذي نفست به من ولاء يهود على عبادة فهو لك دونه ؟ قال : إذن أقبل ، فأنزل الله : ﴿ *ياأيها الّذين آمنوا لا تتّخذوا اليهودَ والنصارَى أولياءَ بعضهم أولياء بعض* ـ إلى أن بلغ إلىٰ قوله : ـ *والله يعصمُك مِن النَّاس* ﴾.

وفيه : أخرج ابن مردويه عن ابن عبّاس قال : آمن عبد الله بن أُبيّ بن سلول قال : إنّ بيني وبين بني قريظة والنضير حلفاً ، وإنّي أخاف الدوائر فأرتدّ كافراً ، وقال عبادة بن الصامت : أبرأ إلى الله من حلف قريظة والنضير وأتولّى الله ورسوله والمؤمنين.

فأنزل الله : ﴿ *ياأيّها الّذِينَ آمَنُوا لَا تَتّخذوا اليهودَ والنصارَى أولياء* ـ إلى قوله : ـ *فترى الّذين في قلوبهم مرضٌ يُسارِعُون فيهم* ﴾ يعني عبد الله بن أبيّ وقوله : ﴿ *إنَّما وَليُّكم اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤتُونَ الزكَاةَ وَهُم راكِعُون* ﴾ [١] يعني عبادة بن الصامت وأصحاب رسول الله ﷺ. قال : ﴿ *وَلَو كَانُوا يُؤمِنُونَ بِاللهِ والنَّبيّ وَمَا أُنزِلَ إليهِ مَا اتّخذُوهُم أولياءَ وَلكنَّ كَثيراً مِنهُم فَاسِقُون* ﴾ [٢].

أقول : ورويت القصّة بغير هذه الطرق ، وقد تقدّم أنّ هذه الأسباب أسباب

---

(١) المائدة: ٥٥.

(٢) المائدة: ٨١.

تطبيقية اجتهادية، وفيها أمارات تدلّ على ذلك، كيف والآيات تذكر النصارى مع اليهود ولم يكن في قصّة بني قينقاع وما جرى بين المسلمين وبين بني قريظة والنضير للنصارى إصبع ولا للمسلمين معهم شأن؟! ومجرّد ذكرهم تطفّلاً واطّراداً ممّا لا وجه له. وفي القرآن آيات متعرّضة لحال اليهود في الوقائع الّتي جرت بينهم وبين المسلمين وما داخل فيه المنافقون من أعمالهم خصّ فيه اليهود بالذكر ولم يذكر فيه النصارى كما في سورة الحشر وغيرها، فما بال الاطّراد والتطفل يجري حكمهما ههنا ولا يجري هناك؟!

على أنّ الرواية تذكر الآيات النازلة في عبادة بن الصامت وعبد الله بن أُبيّ سبع عشرة آية (آية: ٥١ ـ ٦٧) ولا اتّصال بينها حتّىٰ تنزل دفعةً (أوّلاً)، وفيها آية: ﴿ *إنّما وليّكم الله ورسوله* ﴾ وقد تواترت روايات الخاصّة والعامّة على أنها نزلت في علي ﷺ (ثانياً)، وفيها آية: ﴿ *ياأيّها الرسول بلّغ ما أُنزل إليك* ﴾ ولا ارتباط لها مع القصّة البتة (ثالثاً).

فليس إلّا أن الراوي أخذ قصّة عبادة وعبد الله ثمّ وجد الآيات تناسبها بعض المناسبة فطبّقها عليها ثمّ لم يحسن التطبيق فوضع سبع عشرة آية مكان ثلاث آيات بمناسبة تعرّضها لحال أهل الكتاب.

وفي الدرّ المنثور: أخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة في قوله: ﴿ *ياأيّها الّذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض* ﴾ في بني قريظة إذ غدروا ونقضوا العهد بينهم وبين رسول الله ﷺ في كتابهم إلى أبي سفيان بن حرب يدعونهم وقريشاً ليدخلوهم حصونهم، فبعث النبيّ ﷺ أبا لبابة بن عبد المنذر إليهم أن يستنزلهم من حصونهم، فلمّا أطاعوا له بالنزول أشار إلىٰ حلقه بالذبح. وكان طلحة والزبير يكاتبان النصارى وأهل الشام. وبلغني أنّ

رجالاً من أصحاب النبيّ ﷺ كانوا يخافون العوز والفاقة فيكاتبون اليهود من بني قريظة النضير فيدسون إليهم الخبر من النبيّ ﷺ يلتمسون عندهم القرض والنفع فنهوا عن ذلك.

أقول : والرواية لا بأس بها، وهي تفسير الولاية في الآيات بولاية المحبّة والمودّة، وقد تقدّم تأييد ذلك، وهي إن كانت سبباً للنزول حقيقياً فالآيات مطلقة تجري في غير القصّة كما نزلت وجرت فيها، وإن كانت من الجري والتطبيق فالأمر أوضح.

وفي المجمع في قوله تعالى : ﴿ *يا أيها الّذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم...الآية* ﴾ قال : وقيل : هم أمير المؤمنين علي عليه السلام وأصحابه حين قاتل من قاتله من الناكثين والقاسطين والمارقين، وروي ذلك عن عمّار وحذيفة وابن عبّاس، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام.

أقول : قال في المجمع بعد ذكر الرواية : ويؤيّد هذا القول أنّ النبيّ وصفه بهذه الصفات المذكورة في الآية فقال فيه ـ وقد ندبه لفتح خيبر بعد أن ردّ عنها حامل الراية إليه مرّة بعد أُخرى وهو يجبن الناس ويجبنونه ـ: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله ويحبّ الله ورسوله، كرّاراً غير فرّار لا يرجع حتّىٰ يفتح الله على يده» ثمّ أعطاها إيّاه.

فأمّا الوصف باللين على أهل الإيمان، والشدّة على الكفّار، والجهاد في سبيل الله مع أنّه لا يخاف فيه لومة لائم فممّا لا يمكن أحداً دفعُ علي عليه السلام عن استحقاق ذلك لما ظهر من شدّته على أهل الشرك والكفر ونكايته فيهم، ومقاماته المشهورة في تشييد الملّة ونصرة الدين والرأفة بالمؤمنين.

ويؤيّد ذلك أيضاً إنذار رسول الله ﷺ قريشاً بقتال علي عليه السلام لهم من بعده

حيث جاء سهيل بن عمرو في جماعة منهم فقالوا : يامحمّد إنّ أرقّاءنا لحقوا بك فارددهم إلينا ، فقال رسول الله ﷺ : لتنتهنّ يامعاشر قريش أو ليبعثنّ الله عليكم رجلاً يضربكم على تأويل القرآن كما ضربتكم على تنزيله ، فقال له بعض أصحابه : من هو يارسول الله ؟ أبو بكر ؟ قال : لا ، ولكنّه خاصف النعل في الحجرة ، وكان علي ﷺ يخصف نعل رسول الله ﷺ.

وروي عن علي ﷺ أنه قال يوم البصرة : والله ما قوتل أهل هذه الآية حتى اليوم ، وتلا هذه الآية.

وروى أبو إسحاق الثعلبي في تفسيره بالإسناد عن الزهري عن سعيد بن المسيّب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : يرد عليَّ قوم من أصحابي يوم القيامة فيحِلون عن الحوض فأقول : يارب أصحابي أصحابي ، فيقال : إنّك لا تدري بما أحدثوا من بعدك أنهم ارتدّوا على أدبارهم القهقرى ، إنتهى.

وهذا الّذي ذكره إنّما يتمّ فيه ﷺ ولا ريب في أنه أفضل مصداق لما سرد في الآية من الأوصاف لكنّ الشأن في انطباق الآية على عامّة مَن معه من أهل الجمل وصفّين وقد غيّر كثير منهم بعد ذلك ، وقد وقع قوله تعالى : ﴿ يحبّهم ويحبّونه...*الخ* ﴾ في الآية بغير استثناء ، وقد عرفت معناه.

وفيه أيضاً : وروي أنّ النبيّ ﷺ سئل عن هذه الآية فضرب بيده على عاتق سلمان فقال : هذا وذووه ، ثمّ قال : لو كان الدين معلّقاً بالثريا لتناوله رجال من أبناء فارس.

أقول : والكلام فيه كالكلام في سابقه إلّا أن يراد أنّهم سوف يُبعثون من قومه.

وفيه : وقيل : هم أهل اليمن هم ألين قلوباً وأرقّ أفئدةً ، الإيمان يماني ،

والحكمة يمانية. وقال عياض بن غنم الأشعري : لمّا نزلت هذه الآية أومأ رسول الله ﷺ إلى أبي موسى الأشعري فقال : هم قوم هذا.

أقول : وروى هذا المعنى في الدرّ المنثور بعدّة طرق، والكلام فيه كالكلام في سابقه.

وفي تفسير الطبري بإسناده عن قتادة قال : أنزل الله هذه الآية وقد علم أنه سيرتدّ مرتدّون من الناس، فلمّا قبض الله نبيّه محمّداً ﷺ ارتدّ عامّة العرب عن الإسلام إلّا ثلاثة مساجد أهل المدينة وأهل مكّة وأهل البحرين قالوا : نصلّي ولا نزكّي والله لا تغصب أموالنا، فكلّم أبو بكر في ذلك فقيل لهم :[1] إنّهم لو قد فقهوا لهذا أعطوها وزادوها، فقال : لا والله لا أُفرّق بين شيء جمع الله بينه، ولو منعوا عقالاً ممّا فرض الله ورسوله لقاتلناهم عليه، فبعث الله عصابةً مع أبي بكر فقاتل على ما قاتل عليه نبيّ الله ﷺ حتّىٰ سُبي وقُتل، وحرّق بالنيران أُناساً ارتدّوا عن الإسلام ومنعوا الزكاة فقاتلهم حتّى أقرّوا بالماعون ـ وهي الزكاة ـ صغرة أقمياء... الحديث.

أقول : ورواه في الدرّ المنثور عن عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبي الشيخ والبيهقي وابن عساكر عن قتادة، ورواه أيضاً عن الضحّاك والحسن.

ولفظ الحديث أوضح شاهد على أنّه من قبيل التطبيق النظري، وحينئذٍ يتوجّه إليه ما توجّه إلىٰ ما تقدّمه من الروايات، فإنّ هذه الوقائع والغزوات تشتمل على حوادث وأُمور، وقد قاتل فيها رجال كخالد ومغيرة بن شعبة وبسر ابن الأرطاة وسمرة بن جندب يذكر التأريخ عنهم فيها، وبعد ذلك مظالم وآثاماً

---

(١): له (ظ).

لا تدع الآية : ﴿ يحبّهم ويحبّونه... إلخ ﴾ أن تصدق فيهم وتنطبق عليهم، فعليك بالرجوع إلى التأريخ، ثمّ التأمّل فيما قدمناه من معنى الآية.

وقد بلغ من إفراط بعض المفسرين أن استغرب قول بعضهم : «أنّ الآية أوضح انطباقاً على الأشعريّين من أهل اليمن منها على هؤلاء الّذين قاتلوا أهل الردّة» قائلاً : إنّ الآية عامّة تشمل كلّ من نصر الدين ممّن اتّصف بمضمونها من خيار المسلمين من مؤمني عهد النبيّ ﷺ ومن جاء بعد ذلك من المؤمنين، وتنطبق على جميع ما تقدّم من الأخبار كالخبر الدالّ على أنّهم سلمان وقومه ـ على ضعفه ـ والخبر الدالّ على أنه أبو موسى الأشعري وقومه، والخبر الدالّ على أنه أبو بكر وأصحابه إلّا ما دلّ على أنّه علي عليه السلام، فإنّ لفظ الآية لا ينطبق عليه لأنّ لفظ القوم ـ المأخوذ في الآية ـ لا يجري على الواحد لأنه نصّ في الجماعة.

هذا محصّل كلامه، وليس إلّا أنّه عامل كلامه تعالى فيما ذكره من الثناء على القوم ومدحهم معاملة الشعر الّذي يبني المدح على التخيّل، فما قدر عليه خيال الشاعر حمله على ممدوحه من غير أن يعتني بأمر الصدق والكذب، وقد قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً ﴾ (١) أو على المتعارف من الكلام الدائر بيننا الّذي لا يعتمد في إلقائه إلّا على الأفهام البانية على التسامح والتساهل في التلقّي والإلقاء، والاعتذار بالمسامحة في كلّ ما أشكل عليها في شيء، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾ (٢) وقد عرفت فيما تقدّم أنّ الآية لو أُعطيت حقّ معناها فيما تتضمّنه من الصفات تبيّن أنّ مصداقها لم يتحقّق بعد إلى هذا الحين، فراجع وتأمّل ثمّ اقض ما أنت قاضٍ.

---

(١) النساء: ١٢٢.

(٢) الطارق: ١٣ و ١٤.

ومن العجيب ما ذكره في آخر كلامه، فإنّ من ذكر نزول الآية في علي عليه السلام إنّما ذكر علياً وأصحابه كما ذكر آخرين: سلمان وذويه، وآخرين: أبا موسى وقومه، وآخرين: أبا بكر وأصحابه، وكذا ما ورد من الروايات ـ وقد تقدّم بعضها ـ إنّما ورد في علي وأصحابه، ولم يذكر نزول الآية في علي عليه السلام وحده حتّىٰ يرد بأنّ لفظ الآية نصّ في الجماعة لا ينطبق على المفرد.

نعم، ورد في تفسير الثعلبي أنّها نزلت في علي، وأيضاً في نهج البيان للشيباني عن الباقر والصادق عليهما السلام أنّها نزلت في علي عليه السلام، والمراد به بقرينة الروايات الأُخر نزوله فيه وفي أصحابه من جهة قيامهم بنصرة الدين في غزوة الجمل وصفّين والخوارج.

مع أنّه سيأتي أنّ الروايات من طرق الجمهور متكاثرة في نزول آية: ﴿ *إنّما وليّكم الله ورسولهُ* ﴾ في علي عليه السلام ولفظ الآية جمع.

على أنّ في الرواية ـ رواية قتادة والضحّاك والحسن ـ إشكالاً آخر وهو أنّ قوله تعالى: ﴿ *ياأيّها الّذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبّهم ويحبّونه...إلخ* ﴾ ظاهر ظهوراً لا مرية فيه في معنى التبديل والاستغناء، سواء كان الخطاب للموجودين في يوم النزول أو لمجموع الموجودين والمعدومين، والمقصود خطاب الجماعة من المؤمنين بأنهم كلّهم أو بعضهم إن ارتدّوا عن دينهم فسوف يبدلّهم الله من قوم يحبّهم ويحبّونه ـ وهو لا يحبّ المرتدّين ولا يحبّونه ـ ولهم كذا وكذا من الصفات ينصرون دينه.

وهذا صريح في أنّ القوم المأتيّ بهم جماعة من المؤمنين غير الجماعة الموجودين في أوان النزول. والمقاتلون أهل الردّة بُعيد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله كانوا موجودين حين النزول مخاطبين...إلخ بقوله: ﴿ *ياأيّها الّذين آمنوا...إلخ* ﴾ فهم

غير مقصودين بقوله: ﴿ فسوف يأتي الله بقوم...إلخ ﴾.

والآية جارية مجرى قوله تعالى: ﴿ وإن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثمّ لا يكونوا أمثالكم ﴾ (١).

وفي تفسير النعماني بإسناده عن سليمان بن هارون العجلي قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إنّ صاحب هذا الأمر محفوظ له، لو ذهب الناس جميعاً أتى الله بأصحابه، وهم الّذين قال الله عزّوجلّ: ﴿ فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكّلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين ﴾ (٢) وهم الّذين قال الله: ﴿ فسوف يأتي الله بقوم يحبّهم ويحبّونه أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين ﴾.

أقول: وروى هذا المعنى العياشي والقمي في تفسيريهما.

كلام وبحث مختلط من القرآن والحديث:

ما تقدّم في الأبحاث السابقة مراراً التلويح إلى أنّ الخطابات القرآنية الّتي يهتمّ القرآن بأمرها ويبالغ في تأكيدها وتشديد القول فيها لا يخلو لحن القول فيها من دلالة على أنّ العوامل والأسباب الموجودة متعاضدة على أن تسوقهم إلىٰ مهابط السقوط ودركات الردى، والابتلاء بسخط الله كما في آيات الربا وآية مودّة القربى وغيرهما.

ومن طبع الخطاب ذلك، فإنّ المتكلّم الحكيم إذا أمر بأمرٍ حقيرٍ يسير ثمّ بالغ في تأكيده والإلحاح عليه بما ليس شأنه ذلك أو خاطب أحداً بخطابٍ ليس من شأن ذلك المخاطب أن يوجّه إلىٰ مثله ذلك الخطاب كنهي عالم ربّاني ذي

---

(١) محمّد: ٣٨.

(٢) الأنعام: ٨٩.

قدم صدق في الزهد والعبادة عن ارتكاب أفضح الفجور على رؤوس الأشهاد دلّ ذلك على أنّ المورد لا يخلو عن شيء وأنّ هناك خطباً جليلاً ومهلكةً خطيرةً مشرفة.

والخطابات القرآنية الّتي هذا شأنها تعقّبت حوادث صدقتها في ما كانت تلوح إليه بل تدلّ عليه، وإن كان السامعون ـ لعلّهم ـ ماكانوا يتنبّهون في أوّل ما سمعوها يوم النزول على ما تتضمّنه من الإشارات والدلالات.

فقدان نعمة مودّة قربى الرسول ﷺ:

فقد أمر القرآن بمودّة قربى رسول الله ﷺ وبالغ فيها حتّىٰ عدّها أجر الرسالة والسبيل إلى الله سبحانه، ثمّ وقع أن استباحت الأُمّة في أهل بيته من فجائع المظالم ما لو أُمروا به لم يكونوا ليزيدوا على ما أتوا به فيهم.

ونهى القرآن عن الاختلاف وبالغ فيه بما لا مزيد عليه، ثمّ وقع أن تفرّقت الأُمّة تفرّقاً وانشعبت انشعابات زادت على ما عند اليهود والنصارى، وكانت اليهود إحدى وسبعين فرقة، والنصارى اثنتين وسبعين فرقة، فأتى المسلمون بثلاث وسبعين فرقة، هذا في مذاهبهم في معارف الدين العلمية، وأمّا مذاهبهم في السنن الاجتماعية وتأسيس الحكومات وغيرها فلا تقف على حدّ حاصر.

ونهى القرآن عن الحكم بغير ما أنزل الله، ونهى عن إلقاء الاختلاف بين الطبقات ونهى عن الطغيان واتّباع الهوى إلىٰ غير ذلك وشدّد فيها، ثمّ وقع ما وقع.

والأمر في النهي عن ولاية الكفّار وأهل الكتاب نظير غيره من النواهي المؤكّدة الواردة في القرآن الكريم، بل ليس من البعيد أن يدّعى أنّ التشديد

الواقع في النهي عن ولاية الكفّار وأهل الكتاب لا يعدله أيّ تشديد واقع في سائر النواهي الفرعية.

فقد بلغ الأمر فيه إلى أن عدّ الله سبحانه الموالين لأهل الكتاب والكفّار منهم: ﴿ ومن يتولّهم منكم فإنه منهم ﴾ ونفاهم من نفسه إذ قال: ﴿ وَمَن يَفعل ذَلِكَ فَلَيسَ مِنَ اللهِ فِي شَيء ﴾ [١] وحذّرهم منتهى التحذير فقال مرّةً بعد أُخرى: ﴿ وَيُحذِّرُكُمُ اللهُ نَفسَهُ ﴾ [٢] وقد مرّ في الكلام على الآية أنّ مدلولها وقوع المحذور لا محالة قضاءً حتماً لا مبدّل له ولا محوّل.

وإن شئت مزيد وضوح لذلك فتدبر في قوله تعالى: ﴿ وإنّ كلّاً لمّا ليوفّينّهم ربّك أعمالَهم ـ وقد ذكر قبل الآية قصص أُمم نوح وهود وصالح وغيرهم ثمّ اختلاف اليهود في كتابهم ـ إنّه بما يعملون خبير * فاستَقِم كَمَا أُمِرتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطغَوا ـ والخطاب كما ترى خطاب اجتماعي ـ إنّه بما تعمَلُونَ بَصِير ﴾ [٣] ثمّ تدبّر في قوله تعالى بعده: ﴿ وَلَا تَركَنُوا إلى الّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمسَّكُمُ النارُ وَمَا لَكُم مِن دُونِ اللهِ مِن أولياءَ ثُمّ لَا تُنصَرون ﴾ [٤].

عواقب كفران نعمة موالاة أولياء الله:

وقد بيّن الله سبحانه معنى مسيس هذه النار في الدنيا قبل الآخرة ـ والآية مطلقة ـ وهو الّذي توعّد به في قوله: ﴿ ويحذّركم الله نفسه ﴾ بقوله تعالى: ﴿ اليوم يئس الّذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشونِ ﴾ [٥] فبيّن فيه أنّ الّذي

---

(١) آل عمران: ٢٨ و٣٠.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) هود: ١١٢.

(٤) هود: ١١٣.

(٥) المائدة: ٣.

كان يخشاه المؤمنون على دينهم من الّذين كفروا وهم المشركون وأهل الكتاب ـ كما تبيّن سابقاً ـ إلىٰ يوم نزول الآية فهم اليوم في أمنٍ منه فلا ينبغي لهم أن يخشّوهم فيه بل يجب عليهم أن يخشوا فيه ربّهم، والّذي كانوا يخشَونهم فيه على دينهم هو أنّ الكفّار لم يكن لهم هم فيهم إلّا إطفاء نور الدين وسلب هذه السلعة النفيسة من أيديهم بأيّ وسيلة قدروا عليها.

فهذا هو الّذي كانوا يخشَونه قبل اليوم، وبنزول سورة المائدة أمنوا ذلك واطمأنّت أنفسهم، غير أنه يجب عليهم أن يخشَوا في ذلك ربّهم أن لا يُذهب بنورهم ولا يُسلبهم دينه.

ومن المعلوم أنّ الله سبحانه لا يفاجئ قوماً بنقمةٍ أو عذابٍ من غير أن يستحقّوه، قال تعالى: ﴿ *ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعمةً أَنعَمَها عَلَى قَومٍ حتّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِم* ﴾ [1] فبيّن أن تغييره النعمة لا يكون إلّا عن استحقاق، وأنه يتبع تغيير الناس ما بأنفسهم، وقد سمّى الدين أو الولاية الدينية كما تقدّم نعمة حيث قال بعده: ﴿ *اليومَ أكمَلتُ لَكُم دِينَكُم وأتممتُ عَليكُم نِعمتي وَرَضِيتُ لَكُم الإسلامَ دِيناً* ﴾ [2].

فتغيير هذه النعمة من قِبلهم والتخطّي عن ولاية الله بقطع الرابطة منه والركون إلى الظالمين وولاية الكفّار وأهل الكتاب هو المتوقّع منهم، والواجب عليهم أن يخشّوه على أنفسهم فيخشَوا الله في سخط لا رادّ له، وقد أوعدهم فيه بقوله: ﴿ *ومن يتولّهم منكم فإنّه منهم إنّ الله لا يهدي القوم الظالمين* ﴾ فأخبر أنّه لا يهديهم إلىٰ سعادتهم فهي الّتي تتعلّق بها الهداية، وسعادتهم في

---

(١) الأنفال: ٥٣.

(٢) المائدة: ٣.

الدنيا إنّما هي أن يعيشوا على سنّة الدين والسيرة العامّة الإسلامية في مجتمعهم.

وإذا انهدمت بُنية هذه السيرة اختلّت مظاهرها الحافظة لمعناها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسقطت شعائره العامّة، وحلّت محلّها سيرة الكفّار ولم يزل تستحكم أركانها وتستثبت قواعدها، وهذا هو الّذي عليه مجتمع المسلمين اليوم.

ظهور وقوع الانحراف في المجتمع الإسلامي:

ولو تدبّرت في السيرة الإسلامية العامّة الّتي ينظّمها الكتاب والسنّة ويقرّرانها بين المسلمين ثمّ في هذه السيرة الفاسدة الّتي حُملت اليوم على المسلمين ثمّ تدبّرت في ما يشير إليه بقوله: ﴿ *فسوف يأتي الله بقوم يحبّهم ويحبّونه أذلّةٍ على المؤمنين أعزّةٍ على الكافرين يجاهدون في سبيل الله لا يخافون لومة لائم* ﴾ وجدت أنّ جميع الرذائل الّتي تحيط بمجتمعنا معاشر المسلمين وتحكم فينا اليوم ـ ممّا اقتبسناها من الكفّار ثمّ نمت ونسلت فينا ـ إنّما هي أضداد ما ذكره الله في وصف من وعد بالإتيان به في الآية، أعني أنّ جميع رذائلنا الفعلية تتلخّص في أنّ المجتمع اليوم لا يحبّون الله ولا يحبّهم الله، أذلّةٍ على الكافرين أعزّةٍ على المؤمنين، لا يجاهدون في سبيل الله، يخافون كلّ لومة.

وهذا هو الّذي تفرّسه القرآن في وجه القوم، وإن شئت فقل: هو النبأ الغيبي الّذي نبّأ به العليم الخبير أنّ المجتمع الإسلامي سيرتدّ عن دينه، وليست ردّة مصطلحة وإنّما هي ردّة تنزيلية يبيّنها قوله تعالى: ﴿ *ومن يتولّهم منكم فإنه منهم إنّ الله لا يهدي القوم الظالمين* ﴾ وقوله: ﴿ *وَلَو كَانُوا يُؤمِنُونَ بِالله وَالنبيّ وَمَا*

أنزل إليه ما اتّخذوهم أولياء وَلكنّ كثيراً مِنهم فَاسِقُون ﴾ (١).

وقد وعدهم الله النصر إن نصروه، وتضعيف أعدائهم إن لم يقوّوهم ويؤيّدوهم فقال: ﴿ *إن تنصروا الله ينصركم* ﴾ (٢)، وقال: ﴿ *وَلو آمنَ أهلُ الكِتَابِ لَكانَ خَيراً لَهم مِنهُمُ المُؤمِنوُن وَأكثَرُهُمُ الفَاسِقُون * لَن يَضُرُّوكُم إلّا أذىً وإن يُقاتِلُوكُم يُولّوكُم الأدبَارَ ثُمّ لا يُنصرُون * ضُرِبَت عليهمُ الذِلّةُ أينما ثُقِفُوا إلّا بِحبلٍ مِن اللهِ وَحَبلٍ مِنَ النَّاسِ* ﴾ (٣) وليس من البعيد أن يستفاد من قوله: ﴿ *إلّا بحبل من الله وحبل من الناس* ﴾ أنّ لهم أن يخرجوا من الذلّة والمسكنة بموالاة الناس لهم وتسليط الله تعالى إيّاهم على الناس.

ثمّ وعد الله سبحانه المجتمع الإسلامي ـ وشأنهم هذا الشأن ـ بالإتيان بقومٍ يحبّهم ويحبّونه أذلّةٍ على المؤمنين أعزّةٍ على الكافرين يجاهدون في سبيل الله لا يخافون لومة لائم، والأوصاف المعدودة لهم ـ كما عرفت ـ جماع الأوصاف الّتي يفقدها المجتمع الإسلامي اليوم، ويستفاد بالإمعان في التدبر فيها تفاصيل الرذائل الّتي تنبئ الآية أنّ المجتمع الإسلامي سيبتلي بها.

الأحاديث الشريفة تصف مظاهر الردة:

وقد اشتملت على تعدادها عدّة من أخبار ملاحم آخر الزمان المروية عن النبيّ ﷺ والأئمّة من أهل بيته ﵈، وهي على كثرتها ومن حيث المجموع وإن كانت لا تسلم من آفة الدسّ والتحريف إلّا أنّ بينها أخباراً يصدقها جريان الحوادث وتوالي الوقائع الخارجية، وهي أخبار مأخوذة من كتب القدماء

(١) المائدة: ٨١.

(٢) محمّد: ٧.

(٣) آل عمران: ١١٠ ـ ١١٢.

المؤلّفة قبل ما يزيد على ألف سنة من هذا التأريخ أو قريباً منه، وقد صحّت نسبتها إلىٰ مؤلّفيها وتظافر النقل عنها.

على أنها تنطق عن حوادث ووقائع لم تحدث ولم تقع في تلك الآونة ولا كانت مترقبة تتوقّعها النفوس الّتي كانت تعيش في تلك الأزمنة، فلا يسعنا إلّا الاعتراف بصحّتها وصدورها عن منبع الوحي.

كما رواه القمّي في تفسيره عن أبيه عن سليمان بن مسلم الخشّاب عن عبد الله بن جريح المكّي عن عطاء بن أبي رياح عن عبد الله بن عبّاس قال: حججنا مع رسول الله ﷺ حجّة الوداع فأخذ باب الكعبة ثمّ أقبل علينا بوجهه فقال: ألا أُخبركم بأشراط الساعة؟ وكان أدنى الناس منه يومئذٍ سلمان عليه السلام فقال: بلى يارسول الله.

فقال ﷺ: إنّ من أشراط القيامة إضاعة الصلاة، واتّباع الشهوات، والميل مع الأهواء، وتعظيم المال، وبيع الدين بالدنيا، فعندها يذاب قلب المؤمن وجوفه كما يذوب الملح في الماء ممّا يرى من المنكر فلا يستطيع أن يغيّره.

قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يارسول الله؟! قال ﷺ: أي والّذي نفسي بيده ياسلمان، إنّ عندها يليهم أُمراء جورة ووزراء فسقة وعرفاء ظَلَمة وأُمناء خونة.

فقال سلمان: وإنّ هذا لكائن يارسول الله؟! قال ﷺ: إي والّذي نفسي بيده ياسلمان، إنّ عندها يكون المنكر معروفاً والمعروف منكراً، وائتمن الخائن، ويخون الأمين، ويصدّق الكاذب، ويكذّب الصادق.

قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يارسول الله؟! قال ﷺ: إي والّذي نفسي بيده ياسلمان، فعندها إمارة النساء، ومشاورة الإماء، وقعود الصبيان على المنابر، ويكون الكذب طرفاً، والزكاة مغرماً، والفيء مغنماً، ويجفو الرجل والديه، ويبرّ صديقه، ويطلع الكوكب المذنب.

قال سلمان : وإنّ هذا لكائن يارسول الله ؟! قال ﷺ : إي والّذي نفسي بيده ياسلمان، وعندها تشارك المرأة زوجها في التجارة، ويكون المطر قيظاً، ويغيظ الكرام غيظاً، ويُحتقر الرجل المعسر، فعندها يقارب الأسواق إذا قال هذا : لم أبع شيئاً، وقال هذا : لم أربح شيئاً فلا ترى إلّا ذامّاً لله.

قال سلمان : وإنّ هذا لكائن يارسول الله ؟! قال ﷺ : إي والّذي نفسي بيده ياسلمان، فعندها يليهم أقوام إن تكلّموا قتلوهم، وإن سكتوا استباحوهم، ليستأثروا بفيئهم وليطؤوا حرمتهم، وليسفكن دماءهم، وليملؤون قلوبهم رعباً، فلا تراهم إلّا وجلين خائفين مرعوبين مرهوبين.

قال سلمان : وإنّ هذا لكائن يارسول الله ؟! قال ﷺ : إي والّذي نفسي بيده ياسلمان، إنّ عندها يؤتى بشيء من المشرق وشيء من المغرب يلون أُمّتي، فالويل لضعفاء أُمتي منهم، والويل لهم من الله، لا يرحمون صغيراً، ولا يوقرون كبيراً، ولا يتجاوزون عن مسيء، أخبارهم خناء، جثّتهم جثّة الآدميّين، وقلوبهم قلوب الشياطين.

قال سلمان : وإنّ هذا لكائن يارسول الله ؟! قال ﷺ : إي والّذي نفسي بيده ياسلمان، وعندها يكتفي الرجال بالرجال والنساء بالنساء، ويغار على الغلمان كما يغار على الجارية في بيت أهلها، وتشبّه الرجال بالنساء والنساء بالرجال، ويركبْن ذوات الفروج السروج، فعليهن من أُمّتي لعنة الله.

قال سلمان : وإنّ هذا لكائن يارسول الله ؟! فقال ﷺ : إي والّذي نفسي بيده ياسلمان، إنّ عندها تزخرف المساجد كما تزخرف البِيَع والكنائس، وتحلّى المصاحف، وتطول المنارات، وتكثر الصفوف بقلوب متباغضة وألسنٍ مختلفة.

قال سلمان : وإنّ هذا لكائن يارسول الله ؟! قال ﷺ : إي والّذي نفسي بيده

ياسلمان، وعندها تحلّى ذكور أُمّتي بالذهب، ويلبسون الحرير والديباج، ويتّخذون جلود النمور صفاقاً.

قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يارسول الله ؟! قال ﷺ: إي والّذي نفسي بيده ياسلمان، وعندها يظهر الربا، ويتعاملون بالغيبة والرشى، ويوضع الدين ويرفع الدنيا.

قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يارسول الله ؟! قال ﷺ: إي والّذي نفسي بيده ياسلمان، وعندها يكثر الطلاق فلا يقام لله حدّ، ولن يضرّ الله شيئاً.

قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يارسول الله ؟! قال ﷺ: إي والّذي نفسي بيده ياسلمان، وعندها تظهر القينات والمعازف، ويليهم أشرار أُمّتي.

قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يارسول الله ؟! قال ﷺ: إي والّذي نفسي بيده ياسلمان، وعندها يحجّ أغنياء أُمّتي للنزهة، ويحجّ أوساطها لتجارة، ويحجّ فقراؤهم للرثاء والسمعة، فعندها يكون أقوام يتعلّمون القرآن لغير الله ويتّخذونه مزامير، ويكون أقوام يتفقّهون لغير الله، ويكثر أولاد الزنا، ويتغنّون بالقرآن، ويتهافتون بالدنيا.

قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يارسول الله ؟! قال ﷺ: إي والّذي نفسي بيده ياسلمان، ذاك إذا انتهكت المحارم، واكتُسبت المآثم، وسُلّط الأشرار على الأخيار، ويفشو الكذب، وتظهر اللجاجة، وتفشو الفاقة، ويتباهون في اللباس، ويُمطرون في غير أوان المطر، ويستحسنون الكوبة والمعازف، ويُنكرون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتّى يكون المؤمن في ذلك الزمان أذل من في الأُمّة، ويظهر قرّاؤهم وعبّادهم فيما بينهم التلاؤم، فأُولئك يُدعون في ملكوت السماوات: الأرجاس والأنجاس.

قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يارسول الله ؟! قال ﷺ: إي والّذي نفسي بيده

ياسلمان، فعندها لا يخشى الغني إلّا الفقر، حتّى أنّ السائل ليسأل فيما بين الجمعتين لا يصيب أحداً يضع في يده شيئاً.

قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يارسول الله؟! قال ﷺ: إي والّذي نفسي بيده ياسلمان، عندها يتكلّم الرويبضة، فقال: وما الرويبضة يارسول الله فداك أبي وأمّي؟ قال ﷺ: يتكلّم في أمر العامّة من لم يكن يتكلّم، فلم يلبثوا إلّا قليلاً حتّىٰ تخور الأرض خورة، فلا يظنّ كلّ قوم إلّا أنّها خارت في ناحيتهم، فيمكثون ما شاء الله، ثمّ ينكتون في مكثهم فتلقي لهم الأرض أفلاذ كبدها، قال: ذهب وفضّة، ثمّ أومأ بيده إلى الأساطين فقال: مثل هذا فيومئذٍ لا ينفع ذهب ولا فضّة، فهذا معنى قوله: ﴿*فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا*﴾[1].

وفي روضة الكافي عن محمّد بن يحيى عن أحمد بن محمّد عن بعض أصحابه، وعلي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير جميعاً عن محمّد بن أبي حمزة عن حمران قال: قال أبو عبد الله عليه السلام ـ وذكر هؤلاء عنده وسوء حال الشيعة عندهم فقال ـ: إنّي سرت مع أبي جعفر المنصور وهو في موكبه، وهو على فرس وبين يديه خيل، ومن خلفه خيل، وأنا على حمار إلىٰ جانبه، فقال لي: ياأبا عبد الله قد كان ينبغي لك أن تفرح بما أعطانا الله من القوّة وفتح لنا من العزّ، ولا تخبر الناس أنك أحقّ بهذا الأمر منّا وأهل بيتك فتغرينا بك وبهم.

قال: فقلت: ومن رفع هذا إليك عنّي فقد كذب، فقال لي: أتحلف على ما تقول؟ قال: فقلت: إنّ الناس سحرة يعني يحبّون أن يفسدوا قلبك عليّ فلا تمكّنهم من سمعك فإنّا إليك أحوج منك إلينا، فقال لي: تذكر يوم سألتك، هل لنا ملك؟ فقلت: نعم طويل عريض شديد فلا تزالون في مهلة من أمركم،

(١) محمّد: ١٨.

وفسحة من دنياكم حتّىٰ تصيبوا منّا دماً حراماً في شهرٍ حرام في بلدٍ حرام؟ فعرفت أنّه قد حفظ الحديث فقلت: لعلّ الله عزّوجلّ أن يكفيك فإنّي لم أخصّك بهذا وإنّما هو حديثٌ رويته، ثمّ لعلّ غيرك من أهل بيتك أن يتولّى ذلك، فسكت عنّي.

فلمّا رجعت إلىٰ منزلي أتاني بعض موالينا فقال: جعلت فداك والله لقد رأيتك في موكب أبي جعفر، وأنت على حمار وهو على فرس، وقد أشرف عليك يكلّمك كأنّك تحته، فقلت بيني وبين نفسي: هذا حجّة الله على الخلق وصاحب هذا الأمر الّذي يُقتدى به، وهذا الآخر يعمل بالجور ويقتل أولاد الأنبياء ويسفك الدماء في الأرض بما لا يحبّ الله، وهو في موكبه وأنت على حمار! فدخلني من ذلك شكّ حتّىٰ خفت على ديني ونفسي.

قال عليه السلام: فقلت: لو رأيت مَن كان حولي وبين يديّ ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي من الملائكة لاحتقرته واحتقرت ما هو فيه، فقال: الآن سكن قلبي.

ثمّ قال: إلىٰ متى هؤلاء يملكون أو متى الراحة منهم؟ فقلت: أليس تعلم أنّ لكلّ شيءٍ مدّة؟ قال: بلى، فقلت: هل ينفعك علمك أنّ هذا الأمر إذا جاء كان أسرع من طرفة العين؟ إنك لو تعلم حالهم عند الله عزّوجلّ وكيف هي كنت لهم أشدّ بغضاً، ولو جهدت وجهد أهل الأرض أن يدخلوهم في أشدّ ما هم فيه من الإثم لم يقدروا، فلا يستفزّنك الشيطان، فإنّ العزّة لله ولرسوله وللمؤمنين ولكنّ المنافقين لا يعلمون. ألا تعلم أنّ من انتظر أمرنا وصبر على ما يرى من الأذى والخوف هو غداً في زمرتنا؟ فإذا رأيت الحقّ قد مات وذهب أهله ورأيت الجور قد شمل البلاد ورأيت القرآن قد خلق وأُحدث فيه ما ليس فيه

ووجّه على الأهواء، ورأيت الدين قد انكفى كما ينكفي (الإناء ـ خ ل) ورأيت أهل الباطل قد استعلّوا على أهل الحقّ، ورأيت الشرّ ظاهراً لا يُنهىٰ عنه ويُعذر أصحابه، ورأيت الفسق قد ظهر، واكتفى الرجال بالرجال والنساء بالنساء، ورأيت المؤمن صامتاً لا يُقبل قوله، ورأيت الفاسق يكذب ولا يُردّ عليه كذبه وفريته، ورأيت الصغير يستحقر بالكبير، ورأيت الأرحام قد تقطّعت، ورأيت من يمتدح بالفسق يُضحك منه ولا يُردّ عليه قوله، ورأيت الغلام يعطي ما تعطي المرأة[1]، ورأيت النساء يتزوّجن بالنساء، ورأيت الثناء قد كثر، ورأيت الرجل ينفق المال في غير طاعة الله فلا يُنهى ولا يؤخذ على يديه، ورأيت الناظر يتعوّذ بالله ممّا يرى المؤمن فيه من الاجتهاد، ورأيت الجار يؤذي جاره وليس له مانع، ورأيت الكافر فرحاً لما يرى في المؤمن، مرحاً لما يرى في الأرض من الفساد، ورأيت الخمور تُشرب علانية ويجتمع عليها من لا يخاف الله عزّوجلّ، ورأيت الآمر بالمعروف ذليلاً، ورأيت الفاسق فيما لا يحبّ الله قوياً محموداً، ورأيت أصحاب الآيات يُحقَّرون ويُحقّر من يحبّهم، ورأيت سبيل الخير منقطعاً، وسبيل الشرّ مسلوكاً، ورأيت بيت الله قد عطّل ويؤمر بتركه، ورأيت الرجل يقول ما لا يفعله، ورأيت الرجال يتمنّون للرجال والنساء للنساء، ورأيت الرجل معيشته من دبره ومعيشة المرأة من فرجها، ورأيت النساء يتّخذن المجالس كما يتّخذها الرجال، ورأيت التأنيث في ولد العبّاس قد ظهر، وأظهروا الخضاب، وامتشطوا كما تمتشط المرأة لزوجها، وأعطوا الرجال الأموال على فروجهم، وتنوفس في الرجل، وتغاير عليه الرجال، وكان صاحب المال أعز من المؤمن، وكان الربا ظاهراً لا يعير،

---

(١) أي يُنكح كما تُنكح.

وكان الزنا تمتدح به النساء، ورأيت المرأة تصانع زوجها على نكاح الرجال، ورأيت أكثر الناس وخير بيت من يساعد النساء على فسقهنّ، ورأيت المؤمن محزوناً محتَقراً ذليلاً، ورأيت البدع والزنا قد ظهر، ورأيت الناس يعتدون بشاهد الزور، ورأيت الحرام يحلّل، والحلال يحرّم، ورأيت الدين بالرأي، وعطّل الكتاب وأحكامه، ورأيت الليل لا يستخفى به من الجرأة على الله، ورأيت المؤمن لا يستطيع أن ينكر إلّا بقلبه، ورأيت العظيم من المال ينفق في سخط الله عزّوجلّ، ورأيت الولاة يقرّبون أهل الكفر ويباعدون أهل الخير، ورأيت الولاة يرتشون في الحكم، ورأيت الولاية قبالةً لمن زاد، ورأيت ذوات الأرحام ينكحن ويُكتفى بهنّ، ورأيت الرجل يُقتل على التهمة وعلى الظنة، ويتغاير على الرجل الذكر فيبذل له نفسه وماله، ورأيت الرجل يعيّر على إتيان النساء، ورأيت الرجل يأكل من كسب امرأته من الفجور، يعلم ذلك ويقيم عليه، ورأيت المرأة تقهر زوجها وتعمل ما لا يشتهي وتنفق على زوجها، ورأيت الرجل يكري امرأته وجاريته ويرضى بالدنيء من الطعام والشراب، ورأيت الإيمان بالله عزّوجلّ كثيرة على الزور، ورأيت القمار قد ظهر، ورأيت الشراب يباع ظاهراً ليس له مانع، ورأيت النساء يبذلن أنفسهن لأهل الكفر، ورأيت الملاهي قد ظهرت يُمرّ بها لا يمنعها أحد أحداً ولا يجترئ أحد على منعها، ورأيت الشريف يستذلّه الّذي يخاف سلطانه، ورأيت أقرب الناس من الولاة من يمتدح بشتمنا أهل البيت، ورأيت من يحبّنا يُزوَّر ولا تُقبل شهادته، ورأيت الزور من القول يُتنافس فيه، ورأيت القرآن قد ثقل على الناس استماعه وخفّ على الناس استماع الباطل، ورأيت الجار يكرم الجار خوفاً من لسانه، ورأيت الحدود قد عطّلت وعُمل فيها بالأهواء، ورأيت

المساجد قد زُخرفت، ورأيت أصدق الناس عند الناس المفتري الكذب، ورأيت الشرّ قد ظهر والسعي بالنميمة، ورأيت البغي قد فشي، ورأيت الغَيبة تُستملَح ويبشّر بها الناس بعضهم بعضاً، ورأيت طلب الحجّ والجهاد لغير الله، ورأيت السلطان يُذلّ للكافر المؤمن، ورأيت الخراب قد أديل من العمران، ورأيت الرجل معيشته من بخس المكيال والميزان، ورأيت سفك الدماء يُستخفّ بها، ورأيت الرجل يطلب الرئاسة لغرض الدنيا، ويشهر نفسه بخبث اللسان ليتّقى وتستند إليه الأُمور، ورأيت الصلاة قد استُخفّ بها، ورأيت الرجل عنده المال الكثير لم يزكّه منذ ملكه، ورأيت الميّت يُنبش من قبره ويؤذىٰ وتُباع أكفانه، ورأيت الهرج قد كثر، ورأيت الرجل يمسي نشوان ويصبح سكران، لا يهتمّ بما الناس فيه، ورأيت البهائم تُنكح، ورأيت البهائم تفرس بعضها بعضاً، ورأيت الرجل يخرج إلىٰ مصلّاه ويرجع وليس عليه شيء من ثيابه، ورأيت قلوب الناس قد قست وجمدت أعينهم وثقل الذكر عليهم، ورأيت السحت قد ظهر يُتنافس فيه، ورأيت المصلّي إنّما يصلّي ليراه الناس، ورأيت الفقيه يتفقّه لغير الدين يطلب الدنيا والرئاسة، ورأيت الناس مع من غلب، ورأيت طالب الحلال يُذمّ ويُعيّر وطالب الحرام يُمدح ويُعظّم، ورأيت الحرمين يُعمل فيها بما لا يحبّ الله، لا يمنعهم مانع ولا يحول بينهم وبين العمل القبيح أحد، ورأيت المعازف ظاهرة في الحرمين، ورأيت الرجل يتكلّم بشيءٍ من الحقّ ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيقوم إليه من ينصحه في نفسه فيقول: هذا عنك موضوع، ورأيت الناس ينظر بعضهم إلىٰ بعض ويقتدون بأهل الشرّ، ورأيت مسلك الخير وطريقه خالياً لا يسلكه أحد، ورأيت الميّت يُهزأ به فلا يفزع له أحد، ورأيت كلّ عامّ يحدث فيه من البدعة

والشرّ أكثر ممّا كان ، ورأيت الخلق والمجالس لا يتابعون إلّا الأغنياء ، ورأيت المحتاج يُعطى على الضحك به ويُرحم لغير وجه الله ، ورأيت الآيات في السماء لا يفزع لها أحد ، ورأيت الناس يتسافدون كما تتسافد البهائم ، لا ينكر أحد منكراً تخوّفاً من الناس ، ورأيت الرجل ينفق الكثير في غير طاعة الله ، ويمنع اليسير في طاعة الله ، ورأيت العقوق قد ظهر واستُخفّ بالوالدين ، وكانا من أسوأ الناس حالاً عند الولد ، ويفرح بأن يُفترى عليهما ، ورأيت النساء وقد غَلبن على الملك وغَلبن على كلّ أمر لا يؤتىٰ إلّا ما لهنّ فيه هوىٰ ، ورأيت ابن الرجل يفتري على أبيه ويدعو علىٰ والديه ويفرح بموتهما ، ورأيت الرجل إذا مرّ به يوم ولم يكسب فيه الذنب العظيم من فجور أو بخس مكيال أو ميزان أو غشيان حرام أو شرب مسكر كئيباً حزيناً يحسب أنّ ذلك اليوم عليه وضيعة من عمره ، ورأيت السلطان يحتكر الطعام ، ورأيت أموال ذوي القربى تُقسم في الزور ويُتقامر بها وتُشرب بها الخمور ، ورأيت الخمر يُتداوى بها ويوصَف للمريض ويُستشفى بها ، ورأيت الناس قد استووا في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وترك التديّن به ، ورأيت رياح المنافقين وأهل النفاق قائمة ورياح أهل الحقّ لا تحرّك ، ورأيت الأذان بالأجر والصلاة بالأجر ، ورأيت المساجد محتشية ممّن لا يخاف اللهُ ، مجتمعون فيها للغيبة وأكل لحوم أهل الحقّ ويتواصفون فيها شراب المسكر ، ورأيت السكران يصلّي بالناس وهو لا يعقل ولا يُشان بالسكر ، وإذا سكر أُكرم واتّقي وخيف وتُرِك لا يُعاقب ويُعذر بسكره ، ورأيت من أكل أموال اليتامى يُحمد بصلاحه ، ورأيت القضاة يقضون بخلاف ما أمر الله ، ورأيت الولاة يأتمنون الخونة للطمع ، ورأيت الميراث قد وضعته الولاة لأهل الفسوق والجرأة على الله ،

يأخذون منهم ويخلّونهم وما يشتهون، ورأيت المنابر يؤمر عليها بالتقوى ولا يعمل القائل بما يأمر، ورأيت الصلاة قد استُخفّ بأوقاتها، ورأيت الصدقة بالشفاعة لا يُراد بها وجه الله ويُعطى لطلب الناس، ورأيت الناس همّهم بطونهم وفروجهم لا يُبالون بما أكلوا وما نكحوا، ورأيت الدنيا مقبلة عليهم، ورأيت أعلام الحق قد دَرست فكن على حذر، واطلب إلى الله عزّوجلّ النجاة، واعلم أنّ الناس في سخط الله عزّوجلّ وإنّما يمهلهم لأمر يُراد بهم، فكن مترقّباً واجتهد ليراك الله عزّوجلّ في خلاف ما هم عليه، فإن نزل بهمُ العذاب وكنت فيهم عَجِلت إلىٰ رحمة الله، وإن أُخّرت إبتلوا وكنت قد خرجت ممّا هم فيه من الجرأة على الله عزّوجلّ، واعلم أنّ الله لا يُضيع أجر المحسنين، وأنّ رحمة الله قريبٌ من المحسنين.

أقول: وهناك أخبار مأثورة عن النبيّ والأئمة من أهل بيته عليهم الصلاة والسلام كثيرة في هذه المعاني، وما نقلناه من الحديثين من أجمعها معنى، والأحاديث (أخبار آخر الزمان) كالتفصيل لما يدلّ عليه الآية الكريمة، أعني قوله تعالى: ﴿ *يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا مَن يرتدّ مِنكُم عَن دِينِهِ فَسوفَ يأتي اللهُ بِقَومٍ يحبُّهم ويحبُّونَه أذِلّةٍ على المُؤمنين أعِزّةٍ عَلَى الكَافِرِين يُجاهِدُون في سبيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُون لَومةَ لَائِم...إلخ* ﴾ والله أعلم[1].

تفسير أحد علماء السنّة لآيات الردّة عن الدين:

قبل أن نعمد إلىٰ تلخيص دلالات هذا المقطع القرآني طبق التفسير الاستدلالي المتقدّم ننقل هنا خلاصة تفسير آخر لهذا المقطع القرآني نفسه

(١) تفسير الميزان: ٥ / ٣٦٦ ـ ٤٠٠.

لأحد علماء أهل السنّة هو فضيلة الشيخ أسعد بيوض التميمي من علماء فلسطين ومن مؤسّسي حزب التحرير الّذي بقي فيه ستّ سنين [١]، وقد أورد هذا التفسير ضمن بحثٍ مفصّل في كتاب «زوال إسرائيل حتمية قرآنية» عن هذه الآيات فهي قرابة الستّين صفحة[٢]، ثمّ لخّصه في نقاط فيقول في تلخيصه :

١ـ تحدّث الآيات عن ولاء بين اليهود والنصارى. والواقع التأريخي يشير إلى أنّ العداوة بين اليهود والنصارى قائمة منذ أن اتّهم النصارى اليهود بصلب المسيح حسب زعمهم، فلم توجد دولة نصرانية إلّا وعذّبت اليهود، فكيف يمكن التوفيق بين الواقع التأريخي وبين ما أشارت إليه آيات القرآن الأُخرى من العداوة بين اليهود والنصارى كقوله تعالى : ﴿ *يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أنصارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى بنُ مَريَم للحوارِيّين مَن أنصاري إلى اللهِ قَالَ الحَوارِيُّونَ نَحنُ أنصارُ اللهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِن بَني إسرَائِيلَ* [أصبحت نصرانية] *وَكَفَرتْ طَائِفَة* [بقيت على يهوديتها] *فَأيّدنَا الّذِينَ آمَنُوا* [النصارى] *عَلَى عَدوِّهِم* [اليهود] *فَأصبَحُوا ظَاهِرِين* ﴾ [٣] [٤]

---

(١) من مقدّمة كتاب «زوال إسرائيل حتمية قرآنية»: ٢٥، الطبعة الثانية جمادى الأُولىٰ ١٤٠٩ للهجرة.

(٢) من صفحة ٤٧ ـ ١٠٩.

(٣) الصفّ: ١٤.

(٤) استعرض الشيخ علاقة اليهود بالنصارىٰ تأريخياً وعلىٰ ضوء الآيات الكريمة لإثبات ما ذهب إليه من تحكّم العداء فيها علىٰ مرّ التأريخ، ليستنتج أنّ آيات سورة المائدة تتحدّث عن واقع مستقبلي حدّده في بدايات القرن العشرين الميلادي أي مع ظهور اتّفاق كلمة اليهود والنصارىٰ علىٰ محاربة الدولة العثمانية وزرع الكيان الإفسادي الصهيوني في فلسطين. راجع استعراض ذلك في كتابه المذكور : ٤٧ ـ ٦٥.

←

٢ـ بعض المفسّرين حينما رأوا الواقع التأريخي والآيات الأُخرى يشيران إلى العداوة بين اليهود والنصارى وليس الولاء قالوا: إنّ المراد بقوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ (١) أنّ كلّ فئة موالية لبعضها البعض، وليس الولاء بين اليهود والنصارى مجتمعين! وهذا قول مردود حيث إنّ آيات القرآن تشير إلىٰ عكس ذلك، فيقول الله: ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (٢) وكذلك اليهود ليس بعضهم أولياء بعض، الله يقول: ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ (٣)، ويقول: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ (٤). والعداوة بين شقّي اليهود الرئيسيّين السفارديم والأشكناز مشهورة معروفة، وكذلك العداوة بين أحزابهم المختلفة غير خفية.

إذن، تبيّن أنّ المراد بالولاء بين اليهود والنصارى ليس ولاءً دائمياً وإنّما هو لفترة محدودة بدأ بأوّل القرن العشرين حيث تعاون اليهود والنصارى على

← ويمكن الجمع بين هذا التفسير وبين ما ذهب إليه العلّامة الطباطبائي من أنّ ولاية بعضهم لبعض تعني اتّحاد كلمتهم علىٰ محاربة الإسلام منذ ظهوره وبين رأي الشيخ أسعد بيوض بأنّ تحرّك اليهود والنصارىٰ ضدّ الدولة العثمانية وإقامة دولة إسرائيل في فلسطين يمثّل أبرز وأخطر مصاديق هذا التحالف، واتّفاق كلمة اليهود والنصارىٰ علىٰ الوجود الإسلامي.

(١) المائدة: ٥١.

(٢) المائدة: ١٤.

(٣) الحشر: ١٤.

(٤) المائدة: ٦٤.

عزل السلطان عبد الحميد حينما رفض أن يعطي امتيازات لليهود في فلسطين، ثمّ جاءت بريطانيا النصرانية فأعطت وعد بلفور، ثمّ جاءت عصبة الأمم النصرانية فأعطت صكّ الانتداب على فلسطين لبريطانيا النصرانية، ثمّ عيّنت بريطانيا النصرانية أوّل مندوبٍ سامٍ لها في فلسطين ـ هربرت صموئيل ـ وهو يهودي وضع الأُسس لقيام دولة يهودية في فلسطين لسنّه القوانين والتشريعات وفرضه الضرائب... إلخ، ثمّ جاءت هيئة الأُمم النصرانية فأعطت قرار قيام دولة اليهود سنة ١٩٤٧ (قرار التقسيم). وفي سنة ١٩٥٦ تعاونت جيوش يهودية ونصرانية ـ لأوّل مرّة في التأريخ في العدوان الثلاثي على مصر المسلمة. وفي الستّينات قرّر المجمع المسكوني للبطاركة الكاثوليك برئاسة البابا يوحنّا الثالث والعشرين تبرئة اليهودية من دم المسيح، حسب زعمهم. وكذلك فعل سلفه البابا بولس السادس. وقد أخذ التعاون شكله الجليّ الواضح بين اليهود والنصارى بقتال النصارى الموارنة مع اليهود في خندقٍ واحد ضدّ المسلمين الفلسطينيّين واللبنانيين في لبنان وتعاون أحزاب «الكتائب» برئاسة بيار الجميل و «الوطنيّين الأحرار» برئاسة كميل شمعون وميليشيات «الرهبنات اللبنانية» برئاسة الأب شربل قسيس مع اليهود وبشكلٍ علني، وكذلك انضمام فئة من الجيش اللبناني الماروني إلىٰ قوات اليهود في جنوب لبنان برئاسة الرائد الماروني النصراني سعد حدّاد، ثمّ اللواء أنطوان لحد بشكل يقطع ـ جهيرة ـ كلّ داعٍ إلى القومية العربية المحركة من الإسلام حيث انهارت القوميات النظرية العلمانية والّتي تدعو إلى العروبة مع الاشتراكية والشيوعية.

٣ـ تتحدّث الآيات على أنّ الّذين يوالون اليهود والنصارى هم ضدّ أُمتهم

وارتدّوا عن الإسلام وأصبحوا من اليهود والنصارى[١].

٤ـ تشير الآيات إلى أنّ هذه الفئات المرتدّة الّتي تتعاون مع اليهود والنصارى ضدّ أُمتها تكون عادةً من أصحاب النفوذ والسلطان، لأنّ الله يصفها بالظلم، والظلم والعدل يوصف به أصحاب النفوذ والسلطان عادةً[٢].

٥ـ تتحوّل هذه الفئات المرتدّة المتعاونة مع النصارى واليهود ضدّ أُمتها إلىٰ فئات مريضة القلب أي منافقة، فهي تظهر أمام الأُمّة بمظهر لا يدلّ على حقيقتها وتظهر أمام اليهود والنصارى بمظهرها الحقيقي.

٦ـ تسارع هذه الفئات المتعاونة مع اليهود والنصارى فتبذل كلّ جهدها في إرضائهم فتنفذ كلّ ما يطلب منها، فهي تعمل بقوانين اليهود والنصارىٰ، وهي تقتل الحركات الإسلامية، وهي تبيح كلّ ما حرّم الله، وهي تسلّم الأوطان، علّها تبقى في السلطة.

٧ـ إذا سألتَ هذه الفئات: لم تسارع في إرضاء اليهود والنصارىٰ، أجابتك: لأنها تخشى أن تصيبها دائرة، فهي تخشى علىٰ سلطانها ونفوذها وكراسيّها من اليهود والنصارىٰ، وفي هذا إشارة إلىٰ أنّ وقت تحقق معنىٰ هذه الآية تكون

---

(١) يبدو أنّ فضيلة الشيخ التميمي يحصر الموالاة بالنوع السياسي منها وفي ذلك تقييد للآية دونما مقيّد تشتمل عليه يسوغ هذا الحصر، فهذا النوع وإن كان أحد مصاديق الموالاة ـ ولعلّه أوضحها ـ لكنّ الآية مطلقة تشمل بالدرجة الأُولى التأثّر بطريقة حياة اليهود والنصارىٰ والتبعية لهم في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها، ومفهومٌ أنّ رواج هذا النمط من التبعية لليهود والنصارىٰ بين المسلمين هو الّذي فسح المجال لتسلّط الحكّام الموالين لليهود والنصارىٰ على البلدان الإسلامية.

(٢) وصف الظلم يطلق في الآيات الكريمة علىٰ كلّ مخالفة للأوامر الإلهيّة كما يتّضح من مراجعة الآيات الكريمة المستخدمة لهذه المفردة ومشتقّاتها. لذا لا يمكن الركون لوصف الموالين لليهود والنصارىٰ بالظلم في الآيات مورد البحث للاستدلال علىٰ أنّ المقصود هم المنافقون أو طبقة الحكّام بالخصوص.

السلطة في الأرض وخصوصاً في بلاد المسلمين لليهود والنصارى مجتمعين.

٨ـ حينما تصل هذه الصورة إلىٰ نهايتها وتأخذ حجمها الحقيقي يصيب الفئة المؤمنة نسبة مّا من التغيير.

٩ـ عندها يأخذ الله سبحانه وتعالى الأمر بحكمته فيعالجه معالجةً جذرية فيقول: ﴿ *فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ* ﴾[1] والفتح هنا الفصل والحكم، فهو سيفصل بين الفئة المؤمنة القليلة وبين اليهود والنصارى والمتعاونين معهم لأمرٍ هو يعلمه.

١٠ـ ولقد بدأت بوادر هذا الأمر تظهر في الانتفاضة العظيمة الّتي حدثت في إيران المسلمة والّتي أطاحت بالعمود الفقري لدولة اليهود وللأنظمة المتحالفة معها. وظهر قبل ذلك في شباب الأُمّة وشاباتها في إقبالهم نحو الإسلام.

١١ـ سيندم كلّ من تعاون مع اليهود والنصارىٰ ضدّ أُمّته في الحياة الدنيا قبل الآخرة كما ندم الشاه وأعوانه، كما سيندم الكثيرون يوم تمتدّ موجة الإسلام فتخلع كلّ باطل وتزلزل كلّ ظالم وتمحو السيّئ من الأرض، كما ندم السادات.

١٢ـ عندما يحدث ذلك ستتكشّف حقائق مرعبة وأُمور مذهلة وخفايا كثيرة لهؤلاء الّذين يواجهون الأُمّة بوجه وعدوّنا بوجهٍ آخر حتّىٰ تستغرب الأُمّة أو الفئة الّتي خُدعت: ﴿ *أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ* ﴾[2].

١٣ـ يحذّر الله الأُمّة[3] من أن ترتدّ فتتّبع اليهود والنصارىٰ والّذين فعلوا

---

(١) المائدة: ٥٢.

(٢) المائدة: ٥٣.

(٣) تعبير الشيخ التميمي هنا دقيق، فالتحذير هو لكلّ الأُمّة الإسلامية من موالاة اليهود ←

ذلك ويفعلون سيندمون على ما فعلوا فسوف يأتي الله بأحبابه. وأحباب الله هؤلاء هم الّذين يخلفون المرتدّين وهم أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين، والمرتدّون أذلّة على الكافرين أعزّة على المؤمنين والمرتدّون لا يريدون الجهاد وأحباب الله يجاهدون في سبيل الله، والمرتدّون يقولون: نخشى أنْ تصيبنا دائرة وأحباب الله لا تأخذهم في الله لومة لائم. هي صوَر متقابلة للقيادات المؤمنة وللقيادات المرتدّة.

١٤ـ حينما يأتي أحباب الله هؤلاء سيكونون موضع استغراب الناس كما حدث في إيران، فلم يكن أحد يتوقّع الّذي حدث بقيادة هذا العالم الجليل ـ الإمام الخميني ـ الّذي اقتلع الباطل من جذوره. فالله يجيب على هذا التساؤل والاستغراب: ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيم ﴾(١).

١٥ـ يأمرنا الله بأن لا نوالي اليهود والنصارىٰ، إذن نوالي مَن؟ يجيب الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ ورسولُه وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم رَاكِعُون ﴾(٢) بعد ذلك يختم الله بالنصر الأكيد: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَه وَالَّذِينَ آمَنُوا فإنّ حزبَ اللهِ هُمُ الغَالِبُون ﴾(٣)(٤).

← والنصارىٰ ومودّتهم لأنها تجرّ إلىٰ تبعيّتهم والتأثّر بطريقتهم في الحياة وابتغاء العزّة عندهم، فذلك يجرّهم بالتالي إلى الإعراض عن دينهم وعناصر العزّة الحقيقية الكامنة فيه، وهذا هو المعنىٰ المراد من الردّة في الآية الكريمة، وبالتالي خسارة وفقدان هويّتهم الإسلامية الّتي تشكّل عماد عزّهم ومجدهم.

(١) المائدة: ٥٤.

(٢) المائدة: ٥٥.

(٣) المائدة: ٥٦.

(٤) من الثابت أنّ هاتين الآيتين الكريمتين اللتين تعقبان الآيات الأربع مورد البحث مباشرةً نزلتا في النصّ علىٰ وجوب موالاة وصيّ الرسول ﷺ الإمام عليّ عليه السلام في حادثة تصدّقه بالخاتم في الركوع والّتي نزلت بشأنها الآية الكريمة، والحادثة مشهورة مروية من طرق ←

فإذا ربطنا آيات الإسراء المتعلّقة باليهود وآيات المائدة المتعلّقة باليهود والنصارىٰ وموالاتهم بالأحاديث الصحيحة الّتي وردت عن قتال اليهود والّتي رواها البخاري ومسلم وجدنا أنّ النصر حتميّ، وأنّ زوال دويلة اليهود حتميّ كذلك. وهذا نصّ ما رواه مسلم: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتّىٰ يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتّىٰ يقول الحجر والشجر: يامسلم، ياعبد الله، ورائي يهودي فتعال فاقتله، إلّا الغرقد فإنه من شجر اليهود». ورواية البخاري: قال رسول الله ﷺ: «تقاتلكم يهود فتسلّطون عليهم حتّىٰ يقول الحجر أو الشجر: يامسلم ورائي يهودي تعال فاقتله».

هذا كتاب الله ينطق بالحقّ وسنّة رسوله، ﷺ، توضّح الحقّ، ونحن اليوم في مرحلةٍ من مراحل التغيير في الأرض، حيث ينخلع الرداء المزيّف، نداء القوميات العلمانية والوطنيات الضيّقة والماسونية الحاقدة والرأسمالية المستغلّة والشيوعية الملحدة وعنعنات الجاهلية وسخافات الإقليمية، ونلبس رداءنا الّذي فصّله الله لنا والّذي خرجنا به يوماً إلى الدنيا فكنا خير أُمّة أخرجت للناس يسوسنا كتاب ربّنا وسنّة نبيّنا، عواصمنا عاصمة وراياتنا راية وجيوشنا جيش وحكّامنا حاكم هو خليفة رسول الله ﷺ في تطبيق الشرع.

تطلّ علينا أيّام فيها الخير ولكنّها ليست سهلة، حيث إنّ المعركة الأخيرة بيننا وبين اليهود في أرض الإسلام ستكون مريرة يشترك فيها المسلمون كلّ المسلمين، ولكنّ النصر فيها محتومٌ بإذن الله: ﴿ *وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ* ﴾[1]. أبشروا بيومٍ كيوم بدر ويوم القادسية ويوم اليرموك ويوم

← السنّة والشيعة، وقد فصّل العلّامة الطباطبائي الحديث عنها وعن تفسيرها ودلالاتها في بداية الجزء السادس من تفسيره الميزان، كما تناولها العلماء الأعلام في مباحث الإمامة من الكتب العقائدية، فراجع.

(١) الحجّ: ٤٠.

حطين : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيباً ﴾ (١)(٢).

خلاصة دلالات الآيات

نصل الآن إلىٰ تثبيت الدلالات الرئيسة المستفادة من هذه الآيات الكريمة، ثمّ نوضّح ما تهدي إليه فيما يرتبط بموضوع البحث ودور الإمام المهديّ عجّل الله فرجه في المسيرة الإسلامية :

تضييع عزّ الانتماء الإسلامي:

تتضمّن الآيات الكريمة نهياً مؤكّداً من موالاة اليهود والنصارىٰ وتحذيراً مشدّداً من خطورة عواقبها، وتصرّح بأنّ هذه الموالاة تؤدّي إلىٰ فقدان الهوية والانتماء الإسلامي وصيرورة الموالين جزءً من اليهود والنصارىٰ، وبالتالي إلىٰ نمط من الردّة عن الإسلام الدين الحقّ، وفي ذلك ملحمة قرآنية وإخبار عن حوادث مستقبلية تخبر بأنّ المسلمين سيضيّعون هويّتهم وسرّ عزّتهم بسبب الوقوع في هذه الموالاة الّتي نهاهم الله عنها، وسيؤدّي ذلك إلى انهيار كيانهم الإسلامي في النهاية وخضوعهم بالكامل لمناهج وحكم اليهود والنصارىٰ. ثمّ تصرّح الآيات بأنّ الله سيأتي بفتحٍ أو أمرٍ ربّاني يفصل به بينهم ويكشف فساد وبطلان الحجج الّتي تذرّعوا بها لتسويغ موالاتهم لليهود والنصارىٰ. ثمّ يصرّح بأنّ تحقّق هذا الفتح والأمر الفصل سيكون علىٰ أيدي طائفة متميّزة من المؤمنين الصالحين هم محبّو الله تبارك وتعالىٰ وأحباؤه

(١) الإسراء: ٥١.
(٢) زوال إسرائيل حتمية قرآنية: ١٢٠ ـ ١٢٤ مع تفاوت يسير.

الّذين يعيدون المجد الإسلامي بالجهاد الدؤوب الّذي لا يصدّهم عنه شيء.

التبعية لليهود والنصارىٰ:

اتّضح من التفسير الاستدلالي لهذه الآيات الكريمة أنّ الموالاة لليهود والنصارىٰ الّتي نهت عنها وحذّرت منها بشدّة لا تنحصر بحالٍ من الأحوال بالولاية السياسية والتحالفات السياسية أو ولاية النصرة والاستنصار وإن كانت هذه من مصاديقها البارزة، لكنّ الأهمّ منها هي ولاية القرب والميل والمحبّة لليهود والنصارىٰ والتأثّر بأخلاقهم وطريقتهم في الحياة والانبهار بها وطلب العزّة والسعادة في اتّباعها، وهذا المصداق للموالاة لم يشهده التأريخ الإسلامي إلّا في الحقبة الأخيرة في ظلّ حقبة التغريب، وقد تجسّد ذلك فيما عادت تُعرف بالتبعية الّتي شاعت في العصر الأخير فأصبح المسلمون مقلّدين لليهود والنصارىٰ في مختلف الشؤون الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها، وهذه الأرضية هي الّتي ساعدت علىٰ قيام حكومات التبعية في بلدانهم.

العلّة في الإعراض عن الولاية الحقّة:

والوقوع في شباك موالاة اليهود والنصارىٰ نتيجة للإعراض عن موالاة الّذين أمر الله تبارك وتعالىٰ بموالاتهم ومودّتهم وهم قربىٰ الرسول وعترته صلوات الله عليه وآله والّذين نزلت في أوّلهم آية إيتاء الزكاة في الركوع: أي الاعراض عن موالاة خطّ الولاية الإلهيّة الحقّة الّذي يمثّل امتداداً لولاية الرسول ﷺ، وهذا ما تشير إليه الآيتان اللاحقتان للآيات الأربع مورد البحث حسب سياق سورة المائدة، وهما تصرّحان بأنّ الغلبة ستكون للمتمسّكين بموالاة هذا الخطّ الممثّل للولاية الإلهيّة الحقّة، كما يشير لذلك

الشيخ أسعد بيوض في تفسيره لهذه الآيات الكريمة.

وعليه، يتّضح أنّ الوقوع في مستنقع موالاة اليهود والنصارىٰ مسبوقٌ بنوعٍ من الانحراف عن خطّ الولاية الحقّة وإبعاد له عن إدارة المجتمع الإسلامي علىٰ وفق القوانين الإلهيّة. إذ أنّ المودّة الصادقة لقربىٰ الرسول ﷺ والتمسّك بموالاة خطّ الولاية الإلهيّة الحقّة تحصّن المؤمنين من السقوط في موالاة اليهود والنصارىٰ.

الردّة عن الدين الحقّ:

اتّضح أنّ الّذين يقعون في شباك موالاة اليهود والنصارىٰ هم ﴿*الّذين في قلوبهم مرض*﴾، وهو وصف أعمّ من وصف المنافقين يشمل الّذين لا يستندون إلىٰ رؤية إيمانية راسخة بالله تبارك وتعالىٰ وآياته، ولعلّ «المرض» المقصود هنا هو الانحراف عن التمسّك بخطّ الولاية الإلهيّة الحقّة الّذي يدعو إلى التمسّك به الإيمان الصادق بالله وآياته. وعلىٰ أي حالٍ، فإنّ هؤلاء مُعرضون، ـ بحكم عدم تمسّكهم بمودّة وموالاة قربى الرسول ﷺ وبحكم تأثّرهم وانبهارهم بطريقة حياة اليهود والنصارىٰ ـ للردّة عن دينهم الحقّ.

الردّة المقصودة غير الردّة المصطلحة:

وواضحٌ من سياق الآيات الكريمة أنّ الردّة عن الدين المقصودة ليست الردّة المصطلحة الّتي تعني الانكار للدين بالقول والعمل بصورةٍ كاملة، بل اتّباع غير مناهجه في الحياة والموالاة العملية لغير الخطّ الإيماني الّذي أمر الله تبارك وتعالىٰ بمودّته وموالاته، وبالتالي الانحدار إلىٰ مهاوي موالاة اليهود والنصارىٰ والتبعية لهم.

حتمية وقوع الفتح المنهي للردّة:

كما اتّضح أنّ الآيات الكريمة تتضمّن وعداً إلهياً بانهاء هذه الردّة، لذلك فانهاؤها حتميّ الوقوع أيضاً. وسيكون من خلال فتح إلهيّ يتضمّن تفنيد حجج الّذين في قلوبهم مرض الّتي تذرّعوا بها لتسويغ ذلك الانحراف عن الولاية الحقّة والسقوط في منحدرات موالاة اليهود والنصارىٰ.

وبعبارة أخرىٰ: فإنّ هذا الفتح الإلهيّ ينبغي أن يتضمّن إظهاراً للإسلام الدين الحقّ علىٰ الدين كلّه وإثبات أنّ العزّة المرجوّة فيه لا في سواه، وأنّ طريقته في الحياة هي الطريقة المثلىٰ، وأنّ النصرة والمنعة المطلوبة هي في ظلّ التمسّك بخطّ الولاية الحقّة والانظمام بذلك لحزب الله جلّت قدرته، إذ أنّ الغلبة له كما تصرّح بذلك آيتا الأمر بموالاة خطّ صالحي المؤمنين الّذين نزلت في سيّدهم آيةُ التصدّق في ركوع الصلاة.

أي أن يكون في هذا الفتح معالجة للأسباب الّتي أدّت إلىٰ هذا الانحراف عن خطّ الولاية الحقّة والسقوط بالتالي في منحدرات موالاة اليهود والنصارىٰ والتبعية لهم.

صاحب الفتح الإلهيّ:

١ـ وتصرّح الآيات الكريمة بأنّ هذا الفتح الإلهيّ سيتحقّق على أيدي طائفةٍ خاصّة من المؤمنين الأصحّاء من مرض موالاة اليهود والنصارىٰ، وكلّ طرفٍ لا يمثل خطّ الولاية الإلهيّة الحقّة المأمور بها في آيات مودّة القربىٰ وآيات الولاية، المحبّين لله تبارك وتعالىٰ والّذين يحبّهم الله، الفائزين بالفضل الإلهيّ الخاصّ الّذي يؤتيه الله مَن يشاء من عباده والمتمسّكين بخطّ الولاية الإلهيّة الحقّة بالطبع.

وبهؤلاء ينصر الله جلّت قدرته دينه ويُنهي الردّة الممقوتة ويُظهر الإسلام على الدين كلّه حتّىٰ يتحقّق الفتح المطلوب الّذي يكشف حقيقة الانحرافات الّتي قادت المجتمع الإسلامي إلىٰ ذهاب عزّته وإيقاعه في شباك موالاة اليهود والنصارىٰ وذلّ التبعية لهم.

٢ـ ومفهومٌ أنّ إنجاز هذه المهمّة الجهادية الكبرىٰ محالٌ دون وجود قائد ربّاني وهادٍ بأمر الله تبارك وتعالىٰ يمثّل النموذج الأعلىٰ للصفات الّتي ذكرتها الآية الكريمة الرابعة لأحبّاء الله المجاهدين، ويمثّل خطّ الولاية الإلهيّة الحقّة لكي يتمسّك هؤلاء بولايته ويلتفّون حول قيادته.

مظهر الفتح الإلهيّ إظهار الإسلام:

١ـ ومفهومٌ أيضاً أنّ إنهاء هذا النمط من الردّة عن الدين الحقّ والانحراف عن خطّ الولاية الإلهيّة الحقّة الممثّل لولاية الله ورسوله الأكرم ﷺ يعني إقامة الحكم الإلهيّ العادل والمجتمع الصالح الّذي يعبد الله وحده لا شريك له بأمنٍ دونما خوف من كيد منافقٍ أو كافر، وتتحقّق الغاية من خلق المجتمع الإنساني بأكمل صوَرها وعلى الصعيد الاجتماعي، وتتوفّر جميع شروط تحقّقها على الصعيد الفردي والأوضاع الملائمة بأكمل صورة. وبذلك يتحقّق مفهوم الفتح الإلهيّ الفصل الّذي وعدت به الآيات الكريمة المتقدّمة، وإلّا فما دامت حاكمية الكفر والشرك قائمة فلن يظهر بطلان الحجج الّتي تذرّع بها الّذين في قلوبهم مرض الّذين سوّغوا موالاتهم اليهود والنصارىٰ بالخشية من دوائر السوء، ولن يتحقّق ما أخبرت عنه الآية الثانية: ﴿ *فيصبحوا علىٰ ما أسرّوا في أنفسهم نادمين* ﴾ ما دام للشرك والكفر حاكمية والإسلام لم يظهر على الدين كلّه، وما لم ينتصر أحبّاء الله المجاهدون الّذين لا يخشون لومة لائم علىٰ أعدائهم

ويتغلّبوا على اليهود والنصارىٰ ويقيموا حكم الدين الحقّ، والّذين تفضّل الله عليهم بحمل رسالته الانقاذية للعالم كلّه.

٢ـ وعليه، يتّضح أنّ الفتح الّذي تتحدّث عنه هذه الآيات الكريمة هو الوعد نفسه الّذي تضمّنته آيات إتمام النور الإلهيّ وإظهار الإسلام على الدين كلّه، وآيات استخلاف صالحي المؤمنين في الأرض وإقامة المجتمع الصالح فيها علىٰ وفق الشروط المذكورة فيها، وأنّ أحبّاء الله جلّت قدرته الّذين وعد بالإتيان بهم هم صالحو المؤمنين الّذين وعد باستخلافهم في الأرض وإظهار دينه الحقّ على الدين كلّه علىٰ أيديهم وببركة جهادهم.

مقارنة دلالات الآيات بعقيدة الامامية:

ونقارن هذه الدلالات المستفادة من التفسير الاستدلالي للآيات الكريمة المتقدّمة بالعقيدة الإسلامية في القضية المهدوية الّتي يتبنّاها منهج أهل البيت عليهم السلام، فهي تقول فيما تقول:

١ـ إنّ المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه هو الإمام الحادي عشر من أولاد الإمام علي عليه السلام الّذي أمر الله تبارك وتعالىٰ بموالاته وقرن موالاته بموالاة الله ورسوله صلى الله عليه وآله، وهو الممثّل لخطّ الولاية الإلهيّة الحقّة هذه، وهو خاتم الأئمّة الأثني عشر الّذين يكون الدين قائماً بوجودهم، والّذين لا تخلو الأرض من واحدٍ منهم في كلّ زمانٍ يهدي إلى الله بأمره تبارك وتعالىٰ إمّا بصورة ظاهرة مشهورة أو خفية مغمورة.

٢ـ وأنّ هذا الخطّ قد أُبعد عن قيادة الأُمّة الإسلامية فلم يتعرّف العالم على الدولة الإلهيّة العادلة بصورتها النقية الكاملة والشاملة، وهذا الانحراف والإبعاد لهذا الخطّ الإيماني النقي قد تجسّد في مطاردة وتصفية جسدية لأئمّته ظهرت

في أبشع صوَرها في واقعة الطفّ الدامية وقتل الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وهو السبط الوحيد لخاتم المرسلين صلى الله عليه وآله واغتيال أخيه الإمام الحسن وأبيه الإمام علي عليهما السلام قبله ومطاردة ومضايقة واغتيال أخلافه من أئمّة العترة النبوية صلوات الله عليهم.

٣ـ وهذا الانحراف عن خطّ الولاية الحقّة والعلم المسبق من قبل السلطات الحاكمة للمسلمين بأنّ المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه هو الإمام الثاني عشر من هذه السلسلة الطاهرة أدّيا إلىٰ زيادة الارهاب الحكومي ضدّ هؤلاء الأئمّة مع مرور الزمان، وبلغ ذروته في حياة الإمام الحسن العسكري عليه السلام الإمام الحادي عشر من هذه السلسلة تعقّباً لولده وسعياً لقتله، الأمر الّذي أدّىٰ إلىٰ إحاطة ولادة ابنه الإمام المهديّ بظروف من السرّية المشدّدة حفظاً له، ثمّ إلىٰ غَيبته الصغرىٰ الّتي كان يتّصل بالمؤمنين عبر السفراء، ثمّ الغَيبة الكبرىٰ المستمرّة إلىٰ أن يأذن الله بالظهور، وتصحيح هذا الانحراف بعد أن ترىٰ الأُمّة عواقبه السيّئة وتجرّب دول الخطوط الأُخرىٰ الّتي لن تجلب لها سوى الويلات والمصائب ولا تزيدها عن الحياة الكريمة الّتي أرادها الله تبارك وتعالىٰ لها إلّا بعداً.

فهذا الانحراف عن خطّ الولاية الحقّة هو الّذي قاد المسلمين إلىٰ ذلّة متابعة اليهود والنصارىٰ وفقدان مكانتهم الريادية للعالم والردّة عن الدين الحقّ. فيما يكمن الدور الأساس للإمام المهديّ عجّل الله فرجه هو تصحيح هذا الانحراف وتوضيح حقيقة أن التمسّك بالدين يتجسد في التمسّك بعروته الوثقى المتمثلة بخطّ الولاية الحقّة فيقيم دولة هذا الخطّ الّذي يحقّق للأُمّة الحياة الكريمة في ظلّ المجتمع الصالح العابد لله وحده لا شريك له، وبأمنٍ دونما خوف من كيد

منافقٍ أو كافرٍ أو مشرك بعد أن يظهر الإسلام على الدين كلّه.

من خلال مقارنة عقيدة أئمّة أهل البيت عليهم السلام في المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه بالدلالات المستفادة من الآيات المتقدّمة يتّضح انسجامها الكامل معها، بل إنّها تعبّر عن التفسير الوحيد المقبول لما أخبرت عنه الآيات الكريمة، فتكون هذه الآيات بالتالي مخبرة عن أحد جوانب هذه العقيدة.

آية الشجرة الملعونة في القرآن الكريم:

وكما أشرنا في بداية هذه الفقرة توجد آيات أُخر تكمل دلالات آيات سورة المائدة المتقدّمة، وهي الآيات الّتي تخبر عن وقوع الانحراف في المسيرة الإسلامية بسبب تسلّط شجرة ملعونة من المنافقين علىٰ مقدّراتهم ونشاطها في إضلالهم وصدّهم عن سبيل الله وفتنتهم بسبب ذلك. وأهمّ هذه الآيات هي آية الشجرة الملعونة في القرآن الكريم، الّتي يُستفاد من تفسيرها حتمية وقوع هذا الانحراف، وسنتاول تفسيرها ودلالاتها في الفصل الثامن من الباب الثاني[1] بإذن الله، لمناسبتها للآيات المطبقة على القضية المهدوية تحت عنوان هذا الفصل وهو: «الردّة والإفساد والغَيبة والتصحيح المهدوي» رغم أنّها دالّة علىٰ وقوع الانحراف علىٰ نحو التنزيل والدلالة المباشرة وليس التطبيقية، أي أنّها من آيات الباب الأوّل.

---

(١) في صفحة ٤٤٠ ـ ٤٥٤.

الباب الثاني

القضية المهدوية

في الآيات المؤولة أو المطبقة عليها

مدخل:

الدلالات الّتي حصلنا عليها من الآيات الكريمة الّتي تناولناها في الباب الأوّل فيما يرتبط بالقضية المهدوية هي الّتي تضمّنتها ظواهر وألفاظ هذه الآيات الكريمة، وقد أثمرها التدبّر في مفاهيم هذه الآيات وتفسيرها طبقاً لمنهج تفسير القرآن بالقرآن الّذي هو بيان للناس يستطيع كلّ عقل سليم أن يعرف ظواهر مفاهيمه إذا أحاط بعلوم العربية اللازمة لفهم مدلولات ألفاظ اللغة العربية الّتي أنزل الله تبارك وتعالىٰ كلامه المجيد بها.

وإلىٰ جانب هذه الطائفة من الآيات توجد طائفة أُخرىٰ تشتمل علىٰ عدد كبير من الآيات الكريمة تمّ تأويلها وتطبيقها على المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه الشريف وشؤون قضيّته. وقبل التطرّق لعرض هذه الآيات الكريمة من الضروري التقديم لها بمعرفة معنى التأويل، ومعنىٰ تطبيق الآيات الكريمة على المصاديق ومَن الّذين يحقّ لهم تأويلها؟

معنى التأويل:

المستفاد من بحثٍ تحقيقيّ مقارن أجراه العلّامة الطباطبائي في تفسيره القيّم «الميزان» بشأن معنى التأويل عرض مختلف التعريفات الواردة في هذا الباب وناقشها علىٰ ضوء الكتاب والسنّة أنّ التأويل هو «الحقيقة الواقعية الّتي

تستند إليها البيانات القرآنية من حكمٍ أو موعظةٍ أو حكمة، وأنّه موجود لجميع الآيات القرآنية محكمها ومتشابهها، وأنّه ليس من قبيل المفاهيم المدلول عليها بالألفاظ بل من الأُمور العينية المتعالية من أن تحيط بها شبكات الألفاظ، وإنّما قيّدها الله سبحانه بقيد الألفاظ لتقريبها من أذهاننا بعض التقريب... إنّ القرآن لم يستعمل لفظ «التأويل» في الموارد الّتي استعملها ـ وهي ستّة عشر مورداً علىٰ ما عُدّت ـ إلّا في المعنى الّذي ذكرناه... فقد تبيّن: إنّ تأويل القرآن حقائق خارجية تستند إليه آيات القرآن في معارفها وشرائعها وسائر ما بيّنته بحيث لو فرض تغيّر شيءٍ من تلك الحقائق انقلب ما في الآيات من المضامين»[١].

«وبالجملة، فالمحصّل من الآيات الشريفة أنّ وراء ما نقرأه ونعقله من القرآن أمراً هو من القرآن بمنزلة الروح من الجسد... وهو الّذي يسمّيه تعالىٰ بالكتاب الحكيم، وهو الّذي تعتمد وتتكئ عليه معارف القرآن المنزل ومضامينه، وليس من سنخ الألفاظ المفرّقة المقطّعة ولا المعاني المدلول عليها بها، وهذا بعينه هو التأويل المذكور في الآيات المشتملة عليه لانطباق أوصافه ونعوته عليه. وبذلك يظهر حقيقة معنى التأويل، ويظهر سبب امتناع التأويل عن أن تمسّه الأفهام العادية والنفوس غير المطهّرة...»[٢].

وعليه، يتّضح أنّ العارف بتأويل القرآن هو القادر علىٰ هداية الناس إلىٰ أغراض ومقاصد المعاني والمعارف الإلهيّة الّتي يكشفها الظاهر القرآني وألفاظ الكلام الإلهيّ لكلّ ذي عقلٍ سليم، ولذلك فإنّ النجاة من الضلالة

---

(١) تفسير الميزان: ٣ / ٤٩ و ٥٣.

(٢) المصدر السابق: ٥٤.

لا تتحقّق بالتمسّك بالظاهر القرآني وحده، لأنّ فهم القرآن لا يوصل لأكثر من معرفة دلالات الألفاظ من المفاهيم والمعاني دون تمليك القدرة على الإيصال إلى الأغراض والمقاصد المرادة منها، فهذه مهمّة العارف بتأويل القرآن، أي العارف بالحقائق العينية الخارجية الّتي تمثّل روح المعاني الّتي تحملها مفاهيم ألفاظ الكلام الإلهيّ، والّتي تمثّل اللبّ الّذي تستند إليه مفاهيم الظاهر القرآني.

أي أنّ مفاهيم ألفاظ القرآن المجيد تُري الطريق، أمّا العارف بتأويلها فهو الّذي يوصل إليه ويأخذ بيد الإنسان للوصول إلىٰ مقاصدها لأنه العارف بالأساس الّذي انطلقت منه هذه المفاهيم واستندت إليه.

التأويل من علم الغَيب:

أمّا بالنسبة لهوية العارف بتأويل القرآن فإنّ الآيات الكريمة تحصر معرفة التأويل بالله تبارك وتعالىٰ.

«إذاً، التأويل هو حقيقة أو حقائق مضبوطة في أمّ الكتاب ولا يعلمها إلّا الله تعالىٰ[1]، وهي ممّا اختصّ بعالم الغَيب. وقال تعالىٰ أيضاً في آياتٍ أُخرىٰ: ﴿ فَلا أُقسِمُ بِمَواقعِ النُّجوم * وإنّه لقَسمٌ لَّو تعلَمُون عَظيم * إنّه لَقُرآنٌ كَرِيم * فِي كِتَابٍ مَكنُون * لَا يَمَسُّه إلّا المُطَهَّرون * تَنزيلٌ مِن رَّبِّ العالمين ﴾[2].

---

(١) إشارة إلى التصريح بحصر معرفة تأويل القرآن بالله تبارك وتعالى الوارد في قوله تعالىٰ: ﴿ حمٓ * وَالكِتابِ المُبين * إنّا جَعَلناهُ قُرآناً عَرَبياً لَعَلَّكُم تَعقِلون * وَإنّه في أمّ الكِتَابِ لَدَينا لَعَليٌّ حَكِيم﴾ (الزخرف:١ـ٤). والتصريح بالحصر هو في الآية الرابعة. فالأوصاف الواردة تصدق على التأويل وليس على التنزيل والظاهر القرآني المعروض للجميع، والّذي يأمر القرآن الجميع ـحتّى الكفّارـ بالتدبّر في آياته.

(٢) الواقعة: ٧٥ ـ ٨٠.

يظهر جلياً من هذه الآيات أنّ للقرآن الكريم مقامين: مقام مكنونٌ محفوظٌ من المسّ، ومقام التنزيل الّذي يفهمه كلّ الناس.

والفائدة الزائدة الّتي نستفيدها من هذه الآيات ولم نجدها في الآيات السابقة هي الاستثناء الوارد في قوله ﴿إلّا المطهّرون﴾ الدالّ على أنّ هناك بعضاً من يمكن أن يدرك حقائق القرآن وتأويله. وهذا الإثبات لا ينافي النفي الوارد في قوله تعالىٰ ﴿وَمَا يَعلَمُ تَأويلَهُ إلّا اللهُ﴾[(١)] لأنّ ضمّ إحداهما إلى الأُخرىٰ ينتج الاستقلال والتبعية، أي يعرف منها استقلال علمه تعالىٰ بهذه الحقائق ولا يعرفها أحدٌ إلّا بإذنه عزّ شأنه وتعليم منه.

وعلمُ التأويل شبيه فيما ذكرنا بعلم الغَيب الّذي اختُصّ بالله تعالىٰ في كثير من الآيات وفي آية استُثني «العباد المرضيون» فأثبت لهم العلم به، وهي قوله تعالىٰ ﴿عَالِمُ الغَيبِ فَلا يُظهِرُ عَلَىٰ غَيبِهِ أحداً * إلّا مَن ارتَضَىٰ مِن رَّسُول﴾[(٢)].

فمن مجموع الكلمات في علم الغَيب نستنتج أنه بالاستقلال خاصّ بالله تعالىٰ ولا يطّلع عليه أحدٌ إلّا بإذنه عزوجلّ.

نعم، المطهّرون هم الّذين يلمسون الحقيقة القرآنية ويصلون إلىٰ غور معارف القرآن ـ كما تدلّنا عليه الآيات الّتي ذكرناها. ولو ضممنا هذه [أي آية استثناء المطهّرين] إلىٰ قوله تعالىٰ ﴿إنّما يُريدُ اللهُ ليُذهِبَ عَنكُمُ الرِجسَ أهلَ البَيتِ وَيُطهّرَكُم تَطهِيراً﴾[(٣)] الوارد حسب أحاديث متواترة في حقّ أهل

(١) آل عمران: ٧.
(٢) الجنّ: ٢٦ و٢٧.
(٣) الأحزاب: ٣٣.

البيت ﷺ نعلم أنّ النبيّ وأهل بيته هم المطهّرون العالمون بتأويل القرآن»[١].

النبيّ والعترة عالمون بالتأويل:

إذن، ما تصرّح به النصوص الشرعية ـ قرآناً وسنّة ـ هو حصر العلم بتأويل القرآن بالله تبارك وتعالىٰ في الأصل والاستقلال وبالنبيّ الأكرم وعترته الطاهرة صلوات الله عليهم أجمعين بالتبعية وبالتعليم الإلهيّ المباشر أو غير المباشر.

وعليه، فإنّ النبيّ وعترته الطاهرة هم القادرون علىٰ تبيين مصاديق الآيات الكريمة المختلفة المنسجمة مع أساسها التأويلي الّذي تنطلق منه وتستند إليه، لأنّهم هم العارفون به، وهذا يصدق علىٰ تطبيقهم للآيات الكريمة كافّة علىٰ مصاديقها السالفة أو المعاصرة أو الآتية الّتي لم تقع بعد، فاستناداً إلىٰ معرفتهم بالتأويل يمكنهم تمييز المصاديق المنسجمة معه للآيات الكريمة عن غيرها. وهذا يصدق ضمناً على الآيات المؤوّلة بشأن الإمام المهديّ عجّل الله فرجه الشريف.

معنىٰ تطبيق الآيات:

وفي الكثير من آيات هذا الباب إعمال لمبدأ التطبيق و الجري. قال العلّامة الطباطبائي ﵁ في توضيح هذا المفهوم: واعلم أنّ الجري ـ وكثيراً مّا نستعمله في هذا الكتاب ـ إصطلاحٌ مأخوذٌ من قول أئمّة أهل البيت ﵈.

---

(١) القرآن في الإسلام، تأليف العلّامة الطباطبائي، ترجمة السيّد أحمد الحسيني: ٦٢ـ٦٤، وقد بحث العلّامة الطباطبائي هذا الموضوع في الجزء الثالث من تفسيره «الميزان» عند تفسير الآية السابعة من سورة آل عمران، وكذلك في تفسير آية التطهير من سورة الأحزاب وآيات سورة الواقعة المذكورة، فراجع.

ففي تفسير العيّاشي عن الفضيل بن يسار قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الرواية «ما في القرآن آيةٌ إلّا ولها ظهرٌ وبطن، وما فيها حرفٌ إلّا وله حدٌّ، ولكلّ حدٍ مُطّلَعٌ» ما يعني بقوله: ظهرٌ وبطن؟ قال؟ ظهره تنزيله وبطنه تأويله، منه ما مضى ومنه ما لم يكن بَعدُ، يجري كما يجري الشمس والقمر، كلّما جاء منه شيءٌ وقع... الحديث.

وفي هذا المعنى روايات أُخر، وهذه سليقة أئمّة أهل البيت فإنّهم عليهم السلام يُطبقون الآية من القرآن علىٰ ما يقبل أن ينطبق عليه من الموارد وإن كان خارجاً عن مورد النزول، والاعتبار يساعده، فإنّ القرآن نُزِلَ هدىً للعالمين يهديهم إلىٰ واجب الاعتقاد وواجب الخلق وواجب العمل، وما بيّنه من المعارف النظرية حقائق لا تختصّ بحالٍ دون حال ولا زمانٍ دون زمان، وما ذكره من فضيلةٍ أو رذيلةٍ أو شرّعه من حكم عملي لا يتقيّد بفردٍ دون فرد ولا عصرٍ دون عصر لعموم التشريع.

وما ورد من شأن النزول (وهو الأمر أو الحادثة الّتي تعقب نزول آية أو آيات في شخصٍ أو واقعة) لا يوجب قصر الحكم على الواقعة لينقضي الحكم بانقضائها ويموت بموتها، لأنّ البيان عامٌّ والتعليل مطلقٌ، فإنّ المدح النازل في حقّ أفرادٍ من المؤمنين، أو الذم النازل في حقّ آخرين معلّلاً بوجود صفات فيهم لا يمكن قصرُهما علىٰ شخص مورد النزول مع وجود عين تلك الصفات في قومٍ آخر بعدهم، وهكذا. والقرآن أيضاً يدلّ عليه، قال تعالى: ﴿ *يَهدي بِهِ اللهُ مَن اتَّبَعَ رِضوانَه* ﴾ [1]، وقال: ﴿ *وإنّه لِكتابٌ عَزيز * لا يأتيهِ الباطِلُ مِن بينِ يَدَيهِ وَلَا مِن خَلفهِ* ﴾ [2]، وقال تعالى: ﴿ *إنّا نَحنُ نزّلنَا الذِكرَ وَإنّا لَهُ لَحافِظُون* ﴾ [3].

---

(١) المائدة: ١٦.

(٢) فصّلت: ٤١ و ٤٢.

(٣) الحِجر: ٩.

والرواياتُ في تطبيق الآيات القرآنية عليهم عليهم السلام أو علىٰ أعدائهم ـ أعني روايات الجري ـ كثيرةٌ في الأبواب المختلفة، وربما تبلغ المائين، ونحن بعد هذا التنبيه العامّ نترك إيراد أكثرها في الأبحاث الروائية لخروجها عن الغرض في الكتاب، إلّا ما تعلّق بها غرض في البحث فليتذكّر(١).

التطبيق لا يعني حصر الآية بالمصداق:

لذا فلا مانع من أنّ يطبّق مفهوم آية تمدح الإيمان بالغَيب على الإيمان بالإمام المهديّ باعتباره مصداقاً للإيمان بالغَيب دون أن يعني هذا التطبيق حصر مفهوم الآية بهذا المصداق دون غيره. كما لا مانع مثلاً من تطبيق آية تنهىٰ عن التكذيب بيوم الدين على التكذيب بيوم ظهور المهديّ عجّل الله فرجه الشريف ما دام هذا التطبيق منسجماً مع الأساس التأويلي الّذي انطلقت منه الآية بجميع تفصيلاتها.

التطبيق فرع المعرفة بالتأويل:

أجل، يظهر أنّ المطبّق للآية أن يكون عارفاً بالأساس التأويلي، وقد عرفنا مَن هم العارفون به آنفاً. ويمتاز الأمر بالنسبة للقضية المهدوية بخصوصية أُخرىٰ تجعل من غير الممكن للنبيّ والأئمّة المعصومين صلوات الله عليهم تبيين الآيات المنطبقة عليها، وهي أنّ الكثير من جوانب هذه القضية هي من أنباء الغَيب الّتي لا يعلمها إلّا الله ولا يطّلع عليها إلّا مَن ارتضاه، وهم النبيّ والأئمّة من عترته صلى الله عليه وعليهم كما دلّت علىٰ ذلك كثيرٌ من النصوص

(١) تفسير الميزان: ١ / ٤١ ـ ٤٢.

الشرعية، لذلك فهم وحدهم القادرون علىٰ تحديد وتبيين الآيات الّتي تشمل مفاهيمها ـ في أحد مصاديقها ـ توضيح مجموعة من أبعاد القضية المهدوية.

وحيث إنّ الأساس في معرفة الرؤية القرآنية الّتي تعرضها هذه الطائفة من الآيات الكريمة هي الأحاديث والبيانات الصادرة عن النبيّ والأئمّة من أهل بيته صلىٰ الله عليه وعليهم، لذا فإنّ من الضروري معرفة صحّة صدور هذه الأحاديث عنهم صلوات الله عليهم، خاصّةً وأنّ أكثرها تتعلّق بأُمورٍ غيبية لا يمكن ـ أو يصعب ـ تمييز صحّتها استناداً إلى المتن وحده فيما يرتبط بالمتحدّثة عن الحوادث المستقبلية الّتي لم تقع إلىٰ الآن أو الّتي وقعت فعلاً، فإنّ وقوعها هو بحدّ ذاته دليل صحّة الأحاديث المخبرة عنها، إذ لا يمكن صدورها عن غير ينابيع الوحي.

ونحن هنا نعرضُ لمجموعة من هذه الطائفة من الآيات الكريمة استناداً إلىٰ ما ورد من أحاديث تطبيقها في الأحاديث الشريفة المروية في الكتب المعتبرة، ونصنّفها في فصول ضمن عدّة عناوين رئيسية وفرعية انطلاقاً من الجوانب المختلفة للقضية المهدوية، فنذكر تحت كلّ عنوان الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة الواردة في تأويلها أو تطبيقها على العنوان المذكور، وقد تشترك بعض الآيات في أكثر من عنوان لاشتمالها علىٰ أكثر من دلالة بارزة. ثمّ ننقل تفسير ظاهر الآية ونشير إلىٰ وجه تطبيقها ونسجّل أبرز الدلالات المستفادة من تطبيقها، وبالله التوفيق.

الفصل الأول

مقامات المهديّ وخصائصه

طبّقت الأحاديث الشريفة المروية عن الرسول الأكرم والأئمّة من عترته صلوات الله عليه وآله مجموعة من الآيات الكريمة على المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه، بعضها من الآيات الكريمة الّتي تناولناهما في الفصل الأول من الباب الأول من هذا الكتاب، وحيث رأينا أنّها تدلّ علىٰ وجود الإمام المهديّ وغَيبته سلام الله عليه بصورةٍ جليّة إذ لا يمكن تقديم مصداق لها ينسجم مع دلالاتها إلّا طبق عقيدة الإمامية في المهديّ المنتظر، وبعضها الآخر يبيّن خصائص في إمام العصر تؤكّد دلالات الآيات السابقة لها، وتحدّد الكثير من تفصيلاتها وتكمل الصورة الّتي ترسمها.

في هذا الفصل ننقل بعضاً من هذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة المطبّقة لها أو المحدّدة لمصداقها المنسجم مع دلالاتها، وننقل تفسير الآيات الكريمة الّتي لم نتطرّق إلىٰ تفسيرها في الفصل الأول من الباب

الأول، أو نكتفي بالإشارة إلىٰ دلالاتها إذا كانت واضحة.

أوّلاً: المهديّ إمام الزمان:

قوله تعالىٰ:

﴿ يَومَ نَدعُو كُلَّ أُناسٍ بِإمامِهِم ﴾ (١)

١ـ روى الشيخ الكليني في كتاب الكافي عن عليّ بن محمّد عن سهل بن زياد عن الحسين بن سعيد عن فضالة بن أيّوب عن عمر بن أبان قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: اعرف العلامة، فاذا عرفته لم يضرّك، تقدّم هذا الأمر أو تأخّر، إنّ الله عزّوجلّ يقول: ﴿ يوم ندعو كلّ أناسٍ بإمامهم ﴾ فمن عرف إمامَهُ كان كمن كان في فسطاط المنتظر عليه السلام (٢).

٢ـ وروىٰ رحمه الله عن علي بن محمّد عن سهل بن زياد عن محمّد بن الحسن بن شمون عن عبد الله بن عبد الرحمن عن عبد الله بن القاسم البطل عن عبد الله بن سنان قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ﴿ يوم ندعو كلّ أناسٍ بإمامهم ﴾ قال: إمامهم الّذي بين أظهرهم وهو قائم أهل زمانه (٣).

معرفة المهديّ شرط معرفة الله:

وروىٰ رحمه الله أحاديث أُخرىٰ بالمضمون نفسه روتها بأسانيد متعدّدة المصادر المعتبرة الأُخرىٰ مثل: غَيبة النعماني، وكمال الدين للشيخ الصدوق، وغَيبة الفضل بن شاذان، وغَيبة الشيخ الطوسي، وغيرها. وهي تؤكّد الدلالات

---

(١) الإسراء: ٧١.
(٢) الكافي: ١ / ٣٧٢.
(٣) الكافي: ١ / ٥٣٦.

المستفادة من تفسير الآية الكريمة، وفيها دلالة مهمّة وهي أنّ الاحتجاج بإمام كلّ زمان على أهل ذلك الزمان يؤكّد لزوم التعرّف على الإمام الحقّ في كلّ عصر لأنّ بمعرفته ينجو الإنسان من الميتة الجاهلية، كما ورد في الأحاديث الشريفة المروية عن الرسول الأكرم ﷺ من طرق أهل السنّة والشيعة. وهي تدلّ على أنّ المقصود هو إمام الهدى الّذي يهدي إلى الله تبارك وتعالى، فبه تكون النجاة من الميتة الجاهلية.

وبعبارة أُخرى: فإنّ معرفة الله تبارك وتعالى لا تكتمل بدون معرفة إمام العصر الّذي يهدي إليه، وهذا ما يؤكّده الحديث الشريف المروي عن الإمام الحسين عليه السلام في كتاب كنز الفوائد بسنده قال: حدّثني محمّد بن علي بن أبي طالب البلدي عن عبد الواحد بن عبد الله الموصلي عن محمّد بن همام عن عبد الله بن جعفر الحميري عن الحسن بن علي بن فضّال عن محمّد بن أبي عمير عن أبي علي الحرّاني عن عبد الكريم بن عبد الله عن مسلمة بن عطا عن الصادق عليه السلام عن الحسين عليه السلام في حديث أنّه قيل له: ما معرفة الله؟ قال: معرفة أهل كلّ زمان إمامهم الّذي تجب عليهم طاعته[1].

ثانياً: المهديّ هادٍ لأهل زمانه:

قوله تعالىٰ:

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[2]

(١) إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات للحرّ العاملي: ١ / ١٤١.
(٢) الرعد: ٧.

تقدّم الحديث في الفصل الأول من الباب الأول عن دلالات الآية الكريمة في إثبات وجود الإمام المهديّ عجّل الله فرجه وغَيبته، لذا نكتفي هنا بذكر بعض الأحاديث الشريفة المؤيّدة:

١ـ روى العيّاشي في تفسيره عن حنّان بن سدير عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول في قول الله تبارك وتعالىٰ: ﴿ *إنّما أنت منذرٌ ولكلّ قومٍ هاد* ﴾ فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أنا المنذر وعلي الهاد، وكلّ إمامٍ هادٍ للقرن الّذي هو فيه(١).

٢ـ ورواه الصفّار في بصائر الدرجات: حدّثنا أحمد بن محمّد عن الحسين عن النضر بن سويد وفضالة عن موسىٰ بن بكر عن الفضيل قال: سألتُ أبا عبد الله عليه السلام عن قوله تعالىٰ: ﴿ *إنّما أنت منذرٌ ولكلّ قومٍ هاد* ﴾ وساق الحديث المتقدّم باختلافٍ يسير(٢).

٣ـ كما رواه الكليني في الكافي بسنده عن الفضيل(٣).

٤ـ ورواه النعماني في كتاب الغَيبة بسنده عن الفضيل أيضاً(٤).

٥ـ وروىٰ علي بن إبراهيم القمّي في تفسيره: حدّثني أبي عن حمّاد عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: المنذرُ رسول الله صلى الله عليه وآله والهادي أميرُالمؤمنين عليه السلام وبعده الأئمّة عليهم السلام، وهو قوله: ﴿ *ولكلّ قومٍ هاد* ﴾ أي في كلّ زمانٍ إمام هادٍ مبين(٥).

والأحاديث بهذا المضمون كثيرة ودلالتها على المقصود واضحة، ويُستفاد

---

(١) تفسير العياشي: ٢ / ٢٠٤.
(٢) بصائر الدرجات: ١ / ٣٠.
(٣) الكافي: ١ / ١٩١.
(٤) غَيبة النعماني: ١١٠.
(٥) تفسير القمّي: ١ / ٣٥٩.

منها قيامه عليه السلام بمهامّ الإمامة في الهداية في غَيبته أيضاً فضلاً عن ظهوره ولو بأساليب غير ظاهرة.

ثالثاً: المهديّ معيّنٌ من الله للهداية بأمره:

قوله تعالىٰ:

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ (١)

روى الشيخ الخزّاز في كفاية الأثر قال: حدّثنا أبو المفضل رحمه الله قال: حدّثني محمّد بن علي بن شاذان بن حباب الأزدي الخلّال بالكوفة قال: حدّثني الحسن ابن محمّد بن عبد الواحد قال: حدّثنا الحسن ثمّ الحسين العربي الصوفي قال: حدّثني يحيى بن يعلى الأسلمي عن عمرو بن موسى الوجيهي عن زيد بن علي عليه السلام قال: كنت عند أبي علي بن الحسين عليه السلام إذ دخل عليه جابر بن عبد الله الأنصاري، فبينما هو يحدّثه إذ خرج أخي محمّد من بعض الحجر، فأشخص جابر ببصره نحوه ثمّ قام إليه فقال: ياغلام أقبِل فأقبَل ثمّ قال: ادبِر فأدبَر، فقال: شمائل كشمائل رسول الله صلى الله عليه وآله ما اسمك ياغلام؟ قال: محمّد، قال: ابن من؟ قال: ابن علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب، قال: أنت إذاً الباقر. قال: فانكبّ عليه وقبّل رأسه ويديه ثمّ قال: يامحمّد إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله يقرئك السلام، قال: علىٰ رسول الله أفضل السلام وعليك ياجابر بما أبلغت السلام.

ثمّ عاد إلىٰ مصلّاه، فأقبل يحدّث أبي ويقول: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لي

---

(١) الأنبياء: ٧٣.

يوماً: ياجابر إذا أدركت ولدي الباقر فاقرأه منّي السلام فإنّه سميّي وأشبه الناس بي، علمه علمي وحكمه حكمي، سبعة من ولده أُمناء معصومون أئمّة أبـرار، والسابع مهديّهم الّذي يملأ الدنيا قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً. ثـمّ تـلا رسول الله ﷺ ﴿ *وجعلناهم أئمّةً يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين* ﴾[1].

الآية الكريمة تأتي في سياق مجموعة من الآيات الكريمة المـتحدّثة عـن إبراهيم الخليل وذرّيته عليهم السلام، وفيها دلالات إضافية مـهمّة فـي تـحديد صـفات الّذين اختارهم الله تبارك وتعالىٰ للإمامة، فلا تخلو الأرض من متأهّل منهم لها إلىٰ يوم القيامة، وتطبيقها على الإمام المهديّ وآبائه عليهم السلام يؤكّد انسجام عـقيدة الإمامية في المهديّ المنتظر مع دلالات الآيات المتقدّمة، لذا ننقل أوّلاً تفسير العلّامة الطباطبائي لهذه الآية قبل تسجيل الدلالات الإضافية المستفادة مـنها، يقول رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿ *وجعلناهم أئمّةً يهدون بأمرنا* ﴾... إلىٰ آخر الآية. الظاهر ـ كما يشير إليه ما يدلّ من الآيات[2] علىٰ جعل الإمامة في عقب إبراهيم عليه السلام رجـوع الضمير في «جعلناهم» إلىٰ إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

وظاهر قوله: ﴿ *أئمّةً يهدون بأمرنا* ﴾ أنّ الهداية بالأمر يجري مجرى المفسّر لمعنى الإمامة، وقد تقدّم الكلام في معنى هداية الإمام بأمر الله في الكلام علىٰ قوله تعالى: ﴿ *إنّي جاعِلُك للنّاسِ إماماً* ﴾[3] في الجزء الأول من الكتاب.

والّذي يخصّ المقام أنّ هذه الهداية المجعولة من شؤون الإمامة ليست هي

---

(١) كفاية الأثر: ٢٩٧.

(٢) كقوله تعالى: ﴿ وجعلها كلمةً باقيةً في عقبه ﴾ (الزخرف:٢٨) وغيره.

(٣) البقرة: ١٢٤.

بمعنى إراءة الطريق لأنّ الله سبحانه جعل إبراهيم عليه السلام إماماً بعد ما جعله نبيّاً ـ كما أوضحناه في تفسير قوله: ﴿إنّي جاعلك للناس إماماً﴾ فيما تقدّم ـ ولا تنفكّ النبوّة عن الهداية بمعنى إراءة الطريق، فلا يبقى للإمامة إلّا الهداية بمعنى الإيصال إلى المطلوب، وهي نوع تصرّف تكويني في النفوس بتسييرها في سير الكمال ونقلها من موقفٍ معنوي إلى موقفٍ آخر.

وإذكانت تصرّفاً تكوينياً وعملاً باطنياً فالمراد بالأمر الّذي تكون به الهداية ليس هو الأمر التشريعي الاعتباري بل ما يفسّره في قوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُون * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْء﴾ [(١)] فهو الفيوضات المعنوية والمقامات الباطنية الّتي يهتدي إليها المؤمنون بأعمالهم الصالحة ويتلبّسون بها رحمةً من ربّهم.

وإذكان الإمام يهدي بالأمر ـ والباء للسببية أو الآلة ـ فهو متلبس به أوّلاً ومنه ينتشر في الناس علىٰ اختلاف مقاماتهم، فالإمام هو الرابط بين الناس وبين ربّهم في إعطاء الفيوضات الباطنية وأخذها، كما أنّ النبيّ رابط بين الناس وبين ربّهم في أخذ الفيوضات الظاهرية، وهي الشرائع الإلهيّة تنزل بالوحي على النبيّ وتنتشر منه وبتوسّطه إلى الناس وفيهم، والإمام دليل هاد للنفوس إلىٰ مقاماتها كما أنّ النبيّ دليل يهدي الناس إلى الاعتقادات الحقّة والأعمال الصالحة، وربما تجتمع النبوّة والإمامة كما في إبراهيم وابنيه.

وقوله: ﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة﴾ إضافة المصدر إلىٰ معموله تفيد تحقّق معناه في الخارج، فإن أُريد أن لا يفيد الكلام ذلك جيء بالقطع عن الإضافة أو بأن وأنّ الدالّتين علىٰ تأويل المصدر، نصّ

---

(١) يس: ٨٢ و ٨٣.

على ذلك الجرجاني في دلائل الإعجاز، فقولنا: يعجبني إحسانك وفعلك الخير، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُم ﴾[١] أيدلّ على الوقوع قبلاً، وقولنا: يعجبني أن تحسن وأن تفعل الخير، وقوله تعالى: ﴿ أَن تَصُومُوا خَيرٌ لَكُم ﴾[٢] لا يدلّ على تحقق قبلي، ولذا كان المألوف في آيات الدعوة وآيات التشريع الإتيان بأن والفعل دون المصدر المضاف كقوله: ﴿ أُمِرتُ أن أعبُدَ اللهَ ﴾[٣] و﴿ أن لَا تَعبُدوا إلّا إيّاه ﴾[٤] ﴿ وأن أَقِيمُوا الصَّلاة ﴾[٥].

وعلى هذا، فقوله: ﴿ وأوحينا إليهم فعل الخيرات...إلخ ﴾ يدلّ على تحقق الفعل، أي أنّ الوحي تعلّق بالفعل الصادر عنهم، أي أنّ الفعل كان يصدر عنهم بوحيٍ مقارن له ودلالةٍ إلهيةٍ باطنية هو غير الوحي المشرّع الّذي يشرّع الفعل أوّلاً، ويترتّب عليه إتيان الفعل على ما شرّع.

ويؤيّد هذا الّذي ذكر قوله بعد: ﴿ وكانوا لنا عابدين ﴾ فإنّه يدلّ بظاهره على أنهم كانوا قبل ذلك عابدين لله ثمّ أُيّدوا بالوحي، وعبادتهم لله إنّما كانت بأعمالٍ شرّعها لهم الوحي المشرّع قبلاً، فهذا الوحي المتعلّق بفعل الخيرات وحي تسديد ليس وحي تشريع.

فالمحصّل أنّهم كانوا مؤيّدين بروح القدس والطهارة، مسدّدين بقوّة ربّانية تدعوهم إلى فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وهي الإنفاق المالي الخاصّ بشريعتهم.

والقوم حملوا الوحي في الآية على وحي التشريع، فأشكل عليهم الأمر أوّلاً

---

(١) البقرة: ١٤٣.

(٢) البقرة: ١٨٤.

(٣) الرعد: ٣٦.

(٤) يوسف: ٤٠.

(٥) الأنعام: ٧٢.

من جهة أنّ فعل الخيرات بالمعنى المصدري ليس متعلّقاً للوحي بل متعلّقه حاصل الفعل، وثانياً أنّ التشريع عامّ للأنبياء وأُممهم وقد خصّ في الآية بهم، ولذا ذكر الزمخشري أنّ المراد بفعل الخيرات وما يتلوه من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة المصدر المبني للمفعول والمعنى: وأوحينا إليهم أن يفعل الخيرات ـ بالبناء للمجهول ـ وهكذا، وبه يندفع الاشكالان، إذ المصدر المبني للمفعول وحاصل الفعل كالمترادفين فيندفع الإشكال الأول، والفاعل فيه مجهول ينطبق على الأنبياء وأُممهم جميعاً فيندفع الإشكال الثاني، وقد كثّر البحث حول ما ذكره.

وفيه أوّلاً: منع ما ذكره من اتّحاد معنى المصدر المبني للمفعول وحاصل الفعل.

وثانياً: ما قدّمناه من أنّ إضافة المصدر إلىٰ معموله تفيد تحقّق الفعل ولا يتعلّق الوحي التشريعي به[1].

ثمّ قال ﷺ في بحثه الروائي:

وفي الكافي والعيون عن الرضا ﷺ في حديث في الإمامة قال: ثمّ أكرمه الله عزّوجلّ (يعني إبراهيم) بأن جعلها (يعني الإمامة) في ذرّيته وأهل الصفوة والطهارة فقال عزّوجلّ: ﴿ ***ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلةً وكلّاً جعلنا صالحين * وجعلناهم أئمّةً يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين*** ﴾ فلم تزل في ذرّيته يرثها بعض عن بعض قرناً قرناً حتّىٰ ورثها النبيّ ﷺ فقال الله جلّ جلاله: ﴿ ***إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا***

(١) تفسير الميزان: ١٤ / ٣٠٤ ـ ٣٠٦.

النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) فكانت خاصّة.

فقلّدها علي عليه السلام بأمر الله عزّوجلّ علىٰ رسم ما فرض الله تعالى فصارت في ذرّيته الأصفياء الّذين آتاهم الله العلم والإيمان بقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ ﴾ (٢) فهي في ولد علي بن أبي طالب عليه السلام خاصّة إلىٰ يوم القيامة إذ لا نبيّ بعد محمّد صلى الله عليه وآله (٣).

المهديّ مؤيد بالله في غَيبته وظهوره:

تؤكّد الآية الكريمة والّتي بعدها المكمّلة لها الدلالات المتحصّلة من الآيات الكريمة المثبتة لوجود الإمام المهديّ وغَيبته، كما تقدم توضيح ذلك في الفصل الأول من الباب الأول، ويُستفاد منها ومن تطبيقها علىٰ إمام العصر عجّل الله فرجه عدّة أُمور أهمّها:

١ ـ أنّ الإمام منتخب من قِبل الله تبارك وتعالىٰ لمسؤولية الإمامة بهدف هداية الناس وإيصال المستعدّين منهم إليه تبارك وتعالىٰ بأمره، ولذلك فالإمام يحوز المرتبة السامية في تجسيد هذه الهداية عملياً والقيام بلوازمها، ولذلك فهو مسدّد من قِبل الله تبارك وتعالىٰ في فعل الخيرات وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وتحقيق العبودية الخالصة لله جلّت قدرته، وتسديده في ذلك ـ مع إقباله الذاتي عليه ـ ضروريّ للقيام بمهمّته، وإلّا لن يكون قادراً علىٰ ايصال الهداية الإلهيّة للآخرين وإيصال المستعدّين منهم بها إليه عزّوجلّ.

٢ ـ يُستفاد من تطبيق الآية الكريمة على الإمام المهديّ عجّل الله فرجه ومن

---

(١) آل عمران: ٦٨.

(٢) الروم: ٥٦.

(٣) تفسير الميزان: ١٤ / ٣٠٨.

دلالتها علىٰ استمرار الهداية: ﴿ يهدون بأمرنا ﴾ أنه يقوم بمهمامّ الإمامة الأصلية في غَيبته، وكحدٍّ أدنى الهداية إلى الله بأمره تبارك وتعالىٰ ولو بأساليب غير ظاهرة؛ لأنّ هذا هو الهدف الأصلي من جعل الإمامة.

رابعاً: المهديّ من الكلمة الإبراهيمية الباقية:

قوله تعالىٰ:

﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُم يَرجِعُونَ ﴾[1]

روي في تطبيقها على الإمام المهديّ عدّة أحاديث، منها:

١ ـ ما رواه الخزّاز في كتاب كفاية الأثر، قال:

حدثنا أبو عبد الله أحمد بن محمّد بن عبيد الله الجوهري قال: حدّثنا عبد الصمد بن علي بن محمّد بن مكرم قال: حدّثنا الطيالسي أبو الوليد عن أبي زياد عبد الله بن ذكوان عن أبيه عن الأعرج عن أبي هريرة قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله عزّوجلّ: ﴿ وجعلها كلمةً باقيةً في عقبه ﴾ قال ﷺ: جعل الأئمّة في عقب الحسين يخرج من صلبه تسعة من الأئمّة ومنهم مهديّ هذه الأُمّة. ثمّ قال: لو أنّ رجلاً صفن[2] (ضعن ـ خ) بين الركن والمقام ثمّ لقي الله مبغضاً لأهل بيتي دخل النار[3].

٢ ـ وروى الشيخ الصدوق في كمال الدين قال:

حدّثنا محمّد بن [محمّد بن] عاصم الكليني [﵀] قال: حدّثنا محمّد بن يعقوب [الكليني] قال: حدّثنا القاسم بن العلا قال: حدّثني [ثنا] إسماعيل

---

(١) الزخرف: ٢٨.

(٢) كلّ صافّ قدميه قائماً فهو صافن. (النهاية لابن الأثير).

(٣) كفاية الأثر: ٨٦.

ابن علي القزويني قال: حدّثني علي بن إسماعيل عن عاصم بن حميد الخيّاط عن محمّد بن قيس عن ثابت الثمالي عن علي بن الحسين [بن علي بن أبي طالب أنه] قال: فينا نزلت هذه الآية: ﴿ *وَأُولُو الأَرحَامِ بَعضُهُم أَولَى بِبَعضٍ فِي كِتَابِ اللهِ* ﴾[1] وفينا نزلت هذه الآية: ﴿ *وَجَعَلَها كَلِمَةً باقيَةً في عقبه* ﴾ والإمامة في عقب الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام إلىٰ يوم القيامة، فإنّ للغائب [للقائم عليه السلام] منّا غَيبتين احداهما أطول من الأخرى أما الأُولى فستّة أيام أو ستّة أشهر أو ستّ سنين، وأمّا الأُخرى فيطول أمدها حتّى يرجع عن هذا الأمر أكثر من يقول به، فلا يثبت عليه إلّا من قوي يقينه وصحّت معرفته، ولم يجد في نفسه حرجاً ممّا قضينا وسلّم لنا أهل البيت[2].

٣ـ وروى الشيخ الخزّاز في كفاية الأثر أيضاً:

عن محمّد بن عبد الله الشيباني رحمه الله قال: حدّثنا أبو عبد الله جعفر بن محمّد ابن جعفر بن الحسن العلوي قال: حدّثني أبو نصر أحمد بن عبد المنعم الصيداوي قال: حدّثني عمرو بن شمر الجعفري عن جابر بن يزيد الجعفي عن أبي جعفر محمّد بن علي الباقر عليهما السلام قال: قلت له: يابن رسول الله صلى الله عليه وآله إنّ قوماً يقولون إنّ الله تبارك وتعالى جعل الأئمّة في عقب ولد الحسن دون الحسين، قال: كذبوا والله أوَ لم يسمعوا أنّ الله تعالى ذكره يقول: ﴿ *وجعلها كلمةً باقيةً في عقبه* ﴾ فهل جعلها إلّا في عقب الحسين عليه السلام.

فقال عليه السلام: ياجابر إنّ الأئمّة هم الّذين نصّ عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله بالإمامة وهم الّذين قال رسول الله: لمّا أُسري بي إلى السماء وجدت أسماءهم مكتوبة علىٰ ساق العرش بالنور، اثنى عشر اسماً منهم، علي وسبطاه وعلي ومحمّد وجعفر

---

(١) الأنفال: ٧٥.

(٢) كمال الدين: ٣٢٣.

وموسى وعلي ومحمّد وعلي والحسن والحجّة القائم عليهم السلام، فهذه الأئمّة من أهل بيت الصفوة والطهارة، والله ما يدّعيه أحد غيرنا إلّا حشره الله تبارك وتعالى مع إبليس وجنوده، ثمّ تنفّس عليه السلام فقال: لا رعى الله حقّ هذه الأُمّة فإنّها لم ترع حقّ نبيها [أما] والله لو تركوا الحقّ علىٰ أهله لما اختلف في الله اثنان[1].

وثمّة أحاديث أُخرىٰ بهذا المضمون مروية في الكتب المعتبرة، وهي تعتمد علىٰ تفسير الكلمة الباقية في ذرّية إبراهيم عليه السلام بالإمامة، وقد نقلنا تفسيرها في الفصل الأول من الباب الأول حيث اتّضح أنها دالّة ـ علىٰ نحو التنزيل والتفسير لا علىٰ نحو التأويل والتطبيق ـ علىٰ وجود الإمام المهديّ وغَيبته عجّل الله فرجه لنصّها علىٰ استمرار وجود متأهّل للإمامة المهتدىٰ به للتوحيد الخالص إلىٰ يوم القيامة، وعدم وجود مَن تنطبق عليه الشروط والصفات الّتي تحدّدها الآيات الأُخرىٰ للإمام المهتدىٰ به غير الإمام المهديّ عجّل الله فرجه طبق العقيدة الّتي يعرضها مذهب أهل بيت النبيّ صلوات الله عليه وعليهم.

خامساً: المهديّ مهديّ بالله لا بسواه:

قوله تعالى:

﴿ *قُل هَل مِن شُرَكائِكُم مَن يَهدي إِلى الحَق قُلِ اللهُ يَهدِي لِلحَقِّ أَفَمَن يَهدي إِلى الحَق أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهدىٰ فَمَا لَكُم كَيفَ تَحكُمُون* ﴾[2]

---

(١) كفاية الأثر: ٢٤٦.

(٢) يونس: ٣٥.

١ ـ روى الشيخ محمّد بن يعقوب عن أبي علي الأشعري عن محمّد بن عبد الجبّار عن ابن فضّال والحجّال جميعاً عن ثعلبة (بن ميمون) عن عبد الرحمن بن مسلمة الجريري قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: يوبّخونا ويكذّبونا أنّا نقول: [إنّ] صيحتين تكونان، يقولون: من أين تعرف المحقّة من المبطلة إذا كانتا؟ قال: فماذا تردّون عليهم؟ قلت: ما نردّ عليهم شيئاً، قال: قولوا: يصدق بها إذا كانت مَن [كان] يؤمن بها من قبل، إنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿ **أفمن يهدي إلى الحقّ أحقّ أن يتّبع أمّن لا يهدّي إلّا أن يُهدىٰ فما لكم كيف تحكمون** ﴾[1].

٢ ـ ورواة الشيخ محمّد بن إبراهيم النعماني في كتاب الغَيبة قال: أخبرنا أحمد بن محمّد بن سعيد قال: حدّثني [ثنا] علي بن الحسن [الحسين] التيملي عن أبيه عن محمّد بن خالد عن ثعلبة بن ميمون عن عبد الرحمن بن مسلمة الجريري قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنّ الناس يوبخونا... وذكر الحديث[2].

تقدّم التعرّف علىٰ دلالات الآية الكريمة فيما يرتبط بإثبات وجود المهديّ المنتظر ضمن تفسير آيات الفصل الأول من الباب الأول، ونكتفي هنا بالإشارة إلىٰ أنّ في تطبيقها على الإمام المهديّ عجّل الله فرجه الشريف في الحديث الشريف المتقدّم الّذي يتحدّث عن الصيحة والنداء السماوي، وهو من العلامات المهمّة والقريبة الّتي أكّدتها الأحاديث الشريفة المروية من طرق الشيعة والسنّة، وهو يسبق ظهور المهديّ بفترةٍ وجيزة إشارة إلىٰ أنّ

(١) الكافي: ٨ / ٢٠٨، وروىٰ بمضمونه حديثاً آخر في ص٢٠٩.

(٢) غَيبة النعماني: ٢٦٦.

معرفة الصفة المميزة للإمام الحقّ والّتي تذكرها الآية الكريمة هي الّتي تعيّن علىٰ كشف الادّعاءات الكاذبة، إذ أنّ الإمام الحقّ هو الّذي يحظىٰ بهداية إلهية خاصّة وواضحة كما يُفهم من الآية الكريمة.

سادساً: أولىٰ الناس بإبراهيم:

قوله تعالىٰ:

﴿ *إِنَّ أَولَى النَّاسِ بِإِبرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ المُؤمِنِينَ* ﴾ (١)

١ ـ روى الشيخ العيّاشي في تفسيره عن عبد الأعلى الجبلي (الحلبي ـ خ) عن الإمام الباقر عليه السلام ضمن حديثٍ طويلٍ بشأن وقائع ظهور المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه جاء في جانب منه:

والله لكأني أنظر إليه وقد أسند ظهره إلى الحجر، ثمّ ينشد الله حقّه ثمّ يقول: يا أيها الناس مَن يحاجّني في الله فأنا أولى الناس بالله، ومَن يحاجّني في آدم فأنا أولى الناس بآدم، ياأيّها الناس ومَن يحاجّني في نوح فأنا أولى الناس بنوح، ياأيّها الناس ومَن يحاجّني في إبراهيم فأنا أولى الناس بإبراهيم (٢).

٢ ـ وروىٰ رحمه الله بإسناده عن جابر الجعفي عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال ضمن حديث طويل من وقائع ظهور المهديّ عجّل الله فرجه وفيه أنّه يصلّي بين الركن والمقام ثمّ يخطب في الناس قائلاً:

ياأيها الناس إنّا نستنصر الله علىٰ من ظلمنا وسلب حقّنا، من يحاجّنا في الله فأنا أولىٰ بالله، ومن يحاجّنا في آدم فأنا أولى الناس بآدم، ومن حاجّنا في نوح

(١) آل عمران: ٦٨.

(٢) تفسير العيّاشي: ٢ / ٥٦.

فأنا أولى الناس بنوح، ومن حاجّنا في إبراهيم فأنا أولى الناس بإبراهيم، ومن حاجّنا بمحمّد فأنا أولى الناس بمحمّد ﷺ، ومن حاجّنا في النبيّين فأنا أولى الناس بالنبيّين، ومن حاجّنا في كتاب الله فنحن أولى الناس بكتاب الله، أنا أشهد [نشهد] وكلّ مسلم اليوم إنا قد ظُلمنا وطُردنا وبُغيَ علينا وأُخرجنا من ديارنا وأموالنا وأهالينا وقُهرنا، إلّا أنّا نستنصر الله اليوم وكلّ مسلم[١].

٣ـ وروى الشيخ النعماني في كتاب الغَيبة الحديث المتقدّم بأسانيد عدّة، باختلافٍ يسير وبعض الإضافات المهمّة في لغة احتجاج المهديّ عليه السلام في خطبته المتقدّمة وفيه:

ومن حاجّني في إبراهيم فأنا أولى الناس بإبراهيم عليه السلام، ومن حاجّني في محمّد فأنا أولى الناس بمحمّد ﷺ، ومن حاجّني في النبيّين فأنا أولى الناس بالنبيّين.

أليس الله يقول في محكم كتابه: ﴿ *إِنَّ اللهَ اصطَفَى آدَمَ ونُوحاً وَآلَ إبراهيمَ وَآلَ عِمرانَ عَلَى العَالَمِين * ذرّيّةً بعضُها من بعضٍ واللهُ سَميعٌ عَلِيم* ﴾[٢]؟ فأنا بقية من آدم وذخيرة من نوح ومصطفىٰ من إبراهيم وصفوة من محمّد [صلوات الله عليهم أجمعين] ألا ومن حاجّني في كتاب الله فأنا أولى الناس بكتاب الله، ألا ومن حاجّني في سنّة رسول الله فأنا أولى الناس بسنّة رسول الله ﷺ، فأُنشد الله من سمع كلامي اليوم لمّا بلغ الشاهد منكم الغائب، وأسألكم بحقّ الله وحقّ رسوله و [بـ] حقّي فإنّ لي عليكم حقّ القربىٰ من رسول الله ﷺ لمّا [إلّا] أعنتمونا ومنعتمونا ممّن يظلمنا، فقد أُخفنا وظُلمنا وطُردنا من ديارنا وأبنائنا

(١) تفسير العيّاشي: ١ / ٦٥.

(٢) آل عمران: ٣٣ و ٣٤.

وبُغيَ علينا ودُفعنا عن حقّنا وافترى أهل الباطل علينا، فالله الله فينا لا تخذلونا وانصرونا ينصركم الله(١)

الأولىٰ بتمثيل منهاج النبيّين:

جاءت الآية الكريمة في سياق الاحتجاج علىٰ أهل الكتاب بشأن عدم صدقهم وعدم أهليتهم لتمثيل النهج الإبراهيمي التوحيدي الخالص والهداية بأمر الله إليه، وهي تدلّ علىٰ أنّ الأقرب والألصق والأولىٰ بابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام وبتمثيله هم الّذين يشاركونه في اتّباع الحقّ والتلبّس بالدين الّذي جاء به، وتنصّ علىٰ أنّ الأولىٰ بذلك هو خاتم الأنبياء ﷺ والمؤمنون به لأنهم على الإسلام الدين التوحيدي الخالص الّذي اصطفىٰ به إبراهيم الخليل، وكذلك كلّ من اتّبعه من دون أن يكفر بآيات الله ويلبس الحقّ بالباطل(٢).

والمصداق الأسمىٰ للمؤمنين الّذين يتحلّون بهذه الصفات هو الأوصياء على الشريعة المحمّدية وهم الأئمّة الاثنا عشر صلوات الله عليهم ومن اتّبعهم وقد وردت في تحديدهم كمصداق للآية عدّة روايات(٣).

وعليه، يتّضح وجد تطبيقها علىٰ خاتم الأوصياء المهديّ الموعود عجّل الله فرجه، فهو الأولىٰ بتمثيل المنهج الإبراهيمي التوحيدي الخالص، وعلىٰ أساسه يقيم دولته الإلهيّة العادلة. فاحتجاجه ؑ بتمثيل إبراهيم الخليل صلوات الله

---

(١) غَيبة النعماني: ٢٧٩، وراجع تفسير العيّاشي: ١ / ٦٤، وكتاب الاختصاص للشيخ المفيد: ٢٥٥، وكتاب الإرشاد للشيخ المفيد أيضاً: ٣٥٩، وكتاب الغَيبة للشيخ الطوسي: ٢٦٩، وغيرها كثير.

(٢) راجع تفسير الميزان: ٣ / ٢٥٣ ـ ٢٥٤.

(٣) راجع المصدر السابق: ٣ / ٢٧٢.

عليه منسجم مع الاحتجاج القرآني علىٰ أهل الكتاب بشأن هوية الممثلين للنهج الإبراهيمي.

سابعاً: سرّ حفظ النظام الكوني:

قوله تعالىٰ:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾[١]

روى الشيخ الصدوق في كتاب كمال الدين قال:

حدّثنا أبي قال: حدّثنا الحسن بن أحمد المالكي عن أبيه عن إبراهيم بن أبي محمود قال: قال الرضا عليه السلام: نحن حجج الله في خلقه وخلفاؤه في عباده وأُمناؤه علىٰ سرّه، ونحن كلمة التقوىٰ والعروة الوثقىٰ، ونحن شهداء الله وأعلامه في بريته، بنا يُمسك الله السماوات والأرض أن تزولا، وبنا يُنزل الغيث وينشر الرحمة، ولا تخلو الأرض من قائم منّا ظاهر أو خافٍ، ولو خلت يوماً بغير حجّة لماجت بأهلها كما يموج البحر بأهله[٢].

قوله تعالىٰ: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[٣].

روى الحافظ الحمويني الشافعي في كتاب فرائد السمطين بسنده عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام أنه قال: نحن أئمّة المسلمين وحجج الله على العالمين وسادة المؤمنين وقادة الغرّ المحجّلين وموالي المؤمنين، ونحن أمانٌ لأهل الأرض كما أنّ النجوم أمانٌ لأهل السماء، ونحن الّذين بنا يُمسك الله السماء أن تقع على الأرض إلّا بإذنه، وبنا يُمسك السماء أن تميد بأهلها، وبنا يُنزل الغيث

---

(١) فاطر: ٤١.

(٢) كمال الدين: ٢٠٢.

(٣) الحجّ: ٦٥.

وتُنشر الرحمة وتخرج بركات الأرض، ولولا ما في الأرض منّا لساخت بأهلها.

ثمّ قال: ولم تخل الأرضُ مُنذ خلق الله آدم من حجّة الله فيها ظاهرٌ مشهور أو غائبٌ مستور، ولا تخلو إلىٰ قيام الساعة من حجّة الله فيها، ولولا ذلك لم يُعبد الله[1].

ثامناً: المهديّ من أُولي الأمر:

قوله تعالىٰ:

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولي الأمرِ مِنكُم ﴾[2]

١ـ روى الشيخ الصدوق قال: حدّثنا غير واحدٍ من أصحابنا قالوا: حدّثنا محمّد بن همّام عن جعفر بن محمّد بن مالك الفزاري قال: حدّثني الحسن بن محمّد بن سماعة عن أحمد بن الحارث قال: حدّثني المفضّل بن عمر عن يونس بن ظبيان عن جابر بن يزيد الجعفي قال: سمعت جابر بن عبد الله الأنصاري يقول: لمّا أنزل الله عزّوجلّ علىٰ نبيّه محمّد ﷺ: ﴿ *ياأيّها الّذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم* ﴾ قلت: يارسول الله عرفنا الله ورسوله فمَن أُولو الأمر الّذين قرن الله طاعتهم بطاعتك ؟

فقال ﷺ: هم خلفائي ياجابر وأئمّة المسلمين [من بعدي] أوّلهم علي بن أبي طالب، ثمّ الحسن، ثمّ الحسين، ثمّ علي بن الحسين، ثمّ محمّد بن علي

(١) فرائد السمطين: ١ / ٤٥.

(٢) النساء: ٥٩.

المعروف في التوراة بالباقر ستدركه ياجابر فإذا لقيته فأقرئه منّي السلام، ثمّ الصادق جعفر بن محمّد، ثمّ موسى بن جعفر، ثمّ علي بن موسى، ثمّ محمّد بن علي، ثمّ علي بن محمّد، ثمّ الحسن بن علي، ثمّ سمّيي وكنيّي حجّة الله في أرضه وبقيّته في عباده ابن الحسن بن علي. ذاك الّذي يفتح الله تعالى ذكره علىٰ يديه مشارق الأرض ومغاربها، ذاك الّذي يغيب عن شيعته وأوليائه غَيبةً لا يثبت فيها على القول بإمامته إلّا مَن امتحن الله قلبه للإيمان.

قال جابر: فقلت له: يارسول الله فهل يقع لشيعته الانتفاع به في غَيبته؟

فقال ﷺ: إي والّذي بعثني بالنبوّة، إنّهم يستضيئون بنوره، وينتفعون بولايته في غَيبته كانتفاع الناس بالشمس وإن تجلّلها سحاب، ياجابر هذا من مكنون سرّ الله ومخزون علمه، فاكتمه إلّا عن أهله[1].

٢ـ ورواه الشيخ الخزّاز في كفاية الأثر: حدّثنا أحمد بن إسماعيل السلماني ومحمّد بن عبد الله الشيباني قالا: حدّثنا محمّد بن همّام، ثمّ ببقية سند الشيخ الصدوق[2].

٣ـ وروى الشيخ الطوسي في كتاب الغَيبة قال:

أخبرني جماعة عن أبي محمّد التلعكبري عن أحمد بن علي الرازي عن الحسين بن محمّد القمّي عن محمّد بن علي الطلحي عن محمّد بن عبدة النيسابوري عن علي بن إبراهيم الرازي [عن الحسين بن محمّد القمّي] قال: حدّثني الشيخ الموثوق به بمدينة السلام، وذكر حديثاً يشتمل علىٰ توقيع طويل من المهديّ ﷺ يقول فيه: ياهؤلاء مالكم في الريب تتردّدون وفي

(١) كمال الدين: ٢٥٣.
(٢) كفاية الأثر: ٥٣.

الحيرة تنعكسون؟ أوَ ما سمعتم الله عزّوجلّ يقول: ﴿*ياأيها الّذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم*﴾؟ أوَ ما علمتم ما جاءت به الآثار ممّا يكون يحدث في أئمّتكم على الماضين والباقين منهم السلام؟ أوَ ما رأيتم كيف جعل لكم معاقل تأوون إليها وأعلاماً تهتدون بها من لدن آدم عليه السلام إلىٰ أن ظهر الماضي عليه السلام؟ كلّما غاب علمٌ بدا علم، وإذا أفل نجمٌ طلع نجم، فلمّا قبضه الله إليه ظننتم أنّ الله تعالى أبطل دينه وقطع السبب بينه وبين خلقه، كلّا! ما كان ذلك، ولا يكون حتّى تقوم الساعة ويظهر أمر الله وهم كارهون[1].

والأحاديث الشريفة بهذا المضمون كثيرة للغاية مروية من طرق السنّة والشيعة ومدوّنة في المجاميع الحديثية المختصّة، وقد بحث العلماء في دلالات الآية الكريمة علىٰ إمامة أهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله وبصورةٍ مفصّلة، كما بحث العلّامة الطباطبائي في تفسيره عن دلالاتها بصورةٍ مفصّلة وناقش جميع الآراء الواردة في تفسيرها، وبيّن أنّ المصداق الّذين تحدّده الآية الكريمة لأولي الأمر لا ينطبق إلّا علىٰ أئمّة أهل البيت عليهم السلام الاثني عشر وخاتمهم المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه[2].

ذو الطاعة الواجبة:

والدلالة الأهمّ في الآية الكريمة هي عصمة أُولي الأمر، كما هو المستفاد من قرن طاعتهم بطاعة الرسول صلى الله عليه وآله، وهذا الشرط منسجم مع دلالات آيتي سورتي إبراهيم والأنعام اللتين تقدّم البحث فيهما في الفصل الأول من الباب

---

(١) غَيبة الطوسي: ١٨٤ ـ ١٨٥.

(٢) راجع تفسير الميزان: ٤ / ٣٨٧ ـ ٤١٢.

الأول من هذا الكتاب، وهو لا ينطبق إلّا عقيدة مذهب أهل البيت في الإمامة.

وقد يُستفاد من إطلاق الآية الكريمة في الأمر بطاعة أُولي الأمر استمرار وجود متأهّل للإمامة ينطبق عليه هذا الشرط في كلّ زمان، ولعلّ هذا هو وجه استشهاد الإمام المهديّ عجّل الله فرجه بالآية الكريمة في التوقيع الصادر عنه الّذي ينقله الشيخ الطوسي في كتاب الغَيبة.

أجل، قد يُشكل علىٰ هذا التفسير للآية بالقول بعدم إمكانية العمل بها في زمن غَيبة الإمام المهديّ للعجز عن الوصول إليه في هذه الفترة لمعرفة أوامره وطاعته، وهذا الإشكال مدفوعٌ بأنّ هذا العجز نتيجة لانحراف الأُمّة عن خطّ الولاية وغير منسوب لله ورسوله، فالتكليف غير مرتفع، كما لو قتلت الأُمّة نبيها ثمّ اعتذرت أنّها لا تقدر علىٰ طاعته[1]، أو أنها تخاذلت عن نصرته فاضطرّ إلى الاختفاء حفظاً للرسالة من الضياع.

يُضاف إلىٰ ذلك أنّنا لا نقول بالعجز الكامل عن الوصول إليه ـ لآحاد المؤمنين ـ حتّى في عصر غَيبته كما سنفصّل الحديث عن ذلك في الكتاب الخامس من هذه الموسوعة الخاصّ بموضوع الرؤية، ويُضاف إلىٰ ذلك أنّه وآباءه عليهم السلام قد حدّدوا تكاليف خاصّة للمؤمنين بعصر الغَيبة، تتحقّق بالعمل بها أحد مصاديق الطاعة المأمور بها.

تاسعاً: المهديّ صاحب ليلة القدر:

قوله تعالى:

﴿حم * والكِتابِ المُبين * إنّا أنزلناهُ في لَيلةٍ مُباركةٍ إنّا

(١) تفسير الميزان: ٤ / ٤٠٠، وراجع أيضاً في ردّ هذه الشبهة رسالتي الفصول العشرة في الغَيبة للشيخ المفيد ورسالة المقنع في الغَيبة للسيّد المرتضىٰ علم الهدىٰ.

﴿ كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفرَقُ كُلُّ أمرٍ حَكِيمٍ ﴾(١)

١ـ روىٰ علي بن إبراهيم: قال: حدّثني أبي عن ابن أبي عمير عن عبد الله ابن مسكان عن أبي جعفر وأبي عبد الله وأبي الحسن عليهم السلام: ﴿ حَم * والكتاب المبين * إنّا أنزلناه ﴾ يعني القرآن ﴿ في ليلةٍ مباركة إنّا كنّا منذِرين ﴾ وهي ليلة القدر، أنزل الله القرآن فيها إلى البيت المعمور جملةً واحدة، ثمّ نزل من البيت المعمور على النبيّ [رسول الله] صلى الله عليه وآله في طول [ثلاث و] عشرين سنة ﴿ فيها يُفرَقُ كلُّ أمرٍ حكيم ﴾ في ليلة القدر ﴿كلُّ أمرٍ حكيم ﴾ أي يقدّر الله كلّ أمرٍ من الحقّ و [من] الباطل وما يكون في تلك السنة، وله فيها [فيه] البداء والمشيئة، يقدّم ما يشاء ويؤخّر ما يشاء من الآجال والأرزاق والبلايا [والأعراض] والأمراض، ويزيد فيها ما يشاء وينقص ما يشاء.

ويلقيه رسول الله صلى الله عليه وآله إلىٰ أمير المؤمنين عليه السلام، ويلقيه أمير المؤمنين إلى الأئمّة عليهم السلام حتّى ينتهي ذلك إلى صاحب الزمان عليه السلام، ويشرط له ما فيه البداء والمشيئة والتقديم والتأخير(٢).

٢ـ وروى السيّد البحراني في تفسير البرهان عن الشيخ الطوسي في حديثٍ أنّ أبا ذر قال: قلتُ: يارسول الله القدر شيء يكون علىٰ عهد الأنبياء ينزل عليهم الأمر فاذا مضوا رفعت؟ قال صلى الله عليه وآله: لا بل هي إلىٰ يوم القيامة.

وعلّق السيّد الطباطبائي على الحديث بعد أن نقله بالقول: وفي معناه غير واحدة من الروايات من طرق أهل السنّة(٣).

---

(١) الدخان: ١ ـ ٤.

(٢) تفسير القمّي: ٢ / ٢٩٠.

(٣) تفسير الميزان: ٢٠ / ٣٣٣.

ومن الثابت أنّ ليلة القدر تتكرّر في كلّ سنة قمرية وتتنزل فيها الملائكة بكلّ أمرٍ على مَن له أهلية تلقيها حيث تأتيه بالتقدير الإلهيّ فيما يرتبط بشؤون الخلق في كلّ سنة، الأمر الّذي يُستفاد منها حتمية وجود متأهّل لتلقي الملائكة والروح وما تنزل به من الأمر الإلهيّ في كلّ عصر، وهذه الدلالة يؤكّدها الحديث الأول ويصرّح الحديث الثاني باستمرار هذه الليلة المباركة وما يجري فيها إلى يوم القيامة. ويمكن استفادة حتمية قيام الإمام المهديّ بمهامّ الإمامة في غَيبته استناداً إلى هذه الحقيقة القرآنية، إذ أنّ تلقّي ما تتنزّل به الملائكة في ليلة القدر من كلّ أمرٍ حكيم على المعصوم عليه السلام في كلّ عصر يقتضي جملة من المسؤوليات عليه، وإلّا لما كان لهذا التنزّل معنىً، وهذه المسؤوليات ترتبط بدور الإمام المعصوم الّذي لولاه لساخت الأرض بأهلها كما ورد في الأحاديث الشريفة.

عاشراً: المهديّ من قرى الأمن المباركة:

قال تعالى:

﴿ *وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ* ﴾ (١)

١ ـ روى الشيخ الصدوق بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام في حديثٍ في معنى الآية قال: يا أبا بكير ﴿ *سيروا فيها ليالي وأيّاماً آمنين* ﴾ فقال: مع قائمنا أهل البيت (٢).

---

(١) سبأ: ١٨.

(٢) علل الشرائع: ٩١.

٢ـ وروى الشيخ الطوسي في الغَيبة قال: روى محمّد بن عبد الله بن جعفر الحميري عن أبيه عن محمّد بن صالح الهمداني قال: كتبت إلىٰ صاحب الزمان عليه السلام: إنّ أهل بيتي يؤذونني ويقرعوني بالحديث الّذي روي عن آبائك عليهم السلام إنّهم قالوا: خدّامنا وقوّامنا شرار خلق الله. فكتب: ويحكم ما تقرأون ما قال الله تعالى: ﴿ *وجعلنا بينهم وبين القرى الّتي باركنا فيها قرىً ظاهرة* ﴾ فنحن والله القرى الّتي بارك فيها وأنتم القرى الظاهرة[1].

وورد في عدّة من الروايات أنّ القرى الّتي بارك الله فيها هم أهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله والقرى الظاهرة هم الوسائط بينهم وبين الناس من حملة أحاديثهم، وهو من بطن القرآن وليس من التفسير في شيء[2].

وواضحٌ أنّ الأمن المقصود هو الأمن الحقيقي من مزالق الانحراف والضلال وذلك بالتمسك بعروتهم الوثقىٰ عليهم السلام.

الحادي عشر: بقية الله في أرضه:

قوله تعالىٰ:

﴿ *بَقِيَّتُ اللهِ خَيرٌ لَكُم إن كُنتُم مُؤمِنِينَ وَمَا أنَا عَلَيكُم بِحَفِيظٍ* ﴾[3]

١ـ روى الشيخ الصدوق: حدّثنا محمّد بن محمّد بن عصام رحمه الله قال: حدّثنا محمّد بن يعقوب الكليني قال: حدّثنا القاسم بن العلاء قال: حدّثني إسماعيل ابن علي القزويني قال: حدّثني علي بن إسماعيل عن عاصم بن حميد الحنّاط

---

(١) غَيبة الطوسي: ٢٠٩، ورواه الشيخ الصدوق في كمال الدين: ٤٨٣.

(٢) تفسير الميزان: ١٦ / ٣٦٨.

(٣) هود: ٨٦.

عن محمّد بن مسلم الثقفي قال: سمعت أبا جعفر محمّد بن علي الباقر عليه السلام يقول ـ وساق حديثاً طويلاً عن ظهور المهديّ عجّل الله فرجه بعد غَيبته جاء فيه ـ:

فإذا خرج أسندَ ظهره إلىٰ الكعبة، واجتمع إليه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، وأوّل ما ينطق به هذه الآية: ﴿ *بقيّةُ الله خيرٌ لكم إن كنتم مؤمنين* ﴾ ثمّ يقول: أنا بقية الله في أرضه وخليفته وحجّته عليكم. فلا يسلّم عليه مسلم إلّا قال: السلام عليك يابقية الله في أرضه[1].

٢ـ وروىٰ فرات الكوفي في تفسيره: حدّثني جعفر بن محمّد الفزاري معنعناً عن عمر بن ذاهب قال: قال رجلٌ لجعفر بن محمّد الصادق عليه السلام: نسلّم على القائم بإمرةِ المؤمنين؟ قال: لا، ذلك اسمٌ سمّاه الله به أميرالمؤمنين لا يُسمّىٰ به أحدٌ قبله ولا بعده إلّا كافرٌ، قال: كيف نسلّمُ عليه؟ قال: تقول: السلامُ عليك يابقية الله. قال: ثمّ قرأ جعفر: ﴿ *بقيّةُ الله خيرٌ لكم إن كنتم مؤمنين* ﴾[2].

أسمىٰ طيّبات النِعم الإلهيّة:

الآية الكريمة تحكي احتجاج نبيّ الله شعيب علىٰ قومه تأنيباً لهم علىٰ ابتغاء الزيادة غير المشروعة في الربح من خلال التطفيف في المكيال والبخس في الميزان، فهو يحذّرهم من ذلك وينبّههم إلىٰ أنّ البقية الّتي جعلها الله تبارك وتعالىٰ لهم في الربح المشروع المقبول عرفاً والّذي تستسيغه الفطرة السليمة هو خيرٌ لهم من المال الحرام الّذي يجنونه من التطفيف في المكيال وأمثاله،

---

(١) كمال الدين: ٣٣٠، ورواه الفضل بن شاذان في كتاب إثبات الرجعة، كما نقل ذلك الحرّ العاملي في إثبات الهداة: ٣ / ٥٧٠.

(٢) تفسير فرات الكوفي: ٦٣، ورواه الكليني بسندٍ آخر في كتاب الكافي: ١ / ٤١١.

أو أنّ الثواب الإلهيّ الباقي لهم من اجتناب هذا التطفيف، والزهد في المال الحرام العائد عليهم منه هو خيرٌ لهم من هذا المال الحرام[١].

وعليه، فالمستفاد من الآية أنّ الخير هو في طيّبات النِعم الإلهيّة، ونسبة هذه البقية إلىٰ الله عزّوجلّ تعظيمٌ لها، فلا مانع من تطبيقها علىٰ الإمام المعصوم باعتبار أنّ وجوده هو من أسمى النِعم الإلهيّة السابغة.

ويُستفاد من هذا التطبيق أنّ الخير كلّ الخير للمؤمنين هو في الاستفادة من وجود الإمام المهديّ عجّل الله فرجه كنعمةٍ إلهية سابغة، فهو بقية الله تبارك وتعالى الّتي تعود بالخير على المؤمنين به.

الثاني عشر: صاحب الدين القيّمة:

قال تعالىٰ:

﴿ *وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ* ﴾[٢]

روي في كتاب تأويل الآيات الظاهرة عن علي بن أسباط عن أبي حمزة عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله عزّوجلّ: ﴿ *وذلك دينُ القيّمة* ﴾، قال: إنّما ذلك دين القائم عليه السلام[٣].

قوله: ﴿ *وذلك دينُ القيّمة* ﴾ أي دين الكتب القيّمة علىٰ ما فسّروا، والمراد بالكتب القيمة إن كان جميع الكتب السماوية ـ أعني كتاب نوح ومَن دونه من الأنبياء عليهم السلام ـ فالمعنى أنّ هذا الّذي أُمروا به ودُعوا إليه في الدعوة المحمّدية هو

---

(١) راجع تفسير الميزان: ١٠ / ٣٦٤.

(٢) البيّنة: ٥.

(٣) تأويل الآيات الظاهرة: ٢ / ٨٣١.

الدين الّذي كلّفوا به في كتبهم القيّمة وليس بأمرٍ بدع، فدين الله واحد وعليهم أن يدينوا به لأنه القيّم.

وإن كان المراد به ما كان يتلوه النبيّ ﷺ من الكتب القيّمة الّتي في الصحف المطهّرة، فالمعنى أنهم لم يؤمروا في الدعوة الإسلامية إلّا بأحكام وقضايا هي القيّمة الحافظة لمصالح المجتمع الإنساني، فلا يسعهم إلّا أن يؤمنوا بها ويتديّنوا.

فالآية علىٰ أيّ حال تشير إلىٰ كون دين التوحيد الّذي يتضمّنه القرآن الكريم المصدّق لما بين يديه من الكتاب والمهيمن عليه فيما يأمر المجتمع البشري قائماً بأمرهم حافظاً لمصالح حياتهم، كما يبيّنه بأوفى البيان قوله تعالى: ﴿ *فَأَقِمْ وَجهَكَ لِلدِّينِ حَنيفاً فِطرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيهَا لَا تَبدِيلَ لِخَلقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّم* ﴾[1].

وبهذه الآية يكمل بيان عموم رسالة النبيّ ﷺ وشمول الدعوة الإسلامية لعامّة البشر، فقوله: ﴿ *لم يَكُنِ الّذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين*...إلخ ﴾ يشير إلىٰ أنّه كان من الواجب في سنّة الهداية الإلهيّة أن تتمّ الحجّة علىٰ من كفر بالدعوة من أهل الكتاب والمشركين، وهؤلاء وإن كانوا بعض أهل الكتاب والمشركين لكن من الضروري أن لا فرق بين البعض والبعض في تعلّق الدعوة، فتعلّقها بالبعض لا ينفكّ عن تعلّقها بالكلّ.

وقوله: ﴿ *رسولٌ من الله*...إلخ ﴾ يشير إلىٰ أنّ تلك البيّنة محمّد ﷺ، وقوله: ﴿ *وما تفرّق*...إلخ ﴾ يشير إلىٰ أنّ تفرّقهم وكفرهم السابق بالحقّ أيضاً كان بعد مجيء البيّنة.

---

(١) الروم: ٣٠.

وقوله : ﴿ *وما أمروا إلّا ليعبدوا الله*...إلخ ﴾ يفيد أنّ الّذي دُعوا إليه وأُمروا بـه دينٌ قيّمٌ حافظٌ لمصالح المجتمع البشـري، فـعليهم جـميعاً أن يـؤمنوا بـه ولا يكفروا[(١)].

الدين الّذي يحمله المهديّ الموعود هو الدين الّذي يضمن صلاح المجتمع البشري برمّته، ويقيم له الحياة الكريمة السعيدة المنسجمة مع الغاية السامية من خلقه، وعلىٰ أساس هذا الدّين القيّم يقيم الدولة العادلة والمجتمع الصالح الّذي يعبد الله تبارك وتعالىٰ وحده لا شريك له بأمنٍ كامل توفّره الدولة الإلهيّة العادلة الّتي يقيمها في كلّ الأرض، فهو الدين المجسّد لجوهر جميع الرسالات النبوية. ولذلك فإنّ المهديّ الموعود يحقّق بإقامة هذا الدين آمال وأهداف كلّ الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين.

وواضحٌ أنّ إقامة هذا الدين المصلح لأوضاع البشرية جمعاء يستلزم وجود السيف العادل الماحق لجميع العقبات الصادّة عن إقامته الّتي تحرف الناس عنه وتسلبهم الأمن وتمنعهم عن العبادة الحقّة، مـن قـبيل الكـافرين والمـنافقين. ولذلك فإنّ المهديّ الموعود هو صاحب السيف أيضاً كما يُستفاد من تـطبيق الآية اللاحقة.

الثالث عشر: صاحب السيف الربّاني:

قوله تعالىٰ:

﴿ *مَلعُونينَ أينَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تقتيلاً * سُنَّةَ اللهِ في الّذِينَ خَلَوا مِن قَبلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبدِيلاً* ﴾ [(٢)]

(١) تفسير الميزان: ٢٠ / ٣٣٧ ـ ٣٣٨.

(٢) الأحزاب: ٦١ ـ ٦٢.

روىٰ ابن أبي الحديد مرسلاً قال: «وهذه الخطبة ذكرها جماعة من أصحاب السِيَر، وهي متداولة منقولة مستفيضة، خطب بها علي عليه السلام بعد انقضاء أمر النهروان، وفيها ألفاظ لم يوردها الرضي رحمه الله ... منها:

فَانظُروا أَهلَ بَيْتِ نبيِّكُم، فإن لبَدوا فالبُدوا، وَإن استَنصَروكم فَانصُروهُم، فَلَيُفَرِّجَنَّ اللهُ الفِتنة بِرَجُلٍ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ، بِأَبي ابنُ خَيْرَةِ الإِماءِ لا يُعْطِيهِم إلّا السيْفَ هَرْجاً هَرْجاً، مَوضُوعاً علىٰ عاتِقِهِ ثمانِيَةَ أشهُرٍ، حتّى تَقُولَ قُرَيشُ: لَو كانَ هٰذا مِن وُلْدِ فاطِمَةَ لَرَحِمَنا، يُغريهِ اللهُ ببني أُمَيَّةَ حتّى يَجعَلَهُم حُطاماً وَرُفاتاً ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وقُتِّلُوا تَقْتِيلاً * سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِين خَلَوا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾[1].

الرابع عشر: النور الإلهيّ المظهرنّ للدين:

قوله تعالىٰ:

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطفِئوا نُورَ اللهِ بِأَفواهِهِم وَيَأْبَى اللهُ إلّا أن يُتِمَّ نُورَهُ وَلو كَرِهَ الكافِرونَ * هُوَ الَّذي أَرسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى ودِينَ الحَقّ لِيُظهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلو كَرِهَ المُشرِكُون﴾[2]

روى الشيخ الطبرسي في الاحتجاج: قال: حدّثني السيّد العالم العابد أبو جعفر مهدي بن أبي حرب الحسيني المرعشي رحمه الله قال: أخبرنا الشيخ أبو عليّ الحسن ابن الشيخ السعيد أبي جعفر محمّد بن الحسن الطوسي رحمه الله قال: أخبرني

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٧ / ٥٨.
(٢) التوبة: ٣٢ و ٣٣.

الشيخ السعيد الوالد أبو جعفر قدّس الله روحه قال: أخبرني جماعة عن أبي محمّد هارون بن موسى التلّعكبري قال: أخبرنا أبو عليّ محمّد بن همّام قال: أخبرنا عليّ السوري قال: أخبرنا أبو محمّد العلوي من ولد الأفطس ـ وكان من عباد الله الصالحين ـ قال: حدّثنا محمّد بن موسى الهمداني قال: حدّثنا محمّد بن خالد الطيالسي قال: حدّثنا سيف بن عميرة وصالح بن عقبة جميعاً عن قيس بن سمعان عن علقمة بن محمّد الحضرمي عن أبي جعفر محمّد بن علي عليه السلام أنه قال: حجّ رسول الله صلى الله عليه وآله من المدينة.... وروى عليه السلام حديثاً طويلاً عن خطبة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في يوم الغدير وأنّه قال في جانب منها:

معاشِرَ الناسِ، النورُ مِنَ اللهِ عزّوجلّ فيَّ مسلوكٌ، ثمّ في عليٍّ، ثمّ في النسلِ منهُ إلى القائِمِ المهديّ الّذي يأخُذُ بحقِّ اللهِ وبكلِّ حقٍّ هوَ لنا، لأنّ اللهَ عزّوجلّ قد جعلَنا حُجّةً على المُقصّرينَ والمُعانِدينَ والمُخالِفينَ والخائِنينَ والآثِمينَ والظّالِمينَ من جميعِ العالَمين.

ألا إنّ خاتِمَ الأئمّةِ منّا القائِمَ المهديّ، ألا إنّهُ الظّاهِرُ على الدِّين.

ألا إنّه المُنتقِمُ مِنَ الظالِمين.

ألا إنّه فاتِحُ الحُصونَ وهادِمُها.

ألا إنّه قاتِلُ كُلِّ قبيلَةٍ من أهلِ الشِرك.

ألا إنّه مُدرِكٌ بكلّ ثارٍ لأولياءِ الله.

ألا إنّه النّاصِرُ لِدينِ الله.

ألا إنّه الغَرافُ في بحرٍ عميق.

ألا إنّه يَسِمُ كلَّ ذي فضلٍ بفضلِه، وكلَّ ذي جهلٍ بجهلِه.

ألا إنّه خيرَةُ اللهِ ومُختارُه.

ألا إنّه وارثُ كلِّ علمٍ والمحيطُ به.

ألا إنّه المُخْبِرُ عَن ربِّهِ عزّوجلّ والمُنَبِّهُ بأمرِ إيمانِه.
ألا إنّه الرشيدُ السدِيد.
ألا إنّه المُفَوَّضُ إليه.
ألا إنّه قد بشَّرَ بِهِ مَن سلَفَ بينَ يديه.
ألا إنّه الباقي حُجَّةً ولا حُجَّةَ بعدَهُ، ولا حقَّ إلّا مَعَهُ، وَلا نُورَ إلَّا عِنْدَه.
ألا إنّه لا غالِبَ لهُ ولا منصُورَ عليه.
ألا وإنّه وَلِيُّ اللهِ في أرضِهِ، وحكَمُهُ في خلقِهِ، وأمينُهُ في سِرِّهِ وعلانيَتِه.

ألا إنّ الحلالَ والحرامَ أكثرُ من أن أُحصِيَهُما وأُعرِّفَهُما، فآمرُ بالحلالِ وأنهىٰ عن الحرامِ في مقامٍ واحد، فأُمِرْتُ أن آخُذَ البيعةَ منكُم والصفقةَ لكم بقبولِ ما جئتُ به عن اللهِ عزّوجلّ في عليٍّ أميرِ المؤمنينَ والأئمَّةِ من بعدِه، الّذين هُم مِنِّي ومِنه، أئمّة قائمَةٌ منهُمُ المهديّ إلىٰ يومِ القيامَةِ الّذي يقضِي بالحقّ(١).

تقدّم الحديث عن دلالات الآية الكريمة في بداية الفصل الثاني من الباب الأول، وتطبيق وصف «نور الله» في الآية على المهديّ الموعود عجّل الله فرجه باعتبار أنّ الإمام وسيلة وباب ظهور نور الله وهدايته، كما هو حال القرآن الكريم مثلاً. والحديث المطبق للآية الكريمة من النصوص الجامعة في توضيح دور المهديّ في إظهار الإسلام على الدين كلّه، وبالتالي ظهور إتمام النور الإلهيّ وإزالة مظاهر الشرك والظلم وكلّ الظلمات الأرضية. وفي ذيل الحديث الشريف إشارة مهمّة لضرورة وجود إمامٍ قائمٍ بأمر الله تبارك وتعالىٰ في كلّ عصر.

ومفهومٌ أنّ وصف النور الإلهيّ يصدق علىٰ جميع الأئمّة المعصومين

(١) الاحتجاج للطبرسي: ١ / ٦١.

سلام الله عليهم تبعاً لجدّهم الرسول الأكرم ﷺ ، ولكنّ ظهوره الكامل يتجلّىٰ في عصر ظهور خاتمهم المهديّ المنتظر أرواحنا فداه لظهور الدين الحقّ علىٰ كلّ الأديان في عصره. من هنا نفهم وجه تطبيق أوصاف «النهار» و «الفجر» عليه عجّل الله فرجه في عدّةٍ من الآيات الكريمة ، منها :

الخامس عشر: المهديّ مجلي الظلمات:

قوله تعالى :

﴿ *والشَّمسِ وضُحَاهَا * وَالقَمَرِ إذا تَلاَها * وَالنَّهارِ إذا جَلَّاهَا * وَاللَيلِ إذَا يَغشَاهَا* ﴾ (١)

نقل صاحب كتاب تأويل الآيات الظاهرة ما رواه محمّد بن العباس عن محمّد بن القاسم عن جعفر بن عبد الله عن محمّد بن عبد الله [الرحمن] عن محمّد بن عبد الرحمن [الله] عن أبي جعفر القمّي عن محمّد بن عمر عن سليمان الديلمي عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سألته عن قول الله عزّوجلّ ﴿ *والشمس وضُحاها* ﴾ قال : الشمس رسول الله ﷺ أوضح للناس دينهم ، قلت : ﴿ *والقمر إذا تلاها* ﴾ قال : ذاك أميرالمؤمنين عليه السلام تلا رسول الله ﷺ ، قلت : ﴿ *والنهار إذا جلّاها* ﴾ قال : ذاك الإمام من ذرّية فاطمة نسل رسول الله ﷺ ، فيجلي ظلام الجور والظلم ، فحكى الله سبحانه عنه فقال : ﴿ *والنهار إذا جلّاها* ﴾ يعني به القائم عليه السلام ، قلت ﴿ *والليل إذا يغشاها* ﴾ قال : ذلك أئمّة الجور الّذين استبدّوا بالاُمور دون آل الرسول [صلوات الله عليهم أجمعين] وجلسوا مجلساً كان آل الرسول أولى به منهم ، فغشوا دين الله بالجور والظلم ، فحكى الله سبحانه

---

(١) الشمس : ١ ـ ٤.

فِعلَهم فقال: ﴿ والليل إذا يغشاها ﴾(١).

النور الشامل:

إنّ من أهمّ مميّزات الليل البارزة ظلامه، ومن النهار نوره وضياؤه، وقد أطلق بنحوٍ شايع علىٰ كلّ ما يكرهه الإنسان في شتّى الجهات بالظلمة كالجهل والشرك والفسق، وعلىٰ كلّ ما يحبّه بالنور كالعلم والتوحيد والإيمان، ولمّا كان الإمام الظاهر المبسوط اليد منبعاً ومصدراً لأنوار الهداية والخيرات، فبعدم حكومته الظاهرية وبذل ما عنده للناس ستكون عليهم الدنيا وكأنها ليلة ظلماء قد غشيتهم ظلمات المكاره والمساوئ، وعند ظهوره ﷺ وحكومته في الأرض ظاهراً تنطمس كلّ آثار الزيغ والفساد. فكأنّ الإمام الصادق ﷺ نزّل ومن هذا المنطلق عدم حكومة الإمام أميرالمؤمنين ﷺ وأولاده منزلة الليل الأظلم حيث اندرست معالم الدين الحنيف وحكمت المسلمين الأهواء المُظلّة، ونزّل ظهور الإمام المهديّ عجّل الله فرجه منزلة النهار الّذي إذا جاء أذهب ضوءه ونوره ظلام الليل(٢)

السادس عشر: الفجر الربّاني الصادق:

قوله تعالى:

﴿وَالفَجرِ * وَلَيَالٍ عَشرٍ * وَالشَّفعِ وَالوَترِ * وَالَّيلِ إِذا يَسرِ﴾(٣)

---

(١) تأويل الآيات الظاهرة: ٢ / ٨٠٥.

(٢) تعليق للسيّد محمّد منير الميلاني محقّق كتاب المحجّة فيما نزل في القائم الحجّة: هامش الصفحة ٢٥٤.

(٣) الفجر: ١ ـ ٤.

روىٰ صاحب كتاب تأويل الآيات الظاهرة قال: روي بالإسناد مرفوعاً عن عمرو بن شمر عن جابر بن يزيد الجعفي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قوله عزّوجلّ: ﴿ والفجر ﴾ الفجر هو القائم عليه السلام، ﴿ وليالٍ عشر ﴾ الأئمّة عليهم السلام من الحسن إلى الحسن، ﴿ والشفع ﴾ أميرالمؤمنين وفاطمة عليهما السلام، ﴿ والوَتر ﴾ هو الله وحده لا شريك له، ﴿ والليل إذا يسر ﴾ هي دولة حبتر فهي تسري إلىٰ دولة [قيام] القائم عليه السلام(١).

السابع عشر: النهار الإلهيّ المتجلي:

قوله تعالى:

﴿ وَالليلِ إذا يَغشىٰ * وَالنَّهارِ إذَا تَجَلّىٰ ﴾ (٢)

روىٰ علي بن إبراهيم قال: أخبرنا أحمد بن ادريس قال: حدّثنا محمّد بن عبدالجبار عن ابن أبي عمير عن حمّاد بن عثمان عن محمّد بن مسلم قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله [عزّوجلّ]: ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ قال: الليل في هذا الموضع الثاني يغشى [فلان غشى] أميرالمؤمنين عليه السلام في دولته الّتي جرت له عليه، وأميرالمؤمنين يصبر في دولتهم حتّى تنقضي، قال: ﴿ والنهار إذا تجلّى ﴾ قال: النهار هو القائم عليه السلام منّا أهل البيت، إذا قام غلبت دولته الباطل، والقرآن ضرب فيه الأمثال للناس وخاطب [الله] نبيّه [به] ونحن فليس يعلمه غيرنا(٣).

---

(١) تأويل الآيات الظاهرة: ٢ / ٧٩٢، و «حبتر» هو إبليس.

(٢) الليل: ١ و ٢.

(٣) تفسير القمّي: ٢ / ٤٢٥.

الفصل الثاني

ولادة الإمام وغَيبته

الشّمس الغائبة:

تنبأت الآيات الكريمة بوقوع ولادة وغَيبة الإمام المهديّ المنتظر، وكذلك بطول أمدها طبقاً للأحاديث الشريفة المؤوّلة لها، ومن هذه الآيات:

أوّلاً: قوله تعالىٰ:

﴿ *فَلا أُقسِمُ بِالخُنَّسِ * الجَوارِ الكُنَّسِ* ﴾ (١)

وقد وردت في تأويلها وتطبيقها علىٰ وقوع غَيبة المهديّ عجّل الله فرجه عدّة أحاديث مروية في المراجع المعتبرة، منها:

١ ـ المروي في كتاب الكافي: محمّد بن يعقوب عن عدّة من أصحابنا عن سعد بن عبد الله عن أحمد بن الحسن عن عمر بن يزيد عن الحسن بن الربيع

---

(١) سورة التكوير: ١٥ ـ ١٦، والآية مورد الإستشهاد هي الأُولىٰ ولكنّنا ذكرناهما معاً لاقترانها في الأحاديث المؤوّلة لها.

الهمداني قال: حدّثنا محمّد بن إسحاق عن أسيد بن ثعلبة عن أُمّ هاني قالت: [لقيت] أبا جعفر محمّد بن علي عليهما السلام فسألته عن هذه الآية: ﴿ *فلا أُقسم بالخُنّس * الجوار الكُنّس* ﴾ قال عليه السلام : الخُنّس إمامٌ يخنس في زمانه عند انقطاع مَن علمه عند الناس سنة ستين ومائتين، ثمّ يبدو كالشهاب الثاقب [الواقد] في ظلمة الليل، فإن أدركتِ ذلك قرّت عينك[١].

٢ـ وعنه عن علي بن محمّد عن جعفر بن محمّد عن موسى بن جعفر البغدادي عن وهيب بن شاذان عن الحسين بن أبي الربيع عن محمّد بن إسحاق عن أُمّ هاني قالت: سألت أبا جعفر محمّد بن علي عليهما السلام عن قول الله عزّوجلّ: ﴿ *فلا أُقسم بالخُنّس * الجوار الكُنّس* ﴾ قالت: فقال: إمام يخنس سنة ستين ومائتين، ثمّ يظهر كالشهاب يتوقّد في الليلة الظلماء، وإذا [فإن] أدركتِ زمانه قرّت عينك[٢].

٣ـ المروي في كتاب الغَيبة لمحمّد بن إبراهيم النعماني قال: أخبرنا سلامة ابن محمّد قال: حدّثنا أحمد بن علي بن داود قال: حدّثنا أحمد ابن الحسن عن عمران بن الحجّاج عن عبد الرحمن بن أبي نجران عن محمّد بن أبي عمير عن محمّد بن إسحاق عن أسيد بن ثعلبة عن أُمّ هاني قالت: قلت لأبي جعفر محمّد ابن علي الباقر عليه السلام : ما معنى قول الله عزّوجلّ: ﴿ *فلا أُقسم بالخُنّس* ﴾ ؟ فقال لي: ياأُمّ هاني إمام يخنس نفسه حتّى ينقطع عن الناس علمه سنة ستين ومائتين، ثمّ يبدو كالشهاب الواقد في الليلة الظلماء،

---

(١) الكافي: ١ / ٣٤١، ورواه الحسين بن حمدان في «الهداية الكبرى» بسنده: ٨٨، والمسعودي في إثبات الوصية: ٢٢٤، والشيخ الطوسي في الغَيبة: ١٠١.

(٢) المصدر السابق: ورواه النعماني في كتاب الغَيبة: ١٥٠.

فإن أدركتِ ذلك الزمان قرّت عينك[١].

٤ـ المروي في كتاب تأويل الآيات الظاهرة: محمّد بن العبّاس، قال: حدّثنا جعفر بن محمّد بن مالك، عن محمّد بن إسماعيل بن السمّان عن موسى ابن جعفر بن وهب عن وهب بن شاذان عن الحسن بن الربيع عن محمّد بن إسحاق قال: حدّثتني أُمّ هاني قالت: سألت أبا جعفر ﷺ عن قول الله عزّوجلّ: ﴿ *فلا أقسم بالخُنّس * الجوار الكُنّس* ﴾ فقال: ياأُمّ هاني إمام يخنس نفسه سنة ستين ومائتين، ثمّ يظهر كالشهاب الثاقب في الليلة الظلماء، فإن أدركتِ زمانه قرّت عينك ياأُمّ هاني[٢].

٥ـ روى الحافظ القندوزي الحنفي قال: روي عن الباقر ﷺ في قوله تعالى: ﴿ *فلا أقسم بالخُنّس* ﴾، قال: الخُنّس إمام يخنس ـ أي يرجع من الظهور إلى الغَيبة ـ سنة ستين ومائتين، ثمّ يبدو كالشهاب الثاقب[٣].

٦ـ وروى الشيخ الصدوق في كتاب كمال الدين: عن محمّد بن مسعود عن نصر بن الصباح عن جعفر بن سهيل قال: حدّثني أبو عبد الله أخو أبي علي الكابلي عن القابوسي عن النضر بن السندي عن خليل بن عمرو عن علي بن الحسين الفزاري عن إبراهيم بن عطية عن أُمّ هاني الثقفية قالت: غدوت على سيّدي محمّد بن علي الباقر ﷺ فقلت: ياسيدي آية من كتاب الله عزّوجلّ عرضت بقلبي فاقلقتني وأسهرت عيني، قال: سلي ياأُمّ هاني قلت: ياسيّدي قول الله عزّوجلّ: ﴿ *فلا أقسم بالخُنّس * الجوار الكُنّس* ﴾ قال: نِعمَ المسألة

---

(١) كتاب الغَيبة: ١٤٩.

(٢) تأويل الآيات الظاهرة: ٢ / ٧٦٩ ح ١٦، وعنه في إثبات الهداة: ٣ / ٥٦٦.

(٣) ينابيع المودّة: ٤٣٠.

سألتيني ياأُمّ هاني، هذا مولود في آخر الزمان هو المهديّ من هذه العترة، يكون له حيرة وغَيبة يضلّ فيها أقوام ويهتدي فيها أقوام، فياطوبىٰ لكِ إن أدركتيه، وياطوبى لمن أدركه(١).

غَيبَةٌ بين ظهورين:

وتتضمن الآية الكريمة ـ استناداً إلىٰ تأويلها وتطبيقها على الإمام المهديّ ـ عدّة دلالات مهمّة أبرزها:

١ـ التصريح بغَيبة الإمام سلام الله عليه، كما هو ظاهر من هذا التشبيه.

٢ـ التصريح بظهوره سلام الله عليه بعد هذه الغَيبة كما يُفهم من تشبيهها لغَيبة الإمام باستتار الكواكب السيّارة كما سيأتي، إذ أنّ استتار هذه الكواكب متبوع بظهورها لاحقاً عندما تزول الأسباب الّتي أدّت إلىٰ استتارها، ولذلك فقد أكّدت الأحاديث المتقدّمة ظهوره كالشهاب الثاقب أو المتوقّد في ظلمة الليل.

٣ـ الإشارة إلىٰ ظهوره سلام الله عليه قبل الغَيبة ولو لفترةٍ محدودة أو لطائفةٍ معيّنة من الأولياء وخلّص الشيعة حيث إنّ الاستتار لاحق لظهور معيّن، فتكون للآية دلالة علىٰ ولادته ومشاهدته كمصداقٍ لظهوره.

٤ـ الإشارة إلىٰ أنّ غَيبة الإمام وظهوره هما بأمر الله تبارك وتعالىٰ، مثلما أنّ حركة الكواكب السيّارة هي بأمره جلّت قدرته.

وهذه الدلالات تجعل بالإمكان تصنيف الآية الكريمة ضمن أبواب أُخرىٰ

(١) كمال الدين: ٣٣٠، وعنه في تفسير الصافي: ٥ / ٢٩٢، وفي إثبات الهداة: ٣ / ٤٦٩، وتفسير نور الثقلين: ٥ / ٥١٧، ومنتخب الأثر: ٢٥٦.

لاحقة، وهي تتّضح من خلال التدبّر في مفردات الآية والآية اللاحقة لها، فالخُنّس: جمع خانس، والخنوس: الانقباض والتأخّر[١] والاستتار فهو يتضمّن معنى الغَيبة. والجواري جمع جارية والجري السير السريع، والكُنّس: جمع كانس، والكنوس: دخول الوحش كالظبي والطير كناسه أي بيته الّذي اتّخذه لنفسه واستقراره فيه[٢].

قيامه بمهامّ الإمامة في غَيبته:

وتطبيق الآيات علىٰ غَيبة المهديّ المنتظر سلام الله عليه يشير إلىٰ جريه وتحرّكه خلال غَيبته وعدم سكونه، ولعلّ في ذلك إشاره إلىٰ قيامه بمهامّ الإمامة ورعاية المسيرة الإسلامية من خلف أستار الغَيبة، حتّىٰ تصل إلىٰ غايتها ومستقرّها، وهي ظاهرة في الانطباق على الإمام المهديّ المنتظر وإمامته مثلما يمكن تطبيقها على الكواكب السيارة وغيرها، كما ذكر المفسّرون[٣]. وعلىٰ أي حال فهي تتضمّن القَسَم بأمر عظيم وأعظم المصاديق أجدر بانطباق الآية بصورة كاملة عليه.

والأحاديث المطبقة المتقدّمة تحدّد هوية المهديّ المنتظر بذكر سنة تولّيه الإمامة وبدء غَيبته الصغرىٰ وهي سنة ٢٦٠ للهجرة وهي سنة وفاة والده الحسن العسكري سلام الله عليه، والأحاديث تضمّنت إخباراً بالغَيب فهي من معجزات الإمام الباقر ﷺ الّذي توفّي قبل وقوع ما أخبر عنه بحدود ١٤٦ عاماً[٤].

---

(١) المفردات للراغب: ١٦١.
(٢) راجع الميزان: ٢٠ / ٢١٦ ـ ٢١٧.
(٣) راجع المصدرين المتقدّمين وغيرهما.
(٤) توفّي سلام الله عليه سنة ١١٤ للهجرة، راجع الإرشاد للشيخ المفيد: ٢ / ١٥٨.

ثانياً: الماء الغائر:

قوله تعالىٰ:

﴿قُل أَرَأَيتُم إِن أَصبَحَ ماؤُكُم غَوراً فَمَن يَأتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ (١)

وقد نقل علماء الحديث طائفةً من الأحاديث الشريفة عن الرسول الأكرم ﷺ وأئمّة عترته الطاهرة صلوات الله عليهم تطبقها على النبوّة بغَيبة المهديّ المنتظر، منها:

١ ـ ما رواه الشيخ الصدوق رحمه الله قال: أخبرنا محمّد بن عبد الله بن المطّلب الشيباني قال: حدّثنا محمّد بن الحسين بن حفص الخثعمي الكوفي قال: حدّثنا عباد بن يعقوب قال: حدّثنا علي بن هاشم عن محمّد بن عبد الله عن أبي عبيدة ابن محمّد بن عمّار عن أبيه عن جدّه عمّار قال:

كنت مع رسول الله ﷺ في بعض غزواته وقَتل علي عليه السلام أصحاب الألوية وفرّق جمعهم، وقَتل عمرو بن عبد الله الجمحي، وقَتل شيبة بن نافع، أتيت رسول الله ﷺ فقلت له: يارسول الله إنّ علياً قد جاهد في الله حقّ جهاده، فقال: لأنه منّي وأنا منه وأنه وارث علمي وقاضي دَيني ومنجز وعدي والخليفة من بعدي، ولولاه لم يُعرف المؤمن المحض بعدي، حربُه حربي وحربي حربُ الله، وسلمُه سلمي وسلمي سلمُ الله، ألا إنّه أبو سبطيّ والأئمّة من صلبه يخرج الله تعالى الأئمّة الراشدين ومنهم مهديّ هذه الأُمّة.

فقلت: بأبي وأُمّي يارسول الله من هذا المهديّ عليه السلام ؟

فقال ﷺ: ياعمّار إنّ الله تبارك عَهِد إليّ أنه يُخرجُ من صُلبِ الحسين عليه السلام

---

(١) الملك: ٣٠.

أئمة تسعة، والتاسع من ولده يغيب عنهم، وذلك قوله عزّوجلّ: ﴿ *قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماءٍ مَعين* ﴾ تكون له غَيبة طويلة يرجع عنها قوم ويثبت عليها آخرون، فإذاكان في آخر الزمان يخرج فيملأ الدنيا قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، ويقاتل على التأويل كما قاتلتُ على التنزيل، وهو سميّي وأشبه الناس بي.

ياعمّار : ستكون بعدي فتنة فإذاكان ذلك فاتّبع علياً عليه السلام واصحبه، فإنه مع الحقّ والحقّ معه.

ياعمّار : إنك ستقاتل بعدي مع علي صِنفين: الناكثين والقاسطين، ثمّ تقتلك الفئة الباغية، قال: يارسول الله أليس ذلك علىٰ رضا الله ورضاك؟ قال: نعم علىٰ رضا الله ورضاي، ويكون آخر زادك من الدنيا شربة من لبن تشربه.

فلمّا كان يوم صفّين خرج عمّار بن ياسر إلىٰ أميرالمؤمنين عليه السلام فقال له: يا أخَ رسول الله صلى الله عليه وآله أتأذن لي في القتال؟ فقال عليه السلام: مهلاً رحمك الله، فلمّا كان بعد ساعة أعاد عليه الكلام فأجابه بمثله، فأعاد عليه ثالثاً فبكى أميرالمؤمنين عليه السلام، فنظر إليه عمّار فقال: ياأميرالمؤمنين إنّه اليوم الّذي وصفه لي رسول الله صلى الله عليه وآله، فنزل أميرالمؤمنين عن بغلته وعانق عمّاراً وودّعه، ثمّ قال: ياأبا اليقظان جزاك عن نبيّك وعنّي خيراً، فنِعم الأخ كنت ونِعم الصاحب كنت، ثمّ بكى عليه السلام وبكى عمّار ثمّ قال: والله ياأميرالمؤمنين ما تبعتك إلّا ببصيرة، فإنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول يوم خيبر : ياعمّار ستكون بعدي فتنة، فاذاكان ذلك فاتّبع علياً وحزبه فإنّه مع الحقّ والحقّ معه، وستقاتل بعدي الناكثين والقاسطين، فجزاك الله ياأميرالمؤمنين عن الإسلام أفضل الجزاء، فلقد أدّيت وأبلغتَ ونصحتَ، ثمّ ركب وركب أميرالمؤمنين عليه السلام.

ثمّ برز إلى القتال، ثمّ دعا بشربة من ماء، فقيل: ما معَنا ماء، فقام إليه رجل

من الأنصار وسقاه شربة من لبن فشربه، ثمّ قال: هكذا عهد إليّ رسول الله ﷺ أن يكون آخر زادي من الدنيا شربة لبن، ثمّ حمل على القوم فقتل ثمانية عشر نفساً، فخرج إليه رجلان من أهل الشام فطعناه وقُتِلَ ﵁.

فلمّا كان في الليل طاف أميرالمؤمنين ﵇ في القتلى ووجد عمّاراً ملقىً بين القتلى فجعل رأسه على فخذه ثمّ بكى عليه، وأنشأ يقول:

ألا أيّها الموت الّذي ليس تاركي ... أرحني فقد أفنيت كلّ خليل
أيا موت كم هذا التفرّق عنوة ... فلست تبقي خلّة لخليل
أراك بصيراً بالّذين نحبّهم ... كأنّك تمضي نحوهم بدليل[1]

٢ـ وروى الشيخ الصدوق أيضاً في كمال الدين قال: حدّثنا أبي ﵀ قال: حدّثنا سعد بن عبد الله قال: حدّثنا أحمد بن محمّد بن عيسى عن موسى بن القاسم عن [ابن] معاوية بن وهب البجلي وأبي قتادة علي بن محمّد بن حفص، عن علي بن جعفر، عن أخيه موسى بن جعفر ﵉، قال: قلت: ما تأويل قول الله عزّوجلّ: ﴿ *قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماءٍ مَعين* ﴾ فقال ﵇: إذا فقدتم إمامكم فلم تروه فماذا تصنعون[2].

٣ـ وروى ﵀ أيضاً في كمال الدين قال: حدّثنا أبي ومحمّد بن الحسن رضي الله عنهما قالا: حدّثنا سعد بن عبد الله قال: حدّثني موسى بن عمر بن يزيد الصيقل عن علي بن أسباط عن علي بن أبي حمزة عن أبي بصير عن أبي جعفر ﵇ في قول الله عزّوجلّ ﴿ *قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماءٍ مَعين* ﴾ فقال: هذه نزلت في الإمام القائم، يقول: إن أصبح إمامكم غائباً عنكم

---

(١) نقله عنه السيّد البحراني في المحجّة: ٢٢٨، ورواه الخزّاز في كفاية الأثر: ١٢٠.
(٢) كمال الدين: ٣٦٠.

لا تدرون أين هو فمن يأتيكم بإمامٍ ظاهر يأتيكم بأخبار السماوات والأرض وحلال الله جلّ وعزّ وحرامه ؟ ثمّ قال عليه السلام : والله ما جاء تأويل هذه الآية ولابدّ أن يجيء تأويلها[١].

٤ـ وروى الشيخ الجليل علي بن إبراهيم في تفسيره قال : حدّثنا محمّد ابن جعفر قال : حدّثنا محمّد بن أحمد عن القاسم بن محمّد قال : حدّثنا إسماعيل ابن علي الفزاري عن محمّد بن جمهور عن فضالة بن أيّوب قال : سئل الرضا عليه السلام عن قول الله عزّوجلّ : ﴿ *قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماءٍ مَعين* ﴾ فقال عليه السلام : ماؤكم أبوابكم ، أي الأئمّة عليهم السلام والأئمّة أبواب الله بينه وبين خلقه (*فمن يأتيكم بماءٍ مَعين* ﴾ يعني بعلم الإمام[٢].

٥ـ وروىٰ ثقة الإسلام الكليني في أُصول الكافي : عن علي بن محمّد عن سهل بن زياد عن موسى بن القاسم بن معاوية البجلي عن علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر عليهما السلام في قول الله عزّوجلّ : ﴿ *قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماءٍ مَعين* ﴾ قال : إذا غاب عنكم إمامكم فمن يأتيكم بإمامٍ جديد[٣]

٦ـ وروى الثقة النعماني في كتاب الغَيبة قال : أخبرنا محمّد بن همّام رحمه الله قال : حدّثنا أحمد بن بندار [ما بندار] قال : حدّثنا أحمد بن هلال عن موسى ابن القاسم بن [عن] معاوية البجلي عن علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر عليهما السلام قال : قلت له : تأويل هذه الآية : ﴿ *قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماءٍ مَعين* ﴾ فقال : إن فقدتم إمامكم فلم تروه فماذا تصنعون ؟

---

(١) كمال الدين : ٣٢٥.
(٢) تفسير القمّي : ٢ / ٣٧٩.
(٣) الكافي : ١ / ٣٣٩.

[قال: إذا فقدتم إمامكم فمن يأتيكم بماءٍ جديد][1].

٧ـ ونقل الاسترآبادي في كتاب تأويل الآيات الظاهرة ما رواه محمّد بن العبّاس عن أحمد بن القاسم عن أحمد بن محمّد بن سيّار عن محمّد بن خالد، عن النضر بن سويد، عن يحيى الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله عزّوجلّ: ﴿ *قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماءٍ مَعين* ﴾ قال عليه السلام: إن غاب إمامكم فمن يأتيكم بإمامٍ جديد[2].

٨ـ وروى الشيخ المفيد بإسناده عن علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر عليهما السلام قال: قلت له: ما تأويل هذه الآية: ﴿ *قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماءٍ مَعين* ﴾ فقال عليه السلام: تأويله: إن فقدتم إمامكم فمن يأتيكم بإمامٍ جديد[3]؟

غَيبة الإمام بأمر الله:

وقد رويت عدّة أحاديث شريفة تطبق الآيات السابقة لهذه الآية الكريمة على ولاية الإمام علي عليه السلام[4] والاحتجاج بها على الزائغين عنها، فهي مطبقة على موضوع الحاجة للإمام المعصوم في كلّ زمان، وقد ورد في تفسير ظاهر هذه الآية الكريمة «الغور ذهاب الماء ونضوبه في الأرض والمراد به الغائر، والمَعين الظاهر الجاري من الماء، والمعنى: أخبروني إن صار ماؤكم غائراً

---

(١) الغَيبة للنعماني: ١٧٦.

(٢) تأويل الآيات الظاهرة: ٢ / ٧٠٩.

(٣) تأويل الآيات الظاهرة: ٢ / ٧٠٨، ورواه المسعودي في إثبات الوصية: ٢٢٦، والطوسي في الغَيبة: ١٠١.

(٤) راجع تفسير البرهان وكنز الدقائق وغيرها في تفسير الآية.

ناضباً في الأرض فمن يأتيكم بماءٍ ظاهرٍ جارٍ[١].

وواضحٌ أنّ المعنى الظاهري للآية يتضمّن معنى الاستتار والغَيبة فيمكن تطبيقها علىٰ غَيبة الإمام.

وحيث إنّ السياق القرآني الّذي ختمته الآية الكريمة يتضمّن احتجاجاً من الله تبارك وتعالىٰ على الكافرين بقدرته عزّوجلّ، لذلك يمكن القول إنّ في الآية الكريمة إشارة إلىٰ أنّ وقوع غَيبة الإمام المهديّ وظهوره هو بأمر الله تبارك وتعالىٰ. ولذلك فهو يرتبط بالحكمة الإلهيّة في تدبير شؤون خلقه،كما أنه يرتبط من جهةٍ أُخرىٰ بموقف العباد من رسالة المهديّ المنتظر وصدقهم في نصرته عليه السلام والإقرار بخطّ الولاية المعصومة الوريثة لخاتم الرسل صلى الله عليه وآله، وهذا المعنىٰ ينبّه له الحديث الأول الّذي يرويه عمّار بن ياسر عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله في تأويل الآية.

أمّا تشبيه الإمام بالماء المَعين فهو يتضمّن عدّة دلالات، منها:

١ـ أنّ حياة الإنسان تتوقّف علىٰ وجود الماء، ولولاه لم يتمكّن من إدامة حياته الجسمية، فكذلك الإمام تتوقّف حياة الإنسان الجسمية والروحية علىٰ وجوده، ودليل ذلك قوله عليه السلام: لولا الحجّة لساخت الأرض بأهلها.

٢ـكما أنّ الماء من مواهب الله تبارك وتعالى وليس للإنسان أيّ تأثير في إيجاده، فكذلك الإمام من أنعم الله الّتي تفضّل بها على الإنسان وليس للإنسان أيّ دور في تعيينه ونصبه حسب الأدلّة الثابتة في محلّها.

٣ـ الماء يذهب به الإنسان أوساخه الجسمية ويتطهّر به من أنواع النجاسات، والإمام هو الّذي يتعرّف به الإنسان علىٰ ربّه ويقف علىٰ أحكام

---

(١) تفسير الميزان: ١٩ / ٣٦٥.

قرآنه وشريعته وبذلك يتخلص من رذائل الشرك والجهل.

٤ـ أنّ للماء الموجود في تخوم الأرض سهماً كبيراً في ثباتها وسيرها حسب نظام دقيق ومعين، كذلك الإمام يستفيد الإنسان ـ بل كلّ الموجودات ـ منه رغم استتاره خلف سحائب الغَيبة وذلك لوساطته في نزول الفيض من الخالق إلى المخلوقين عامّة حسب الأدلّة.

٥ـ كما أنّ الماء يطلبه الإنسان عند افتقاده بالفحص في الأرض وحفر الآبار وغيرها لتوقّف حياته الجسمية عليه، كذلك يلزم عليه الفحص عن الإمام والسعي في التقرّب منه والتشرّف بلقائه والاستفادة من حضوره وتهيئة الجوّ المناسب لحكومته وإقامة العدل في الأرض، حيث لا حياة سعيدة طيّبة للبشر بدون العدل والقسط[1].

الحرمان من الرؤية العلنية:

ومعظم هذه الدلالات تشير إليها الأحاديث الشريفة المتقدّمة وهي تؤكّد لغةَ الاحتجاج الإلهيّ على المنكرين وتصرّح بما أشرنا إليه من أن غَيبة المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه وظهوره هما بأمر الله تبارك وتعالىٰ. أمّا ما ورد في الحديث الثاني والخامس بشأن عدم رؤية الإمام في غَيبته فهو محمولٌ على الرؤية العلنية العامّة مع معرفته لما صحّ في النصوص الكثيرة بشأن رؤيته بالفعل في الغَيبة الصغرىٰ وإمكانية رؤيته في الغَيبة الكبرىٰ ضمن شروط معيّنة، وسيأتي الحديث عن ذلك مفصّلاً في الكتاب الخامس من هذه الموسوعة.

---

(١) هذه الدلالات الخمس ذكرها محقّق كتاب «المحجّة فيما نزل في القائم الحجّة»: هامش صفحة ٢٣٢.

وفي الحديث الأوّل تصريح بطول الغَيبة ولكنّ الآية لا تتطرّق إلىٰ هذا الأمر، ولكنّ الآية التالية تشير لذلك طبق ما ورد في تطبيق معناها علىٰ غَيبة المهديّ المنتظر أرواحنا فداه.

ثالثاً: طول أمد الغَيبة:

قوله تعالى:

﴿ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبلُ فَطَالَ عَلَيهِمُ الأَمَدُ فَقَسَت قُلُوبُهُم وَكَثِيرٌ مِنهُم فَاسِقُون ﴾ (١)

وقد وردت في تطبيقها على الإمام المهديّ وغَيبته سلام الله عليه عدّة أحاديث، منها:

١ ـ ما رواه الشيخ الصدوق في كتابه كمال الدين وتمام النعمة قال: أخبرني علي بن حاتم فيما كتب إليّ قال: حدّثنا حميد بن زياد عن الحسن بن علي بن سماعة عن أحمد بن الحسن الميثمي عن سماعة وغيره عن أبي عبد الله عليه السلام قال: نزلت هذه الآية في القائم عليه السلام: ﴿ ولا يكونوا كالّذين أُوتوا الكتابَ من قبلُ فطالَ عليهِمُ الأمدُ فقسَت قلوبُهم وكثيرٌ منهم فاسقون ﴾ (٢)

٢ ـ وروى الثقة الجليل الشيخ النعماني في كتابه الغَيبة قال: حدّثنا محمّد بن همّام قال: حدّثنا [محمّد بن] حميد بن زياد الكوفي قال: حدّثنا الحسن بن محمّد بن سماعة قال: حدّثنا أحمد بن الحسن الميثمي عن رجل من أصحاب

---

(١) الحديد: ١٦.

(٢) كمال الدين: ٦٦٨، ونقل الفيض الكاشاني الحديث عن كمال الدين في تفسيره «الصافي»: ٥ / ١٣٥ وعلّق عليه بالقول: أقول: لعلّ المراد أنها نزلت في شأن غَيبة القائم عليه السلام وأهلها المؤمنين.

أبي عبد الله جعفر بن محمّد عليهما السلام [أنه] قال: سمعته يقول: نزلت هذه الآية الّتي في سورة الحديد ﴿ *ولا يكونوا كالّذين أوتوا الكتابَ من قبلُ فطالَ عليهِمُ الأمدُ فقسَت قلوبُهم وكثيرٌ منهم فاسقون* ﴾ في أهل زمان الغَيبة، ثمّ قال عزّوجلّ: ﴿ *اعلَمُوا أنّ اللهَ يُحيي الأرضَ بَعد مَوتِها قَد بيّنا لَكُمُ الآياتِ لَعَلَّكُم تَعقِلُون* ﴾ (١) وقال عليه السلام: إنّ [إنّما] الأمد أمد الغَيبة (٢).

٣ـ وروى الشيخ المفيد بإسناده عن محمّد بن همّام عن رجلٍ من أصحاب أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: نزلت هذه الآية ﴿ *ولا يكونوا كالّذين أُوتوا الكتابَ من قبلُ فطالَ عليهِمُ الأمدُ* ﴾ في أهل زمان الغَيبة، فتأويل هذه الآية جارٍ في زمان الغَيبة وأيّامها دون غيرهم، والأمد أمد الغَيبة (٣).

للغَيبة نهاية:

تصرّح الآية الكريمة ـ طبق الأحاديث المطبقة لها علىٰ غَيبة الإمام المهديّ عجّل الله فرجه ـ بطول هذه الغَيبة، والأمد هو الزمان، والفرق بينهما ـ كما قال الراغب في المفردات ـ هو أنّ الأمد يُقال باعتبار الغاية والزمان عامّ في المبدأ والغاية، ولذلك قال بعضهم: إنّ المدىٰ والأمد متقاربان (٤).

والّذي يُفهم من تطبيق الآية علىٰ غَيبة الإمام المهديّ عجّل الله فرجه الشريف أنّ لزمان الغَيبة غاية ينتهي بالوصول إليها، أي أنّ زمانها محدّد في الواقع وإن كان علمه عند الله تبارك وتعالىٰ، والمهمّ هو الوصول إلى الغاية

---

(١) الحديد: ١٧.
(٢) غَيبة النعماني: ٢٤.
(٣) راجع تأويل الآيات: ٢ / ٦٦٢.
(٤) كما في تفسير الميزان: ١٩ / ١٦١.

منها، وقد يكون ذلك بتحقّق الحكمة الإلهيّة من وقوع الغَيبة من التمحيص والابتلاء للمؤمنين، كما سنلاحظ ذلك ضمن الحديث عن الآيات المتحدّثة ـ حسب الأحاديث المطبقة لها ـ عن علّة غَيبة المهديّ ، ونكتفي هنا بالإشارة إلىٰ دلالة تطبيق هذه الآية الكريمة علىٰ غَيبة الإمام المنتظر علىٰ أمرين مهمّين فيما يرتبط بأصل وقوعها، هما:

١ ـ طول أمد هذه الغَيبة.

٢ ـ أنّ لهذه الغَيبة غاية معيّنة تنتهي بتحقّقها وهي حصول الحكمة المرجوّة من وقوعها.

ولتطبيق هذه الآية على الغَيبة المهدوية دلالة أُخرىٰ مهمّة فيما يرتبط بواجبات المؤمنين في عصر الغَيبة سنشير إليها خلال الحديث عن الآيات المطبقة علىٰ هذا الباب.

رابعاً: استيفاء مدد غيبات الأنبياء :

قوله تعالىٰ:

﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ﴾ (١)

١ ـ وقد روى الشيخ الصدوق في كتابه كمال الدين وتمام النعمة حديثاً عن الإمام الصادق قال: حدّثنا المظفّر بن جعفر بن المظفّر العلوي [السمرقندي] قال: حدّثنا جعفر بن محمّد بن مسعود وحيدر بن محمّد السمرقندي جميعاً قالا: حدّثنا محمّد بن مسعود قال: حدّثنا جبريل بن أحمد عن موسى بن جعفر البغدادي قال: حدّثني الحسن بن محمّد الصيرفي عن

(١) الانشقاق: ١٩.

حنان بن سدير عن أبيه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنّ للقائم منّا غَيبة يطول أمدها، فقلت له: ولِمَ ذاك يابن رسول الله؟ قال عليه السلام: لأنّ الله عزّوجلّ أبى إلّا أن يجري فيه سنن الأنبياء عليهم السلام في غَيباتهم، وأنه لابدّ له ياسدير من استيفاء مدد غَيباتهم، قال الله عزّوجلّ: ﴿لتركبُنّ طبقاً عن طبق﴾ أي على سنن من كان قبلكم[1].

٢ـ وروى الثقة علي بن إبراهيم في تفسيره عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: لتركبنّ سنّة مَن كان قبلكم حذو النعل بالنعل والقذّة بالقذّة، لا تخطون طريقهم ولا يخطي شبرٌ بشبرٍ وذرعاً بذراعٍ وباعٍ بباعٍ، حتّى لو كان مَن قبلكم دخل حجر ضبّ لدخلتموه.

قالوا: اليهود والنصارىٰ تعني يارسول الله؟ قال: فمَن أعني؟! لتُنقَض عرىٰ الإسلام عروةً عروة، فيكون أول ما تنقضون من دينكم الإمامة وآخره الصلاة[2].

٣ـ ونقل الطبرسي في تفسيره «جوامع الجامع» في تفسير الآية عن أبي عبيدة: لتركبنّ سنن مَن كان قبلكم من الأوّلين وأحوالهم. وروي ذلك عن الصادق عليه السلام[3].

تكرار العوامل الّتي أدّت إلىٰ غَيبات الأنبياء:

والخطاب في الآية الكريمة هو للناس، والطبق هو الشيء أو الحال الّذي يطابق آخر، سواء كان أحدهما فوق الآخر أم لا، والمراد به كيف كان المرحلة

(١) كمال الدين: ٤٨٠، ورواه في كتابه علل الشرائع: ٢٤٥ باختلاف يسير.

(٢) تفسير القمّي: ٢ / ٤١٣، ومضمون الحديث الشريف مرويّ من طرق أهل السنّة والشيعة.

(٣) كما نقل ذلك عنه العلّامة الطباطبائي في تفسير الميزان: ٢٠ / ٢٤٧.

بعد المرحلة يقطعها الإنسان في كدحه إلىٰ ربه من الحياة الدنيا ثمّ الموت ثمّ الحياة البرزخية ثمّ الانتقال إلى الآخرة ثمّ الحياة الآخرة ثمّ الحساب والجزاء[١]، وهذا هو التفسير الّذي يفيده السياق الّذي وقعت فيه هذه الآية الكريمة، وهو ناظر إلى الحركة السلوكية الفردية للإنسان في كدحه لربّه حتّى يلاقيه.

أمّا تطبيق الآية علىٰ مسيرة المسلمين، فهي ناظرة إلىٰ حركة المجتمع المسلم كتجربة تمرّ بما مرّت به تجارب المجتمعات البشرية الأُخرىٰ الّتي بعث الله تبارك وتعالىٰ لها الأنبياء والرسالات السماوية مثل اليهود والنصارىٰ.

وعلىٰ وفق هذا التطبيق يكون المعنىٰ أن تمرّ التجربة الإسلامية بما مرّت به تجارب الأُمم السالفة من منعطفات، وتصاب بما أُصيبت به من انحرافات وأمراض يجب الرجوع إلى الشريعة الإلهيّة لمعالجتها.

وعليه، فالانحرافات الّتي مرّت بها الأُمم السالفة والّتي أدّت إلىٰ غَيبة طائفة من الأنبياء المرسلين إليهم مثل الّذي جرىٰ لموسىٰ وعيسىٰ وقبلهما إبراهيم عليهم السلام واقعة في مسيرة المسلمين وتأريخهم، الأمر الّذي يؤدّي إلىٰ إجراء مماثل يحفظ الله به من يقوم بمهامّ الأنبياء ـ وهو الإمام المهديّ عليه السلام الهادي بأمر الله.

واستناداً لهذا التطبيق تكون للآية دلالة علىٰ حتمية تعريض القائمين بمهامّ الأنبياء في الهداية إلى الله بأمره في الأُمّة المحمّدية لما يضطرّهم إلى الغَيبة، أو ما يشابهها، وهذا ما جرىٰ لخاتم الأوصياء الإمام المهديّ عجّل الله فرجه، خاصّةً وإنّ أوّل انحراف أصاب هذه الأُمّة هو ما يرتبط بالإمامة، كما يصرّح بذلك الحديث الثاني.

---

(١) تفسير الميزان: ٢٠ / ٢٤٦.

ويستند الحديث الأول إلىٰ جريان سنن الأنبياء في غَيباتهم في الإمام المهديّ عجّل الله فرجه لتفسير طول غَيبة خاتم الأوصياء، ولعلّ في ذلك إشارة إلىٰ اجتماع الأسباب الّتي أدت إلىٰ غَيبات الأنبياء تلك فيما يرتبط بالإمام المهديّ عليه السلام.

خامساً: المهديّ نعمة سابغة في غَيبته وظهوره:

قوله تعالىٰ:

﴿ وَأَسبَغَ عَلَيكُم نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَة ﴾(١)

١ـ روى السيّد علي بن عبد الحميد في كتاب الأنوار المضيئة بإسناده عن السيّد هبة الله الراوندي يرفعه إلى الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في قوله تعالىٰ: ﴿ وأسبغ عليكم نِعَمهُ ظاهرةً وباطنة ﴾ قال: النعمة الظاهرة الإمام الظاهر، والباطنة الإمام الغائب يغيب عن أبصار الناس شخصه ويظهر له كنوز الأرض ويقرّب عليه كلّ بعيد(٢).

٢ـ وروى الشيخ الخزّاز في كتاب كفاية الأثر قال: حدّثنا محمّد بن عبد الله ابن حمزة عن عمّه (الحسن بن حمزة) عن علي بن إبراهيم بن هاشم عن أبيه عن أبي أحمد محمّد بن زياد الأزدي قال: سألت سيّدي موسى بن جعفر عن قول الله عزّوجلّ: ﴿ وأسبغ عليكم نِعَمهُ ظاهرةً وباطنة ﴾ قال: النعمة الظاهرة الإمام الظاهر، والباطنة الإمام الغائب. قال: فقلت له: فيكون في الأئمّة مَن يغيب؟ قال: نعم، يغيب عن أبصار الناس شخصه ولا يغيب عن قلوب

(١) لقمان: ٢٠.

(٢) بحار الأنوار: ٥١ / ٦٤، منتخب الأنوار المضيئة: ٢٠.

المؤمنين ذكره، وهو الثاني عشر منّا، يسهّل الله تعالى له كلّ عسر ويذلّل كلّ صعب ويظهر له كنوز الأرض ويقرّب عليه كلّ بعيد ويبير (ويبتر ـ خ ل) كلّ جبّار عنيد ويهلك علىٰ يده كلّ شيطان مريد، ذلك ابن سيّدة الإماء الّذي يخفى على الناس ولادته، ولا تحلّ لهم تسميته حتّى يظهره الله فيملأ به الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً(١).

٣ـ وروى الحديث المتقدّم الشيخ الصدوق في كمال الدين عن أحمد بن زياد بن جعفر الهمداني ﷺ، قال: حدّثنا علي بن ابراهيم بن هاشم عن أبيه عن حمّاد بن زياد الأزدي وذكر الحديث بعينه(٢).

أسمىٰ النِعم الإلهيّة:

الآية الكريمة الّتي يقع المقطع المتقدّم في سياقها تلفت أنظار بني الإنسان إلى النِعم الجليلة الّتي أسبغها الله على الإنسان بما يعينه على الوصول إلى الله وعبادته الخالصة وتحقيق الغاية من خلقه.

قال العلّامة الطباطبائي: والإسباغ الإتمام والإيساع، أي أتمّ وأوسع عليكم نِعَمه، والنِعم جمع نعمة، وهو في الأصل بناء النوع، وغلب عليه استعماله فيما يلائم الإنسان فيستلذّ منه. والمراد بالنِعم الظاهرة والباطنة بناءً علىٰ كون الخطاب للمشركين النِعم الظاهرة للحسّ كالسمع والبصر وسائر الجوارح والصحّة والعافية والطيّبات من الرزق، والنِعم الغائبة عن الحسّ كالشعور والإرادة والعقل.

---

(١) كفاية الأثر: ٢٦٦.

(٢) كمال الدين: ٣٦٨.

وبناءً علىٰ عموم الخطاب لجميع الناس: الظاهرة من النِعم هي ما ظهر للحسّ كما تقدّم؛ وكالدين الّذي به ينتظم أُمور دنياهم وآخرتهم، والباطنة منها كما تقدّم وكالمقامات المعنوية الّتي تُنال بإخلاص العمل[(١)].

فالآية عامّة تشمل مختلف أشكال النِعم، والإمام المهديّ الهادي بأمر الله تبارك وتعالىٰ هو ـ ولا ريب ـ من أعظمها وأجلّها لارتباطه بهداية الإنسان إلىٰ خالقه وإيصاله إليه وإلى الهدف من خلقه، ولذلك فهو النعيم الحقيقي الّذي يُسأل عنه الإنسان، كما ورد في بعض الأحاديث الشريفة الواردة في تفسير سورة التكاثر[(٢)].

وعليه، فالإمام الهادي بأمر الله ـ سواءً كان نبيّاً أو وصيّاً ـ هو أوضح مصاديق الآية الكريمة وأهمّ أنواع النِعم السابغة، ولذلك نلاحظ الإمام الباقر سلام الله عليه يقول في تفسير الآية عندما تلاها أحدهم في مجلسه: أمّا النعمة الظاهرة فالنبي ﷺ وما جاء به من معرفة الله عزّوجلّ وتوحيده، وأمّا النعمة الباطنة فولايتنا أهل البيت وعقد مودّتنا[(٣)].

والمعيار في تمييز النعمة الظاهرة عن الباطنة هو إدراك ومعرفة الخير الكامن فيها واتّضاح ذلك مقارنة بغيرها الأكثر أو الأقلّ ظهوراً، ولذلك فقد تكون نعمةٌ مّا ظاهرة لطائفةٍ من عباد الله تعالىٰ باطنة وخفيّة لطائفةٍ أُخرىٰ، وقد

---

(١) تفسير الميزان: ١٦ / ٢٣٩.

(٢) روىٰ علي بن ابراهيم القمّي في تفسيره (٢ / ٤٤٠) قال: أخبرنا أحمد بن إدريس عن أحمد بن محمّد عن سلمة بن عطاء عن جميل عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قلتُ: قول الله ﴿لتُسئلنّ يومئذٍ عن النعيم﴾ قال عليه السلام: تُسأل هذه الأمّة عمّا أنعم الله عليهم برسول الله ﷺ ثمّ بأهل بيته المعصومين.

(٣) تفسير القمّي: ٢ / ١٦٥ ـ ١٦٦.

تكون نعمةٌ مّا ظاهرة مقارنة بنعمةٍ أُخرىٰ أقلّ ظهوراً وخفيّة مقارنة بنعمةٍ أكثر ظهوراً، لذلك نلاحظ أنّ الإمام الباقر عليه السلام يعتبر ولاية ومودّة العترة النبوية صلوات الله عليهم أجمعين نعمة باطنة مقارنة بنعمةٍ أكثر وضوحاً هي نعمة وجود النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وما جاء به من معارف التوحيد، فيصفها بأنّها نعمة ظاهرة مقارنة بنعمة الولاية تلك. فيما نرىٰ الإمام الكاظم عليه السلام يعتبر الإمام المهديّ الغائب عجّل الله فرجه نعمة باطنة مقارنة بالإمام الظاهر المشهور الّذي هو نعمة ظاهرة مقارنة بالإمام الغائب.

الانتفاع بالإمام في غَيبته:

وعليه، ففي الآية الكريمة دلالة علىٰ أنّ عدم شهود وظهور نعمةٍ معيّنة لا ينفي وجودها فثمّة نِعم جليلة غير مشهودة وهي الّتي صرّحت الآية بأنها نِعمٌ باطنةٌ. فالنِعم ظاهرة كانت أو باطنة هي نعمٌ إلهية سابغة تامّة. وتطبيق هذا النوع من النِعم الإلهيّة على الإمام المهديّ وغَيبته يحمل عدّة دلالات مهمّة، أبرزها:

١ ـ أنّ وجود الإمام المهديّ الغائب هو نعمة إلهية بل من أجلّها على العباد.

٢ ـ أنّ غَيبة هذا الإمام الهادي بأمر الله تبارك وتعالىٰ لا تشكل عقبة مانعة من الانتفاع به في غَيبته، وإلّا لما كان نعمةً إلهيةً سابغةً تامّة؛ لأنّ النعمة لا تكون سابغةً تامّةً إذا لم يكن بالإمكان الانتفاع بها. فكيف الحال والله تبارك وتعالىٰ يحتجّ بها علىٰ عباده، كما هو واضحٌ من سياق الآية الكريمة؟!

الفصل الثالث

علل وقوع الغَيبة

مدخل:

طبّقت الأحاديث الشريفة عدداً من الآيات الكريمة على القضية المهدوية فيما يرتبط بتوضيح الحكمة من وقوع غَيبة الإمام عجّل الله فرجه.

وقد عرفنا أنّ وقوع الغَيبة كان بأمر الله تبارك وتعالىٰ، والمستفاد من الآيات الّتي نوردها في هذا الفصل أنّ وقوع الغَيبة إجراءٌ لسنّةٍ إلٰهيةٍ ثابتة جارية في خلقه تقضي بهدايتهم إلى الغاية من خلقهم علىٰ وفق الأسباب الطبيعية وإجراء سنّة الامتحان والاختبار والغربلة. والغَيبة وسيلةٌ لتحقيق ذلك.

كما يستفاد من هذه الآيات أنّ الغَيبة وسيلة لتمحيص المؤمنين وترسيخ إيمانهم بالغَيب وإعداد الخطّ الإيماني وتحليته بالصفات المطلوبة، لإقامة المجتمع الصالح الموعود علىٰ يد المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه.

كما أنّ الغَيبة وسيلةٌ لمحق الكافرين وكشف انحرافهم وزيف دعاواهم بما لا يُبقي لهم مجالاً للتأثير المضادّ علىٰ خطط الإمام المهديّ سلام الله عليه،

لإقامة المجتمع الصالح والدولة العادلة الخالية من كلّ شرك ونفاق بعد ظهوره عجّل الله فرجه.

كما أنّ في الغَيبة فرصةً لوصول الحقّ المهدوي للجميع وانتشار الشعور بالحاجة إلى الإمام وما يحقّقه الله تبارك وتعالىٰ علىٰ يديه، وظهور الودائع الإلهيّة الجديرة بالعيش في دولة المهديّ حتّى لو كانت تخرج من أصلاب الكافرين.

كما أنّ الغَيبة إجراء إلهي لحفظ وجود الإمام الهادي بأمره لكي يواصل القيام بمهامّ الإمامة فلا ينقطع اتّصال وجود حججه الموكّلين بحفظ رسالته، بعد أن أدّىٰ الانحراف عن خطّ الولاية والعترة النبوية إلىٰ إيجاد تهديدات مباشرة لاستمرار وجود سلسلة الإمامة.

نتابع تفصيلات هذه الحقائق في هذا الفصل بذكر الآيات المشار إليها آنفاً.

أوّلاً: الغَيبة والتمحيص والمحق:

قوله تعالىٰ:

﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ (١)

فقد طبّقتها الأحاديث الشريفة علىٰ غَيبة المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه وتبيين علّتها، منها:

١ ـ أخرج الفقيه الشافعي الحمويني بسنده المذكور قال: عن سعيد بن جبير، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: إنّ علياً وصيّي ومن ولده (القائم) المنتظر الّذي يملأ به الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً

(١) آل عمران: ١٤١.

وظلماً، والّذي بعثني بالحقّ بشيراً ونذيراً إنّ الثابتين على القول بإمامته في زمان غَيبته لأعزّ من الكبريت الأحمر.

فقام إليه جابر بن عبد الله الأنصاري فقال: يارسول الله وللقائم من ولدك غَيبة؟ قال ﷺ: إي وربّي ﴿ ليمحّص الله الّذين آمنوا ويَمحق الكافرين ﴾. ياجابر: إنّ هذا الأمر من أمر الله، وسرٌّ من سرّ الله، علمه مطويّ عن عباده، فإيّاك والشكّ، فإنّ الشكّ في أمر الله عزّوجلّ كفر[(١)].

٢ـ وروى الشيخ الصدوق في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلىٰ ابن عبّاس عن سيّد المرسلين ﷺ أنّه قال: إنّ علي بن أبي طالب ؈ إمام أُمّتي وخليفتي عليها من بعدي ومن ولده القائم المنتظر الّذي يملأ الله به الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً، والّذي بعثني بالحقّ بشيراً ونذيراً إنّ الثابتين على القول به في زمان غَيبته لأعزّ من الكبريت الأحمر.

فقام إليه جابر بن عبد الله الأنصاري فقال: يارسول الله للقائم من ولدك غَيبة؟ قال: إي وربّي ﴿ وليمحّص الله الّذين آمنوا ويَمحق الكافرين ﴾. ياجابر إنّ هذا الأمر [أمرٌ] من أمر الله، وسرٌّ من سرّ الله مطويّ عن عباد الله، فإيّاك والشكّ فيه، فإنّ الشكّ في أمر الله عزّوجلّ كفر[(٢)].

معنى التمحيص للإيمان والمحق للكفر:

تقع الآية الكريمة في سياق طائفة من الآيات الكريمة[(٣)] الّتي تتحدّث عن

---

(١) فرائد السمطين: ٢ / ٣٣٦.

(٢) كمال الدين: ٢٨٧ ـ ٢٨٨ ح ٧.

(٣) آل عمران الآيات ١٣٩ ـ ١٤٨، وهي تشتمل علىٰ أصل المقصود من الأوامر والنواهي الواردة في الآيات الّتي قبلها والّتي تتحدّث عن هزيمة المسلمين في معركة أُحد.

جملة من قوانين وسنّن الصراع بين أنصار الحقّ والرسل والربّيين وبين الظالمين، والأهداف الإلهيّة المتوخّاة من أمر المؤمنين بدخول هذا الصراع ونهيهم عن التهاون والتقاعس والضعف والاستكانة، وتوضيح الحكمة من مداولة الأيّام بين الناس، والسماح للاتّجاهات المختلفة بالوصول للسلطة والحكم، فهذه الحكمة ترتبط بتربية الإنسانية وغربلة أجيالها المؤمنة.

وقد ذكر العلّامة الطباطبائي عند تفسيره لهذه الآية معنى هذين الاصطلاحين قائلاً: التمحيص هو تخليص الشيء من الشوائب الخارجة، والمحق إنفاذ الشيء تدريجاً وإزالته شيئاً فشيئاً، وهذا التمحيص من حكم مداولة الأيّام ومصالحها، وهو غير العلم بالذين آمنوا الّذي هو أيضاً من حكم مداولة الأيّام، فإن تمييز المؤمن من غير المؤمن أمرٌ وتخليص إيمانه بعد التمييز من شوائب الكفر والنفاق والفسوق أمرٌ آخر، ولذلك قوبل بالمحقّ للكافرين، فالله سبحانه يزيل أجزاء الكفر ونحوه من المؤمن شيئاً فشيئاً حتّى لا يبقىٰ إلّا إيمانُهُ فيكون خالصاً لله ويبيد أجزاء الكفر والشرك والكيد من الكافر شيئاً فشيئاً حتّى لا يبقىٰ شيء[1].

حكمة مداولة الأيّام بين الناس:

وبعد توضيح معنى التمحيص في الآية الكريمة يبيّن العلّامة الطباطبائي ارتباطه بمفهوم الآية السابقة لها: ﴿ ***وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ*** ﴾[2]. ثمّ يبيّن ارتباط آية التمحيص بالآية اللاحقة، ويعقب ذلك بحديث بشأن الامتحان الإلهيّ، وننقل

---

(١) تفسير الميزان: ٤ / ٢٩.

(٢) آل عمران: ١٤٠.

هنا كلامه هذا بالكامل لشدّة ارتباطه بموضوع حكمة غَيبة المـهديّ عـجّل الله فرجه، ثمّ نعمد بعده إلىٰ تلخيص الدلالات المستفادة من تطبيق الآية الكريمة علىٰ موضوع علّة الغَيبة.

يقول ﷺ بعد توضيحه المتقدّم لمعنى التمحيص وثماره: فـهذه وجـوهٌ مـن الحكمة في مداولته تعالى الأيّام بين الناس، وعـدم اسـتمرار الدولة بـين قـوم خاصّ [سواء فئة معيّنة أو اتّجاه فكري معيّن]، ولله الأمر كلّه يفعل ما يشاء ولا يفعل إلّا الأصلح الأنفع كما قال: ﴿*كَذَلِكَ يَضرِبُ اللهُ الحَقَّ والبَاطِلَ فأمّـا الزَّبـدُ فَيذهَبُ جُفَاءً وَأمّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيمكُثُ فِي الأرضِ*﴾[(١)]، وقد قال الله تعالى قبيل هذه الآيات: ﴿*لِيَقطعَ طرَفاً مِنَ الّذِينَ كَفَرُوا أو يَكبِتَهُم فَينقَلِبُوا خَائِبِين * لَيسَ لَكَ مِنَ الأمرِ شَيءٌ أو يَتُوبَ عَلَيهِم أو يُعَذِّبَهُم فإنّهُم ظَالِمُون*﴾[(٢)] فنفى أن يكون لنبيّه من الأمر شيء، وقصر الأمر في نفسه يحكم في خلقه كيف يشاء.

مداولة الأيّام وسيلة التمحيص والمحق[(٣)]:

وهذا الكلام ـ أعني ما يبيّن أنّ الأيّام مقسومة بين الناس لغرض الامـتحان وتمييز المؤمن من الكافر وتمحيص المؤمنين ومحق الكافرين مع ما مرّ مـن نفي رجوع الأمر إلى النبيّ ﷺ ـ يكشف عن أنّ المؤمنين كان يظنّ أكثرهم أنّ كونهم علىٰ دين الحقّ سبب تامّ في غلبتهم أينما غزوا، وظهورهم على الباطل كيفما كانوا، فهم يملكون الأمر لا يدفعون عن ذلك، وقد أجرأهـم عـلىٰ هـذا

---

(١) الرعد: ١٧.

(٢) آل عمران: ١٢٧ و ١٢٨.

(٣) لقد أشرنا سابقاً بأنّ العناوين الجانبية ليست مـن أصـل المـصدر وإنّـما وضـعناها لمـزيد التوضيح.

الحسبان ما شاهدوه يوم بدر من ظهورهم العجيب علىٰ عدوّهم ونزول ملائكة النصر، وهذا ظنٌّ فاسدٌ يوجب بطلان نظام الامتحان والتمحيص، وفي ذلك بطلان مصلحة الأمر والنهي والثواب والعقاب، ويؤدّي ذلك إلىٰ انهدام أساس الدين، فإنّما الدين دين الفطرة غير مبنيّ علىٰ خرق العادة الجارية والسنّة الإلهيّة القائمة في الوجود بابتناء الغلبة والهزيمة علىٰ أسبابهما العادية.

شرع سبحانه ـ بعد بيان أنّ الأيّام دول متداولة لغرض الامتحان والابتلاء ـ في ملامتهم في حسبان هذا النظر الباطل وبيان حقيقة الحال فقال: «أم حسبتم... إلىٰ آخر الآيات».

حتمية الامتحان:

قوله تعالى: ﴿*أَم حَسِبتُم أَن تَدخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَعلَمِ اللَّهُ*﴾... إلىٰ آخر الآيتين[1]، وهذا ـ أعني ظنّهم أن يدخلوا الجنّة من غير أن يمتحنوا ـ لازم الظنّ المذكور آنفاً، وهو أنّهم لمّا كانوا على الحقّ والحقّ لا يُغلب عليه، فأمر الظفر والغلبة إليهم، لن ينهزموا ولن يُغلبوا أبداً، ومن المعلوم أنّ لازم هذا الظنّ أن يكون كلّ من آمن بالنبيّ ولحق بجماعة المؤمنين سعيداً في دنياه بالغلبة والغنيمة، وسعيداً في آخرته بالمغفرة والجنّة، ويبطل الفرق بين ظاهر الإيمان وحقيقته ويرتفع التمايز بين الدرجات، فإيمان المجاهد وإيمان المجاهد الصابر واحد، ومن تمنّى خيراً ففعله إذا حان حينه كان كمن تمنّى خيراً ثمّ تولّى إذا أصابه.

وعلىٰ هذا، فقوله: «أم حسبتم أن تدخلوا...إلخ» من قبيل وضع المسبّب

---

(١) آل عمران: ١٤٢ و ١٤٣.

موضع السبب، أي حسبتم أنّ الدولة مكتوبة لكم فأنتم لا تبتلون بل تدخلون الجنّة من غير أن يتميّز المستحقّ لها مِنكم من غير المستحقّ وصاحب الدرجة الرفيعة منكم من غيره؟

وأمّا قوله تعالى: ﴿ وَلَقَد كُنتُم تَمَنَّونَ المَوتَ ﴾... الآية[1] ففيه تثبيت أنّ ظنّهم ذاك كان فاسداً فإنّهم كانوا يتمنّون الموت قبل حضور الغزوة، حتّى إذا حضرت ورأوه رأي العين لم يقدموا ولم يتناولوا ماكانوا يتمنّونه، بل فشلوا وتولّوا عن القتال، فهل كان من الجائز أن يدخلوا الجنّة بمجرّد هذا التمنّي من غير أن يُمتحنوا أو يُمحصوا؟ أوَ لم يكن من الواجب أن يُختبروا؟

وبهذا، يظهر أنّ في الكلام تقديراً، والمعنى: فقد رأيتموه وأنتم تنظرون فلم تقدموا عليه، ويمكن أن يكون قوله: «تنظرون» كناية عن عدم إقدامهم، أي تكتفون بمجرّد النظر من غير إقدام، وفيه عتابٌ وتوبيخ.

كلامٌ في الامتحان وحقيقته

الهداية العامّة إلى الغاية من الخلق:

لا ريب أن القرآن الكريم يخصّ أمر الهداية بالله سبحانه، غير أنّ الهداية فيه لا تنحصر في الهداية الاختيارية إلىٰ سعادة الآخرة أو الدنيا، فقد قال تعالى فيما قال: ﴿ الَّذِي أعطَى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَه ثُمّ هَدىٰ ﴾[2] فعمّم الهداية لكلّ شيءٍ من ذوي الشعور والعقل وغيرهم، وأطلقها أيضاً من جهة الغاية،

(١) آل عمران: ١٤٣.
(٢) طه: ٥٠.

وقال أيضاً: ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ (١) والآية من جهة الإطلاق كسابقتها.

ومن هنا يظهر أنّ هذه الهداية غير الهداية الخاصّة الّتي تقابل الإضلال، فإنّ الله سبحانه نفاها وأثبت مكانها الضلال في طوائف، والهداية العامّة لا تنفى عن شيءٍ من خلقه، قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢)، وقال: ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٣)، إلىٰ غير ذلك من الآيات الكثيرة.

وكذا يظهر أيضاً أنّ الهداية المذكورة غير الهداية بمعنى إراءة الطريق العامّة للمؤمن والكافر كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ (٤)، وقوله: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ (٥)، فإنّ ما في هاتين الآيتين ونظائرهما من الهداية لا يعمّ غير أرباب الشعور والعقل، وقد عرفت أنّ ما في قوله: «ثمّ هدى» وقوله: «والّذي قدّر فهدى» عامّ من حيث المورد والغاية جميعاً، علىٰ أنّ الآية الثانية تفرّع الهداية على التقدير، والهداية الخاصّة لا تلائم التقدير الّذي هو تهيئة الأسباب والعلل لسَوق الشيء إلىٰ غاية خلقته، وإن كانت تلك الهداية أيضاً من جهة النظام العامّ في العالم داخلة في حيطة التقدير لكنّ النظر غير النظر، فافهم ذلك.

هداية كلّ مخلوق إلىٰ كمال وجوده:

وكيف كان، فهذه الهداية العامّة هي هدايته تعالى كلّ شيء إلىٰ كمال

(١) الأعلى: ٢ و ٣.
(٢) البقرة: ٢٥٨، آل عمران: ٨٦، التوبة: ٨٩ و ١٠٩، الصفّ: ٧، الجمعة: ٥.
(٣) المائدة: ١٠٨، التوبة: ٢٤ و ٨٠، الصفّ: ٥.
(٤) الإنسان: ٣.
(٥) فصّلت: ١٧.

وجوده، وإيصاله إلىٰ غاية خلقته، وهي الّتي بها نزوع كلّ شيء إلىٰ ما يقتضيه قوام ذاته من نشوء واستكمال وأفعال وحركات وغير ذلك، وللكلام ذيل طويل سنشرحه إن ساعدنا التوفيق إن شاء الله العزيز.

والغرض، أنّ كلامه تعالى يدلّ علىٰ أنّ الأشياء إنّما تنساق إلىٰ غاياتها وآجالها بهداية عامّة إلهية لا يشذّ عنها شاذّ، وقد جعلها الله تعالى حقّاً لها علىٰ نفسه وهو لا يخلف الميعاد، كما قال تعالى: ﴿ *إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى * وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى* ﴾(١) والآية كما ترى تعمّ بإطلاقها الهداية الاجتماعية للمجتمعات والهداية الفردية مضافةً إلىٰ ما تدلّ عليه الآيتان السابقتان.

حقّ المخلوقات على الله:

فمن حقّ الأشياء على الله تعالى هدايتها تكويناً إلىٰ كمالها المقدّر لها وهدايتها إلىٰ كمالها المشرّع لها، وقد عرفت فيما مرّ من مباحث النبوّة أنّ التشريع كيف يدخل في التكوين وكيف يحيط به القضاء والقدر، فإنّ النوع الإنساني له نوع وجود لا يتمّ أمره إلّا بسلسلة من الأفعال الاختيارية الإرادية الّتي لا تقع إلّا عن اعتقادات نظرية وعملية، فلابدّ أن يعيش تحت قوانين حقّة أو باطلة، جيّدة أو ردية، فلابدّ لسائق التكوين أن يهيّئ له سلسلة من الأوامر والنواهي (الشريعة) وسلسلة أُخرى من الحوادث الاجتماعية والفردية حتّى يخرج بتلاقيه معهما ما في قوته إلى الفعل فيسعد أو يشقى ويظهر ما في مكمن وجوده، وعند ذلك ينطبق علىٰ هذه الحوادث وهذا التشريع اسم المحنة والبلاء ونحوهما.

---

(١) الليل: ١٢ و ١٣.

توضيح ذلك: أنّ من لم يتّبع الدعوة الإلهيّة واستوجب لنفسه الشقاء فقد حقّت عليه كلمة العذاب إن بقي علىٰ تلك الحال، فكلّ ما يستقبله من الحوادث المتعلّقة بها الأوامر والنواهي الإلهيّة ويخرج بها من القوّة إلى الفعل تتمّ له بذلك فعلية جديدة من الشقاء وإن كان راضياً بما عنده مغروراً بما يجده، فليس ذلك إلّا مكراً إلهياً فإنّه يشقّيهم بعين ما يحسبونه سعادةً لأنفسهم ويخيب سعيهم في ما يظنونه فوزاً لأنفسهم، قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيرُ المَاكِرِين﴾[1]، وقال: ﴿وَلَا يَحِيقُ المَكرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهلِهِ﴾[2]، وقال: ﴿لِيَمكرُوا فِيهَا وَمَا يَمكُرُون إِلَّا بِأَنفسِهِم وَمَا يَشعُرُون﴾[3]، وقال: ﴿سَنستَدرِجُهُم مِن حَيثُ لَا يَعلَمُون * وَأُملي لَهُم إِنّ كَيدِي مَتِين﴾[4] فما يتبجّح به المغرور الجاهل بأمر الله أنه سبق ربّه في ما أراده منه بالمخالفة والتمرّد، فإنّه يعينه علىٰ نفسه فيما أراده، قال تعالى: ﴿أَم حَسِبَ الَّذِينَ يَعمَلُونَ السَّيِّئاتِ أَن يَسبِقُونا سَاءَ مَا يَحكُمُون﴾[5]، ومن أعجب الآيات في هذا الباب قوله تعالى: ﴿فَللهِ المَكرُ جَمِيعاً﴾[6].

فجميع هذه المماكرات والمخالفات والمظالم والتعدّيات الّتي تظهر من هؤلاء بالنسبة إلى الوظائف الدينية وكلّ ما يستقبلهم من حوادث الأيّام ويظهر بها منهم ما أضمروه في قلوبهم ودعتهم إلىٰ ذلك أهواؤهم مكرٌ إلهيٌّ وإملاءٌ واستدراج، فإنّ من حقّهم على الله أن يهديهم إلىٰ عاقبة أمرهم وخاتمته

---

(١) آل عمران: ٥٤.

(٢) فاطر: ٤٣.

(٣) الأنعام: ١٢٣.

(٤) الأعراف: ١٨٢ و ١٨٣.

(٥) العنكبوت: ٤.

(٦) الرعد: ٤٢.

وقد فعل، والله غالبٌ علىٰ أمره.

وهذه الأُمور بعينها إذا نُسبت إلى الشيطان كانت أقسام الكفر والمعاصي إغواءً منه لهم، والنزوع إليها دعوةً ووسوسةً ونزعةً ووحياً وإضلالاً، والحوادث الداعية وما يجري مجراها زينةً له ووسائل وحبائل وشبكات منه، علىٰ ما سيجيء بيانه في سورة الأعراف إن شاء الله تعالى.

وأمّا المؤمن الّذي رسخ في قلبه الإيمان فما تظهر منه من الطاعات والعبادات، وكذا الحوادث الّتي تستقبله فيظهر منه عندها ذلك ينطبق عليها مفهوم التوفيق والولاية الإلهيّة والهداية بالمعنى الأخصّ نوع انطباق، قال تعالى: ﴿ *وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ* ﴾[1]، وقال: ﴿ *وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ* ﴾[2]، وقال: ﴿ *اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ* ﴾[3]، وقال: ﴿ *يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ* ﴾[4]، وقال: ﴿ *أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ* ﴾[5]. هذا إذا نُسبت هذه الأُمور إلى الله سبحانه، وأمّا إذا نُسبت إلى الملائكة فتسمّى تأييداً وتسديداً منهم، قال تعالى: ﴿ *أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ* ﴾[6].

ثمّ إنّه كما أنّ الهداية العامّة تصاحب الأشياء من بدء كونها إلىٰ آخر أحيان وجودها ما دامت سالكة سبيل الرجوع إلى الله سبحانه، كذلك المقادير تدفعها

---

(١) آل عمران: ١٣.

(٢) آل عمران: ٦٨.

(٣) البقرة: ٢٥٧.

(٤) يونس: ٩.

(٥) الأنعام: ١٢٢.

(٦) المجادلة: ٢٢.

من ورائها، كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ (١) فإنّ المقادير الّتي تحملها العلل والأسباب المحتفة بوجود الشيء هي الّتي تحول الشيء من حالٍ أُولى إلىٰ حال ثانية، وهلمّ جرّاً، فهي لا تزال تدفع الأشياء من ورائها.

وكما أنّ المقادير تدفعها من ورائها كذلك الآجال (وهي آخر ما ينتهي إليه وجود الأشياء) تجذبها من أمامها كما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴾ (٢) فإنّ الآية تربط الأشياء بغاياتها وهي الآجال، والشيئان المرتبطان إذا قوي أحدهما على الآخر كان حاله بالنسبة إلىٰ قرينه هو المسمّى جذباً، والآجال المسمّاة أُمور ثابتة غير متغيّرة فهي تجذب الأشياء من أمامها، وهو ظاهر.

فالأشياء محاطة بقوى إلهية: قوّة تدفعها، وقوّة تجذبها، وقوّة تصاحبها وتربّيها، وهي القوى الأصلية الّتي تثبتها القرآن الكريم غير القوى الحافظة والرقباء والقرناء كالملائكة والشياطين وغير ذلك.

معنى الامتحان:

ثمّ إنّا نسمّي نوع التصرّفات في الشيء - إذا قصد به مقصد لا يظهر حاله بالنسبة إليه هل له صلوحه أو ليس له؟ - بالامتحان والاختبار، فإنّك إذا جهلت حال الشيء أنّه هل يصلح لأمر كذا أو لا يصلح؟ أو علمت باطن أمره ولكن أردت أن يظهر منه ذلك أوردت عليه أشياء ممّا يلائم المقصد المذكور حتّى

---

(١) الأعلى: ٣.

(٢) الأحقاف: ٣.

يظهر حاله بذلك هل يقبلها لنفسه أو يدفعها عن نفسه ؟ وتسمّى ذلك امتحاناً واختباراً واستعلاماً لحاله أو ما يقاربها من الألفاظ.

وهذا المعنى بعينه ينطبق على التصرّف الإلهيّ بما يورده من الشرائع والحوادث الجارية علىٰ أُولي الشعور والعقل من الأشياء كالإنسان، فإنّ هذه الأُمور يظهر بها حال الإنسان بالنسبة إلى المقصد الّذي يدّعى إليه الإنسان بالدعوة الدينية فهي امتحانات إلهية.

وإنّما الفرق بين الامتحان الإلهيّ وما عندنا من الامتحان أنّا لا نخلو غالباً عن الجهل بما في باطن الأشياء فنريد بالامتحان استعلام حالها المجهول لنا، والله سبحانه يمتنع عليه الجهل وعنده مفاتح الغَيب، فالتربية العامّة الإلهيّة للإنسان من جهة دعوته إلىٰ حسن العاقبة والسعادة امتحان، لأنّه يظهر ويتعيّن بها حال الشيء أنه من أهل أيّ الدارين دار الثواب أو دار العقاب ؟

ولذلك سمّى الله تعالى هذا التصرّف الإلهيّ من نفسه ـ أعني التشريع وتوجيه الحوادث ـ بلاءً وابتلاءً وفتنة، فقال بوجه عامّ: ﴿ *إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُم أَيُّهُم أَحسَنُ عَمَلاً* ﴾ [1]، وقال: ﴿ *إِنَّا خَلَقْنَا الإنسَانَ مِن نُطفَةٍ أَمشَاجٍ نَبتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً* ﴾ [2]، وقال: ﴿ *وَنَبلُوكُم بِالشَّرِّ وَالخَيرِ فِتنَةً* ﴾ [3] وكأنه يريد به ما يفصّله قوله: ﴿ *فَأَمَّا الإنسَانُ إِذَا مَا ابتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكرَمَهُ وَنَعَّمَه فَيَقُولُ رَبِّي أَكرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابتَلاه فَقَدَر عَلَيهِ رِزقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ* ﴾ [4]،

---

(١) الكهف: ٧.
(٢) الإنسان: ٢.
(٣) الأنبياء: ٣٥.
(٤) الفجر: ١٥ و ١٦.

وقال: ﴿إِنَّمَا أَموَالُكُم وَأَولَادُكُم فِتنَةٌ﴾[١]، وقال: ﴿وَلَكِن لِيَبلُوَ بَعضَكُم بِبَعضٍ﴾[٢]، وقال: ﴿كَذَلِكَ نَبلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفسُقُونَ﴾[٣]، وقال: ﴿وَلِيُبلِيَ المُؤمِنِينَ مِنهُ بَلاءً حَسَناً﴾[٤]، وقال: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُترَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُم لَا يُفتَنُونَ * وَلَقَد فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبلِهِم فَلَيَعلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعلَمَنَّ الكَاذِبِينَ﴾[٥]، وقال في مثل إبراهيم: ﴿وَإِذِ ابتَلَىٰ إِبراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾[٦]، وقال في قصّة ذبح إسماعيل: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ البَلاءُ المُبِينُ﴾[٧]، وقال في موسى: ﴿وَفَتَنّاكَ فُتُوناً﴾[٨]، إلىٰ غير ذلك من الآيات.

والآيات كما ترى تعمّم المحنة والبلاء لجميع ما يرتبط به الإنسان من وجوده وأجزاء وجوده كالسمع والبصر والحياة، والخارج من وجوده المرتبط به بنحوٍ كالأولاد والأزواج والعشيرة والأصدقاء والمال والجاه وجميع ما ينتفع به نوع انتفاع، وكذا مقابلات هذه الامور كالموت وسائر المصائب المتوجّهة إليه. وبالجملة، الآيات تعدّ كلّ ما يرتبط به الإنسان من أجزاء العالم وأحوالها فتنةً وبلاءً من الله سبحانه بالنسبة إليه.

وفيها تعميمٌ آخر من حيث الأفراد، فالكلّ مفتنون مبتلون من مؤمن أو كافر، وصالح أو طالح، ونبيّ أو من دونه، فهي سنّة جارية لا يُستثنى منها أحد.

---

(١) التغابن: ١٥.

(٢) محمّد: ٤.

(٣) الأعراف: ١٦٣.

(٤) الأنفال: ١٧.

(٥) العنكبوت: ٢ و ٣.

(٦) البقرة: ١٢٤.

(٧) الصافات: ١٠٦.

(٨) طه: ٤٠.

الامتحان سنّة إلهية جارية:

فقد بان أنّ سنّة الامتحان سنّةٌ إلهية جارية، وهي سنّةٌ عمليةٌ متكئة علىٰ سنّةٍ أُخرى تكوينية، وهي سنّة الهداية العامّة الإلهيّة من حيث تعلّقها بالمكلّفين كالإنسان وما يتقدّمها وما يتأخّر عنها، أعني القدر والأجل، كما مرّ بيانه.

ومن هنا يظهر أنّها غير قابلة للنسخ، فإنّ انتساخها عين فساد التكوين وهو محال، ويشير إلىٰ ذلك ما يدلّ من الآيات علىٰ كون الخلقة على الحقّ، وما يدلّ علىٰ كون البعث حقاً كقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ﴾[٤] إلىٰ غيرها، فإنّ جميعها تدلّ علىٰ أنّ الخلقة بالحقّ وليست باطلة مقطوعة عن الغاية، وإذا كانت أمام الأشياء غايات وآجال حقّة ومن ورائها مقادير حقّة ومعها هداية حقّة فلا مناص عن تصادمها عامّة، وابتلاء أرباب التكليف منها خاصّة بامور يخرج بالاتّصال بها ما في قوّتها من الكمال والنقص والسعادة والشقاء إلىٰ الفعل، وهذا المعنى في الإنسان المكلّف بتكليف الدين امتحانٌ وابتلاء، فافهم ذلك.

ويظهر ممّا ذكرناه معنى المحق والتمحيص أيضاً، فإنّ الامتحان إذا ورد على المؤمن فأوجب امتياز فضائله الكامنة من الرذائل أو ورد على الجماعة

---

(١) الأحقاف: ٣.

(٢) المؤمنون: ١١٥.

(٣) الدخان: ٣٨ و ٣٩.

(٤) العنكبوت: ٥.

فاقتضى امتياز المؤمنين من المنافقين والّذين في قلوبهم مرض صدق عليه اسم التمحيص وهو التمييز.

وكذا إذا توالت الامتحانات الإلهيّة على الكافر والمنافق وفي ظاهرهما صفات وأحوال حسنة مغبوطة فأوجبت تدريجاً ظهور ما في باطنهما من الخبائث، وكلّما ظهرت خبيثة أزالت فضيلة ظاهرية كان ذلك محقاً له، أي إنفاداً تدريجياً لمحاسنها، قال تعالى: ﴿ *وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ* ﴾ (١).

وللكافرين محقٌّ آخر من جهة ما يخبره تعالى أنّ الكون ينساق إلىٰ صلاح البشر وخلوص الدين لله، قال تعالى: ﴿ *وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى* ﴾ (٢)، وقال: ﴿ *أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ* ﴾ (٣) (٤).

الدلالات المستفادة من الآية

يتّضح من البحث القرآني المتقدّم، ومن تطبيق الآية الكريمة علىٰ غَيبة الإمام المهديّ عجّل الله فرجه عدّة أُمور مهمّة فيما يرتبط بموضوع البحث نشير إلىٰ أهمّها:

١ ـ إنّ سنّة الهداية الإلهيّة العامّة إلىٰ تحقّق الغاية من الخلق سنّةٌ ثابتة تجري علىٰ كلّ المخلوقات، فهي سنّةٌ تكوينية تجري على المجتمع الإنساني كما تجري علىٰ غيره، وحيث إنّ الغاية من خلق المجتمع الإنساني هي تحقّق كماله

(١) آل عمران: ١٤٠ و ١٤١.

(٢) طه: ١٣٢.

(٣) الأنبياء: ١٠٥.

(٤) تفسير الميزان: ٤ / ٢٩ ـ ٣٦.

الوجودي بإخلاص العبادة الحقّة لله تبارك وتعالىٰ علىٰ الصعيد الفردي والاجتماعي ـ كما تقدّم الحديث عن ذلك ضمن المجموعة الثانية من الآيات المتحدّثة عن الدور التأريخي للإمام المهديّ عجّل الله فرجه الشريف ـ لذا فإنّ تحقّق هذا الهدف والغاية حتميّ تقود إليه الهداية الإلهيّة العامّة فلا يغلبها في ذلك شيء؛ لأنّ الله غالبٌ علىٰ أمره.

٢ـ ولكن تحقّق هذه الغاية وما تقتضيه سنّة الهداية الإلهيّة لا يكون بالمعجزة، لأنّ سنّةٌ إلهية أُخرىٰ اقتضت إجراء الأُمور ضمن الأسباب العادية وربط الأُمور بهذه الأسباب.

٣ـ لذلك اقترنت سنّة الهداية الإلهيّة العامّة وهي سنّة تكوينية بسنّة الامتحان والتمحيص والمحق الإلهيّ بما يعنيه من إزالة إجزاء الكفر بصورةٍ تدريجية لا تنافي مبدأ الاختيار للإنسان، فتكون النتيجة أن تكون العاقبة للتقوىٰ حيث لا يبقىٰ إلّا خالص الإيمان المحض، فيرث الأرض صالحو المؤمنين، فيستخلفهم الله في الأرض ويظهر بهم دينه على الدين كلّه، فيقيموا الدولة العادلة والمجتمع الصالح الّذي يعبد الله وحده لا شريك دونما خوف من شيء ودونما طمع في شيء، إذ تتوفّر في هذه الدولة العادلة كلّ الاحتياجات وتُنزل السماء بركاتها وتُخرج الأرض خيراتها، فلا يضطرّ المؤمن إلىٰ عبادة الله جلّت قدرته رغبةً في شيء من هذه الاحتياجات، ولا في دفع شيءٍ من الأخطار فتكونُ العبادة خالصةً لله بالكامل على المستوى الاجتماعي، فتتحقّق بذلك الغاية من خلق الإنسان.

الغَيبة إجراءٌ لسنّةٍ إلهية:

وتطبيق الآية الكريمة علىٰ غَيبة الإمام المهديّ عجّل الله فرجه يدلّ علىٰ

أنّها من وسائل إجراء سنّة الامتحان الإلهيّ والتمحيص والمحق حتّى تزول أجزاء الكفر والشرك والانحراف.

فصحيحٌ أنّ الانحراف عن خطّ الولاية الحقّة والإمامة المعصومة الهادية إلى الله بأمره هو الّذي أدّىٰ إلىٰ غَيبة الإمام المهديّ حفظاً لوجود حجّة الله في أرضه إلّا أنّ هذا الانحراف لم يغلب الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ أمره ولم يخرج عن نطاق سنّة التربية والهداية الإلهيّة العامّة. فالله جلّت قدرته قادرٌ علىٰ حفظ حجّته دون الحاجة إلى الأمر بالغَيبة، ولكن سنّة الامتحان الإلهيّ اقتضت الغَيبة لتكون وسيلةً للتمحيص والمحق والغربلة وإخراج ضغائن الكفر وإبادتها، حتّى لا يبقىٰ إلّا خالص الإيمان الّذي يتغلّب علىٰ كلّ صعاب الإيمان بالإمام الغائب بدون مشاهدته والإيمان بقيامه بمهامّ إمامته في الهداية إلى الله تبارك وتعالىٰ بدون التعرّف علىٰ وسائل قيامه بذلك، والّذي يتغلّب علىٰ كلّ عوامل النفي والتشكيك الداخلية ومشاقّ أذى السخرية والصدّ الخارجية.

من هنا يتّضح أنّ غَيبة الإمام المهديّ عجّل الله فرجه الشريف هي إجراءٌ إلهيٌّ لسنّة التمحيص والمحق اللازمة لتحقيق سنّة الهداية الإلهيّة العامّة في إيصال المجتمع الإنساني إلىٰ كماله الوجودي والغاية من خلقه، وهذا ما يشير الرسول الأعظم ﷺ في قوله لجابر بن عبد الله ﵁ وبعد أن يطبق آية التمحيص علىٰ الغَيبة: إنّ هذا لأمرٌ من أمر الله وسرّ من سرّ الله مطويّ من عباد الله، فإيّاك والشكّ فيه، فإنّ الشكّ في أمر الله عزّوجلّ كفر[1].

(١) كمال الدين: ٢٨٨ ح ٧.

شرط انتهاء الغَيبة:

ومن هنا يتّضح أنّ تحقّق النتائج المطلوبة من قانون التمحيص الإلهيّ لهذا هو المحدّد لانتهاء الضرورات المؤدّية إلىٰ غَيبة الإمام المهديّ عجّل الله فرجه فلا يكفي في إنهائها مجرّد زوال الملاحقة والأخطار الّتي أدّت إليها، ولذلك نلاحظ أنّ الأحاديث الشريفة تؤكّد(١) أنّ ظهور المهديّ عجّل الله فرجه مرهونٌ بالدرجة الأُولىٰ بتحقّق النتائج المطلوبة منها كوسيلة للتمحيص، فلا يكون إلّا بعد حصول الغربلة حتّى يمتاز المؤمنون عن غيرهم ولا يبقىٰ إلّا خُلّص المؤمنين الجديرين بالاستخلاف ووراثة الأرض وإقامة المجتمع الصالح، وهذا ما تصرّح به الآية اللاحقة أيضاً حسب الأحاديث المطبقة لها علىٰ غَيبة المهديّ المنتظر أرواحنا فداه.

ثانياً: الغَيبة وسيلة لاختبار صدق الإيمان:

قوله تعالىٰ:

﴿ *أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ* ﴾(٢)

روى الشيخ المفيد في كتاب الإرشاد عن الفضل بن شاذان عن أحمد بن محمّد بن أبي نصر عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: لا يكون ما تَمُدُّن إليه أعناقكم حتّى تُميزوا وتُمحصوا فلا يبقىٰ منكم إلّا القليل، ثمّ قرأ: ﴿ *الم * أحسِبَ الناسُ أن يُتركوا أن يقولوا آمنّا وهم لا يُفتنون* ﴾(٣).

---

(١) كما سنرىٰ في الحديث الشريف المطبق للآية اللاحقة على القضية المهدوية.

(٢) العنكبوت: ٢.

(٣) الارشاد: ٣٦٠.

ويقول العلّامة الطباطبائي في تفسير هذه الآية والآية اللاحقة لها والمتّصلة بها:

والمعنىٰ: أظَنَّ الناس أن يُتركوا فلا يُتعرّض لحالهم ولا يُمتحنوا بما يظهر به صدقهم أو كذبهم في دعوى الإيمان بمجرّد قولهم: آمنّا؟... فالإنكار والتوبيخ [الوارد في الآية الثانية وهي ﴿ *ولقد فتنّا الّذين من قبلهم فليعلمنّ الله الّذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين* ﴾] متوجّه إلىٰ ظنّهم أنّهم لا يُفتنون مع جريان السنّة الإلهيّة على الفتنة والامتحان... فالظاهر أنّ المراد بقوله: ﴿ *ولقد فتنّا الّذين من قبلهم* ﴾ أنّ الفتنة والامتحان سنّة جارية لنا وقد جرت في الّذين من قبلهم وهي جارية فيهم، ولن تجد لسنّة الله تبديلاً... والمراد بعلمه تعالىٰ بالذين صدقوا وبالكاذبين ظهور آثار صدقهم وكذبهم في مقام العمل بسبب الفتنة.... والمعنىٰ: أحَسِبوا أن يُتركوا ولا يُفتنوا بمجرّد دعوى الإيمان وإظهاره، والحال أنّ الفتنة سنّتنا وقد جرت في الّذين من قبلهم، فمن الواجب أن يتميّز الصادقون من الكاذبين بظهور آثار صدق هؤلاء وآثار كذب أُولئك الملازم لاستقرار الإيمان في قلوب هؤلاء، وزوال صورته الكاذبة عن قلوب أُولئك[1].

المراد من قوله عليه السلام: «لا يكون ما تَمُدُّن إليه أعناقكم» هو ظهور الإمام المهديّ الّذي يتمنّاه المؤمنون، وقد اتّضحت دلالات تطبيق الآية الكريمة علىٰ ظهور الإمام عجّل الله فرجه من خلال الحديث المتقدّم عن دلالة تطبيق آية التمحيص، فهي مكملة لدلالتها، وتضيف إليها التصريح بأنّ الغيبة تؤدّي إلىٰ ظهور آثار صدق الصادقين في إيمانهم بالكامل وظهور آثار كذب أدعياء الإيمان بالإمام المهديّ وحتمية ظهوره، وكذلك يضيف الإمام الرضا عليه السلام في

---

(١) تفسير الميزان: ١٦ / ٩٩ ـ ١٠٠ بتلخيص.

تطبيقه للآية التصريح بأنّ التمحيص والغربلة لا تبقي إلّا القليل من المؤمنين الّذين ثبتت حقيقة الإيمان في قلوبهم وتجلّت هذه الحقيقة في سلوكياتهم وهم صالحو المؤمنين الجديرون بوراثة الأرض واستخلافهم فيها من قِبل الله تبارك وتعالىٰ، وهم الّذين يشكّلون المجتمع الصالح العابد لله وحده لا شريك له.

خصوصية الإيمان بالمهديّ في غَيبته:

وفي تطبيق الآية الكريمة علىٰ غَيبة الإمام المهديّ عجّل الله فرجه إشارة إلىٰ دَور الغَيبة في التمحيص وتأثيرها المباشر في امتحان صدق الإيمان مع ظهور العنصر الغيبي فيه بالكامل، بمعنىٰ أنّهم يؤمنون بالإمام وقيامه بمهامّ الإمام رغم عدم رؤيتهم له ويثبتون على العمل بمقتضيات هذا الإيمان وتظهر في سلوكهم آثاره رغم صعوبات ذلك في عصر الغَيبة وفقدانهم الاتّصال المباشر بإمام زمانهم.

وفي تطبيق الآية الكريمة علىٰ هذه الغَيبة دلالةٌ أُخرىٰ علىٰ أنّ ضرورة الغَيبة لا تنحصر في زوال الأخطار المهدّدة لوجود الإمام المهديّ عجّل الله فرجه الشريف وإن كانت هذه الأخطار هي الّتي سبّبت الغَيبة بدءً، بل إنّ استمرار الغَيبة مرتبطٌ بتحقيق قانون التمحيص وسنّة الامتحان والفتنة الإلهيّة نتائجها المطلوبة.

من هنا نفهم أنّ هذا التطبيق يحمل دلالةً أُخرىٰ فيما يرتبط بانتهاء الغَيبة وتحقّق أقرب علائم الظهور المهدويّ المبارك، وهو حصول التمايز الكامل بين المؤمنين وغيرهم، وهذه الدلالة تؤيّد ما دلّت عليه الآية اللاحقة المطبقة علىٰ موضوع علل الغَيبة ـ كما سنرىٰ ـ وهو حصول التزايل بأن يمتاز المؤمنون

عن الكفّار قبل نزول العذاب الإلهيّ. فعصر الغَيبة مثلما يمثّل وسيلة لتنفيذ قانون التمحيص، فهو ـ من جهة أُخرىٰ ـ يمثّل فرصة لوصول الحقّ للجميع ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيىٰ من حيَّ عن بيّنة، إذ أنّ عصر الغَيبة يعني فسح المجال أمام تجربة حكم الاتّجاهات الأُخرىٰ واتّضاح مفاسدها ومعايبها وعجزها عن توفير الحياة الكريمة المنشودة للمجتمع البشري، أي عندما تظهر آثار كذب الأدعياء تُقام الحجّة على الجميع وبفعل التمحيص والغربلة يسقط الّذين في قلوبهم مرضٌ فلا يبقىٰ سوىٰ جبهة الملحدين المعاندين رغم ظهور الآيات وجبهة المؤمنين الثابتين رغم صعوبات الإيمان بالإمام الغائب، وعندها يكون ظهور المهديّ عجّل الله فرجه الفتح الإلهيّ الّذي يفصل بينهم فيكون عذاباً أليماً للمعاندين ورحمةً كبرىٰ لصالحي المؤمنين، يقودهم إلىٰ تحقيق جميع أمانيهم الخيّرة.

ثالثاً: خروج الودائع وتمايز المؤمنين:

قوله تعالىٰ:

﴿لَو تَزَيَّلُوا لَعَذَّبنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنهُم عَذَاباً أَلِيماً﴾ (١)

وقد وردت الأحاديث الشريفة مستدلّة بالآية في تعليل غَيبة المهديّ المنتظر، منها:

١ ـ الّذي رواه الشيخ الصدوق في كتابه كمال الدين وتمام النعمة وعلل الشرائع:

قال: حدّثنا المظفّر بن جعفر بن المظفّر العلوي ﵀ قال: حدّثنا جعفر بن

(١) الفتح: ٢٥.

محمّد بن مسعود عن أبيه عن علي بن محمّد عن أحمد بن محمّد عن الحسن ابن محبوب عن إبراهيم الكرخي قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام ـ أو قال له رجل ـ: أصلحك الله ألم يكن علي عليه السلام قويًّا في دين الله [عزّوجلّ]؟ قال: بلى، فقال: [ف]كيف ظهر عليه القوم؟ وكيف لم يدفعهم، وما منعه [يمنعه] من ذلك؟

قال عليه السلام: «آية في كتاب الله عزّوجلّ منعته، قال: قلت: وأيّة آية [هي]؟ قال: قوله عزّوجلّ: ﴿*لو تزيّلوا لعذّبنا الّذين كفروا منهم عذاباً أليماً*﴾ إنّه كان لله عزّوجلّ ودائع مؤمنون في أصلاب قومٍ كافرين ومنافقين، فلم يكن علي عليه السلام ليقتل الآباء حتّى تخرج الودائع، فلمّا خرجت الودائع ظهر علىٰ من ظهر فقاتله، وكذلك قائمنا أهل البيت لن يظهر أبداً حتّى تظهر ودائع الله عزّوجلّ، فاذا ظهرت ظهر علىٰ من ظهر [يظهر] فقتله[1].

٢ـ وروى الثقة علي بن إبراهيم في تفسيره قال: حدّثنا أحمد بن علي قال: حدّثنا الحسين بن عبد الله السعدي قال: حدّثنا الحسن بن موسى الخشّاب عن عبد الله بن الحسن [الحسين] عن بعض أصحابه عن فلان الكرخي قال: قال رجل لأبي عبد الله عليه السلام: ألمْ يكن علي عليه السلام قوياً في بدنه قوياً بأمر [في أمر] الله؟ قال أبو عبد الله عليه السلام: بلى، قال [له]: فما منعه أن يدفع أو يمتنع؟

قال عليه السلام: سألتَ فافهم الجواب، منع علياً من ذلك آيةٌ من كتاب الله، فقال: وأيّ آية؟ فقرأ: ﴿*لو تزيّلوا لعذّبنا الّذين كفروا منهم عذاباً أليماً*﴾ إنّه كان لله ودائع مؤمنين في أصلاب قومٍ كافرين ومنافقين، فلم يكن علي عليه السلام ليقتل الآباء حتّى تخرج الودائع، فلما خرج ظهر من ظهر وقتله. وكذلك قائمنا

(١) كمال الدين: ٦٤١، وعلل الشرائع: ١٤٧.

أهل البيت لن [لم] يظهر أبداً حتّى تخرج ودائع الله، فإذا خرجت ظهر على من ظهر فيقتله[١].

٣ـ أخرج الحافظ سليمان القندوزي الحنفي قال: روي عن جعفر الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿*لو تزيّلوا لعذّبنا الّذين كفروا منهم عذاباً*﴾ قال: إنّ لله ودائع مؤمنين من أصلاب قومٍ كافرين ومنافقين، و(قائمنا) لن يظهر حتّى تخرج ودائع الله، فاذا خرجت ظهر فيقتل الكفّار والمنافقين[٢].

٤ـ وروى الشيخ الصدوق في كمال الدين حديثاً آخر بمضمونٍ قريبٍ ممّا تقدّم سننقله إن شاء الله ضمن الحديث عن الآيات الكريمة المتحدّثة عن بعض علائم ظهور المهديّ عجّل الله فرجه[٣].

تبليغ الحقّ للجميع:

النصّ القرآني مورد التطبيق جاء في آيةٍ كريمة ضمن مجموعة من الآيات المتحدّثة عن قضية صلح الحديبية الّذي عقده الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله مع مشركي مكّة ونزلت في مقام تعليل الصلح وعدم فتح مكّة في ذلك العام.

والتزيّل: التفرّق، والمعنىٰ أي لو تفرّق أهل مكّة بأن يمتاز المؤمنون عن الكفّار لعذّبنا الّذين كفروا من أهل مكّة عذاباً أليماً، لكن لم تعذّبهم لحرمة من اختلط بهم من المؤمنين[٤].

فالآية الكريمة تتحدّث عن سنّة إلهية في إقامة الحجّة البالغة علىٰ عباده

(١) تفسير القمّي: ٢ / ٣١٦.
(٢) ينابيع المودّة: ٤٢٨.
(٣) راجع كمال الدين: ٦٤١.
(٤) تفسير الميزان: ١٨ / ٢٨٩.

تعالىٰ، وإعطاء الفرصة اللازمة لوصول الحقّ للجميع، وتهيئة الأوضاع اللازمة لكي يتمايز المؤمنون عن الملحدين المعاندين قبل نزول العذاب الإلهيّ، فهي مظهر للقانون الإلهيّ العادل: ﴿ لِيَهلِكَ مَن هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحيَىٰ مَن حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ﴾[1]، ولحكمة التربية الإلهيّة في فسح المجال لظهور العباد الصالحين حتّى لو كان آباؤهم من الطالحين.

وتطبيق الأحاديث الشريفة المتقدّمة للآية الكريمة علىٰ موقف الإمام علي عليه السلام من غاصبي حقّه يشير إلىٰ أنّها تعبّر عن سنّة إلهية ثابتة في تربية عباده تجري مع المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه أيضاً، كما جرت مع أبويه من قبل أميرالمؤمنين عليه السلام وخاتم الرسل محمّد صلى الله عليه وآله.

تربية العباد:

وعليه، يتّضح أنّ غَيبة الإمام عليه السلام ترتبط بحكمةٍ إلهية في تربية العباد، فالله لم يكن ليعجزه أن يقهر أهل مكّة ولم يكن ليضطرّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله إلىٰ صلح الحديبية، ولكن حكمة التربية الإلهيّة هي الّتي اقتضت اعطاء الفرصة لتمايز المؤمنين عن غيرهم. وكذلك الحال مع موقف الإمام علي عليه السلام ومع غَيبة الإمام المهديّ عليه السلام، فصحيح أنّ الملاحقة العبّاسية وأهواء عباد السلطة وفقدان العدد اللازم من الأنصار الأوفياء هي الّتي اضطرّت الإمام للغَيبة، ولكنّ اللجوء للغَيبة هو بأمر الله تعالىٰ الّذي لا يعجزه شيء والّذي كان بإمكانه نصرة وليه علىٰ تلك التحدّيات، ولكنّ حكمته في تربية عباده اقتضت تأخير العذاب الإلهيّ لفسح المجال أمام ظهور ودائع الله اللاحقة من أصلاب الماضين

---

(١) الأنفال: ٤٢.

وهذه الحكمة ترتبط من جهة أُخرىٰ بسنّةٍ التمحيص الّتي تطبقها الأحاديث الشريفة علىٰ غَيبة المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه وقد تقدّم الحديث عنها مفصّلاً في الآيات السابقة.

رابعاً: حفظ استمرار وجود الإمامة:

قوله تعالىٰ:

﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١)

١ ـ روى الشيخ النعماني في كتاب الغَيبة قال: حدّثنا عبد الواحد بن عبد الله ابن يونس قال: حدّثنا أحمد بن محمّد بن رباح قال: حدّثني أحمد بن علي الحميري عن الحسن بن أيّوب عن عبد الكريم بن عمرو الخثعمي عن أحمد ابن الحارث عن المفضّل بن عمر قال: سمعته يقول ـ يعني أبا عبد الله عليه السلام ـ: قال أبو جعفر محمّد بن علي الباقر عليهما السلام: إذا قام القائم عليه السلام قال: ﴿ ففررت منكم لمّا خِفتكم فوهب لي ربّي حُكماً وجعلني من المرسلين ﴾ (٢).

٢ ـ وروى الشيخ النعماني أيضاً قال: أخبرنا أحمد بن محمّد بن سعيد قال: حدّثنا القاسم بن محمّد بن الحسن بن حازم قال: حدّثنا عيسى بن هشام عن عبد الله بن جبلة عن أحمد بن الحارث عن المفضل بن عمر عن أبي

---

(١) الشعراء: ٢١.

(٢) غَيبة النعماني: ١٧٤ ـ ١٧٥، ورواه بتفاوت يسير الشيخ الصدوق في كمال الدين: ٣٢٨، والمضمون نفسه مرويّ عن الإمام الصادق عليه السلام في غَيبة النعماني: ١٧٤ وفي تأويل الآيات الظاهرة: ١ / ٣٨٨.

عبد الله عليه السلام أنه قال: إنّ لصاحب هذا الأمر غَيبة يقول فيها: ﴿ففررت منكم...﴾ الآية[1].

٣ـ وروى السيّد علي بن الحميد في كتاب الغَيبة بإسناده عن الإمام الباقر عليه السلام أنهُ قال: إذا ظهر قائمنا أهل البيت قال: ﴿ففررت منكم *لمّا خِفتكم* فوهب *لي ربّي* حُكماً﴾، خفتكم علىٰ نفسي وجئتكم لمّا أذن لي ربي وأصلح لي أمري[2].

الآية الكريمة تأتي في سياق الحديث القرآني في سورة الشعراء عن قصّة نبيّ الله موسى علىٰ نبيّنا وآله وعليه السلام، وفراره من فرعون وقومه بعد إخبارهم بتآمرهم علىٰ قتله، وتطبيقها علىٰ غَيبة الإمام المهديّ عجّل الله فرجه يشير إلى السبب المباشر للغَيبة وهو الخوف من قتل حجّة الله تبارك وتعالىٰ علىٰ خلقه قبل أن يحقّق الله وعده الجميل بإظهار الإسلام على الدين كلّه وإتمام نوره واستخلاف صالحي المؤمنين وتوريثهم حكم الأرض ليقيموا المجتمع الصالح.

الغَيبة تمهيدٌ للظهور:

فمن المعلوم أنّ سنّة الله جلّت قدرته في خلقه هي ربط الأُمور بأسبابها وعدم تسييرها بصورة إعجازية إلّا في الحالات الّتي تقتضي حكمة حفظ الحجّة الإلهيّة وإتمامها ذلك، لذلك فهو جلّت قدرته يعمد إلىٰ حفظ حجّته علىٰ خلقه والإمام الهادي إليه بأمره ويحبط مؤامرات أعدائه، حتّى ينجز مهمّته المكلّف بها، وحيث إنّ الأوضاع القائمة لم تكن مناسبة لانجاز الإمام المهديّ لمهمّته العالمية المذكورة، في حين أنّ مؤامرات السلطات العبّاسية كانت علىٰ

---

(١) غَيبة النعماني: ١٧٤.

(٢) نقله عنه المجلسي في بحار الأنوار: ٥٢ / ٣٨٥ ذيل الحديث ١٩٥.

أشدّها لقتله لاشتهار الأخبار المروية عن جدّه الرسول الأكرم ﷺ بأنّ ابن الحسن العسكري هو المهديّ الموعود الّذي ينهي حكم الظالمين ويملأ الأرض قسطاً وعدلاً، وعلم السلطات العبّاسية بذلك واجتهادها في قتله لذلك. ولأنّ حكمة الله جلّت قدرته في تربية خلقه اقتضت إجراء الأُمور بأسبابها، لذلك فقد اختار لحفظه إحاطته بستار الغَيبة ليحفظ وجوده من القتل بها وليمارس من خلف أستارها مهامّ الإمامة لكي لا تخلو الأرض من حجّةٍ لله يهدي إليه بأمره كما قدّمنا.

السبب المباشر هو الانحراف عن الولاية:

من هنا يتّضح أنّ السبب المباشر للغَيبة هو الانحراف عن التمسّك بخطّ الولاية الإلهيّة والإمامة المعصومة الّذي يمثّله الإمام المهديّ عجّل الله فرجه، فهو الّذي أدّىٰ إلىٰ إبعاد الأئمّة الاثني عشر عليهم السلام عن قيادة الأُمّة الإسلامية وهدايتها إلى المحجّة البيضاء وتعريضهم للقتل والاغتيال والملاحقة الّتي بلغت ذروتها تجاه خاتم الأئمّة الاثني عشر الموعود بتصحيح هذا الانحراف، كما تقدّم بيان ذلك في المجموعة الثالثة من آيات الطائفة الثانية المتحدّثة عن دوره عليه السلام.

ولكن هذا السبب هو السبب المباشر، وليس العلّة الكاملة للغَيبة لكي تنتهي بزواله وانتهاء الخطر، بل إنّ لغَيبته عللاً أُخرىٰ، كما تقدّم الحديث عن ذلك في الآيات السابقة، وهذا ما ينبّه له حديث الإمام الباقر عليه السلام عندما ينقل تطبيق الإمام المهديّ لآية فرار نبيّ الله موسىٰ عليه السلام علىٰ غَيبته، فهو وإن علّل بدء الغَيبة بخوف القتل قبل إنجاز مهمّته الربّانية إلّا أنه ربط إنهاءها بأمرين هما: الإذن من الله له بالظهور، والثاني إصلاح أمره بما يعنيه من توفّر الأوضاع

المناسبة للبدء بتنفيذ دوره التأريخي ومهمّته الكبرىٰ. ولعلّ المقصود في ذلك هو ما دلّت عليه الآيات السابقة من حصول النتائج المطلوبة من سنّة التمحيص والغربلة والمحق والامتحان الإلهيّ، حيث يتمايز حينئذٍ صالحو المؤمنين عن غيرهم وتتمّ الحجّة على المعاندين فيأتي الله بالفتح الإلهيّ الفصل الّذي يعذّب به المعاندين عذاباً أليماً ويتفضّل علىٰ أحبّائه باستخلافهم في الأرض وتوريث حكمها لهم ليقيموا المجتمع الصالح العابد لله وحده لا شريك له، كما قدّمنا مراراً.

الفصل الرابع

ثمار الإيمان بالمهديّ في غَيبته

مدخل:

نتناول في هذا الفصل الآيات الكريمة الّتي طبقتها الأحاديث الشريفة علىٰ موضوع الإيمان بوجود الإمام المهديّ عجّل الله فرجه، ومعرفته والتمسّك بولايته في غَيبته.

ومعلوم أنّ الإيمان بالإمام الغائب والاعتصام بولايته أصعب بكثير من الإيمان بالإمام الظاهر والتمسّك بولايته، لأنّ لوجود الإمام الظاهر بحدّ ذاته تأثيراً بالغاً في الإيمان به لما اعتاد عليه الإنسان بطبيعته من التأثّر بالمحسوسات، وهذه الميزة غير ظاهرة بالكامل في الإيمان بالإمام الغائب وإن دلّت عليه الأدلّة العقلية والنقلية الكافية، لذلك فإنّ ترسيخ الإيمان بالإمام المهديّ في غَيبته يحتاج إلىٰ مجاهدة دؤوبة لعوامل الإنكار المنطلقة من التأثّر بالمحسوسات.

والصعوبة تشتدّ في مرحلة تجسيد هذا الإيمان عمليّاً بالتمسّك بمقتضياته

والاعتصام بموالاة الإمام والبراءة من أعدائـه، فهي بالطبع تـحتاج إلىٰ تـحرّر مستمرّ من قيود الغفلة والركـون لنزعات المادّية ومجاهدة متواصلة لها.

ولذلك فإنّ الّذين يهتدون لمعرفة الإمام الغائب والإيمان العملي والارتباط الوجداني به والتمسك بولايته هم من الفائزين في ميدان الجهاد الأكبر ولا شكّ، ولذلك فإنّهم يفوزون بالمقامات السامية للمؤمنين، وهي المقامات والمراتب الّتي تـبيّنها الآيـات المـطبقة عـلىٰ مـوضوع الإيـمان بـالمهديّ فـي غَـيبته، فلا غرابة في الآثار والمراتب السامية الّتي تـذكرها للـمتحلّين بـه والمـلتزمين بمقتضياته العملية.

علامة التقوىٰ:

أثنت الآيات الكريمة على المؤمنين بالمهديّ المنتظر عجّل الله فرجه فـي غَيبته بالرغم من الصعوبات الّتي تفرضها فترة الغَيبة وفقدان الاتّصال المباشر به، واعتبرت ذلك من علامات التقوىٰ وأُولىٰ صفات المـتقين الّـذين تـعينهم تقواهم علىٰ مواجهة التشكيكات النـاشئة مـن اعـتياد النـفس عـلى التـصديق بالمحسوسات المادّية، في حين أنّ الفطرة النقية والعقل السليم يؤكّدان أنّ ثمّة قضايا كثيرة ممّا لا تحيط بها الحواسّ الظاهرية بصورة مباشرة لكنّها موجودة والإيمان بها ضروريّ للإنسان، بل لا غنىٰ له عنه إن أراد الفوز بالحياة الطيّبة في الدارين.

من هنا، فإنّ التقوىٰ هي الّتي تحصن الإنسان من الإنسياق لنـزوع النـفس إلىٰ إنكـار مـا لا تـحسّ بـه بـصورةٍ مـادّية مـباشرة بـالحواسّ الظـاهرة، وتعينه على الإيمان بما قامت الأدلّة السليمة عـلىٰ صـحّته مـن أُمـور غَـيبية، ومنها الإيمان بوجود المهديّ المنتظر في غَيبته. لذلك فالإيمان به من عـلائم

التقوىٰ، وهذا ما تدلّ عليه الآيات التالية:

أوّلاً: قوله تعالىٰ:

﴿الٓم * ذَلِكَ الكِتَابُ لَا رَيبَ فِيهِ هُدىً للمتّقين * الّذِينَ يُؤمِنُونَ بِالغَيبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزقنَاهُم يُنفِقُون﴾ (١)

وقد وردت عدّة أحاديث شريفة عن الرسول الأكرم وعترته الطاهرة صلوات الله عليهم أجمعين في تطبيق الآية الكريمة على الإيمان بالمهديّ المنتظر، ووجوده وقيامه بمهامّ الإمامة في غَيبته، منها:

١ ـ ما رواه الشيخ الخزّاز بإسناده عن جابر بن عبد الله الأنصاري عن رسول الله ﷺ في حديث يذكر فيه الأئمّة الأثني عشر ومنهم القائم عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: طوبىٰ للصابرين في غَيبته، طوبىٰ للمقيمين على محبّتهم أُولئك مَن وصفهم الله في كتابه فقال: ﴿الّذين يؤمنون بالغَيب﴾ ثمّ قال: ﴿أُولئكَ حِزبُ اللهِ ألَا إنّ حِزبَ اللهِ هُمُ المُفلِحُون﴾ (٢) (٣).

٢ ـ ومنها ما رواه الشيخ الصدوق في كتاب كمال الدين وتمام النعمة قال: حدّثنا علي بن أحمد بن محمّد الدقّاق رحمه الله قال: حدّثنا محمّد [أحمد] بن أبي عبد الله الكوفي قال: حدّثنا موسى بن عمران النخعي عن عمّه الحسين ابن يزيد عن علي بن أبي حمزة عن يحيى بن [أبي] القاسم قال: سألت

---

(١) البقرة: ١ ـ ٣.

(٢) المجادلة: ٢٢.

(٣) كفاية الأثر: ٥٦ ـ ٥٧، وقد نقل الميرزا النوري بعضه في مستدرك الوسائل (١٢:٢٧٩) عن كتاب الغَيبة للفضل بن شاذان الّذي عاصر ولادة الإمام المهديّ عجّل الله فرجه وتوفّي قبل وفاة والده الإمام الحسن العسكري سنة ٢٦٠.

الصادق عليه السلام عن قول الله عزّوجلّ: ﴿ الٓم * ذلك الكتابُ لا ريبَ فيه هدىً للمتّقين * الّذين يؤمنون بالغَيب ﴾ فقال: المتقون شيعة علي عليه السلام، والغَيب فهو الحجّة الغائب، وشاهد ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِن رَبِّهِ فَقُل إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴾[(١)][(٢)].

٣ـ ومنها ما رواه رضوان الله عليه قال: حدّثنا محمّد بن موسى بن المتوكّل رحمه الله قال: حدّثنا محمّد بن يحيى العطّار قال: حدّثنا أحمد بن محمّد ابن عيسى عن عمر بن عبد العزيز عن غير واحدٍ من أصحابنا عن داود بن كثير الرقّي عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزّوجلّ: ﴿ الّذين يؤمنون بالغَيب ﴾ قال: من آمن [أقرّ] بقيام القائم أنّه حقّ[(٣)].

٤ـ وقد رواه رضوان الله عليه في كتاب معاني الأخبار عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالىٰ: ﴿ الّذين يؤمنون بالغَيب ﴾ قال: مَن آمن بقيام القائم عليه السلام أنه حقّ[(٤)].

٥ـ روى الحافظ سليمان القندوزي الحنفي في ينابيع المودّة بإسناده المذكور عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: دخل جندل بن جنادة بن جبير اليهودي علىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسأله عن أشياء، وإسلامه علىٰ يد النبيّ صلى الله عليه وآله في حديثٍ طويل ـ إلىٰ أن قال: ـ

---

(١) يونس: ٢٠، وقد نصّ صاحب تأويل الآيات الظاهرة والعلّامة المجلسي وغيرهما أنّ قوله: «وشاهد ذلك إلىٰ نهاية الحديث» هو من كلام الشيخ الصدوق عليه الرحمة وليس من كلام الإمام الصادق، راجع معجم أحاديث الإمام المهديّ: ٥ / ١١.

(٢) كمال الدين: ٣٤٠.

(٣) كمال الدين: ٣٤٠.

(٤) نقل ذلك العلّامة الطباطبائي في تفسير الميزان: ١ / ٤٦ وعلّق عليه بالقول: وهذا المعنىٰ مرويّ في غير هذه الرواية وهو من الجري.

سئل النبيّ ﷺ عن أوصيائه، فعدّهم النبيّ ﷺ له ـ إلىٰ أن قال ﷺ: ـ ... فبعده ابنه محمّد يدعى بالمهديّ والقائم والحجّة، فيغيب، ثمّ يخرج، فإذا خرج يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، طوبى للصابرين في غَيبته، طوبى للمقيمين علىٰ محبّتهم، أُولئك الّذين وصفهم الله في كتابه وقال: ﴿ *هدىً للمتقين * الّذين يؤمنون بالغَيب* ﴾... إلىٰ آخر الحديث[1].

٦ـ وقال الطبرسي في تفسيره مجمع البيان: ﴿ *يؤمنون بالغَيب* ﴾ قيل: بما غاب عن العباد علمه، عن ابن مسعود وجماعة من الصحابة. وهذا أولىٰ لعمومه. ويدخل فيه ما رواه أصحابنا من زمان غَيبة المهديّ عليه السلام ووقت خروجه[2].

معنى الإيمان بالغَيب:

والإيمان تمكّن الاعتقاد في القلب مأخوذٌ من الأمن، كأنَّ المؤمن يعطي لما آمن به الأمن من الريب والشكّ، وهو آفة الاعتقاد، والإيمان ذو مراتب، إذ الإذعان ربما يتعلّق بالشيء نفسه فيترتب عليه أثره فقط، وربما يشتدّ بعض الاشتداد فيتعلّق ببعض لوازمه، وربما يتعلّق بجميع لوازمه، ولذلك فللمؤمنين مراتب علىٰ حسب مراتب الإيمان.

والغَيب خلاف الشهادة، وينطبق علىٰ ما لا يقع عليه الحسّ، وهو الله سبحانه وآياته الكبرىٰ الغائبة عن حواسّنا ومنها الوحي، وهو الّذي أُشير إليه بقوله ﴿ *وَالّذِينَ يُؤمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبلِكَ* ﴾[3] فالمراد بالإيمان بالغَيب في مقابل الإيمان بالوحي والإيقان بالآخرة هو الإيمان بالله تعالىٰ ليتمّ

(١) ينابيع المودّة: ٤٤٢.
(٢) مجمع البيان: ١ / ٣٨.
(٣) البقرة: ٤.

بذلك الإيمان بالأُصول الثلاثة للدين، والقرآن يؤكّد القول علىٰ عدم القصر على الحس فقط ويحرص علىٰ اتّباع سليم العقل وخالص اللبّ[١].

إذن، فسياق الآية الكريمة يفيد أنّ المقصود بالإيمان بالغَيب فيها هو الإيمان بالله تبارك وتعالىٰ الّذي لا تدركه الحواسّ والأبصار، ولكنّ العقل السليم والفطرة النقية يدلّان عليه ويقودان إليه، وتطبيق الآية على الإيمان بالإمام المهديّ عليه السلام وغَيبته ووقت ظهوره، باعتبار أنّه من مصاديق الإيمان بالغيب الّذي دلّت عليه البراهين العقلية والفطرة السليمة، أو باعتبار أنّ الإيمان بالله تبارك وتعالىٰ يتضمّن الإيمان بضرورة وجود هادٍ بأمره يهدي عباده إليه بمقتضىٰ لطفه العميم تبارك وتعالىٰ وإتماماً لحجّته البالغة علىٰ عباده، وحيث إنّ هذا الإمام الهادي بأمر الله غير ظاهر فلا مناص من الإيمان بوجوده وغَيبته، كما تقدّم الحديث عن ذلك مفصّلاً في الفصل الأول من الباب الأول، فيكون بالتالي الإيمان بالله تبارك وتعالىٰ مستلزماً للايمان بالمهديّ المنتظر وغَيبته عجّل الله فرجه، وقيامه في غَيبته بمهامّ إمامة الهداية إلىٰ الله عزّوجلّ بأمره.

ثانياً: النّجاة من الهلع والجزع:

قوله تعالىٰ:

﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾[٢]

فقد روىٰ ثقة الإسلام الكليني في الروضة من كتاب الكافي عن علي بن محمّد عن علي بن العبّاس عن الحسن بن عبد الرحمن عن عاصم بن حميد عن

---

(١) راجع الميزان: ١ / ٤٥ ـ ٤٦.

(٢) المعارج: ٢٦.

أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام في قوله عزّوجلّ: ﴿ والّذين يُصدِّقون بيوم الدين ﴾ قال: بخروج القائم عليه السلام(١).

والآية الكريمة واردة ضمن عدّة آيات في وصف المصلّين الّذين يتحلّون بمجموعة من الصفات الكريمة الّتي تنقذهم من حالة الهلع والجزع عند المصائب والابتلاء والبخل في النعماء. وظاهرها يشير إلىٰ دور الإيمان بالمعاد والحياة الأُخرىٰ ويوم القيامة والحساب في انقاذ المؤمن من هذه الحالة من الهلع والجزع والبخل، ودَوره في دفعه بالتحلّي بتلك الصفات الكريمة المذكورة للمصلّين، وتطبيقها على الإيمان بخروج المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه، وظهوره وتحقّق الوعود الإلهيّة الصادقة علىٰ يديه، يشير إلىٰ دور هذا الإيمان في إنقاذ المؤمن من نفسه تلك الحالة والصفات المذمومة وتمليكه قدرة الصبر علىٰ مصاعب عصر الغَيبة وفتنه ودفعه للتحلّي بتلك الصفات الكريمة المذكورة في الآيات السابقة، والّتي هي في الواقع من صفات أنصار المهديّ عجّل الله فرجه(٢).

ثالثاً: الفوز بالتأييد الإلهيّ:

قوله تعالىٰ:

﴿ ... أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنهُ وَيُدخِلُهُم جَنَّاتٍ تَجرِي مِن تَحتِهَا الأَنهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

---

(١) الكافي: ٨ / ٢٨٧.

(٢) ولعلّ وجه التشابه بين يوم القيامة ويوم خروج القائم أنّهما من مصاديق الإيمان بالغَيب ومن أيّام ظهور القدرة الإلهيّة.

﴿رَضِيَ اللهُ عَنهُم وَرَضُوا عَنهُ أُولَئِكَ حِزبُ اللهِ أَلا إِنَّ حِزبَ اللهِ هُمُ المُفلِحُون﴾[1]

وقد وردت في تطبيق كلا شطري هذا المقطع من الآية الكريمة على المؤمنين بالمهديّ المنتظر في غَيبته وظهوره عدّة أحاديث شريفة، فبالنسبة للشطر الأول وردت في الكتب المعتبرة عدّة أحاديث تطبقه على هؤلاء المؤمنين، منها:

١ـ ما رواه ثقة الإسلام في الكافي بسنده إلى الحسين بن محمّد ومحمّد بن يحيى عن جعفر بن محمّد عن الحسن بن معاوية عن عبد الله بن جبلة عن إبراهيم بن خلف بن عباد الأنماطي عن مفضّل بن عمر قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام وعنده في البيت أُناس، فظننت أنّه إنّما أراد بذلك غيري.

فقال: أما والله ليغيبنّ عنكم صاحب هذا الأمر، وليخملنّ هذا حتّى يقال: مات، هلك، في أيّ وادٍ سلك؟ ولتكفأنّ كما تكفأ السفينة في أمواج البحر، لا ينجو إلّا من أخذ الله ميثاقه وكتب الإيمان في قلبه وأيّده بروحٍ منه، ولتُرفعنّ اثنتا عشرة راية مشتبهة لا يدري أيٌّ من أي، قال: فبكيت، فقال: ما يبكيك ياأبا عبد الله؟ فقلت: جعلت فداك كيف لا أبكي وأنت تقول: اثنتا عشرة راية مشتبهة لا يدري أيٌّ من أيّ؟ قال: وفي مجلسه كوّة تدخل فيها الشمس، فقال: أبيّنةٌ هذه؟ فقلت: نعم، قال: أمرُنا أبينُ من هذه الشمس[2].

٢ـ وما رواه رحمه الله فيه أيضاً عن محمّد بن يحيى عن أحمد بن محمّد عن ابن أبي نجران عن محمّد بن المساور عن المفضّل بن عمر قال: سمعت أبا

---

(١) المجادلة: ٢٢.

(٢) الكافي: ١ / ٣٣٩.

عبد الله عليه السلام يقول: إيّاكم والتنويه، أما والله ليغيبنّ إمامكم سنيناً من دهركم ولتمحّصن حتّى يقال: مات، قُتل، هلك، بأيّ وادٍ سلك؟ ولتدمعنّ عليه عيون المؤمنين ولتُكفأُنّ كما تُكفأ السفن في أمواج البحر، فلا ينجو إلّا من أخذ الله ميثاقه وكتب في قلبه الإيمان... الحديث[1].

٣ـ ورواه النعماني في الغَيبة عن محمّد بن همان قال حدّثنا جعفر بن محمّد ابن مالك وعبد الله بن جعفر الحميري جميعاً قالا: حدّثنا محمّد بن الحسين بن أبي الخطّاب ومحمّد بن عيسى وعبد الله بن عامر القصباني جميعاً عن عبد الرحمن بن أبي نجران عن عمرو بن مساور عن المفضّل بن عمر بعينه، لكنّه ذكر «وليخملنّ» بدل قوله «ولتمحّصنّ»[2].

٤ـ وروى الشيخ الصدوق في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بسنده إلىٰ محمّد بن علي بن بشّار عن المظفّر بن أحمد عن الأسدي عن البرمكي عن الحسن بن محمّد بن صالح البزّاز قال: سمعت الحسن بن عليّ العسكري عليه السلام يقول: إنّ ابني هو القائم من بعدي، وهو الّذي يجري فيه سنن الأنبياء عليهم السلام بالتعمير والغَيبة حتّى تقسو قلوبٌ لطول الأمد، ولا يثبت على القول به إلّا من كتب الله عزّوجلّ في قلبه الإيمان وأيّده بروحٍ منه[3].

٥ـ وروىٰ رحمه الله في الكتاب المذكور أيضاً بإسناده إلىٰ أحمد بن إسحاق قال: قلتُ لأبي محمّد الحسن بن علي [العسكري] عليه السلام وقد ذكر أن غَيبة القائم عليه السلام تطول ـ : وإنّ غَيبته لتطول؟ قال: إي وربّي حتّى يرجع عن هذا الأمر أكثر

(١) الكافي: ١ / ٣٣٦.
(٢) غَيبة النعماني: ٧٦.
(٣) كمال الدين: ٥٢٤.

القائلين به ولا يبقىٰ إلّا من أخذ الله ميثاقه بولايتنا وكتب في قلبه الإيمان وأيّده بروح منه[١].

وفي هذا الحديث الشريف إشارة واضحة لسنّة التمحيص والغربلة الّتي تقدّم الحديث عنها في فصل علل الغَيبة.

٦ـ وروىٰ رضوان الله عليه فيه أيضاً قال: حدّثنا أحمد بن زياد بن جعفر الهمداني ﷺ قال: حدّثنا علي بن إبراهيم بن هاشم عن أبيه عن علي بن معبد عن الحسين بن خالد عن الإمام علي بن موسى الرضا عن أبيه موسى بن جعفر عن أبيه جعفر بن محمّد عن أبيه محمّد بن علي عن أبيه علي بن الحسين عن أبيه الحسين بن علي عن أبيه أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: التاسع من ولدك ياحسين هو القائم بالحقّ والمُظهر للدين والباسط للعدل.

قال الحسين: فقلت له: ياأميرالمؤمنين وإنّ ذلك لكائن؟ فقال: إي والّذي بعث محمّداً صلى الله عليه وآله بالنبوّة واصطفاه علىٰ جميع البرية، ولكن بعد غَيبة وحيرة فلا يثبت فيها علىٰ دينه إلّا المخلصون المباشرون لروح اليقين الّذي أخذ الله عزّوجلّ ميثاقهم بولايتنا وكتب في قلوبهم وأيّدهم بروح منه[٢].

الدخول في حزب الله:

أمّا بالنسبة للشطر الثاني من الآية فقد وردت في تطبيقها على الإيمان بالمهديّ وغَيبته وظهوره عدّة أحاديث، منها:

١ـ الحديث الّذي رواه جابر بن عبد الله الأنصاري عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في تطبيق آية ﴿ *الّذِينَ يُؤمِنُون بِالغَيبِ* ﴾ على المؤمنين بالمهديّ المنتظر عجّل الله

---

(١) كمال الدين: ٣٨٤ ـ ٣٨٥.

(٢) كمال الدين: ٣٠٤.

فرجه في غَيبته، والّذي نقلناه سابقاً حيث جاء في ذيله قوله ﷺ: طوبىٰ للصابرين في غَيبته، طوبىٰ للمقيمين علىٰ محبّتهم، أُولئك مَن وصفهم الله في كتابه فقال: ﴿ *الّذين يؤمنون بالغَيب* ﴾ ثمّ قال: ﴿ *أُولَئِكَ حِزبُ اللهِ ألا إنّ حِزبَ اللهِ هُم المُفلِحون* ﴾[1].

فالمؤمنون بغَيبة المهديّ المنتظر هم المؤمنون بالغَيب والمتّقون وهم حزب الله المفلحون، ولعلّ ورود وصف «الغالبون» في الحديث هو من خطأ النسّاخ وخلطهم بين هذه الآية وآية سورة المائدة وهي: ﴿ ... *وَمَن يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالّذِينَ آمَنُوا فإنّ حِزبَ اللهِ هُم الغَالِبُون* ﴾[2]، وقد يكون ضمير الفاعل المستتر لفعل «قال» السابق للآية هو الرسول الأكرم ﷺ وليس الله تبارك وتعالىٰ، فيكون ما يلي الفعل ليس نصّ آية بل اقتباس الرسول الأعظم من كلا الآيتين الواردتين في وصف حزب الله.

٢ ـ وأخرج ما يقارب الحديث المتقدّم العلّامة الحافظ القندوزي الحنفي في ينابيعه بسنده المذكور هناك قال: عن جابر بن عبد الله الأنصاري عن رسول الله ﷺ قال في حديث طويل وفيه:

يدعى بالمهديّ والقائم والحجّة، فيغيب، ثمّ يخرج، فإذا خرج يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، طوبى للصابرين في غَيبته، طوبى للمقيمين علىٰ محبّته، أُولئك الّذين وصفهم الله في كتابه وقال: ﴿ *هدى للمتّقين * الّذين يؤمنون بالغَيب* ﴾ وقال تعالى: ﴿ *أُولئك حزب الله ألا إنّ حزبَ الله هم المفلحون* ﴾... الحديث[3].

---

(١) كفاية الأثر: ٥٦ ـ ٥٧.

(٢) المائدة: ٥٦.

(٣) ينابيع المودّة: ٤٤٢.

٣ـ طبقت الأحاديث الشريفة هذه الآية الكريمة على الإمام علي عليه السلام وحزبه، وقد رويت هذه الأحاديث من طرق أهل السنّة، منها ما رواه أبو نعيم قال: حدّثنا محمّد بن حميد بإسناده عن عيسىٰ بن عبد الله بن محمّد [عبيد الله] ابن عمر بن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: حدّثني أبي عن جدي عن علي عليه السلام أنّه قال: قال سلمان الفارسي: ياأبا الحسن ما طلعتُ علىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله إلّا وضرب بين كتفي، وقال: ياسلمان هذا [أي الإمام عليّ بن أبي طالب] وحزبه هم المفلحون(١).

وواضحٌ أنّ هذا الوصف يصدق علىٰ سليله المهديّ المنتظر سلام الله عليه، فلا يكتمل الإيمان بولاية الإمام علي عليه السلام إلّا بالإقرار بولاية الأئمّة من ولده، كما ثبت بالكثير من الأدلّة وكما تؤيّده الفقرة اللاحقة.

الفلاح في الدنيا والآخرة:

٤ـ ثبت لدىٰ أهل السنّة والشيعة أنّ الآية المتقدّمة من سورة المائدة نزلت في الإمام علي عليه السلام في قصّة تصدّقه بالخاتم وهو راكع(٢)، وقد اختصّ بهذه الدلالة الإلهيّة فلم يشاركه فيها أحد، حتّى روي عن عمر بن الخطّاب أنّه قال: والله لقد تصدّقت بأربعين خاتماً وأنا راكع لينزل فيّ ما نزل في علي بن أبي طالب فما نزل(٣).

وقد نصّت الآية علىٰ أنّ حزبَ الله هُم المفلِحون هم الّذين يجمعون في التولّي

---

(١) تأويل الآيات الظاهرة: ٢ / ٦٧٦ عن أبي نعيم.
(٢) راجع الميزان: ٦ / ١٥ ـ ٢٥.
(٣) راجع أمالي الصدوق: ١٠٧ ـ ١٠٨.

الصادق بين الله ورسوله و ﴿ الّذين آمنوا ﴾ ومصداقهم في نزول الآية هو الإمام علي عليه السلام ،كما أشرنا إلىٰ ثبوت ذلك لدى الفريقين.

ثمّ نلاحظ الإمام علياً عليه السلام نفسه يطبق وصف ﴿ الّذين آمنوا ﴾ علىٰ الأئمّة المعصومين من ذرّيته في كلّ عصر وبضمنهم الإمام المهديّ عليه السلام في عصره ـ في غَيبته وظهوره ـ ، فقد روى الشيخ الطبرسي رحمه الله في كتاب الاحتجاج عن أميرالمؤمنين عليه السلام : ﴿ والّذين آمنوا ﴾ في هذا الموضع هم المؤتمنون على الخلائق من الحجج والأوصياء في عصر بعد عصر[١].

ويؤيّده ما روي عن الإمام السادس من أئمّة أهل البيت الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال : يجيء رسول الله صلى الله عليه وآله يوم القيامة آخذاً بحجزةِ ربّه ، ونحن آخذون بحجزةِ نبيّنا ، وشيعتنا آخذون بحجزتنا ، ونحن وشيعتنا حزب الله ، وحزب الله هم الغالبون. والله ما يزعم أنّها حجزة الإزار ولكنّها أعظم من ذلك. يجيء رسول الله صلى الله عليه وآله آخذاً بدين الله ، ونحن نجيء آخذين بدين نبيّنا ، ويجيء شيعتنا آخذين بديننا[٢].

وبتطبيق هذه الآية الكريمة علىٰ المؤمنين بالمهديّ المنتظر في غَيبته وظهوره يتّضح أنّ الآية تبيّن ثمرتين مهمّتين للإيمان بالمهديّ المنتظر عليه السلام في غَيبته وظهوره ، وهو الإيمان الّذي يتضمّن موالاته بالطبع ، الأُولىٰ : الانضمام لحزب الله تبارك وتعالىٰ بهذا الإيمان ، والثانية : الفوز بالغلبة والفلاح في الدنيا والآخرة. وواضحٌ أنّ هذه الثمار مشروطة بأن يكون الإيمان صادقاً يتضمّن التولّي العملي له عليه السلام في غَيبته وظهوره.

---

(١) الاحتجاج : ١ / ٣٦٩.

(٢) التوحيد للشيخ الصدوق : ١٦٦.

رابعاً: الفوز بالخير الكثير:

قوله تعالىٰ:

﴿يُؤتي الحِكمَةَ مَن يَشاءُ وَمَن يُؤتَ الحِكمَةَ فَقَد أُوتِيَ خَيراً كَثيراً وَما يَذَّكَّرُ إلّا أُولو الألبابِ﴾ (١)

فقد روى الشيخ الزاهد الديلمي في كتاب «أعلام الدين» أنّ أبا بصير سأل الإمام الباقر عليه السلام عمّا عنى الله بهذه الآية فقال عليه السلام:

معرفةُ الإمام واجتناب الكبائر، ومَن مات وليس في رقبته بيعةٌ لإمام مات ميتةً جاهلية، ولا يُعذَرُ الناسُ حتّى يعرفوا إمامهم، فمَن مات وهو عارفٌ بالإمامة لم يضرَّهُ تقدّم هذا الأمر أو تأخّر، فكان كمَن هو مع القائم في فسطاطه. قال (الراوي): ثمّ مكث هنيئةً ثمّ قال: لا بل كمن قاتل معه، ثمّ قال: لا بل والله كمَن استشهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله (٢).

قال العلّامة الطباطبائي رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: الإيتاء هو الإعطاء، والحكمة بكسر الحاء علىٰ وزن فعلة، بناءٌ يدلّ علىٰ نوع المعنى، فمعناه النوع من الإحكام والإتقان، أو نوع الأمر المحكم المتقن الّذي لا يوجد فيه ثلمةٌ ولا فتور، وغلب استعماله في المعلومات العقلية الحقّة الصادقة الّتي لا تقبل البطلان والكذب البتة... فالحكمة: هي القضايا الحقّة المطابقة للواقع من حيث اشتمالها بنحوٍ علىٰ سعادة الإنسان كالمعارف الحقّة الإلهيّة في المبدأ والمعاد والمعارف الّتي تشرح حقائق العالم الطبيعي من جهة مساسها بسعادة الإنسان كالحقائق الفطرية الّتي هي أساس التشريعات الدينية (٣).

---

(١) البقرة: ٢٦٩.

(٢) أعلام الدين: ٤٥٩، وعنه في بحار الأنوار: ٢٧ / ١٢٦.

(٣) تفسير الميزان: ٢ / ٣٩٥.

ووجه تطبيق الآية الكريمة على معرفة إمام العصر الهادي بأمر الله تعالى هو باعتبار عظمة الثمار الناتجة عنها، فهي الّتي تنقذ الإنسان من ميتة الجاهلية، وتجعله كمَن جاهد مع المهديّ القائم عجّل الله فرجه أو كمَن استشهد مع رسول الله محمّد ﷺ، وفي ذلك أعظم الخير الربّاني والسعادة الحقيقية للإنسان، لذا فمعرفة الإمام المهديّ من أعظم مصاديق الفوز بهذه الحكمة الخاصّة.

وفي نسبة إعطاء هذه الحكمة الخاصّة إلى الله تبارك وتعالى مباشرةً دلالة على أنّ معرفة الإيمان بالمهديّ المنتظر في غَيبته وظهوره هي من مصاديق كتابة الله جلّت قدرته للإيمان في قلوب المؤمنين وتأييدهم بروحٍ منه، فهو نمطٌ من النصرة الإلهيّة للعبد المؤمن، والتأهّل للفوز بهذه النصرة الإلهيّة الجليلة يكون باجتناب الكبائر والتحلّي بالتقوى الصادقة، وهي مفتاح الاهتداء بالهداية الإلهيّة الخاصّة كما دلّت على ذلك الآيات الأُولى من سورة البقرة.

خامساً: التأهّل لزيادة الهدى والتقوى:

قوله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ اهتَدَوا زَادَهُم هُدىً وَآتَاهُم تَقوَاهُم ﴾ (١)

فقد روي في كتاب تأويل الآيات عن محمّد بن العبّاس رواه مرفوعاً عن ابن أبي عمير عن حمّاد بن عيسى عن محمّد الحلبي قال: قرأ أبو عبد الله عليه السلام: ﴿ فَهَل عَسَيتُم إن تَوَلَّيتُم ﴾: وسُلّطتم وملكتم: ﴿ أن تُفسِدُوا فِي الأرضِ وَتُقَطِّعوا أرحَامَكُم ﴾ (٢) ثمّ قال: نزلت هذه الآية في بني عمّنا بني العبّاس وبني أُمية.

---

(١) محمّد: ١٧.

(٢) محمّد: ٢٢.

ثمّ قرأ: ﴿أولـئِكَ الّـذِينَ لَـعَنَهمُ اللهُ فَأَصَـمَّهُم﴾ عن الدين ﴿وأعمىٰ أبصَارَهُم﴾ (١) عن الوصي.

ثمّ قرأ: ﴿إنّ الّذِينَ ارتدُّوا عَلَىٰ أدبَارِهم﴾ بعد ولاية علي ﴿مِن بَعدِ مَا تَبيَّنَ لَهُمُ الهُدىٰ الشَّيطَانُ سَوَّلَ لَهُم وَأَملَىٰ لَهُم﴾ (٢).

ثمّ قرأ: ﴿والّذين اهتدوا﴾ بولاية علي ﴿زادهم هدىً﴾ حيث عرّفهم الأئمّةَ من بعده والقائم عليه السلام. ﴿وآتاهم تقواهم﴾ أماناً من النار (٣).

قال صاحب «الميزان» في تفسيره لهذه الآية الكريمة: المراد بالاهتداء ما يقابل الضلال الملازم للطبع على القلب، وهو التسليم لما تهدي إليه الفطرة السليمة واتّباع الحقّ، وزيادة هداهم من الله سبحانه رفعه تعالىٰ درجة إيمانهم... والمراد بالتقوىٰ ما يقابل اتّباع الأهواء وهو الورع عن محارم الله والتجنّب عن ارتكاب المعاصي. وبذلك يظهر أنّ زيادة الهدىٰ راجع إلىٰ تكميلهم في ناحية العلم وايتاء التقوىٰ إلىٰ تكميلهم في ناحية العمل (٤).

ووجه تطبيق الآية على الإيمان بولاية الإمام علي والأئمّة من ولده عليهم السلام في غاية الوضوح علىٰ ضوء ما تقدّم في الآيات السابقة، وما سيأتي في الفقرة التاسعة من هذا الفصل في توضيح ثمرة هذا الاهتداء وهو الفوز بالهداية الإلهيّة التكميلية للعلم والعمل المؤدّي إلى الأمان من الضلالة والنجاة من النار.

والّذي يدلّ عليه تطبيق الآية هو أنّ الاهتداء إلىٰ ولاية الوصي سلام الله عليه يؤهّل المؤمن للفوز بالهداية الإلهيّة الخاصّة بتعريفه بالأئمّة من بعده،

---

(١) محمّد: ٢٣.

(٢) محمّد: ٢٥.

(٣) تأويل الآيات الظاهرة: ٢ / ٥٨٥.

(٤) تفسير الميزان: ١٨ / ٢٣٦.

وتعريفه بإمام زمانه، وبالتالي إنقاذه من ميتة الجاهلية.

كما يستفاد من تفسير مفهوم الآية و تطبيقها أنّ الإيمان بإمام العصر عجّل الله فرجه ممّا تقود إليه الفطرة السليمة ويعبّر عن الإعراض عن الأهواء واتّباع الحقّ وما تقرّه الأدلّة النقلية والبراهين العقلية والاهتداء بها المؤدّي بالتالي إلىٰ الفوز بالهداية الإلهيّة الخاصّة.

وعلىٰ كلّ حال، فتطبيق الآية يفيد أنّ الاهتداء إلىٰ معرفة إمام العصر المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه والتمسّك بولايته يعود على المؤمن به بترسيخ ملكة التقوىٰ فيه وبالتالي الأمان من النار.

سادساً: الفوز بالحياة الطيّبة:

قوله تعالىٰ:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُم وَحُسنُ مَآب﴾ (١)

روى الشيخ الصدوق في كتابي كمال الدين ومعاني الأخبار بالسند نفسه وبالمتن عينه قال: حدّثنا المظفّر بن جعفر بن المظفّر العلوي السمرقندي ﷺ قال: حدّثنا جعفر بن محمّد بن مسعود عن أبيه محمّد بن مسعود العيّاشي عن جعفر بن أحمد عن العمركي بن علي البوفكي عن الحسن بن علي بن فضّال عن مروان بن مسلم عن أبي بصير قال: قال الصادق جعفر بن محمّد عليه السلام:

طوبىٰ لمن تمسّك بأمرنا في غَيبة قائمنا فلم يزغ قلبه بعد الهداية، فقلت له: جعلت فداك وما طوبىٰ؟ قال: شجرةٌ في الجنّة أصلها في دار علي بن أبي

---

(١) الرعد: ٢٩.

طالب ﷺ، وليس من مؤمن إلّا وفي داره غصنٌ من أغصانها، وذلك قول الله عزّوجلّ: ﴿ *طوبىٰ لهم وحُسن مآب* ﴾[١].

وفي تفسير هذه الآية الكريمة قال العلّامة الطباطبائي ﵀: قوله تعالى: ﴿ *الّذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبىٰ لهم وحُسن مآب* ﴾ طوبى علىٰ وزن فُعلى بضمّ الفاء مؤنّث أطيب، فهي صفة لمحذوف وهو ـ علىٰ ما يستفاد من السياق ـ الحياة أو المعيشة، وذلك أنّ النعمة كائنة مّاكانت إنّما تغتبط وتهنأ إذا طابت الإنسان، ولا تطيب إلّا إذا اطمأنّ القلب إليه وسكن ولم يضطرب، ولا يوجد ذلك إلّا لمن آمن بالله وعمل عملاً صالحاً فهو الّذي يطمئنّ منه القلب ويطيب له العيش، فإنّه في أمنٍ من الشرّ والخسران وسلام ممّا يستقبله ويدركه، وقد أوى إلى ركن لا ينهدم واستقرّ في ولاية الله لا يوجّه إليه ربّه إلّا ما فيه سعادته إن أُعطي شيئاً فهو خيرٌ له وإن منع فهو خيرٌ له.

وقد قال في وصف طيب هذه الحياة: ﴿ *مَن عَمِلَ صَالِحاً مِن ذَكَرٍ أو أُنثَى وَهُوَ مُؤمِنٌ فَلَنُحيِيَنَّه حَيَاةً طَيِّبَة وَلَنجزِيَنَّهم أَجرَهُم بِأَحسَنِ مَا كَانُوا يَعمَلُون* ﴾[٢]. وقال في صفة من لم يُرزق اطمئنان القلب بذكر الله: ﴿ *وَمَن أَعرَضَ عَن ذِكرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحشُرُهُ يَومَ القِيَامَةِ أَعمَى* ﴾[٣]. ولعلّ وصف الحياة أو المعيشة في الآية الّتي نحن فيها بزيادة الطيب تلميحاً إلى أنّها نعمةٌ لا تخلو من طيب علىٰ أيّ حال، إلّا أنّها فيمن اطمأنّ قلبه بذكر الله أكثر طيباً لخلوصها من شوائب المنغصات.

---

(١) كمال الدين: ٣٥٨، معاني الأخبار: ١١٢.
(٢) النحل: ٩٧.
(٣) طه: ١٢٤.

فقوله: ﴿ طوبى لهم ﴾ في تقدير لهم حياةٌ أو معيشةٌ طوبىٰ، فـ«طوبىٰ» مبتدأ و«لهم» خبره وإنّما قدّم المبتدأ المنكر على الظرف، لأنّ الكلام واقع موقع التهنئة، وفي مثله يقدّم ما به التهنئة استعجالاً بذكر ما يسرّ السامع ذكره، نظير قولهم في البشارة: بشرى لك.

وبالجملة، في الآية تهنئة الّذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهم الّذين آمنوا وتطمئنّ قلوبهم بذكر الله اطمئناناً مستمرّاً بأطيب الحياة أو العيش وحسن المرجع، وبذلك يظهر اتّصالها بما قبلها، فإنّ طيب العيش من آثار اطمئنان القلب كما تقدّم.

وقال في مجمع البيان: ﴿ طوبى لهم ﴾ وفيه أقوال:

أحدها: أنّ معناه فرحٌ لهم وقرّة عين، عن ابن عبّاس.

والثاني: غبطةٌ لهم، عن الضحّاك.

والثالث: خيرٌ لهم وكرامة، عن إبراهيم النخعي.

والرابع: الجنةٌ لهم، عن مجاهد.

والخامس: معناه العيش المطيب لهم، عن الزجّاج. والحال المستطابة لهم، عن ابن الأنباري، لأنّه فعلى من الطيب. وقيل: أطيب الأشياء لهم وهو الجنّة، عن الجبائي.

والسادس: هنيئاً يطيب العيش لهم.

والسابع: حسنى لهم، عن قتادة.

والثامن: نِعمَ ما لهم، عن عكرمة.

التاسع: طوبى لهم دوام الخير لهم.

العاشر: أنّ طوبى شجرة في الجنّة أصلها في دار النبيّ ﷺ، وفي دار كلّ

مؤمن منها غصن، عن عبيد بن عمير ووهب وأبي هريرة وشهر بن حوشب وروي أبي سعيد الخدري مرفوعاً، إنتهى موضع الحاجة[١].

الحياة الطيّبة في التمسّك بالإمامة في الغَيبة:

١ـ يُستفاد من التدبّر في تفسير الآية الكريمة وتطبيقها على القضية المهدوية أنّ التمسّك بولاية أئمّة أهل بيت النبيّ ﷺ في ظلّ غيبة خاتمهم المهديّ الموعود عجّل الله فرجه سببٌ للفوز بالحياة الطيبة المتجلّية في اطمئنان القلب وركونه ورضاه بتقدير ربّه الكريم الحكيم، وإدراكه أنّ غَيبة وليه وحجّته علىٰ خلقه هي من أمره، والله غالب علىٰ أمره.

٢ـ كما يُستفاد أنّ سرّ إعطاء هذه المرتبة السامية لمؤمني عصر الغَيبة يكمن في الصعوبات الملازمة للإيمان بالإمام والتمسّك بولايته في غَيبته، فهو يعبّر عن بلوغهم مراتب سامية في الإيمان بالله تبارك وتعالىٰ وآياته، حيث يتجلّىٰ رسوخ الإيمان بالله جلّت قدرته ومعرفة حكمته واستحالة إخلائه الأرض من حجّة له علىٰ عباده في رسوخ الإيمان بالإمام المهديّ في غَيبته.

٣ـ الإيمان بالإمام المهديّ كإمام للعصر والتمسك العملي بولايته واتّباع نهج آبائه صلوات الله عليهم أجمعين في غَيبته، ينقذ المؤمن من الحيرة الناتجة من عدم التمسّك بالحبل الإلهيّ المتين الممثّل بالإمام المعصوم، وهذا أوضح مظاهر الحياة الطيّبة الّتي تعني اطمئنان القلب والاستقرار في رحاب الولاية الإلهيّة.

---

(١) تفسير الميزان: ١١ / ٣٥٦ ـ ٣٥٧.

٤ـ التفسيرات الأُخرىٰ الّتي نقلها العلّامة عن المفسّرين الآخرين تمثّل مظاهر للحياة الطيّبة تكشف عن جوهرها الحقيقي المتمثّل في الاطمئنان القلبي بالرعاية الربوبية الإلهيّة.

٥ـ التفسير العاشر الّذي نقله العلّامة عن عدد من رواة أهل السنّة يشير إلىٰ أنّ الفوز بالحياة الطيّبة يكون بالتمسّك بولاية النبيّ الأكرم محمّد ﷺ الممثّل لها بشجرة الجنّة. ومعلوم أنّ ولاية النبيّ ﷺ تتجسّد بعده في ولاية الإمام علي عليه السلام كما ينصّ علىٰ ذلك حديث الغدير المتواتر، وفي ولاية كلّ واحد من أئمّة العترة النبوية الطاهرة صلوات الله عليهم كلّ في عصره، فولايتهم واحدة تعبّر عن التمسّك بالولاية الإلهيّة.

وبذلك يتّضح وجه الجمع بين هذا التفسير المروي عن طريق أهل السنّة والحديث الشريف المطبق للآية على التمسّك بولاية الأئمّة من عترة النبيّ محمّد ﷺ.

سابعاً: استيفاء نصيبه من دولة المهديّ:

قوله تعالى:

﴿اللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾[1]

فقد روىٰ ثقة الإسلام الكليني في الكافي عن محمّد بن يحيى عن مسلمة بن الخطّاب عن الحسن [الحسين] بن عبد الرحمن عن علي بن أبي حمزة عن

(١) الشورىٰ: ١٩ ـ ٢٠.

أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت: ﴿ *الله لطيفٌ بعباده يرزقُ من يشاء* ﴾ قال: ولاية أميرالمؤمنين عليه السلام، قلت: ﴿ *من كان يريد حرث الآخرة* ﴾ قال: معرفة أميرالمؤمنين والأئمّة عليهم السلام ﴿ *نَزِد له في حرثه* ﴾ قال: نزيده منها، قال: يستوفي نصيبه من دولتهم ﴿ *ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب* ﴾ قال: ليس له في دولة الحقّ مع القائم عليه السلام نصيب[١].

قال العلّامة الطباطبائي في تفسيره لهذه الآية المباركة: الحرث الزرع، والمراد به نتيجة الأعمال الّتي يؤتاها الإنسان في الآخرة علىٰ سبيل الاستعارة، كأنّ الأعمال الصالحة بذور وما تنتجه في الآخرة حرث. والمراد بالزيادة له في حرثه تكثير ثوابه ومضاعفته.... والمحصّل من الآيتين أنّ الله سبحانه لطيف بعباده جميعاً ذو قوّةٍ مطلقة وعزّة مطلقة، يرزق عباده علىٰ حسب مشيئته، وقد شاء فيمن أراد الآخرة وعمل لها أن يرزقه منها ويزيد فيه، وفيمن أراد الدنيا وعمل لها فحسب أن يؤتيه منها، وماله في الآخرة من نصيب[٢].

الحديث الشريف يطبق الآية الأُولىٰ على الرزق المعنوي، وأحد مصاديقه البارزة ـ الّتي تعود على الإنسان بالخير الكثير ـ هي ولاية أئمّة الهدىٰ عليهم السلام الموصلة إلىٰ سعادة الدارين الحقيقية. ويطبق الثانية علىٰ وسيلة الفوز بالثواب الجزيل والحياة الطيّبة في الآخرة، وهي وسيلة معرفة إمام العصر المنجية من الميتة الجاهلية.

والّذي يفيده تطبيق الآية الكريمة أنّ الّذي يصدق في طلبه للحياة الطيبة في الآخرة يرزقه الله تبارك وتعالىٰ الوسيلة الموصلة لغايته، وهي معرفة إمام الحقّ

---

(١) الكافي: ١ / ٤٣٥ ـ ٤٣٦.

(٢) تفسير الميزان: ١٨ / ٤٠ ـ ٤١.

الهادي بأمر الله وريث الأنبياء والوصي علىٰ رسالة خاتمهم الرسول الأكرم محمّد ﷺ.

ويطبق الحديث الشريف وصف الآخرة علىٰ ظهور المهديّ عجّل الله فرجه الشريف وقيام دولته الّتي يظهر الله تبارك وتعالىٰ فيها الإسلام على الدين كلّه، وهو تطبيق متكرّر في الأحاديث الشريفة المؤوّلة للآيات الكريمة. لاشتراكهما في كونهما من الحقائق الإيمانية الغَيبية الّتي تدلّ عليها الأدلّة النقلية والبراهين العقلية، ولاشتراكهما في كونهما من أيّام ظهور وتجلّي القدرة الإلهيّة بصورةٍ كاملة لا تبقي مجالاً للريب والتشكيك، وهذه الخصوصية يمتاز بها يوم قيام القائم المهديّ عليه السلام عن أيّام الله الأُخرىٰ، كما يُستفاد من الآيات الناصّة علىٰ أنّ الله تعالىٰ يتمّ فيه نوره الربّاني ويظهر فيه دينه على الدين كلّه، فلا يبقىٰ أيّ شكل من أشكال الحاكمية للكفر والنفاق، كما هو الحال في يوم القيامة الّذي تتجلّىٰ فيه القهّارية الإلهيّة بالكامل ويتجلّىٰ كون الملك بالكامل لله الواحد القهّار.

ويُستفاد من تطبيق الحديث الشريف للآية الكريمة علىٰ قضية الهداية للولاية المهدوية والإيمان بها أنّ طالب الآخرة الصادق في طلبه والفائز بالهداية الإلهيّة الخاصّة لها يستوفي نصيبه من عيش الحياة الكريمة الطيّبة في دولة المهديّ الإلهيّة، ويعبد الله تبارك وتعالىٰ لا شريك له بأمانٍ كامل دونما خوفٍ من كيد كافرٍ أو منافق، ويمكّن الله له في الأرض. وهذه الثمرة لا يحصل عليها طالب الدنيا الساعي لها وبالتالي المحروم من التعرّف علىٰ إمام زمانه في غَيبته وقبل ظهوره، فلن يكون له نصيبٌ من الحياة الكريمة الطيّبة في ظلّ دولة المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه.

وبالطبع، فإنّ هذه الثمرة ـ وكما هو حال الثمار الأُخرى المترتّبة على معرفة الإمام المهديّ والإيمان به قبل ظهوره ـ مشروطة بأن يكون هذا الإيمان صادقاً يتجسّد في التمسّك العملي بولايته عليه السلام والعمل بالواجبات تجاهه ومقتضيات الإيمان به.

ثامناً: الإلتحاق بالصديقين والشهداء عند ربّهم:

قوله تعالىٰ:

﴿ *وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ* ﴾[1]

روى العيّاشي عن الحرث بن المغيرة قال: كنّا عند أبي جعفر عليه السلام فقال: العارف منكم هذا الأمر المنتظر له المحتسب فيه الخير كمَن جاهد والله مع قائم آل محمّد عليه السلام بسيفه، ثمّ قال: بل والله لَمن جاهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله بسيفه. ثمّ قال الثالثة: بل والله كمَن استشهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله في فسطاطه، وفيكم آية من كتاب الله، وقلت: وأيّ آية جُعلتُ فداك؟ قال: قول الله عزّوجلّ: ﴿ *والّذين آمنوا بالله ورسله أُولئك هم الصدّيقون والشهداء عند ربّهم* ﴾. ثمّ قال: صرتم والله صادقين شهداء عند ربكم[2].

وفي تفسير هذه الآية المباركة قال العلّامة الطباطبائي رحمه الله في الميزان: المراد بالإيمان بالله ورسله محض الإيمان الّذي لا يفارق بطبعه الطاعة والاتّباع...

---

(١) الحديد: ١٩.

(٢) نقله عنه الطبرسي في مجمع البيان: ٩ / ٢٣٨.

والمراد بقوله ﴿*أولئك هم الصدّيقون والشهداء*﴾ إلحاقهم بالصدّيقين والشهداء بقرينة قولهم ﴿*عند ربّهم*﴾ وقوله ﴿*لهم أجرهم ونورهم*﴾. فهم ملحقون بالطائفتين يعاملهم معاملة الصدّيقين والشهداء فيعطون مثل أجرهم ونورهم... وقد تعرّض سبحانه في الآية لشأن الملحقين بالصدّيقين والشهداء وهم خيار الناس والناجون قطعاً...

والمراد بالصدّيقين هم الّذين سرىٰ الصدق في قولهم وفعلهم فيفعلون ما يقولون ويقولون ما يفعلون والشهداء هم شهداء الأعمال يوم القيامة... فهؤلاء الّذين آمنوا بالله ورسله ملحقون بالصدّيقين والشهداء منزلون منزلتهم عند الله أي بحكم منه لهم أجرهم ونورهم[1].

تطبيق الآية الكريمة على الإيمان بالعقيدة الإسلامية في المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه والعمل بمقتضياتها يبين أعظم وأسمىٰ ثمار هذا الإيمان والعمل بمقتضياته، ويبيّن حقيقته والمقصود منه.

الحديث الشريف يجري مفهوم الإيمان بالله تبارك وتعالىٰ ورسله علىٰ معرفة الإمام المهديّ عجّل الله فرجه وانتظار ظهوره واحتساب الخير فيه وتحمّل مشاقّ وصعوبات وفتن عصر غَيبته، باعتبار أنّ الإيمان بالله ورسله يقود إلى الإيمان بوجود الإمام المهديّ، لأنه يتضمّن الإيمان بأنّ لكلّ قومٍ هادٍ يهدي عباد الله بأمره وعلىٰ نهج رسله.

وتطبيق الآية علىٰ هذا الإيمان يوضح المراد منه وحقيقة الإيمان الصادق به عليه السلام، كما ينتبه لذلك صدر الحديث الشريف حيث يذكر بعض مظاهر صدق الإيمان بالعقيدة الإسلامية في المهديّ المنتظر : «العارف منكم هذا الأمر

(١) تفسير الميزان: ١٩ / ١٦٢ ـ ١٦٣ باختصار وبعض التقديم والتأخير.

المنتظر له المحتسب فيه الخير». فالإيمان الصادق بالعقيدة الإسلامية في المهديّ المنتظر يتضمّن القيام بواجبات الانتظار بما يعنيه الانتظار من التهيؤ والاستعداد والتمهيد لهذا الظهور المقدّس، وتحمّل مشاقّ وصعوبات القيام بهذه الواجبات وفتن عصر الغَيبة واستهزاء وكيد المنكرين الممارين احتساباً للخير الإلهيّ الكامن في هذا الإيمان.

والمتحلّي بهذه المرتبة السامية من الإيمان الصادق بالمهديّ المنتظر المقرون بالقيام بواجبات الانتظار والتمهيد لظهوره عجّل الله فرجه جديرٌ بأن يكون مخاطباً بهذه الآية الكريمة والالتحاق بمنزلة الصدّيقين الّذين صدقت أفعالهم أقوالهم وأقوالهم أفعالهم وشهداء الأعمال يوم القيامة، وهذا ما يؤكّده الإمام الباقر سلام الله عليه في ذيل الحديث الشريف مقروناً بالقسم باسم الجلالة.

وواضحٌ أنّ هذا الإيمان الصادق المقرون بالانتظار العملي الايجابي والثبات عليه يستلزم تحمّل الكثير من الصعاب والأذىٰ بما لا يقلّ عن صعاب الجهاد مع الإمام بالسيف بعد الظهور أو الجهاد مع رسول الله ﷺ في بداية دعوته والاستشهاد في فسطاطه، فلا غرابة أن يفوز صاحبه بهذه المنزلة السامية والأجر الإلهيّ الكريم والنور الإلهيّ التامّ.

تاسعاً: الاهتداء للصراط السوي:

قوله تعالىٰ:

﴿قُل كُلٌّ مترَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعلَمُونَ مَن أَصحَابُ الصِراطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهتَدَىٰ﴾ (١)

---

(١) طه: ١٣٥.

عاشراً: قوله تعالىٰ:

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾(١)

ويدلّ علىٰ تطبيقهما على الإيمان بالإمام المهديّ وطاعته في غَيبته وظهوره ما رواه محمّد بن العبّاس بن الماهيار في تفسيره «فيما نزل من القرآن في أهل البيت ﷺ» قال: حدّثنا محمّد بن همّام عن محمّد بن إسماعيل العلوي عن عيسى بن داود النجّار عن أبي الحسن موسى بن جعفر ﷺ، قال: سألت أبي عن قول الله عزّوجلّ: ﴿فستعلمون مَن أصحابُ الصراط السويّ ومَن اهتدىٰ﴾ قال: «الصراط السوي هو القائم ﷺ، والهدى من اهتدى إلى طاعته، ومثلها في كتاب الله عزّوجلّ: ﴿وإنّي لغفارٌ لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثمّ اهتدىٰ﴾ قال: إلى ولايتنا(٢).

يقول العلّامة الطباطبائي في تفسير الآية الأُولىٰ: التربص الانتظار، والصراط السوي الطريق المستقيم، وقوله ﴿كلٌّ متربّص﴾ أي كلٌّ منّا ومنكم متربصٌ منتظرٌ فنحن ننتظر ما وعده الله لنا فيكم وفي تقدّم دينه وتمام نوره وأنتم تنتظرون بنا الدوائر لتبطلوا الدعوة الحقّة، وكلٌّ منّا ومنكم يسلك سبيلاً إلىٰ مطلوبه فتربّصوا وانتظروا. وفيه تهديد: ﴿فستعلمون﴾ أيّ طائفة منّا ومنكم أصحاب الطريق المستقيم الّذي يوصله إلىٰ مطلوبه؟ ومَن الّذين اهتدوا إلى المطلوب؟ وفيه ملحمةٌ وإخبارٌ بالفتح(٣).

---

(١) طه: ٨٢.

(٢) نقله عنه الاسترآبادي الغروي في تأويل الآيات الظاهرة: ١ / ٣٢٣.

(٣) تفسير الميزان: ١٤ / ٢٤٠ ـ ٢٤١.

مصداق الصراط المستقيم:

وقد وردت الكثير من الأحاديث الشريفة الّتي تنصّ علىٰ أنّ مصداق الصراط المستقيم الوارد في الكثير من الآيات الكريمة هو التمسّك بولاية الإمام علي عليه السلام والأئمّة المعصومين من عترةِ سيّد المرسلين صلى الله عليه وآله[1]، لأنهم يمثّلون الامتداد الشرعي لولاية الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله والأوصياء علىٰ رسالته وحماتها وعدل كتاب الله ومبيّني سنّة نبيّه، كما هو ثابت في النصوص الشرعية والمتّفق علىٰ صحّته من الأحاديث الشريفة.

لذا، فوصف الصراط المستقيم يصدق على التمسّك بولاية الإمام المهديّ عجّل الله فرجه وهو خاتم الأوصياء الاثني عشر الّذين نصّ عليهم سيّد الرسل محمّد صلى الله عليه وآله. والمظهر العملي لمعرفة هذه الحقيقة، والإيمان الصادق بها هو الاهتداء إلىٰ طاعته عليه السلام، لأنّ فيها طاعة جدّه النبيّ الخاتم صلى الله عليه وآله وبالتالي طاعة الله عزّوجلّ والخلاص من الميتة الجاهلية والضلالة. وهذا ما يشير إليه الإمام الكاظم سلام الله عليه في تبيينه لمعنىٰ الاهتداء في الآية الكريمة علىٰ ضوء تطبيقها علىٰ أحد مصاديقها البارزة وهو الاهتداء إلىٰ ولاية وطاعة المهديّ المنتظر ومعرفته إماماً للعصر.

تحذير الممارين:

والآية الكريمة تأتي في سياق محاججة المعاندين وبلغةٍ تهديدية تقوم علىٰ أساس التحذير من عاقبة الاصرار على الإنكار والتبشير بحلول اليوم الّذي

---

(١) راجع شواهد التنزيل للحاكم الحسكاني: ١ / ٧٤ ـ ٧٦، ومعاني الأخبار للشيخ الصدوق: ٣٦ وما بعدها، وتفسير الميزان: ١ / ٤١، والروايات بهذا المعنىٰ كثيرة مروية من طرق أهل السنّة والشيعة.

تتّضح فيها الحقائق بما لا يبقىٰ أيّ مجال للإنكار، ولكن لن ينفع المعاندين يومئذٍ إيمانهم بها بعدما أنكروه في السابق رغم قيام الأدلّة والبراهين الّتي يقرّها العقل السليم.

فالآية الكريمة إذن تتضمّن الإخبار الضمني في تحقّق ما وعده الله من تقدّم دينه وتمام نوره وحصول الفتح الرباني لعباده، كما ظهر ذلك في انتصار الرسول الأكرم ﷺ على المشركين الّذين جاءت الآية الكريمة في سياق طائفة من الآيات الكريمة للاحتجاج عليهم وتسلية النبيّ بتأكيد حتمية حصول الفتح رغم إعراضهم عن الحقّ وإنكارهم له، وسيأتي المزيد من التوضيح ضمن الحديث عن يوم الفتح.

وتطبيق الآية على القضية المهدوية يدلّ علىٰ حتمية حصول الفتح الإلهيّ علىٰ يد المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه على الرغم من إنكار المعاندين.

والّذي يبدو من سياق الآية الكريمة أنّ الوعيد الوارد فيها يشكّل آخر مراتب الاحتجاج على المنكرين المعاندين الّذين يصرّون علىٰ إنكار الحقائق الإيمانية رغم قيام الأدلّة الدامغة الواضحة عليها. وتطبيقها علىٰ قضية الإمام المهديّ عجّل الله فرجه يشير إلىٰ وجود وبقاء طائفة من المنكرين لما يرتبط بهذه العقيدة ووجود الإمام وغَيبته وظهوره، يصرّون علىٰ إنكارهم حتّى لو عُرضت عليهم أمتن الأدلّة النقلية والعقلية علىٰ هذه العقيدة، فيظلّون منكرين لها ساخرين من معتنقيها، فتكون الآية ـ مع تطبيقها علىٰ قضية الإيمان بالمهديّ وغَيبته وظهوره ـ تسليةً ربّانيةً للمؤمنين بها تخفّف عنهم أذى المنكرين والمستهزئين.

يُضاف إلىٰ ذلك أنّ تطبيق الآية على الإيمان بالمهديّ المنتظر ووصفه بأنّه هو الصراط المستقيم يدلّ ضمنياً علىٰ وجوده ﷺ وقيامه بمهامّ الإمامة في

غَيبته، لاستحالة أن يخلو زمان من إمام يهدي بأمر الله يكون التمسّك به مصداقاً للصراط المستقيم الموصل لله تبارك وتعالىٰ.

المهتدي للولاية المهدوية يفوز بالمغفرة الخاصّة:

أمّا بالنسبة للآية الثانية الّتي يطبقها الحديث الشريف على الإيمان بالمهديّ المنتظر والتمسّك بولايته فإنّ التدبّر فيها يقود إلىٰ معرفة أنّ التفسير الوحيد المعقول لها هو أن يكون الاهتداء المقصود فيها هو معرفة ولاية مَن يكون التمسّك بولايته منجاةً من الضلال، كما يتّضح ذلك من التأمّل في البحث القرآني والروائي الّذي أورده العلّامة الطباطبائي في تفسير الآية، يقول ﷫:

فمعنى الآية ـ والله أعلم ـ: وإنّي لكثير المغفرة لكلّ إنسانٍ تاب وآمن سواء تاب عن شركٍ أو عن معصية وسواء آمن بي أو بآياتي من رسلي، أو ما جاؤوا به من أحكامي بأن يندم علىٰ ما فعل ويعمل عملاً صالحاً بتبديل المخالفة والتمرّد فيما عصى فيه بالطاعة فيه، وهو المحقّق لأصل معنى الرجوع من شيء، وقد مرّ تفصيل القول فيه في تفسير قوله تعالى: ﴿ *إِنَّما التَّوبَةُ عَلَى اللهِ* ﴾[1] في الجزء الرابع من الكتاب.

وأمّا قوله: ﴿ *ثمّ اهتدى* ﴾ فالاهتداء يقابل الضلال كما يشهد به قوله تعالى: ﴿ *مَنِ اهتَدَى فَإِنَّمَا يَهتَدي لِنَفسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيهَا* ﴾[2]، وقوله: ﴿ *لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إذا اهتَدَيتُم* ﴾[3] فهل المراد أن لا يضلّ في نفس ما تاب فيه بأن يعود إلى المعصية ثانياً، فيفيد أنّ التوبة عن ذنب إنّما تنفع بالنسبة إلى ما اقترفه

(١) النساء: ١٧.
(٢) الإسراء: ١٥.
(٣) المائدة: ١٠٥.

قبل التوبة ولا تكفي عنه لو عاد إليه ثانياً، أو المراد أن لا يضلّ في غيره فيفيد أنّ المغفرة إنّما تنفعه بالنسبة إلى المعصية الّتي تاب عنها. وبعبارة أُخرى: إنّما تنفعه نفعاً تامّاً إذا لم يضلّ في غيره من الأعمال، أو المراد ما يعمّ المعنيين؟

ظاهر العطف بـ«ثمّ» أن يكون المراد هو المعنى الأول، فيفيد معنى الثبات والاستقامة على التوبة فيعود إلى اشتراط الإصلاح الّذي هو مذكور في عدّة من الآيات كقوله: ﴿ *إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ* ﴾[1].

لكن يبقى على الآية بهذا المعنى أمران: أحدهما نكتة التعبير بالغفّار بصيغة المبالغة الدالّة على الكثرة فما معنى كثرة مغفرته تعالى لمن اقترف ذنباً واحداً ثمّ تاب؟ وثانيهما أنّ لازمها أن يكون مَن خالف حكماً من أحكامه كافراً به وإن اعترف بأنه من عند الله وإنّما يعصيه اتّباعاً للهوى لا ردّاً للحكم. اللّهمّ إلّا أن يقال: إنّ الآية لاشتمالها على قوله: ﴿ *تاب وآمن* ﴾ إنّما تشمل المشرك أو الرادّ لحكمٍ من أحكام الله وهو كما ترى.

فيمكن أن يقال: إنّ المراد بالتوبة والإيمان التوبة من الشرك والإيمان بالله، كما أنّ المعنيين هما المرادان في أغلب المواضع من كلامه الّتي ذكر التوبة والإيمان فيها معاً، وعلى هذا كان المراد من قوله: ﴿ *وعمل صالحاً* ﴾ الطاعة لأحكامه تعالى بالائتمار لأوامره والانتهاء عن نواهيه، ويكون معنى الآية أنّ مَن تاب من الشرك وآمن بالله وأتى بما كلّف به من أحكامه فإنّي كثير المغفرة لسيّئاته أغفر له زلّة بعد زلّة فتكثر المغفرة لكثرة مواردها.

وقد ذكر تعالى نظير المعنى وهو مغفرة السيّئات في قوله: ﴿ *إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ* ﴾[2].

---

(١) آل عمران: ٨٩، النور: ٥.

(٢) النساء: ٣١.

فقوله: ﴿ وإنّي لغفّار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ﴾ ينطبق علىٰ آية النساء ويبقى فيه شرط زائد يقيّد حكم المغفرة، وهو مدلول قوله: ﴿ ثمّ اهتدى ﴾ وهو الاهتداء إلى الطريق، ويظهر أنّ المغفرة إنّما يسمح بها للمؤمن العامل بالصالحات إذا قصد ذلك من طريقه ودخل عليه من بابه.

ولا نجد في كلامه تعالى ما يقيّد الإيمان بالله والعمل الصالح في تأثيره وقبوله عند الله إلّا الإيمان بالرسول بمعنى التسليم له وطاعته في خطير الأُمور، ويسيرها وأخذ الدين عنه وسلوك الطريق الّذي يخطّها واتّباعه من غير استبداد وابتداع يؤول إلىٰ اتّباع خطوات الشيطان. وبالجملة، ولايته على المؤمنين في دينهم ودنياهم، فقد شرّع الله تعالى ولايته وفرض طاعته وأوجب الأخذ عنه والتأسّي به في آياتٍ كثيرةٍ جدّاً لا حاجة إلى إيرادها ولا مجال لاستقصائها، فالنبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم.

وكان جلّ بني إسرائيل علىٰ إيمانهم بالله سبحانه وتصديقهم رسالة موسى وهارون متوقّفين في ولايتهما أو كالمتوقّف كما هو صريح عامّة قصصهم في كتاب الله، ولعلّ هذا هو الوجه في وقوع الآية ﴿ وإنّي لغفّار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثمّ اهتدى ﴾ بعد نهيهم عن الطغيان وتخويفهم من غضب الله.

فقد تبيّن أن المراد بالاهتداء في الآية علىٰ ما يهدي إليه سائر الآيات هو الإيمان بالرسول باتّباعه في أمر الدين والدنيا، وبعبارة أُخرى: هو الاهتداء إلى ولايته.

وبذلك يظهر حال ما قيل في تفسير قوله: ﴿ ثمّ اهتدى ﴾ فقد قيل: الاهتداء لزوم الإيمان والاستمرار عليه ما دامت الحياة. وقيل: أن لا يشكّ ثانياً في إيمانه. وقيل: الأخذ بسنّة النبيّ وعدم سلوك سبيل البدعة. وقيل: الاهتداء هو أن يعلم أنّ لعمله ثواباً يجزى عليه. وقيل: هو تطهير القلب من الأخلاق

الذميمة. وقيل: هو حفظ العقيدة من أن تخالف الحقّ في شيء، فإنّ الاهتداء بهذا الوجه غير الإيمان وغير العمل. والمطلوب علىٰ جميع هذه الأقوال تفسير الاهتداء بمعنىً لا يرجع إلى الإيمان والعمل الصالح، غير أنّ الّذي ذكروه لا دليل علىٰ شيءٍ من ذلك[١].

وقال ﷺ في بحثه الروائي في الآية الكريمة:

وفي المجمع: قال أبو جعفر عليه السلام: ﴿ *ثمّ اهتدى* ﴾ إلى ولايتنا أهل البيت، فوالله لو أنّ رجلاً عبَدَ الله عمره ما بين الركن والمقام ثمّ مات ولم يجئ بولايتنا لأكبّه الله في النار علىٰ وجهه. رواه الحاكم أبو القاسم الحسكاني بإسناده وأورده العيّاشي في تفسيره بعدّة طرق.

أقول: ورواه في الكافي بإسناده عن سدير عنه عليه السلام، وفي تفسير القمّي بإسناده عن الحارث بن عمر عنه عليه السلام، وفي مناقب ابن شهرآشوب عن أبي الجارود وأبي الصباح الكناسي عن الصادق عليه السلام، وعن أبي حمزة عن السجّاد عليه السلام مثله، ولفظه: إلينا أهل البيت.

والمراد بالولاية في الحديث ولاية أمر الناس في دينهم ودنياهم، وهي المرجعية في أخذ معارف الدين وشرائعه، وفي إدارة أُمور المجتمع، وقد كانت للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كما ينصّ عليه الكتاب في أمثال قوله: ﴿ *النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ* ﴾[٢] ثمّ جعلت لعترته أهل بيته بعده في الكتاب بمثل آية الولاية وبما تواتر عنه صلى الله عليه وآله وسلم من حديث الثقلين وحديث المنزلة ونظائرهما.

والآية وإن وقعت بين آيات خوطب بها بنو إسرائيل وظاهرها ذلك لكنها

---

(١) تفسير الميزان: ١٤ / ١٨٨ ـ ١٩٠.

(٢) الأحزاب: ٦.

غير مقيّدة بشيءٍ يخصّها بهم ويمنع جريانها في غيرهم، فهي جارية في غيرهم كما تجري فيهم. أمّا جريانها فيهم فلأنّ لموسى بما كان إماماً في أُمّته كان له من سنخ هذه الولاية ما لغيره من الأنبياء، فعلى أُمّته أن يهتدوا به ويدخلوا تحت ولايته. وأمّا جريانها في غيرهم فلأنّ الآية عامّة غير خاصّة بقومٍ دون قوم، فهي تهدي الناس في زمن الرسول ﷺ إلى ولايته وبعده إلى ولاية الأئمّة من أهل بيته ﷺ، فالولاية سنخٌ واحد لها معناها إلى أيّ من نُسبت.

إذ عرفت ما تقدّم ظهر لك سقوط ما ذكره الآلوسي في تفسير روح المعاني، فإنّه بعد ما نقل رواية مجمع البيان السابقة عن أبي جعفر ﷺ قال: وأنت تعلم أنّ ولايتهم وحبّهم رضي الله عنهم ممّا لا كلام عندنا في وجوبه لكن حمل الاهتداء في الآية علىٰ ذلك مع كونها حكاية لما خاطب الله تعالى به بني إسرائيل في زمان موسى ﷺ ممّا يستدعي القول بأنه عزّوجلّ أعلم بني إسرائيل بأهل البيت وأوجب عليهم ولايتهم إذ ذاك ولم يثبت ذلك في صحيح الأخبار، إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

والّذي أوقعه فيما وقع فيه تفسيره الولاية بمعنى المحبّة ثمّ أخذه الآية خاصّةً ببني إسرائيل حتّى استنتج المعنى الّذي ذكره، وليست الولاية في آياتها وأخبارها بمعنى المحبّة، وإنّما هي ملك التدبير والتصرّف في الأُمور الّذي من شؤونه لزوم الاتّباع وافتراض الطاعة، وهو الّذي يدّعيه أئمّة أهل البيت لأنفسهم، وأمّا المحبّة فهي معنىً توسّعيّ للولاية بمعناها الحقيقي ومن لوازمها العادية، وهي الّتي تدلّ عليه بالمطابقة أدلّة مودة ذي القربي من آيةٍ أو رواية.

ولولاية أهل البيت ﷺ معنىً آخر ثالث وهو أن يلي الله أمر عبده فيكون

هو المدبّر لأُموره والمتصرّف في شؤنه لإخلاصه في العبودية، وهذه الولاية هي لله بالأصالة، فهو الوليّ لا وليّ غيره، وإنّما تُنسب إلى أهل البيت ﷺ لأنهم السابقون الأوّلون من الأمّة في فتح هذا الباب، وهي أيضاً من التوسّع في النسبة كما يُنسب الصراط المستقيم في كلامه تعالى إليه بالأصالة وإلى الّذين أنعم اللهُ عليهم من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين بنوع من التوسّع.

فتلخّص أنّ الولاية في حديث المجمع بمعنى ملك التدبير، وأنّ الآية الكريمة عامّة جارية في غير بني إسرائيل كما فيهم، وأنّه ﷺ إنّما فسّر الاهتداء إلى الولاية من جهة الآية في هذه الأُمّة وهو المتعيّن[(١)].

الإيمان بالمهديّ فرع للإيمان بالله:

١ـ يتّضح من تفسير الآية الكريمة أنّ الإيمان المقصود فيها هو الإيمان بالله تبارك وتعالىٰ وآياته، ويتفرّع منه الإيمان بالإمام الهادي إليه بأمره سواء كان نبيّاً مثل كليم الله موسىٰ عليه أفضل الصلاة والسلام الّذي جاءت الآية في سياق الحديث عن قصّته مع قومه ومثل خاتم الأنبياء ﷺ، أو وصيّاً مثل أوصياء الأنبياء مثل أئمّة أهل بيت النبيّ وخاتمهم المهديّ المنتظر عليه وعليهم الصلاة والسلام، كما ورد في الأحاديث الشريفة المطبقة للآية عليهم في البحث الروائي، وقد اتّضح أن لا مانع من تطبيقها عليهم من باب الجري.

٢ـ فيكون الإيمان المقصود هو الإيمان بأنّ الله تبارك وتعالىٰ هو صاحب الصراط المستقيم بالأصالة، ويُنسب إلىٰ أئمّته الهادين بأمره علىٰ نحو التوسّع. ويكون بذلك معنىٰ «الاهتداء» هو الخضوع لولاية الإمام الهادي بأمر الله جلّت

(١) تفسير الميزان: ١٤ / ١٩٩ ـ ٢٠١.

قدرته بمعنى اتّباع هدايته وطاعته وتجسيد مقتضى الإيمان المذكور عملياً بالتمسّك بولايته، وهو الّذي يوصل المؤمن إلىٰ مطلوبه، لأنّ الإمام الهادي بأمر الله جلّت قدرته هو الّذي يسلك عباده في السير على الصراط المستقيم. وهذا التفسير منسجمٌ بالكامل مع الأحاديث المتقدّمة المطبقة للآية علىٰ ولاية أئمّة أهل البيت والإمام المنتظر عليه وعليهم السلام.

٣ـ وقد يُستفاد من الآية الكريمة أنّ اكتمال صدق الإيمان بالله تبارك وتعالىٰ ـ الممثّل عملياً بالالتزام بالعمل الصالح ـ يكون بالاهتداء إلىٰ ولاية الإمام الحقّ الهادي بأمر الله في كلّ زمان، وبدون ذلك فهو إيمانٌ ناقص لا يوصل المؤمن إلىٰ بغيته ولا إلى الفوز بالمراتب السامية للمغفرة الإلهيّة.

٤ـ وبالتالي يُستفاد من الآية الكريمة حتمية وجود إمامٍ هادٍ إلى الله تبارك وتعالىٰ بأمره في كلّ زمان بحيث يكون الاهتداء لطاعته والتمسّك بولايته وسيلة سلوك الصراط المستقيم بهدايته والفوز بذلك بالمغفرة الإلهيّة.

الفصل الخامس

عواقب المماراة في المهديّ في غَيبته

مدخل:

إلىٰ جانب الآيات الكريمة المبيّنة ـ استناداً للأحاديث المطبقة لها على القضية المهدوية ـ لفضيلة وثمار الإيمان بالمهديّ المنتظر والتمسك بولايته في غَيبته وظهوره سلام الله عليه توجد طائفة أُخرىٰ من الآيات الكريمة تبيّن ـ واستناداً أيضاً للأحاديث الشريفة المطبقة لها علىٰ هذه القضية ـ عاقبة إنكار العقيدة الإسلامية في المهديّ وظهوره أو غَيبته والاستهزاء بها بعد الاطّلاع على الأدلّة النقلية والبراهين العقلية المثبتة لها، وهي بذلك تكمل الصورة الّتي ترسمها الطائفة الأُولىٰ، ومن هذه الآيات:

أوّلاً: الإنكار يستتبع الندم:

قوله تعالىٰ:

﴿ يَاحَسرَةً عَلَى العِبادِ مَا يَأتيهِم مِن رَسُولٍ إِلّا كانوا بِهِ يَستهزِئون ﴾ (١)

---

(١) يس: ٣٠.

روى الشيخ النعماني في كتاب الغَيبة قال: أخبرنا محمّد بن همّام ومحمّد بن الحسن بن محمّد بن جمهور جميعاً عن الحسن بن محمّد بن جمهور قال: حدّثني أبي عن بعض رجاله عن المفضّل بن عمر قال: قال أبو عبد الله عليه السلام:

... واعلموا أنّ الأرض لا تخلو من حجّة الله عزّوجلّ ولكنّ الله سيُعمي خلقَهُ عنها بظلمهم وجورهم وإسرافهم علىٰ أنفسهم، ولو خلت الأرضُ ساعةً واحدةً من حجّة الله لساخت بأهلها، ولكنّ الحجّة يعرفُ الناسَ ولا يعرفونه، كما كان يوسف يعرفُ الناسَ وهم له منكرون، ثمّ تلا: ﴿ *ياحسرةً على العبادِ ما يأتيهم من رسولٍ إلّا كانوا به يستهزئون* ﴾ (١).

والآية المطبقة واردة ضمن الحديث القرآني عن قصّة العبد المؤمن الصدّيق حبيب النجّار الّذي آمن بما جاء به رسولا عيسىٰ عليه السلام وصدّقهما ودعا قومه إلى اتّباعهم. والآية أعقبت الآيات الّتي تحدّثت عن إنزال العذاب علىٰ قومه بسبب إصرارهم علىٰ إنكار ما آمن به، ومعنىٰ الآية هو: ياندامة العباد ونداء الحسرة عليهم أبلغ من إثباتها لهم، وسبب الحسرة ما يتضمّنه قوله: ﴿ *ما يأتيهم من رسولٍ...إلخ* ﴾ (٢).

وتطبيق الآية على الاستهزاء بالعقيدة المهدوية يعني أنّ مثل هذا الاستهزاء يجلب علىٰ صاحبه الندم، لأنّه يحرمه من الثمار والبركات المعرفية والعملية المتحصّلة من الإيمان بهذه العقيدة، كما هو الحال مع سائر العقائد الأُخرىٰ الّتي يحملها الرسل والأوصياء للناس.

وواضحٌ أنّ هذه العواقب السيّئة لا تحيط بكلّ غير مؤمنٍ بالعقيدة المهدوية

---

(١) غَيبة النعماني: ١٤١.

(٢) راجع تفسير الميزان: ١٧ / ٨٠.

وإن كان عدم إيمانه يحرمه من ثمار الإيمان المذكورة في الفصل السابق، بل المقصود المنكر المعاند الّذي يخلد إلى الأرض ويصرّ على الاستهزاء والجدال غير السليم رغم وصول البيّنات إليه ﴿ما يأتيهم من رسول﴾ فهو ينكر بعد قيام البيّنة راكناً للاستهزاء بها لمجرّد الاستغراب أو الاستبعاد الذوقي الّذي لا يقوم علىٰ أدلّةٍ نقليةٍ ولا عقلية. وهذا ما تؤكّده الآية اللاحقة، وهي:

ثانياً: المنكرون عن عنادٍ في ضلال بعيد:

قوله تعالىٰ:

﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ (١)

روى الحافظ القندوزي في قوله تعالى: ﴿ألا إنّ الّذين يمارون في الساعة لفي ضلالٍ بعيد﴾ عن المفضّل بن عمر قال: قلت للصادق جعفر بن محمّد ﷺ: ما معنى هذه الآية؟ فقال: ساعة قيام القائم، يقولون: متى ولد؟ ومَن رآه؟ وأين هو؟ ومتى يظهر؟ كلّ ذلك شكّاً في قضائه وقدرته ﴿أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم﴾ (٢) في الدنيا والآخرة (٣).

معنىٰ المماراة:

قال العلّامة الطباطبائي ﷺ في تفسير هذه الآية: المماراة الإصرار على الجدال، والمراد إلحاحهم علىٰ إنكارها بالجدال، وإنّما كانوا في ظلالٍ بعيد، لأنّهم أخطأوا طريق الحياة الّتي إصابتها أهمّ ما يتصوّر للإنسان، فتوهّموها

---

(١) الشورىٰ: ١٨.

(٢) هود: ٢١، وقريب منها في الأعراف: ٩ و٥٣، والمؤمنون: ١٠٣، والأنعام: ١٢ و٢٠.

(٣) ينابيع المودّة: ٥١٤.

حياةٌ مقطوعة فانية، [ولذلك] انكبتوا فيها علىٰ شهوات الدنيا، وإنّما هي حياةٌ خالدةٌ باقية يجب عليهم أن يتزوّدوا من دنياهم لأُخراهم لكنّهم ضلّوا عن سبيل الرشد فوقعوا في سبيل الغيّ[1].

المماراة والإصرار والجدال بغير علمٍ بعد اتّضاح الحقائق يعبّر عن سقوط صاحبه في الضلال البعيد عن الهدىٰ وعن سلوك طريق الحياة الكريمة المناسبة له كإنسان والمنسجمة مع الغاية من خلقه. وعادةً مّا يكون هذا الضلال البعيد والاستهزاء بالحقائق الإيمانية والإصرار غير المسوغ علىٰ إنكارها نتيجةً للخشية من ضياع بعض الشهوات وما يتصوّرها الإنسان لذاتٍ ومتعٍ بسبب الالتزامات الّتي يقتضيها الإذعان للحقائق الإيمانية والواجبات الّتي تفرضها على المؤمن. فمثلاً الإيمان بالإمام المهديّ وخروجه الحتمي وغَيبته وقيامه بمهامّ الإمامة في غَيبته يستتبع مجموعة من الواجبات الّتي تقع علىٰ عاتق المؤمنين تجاه إمام زمانهم وتجاه ظهوره والتمهيد له ولثورته العالمية الكبرىٰ، فيسعىٰ المماري إلىٰ نفيها عن عاتقه بإنكار أصل هذه العقيدة.

وللمماراة بشأن الإيمان بالعقيدة المهدوية دوافع أُخرىٰ عديدة تختلف باختلاف الأشخاص، مثل القناعات السابقة وعدم القدرة على التحرر منها، أو الخشية من استهزاء الآخرين به، أو الإخلاد للأرض وعدم القدرة بسبب ذلك إلىٰ الإيمان بقضايا غَيبية رغم قيام الأدلّة الشافية عليها.

المعاندون يخسرون أنفسهم:

وعلىٰ أيّ حال، فكلّ هذه الدوافع تجعل الممارين في صفّ ﴿ *الّذين خسروا أنفسهم* ﴾ وهذا الوصف القرآني وارد في العديد من الآيات الكريمة المذكورة

---

(١) تفسير الميزان: ١٨ / ٣٩ ـ ٤٠.

في هامش الحديث المتقدّم، وهي جميعها تتحدّث عن المصاديق البارزة للإيمان بالغَيب، فانطباقها على العقيدة المهدوية أمرٌ طبيعي، لأنّها من مصاديق الغَيب كما تقدّم. وخسران النفس هو الخسران المبين، لأنّه يحرم خاسرها من استثمار ما وهبه الله تبارك وتعالىٰ للوصول إلىٰ غاية من خلقه، وهذا من آثار المماراة في الإيمان بالعقيدة المهدوية استناداً للحديث المتقدّم.

ثالثاً: الخسران المبين:

قوله تعالىٰ:

﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَومِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا اليَقِينِ ﴾ (١)

روىٰ فرات بن إبراهيم الكوفي في تفسيره قال: حدّثني جعفر بن محمّد الفزاري معنعناً عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ وكنّا نكذّب بيوم الدين * حتّى أتانا اليقين ﴾ قال عليه السلام : ﴿ وكنا نكذّب بيوم الدين ﴾ فذلك يوم القائم عليه السلام وهو يوم الدين، ﴿ حتّى أتانا اليقين ﴾ أيّام القائم عليه السلام (٢).

الآيتان الكريمتان وردتا في سياق مجموعة من الآيات الكريمة المتحدّثة عن عاقبة المجرمين وسبب سقوطهم في سقر، فأقرّوا بأنّ سبب انحرافاتهم هو : ﴿ لَم نكُ من المصلّين * وَلَم نكُ نُطعِمُ المِسكِين * وكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الخائضين * وَكُنّا نُكذِّبُ بِيومِ الدِّين * حَتَّى أَتَانَا اليَقِين * فَمَا تنفعهم شفاعةُ الشافعين ﴾ (٣). وواضحٌ أنّ المراد بيوم الدين في الآيات هو يوم الجزاء. أمّا قوله

---

(١) المدّثر: ٤٦ ـ ٤٧.
(٢) تفسير فرات الكوفي: ١٩٤.
(٣) المدّثر: ٤٤ ـ ٤٨.

تعالىٰ ﴿ حتّى أتانا اليقين ﴾ فهو قال العلّامة الطباطبائي: قيد للتكذيب، وفسّروا اليقين بالموت لكونه ممّا لا شكّ فيه، فالمعنىٰ: وكنّا في الدنيا نكذّب بيوم الجزاء حتّى أتانا الموت فانقطعت به الحياة الدنيا، أي كنّا نكذّب به ما دامت الحياة. وقيل: المراد به اليقين الحاصل بحقّية يوم الجزاء بمشاهدة آيات الآخرة ومعاينة الحياة البرزخية حين الموت وبعده وهو معنىٰ حسن[1].

وعلىٰ كلّ حال، فإنّ المستفاد هو أنّ الإيمان بيوم الدين بعد مجيء اليقين ـ سواءٌ الموت أو حصول العلم بصحّة ماكان يكذّب به المكذّب ـ لن يكون نافعاً لمن آمن حينئذٍ. وتطبيق الآيات علىٰ الإيمان بالمهديّ علىٰ وفق الحديث المتقدم يعني أنّ من الآثار السيّئة للمماراة في إنكار العقيدة المهدوية بعد ظهور المهديّ عجّل الله فرجه لن يكونَ نافعاً لصاحبه، هذا إذا أدرك ظهوره عليه السلام ولن يتوفّق لأن يكون من أنصاره.

وبالطبع، فإنّ هذا الحكم يصدق على المماري المصرّ علىٰ إنكار العقيدة الإسلامية في المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه الشريف على الرغم من اطّلاعه على الأدلة النقلية والعقلية الشافية الكافية في إيجاد الإيمان الراسخ بها، فهو يصرّ على التكذيب بها مماريًاً معانداً بسبب خضوعه للشهوات الدنيوية. ومثل هذا لا تنفعه شفاعة الشافعين ولا إيمانه بالمهديّ إذا حصل له اليقين به بعدما يدرك ظهور المهديّ عجّل الله فرجه، أو إذا أتاه اليقين بالموت والانتقال للحياة الأُخرىٰ الّتي تُبلىٰ فيها السرائر وتنكشف الحقائق، فبصره يومئذٍ حديد.

---

(١) تفسير الميزان: ٢٠ / ٩٧.

المنكرون عن جهل غير الممارين:

أي أنّ هذا الحكم لا يسري علىٰ مَن لم يؤمن بالعقيدة المهدوية بسبب عدم اطّلاعه على المقدار الكافي من الأدلّة النقلية والبراهين العقلية السليمة، فكلّ مسلم ملزمٌ بما بلغه من هذه الأدلّة، فاذاكان ما حصل عليه منها يكفي في الإيمان بأصل خروج المهديّ المنتظر في آخر الزمان لزمه ذلك ولزمه العمل بمقتضياته، وكانت مماراته في ذلك سبباً للضلال البعيد والسقوط في هذا المصير المعدّ للمكذّبين. وإذاكان ما حصل له من الأدلّة الصحيحة يكفي في إيجاد الإيمان بوجود المهديّ المنتظر فعلاً لزمه الإيمان بذلك، فلا يكفيه حينئذٍ الإيمان بأصل خروجه فقط ولا ينقذه من المصير الّذي تذكره الآية للمكذّبين، سواءٌ في الحياة الآخرة كالخلاص من العذاب والفوز بالجنّة أو في الحياة الدنيا إذا أدرك أيّام القائم عليه السلام، فلن يكون كريماً فيها، وهذا ما يصرّح به ما ورد في تطبيق الآية اللاحقة، وهي:

رابعاً: خسران نصيبهم في دولة الحقّ:

قوله تعالىٰ:

﴿ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾[1]

فقد نقلنا ضمن الحديث عن ثمار الإيمان بالعقيدة المهدوية حديثاً للإمام الصادق عليه السلام يطبق الآية على المُعرِض عن الإيمان بالإمام المهديّ عليه السلام، ومثل هذا المُعرِض «ليس له في دولة الحقّ مع القائم عليه السلام نصيب»[2].

(١) الشورىٰ: ٢٠.

(٢) الكافي: ١ / ٤٣٥ ـ ٤٣٦.

خامساً: الاستهزاء بالحقّ:

قوله تعالىٰ:

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١)

روى الشيخ الصدوق في كتابي كمال الدين وعيون أخبار الرضا عليه السلام قال: حدّثنا أحمد بن زياد بن جعفر الهمداني قال: حدّثنا عليّ بن إبراهيم بن هاشم عن أبيه عن عبد السلام بن صالح الهروي قال: أخبرنا وكيع بن الجرّاح عن الربيع بن سعد عن عبد الرحمن بن سليط قال: قال الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام:

منّا اثنا عشر مهدياً، أوّلهم أميرُالمؤمنين علي بن أبي طالب، وآخرهم التاسع من ولدي، وهو القائم بالحقّ، يُحيي الله به الأرضَ بعد موتها، ويُظهر به دين الحقّ على الدين كلّه ولو كره المشركون، له غَيبة يرتدُّ فيها أقوامٌ ويثبت فيها على الدين آخرون، فيؤذَون ويُقال لهم: ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾. أمّا إنّ الصابر في غَيبته على الأذىٰ والتكذيب بمنزلةِ المجاهد بالسيف بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله (٢).

العجز عن مواجهة البراهين الساطعة:

القول الّذي تحكيه الآية الكريمة يعبّر عن موقف ثابت يتّخذه المنكرون للحقائق الإيمانية الغَيبية مثل المعاد ونزول الآيات الإلهيّة وتحقّق النصر للدعوات السماوية وغير ذلك، ويُستفادكونه يعبّر عن موقف ثابت من تكرار

---

(١) يونس: ٤٨، الأنبياء: ٣٨، النمل: ٧١، سبأ: ٢٩، يس: ٤٨، الملك: ٢٥.

(٢) كمال الدين: ٣١٧، عيون أخبار الرضا: ٦٨، ورواه الخزّاز في كفاية الأثر: ٢٣١ ـ ٢٣٢.

الآيات الكريمة له في الحديث عن مواقف الكافرين والمنكرين. وهو يكشف عن عجزهم عن مواجهة البراهين الساطعة الّتي تحملها الرسالات النبوية فيعمدون إلىٰ إيذاء المؤمنين بالسخرية والاستهزاء ممّا يؤمنون به.

وتطبيق الآية الكريمة على الإيمان بوجود الإمام المهديّ وقيامه بمهامّ الإمامة في غَيبته أمرٌ منسجم مع الصبغة الغَيبية في هذه العقيدة، وهو يشير إلىٰ أنّ المنكرين يسيرون علىٰ نهج المعاندين في إنكار هذه العقيدة والاستهزاء بالمؤمنين بها فيؤذونهم بذلك. وهذا التطبيق يحدّد للمؤمنين في عصر الغَيبة تكليف الصبر علىٰ هذا الاستهزاء، كما سنشير لذلك خلال الحديث عن تكاليف عصر الغَيبة.

سادساً: استحباب العمىٰ على الهدىٰ:

قوله تعالىٰ:

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [1]

سابعاً: قوله تعالىٰ:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ [2]

في كتاب تأويل الآيات قال الاسترآبادي: روى علي بن محمّد عن أبي جميلة عن الحلبي. ورواه علي بن الحكم عن أبان بن عثمان عن الفضل

---

(١) فصّلت: ١٧.

(٢) الشمس: ١١.

ابن العبّاس عن أبي عبد الله عليه‌السلام قال: قوله: ﴿*كذّبت ثمودُ بطغواها*﴾ قال: ثمود رهط من الشيعة، فإنّ الله سبحانه يقول: ﴿*وأمّا ثمودُ فهديناهم فأستحبّوا العمىٰ علىٰ الهدىٰ فأخذَتهم صاعقة العذاب الهون*﴾ فهو السيف إذا قام القائم عليه‌السلام[1].

أمّا العلّامة الطباطبائي فقال في تفسيره للآية الأُولىٰ: المراد بهدايتهم: إراءتهم الطريق ودلالتهم على الحقّ ببيان حقّ الاعتقاد والعمل لهم. والمراد بالاستحباب: الإيثار والاختيار، ولعلّه بالتضمين، ولذا عُدي إلى المفعول الثاني بـ«علىٰ». والمراد بالعمىٰ الضلال استعارة، وفي مقابلة الهدىٰ له إيماء أنّ الهدىٰ بصر كما أنّ الضلالة عمىٰ. والهون مصدر بمعنى الذلّ وتوصيف العذاب به للمبالغة أو بحذف ذي، والتقدير : صاعقة العذاب ذي الهون.

والمعنىٰ: وأمّا قوم ثمود فدللناهم علىٰ طريق الحقّ وعرّفناهم الهدىٰ بتمييزه من الضلال، فاختاروا الضلال الّذي هو عمىٰ على الهدىٰ الّذي هو بصر، فأخذَتهم العذاب ذي المذلّة ـ أو أخذَهم العذاب بناءً علىٰ كون الصاعقة بمعنى العذاب والإضافة بيانية ـ بماكانوا يكسبون[2].

وتطبيق الآيتين الكريمتين على التكذيب بإمامة المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه يوضّح الآثار السيّئة لهذا الإنكار، وهو نزول صاعقة العذاب الهون الماحق على المكذبّين إذا ظهر القائم المهديّ عليه‌السلام، وهو عذاب محق وليس تأديباً، كما يُستفاد من تشبيه هاتين الطائفتين من المكذّبين بثمود، حيث إنّ العذاب الّذي عليها كان عذاب المحق والتدمير وليس التأديب الّذي يحفظ وجود الّذين ينزل عليهم العذاب.

---

(١) تأويل الآيات الظاهرة: ٢ / ٨٠٢.

(٢) تفسير الميزان: ١٧ / ٣٧٧.

كما يُستفاد من هذا التطبيق أنّ المراد بهؤلاء المكذّبين طائفة خاصّة منهم، فهم من المنتمين لمذهب أهل البيت تأريخياً ومن الّذين عرفوا أحقّية خطّ الإمامة المعصومة ومظلومية أئمّة أهل البيت صلوات الله عليهم ثمّ ارتدوا عن ذلك الهدىٰ واستحبّوا العمىٰ عليه، بل وكذّبوا به طغياناً وكفراً لهذه النعمة.

ويُستفاد من هذا التطبيق أنّ رهطاً من الشيعة يرتدّون عن القول بإمامة المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه قبل ظهوره بعد طول أمد غَيبته، وقد تنبّأت بوقوع هذه الحالة عددٌ من الأحاديث الشريفة المروية عن أئمّة العترة الطاهرة عليهم السلام. وعليه، فالآية تتحدّث عن بعض ظواهر عصر الغَيبة أيضاً.

الفصل السادس

يوم الفتح والفصل

يوم جني الثمار:

تعرّفنا في الفصلين السابقين علىٰ بعض الثمار الطيّبة والآثار الايجابية الّتي يعود بها على الإنسان الإيمان بإمام زمانه، والتمسّك بولايته في غَيبته سلام الله عليه، وعلىٰ بعض العواقب الخطيرة والآثار السلبية للمماراة والإنكار العنادي ـ رغم توافر الأدلّة الشافية ـ لوجود الإمام المهديّ وحتمية ظهوره وأحقّية الخطّ الّذي يمثّله. وكلّ ذلك استناداً للآيات الكريمة المؤوّلة أو المطبقة على القضية المهدوية.

ولكن هذه الثمار الطيّبة وتلك العواقب السيّئة هيّنة في قبال ما سيظهر من ثمار هذا الإيمان والتولّي وعواقب ذاك الإنكار والمماراة والسخرية في يوم ظهور المهديّ الموعود، وهو يوم الفتح والفصل بين هؤلاء المؤمنين، وأُولئك المستهزئين.

في هذا اليوم سيجني الخطّ الإيماني ثمار الإيمان ومعرفة إمام الزمان

والتمسّك بولايته قبل غَيبته، فيما سيلقىٰ خطّ العناد والمماراة والاستهزاء العذاب الأليم ويجني العواقب السيّئة لإنكاره ومماراته، فجميع المنكرين سيؤمنون يومئذٍ بماكانوا يمارون فيه ولكن إيمانهم يومئذٍ لن يجديهم نفعاً.

يوم الفتح هو يوم الفصل، وجني الثمار الطيّبة للخطّ الإيماني وتجرّع الثمار المرّة للخطّ المماري، فهو يوم ظهور الحقائق ويوم بدء تطهير الأرض من الشرك والنفاق والمماراة، وإقامة المجتمع الصالح والدولة العادلة، فسيحصل مَن يدركه من الخطّ الإيماني علىٰ تلك الثمار الطيّبة، ويلقىٰ من يدركه من خطّ المماراة والظلم العذاب الأليم.

ولكن هل ينحصر الأمر بمن يدرك يوم الفتح من هؤلاء وأُولئك ؟! الّذي يُستفاد من الأدلّة القرآنية والحديثية الواردة في باب الرجعة أنّ الأمر لا ينحصر بهم بل يشمل أفواجاً من هؤلاء وأُولئك ممّن لم يدرك يوم الظهور. وقد يكون الأمر شاملاً لأُولي المراتب السامية من المؤمنين، وللّذين بلغوا أقصىٰ مراتب الظلم والعناد من خطّ المماراة والاستهزاء الّذين لا يدركون يوم الفتح.

في هذا الفصل نتناول بعض الآيات الكريمة المتحدّثة عن يوم الفتح والفصل وعلاقته بظهور آثار الإيمان بالإمام الغائب والتمسّك بولايته، منبّهين إلىٰ أنه يومٌ متكرّر مع كلّ تجربة من تجارب الرسالات السماوية، حيث يكون ختامها بهذا اليوم الفصل الّذي يُهلك الله تعالىٰ فيه المعاندين وينجي المؤمنين، كما صرّح بذلك القرآن الكريم مراراً.

أوّلاً: حتمية مجيء يوم الفتح:

قوله تعالىٰ:

﴿قُل يَومَ الفَتحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُم وَلَا هُم

يُنظَرُون * فَأَعرِض عَنهُم وَانتَظِر إِنَّهم مُنتَظِرُون ﴾ (١)

١ـ روى الحافظ سليمان القندوزي الحنفي بإسناده قال: عن ابن درّاج عن جعفر الصادق عليه السلام في قوله تعالىٰ: ﴿ قل يوم الفتح لا ينفع الّذين كفروا إيمانهم ولا هم يُنظرون ﴾ إنّه كان يقول ـ في هذه الآية ـ: «يوم الفتح» يوم تفتح الدنيا على القائم، ولا ينفع أحداً تقرّب بالإيمان ما لم يكن قبل ذلك مؤمناً. وأمّا من كان قبل هذا الفتح موقناً بإمامته ومنتظراً لخروجه فذلك الّذي ينفعه إيمانه ويعظم الله عزّوجلّ عنده قدره وشأنه، وهذا أجر الموالين لأهل البيت (٢).

٢ـ وروى الشيخ الصفّار في بصائر الدرجات عن الإمام علي عليه السلام خطبةً طويلةً في الملاحم جاء في جانبٍ منها: «... وتخرج لهم الأرضُ كنوزها ويقول القائم عليه السلام: كلوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية، فالمسلمون يومئذٍ أهلُ صواب للدين، أُذن لهم في الكلام، فيومئذٍ تأويل هذه الآية: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالمَلَكُ صَفّاً صَفّاً ﴾ (٣)، فلا يقبل الله يومئذٍ إلّا دينه الحقّ: ألا لله الدين الخالص، فيومئذٍ تأويل هذه الآية: ﴿ أوَ لَم يَرَوا أَنّا نَسُوقُ المَاءَ إلى الأرض الجُرُز فَنُخرِجُ بِهِ زَرعَاً تأكُلُ مِنهُ أنعامُهُم وَأنفُسُهُم أَفَلا يُبصِرُون * وَيَقُولُون مَتَىٰ هَذَا الفَتحُ إن كُنتُم صَادِقِين * قُل يَومَ الفَتحِ لَا يَنفَعُ الّذِينَ كَفَرُوا إيمَانُهُم وَلَا هُم يُنظَرُون * فَأَعرِض عَنهُم وَانتَظِر إِنَّهُم مُنتَظِرُون ﴾ (٤)(٥).

٣ـ وروىٰ محمّد بن العبّاس الماهيار في تفسيره قال: حدّثنا الحسين

---

(١) السجدة: ٢٩ ـ ٣٠.

(٢) ينابيع المودّة: ٤٢٦.

(٣) سورة الفجر: ٢٢.

(٤) السجدة: ٢٧ ـ ٣٠.

(٥) مختصر بصائر الدرجات: ٢٠١.

ابن عامر عن محمّد بن الحسين بن أبي الخطاب عن محمّد بن سنان عن ابن درّاج قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول في قول الله عزّوجلّ: ﴿ ***قل يوم الفتح لا ينفع الّذين كفروا إيمانهم ولا هم يُنظرون*** ﴾ قال: ﴿ ***يوم الفتح*** ﴾ يوم تفتح الدنيا على القائم لا ينفع أحداً تقرّب بالإيمان ما لم يكن قبل ذلك مؤمناً، وبهذا [وبعد هذا] الفتح موقناً، فذلك الّذي ينفعه إيمانه[1].

يوم الفتح يقع في الدنيا:

وقد استدلّ العلّامة الطباطبائي رحمه الله بأنّ المفهوم من الفتح في هذه الآية الكريمة هو الفتح الدنيوي، فقال: قال الراغب: الفتح إزالة الإغلاق والإشكال ـ إلىٰ أن قال: ـ وفتح القضية فتاحاً فصل الأمر فيها وأزال الإغلاق عنها، قال: ﴿ ***رَبَّنَا افْتَح بَيْنَنَا وَبَينَ قومِنَا بِالحَقِّ وَأَنتَ خَيرُ الفَاتِحِين*** ﴾[2] إنتهىٰ.

وقد تقدّم في الآيات السابقة ممّا يصدق عليه الفتح بمعنى الفصل أمران: أحدهما فصل بينهم يوم القيامة، والآخر إذاقة العذاب الأدنىٰ أو الانتقام منهم في الدنيا. ولذلك فسّر الفتح بعضهم بيوم القيامة فيكون معنىٰ قولهم ﴿ ***متىٰ هذا الفتح إن كنتم صادقين*** ﴾ هو معنىٰ قولهم المحكيّ كراراً في كلامه تعالىٰ: ﴿ ***متىٰ هذا الفتح إن كنتم صادقين*** ﴾.

وفسّره بعضهم بيوم بدر فإنّه لم ينفع الّذين قتلوا من المشركين إيمانهم بعد القتل.

وذكر بعضهم أنّ المراد به فتح مكّة، ولا يلائمه الجواب المذكور في قوله:

---

(١) نقله عنه الاسترآبادي في تأويل الآيات الظاهرة: ٢ / ٤٤٥.

(٢) الأعراف: ٨٩.

﴿ قل يوم الفتح لا ينفع الّذين كفروا إيمانهم ولا هم يُنظرون ﴾ إلّا أن يقول قائل: إنّ إيمانهم يومئذٍ ـ وقد عاندوا الحقّ وقاتلوا النبيّ ﷺ وجاهدوا في إطفاء نور الله ـ لم يكن إيماناً إلّا [بل] نفاقاً من غير أن يدخل في قلوبهم وينتفع به نفوسهم، وقد أُلزموا بالإيمان ولم يُنظروا.

ويمكن أن يكون المراد هو القضاء بين النبيّ ﷺ وبين الأُمّة، ويكون ذلك في آخر الزمان كما تقدّمت الإشارة إليه في تفسير قوله: ﴿ ولكلّ أمّة رسول ﴾...[1] الآية.

وكيف كان، فالمراد بالآيتين استعجال المشركين بالفتح، والجواب أنّه فتح لا ينفع حال الّذين كفروا إيمانهم، لأنّه ظرف لا ينفع نفساً إيمانها ولا أنّ العذاب يمهلهم وينظرهم.

قوله تعالى: ﴿ فأعرض عنهم وانتظر إنّهم منتظرون ﴾ أمرٌ بالإعراض عنهم وانتظار الفتح، كما أنّهم ينتظرون موته أو قتله ﷺ. وبالجملة، انقطاع دابر دعوته الحقّة، فلينتظر هو كما هم ينتظرون حتّى يظهر الله الحقّ على الباطل والمحقّ على المبطل.

ومن هذا السياق يظهر أنّ المراد بالفتح الفتح الدنيوي[2].

التكذيب سبب لنزول العذاب:

إذن، مفهوم ظاهر الآية الكريمة لا يأبى التطبيق على الفتح المهدويّ الأكبر في عصر الظهور، بل إنّ أحد أوجه تفسيرها ـ ولعلّه أوجهها وأقربها للسياق

(١) يونس: ٤٧.

(٢) تفسير الميزان: ١٦ / ٢٦٧ ـ ٢٦٨.

القرآني الّذي جاءت فيه، كما بيّنا ذلك خلال عرض المحور الثالث من محاور الحديث القرآني عن الدور التأريخي للمهديّ المنتظر ـ يحصر مصداق الآية في الأُمّة المحمّدية بالفتح المهدوي في آخر الزمان.

وعلىٰ أيّ حال، فالآية تدلّ ـ سواءٌ قلنا بتفسيرها بالفتح المهدوي أو تطبيقها عليه ـ علىٰ أنّ الإصرار على التكذيب بالعقيدة المهدوية إلىٰ حين الظهور وتحقّق الفتح الدنيوي في يوم القائم عجّل الله فرجه هو سبب لنزول العذاب الإلهيّ على المكذّب، وهذا وعدٌ إلهيٌّ غير مكذوب. وهذا أخطر آثار التكذيب بالعقيدة الإسلامية بالمهديّ المنتظر عجّل الله فرجه الشريف.

وواضحٌ أنّ الموقف لا يجري على الجاهل بها بل يشمل المكذّب بها عن عناد ومماراة كما أشرنا لذلك في موقع سابق، وهو المفهوم أيضاً من سياق الآيات الكريمة حيث تشير إلىٰ أنّ موقف المكذبين هو موقف المعاند، بعد عرض البيّنات والدلائل عليه ورفضه لها وسعيه للفرار من وضوحها بالتكذيب بها والاستهزاء والسخرية منها والمطالبة بإنزال العذاب الموعود. وهذا ما تدلّ عليه أيضاً الآية اللاحقة المبيّنة لتأخير العذاب عنهم إلىٰ حين الظهور.

ثانياً: عذاب يوم الفتح غير مصروفٍ عن المكذّبين:

قوله تعالىٰ:

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [1]

---

(١) هود: ٨.

فقد روىٰ علي بن إبراهيم في تفسيره عن الإمام الصادق ؑ في قوله تعالى: ﴿ ولئن أخّرنا عنهمُ العذاب إلىٰ أمّةٍ معدودة ﴾ قال: قال: إن متّعناهم في هذه الدنيا إلى خروج القائم ؑ فنردّهم ونعذّبهم ليقولّن ما يحبسه أن يقولوا أن لا يقوم [أي يقولون أما لا يقوم] القائم ؑ ولا يخرج علىٰ حدّ الاستهزاء، فقال الله: ﴿ ألا يومَ يأتيهم ليس مصروفاً عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ (١).

وقال العلّامة الطباطبائي في تفسيره لهذه الآية المباركة: والمعنىٰ: وأُقسمُ لئن أخّرنا عن هؤلاء الكفّار ما يستحقّونه من العذاب قالوا مستهزئين: ماالّذي يحبس هذا العذاب الموعود عنّا؟ ولماذا لا ينزل علينا ولا يحلّ بنا؟ وفي هذا إشارة أو دلالة علىٰ أنهم سمعوا من كلامه تعالىٰ أو من كلام النبيّ ﷺ ما يوعدهم بعذابٍ لا محيص منه، وأنّ الله أخّر ذلك تأخيراً رحمة لهم فاستهزأُوا به وسخروا منه بقولهم ﴿ما يحبِسه﴾ ويؤيّده قوله تعالىٰ عقيب ذلك: ﴿ ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم...إلخ ﴾.

وقوله: ﴿ إلىٰ أمّةٍ معدودة ﴾ الأُمّة: الحين والوقت كما في قوله تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ الّذِي نَجَا مِنهُمَا وادَّكَرَ بَعدَ أُمَّة ﴾ (٢) أي بعد حينٍ ووقت.

أوان الفتح مع بعث أحباب الله:

وربّما أمكن أن يراد بالأُمّة الجماعة، فقد وعد الله سبحانه أن يؤيد هذا الدين بقومٍ صالحين لا يؤثرون علىٰ دينه شيئاً، ويمكّن عند ذلك للمؤمنين دينهم الّذي آرتضىٰ لهم قال: ﴿ فَسوفَ يأتي اللهُ بِقومٍ يُحبُّهُم وَيُحبُّونَه أَذِلَّةٍ عَلَى

(١) تفسير القمّي: ١ / ٣٢٢.
(٢) يوسف: ٤٥.

المُؤمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ يُجاهِدونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخافُونَ لَومَةَ لَائِم ﴾[1]، وقال: ﴿ *وَعَدَ اللهُ الّذِينَ آمَنُوا مِنكُم وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَستَخلِفَنَّهُم فِي الأَرضِ كَمَا استَخلَفَ الّذِينَ مِن قَبلِهِم وَلَيُمكِّنَنّ لَهُم دِينَهُم الّذِي ارتَضَىٰ لَهُم* ـ إلىٰ أن قال: ـ *يَعبُدُونَنِي لَا يُشرِكُونَ بِي شَيئاً* ﴾[2]. وهذا وجه لا بأس به....

وقوله: ﴿ *ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون* ﴾ بمنزلة الجواب عن قولهم ﴿ *ما يحبِسه* ﴾ الواقع موقع الاستهزاء، فإنّه في معنى الردّ علىٰ ما أُوعدوا به من العذاب، ومحصّله أنّ هذا العذاب الّذي يهدّدنا لو كان حقّاً لم يكن لحبسه سبب فإنّا كافرون غير عادلين عن الكفر ولا تاركين له فتأخّر نزول العذاب من غير موجب لتأخره بل مع الموجب لتعجيله كاشف عن كونه من قبيل الوعد الكاذب.

العذاب الموعود يقع في الدنيا:

فأجاب الله عن ذلك بأنّه سيأتيهم ولا يصرفه يومئذٍ عنهم صارفٌ ويحيق بهم هذا العذاب الّذي كانوا به يستهزئون. وبما تقدّم يظهر أنّ هذا العذاب الّذي يهدّدون به عذابٌ دنيوي سيحيق بهم وينزل عليهم دون عذاب الآخرة.

وعلىٰ هذا، فهذه الآية والّتي قبلها يذكر كلّ منهما شيئاً من ما تهوّس به الكفّار بجهالتهم، فالآية السابقة تذكر أنّهم إذا ذكر لهم البعث وأُنذروا بعذاب يوم القيامة قالوا: ﴿*إن هذا إلّا سحرٌ مبين*﴾. وهذه الآية تذكر أنّ الله إذا أخّر عنهم العذاب إلىٰ أُمّةٍ وأخبروا بذلك قالوا مستهزئين: ما يحبِسه[3].

---

(١) المائدة: ٥٤.

(٢) النور: ٥٥.

(٣) تفسير الميزان: ١٠ / ١٥٤ ـ ١٥٦.

وواضحٌ أنّ مفهوم هذه الآية الكريمة ـ وكما هو حال الآية السابقة ـ لا يأبىٰ التطبيق على القضية المهدوية ونزول العذاب الإلهيّ على المكذّبين بها عن عناد واستهزاء، بل إنّ أحد أوجه تفسيرها هو حصر العذاب المذكور فيها بما سيصيب أعداء خطّ الإمامة المعصومة الساخرين منه من ذلّ وعذاب في عهد ظهور المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه وإن كانت مصاديق تكذيبهم تشمل إنكار عقائد إسلامية أُخرىٰ غير العقيدة المهدوية، مع أنّ التكذيب بهذه العقيدة أبرزها خاصّة فيما يرتبط بوجود الإمام وغَيبته سلام الله عليه، كما ينبّه لذلك الإمام الصادق عليه السلام في الحديث المتقدّم، وهو يشير إلىٰ موقف المنكرين وعدم خروجه عن حدّ الاستهزاء بالعقيدة المهدوية.

ثالثاً: عدم نفع تأخر الإيمان إلىٰ يوم الفتح:

قوله تعالى:

﴿ هَل يَنظُرونَ إلّا أن تَأتيهُمُ المَلائِكَةُ أو يَأتـيَ رَبُّكَ أو يَأتيَ بعضُ آياتِ ربّك يومَ يأتي بعضُ آياتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفساً إيمَانُها لَم تَكن آمَنَتْ مِن قَبلُ أو كَسَبَتْ فِي إيمَانِها خَيراً قُلِ انتَظِروا إنّا مُنتَظِرون ﴾ (١)

وقد رويت في تطبيقها على الإيمان بالمهديّ المنتظر عدّة أحاديث، منها:

١ ـ ما رواه الشيخ الصدوق رحمه الله: قال: حدّثني أبي رحمه الله، قال: حدّثنا سعد بن عبد الله قال: حدّثنا محمّد بن الحسين بن أبي الخطّاب عن الحسن بن محبوب عن علي بن رئاب عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: في قول الله عزّوجلّ: ﴿ يومَ

---

(١) الأنعام: ١٥٨.

يأتي بعضُ آياتِ ربِّكَ لا ينفعُ نفساً إيمانُها لم تكن آمنتْ من قبل ﴾ قال: الآيات [هم] الأئمّة، والآية المنتظرة القائم ﷺ، فيومئذٍ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل قيامه بالسيف وإن آمنت بمن تقدّمه من آبائه ﷺ[(١)].

٢ـ وروىٰ ﷺ أيضاً قال: حدّثنا المظفّر بن جعفر بن المظفّر العلوي السمرقندي ﷺ قال: حدّثنا محمّد بن جعفر بن مسعود وحيدر بن محمّد بن نعيم السمرقندي ﷺ جميعاً عن محمّد بن مسعود العيّاشي قال: حدّثني علي بن محمّد بن شجاع عن محمّد بن عيسىٰ عن يونس بن عبد الرحمن عن علي بن أبي حمزة عن أبي بصير قال: قال جعفر بن محمّد الصادق ﷺ في قول الله عزّوجلّ: ﴿ *يومَ يأتي بعضُ آياتِ ربِّكَ لا ينفعُ نفساً إيمانُها لم تكن آمنتْ من قبلُ أو كسبت في إيمانها خيراً* ﴾ يعني خروج القائم ﷺ المنتظر منّا. ثمّ قال: يا أبا بصير : طوبى لشيعة قائمنا المنتظرين لظهوره في غَيبته والمطيعين له في ظهوره، [اولئك] أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون[(٢)].

نصرة الإمامة قبل يوم الفتح:

٣ـ وروىٰ فرات الكوفي في تفسيره قال: حدّثني جعفر بن محمّد الفزاري معنعناً عن أبي جعفر ﷺ في قوله: ﴿ *يومَ يأتي بعضُ آياتِ ربِّكَ لا ينفعُ نفساً إيمانُها لم تكن آمنتْ من قبلُ أوكسبتْ في إيمانها خيراً* ﴾ قال: يعني صفوتنا ونصرتنا، قلتُ [خيثمة الراوي]: إنّما قدر اللهُ عنه باللسان واليدين والقلب، قال: ياخيثمة، ألم تكن نصرتنا باللسان كنصرتنا بالسيف، ونصرتنا باليدين أفضلُ والقيامُ فيها.

---

(١) كمال الدين: ١٨، ورواه بسندٍ آخر في ص ٣٠.

(٢) كمال الدين: ٣٥٧، ورواه الحافظ القندوزي في ينابيع المودّة: ٤٢٢.

ياخيثمة، إنّ القرآن نَزَلَ أثلاثاً، فثلثٌ فينا، وثلثٌ في عدوّنا، وثلثٌ فرائضٌ وأحكام. ولو أنّ آيةً نزلت في قومٍ ثمّ ماتوا ـ أُولئك ـ ماتت الآيةُ إذاً ما بقي من القرآن شيء.

إنّ القرآن عربيٌّ من أوّله إلىٰ آخره، وآخره إلىٰ أوّله، ما قامتِ السماواتُ والأرضُ، فلكلّ قومٍ آية يتلونها.

ياخيثمة، إنّ الإسلام بدأ غريباً وسيعودُ غريباً فطوبىٰ للغرباء، وهذا في أيدي الناس، فكلٌّ علىٰ هذا.

ياخيثمة، سيأتي على الناس زمان لا يعرفون الله [و] ما هو التوحيد، حتّىٰ يكون خروج الدجّال، وحتّىٰ ينزل عيسى بن مريم من السماء ويقتل الله الدجّال علىٰ يده، ويصلّي بهم رجلٌ منّا أهل البيت، ألا ترىٰ أنّ عيسىٰ يصلّي خلفنا وهو نبيٌّ إلّا ونحن أفضل منه(١).

٤ـ وروىٰ علي بن إبراهيم ﷺ في تفسيره قال: حدّثني أبي عن القاسم بن محمّد عن سليمان بن داود المنقري عن حفص بن غياث عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سأل رجلٌ عن حروب أمير المؤمنين عليه السلام وكان السائل من محبّينا، فقال

(١) تفسير فرات الكوفي: ٤٤. وفي الحديث الشريف إشارات مهمّة فيما يرتبط بجريان مضامين الآيات الكريمة على المصاديق الأُخرىٰ غير المصداق الّذي نزلت فيه أو تحدّثت عنه مباشرةً، إذ لو حصرت كلّ آية نزلت في قومٍ بهم ولم يُسمع بتطبيقها علىٰ غيرهم ـ طبق شروط خاصّة في التطبيق والجري ـ لم يبق من القرآن الكريم ما ينتفع به، وهذا خلاف المقصود من إنزال القرآن هدىً للعالمين إلىٰ يوم الدين.

وعلىٰ هذا، فعندما يقول عليه السلام بأن القرآن نزل أثلاثاً فمقصود من الثلث الّذي نزل فيهم هو الآيات المرتبطة بخطّ الهداية الإلهيّة والولاية الحقّة الّذي يمثّلونه، فهي منطبقة عليهم حتّى لو كانت تتحدّث عن مصداق آخر تأريخي. وكذلك الحال مع الثلث المتحدّث عن «عدوّهم» فهو يعني الخطّ المعادي لخطّ الهداية والولاية الإلهيّة علىٰ مدى التأريخ.

أبو جعفر عليه السلام : بعث الله محمّداً صلى الله عليه وآله بخمسةِ أسياف، ثلاثةٌ منها شاهرة لا تُغمد إلىٰ أن تضع الحرب أوزارها، ولن تضع الحرب أوزارها حتّى تطلع الشمسُ من مغربها، فاذا طلعت الشمسُ من مغربها آمن الناس كلّهم في ذلك اليوم، فيومئذٍ ﴿ *لا ينفعُ نفساً إيمانُها لم تكن آمنتْ من قبلُ أو كسبتْ في إيمانها خيراً* ﴾، وسيفٌ منها ملفوفٌ، وسيفٌ منها مغمود سَلُّهُ إلىٰ غيرنا وحكمُهُ إلينا...[١].

٥ـ وروى الحديث المتقدّم بتفاوتٍ يسير الكليني في الكافي وفيه وصف السيف الرابع بأنّه «مكفوف» بدلاً من «ملفوف»[٢].

٦ـ ورواه الشيخ الصدوق في كتاب الخصال بسندٍ آخر عن أبيه عن سعد بن عبد الله عن القاسم بن محمّد عن بقية السند[٣].

٧ـ وروى العياشي في تفسيره عن زرارة وحمران ومحمّد بن مسلم عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام أنّهما قالا في تفسير الآية المتقدّمة: طلوع الشمس من المغرب وخروج الدابّة والدجّال، والرجلُ يكون مصرّاً ولم يعمل على الإيمان، ثمّ تجيء الآياتُ فلا ينفعه إيمانُه[٤].

٨ـ وروى الشيخ البرقي في كتاب المحاسن عن علي بن الحكم عن الربيع ابن محمّد المسلمي عن عبد الله بن سليمان العامري عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما زالت الأرض ولله فيها حجّة يعرفُ الحلال والحرام ويدعو إلىٰ سبيل الله ولا

---

(١) تفسير القمّي: ٢ / ٣٢٠.

(٢) راجع الكافي: ٥ / ١٠.

(٣) الخصال: ١ / ٢٧٤، ولعلّ المستفاد من هذا الحديث الشريف شرعية استمرار ثلاثة أنماط من أقسام الجهاد ضدّ الظلم والانحراف والأمر بها حتّى قبل قيام المهديّ الموعود، فلا ينقطع العمل بها خلال فترة الغَيبة ولا فيما قبلها من عصور الانحراف.

(٤) تفسير العيّاشي: ١ / ٣٨٤.

ينقطع الحجّةُ من الأرض إلّا أربعين يوماً قبل يوم القيامة، فاذا رفعت الحجّة أُغلق باب التوبة ولم ينفعن نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أن ترفع الحجّة، أُولئك شرارُ مَن خلق الله، وهم الّذين تقوم عليهم القيامة[1].

يوم الفتح في أحاديث المصادر السّنية:

٩ـ وروى ابن حماد[2]، وابن أبي شيبة[3]، وعبد بن حميد[4]، والحاكم النيسابوري[5]، والطبري[6]، وابن مردويه[7]، وغيرهم من علماء أهل السنّة بأسانيدهم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال ـ واللفظ من ابن حمّاد ـ:

خمساً لا أدري أيّتهنّ أوّلُ من الآياتِ وأيّتهنّ [إذا] جاءت لم ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها، والدجّال، ويأجوج ومأجوج، والدخان، والدابّة.

١٠ـ وروىٰ أحمد بن حنبل في مسنده[8]، والترمذي في سننه[9]، والطبراني في المعجم الكبير[10]، وغيرهم بأسانيد عديدة عن أبي سعيد الخدري وعبد الله

---

(١) المحاسن: ٢٣٦، ورواه بالسند نفسه الصفّار في بصائر الدرجات: ٤٨٤، ورواه أبو جعفر الطبري في كتابه دلائل الإمامة: ٢٢٩ بسندٍ آخر.

(٢) كتاب الفتن: ١٨٣، وابن حمّاد هو من مشايخ البخاري وكتابه من أقدم كتب أهل السنّة المستقلّة بشأن القضية المهدوية.

(٣) مسند ابن أبي شيبة: ١٥ / ٦٦٦٥ ح ١٩١٣٠.

(٤) نقله عنه السيوطي في تفسيره الدرّ المنثور: ٣ / ٥٩.

(٥) مستدرك الصحيحين: ٤ / ٥٤٥.

(٦) تفسير الطبري: ٨ / ٧٤.

(٧) الدرّ المنثور: ٣ / ٥٩.

(٨) مسند أحمد بن حنبل: ٣ / ٩٨.

(٩) سنن الترمذي: ٥ / ٢٦٤.

(١٠) المعجم الكبير: ٩ / ٢٣٦.

ابن مسعود وعبد الله بن عمر عن النبيّ ﷺ أنّه قال في تفسير الآية: طلوع الشمس من مغربها.

١١ـ وروى المقدسي الشافعي في كتابه عقد الدرر[١] عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال في ذكر اشراط الساعة: ألا وتكون الناس بعد طلوع الشمس من مغربها كيومهم هذا، يطلبون النسل والولد، يلقى الرجلُ الرجلَ فيقول: متىٰ وُلدت؟ فيقول: من طلوع الشمس من المغرب، وترفع التوبة فلا ينفعُ نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل، أوكسبت في إيمانها خيراً، هو التوبة.

تفسير آية سورة الأنعام بشأن يوم الفتح:

تأتي الآية الكريمة ضمن مقطع قرآني يشمل آيتين أُخريين، وهو يمثّل فصلاً ختامياً لسياق طائفةٍ من آيات الاحتجاج على المشركين، لنلاحظ تفسير هذا المقطع من «الميزان» قبل تلخيص دلالاته، قال ﷺ:

الآيات متّصلة بما قبلها وهي تتضمّن تهديد من استنكف من المشركين عن الصراط المستقيم وتفرّق شيعاً، وتبرئة النبيّ ﷺ من المفرّقين دينهم، ووعداً حسناً لمن جاء بالحسنة وإنجازاً للجزاء.

قوله تعالى: ﴿ *هل ينظرون إلّا أن تأتيهمُ الملائكةُ أو يأتيَ ربُّكَ أو يأتي بعضُ آياتِ ربِّك* ﴾ استفهام إنكاري في مقام لا تنفع فيه عظة ولا تنجح فيه دعوة، فالأُمور المذكورة في الآية لا محالة أُمور لا تصحب إلّا القضاء بينهم بالقسط والحكم الفصل بإذهابهم وتطهير الأرض من رجسهم.

ولازم هذا السياق أن يكون المراد بإتيان الملائكة نزولهم بآية العذاب، كما

---

(١) عقد الدرر: ٣٢٦ الباب ١٢ الفصل ٧.

يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنظَرِينَ ﴾ (١).

الانكشاف التامّ لآية التوحيد:

ويكون المراد بإتيان الربّ هو يوم اللقاء وهو الانكشاف التامّ لآية التوحيد بحيث لا يبقى عليه ستر كما هو شأن يوم القيامة المختصّ بانكشاف الغطاء، والمصحّح لإطلاق الإتيان علىٰ ذلك هو الظهور بعد الخفاء والحضور بعد الغَيبة جلّ شأنه عن الاتّصاف بصفات الأجسام.

وربّما يقال: إنّ المراد إتيان أمر الربّ، وقد مرّ نظيره في قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ ﴾ (٢) في الجزء الثاني من الكتاب.

ويكون المراد بإتيان بعض آيات الربّ إتيان آية تلازم تبدّل نشأة الحياة عليهم بحيث لا سبيل إلى العود إلى فسحة الاختيار، كآية الموت الّتي تبدّل نشأة العمل نشأة الجزاء البرزخي، أو تلازم استقرار ملكة الكفر والجحود في نفوسهم استقراراً لا يمكنهم معه الإذعان بالتوحيد والإقبال بقلوبهم إلى الحقّ، إلّا ما كان بلسانهم خوفاً من شمول السخط والعذاب، كما ربّما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ (٣).

وكذا قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا

---

(١) الحجر: ٦ ـ ٨.
(٢) البقرة: ٢١٠.
(٣) النمل: ٨٢.

﴿يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُم وَلَا هُم يُنظَرُون﴾[١] فإن الظاهر أنّ المراد بالفتح هو الفتح للنبيّ ﷺ بالقضاء بينه وبين أُمته بالقسط، كما حكاه الله تعالى عن شعيب ﷺ في قوله: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَومِنَا بِالحَقِّ وَأَنتَ خَيرُ الفَاتِحِين﴾[٢] وحكاه عن رسله في قوله: ﴿وَاستَفتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيد﴾[٣].

أو تلازم بأساً من الله تعالى لا مردّ له ولا محيص عنه، فيضطرّهم الله الإيمان ليتّقوا به أليم العذاب، لكن لا ينفعهم ذلك فلا ينفع من الإيمان إلّا ما كان عن اختيار، كما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوا بَأسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحدَهُ وَكَفَرنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشرِكِين * فَلَم يَكُ يَنفَعُهُم إِيمَانُهُم لَمَّا رَأَوا بَأسَنَا سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَد خَلَت فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكَافِرُون﴾[٤].

الإتيان بالآيات للفصل:

فهذه ـ أعني إتيان الملائكة أو إتيان الربّ أو إتيان بعض آياته ـ أُمورٌ تصاحب القضاء بينهم بالقسط وهم لكونهم لا تؤثّر فيهم حجّة ولا تنفعهم موعظة لا ينظرون إلّا ذلك وإن ذهلوا عنه فإنّ الواقع أمامهم علموا أو جهلوا.

وربّما قيل: إنّ الاستفهام للتهكّم، فإنّهم كانوا يقترحون على النبيّ ﷺ أن ينزّل عليهم الملائكة أو يروا ربّهم أو يأتيهم بآية كما أُرسل الأوّلون، فكأنّه قيل: هؤلاء لا يريدون حجّة، وإنّما ينتظرون ما اقترحوه من الأُمور.

وهذا الوجه غير بعيد بالنسبة إلى صدر الآية، لكنّ ذيلها ـ أعني قوله: ﴿يوم

---

(١) السجدة: ٢٨ و ٢٩.

(٢) الأعراف: ٨٩.

(٣) إبراهيم: ١٥.

(٤) غافر: ٨٤ و ٨٥.

يأتي بعض آيات ربّك..إلخ ﴾ لا يلائمه تلك الملاءمة، فإنّ التهكّم لا يتعدّى فيه إلىٰ بيان الحقائق وتفصيل الآثار.

قوله تعالى: ﴿ *يوم يأتي بعض آيات ربّك*... إلىٰ آخر الآية ﴾ يشرح خاصّة يوم ظهور هذه الآيات، وهي في الحقيقة خاصّة نفس الآيات وهي أنّ الإيمان لا ينفع نفساً لم تؤمن قبل ذلك اليوم إيمان طوع واختيار، أو آمنت قبله ولم تكن كسبت في إيمانها خيراً ولم تعمل صالحاً، بل انهمكت في السيّئات والمعاصي، إذ لا توبة لمثل هذا الإنسان، قال تعالى: ﴿ *وَلَيسَتِ التَوبَةُ لِلَّذِينَ يَعمَلُونَ السَّيِّئاتِ حَتّى إذَا حَضَرَ أحَدَهمُ الموتُ قَالَ إنّي تُبتُ الآنَ* ﴾ [1]، فالنفس الّتي لم تؤمن من قبل إيمان طوعٍ ورضىً أو آمنت بالله وكذّبت بآيات الله، ولم تعتن بشيءٍ من شرائع الله واسترسلت في المعاصي الموبقة ولم تكتسب شيئاً من صالح العمل فيماكان عليها ذلك، ثمّ شاهدت البأس الإلهيّ فحملها الاضطرار إلى الإيمان لتردّ به بأس الله تعالى لم ينفعها ذلك، ولم يرد عنها بأساً ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين.

وفي الآية من بديع النظم ولطيف السياق أنّه كرّر فيها لفظ «ربّك» ثلاث مرّات وليس إلّا لتأييد النبيّ ﷺ تجاه خصمه وهم المشركون، حيث كانوا يفتخرون بأربابهم ويباهون بأوثانهم ليعتزّ بربّه ويثبت به قلبه ويربط جأشه في دعوته إن نجحت، وإلّا فبالقضاء الفصل الّذي يقضي به ربّه بينه وبين خصمه. ثمّ أكّد ذلك وزاد في طمأنة نفسه بقوله في ختام الآية: ﴿ *قل انتظروا إنّا منتظرون* ﴾ أي فإنتظر أنت ما هم منتظرون، وأخبرهم أنّك في انتظاره، ومُرهم أن ينتظروه فهو الفصل وليس بالهزل.

---

(١) النساء: ١٨.

الوعيد للكافرين:

ومن هنا يظهر أنّ الآية تتضمّن تهديداً جدّياً لا تخويفاً صورياً، وبه يظهر فساد ما ذكره بعضهم في دفع قول القائل: إنّ الاستفهام في الآية للتهكّم فقال: إنّ هذه الآيات الثلاث هي ما ينتظرونه كغيرهم في نفس الأمر، فلا يصحّ أن يراد بهذا البعض شيءٌ ممّا اقترحوه، لأنّ إيتاء الآيات المقترحة على الرسل يقتضي في سنّة الله هلاك الأُمّة بعذاب الاستئصال إذا لم تؤمن به، والله لا يهلك أُمّة نبيّ الرحمة، إنتهى.

وفيه: أنّ دلالة الآيات القرآنية على أنّ هذه الأُمّة سيشملهم القضاء بينهم بالقسط والحكم الفصل ممّا لا سترة عليها كقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُم قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُم لَا يُظْلَمُونَ * وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُم صَادِقِينَ * قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلَا نَفْعاً إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ـ إلى أن قال: ـ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ (١).

وقد استدلّ بالآية على أنّ الإيمان لا أثر له إذا لم يقترن بالعمل، وهو حقٌّ في الجملة لا مطلقاً، فإنّ الآية في مقام بيان أنّ من كان في وسعه أن يؤمن بالله فلم يؤمن أو في وسعه أن يؤمن ويعمل صالحاً فآمن ولم يعمل صالحاً حتّى لحقه البأس الإلهيّ الشديد الّذي يضطرّه إلى ذلك فإنّه لا ينتفع بإيمانه، وأمّا من آمن طوعاً فأدركه الموت ولم يمهله الأجل حتّى يعمل صالحاً ويكسب في إيمانه خيراً فإنّ الآية غير متعرّضة لبيان حاله، بل الآية لا تخلو عن إشعارٍ أو دلالةٍ على أنّ النافع إنّما هو الإيمان إذا كان عن طوع

---

(١) يونس: ٤٧ ـ ٥٣.

ولم تحط به الخطيئة ولم تفسده السيّئة.

وفي قوله: ﴿ *لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت* ﴾ الفصل بين الموصوف والوصف بفاعل الفعل وهو إيمانها، وكأنّه للاحتراز عن الفصل الطويل بين الفعل وفاعله، واجتماع «في إيمانها» و «إيمانُها» في اللفظ.

التفرّق عن خطّ النبيّ ﷺ:

قوله تعالى: ﴿ *إنّ الّذين فرّقوا دينهم وكانوا شِيَعاً لستَ منهم في شيء...إلخ* ﴾[1]، وجه الكلام السابق وإن كان مع المشركين وقد ابتلوا بتفريق الدين الحنيف، وكان أيضاً لأهل الكتاب نصيبٌ من الكلام وربّما لوّح إليهم بعض التلويح ولازم ذلك أن ينطبق قوله: ﴿ *الّذين فرّقوا دينهم وكانوا شِيَعاً* ﴾ على المشركين بل عليهم وعلى اليهود والنصارى لاشتراك الجميع في التفرّق والاختلاف في الدين الإلهيّ.

لكن اتّصال الكلام بالآيات المبيّنة للشرائع العامّة الإلهيّة الّتي تبتدئ بالنهي عن الشرك وتنتهي إلى النهي عن التفرّق عن سبيل الله يستدعي أن يكون قوله: ﴿ *الّذين فرّقوا دينهم وكانوا شِيَعاً* ﴾ موضوعاً لبيان حال النبيّ ﷺ مع من كان هذا وصفه[2] فالإتيان بصيغة الماضي في قوله: ﴿ *فرّقوا دينهم* ﴾ لبيان أصل التحقّق ـ سواء كان في الماضي أو الحال أو المستقبل ـ لا تحقّق الفعل في الزمان الماضي فحسب.

ومن المعلوم أنّ تمييز النبيّ ﷺ وإخراجه من أُولئك المختلفين في الدين المتفرّقين شيعة شيعة، كلّ شيعة يتبع إماماً يقودهم ليس إلّا لأنّه رسول يدعو إلى

(١ و ٢) الأنعام: ١٥٩.

كلمة الحقّ ودين التوحيد، ومثال كامل يمثّل بوجوده الإسلام ويدعو بعمله إليه فيعود معنى قوله: ﴿ لستَ منهم في شيء ﴾ إلى أنّهم ليسوا علىٰ دينك الّذي تدعو إليه، ولا علىٰ مستوى طريقك الّذي تسلكه.

فمعنى الآية: أنّ الّذين فرّقوا دينهم بالاختلافات الّتي هي لا محالة ناشئة عن العلم ـ وما اختلف الّذين أُوتوه إلّا بغياً بينهم ـ والانشعابات المذهبية ليسوا علىٰ طريقتك الّتي بنيت علىٰ وحدة الكلمة ونفي الفرقة إنّما أمرهم في هذا التفريق إلى ربّهم لا يماسّك منهم شيء فينبّئهم يوم القيامة بما كانوا يفعلون ويكشف لهم حقيقة أعمالهم الّتي هم رهناؤها.

وقد تبيّن بما مرّ أن لا وجه لتخصيص الآية بتبرئته ﷺ من المشركين أو منهم ومن اليهود والنصارىٰ، أو من المختلّفين بالمذاهب والبدع من هذه الأُمّة، فالآية عامّة تعمّ الجميع.

قوله تعالى: ﴿ *مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ* ﴾[1] الآية تامة في نفسها تكشف عن منّةٍ إلهية يمتنّ بها علىٰ عباده أنّه يجازي الحسنة بعشر أمثالها، ولا يجازي السيّئة إلّا بمثلها، أي يحسب الحسنة عشرة والسيّئة واحدة، ولا يظلم في الإيفاء، فلا ينقص من تلك ولا يزيد في هذه، إن أمكن أن يزيد في جزاء الحسنة فيزيد على العشر كما يدلّ عليه قوله: ﴿ *مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ* ﴾[2] وأمكن أن يعفو عن السيّئة فلا يحسب حتّى المثل الواحد.

---

(١) الأنعام: ١٦٠.

(٢) البقرة: ٢٦١.

ثمار الالتفاف حول الحقّ والتفرّق عنه:

لكنّها أعني الآية باتّصالها بما تقدّمها وانتظامها معها في سياقٍ واحد تفيد معنىً آخر كأنه قيل ـ بعد سرد الكلام في الآيات السابقة في الاتفاق والاجتماع على الحقّ والتفرّق فيه ـ: فهاتان خصلتان حسنة وسيّئة يجزي فيهما ما يماثلهما ولا ظلم، فإن الجزاء يماثل العمل، فمن جاء بالحسنة فله مثلها ويضاعف له، ومن جاء بالسيّئة وهي الاختلاف المنهيّ عنه فلا يجزى إلّا سيّئة مثلها ولا يطمعنّ في الجزاء الحسن، وعاد المعنى إلى نظير ما استفيد من قوله: ﴿ *وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا* ﴾[1] أنّ المراد به بيان مماثلة جزاء السيئة لها في كونها سيئة لا يرغب فيها لا إثبات الوحدة ونفي المضاعفة.

بحث روائي

في تفسير العيّاشي: عن زرارة وحمران ومحمّد بن مسلم عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام في قوله: ﴿ *يوم يأتي بعض آيات ربّك لا ينفع نفساً إيمانها* ﴾ قال: طلوع الشمس من المغرب وخروج الدابّة والدخان، والرجل يكون مصرّاً ولم يعمل عمل الإيمان، ثمّ تجيء الآيات فلا ينفعه إيمانه.

أقول: وقوله: الرجل يكون مصرّاً...إلخ تفسيرٌ لقوله: ﴿ *أو كسبت في إيمانها خيراً* ﴾ على ما قدّمناه ويدلّ عليه الرواية الآتية.

وفيه عن أبي بصير عن أحدهما عليهما السلام في قوله: ﴿ *أو كسبت في إيمانها خيراً* ﴾ قال: المؤمن العاصي حالت بينه وبين إيمانه كثرة ذنوبه وقلّة حسناته، فلم يكسب في إيمانه خيراً.

---

(١) الشورى: ٤٠.

وفي تفسير القمّي: حدّثني أبي عن صفوان عن ابن مسكان عن أبي جعفر ﷺ في قوله: ﴿ يوم يأتي بعضُ آيات ربّك...الآية ﴾ قال: إذا طلعت الشمس من مغربها فكلّ من آمن في ذلك اليوم لا ينفعه إيمانه.

وفي الدرّ المنثور أخرج أحمد وعبد بن حميد في مسنده والترمذي وأبو يعلى وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مرويه عن أبي سعيد الخدري عن النبيّ ﷺ في قوله: ﴿ يوم يأتي بعضُ آيات ربّك ﴾ قال: طلوع الشمس من مغربها.

يوم ظهور القُدرة الإلهيّة:

أقول: والظاهر أنّ الرواية من قبيل الجري وكذا ما تقدّم من الروايات، ويمكن أن يكون من التفسير. وكيف كان، فهو يوم تظهر فيه البطشة الإلهية الّتي تلجئ الناس إلى الإيمان ولا ينفعهم. وقد ورد طلوع الشمس من مغربها في أحاديث كثيرة جدّاً من طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت ﷺ، ومن طرق أهل السنّة عن جمع من الصحابة كأبي سعيد الخدري وابن مسعود وأبي هريرة وعبد الله بن عمر وحذيفة وأبي ذر وعبد الله بن عبّاس وعبد الله بن أبي أوفى وصفوان بن عسّال وأنس وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية وأبي أُمامة وعائشة وغيرهم، وإن اختلفت في مضامينها اختلافاً فاحشاً.

والأنظار العلمية اليوم لا تمنع تبدّل الحركة الأرضية علىٰ خلاف ما هي عليه اليوم من الحركة الشرقية أو تبدّل القطبين بصيرورة الشمالي جنوبياً وبالعكس إمّا تدريجاً كما تبيّنه الأرصاد الفلكية أو دفعة لحادثة جوية كلّية، هذا كلّه إن لم تكن الكلمة رمزاً أُشير بها إلىٰ سرّ من أسرار الحقائق.

وقد عدّت في الروايات من تلك الآيات خروج دابّة الأرض والدخان

وخروج يأجوج ومأجوج وهذه أُمور ينطق بها القرآن الكريم، وعدّ منها غير ذلك كخروج المهديّ عليه السلام ونزول عيسى بن مريم وخروج الدجّال وغيرها، وهي وإن كانت من حوادث آخر الزمان لكن كونها ممّا يغلق بها باب التوبة غير واضح.

وفي البرهان عن البرقي بإسناده عن عبد الله بن سليمان العامري عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما زالت الأرض إلّا ولله فيها حجّة يعرف فيها الحلال والحرام ويدعو إلى سبيل الله، ولا تنقطع الحجّة من الأرض إلّا أربعين يوماً قبل يوم القيامة. فإذا رفعت الحجّة وأُغلق باب التوبة لم ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أن ترفع الحجّة، وأُولئك من شرار خلق الله، وهم الّذين تقوم عليهم القيامة.

أقول: ورواه أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري في كتاب مناقب فاطمة بسندٍ آخر عن أبي عبد الله عليه السلام.

وفي تفسير القمّي عن أبيه عن النضر عن الحلبي عن معلّى بن خنيس عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله: ﴿ *إنّ الّذين فرّقوا دينهم وكانوا شِيَعاً* ﴾ قال: فارق القوم والله دينهم.

أقول: أي باختلاف المذاهب، وقد مرّ حديث اختلاف الأُمّة ثلاثاً وسبعين فرقة.

وفي تفسير العيّاشي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: كان علي عليه السلام يقرأها: فارقوا دينهم.

أقول: والقراءة مروية عنه عليه السلام من بعض طرق أهل السنّة أيضاً على ما في الدرّ المنثور وغيره.

خصوصية المؤمنين بخطّ الولاية:

وفي البرهان عن البرقي عن أبيه عن النضر عن يحيى الحلبي عن ابن مسكان عن زرارة قال: سئل أبو عبد الله عليه السلام وأنا جالس عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿ *من جاء بالحسنة فله عشرُ أمثالها* ﴾ يجري لهؤلاء ممّن لا يعرف منهم هذا الأمر؟ فقال: إنّما هي للمؤمنين خاصّة، قلت له: أصلحك الله أرأيت من صام وصلّى واجتنب المحارم وحَسُن ورعه ممّن لا يعرف ولا ينصب؟ فقال: إنّ الله يُدخل أُولئك الجنّة برحمته.

أقول: والرواية تدلّ علىٰ أنّ الأجر بقدر المعرفة، وفي هذا المعنى روايات واردة من طرق الفريقين[1].

دلالات الآية والأحاديث المطبقة:

يُستفاد من التدبّر في الآية الكريمة والأحاديث المطبقة لها علىٰ أشراط الساعة وقيام المهديّ المنتظر ـ وهي أحاديث مروية من طرق الفريقين ـ أُمور أهمّها فيما يرتبط بموضوع البحث:

يوم الفصل فيما اختُلف فيه بين الأُمّة المحمّدية:

١ ـ واضحٌ من التدبّر في الآية الكريمة أنّ اليوم الّذي تتحدّث عنه هو نفسه «يوم الفتح» الّذي تحدّثت عنه الآية الكريمة السابقة[2] وغيرها، وهو يوم الفصل الإلهيّ فيما اختُلف فيه بين الأُمّة، وهذا الفصل يقع في الدنيا وليس في الآخرة، فهو قبل يوم القيامة الكبرىٰ، ويظهر من

---

(١) تفسير الميزان: ٧ / ٣٨٦ ـ ٣٩٢.

(٢) أي الآية ٢٩ من سورة السجدة.

الأحاديث المتقدّمة أنّ هذا المقدار متّفق عليه.

٢ـ فالآية الكريمة تتحدّث عن يوم الفتح الإلهيّ، وتفصيلاته وكيفية تحقّق الفصل الإلهيّ فيه، فتنصّ علىٰ أنّ ذلك يكون بنزول الملائكة بالعذاب الماحق لإنكار المنكرين، وهو عذابٌ ليس مصروفاً عنهم يطهّر الأرض من رجس إلحادهم وإنكارهم لآيات الله. و«يأتي ربّك» بمعنىٰ تظهر حقائق التوحيد الخالص بحيث لا يبقىٰ مجال لإنكاره.

مصاديق يوم الفتح:

٣ـ ومفهوم الآية ـ بهذا المقدار ـ قابل للانطباق علىٰ يوم الظهور المهدوي، كما يتّضح من مقارنة مفهوم الآية بخصائص عصر الظهور في إتمام النور الإلهيّ وإظهار الإسلام والتوحيد الخالص وإنهاء الشرك، وغير ذلك ممّا دلّت عليه الآيات الكريمة الّتي تحدّثنا عنهما في الفصل الثاني من الباب الأول من الكتاب.

٤ـ كما أنّ هذا المفهوم قابل للانطباق علىٰ ظهور آيات قيام القيامة الكبرىٰ، أي قبيل الساعة وبعد الظهور المهدوي وإقامة الدولة الإلهيّة العادلة وتحقّق الوعود الإلهيّة المذكورة آنفاً علىٰ يديه وتحقّق الغاية من الخلق وإقامة المجتمع التوحيدي الصالح. وواضحٌ أنّ مصاديق ظهور الآيات في هذه الحالة ونزول الملائكة ومجيء الربّ تبارك وتعالىٰ مناسب لقيام القيامة الكبرىٰ، في حين يكون ظهورها في الحالة الأُولىٰ مناسباً لظهور المهديّ الموعود ودوره التأريخي.

٥ـ ولعلّ المستفاد من الأحاديث الشريفة هو أنّ الآية الكريمة تصدق علىٰ يوم الظهور المهدوي وما يقع قبيل يوم القيامة الكبرىٰ، وبذلك يمكن الجمع

بين دلالات هذه الأحاديث، لأنّ بعضها تذكر للآيات الّتي يتحقّق بها الفتح والفصل الإلهيّ مصاديق تقع مقارنة أو قبيل ظهور المهديّ الموعود، وبعضها تذكر مصاديق تقع قبيل قيام القيامة الكبرىٰ. وبذلك يتّضح الوجه في إغلاق باب التوبة عندها، فالمقصود من التوبة في كلّ حالةٍ مّا يناسب المقصود من نفع الإيمان فيها، كما سنرىٰ في الفقرات اللاحقة.

الإيمان النافع في يوم الفتح:

٦ـ المستفاد من الأحاديث الستة الأُولى المتقدّمة أنّ الإيمان الّذي ينفع الإنسان في يوم الظهور المهدوي هو أن يكون الإنسان قد آمن قبله ـ وهو يوم تجلّي أحقّية خطّ الإمامة المعصومة من أئمّة العترة الّذي يمثّله الإمام المهديّ ـ بأحقّية هذا الخطّ، وبأنه يمثّل خطّ صفوة الله ونصره بما استطاع في عصر الغَيبة وقبل الظهور، كما يشير لذلك الحديث الثالث. فهذا الإيمان ينفع صاحبه يوم ظهور المهديّ الموعود ويكون من أولياء الله الّذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، كما ينبّه لذلك الحديث الثاني. ومثل هذا المؤمن بخطّ الولاية المعصومة بجميع أئمّته وخاصّة المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه في غَيبته ـ كما يشير لذلك الحديثان الأول والثاني ـ ينفعه إيمانه عند ظهور المنتظر الموعود بأن يجعله من أصحاب المراتب السامية من أنصار المهديّ.

إيمان غير المعاندين في يوم الفتح:

أمّا الّذي لم يكن مؤمناً بذلك قبل يوم الظهور فلن ينفعه إيمانه يومئذٍ بتأثير الآيات الإلهيّة الّتي تصاحب الظهور في الدخول في زمرة أصحاب المراتب السامية، ولكن من الممكن أن ينضمّ إلىٰ مراتب القاعدة العريضة من الّذين

ينضمّون إلىٰ جبهة المهديّ ﷺ بعد ظهوره وبعد تحقيقه الانـتصارات دون أن يحاربوه أو دون أن يصرّوا علىٰ محاربته بعد أن يروا الآيـات الإلهـيّة المـبيّنة لحقيقة كونه إمام الحقّ المنصور بالله تبارك وتعالىٰ.

فهؤلاء قد يجري عليهم ما يجري علىٰ مَن ذكـره الإمـام الصـادق ﷺ فـي حديث البرقي الّذي نقله العلّامة الطباطبائي في نهاية بحثه الروائي في تـفسير قوله تعالىٰ: ﴿ *مَن جاء بالحسنة...* ﴾ فيدخلهم الله بـرحـمته إذا لم يـصرّوا عـلى الإنكار وإن كانوا قبل ذلك من غير المؤمنين بخطّ الإمامة المعصومة، وإن كان مفهوم الآية يصدق على المؤمنين بالإمامة خاصّة.

هذا بالنسبة لنفع الإيمان في حالة تطبيق الآيـة عـلىٰ يـوم ظـهور المـهديّ الموعود.

الإيمان الّذي لا ينفع أبداً:

٧ـ أمّا بالنسبة لمعنىٰ نفع الإيمان في حالة تطبيق الآية علىٰ ما يظهر قبيل قيام القيامة الكبرىٰ فلعلّه هو ما يشير إليه الحديث السابع بقوله ﷺ: والرجل يكون مصرّاً ولم يعمل على الإيمان ثمّ تجيء الآيات فـلا يـنفعه إيـمانه، والحـديث الثامن بقوله ﷺ: أُولئك شرارُ مَن خلق الله وهم الّذين تقوم عليهم القيامة، بمعنىٰ أنّ الّذي يبقىٰ مصرّاً علىٰ عدم الإيمان الصادق بالدين التوحيدي الخالص بـعد ظهور المهديّ ولا يعمل بمقتضىٰ هذا الإيمان بـعد إقـامة المـجتمع الإيـماني الصالح الّذي يعبُد الله وحده لا شريك له وبعد وضع الحـرب أوزارهـا وسـيادة الأمن. فإنّ مثل هذا هو ولا شكّ من شرار الخلق المصرّين على الكفر مع توافر جميع العوامل الجاذبة نحو الإيمان، ومثل هذا أغلق علىٰ نفسه عملياً باب التوبة فلن ينفعه إيمانه عندما تنزل آيات قيام القيامة الكبرىٰ قبل أربعين يومٍ منها أو

عند ظهور الآيات القريبة من أوان وقوعها.

إنهاء الاختلاف بين الأُمّة المحمّدية:

٨ـ ويُستفاد من سياق الآية الكريمة وحديث الآية اللاحقة لها المتحدّثة عن التفرّق شِيَعاً أنّ ظهور الإمام المهديّ عجّل الله فرجه ينهي هذا الاختلاف وتظهر دلائل أحقّية الطائفة المحقّة الثابتة على الحقّ والّتي يمثّلها الإمام عليه السلام.

وعليه يُستفاد أنّ الإيمان الّذي تتحدّث عنه الآية الكريمة الأُولىٰ يشمل الإيمان بأحقّية الخطّ الّذي يمثّله الإمام المهديّ، أي خطّ الولاية المعصومة الممثّلة لاستمرار منهج النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله، وهذا المعنىٰ يصدق علىٰ معاني الإيمان المقصودة في مصداقي تطبيق الآية الكريمة.

وعلىٰ ضوء هذه الآية يتّضح معنى الفصل المقصود في الآية الأُولىٰ، فالفتح الإلهيّ يشمل ما يكون به إنهاء الاختلاف والتفرّق شِيَعاً إلىٰ ثلاث وسبعين فرقة في فهم وتفسير العلم الّذي جاء به النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله.

وعليه يتّضح أنّ في بعض الآيات الّتي تظهر لتحقيق الفصل المطلوب ما يشتمل علىٰ إنهاء الاختلاف بتوضيح هوية الطائفة المحقّة.

٩ـ ويُستفاد ممّا تقدّم أنّ لغَيبة المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه ثمرةً مهمّةً تظهر يوم الفصل والفتح الإلهيّ، وهي أنّ أوضاعها الصعبة تمحص إيمان المؤمنين وتصقله وتؤهّلهم بذلك لنيل المراتب السامية لأولياء الله، ومراتبه أنصاره الخُلّص إذا أدركوا ظهوره.

١٠ـ وقد يكون يوم الفتح الإلهيّ الفصل تجسيداً لسنّةٍ إلهيةٍ ثابتة أجراها الله تبارك وتعالىٰ مع الأُمم السابقة الّتي قصّ القرآن الكريم قصصها وتجاربها مع الأنبياء السابقين صلوات الله عليهم أجمعين حيث كان العذاب الإلهيّ ينزل على

القرىٰ بعد اليأس من إيمان مَن لم يؤمن من أهلها فيمحق الله جلّت قدرته المكذّبين المعاندين وينجي المؤمنين الصالحين، ويوفّر لهم الأوضاع المناسبة لعبادته بأمن.

وعليه، يكون الفتح المهدوي هو يوم الفتح بالنسبة للرسالة والأُمّة المحمّدية. وواضحٌ أن إطار نزول الآيات فيه يكون واسعاً متناسباً مع خاتمية هذه الرسالة وشموليتها للعالم كلّه فيهلك الله فيه كلّ المعاندين وينجي المؤمنين ويوفّر لهم الأوضاع المناسبة لعبادته بأمن وبأشمل الصوَر وعلىٰ كلّ الأرض، فيستخلفهم في الأرض ويمكّن لهم دينهم الحقّ بالكامل.

الفصل السابع

تكاليف المؤمنين في عصر الغَيبة

مدخل:

تناولت الأحاديث الشريفة بعض الآيات الكريمة لتطبق ما تذكره من تكاليف إلهية للمسلمين على عصر الغَيبة، أو تطبق أوصاف معيّنة في هذه الآيات على هذا العصر وتستنبط ـ استناداً إليها ـ تكاليف خاصّة بهذا العصر. ونحن نبدأ بنقل هذه الآيات والأحاديث الواردة بشأنها ثمّ نسجّل دلالاتها.

أوّلاً: الصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى:

قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١)

١ـ روى الشيخ الصدوق في كتاب معاني الأخبار بإسناده إلى أبي حمزة عن

---

(١) آل عمران: ٢٠٠.

أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: اصبروا علىٰ المصائب، وصابروهم علىٰ الفتنة [التقية ـ خ ل] ورابطوا علىٰ مَن تقتدون به، واتّقوا الله لعلّكم تفلحون[١].

٢ـ وروىٰ علي بن إبراهيم في تفسيره قال: حدّثني أبي عن ابن أبي عمير عن ابن مسكان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: اصبروا على المصائب، وصابروا على الفرائض، ورابطوا على الأئمّة[٢].

٣ـ وروى الكليني في أُصول الكافي: عدّة من أصحابنا عن عبد الرحمن بن أبي نجران عن حمّاد بن عيسىٰ عن أبي السفاتج عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزّوجلّ: ﴿ *اصبروا وصابروا ورابطوا* ﴾ قال: اصبروا على الفرائض، وصابروا على المصائب، ورابطوا على الأئمّة[٣].

٤ـ وروى العيّاشي في تفسيره عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال في تفسير الآية: اصبروا علىٰ دينكم، وصابروا عدوّكم، ورابطوا إمامكم[٤].

٥ـ وروىٰ محمّد بن إبراهيم النعماني في كتاب الغَيبة قال: أخبرنا علي بن أحمد النيديحي عن عبيد [الله] بن موسى العلوي العبّاسي عن هارون بن مسلم عن القاسم بن عروة عن بريد بن معاوية العجلي عن أبي جعفر محمّد بن علي الباقر عليه السلام في قوله [عزّوجلّ]: ﴿ *يا أيها الّذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا* ﴾ فقال: اصبروا علىٰ أداء الفرائض، وصابروا عدوّكم، ورابطوا إمامكم المنتظر[٥].

٦ـ وروى الحديث السابق الشيخ المفيد في كتاب الغَيبة بسنده عن بريد بن

---

(١) معاني الأخبار: ٣٦٩.
(٢) تفسير القمّي: ١ / ١٢٩.
(٣) الكافي: ٢ / ٨١.
(٤) الميزان: ٤ / ١٣٣.
(٥) غَيبة النعماني: ٢٧.

معاوية العجلي عن الإمام الباقر عليه السلام[١].

٧ـ روى الحافظ القندوزي الحنفي [بإسناده] قال: عن محمّد الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ *يا أيها الّذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا* ﴾ قال: «اصبروا علىٰ أداء الفرائض، وصابروا علىٰ أذيّة عدوّكم، ورابطوا إمامكم المهديّ المنتظر»[٢].

٨ـ وروى العيّاشي في تفسيره عن يعقوب السرّاج قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: تبقى الأرض يوماً بغير عالمٍ منكم يفزع الناس إليه؟ فقال لي: إذن لا يُعبد اللهُ ياأبا يوسف، لا تخلو الأرض من عالمٍ منّا، ظاهر يفزع الناس إليه في حلالهم وحرامهم، وإنّ ذلك لمُبيّنٌ في كتاب الله، قال الله: ﴿ *ياأيّها الّذين آمنوا اصبروا* ﴾ علىٰ دينكم ﴿ *وصابروا* ﴾ عدوّكم ممّن يخالفكم ﴿ *ورابطوا* ﴾ إمامكم ﴿ *واتقوا الله* ﴾ فيما أمركم به وافترض عليكم[٣].

معاني الأوامر الأربعة:

هذا، وقد ذكر العلّامة الطباطبائي المراد من الأوامر الأربعة المذكورة في هذه الآية الكريمة فقال رحمه الله: قوله تعالىٰ: ﴿ *ياأيّها الّذين آمنوا اصبروا وصابروا...إلخ* ﴾ الأوامر مطلقة، فالصبر يُراد به الصبرُ على الشدائد، والصبر في طاعة الله، والصبرُ عن معصيته، وعلىٰ أيّ حالٍ هو الصبر من الفرد بقرينة ما يُقابله. والمصابرة هي التصبّر وتحمّل الأذىٰ جماعةً باعتماد صبر البعض علىٰ صبر آخرين، فيقوى الحال ويشتدّ الوصف ويتضاعف تأثيره، وهذا أمرٌ محسوس في تأثير الفرد إذا

(١) كما في تأويل الآيات الظاهرة: ١ / ١٢٧.
(٢) ينابيع المودّة: ٤٢١.
(٣) تفسير العيّاشي: ١ / ٢١٢.

اعتُبرت شخصيّتُه في حال الانفراد وفي حال الاجتماع والتعاون بإيصال القوىٰ بعضها ببعض، وسنبحث فيه إن شاء الله بحثاً مستوفىً في محلّه.

قوله تعالىٰ: ﴿ورابطوا﴾ أعمّ معنىً من المصابرة، وهي إيجاد الجماعة الارتباط بين قواهم وأفعالهم في جميع شؤون حياتهم الدينية، أعمّ من حال الشدّة وحال الرخاء. ولمّاكان المراد بذلك نيل حقيقة السعادة المقصودة للدنيا والآخرة ـ وإلّا فلا يتمّ بها إلّا بعضُ سعادة الدنيا وليست بحقيقة السعادة ـ عقب هذه الأوامر بقوله تعالىٰ: ﴿واتّقوا الله لعلّكم تفلحون﴾ يعني الفلاح التامّ الحقيقي[1].

الأوامر الأربعة المذكورة في الآية الكريمة عامّة مطلقة تشمل مختلف الأزمان ـ وبضمنها زمن الغَيبة ـ كما يُستفاد من تفسير الآية والأحاديث الشريفة المتقدّمة، ولكن الّذي يُفهم من رواية أحاديثها في كتب الغَيبة التأكيد على العمل بها في عصر الغَيبة لاشتداد الحاجة إليها، كما سنشير لذلك قريباً ضمن الحديث عن دلالات آيات سورة العصر وآية سورة الأعراف.

والمستفاد من تطبيق الآية الكريمة والتدبّر في معناها أُمور فيما يرتبط بتكاليف المؤمنين في عصر الغَيبة، أبرزها:

الثبات على الدين الحقّ:

١ ـ التحلّي بالصبر علىٰ صعاب عصر الغَيبة وشدائده، وتكذيب المعاندين للإيمان بالمهديّ ووجوده في غَيبته، والصبر في أداء الحقوق المفروضة على المؤمنين تجاهه وموالاته والبراءة من أعدائه، وكلّ ذلك من الفرائض. وبكلمة

(١) تفسير الميزان: ٤ / ٩١ ـ ٩٢.

جامعة: الثبات على الدين الحقّ في الجانب الإيماني وفي العمل بمقتضيات الإيمان. وهذا التكليف هو الصعيد الفردي كما يفهم من التفسير المتقدّم للآية.

تقوية الصفّ الإيماني:

٢ـ التحلّي بالمصابرة بما تعنيه من التواصي بالصبر وتقوية المؤمنين بعضهم البعض الآخر ليشتدّ تأثير عملهم مجتمعين، الأمر الّذي يُستفاد منه تكليف السعي لتقوية الصفّ الإيماني وجماعة المؤمنين بإمام العصر وغَيبته لكي يتمكّنوا من مواجهة أعدائهم ويتغلّبوا على المساعي المضادّة.

الالتفاف حول الراية المهدوية:

٣ـ القيام بواجب المرابطة بما تعنيه من إيجاد الارتباط المطلوب بين جماعة المؤمنين في أقوالهم وأفعالهم وفي شؤونهم الدينية المختلفة، وأهمّها ما يرتبط بتحرّكهم في عصر الغَيبة لتحقيق الأهداف الإلهيّة والتمهيد لظهور إمامهم وتفجّر ثورته الإلهيّة الكبرىٰ.

ويُستفاد من تطبيق الأحاديث الشريفة لمفهوم المرابطة علىٰ إمام العصر المنتظر عجّل الله فرجه، أنّ محور إيجاد هذا الارتباط المذكور هو الالتفاف حول راية الإمام المنتظر والإيمان به، والقيام بالواجبات الإيمانية تجاهه، والتحرّك للتمهيد لظهوره عجّل الله تعالىٰ فرجه، فيكون هذا الإيمان والعمل هو محور إيجاد الارتباط المطلوب بين الجماعة المؤمنة، فالارتباط بين الجماعة المؤمنة يقوم علىٰ هدف مقدّس يتجسّد في فريضة موالاة الإمام الحقّ والبراءة من أعدائه.

ترسيخ ملكة التقوىٰ:

٤ـ ترسيخ درع التقوىٰ باعتباره شرط تحقّق الوعد الإلهيّ في استخلاف صالحي المؤمنين للأرض، فيكون ترسيخ التقوىٰ في صفّ جماعة المؤمنين تمهيداً غير مباشر لظهوره ﷺ. يضاف إلىٰ ذلك أنه هو مفتاح الفوز بالقيام بالواجبات الأُخرىٰ، ولذلك أعقب الأمر بالتقوىٰ بذكر الفلاح التامّ.

٥ـ واضحٌ من الآية الكريمة تأكيدها علىٰ تقوية الصفّ الإيماني بصورةٍ عامّة، كما تقدّم وتطبيقها يفيد التأكيد على الاهتمام بتقوية الجماعة المؤمنة الملتفّة حول راية إمام العصر، والأمر نفسه تؤكّده سورة العصر استناداً للأحاديث المطبقة لها.

ثانياً: التواصي بالحقّ وبالصبر:

سورة العصر المباركة:

﴿وَالعَصرِ * إنَّ الإنسَانَ لَفِي خُسر * إلّا الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوا بِالحَقِّ وَتَوَاصَوا بِالصبر﴾[1]

روى الشيخ الصدوق في كمال الدين قال: حدّثنا أحمد بن هارون الفامي [القاضي] وجعفر بن محمّد بن مسرور وعلي بن الحسين بن شاذويه المؤدّب رضي الله عنهم قالوا: حدّثنا محمّد بن عبد الله بن جعفر بن جامع الحميري قال: حدّثنا أبي عن محمّد بن الحسين [بن أبي الخطّاب الدقّاق] عن محمّد بن سنان عن المفضّل بن عمر قال: سألت الصادق جعفر بن محمّد عليه‌السلام عن قول

(١) العصر: ١ ـ ٣.

الله عزّوجلّ : ﴿ والعصر * إنّ الإنسان لفي خُسر ﴾ قال : ﴿ والعصر ﴾ عصر خروج القائم عليه السلام ﴿ إنّ الإنسان لفي خُسر ﴾ يعني أعداءنا ﴿ إلّا الّذين آمنوا ﴾ [يعني] بآياتنا ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ يعني بمواساة الإخوان ﴿ وتواصوا بالحقّ ﴾ يعني بالإمامة ﴿ وتواصوا بالصبر ﴾ يعني في الفترة[1].

وقد رويت أحاديث شريفة أُخرىٰ تطبق أهل الإيمان المذكورين فيالسورة علىٰ المؤمنين بولاية الوصي الإمام علي عليه السلام وتطبق التواصي بالحقّ علىٰ توصية الذرّية والأخلاف بالإيمان بهذه الولاية.

والسورة المباركة تحدّد تكاليف عامّة للمؤمنين في عصر الغَيبة وغيره، وتخصّص تكليف التواصي بالصبر علىٰ صعاب وفتن عصر الغَيبة وقبل قيام المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه عصر «الفترة»، لشدّة الاحتياج إليه فيها، وإن كان يعبّر عن تكليف عامّ يشمل مختلف الأزمان والأحوال.

كما أنّ السورة تذكر أُمّهات المعارف القرآنية الّتي يحتاجها كلّ مسلم. ولأهمّيتها نبدأ أوّلاً بنقل تفسير مفردات السورة، ثمّ نشير إلىٰ وجه تطبيقها علىٰ القضية المهدوية ومدلولاتها بشأنها. يقول العلّامة الطباطبائي في تفسير السورة:

تفسير سورة العصر:

تلخّص السورة جميع المعارف القرآنية وتجمع شتات مقاصد القرآن في أوجز بيان...

قوله تعالىٰ: ﴿ والعصر ﴾ إقسام بالعصر والأنسب ـ لما تتضمّنه الآيتان

---

(١) كمال الدين: ٦٥٦.

التاليتان من شمول الخسران للعالم الإنساني، إلّا لمن اتّبع الحقّ وصبر عليه، وهم المؤمنون الصالحون عملاً ـ أن يكون المراد بالعصر عصر النبيّ ـ ﷺ ـ وهو عصر طلوع الإسلام على المجتمع البشري.

وقيل: المراد به وقت العصر ـ وهو الطرف الأخير من النهار ـ لما فيه من الدلالة على التدبير الربوبي بإدبار النهار وإقبال الليل، وذهاب سلطان الشمس. وقيل: المراد به صلاة العصر وهي الصلاة الوسطىٰ الّتي هي أفضل الفرائض اليومية. وقيل: الليل والنهار ويطلق عليهما العصران. وقيل: الدهر لما فيه من عجائب الحوادث الدالّة على القدرة الربوبية، وغير ذلك.

وقد ورد في بعض الروايات أنّه عصر ظهور المهديّ عليه السلام لما فيه من تمام ظهور الحقّ على الباطل.

قوله تعالى: ﴿ *إنّ الإنسان لفي خُسر* ﴾ المراد بالإنسان جنسه، والخُسر والخُسران والخَسار والخَسارة نقص رأس المال. قال الراغب: وينسب ذلك إلى الإنسان فيقال: خَسر فلان، وإلى الفعل فيقال: خَسرت تجارته، انتهى. والتنكير في «خُسر» للتعظيم ويحتمل التنويع، أي في نوع من الخُسر غير الخسارات المالية والجاهية، قال تعالى: ﴿ *الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم وَأَهلِيهِم يَومَ القِيامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الخُسرَانُ المُبِين* ﴾ (١).

قوله تعالى: ﴿ *إلّا الّذين آمنوا وعملوا الصالحات* ﴾ استثناء من جنس الإنسان الواقع في الخُسر، والمستثنون هم الأفراد المتلبّسون بالإيمان والأعمال الصالحة، فهم آمنون من الخُسر.

وذلك أنّ كتاب الله يبيّن أنّ للإنسان حياةً خالدةً مؤبّدةً لا تنقطع بالموت وإنّما

---

(١) الزمر: ١٥.

الموت انتقال من دارٍ إلى دار، كما تقدّم في تفسير قوله تعالى: ﴿ *عَلَى أَن نُبَدِّلَ أَمثَالَكُم وَنُنشِئَكُم فِيمَا لَا تَعلَمُونَ* ﴾[1]، ويبيّن أنّ شطراً من هذه الحياة وهي الحياة الدنيا حياة امتحانية تتعيّن بها صفة الشطر الأخير الّذي هو الحياة الآخرة المؤبّدة من سعادة وشقاء، قال تعالى: ﴿ *وما الحياة الدنيا في الآخرة إلّا متاع* ﴾[2]، وقال: ﴿ *كلّ نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشرّ والخير فتنة* ﴾[3].

ويبيّن أنّ مقدّمية هذه الحياة لتلك الحياة إنّما هي بمظاهرها من الاعتقاد والعمل، فالاعتقاد الحقّ والعمل الصالح ملاك السعادة الأُخروية، والكفر والفسوق ملاك الشقاء فيها قال تعالى: ﴿ *وأنْ ليس للإنسان إلّا ما سعى * وأنّ سعيه سوف يُرى * ثمّ يُجزاه الجزاءَ الأوفى* ﴾[4]، وقال: ﴿ *مَن كفر فعليه كفرُه ومَن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون* ﴾[5]، وقال: ﴿ *مَن عمل صالحاً فلنفسه ومَن أساء فعليها* ﴾[6] وقد سمّى الله تعالى ما سيلقاه الإنسان في الآخرة جزاء وأجراً في آيات كثيرة.

ويتبيّن بذلك كلّه أنّ الحياة رأس مالٍ للإنسان يكسب به ما يعيش به في حياته الآخرة، فإنْ اتّبع الحقّ في العقد والعمل فقد ربحت تجارته وبورك في مكسبه وأمن الشرّ في مستقبله، وإن اتّبع الباطل وأعرض عن الإيمان والعمل الصالح فقد خسرت تجارته وحرم الخير في عقباه، وهو قوله تعالى: ﴿ *إنّ*

(١) الواقعة: ٦١.
(٢) الرعد: ٢٦.
(٣) الأنبياء: ٣٥.
(٤) النجم: ٣٩ ـ ٤١.
(٥) الروم: ٤٤.
(٦) فصّلت: ٤٦.

*الإنسان لفي خُسر * إلّا الّذين آمنوا وعملوا الصالحات* ﴾.

والمراد بالإيمان الإيمان بالله، ومن الإيمان بالله الإيمان بجميع رسله، والإيمان باليوم الآخر، فقد نصّ تعالى فيمن لم يؤمن ببعض رسله أو باليوم الآخر أنه غير مؤمن بالله[١].

وظاهر قوله: ﴿ *وعملوا الصالحات* ﴾ التلبّس بجميع الأعمال الصالحة، فلا يشمل الاستثناء الفسّاق بترك بعض الصالحات من المؤمنين، ولازمه أن يكون الخُسر أعمّ من الخُسر في جميع جهات حياته، كما في الكافر المعاند للحقّ المخلّد في العذاب، والخُسر في بعض جهات حياته كالمؤمن الفاسق الّذي لا يخلّد في النار وينقطع عنه العذاب بشفاعة ونحوها.

قوله تعالى: ﴿ *وتواصوا بالحقّ وتواصوا بالصبر* ﴾ التواصي بالحقّ هو أن يوصي بعضهم بعضاً بالحق، أي باتّباعه والدوام عليه فليس دين الحقّ إلّا اتّباع الحقّ اعتقاداً وعملاً، والتواصي بالحقّ أوسع من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لشموله الاعتقاديات ومطلق الترغيب والحثّ على العمل الصالح.

ثمّ التواصي بالحقّ من العمل الصالح، فذكره بعد العمل الصالح من قبيل ذكر الخاصّ بعد العامّ اهتماماً بأمره. كما أنّ التواصي بالصبر من التواصي بالحقّ، وذكره بعده من ذكر الخاصّ بعد العامّ اهتماماً بأمره، ويؤكّد تكرار ذكر التواصي حيث قال: ﴿ *وتواصوا بالصبر* ﴾ ولم يقل: وتواصوا بالحقّ والصبر.

وعلى الجملة، ذكر تواصيهم بالحقّ وبالصبر بعد ذكر تلبّسهم بالإيمان والعمل الصالح للإشارة إلى حياة قلوبهم وانشراح صدورهم للإسلام لله، فلهم اهتمام خاصّ واعتناء تامّ بظهور سلطان الحقّ وانبساطه على الناس حتّى يتّبع

---

(١) إشارة إلى الآية ١٥٠ و ١٥١ من سورة النساء، فراجع.

ويدوم اتّباعه، قال تعالى: ﴿ *أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نورٍ من ربّه فويلٌ للقاسية قلوبهم من ذكر الله أُولئك في ضلالٍ مبين* ﴾ (١).

وقد أُطلق الصبر فالمراد به أعمّ من الصبر على طاعة الله والصبر عن معصيته والصبر عند النوائب الّتي تصيبه بقضاءٍ من الله وقدر (٢).

يُستفاد من تطبيق السورة المتقدّمة عدّة أُمور مستفادة من التدبّر في معنى السورة ومضمون الحديث الشريف المتقدّم، أبرزها:

١ـ أنّ النجاة من الخسران بكامل مراتبه نصيب صالحي المؤمنين الّذين يكتمل إيمانهم بالإيمان بالآيات الكاشفة عن أحقّية خطّ الولاية الإلهيّة المعصومة وما دلّت عليه من وجوب الإيمان بالمهديّ المنتظر عجّل الله فرجه وحتمية ظهوره، وفوز القائمين بالواجبات من صالحات الأعمال المذكورة في السورة.

أمّا الخسران المبين في أشمل درجاته فهو من نصيب أعداء خطّ الولاية الإلهيّة والإمامة المعصومة والظالمين لها. كما يُستفاد أنّ تجلّي حقيقة نجاة أُولئك وخسران هؤلاء سيكون في عصر ظهور قائم آل محمّد عليهم السلام.

مواساة الإخوان والتكافل الإيماني:

٢ـ ويُستفاد من تطبيق آيات السورة التأكيد على «مواساة الإخوان» كأحد المصاديق البارزة للأعمال الصالحة، وهذا تكليف عامّ يشمل مختلف الأزمان ويتأكّد في عصر الغَيبة بسبب ما يتعرّض له المؤمنون فيه من محنٍ وفتنٍ وشدائد تؤكّد الحاجة لمواساة بعضهم بعضاً، والمواساة هنا عامّة أيضاً تشمل

---

(١) الزمر: ٢٢.

(٢) تفسير الميزان: ٢٠ / ٣٥٦ ـ ٣٥٧.

تلبية احتياجاتهم المختلفة المادّية والمعنوية بما يعينهم على الثبات والاستقامة على الدين الحقّ والإيمان بإمام زمانهم رغم صعوبات ذلك في عصر الغَيبة. وهذا التكليف يعزّز مفهوم تكليف المصابرة المذكور في آية سورة آل عمران المتقدّمة.

التواصي بموالاة الإمام:

٣ـ التكليف الآخر الّذي يتأكّد في عصر الغَيبة هو التواصي بالحقّ والثبات عليه واتّباعه والالتفاف تحت رايته والتمسّك بعروته، والمصداق الأهمّ للتواصي بالحقّ فيعصر الانحراف عن خطّ الإمامة المعصومة وأوصياء النبيّ الأكرم ﷺ وإبعادهم عن قيادة المسلمين هو التواصي بالتمسّك بعرىٰ هذه الإمامة المعصومة لصعوبة الإيمان والتمسّك بها في ظل محاربتها، ولأنّ في ذلك يكون الاتّباع الصادق للدين الحقّ، ومصداق هذا التواصي في عصر الغَيبة هو التمسّك بإمامة المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه لصعوبة الإيمان بها في ظلّ الغَيبة، وعدم اتّضاح مظاهر قيامه بمهامّ الإمامة.

٤ـ التكليف الأخير المذكور في السورة هو التواصي بالصبر، ويتأكّد في عصر الغَيبة، كما يشير لذلك الحديث الشريف المتقدّم لشدّة الحاجة للصبر بمختلف مصاديقه المعروفة من الصبر على الطاعة وعن المعصية وعلىٰ صعاب عصر الغَيبة، وهو علىٰ كلّ حال يمثّل المصداق الأكمل للثبات على الدين الحقّ الّذي يحمله المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه رغم الصعوبات المضادّة، والصبر على القيام بالواجبات الخاصّة بهذا العصر ومقتضيات التمهيد لظهور الإمام المصلح، وهي تعبّر في الواقع عن الإيمان العملي بإمامته.

ثالثاً: الاستعانة بالله:

قوله تعالىٰ:

﴿قَالَ مُوسىٰ لِقَومِهِ استَعينُوا بِاللهِ وَاصبِرُوا إنَّ الأَرضَ للهِ يُورِثُها مَن يَشاءُ مِن عِبادِهِ وَالعاقِبَةُ لِلمُتَّقِين﴾ (١)

١ ـ روى الكليني في الكافي بإسناده عن أحمد بن محمّد بن عيسى عن ابن محبوب عن هشام بن سالم عن أبي خالد الكابلي عن أبي جعفر عليه السلام قال:

وجدنا في كتاب علي صلوات الله عليه: ﴿إنّ الأرضَ لله يُورثُها مَن يشاءُ مِن عبادِهِ والعاقبةُ للمتّقين﴾ أنا وأهل بيتي الّذين أورثنا الله الأرض، ونحن المتقون، والأرض كلّها لنا، فمن أحيا أرضاً من المسلمين فليعمرها، وليؤدّ خراجها إلى الإمام من أهل بيتي، وله ما أكلّ منها، فإن تركها أو أخربها وأخذها رجلٌ من المسلمين من بعده فعمرها وأحياها فهو أحقّ بها من الّذي تركها، يؤدّي خراجها إلى الإمام من أهل بيتي، وله ما يأكل منها حتّى يظهر القائم عليه السلام من أهل بيتي بالسيف، فيحويها ويمنعها منهم ويخرجهم كما حواها رسول الله صلى الله عليه وآله ومنعها، إلّا ماكان في أيدي شيعتنا، فإنّهم يقاطعهم علىٰ ما في أيديهم، ويترك الأرض في أيديهم (٢).

٢ ـ ورواه العيّاشي في تفسيره بإسناده عن أبي خالد الكابلي عن أبي جعفر عليه السلام (٣).

٣ ـ وروى العيّاشي في تفسيره عن عمّار الساباطي قال: سمعت أبا

---

(١) الأعراف: ١٢٨.

(٢) الكافي: ١ / ٤٠٧.

(٣) تفسير العيّاشي: ٢ / ٢٥.

عبد الله عليه السلام يقول: ﴿إنّ الأرضَ لله يُورثُها مَن يشاءُ مِن عبادِه﴾، فما كان لله فهو لرسوله، وما كان لرسول الله فهو للإمام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله[1].

٤ـ وروى الفضل بن شاذان عن علي بن الحكم عن سفيان الجريري عن أبي صادق عن أبي جعفر عليه السلام قال: دولتنا آخر الدول، ولم يبق أهل بيت لهم دولة إلّا ملكوا قبلنا، لئلا يقولوا إذا رأوا سيرتنا: إذا ملكنا سرنا مثل سيرة هؤلاء، وهو قول الله عزّوجلّ: ﴿والعاقبة للمتّقين﴾[2].

الآية الكريمة مناسبة للغاية للتطبيق علىٰ غَيبة الإمام المهديّ وتحديد تكليف الاستعانة بالله والصبر للمؤمنين في عصرها وتوضيح مبرّراته وضرورته، لنلاحظ أوّلاً تفسير الآية وآيتين بعدها مرتبطة بها من «الميزان» قبل أن نسجّل دلالاتها:

قوله تعالىٰ: ﴿قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا... إلى آخر الآية﴾ وهذا من موسى عليه السلام بعثٌ لبني إسرائيل واستنهاضٌ لهم على الاستعانة بالله علىٰ مقصدهم وهو التخلّص من إسارة آل فرعون واستعبادهم، ثمّ بعثٌ على الصبر علىٰ شدائد يهدّدهم بها فرعون من ألوان العذاب، والصبر هو رائد الخير وفرط كلّ فرج، ثمّ علل ذلك بقوله: ﴿إنّ الأرضَ لله يُورثُها مَن يشاء﴾.

ومحصّله، أنّ فرعون لا يملك الأرض حتّى يمنحها من يشاء، ويمنع من التمتّع بها من يشاء، بل هي لله يورثها من يشاء، وقد جرت السنّة الإلهيّة أن يخصّ بحسن العاقبة من يتّقيه من عباده، فإن استعنتم بالله وصبرتم في ذات الله علىٰ ما يهدّدكم من الشدائد ـ وهو التقوى ـ أورثكم الأرض الّتي ترونها في أيدي آل فرعون.

---

(١) تفسير العيّاشي: ٢ / ٢٥.

(٢) عنه في غَيبة الطوسي: ٢٨٢.

ولذلك عقب قوله: ﴿ *إنّ الأرضَ لله* ﴾ الآية بقوله: ﴿ *والعاقبة للمتّقين* ﴾ العاقبة ما يعقب الشيء كالبادئة لما يبدأ بالشيء، وكون العاقبة مطلقاً للمتّقين من جهة أنّ السنّة الإلهيّة تقضي بذلك، وذلك أنّه تعالى نظّم الكون نظماً يؤدّي كلّ نوع إلى غاية وجوده وسعادته الّتي خُلق لأجلها، فإن جرى علىٰ صراطه الّذي ركب عليه ولم يخرج عن خطّ مسيره الّذي خطّ له بلغ غاية سعادته لا محالة، والإنسان الّذي هو أحد هذه الأنواع أيضاً حاله هذا الحال إن جرى علىٰ صراطه الّذي رسمّته له الفطرة واتّقى الخروج عنه والتعدّي منه إلى غير سبيل الله بالكفر بآياته والإفساد في أرضه هداه الله إلى عاقبته الحسنة وأحياه الحياة الطيّبة وأرشده إلى كلّ خير يبتغيه.

قوله تعالى: ﴿ *قالوا أُوذينا من قبلِ أن تأتينا ومن بعدِ ما جئتنا* ﴾[1] الإتيان والمجيء في الآية بمعنى واحد. والاختلاف في التعبير للتفتن، وما قيل إن المعنى من قبل أن تأتينا بالآيات ومن بعد ما جئتنا لا دليل علىٰ ما فيه من التقدير. علىٰ أن غرضهم إظهار أن مجيء موسى وقد وعدوا أنّ الله ينجيهم بيده من مصيبة الإسارة وهاوية المذلة لم يؤثر أثره فإنّ الأذى الّذي كانوا يحملونه ويؤذون به علىٰ حاله، ولا تعلق لغرضهم بأنه أتاهم بالآيات البتة. وهذا الكلام شكوى منهم يبثونها إلى موسى عليه السلام.

قوله تعالىٰ: ﴿ *قال عسىٰ ربّكم أن يُهلك عدوّكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون* ﴾[2] وهذا جواب من موسى عن قولهم: «أُوذينا...إلخ» يسلّيهم به ويعزّيهم بالرجاء، وهو في الحقيقة تكرار لقوله السابق: ﴿ *استعينوا بالله*

(١ و ٢) الأعراف: ١٢٩.

واصبروا إنّ الأرضَ لله... الآية ﴾ كأنّه يقول: ما أمرتكم به أن اتّقوا الله في سبيل مقصدكم كلمة حيّة ثابتة، فإن عملتم بها كان من المرجوّ أن يُهلك الله عدوّكم، ويستخلفكم في الأرض بإيراثكم إيّاها لا يصطفيكم بالاستخلاف اصطفاءً جزافاً، ولا يكرمكم إكراماً مطلقاً من غير شرط ولا قيد، بل ليمتحنكم بهذا الملك ويتبليكم بهذا التسليط والاستخلاف فينظر كيف تعملون، قال تعالى: ﴿ وتلك الأيّام نداولها بين الناس وليَعلمَ اللهُ الّذين آمنوا ويتّخذَ منكم شهداء ﴾[(١)].

وهذا ممّا يخطّئ به القرآن ما يعتقده اليهود من كرامتهم على الله كرامةً لا تقبل عزلاً، ولا تحتمل شرطاً ولا قيداً، والتوراة تعدّ شعب إسرائيل شعب الله الّذي لهم الأرض المقدّسة كأنّهم ملكوها من الله سبحانه ملكاً لا يقبل نقلاً ولا إقالة[(٢)]

التمهيد لظهور المهديّ عبادةً لله:

١ ـ يدلّ تطبيق الآية الكريمة على القضية المهدوية على تكليفين من تكاليف المؤمنين في عصر الغَيبة استناداً إلى التشابه بين فترة الغَيبة وبين فترة المحنة الّتي سبقت استخلاف بني إسرائيل في الأرض وإهلاك فرعون وهامان وجنودهما وسائر أعدائهم. وهذان التكليفان هما الاستعانة به والصبر على صعاب فترة الغَيبة.

٢ ـ المقصود بالاستعانة بالله جلّت قدرته هو الاستقواء به للوصول إلى المقصد، والمقصد والغاية هو إقامة الدولة العادلة والمجتمع الصالح الّذي يعبد الله وحده لا شريك له، وكلّ مؤمن يساهم في عصر الغَيبة ممّا يستطيع في التحرّك

---

(١) آل عمران: ١٤٠.

(٢) تفسير الميزان: ٨ / ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

لتحقيق هذه الغاية، وهي غاية كبيرة تستلزم الاستعانة بالله لتحقيقها، إضافةً إلىٰ أن هذا التحرّك ينبغي أن يكون بهدف التقرّب إلىٰ الله جلّ وعلا وإلّا فلا قيمة له، وما دام كذلك فهو عمل عبادي بالمعنى العامّ، وتحقّق الآثار المطلوبة من العمل العبادي مشروط بالاستعانة بالله.

٣ـ الوصول إلىٰ هذا المقصد حتميّ لتعلّق الإرادة الإلهيّة به، ولأنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، فالأمر بيده وهو غالبٌ علىٰ أمره.

الفوز بحسن العاقبة:

٤ـ شاءت الحكمة الإلهيّة أن تكون «العاقبة للمتّقين». وهذا يعني أن تكون دولة الحقّ آخر الدول، والهدف تربوي يرتبط بتحقّق الغاية المقصودة بصورة كاملة، وهو إقامة الحجّة الكاملة على الاتّجاهات الأُخرىٰ وكشف انحرافها وبطلان دعاويها في القدرة علىٰ إقامة الدولة العادلة، فلو أُتيحت لها الفرصة وظهر زيف دعاويها وعدم تمثيلها للإسلام الصحيح، فلن تكون قادرة علىٰ إضلال الناس بمثل هذه الدعاوي في ظلّ دولة الحقّ والمجتمع الصالح الّذي تقيمه وهو مجتمع ينبغي أن يكون آمناً من كيد المنافقين والكافرين ودعاواهم المضلّة ـ كما يُفهم من حديث الإمام الباقر عليه السلام الثالث ـ لكي يتفرّغ لتحقيق العبادة الحقّة وهي الغاية من خلق الإنسان.

وهذا يعني أنّ فترة الغَيبة ستكون طويلة الأمد حتّى يتّضح بطلان الاتّجاهات الأُخرىٰ تطبيقاً لسنّة التمحيص والمحق والتمييز الإلهيّة، ومع طولها يزداد آذاها وصعابها فيحتاج المؤمنون إلى التحلّي بأعلىٰ مراتب الصبر كتكليف مهمّ من تكاليف عصر الغَيبة، ولذلك نفهم سرّ شدّة تأكيد الأحاديث الشريفة علىٰ هذا التكليف بالذات.

٥ـ ويدلّ تطبيق الآية علىٰ أنّ للصابرين علىٰ صعاب زمن الغَيبة والمستعينين بالله في أداء واجباتهم يدركون حُسن العاقبة حتّى لو لم يُدركوا ظهور إمامهم لأنّهم يساهمون بذلك في تحقّق الوعد الإلهيّ للخطّ الإيماني الّذي ينتمون إليه.

التصرّف بالنعم بإذن الإمام:

وما ورد في الحديثين الأول والثاني تأكيدٌ لحقيقة أنّ الأرض لله تبارك وتعالىٰ بالأصالة ولخليفته فيها بالتوريث الإلهيّ ـ وهم الرسول وأوصياؤه من بعده ـ. فوراثة صالحي المؤمنين لها بما أنّهم ينتمون إلىٰ هذا الخطّ الإيماني الممثّل للولاية الإلهيّة المعصومة، والرسول وأوصياؤه صلوات الله عليهم أجمعين هم أعلىٰ مراتب المتّقين، فالتصرّف في الأرض مشروطٌ بالانسجام مع إرادتهم المعبّرة عن إرادة الله الممثّلة في أحكام الشريعة. والتكليف الّذي يتحدّث عنه الحديث الأول للتصرّف في الأرض بالإحياء يستند إلىٰ هذه الحقيقة.

والمصداق المذكور في الحديث الأول هو أحد المصاديق، والمقصود في الآية أشمل، فوراثة صالحي المؤمنين لها يعني إعمارها وتسخير بركاتها لتحقيق الهدف من الخلق وهو تحقّق العبودية المطلقة لله تبارك وتعالىٰ.

٦ـ ويُستفاد من تطبيق الآية الكريمة أيضاً أنّ من تكاليف عصر الغَيبة تأكيد وترسيخ درع التقوىٰ، فالعمل بهذا التكليف تأهيلٌ لوراثة الأرض من جهة، كما أنّ الحاجة مضاعفة لهذا الدرع للعمل بالتكليفين السابقين من جهة أُخرىٰ.

رابعاً: انتظار الفرج:

طبقت الأحاديث الشريفة ثلاث آيات كريمة على القضية المهدوية، يُستفاد منها الأمر بواجب الانتظار في عصر الانحراف عن خطّ الولاية الإلهيّة وإقصائها وغَيبة الإمام، نوردها مجتمعة مع الأحاديث المطبقة لها وتفسيرها، ثمّ نسجّل دلالاتها، وهي:

الآية الأُولىٰ: قوله تعالىٰ:

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِن رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ [(١)]

١ ـ روى الشيخ الصدوق قال: حدّثنا علي بن أحمد بن محمّد الدقّاق رضي الله عنه قال: حدّثنا محمّد بن أبي عبد الله الكوفي قال: حدّثنا موسى بن عمران النخعي عن عمّه الحسين بن يزيد عن علي بن أبي حمزة عن يحيى بن أبي القاسم قال: سألت الصادق عليه السلام عن قول الله عزّوجلّ: ﴿الٓم * ذلك الكتابُ لا ريب فيه هدىً للمتّقين * الّذين يؤمنون بالغَيب﴾ [(٢)] فقال: المتّقون شيعة علي عليه السلام، والغَيب فهو الحجّة الغائب، وشاهد ذلك قول الله عزّوجلّ: ﴿ويقولون لولا أُنزل عليه آيةٌ من ربّه فقل إنّما الغَيبُ لله فانتظروا إنّي معكم من المنتظرين﴾ [(٣)].

٢ ـ روى الحافظ القندوزي الحنفي بإسناده قال: عن جعفر الصادق رضي الله عنه في قوله تعالى في سورة يونس: ﴿ويقولون لولا أُنزل عليه آيةٌ من ربّه فقل إنّما الغيب

(١) يونس: ٢٠.
(٢) البقرة: ١ ـ ٣.
(٣) كمال الدين: ٣٤٠.

﴿ فانتظروا إنّي معكم من المنتظرين ﴾ قال: الغيب في هذه الآية هو الحجّة القائم[١].

الآية الثانية: قوله تعالىٰ:

﴿ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴾[٢]

١ـ روى العيّاشي في تفسيره عن محمّد بن الفضيل عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: سألته عن شيءٍ في الفرج، فقال عليه السلام: «أوَ ليسَ تعلم أنّ انتظار الفرج من الفرج، إنّ الله يقول: ﴿ انتظروا إنّي معكم من المنتظرين ﴾»[٣].

٢ـ وروى الشيخ الصدوق الحديث المتقدّم في كمال الدين بتفاوتٍ يسير[٤].

٣ـ وروى العيّاشي في تفسيره عن أحمد بن محمّد عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال الراوي: سمعته عليه السلام يقول: ما أحسن الصبر وانتظار الفرج، أما سمعت قول العبد الصالح: ﴿ انتظروا إنّي معكم من المنتظرين ﴾[٥].

الآية الثالثة: قوله تعالىٰ:

﴿ وَيَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ

---

(١) ينابيع المودّة: ٤٢٣.

(٢) ورد قوله تعالىٰ هذا في موقعين هما آية ٧١ من سورة الأعراف، وآية ٢٠ من سورة يونس المتقدّمة. والظاهر أنّ المراد في حديث الإمام الرضا عليه السلام هو آية سورة الأعراف إذ حكت هذا القول عن نبيّ الله هود عليه السلام الّذي يبدو أنّه هو الموصوف في حديث الإمام الرضا بالعبد الصالح.

(٣) تفسير العيّاشي: ٢ / ١٣٨.

(٤) كمال الدين: ٦٤٥. وفيه أنّ الإمام عليه السلام اقتصر في الجواب علىٰ تلاوة الآية الكريمة وحدها.

(٥) تفسير العيّاشي: ٢ / ٢٠.

مَن يَأتِيهِ عَذَابٌ يُخزِيهِ وَمَن هُوَ كَاذِبٌ وَارتَقِبُوا إِنّي مَعَكُم رَقِيب﴾ (١)

١ـ روى العيّاشي في تفسيره عن محمّد بن الفضيل عن الرضا عليه السلام قال: سألته عن انتظار الفرج فقال عليه السلام: أوَ ليس تعلم أنّ انتظار الفرج من الفرج؟... ثمّ قال: إنّ الله تبارك وتعالىٰ يقول: ﴿*وارتقبوا إنّي معكم رقيب*﴾ (٢).

٢ـ وروى الشيخ الصدوق في كمال الدين عن المظفّر بن جعفر بن المظفّر العلوي السمرقندي رضي الله عنه قال: حدّثنا جعفر بن محمّد بن مسعود عن محمّد بن مسعود قال: حدّثني أبو صالح خلف بن حمّاد الكشّي قال: حدّثنا سهل بن زياد قال: حدّثني محمّد بن الحسين عن أحمد بن محمّد بن أبي نصر قال: قال الرضا عليه السلام: ما أحسن الصبر وانتظار الفرج، أما سمعت قول الله عزّوجلّ: ﴿*وارتقبوا إنّي معكم رقيب*﴾، ﴿*فانتظروا إنّي معكم من المنتظرين*﴾، فعليكم بالصبر فإنّه إنّما يجيءُ الفرج على اليأس، فقد كان الّذين من قبلكم أصبر منكم (٣).

سير الآيات المطبقة على الانتظار:

تأتي الآية الأُولىٰ في سياق التعليم القرآني للنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله للاحتجاج على المشركين، والثانية بشأن هود وقومه، والثالثة عن قصّة شعيب وتهديده لقومه. وهي جميعاً تتضمّن الأمر بانتظار حدث مهمّ يحسم النزاع ويبيّن بما لا يقبل الإنكار أصلاً الطرف المحقّ ويزهق الباطل، فهو يتضمّن عذاب الخزي

(١) هود: ٩٣.
(٢) تفسير العيّاشي: ٢ / ١٥٩.
(٣) كمال الدين: ٦٤٥.

والفضيحة لطرفٍ وفتح وتحقّق أهداف طرفٍ آخر، لنلاحظ أوّلاً تفسير الآيات قبل تسجيل دلالاتها.

يقول العلّامة الطباطبائي ﵀ في تفسير الآية الأُولىٰ: قوله تعالىٰ: ﴿ *ويقولون لولا أُنزل عليه آيةٌ من ربّه فقل إنّما الغَيبُ لله فانتظروا إنّي معكم من المنتظرين* ﴾ الآية كقوله قبلها: ﴿ *ويعبدون من دون الله* ﴾ وقوله قبله: ﴿ *وإذا تتلى عليهم آياتنا* ﴾ تعدّ أُموراً من مظالم المشركين في أقوالهم وأعمالهم ثمّ تردّ عليها بحجج تلقّنها النبيّ ﷺ ليقيمها عليهم كما مرّ في أول الآيات، فقوله: ﴿ *ويقولون لولا أُنزل...إلخ* ﴾ عطف علىٰ قوله في أوّل الآيات: ﴿ *وإذا تتلى عليهم آياتنا* ﴾.

وفيها مع ذلك عود بعد عود إلى إنكارهم أمر القرآن، فإنّ مرادهم بقولهم: ﴿ *لولا أُنزل عليه آيةٌ من ربّه* ﴾ وإن كان طلب آيةً أُخرى غير القرآن لكنّهم إنّما قالوه إزراءً وتحقيراً لأمر القرآن واستخفافاً به لعدم عدّه آيةً إلهية، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ *فقل إنّما الغَيبُ لله* ﴾ ولم يقل: «قل» كما قال في سائر الآيات، كأنه يقول: ويطلبون منك آيةً أُخرى غير مكتفين بالقرآن ولا راضين به، فإذا لم يكتفوا به آية فقل: إنّما الآيات من الغَيب المختصّ بالله وليست بيدي، فانتظروا إنّي معكم من المنتظرين.

فهذا هو المستفاد من الآية، وفيها دلالة علىٰ أنّ النبيّ ﷺ كان ينتظر آيةً فاصلةً بين الحقّ والباطل غير القرآن قاضية بينه وبين أُمّته، وسيجيء الوعد الصريح منه بهذه الآية ـ الّتي يأمر بانتظارها هاهنا ـ في قوله: ﴿ *وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعضَ الَّذِي نَعِدُهُم أَو نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَينا مَرجِعُهُم* ﴾[1] إلىٰ تمام عدّة آيات[2].

---

(١) يونس: ٤٦.

(٢) تفسير الميزان: ١٠ / ٣٤.

ثمّ يبيّن ﷺ في تفسير الآيات (٤٦ـ٥٦) من سورة يونس بأنّ الحدث المنتظر يقع في الدنيا ويفصل بينهم علىٰ وفق ما أشرنا إليه في المقدّمة(١)، ويبيّن أنّه من أنباء الغَيب الّتي لا يعلم أوانها إلّا الله تبارك وتعالىٰ، إذ أنّ «الغَيب لله»، فالمنتظر هو الفتح الموعود في الدنيا وليس في الآخرة.

والأمر الثاني بالانتظار ورد في سورة الأعراف في قصّة هود ﷺ مع قومه وضمن قوله تعالىٰ حاكياً قوله ﷺ: ﴿ *قَالَ قَد وَقَعَ عَلَيكُم مِن رَبِّكُم رِجسٌ وَغَضَبٌ أَتُجادِلُونَنِي فِي أَسمَاءٍ سَمَّيتُمُوهَا أَنتُم وَآباؤُكُم ما نَزَّلَ اللهُ بِهَا مِن سُلطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِنَ المُنتَظِرِين* ﴾(٢).

يقول العلّامة في تفسير الآية: الرجس والرجز هو الأمر الّذي إذا وقع على الشيء أوجب ابتعاده أو الابتعاد عنه، ولذا يطلق على القاذورة، لأنّ الإنسان يتنفّر ويبتعد عنه، وعلى العذاب لأنَّ المعذَّب ـ اسم مفعول ـ يبتعد عمّن يعذّبه أو من الناس الآمنين من العذاب.

أجابهم [يعني هود النبيّ] بأنّ إصرارهم علىٰ عبادة الأوثان بتقليد آبائهم أوجب أن يحقّ عليهم البُعد عن الله بالرجس والغضب، ثمّ فرع عليه أن هدّدهم بما يستعجلون من العذاب، وأخبرهم بنزوله عليهم لا محالة، وكنّىٰ عن ذلك بأمرهم بالانتظار وإخبارهم بأنّه مثلهم في انتظار نزول العذاب(٣).

ويقول ﷺ في تفسير آية سورة هود: قال في المجمع: المكانة الحال الّتي يتمكّن بها صاحبها من عمل، إنتهىٰ وهو في الأصل ـ كما قيل ـ من مكّن مكانة

---

(١) راجع تفسير الميزان: ١٠ / ٧٠ ـ ٧٧.

(٢) الأعراف: ٧١.

(٣) تفسير الميزان: ٨ / ٧١.

كضخّم ضخامة إذا قوي على العمل كلّ القوة، ويُقال: تمكّن من كذا أي أحاط به قوّة.

وهذا تهديدٌ من شعيب لهم أشدّ التهديد، فإنّه يشعر بأنه علىٰ وثوقٍ ممّا يقول لا يأخذه قلق ولا اضطراب من كفرهم وتمرّدهم عن دعوته، فليعملوا علىٰ ما لهم من القوّة والتمكّن، فلهم عملهم وله عمله، فسوف يفاجئهم عذابٌ مخزٍ يعلمون عند ذلك مَن هو الّذي يأخذه العذاب هم أم هو؟ ويعلمون مَن هو كاذب؟ فليرتقبوا وهو معهم رقيب[1].

الانتظار مشروطٌ بالاستعداد والعمل والصبر:

يُستفاد من التدبّر في الآيات الكريمة المتقدّمة وفي الأحاديث المطبقة لها على القضية المهدوية عدّة أُمور فيما يرتبط بواجب الانتظار للفرج وظهور المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه، أبرزها:

١ـ أنّ الأمر بالانتظار موجّه لطرف المؤمنين كما هو موجّه لأعدائهم، وإن كان بالنسبة للأعداء يتضمّن إنذاراً وتهديداً بالعذاب الأليم، فيما يتضمّن بشرىٰ مفعمة بالأمل للمؤمنين بالفتح.

٢ـ بما أنّ توقيت تحقّق هذا الوعد المنتظر هو من الغَيب الّذي اختصّ به الله تبارك وتعالىٰ، لذلك يلزم المؤمنين أن يكونوا في حالة من التوقّع الدائم لحصوله في كلّ حين.

٣ـ وهذا الترقّب الدائم يستلزم أن يكون المنتظر في حالة استعداد دائمةٍ لوقوع ما ينتظره، وإلّا فلن يكون صادقاً في ادّعاء الانتظار حقيقةً. وحيث إنّ

(١) تفسير الميزان: ١٠ / ٣٧٥.

الوعد يتضمّن عذاباً مخزياً لغير المؤمنين، لذا فإنّ حالة الاستعداد المطلوبة تعني أن يكون المؤمن في حالةٍ يتأهّل معها ـ إذا تحقّق الوعد ـ بأن لا يكون في صفّ المعذّبين ويكون قادراً للمساهمة في تحقيق الفتح الموعود بالجهاد الدؤوب فيكون من أصحاب الفتح.

٤ـ لذلك فإنّ معنى الانتظار يتضمّن شرط اقتران الترقّب لتحقّق الوعد بالعمل في سبيل تحقّق ما ينتظره، وإلّا فلن يكون صادقاً في دعواه الانتظار للفرج، وهذا ما تصرّح به الآية الثالثة بوضوح.

٥ـ كما ينبغي أن يقترن بالصبر علىٰ مشاقّ الانتظار وصعاب العمل لتحقّق الوعد، كما يصرّح بذلك حديث الإمام الرضا عليه السلام في تطبيق الآية الثالثة.

٦ـ كما ينبغي أن يكون مقترناً بالإيمان الراسخ والثقة من تحقّق الوعد، كما اتّضح من تفسير الآية الثالثة.

التطلّع المستمر للفتح المنتظر:

وخلاصة القول هو: أنّ على المؤمنين أن يكونوا في حالةِ تطلّعٍ مستمرٍّ لنزول الفرج الإلهيّ، وهذا تكليف عامّ يشمل جميع شؤون الإنسان الفردية والاجتماعية، ويتأكّد في زمن الفتنة والانحرافات وحكم الظلم والجور، ويتأكّد أكثر في عصر الغَيبة الكبرىٰ، فأصل التحلّي بهذه الحالة من الانتظار يشدّ المؤمن نحو الأهداف السامية ويدفعه للسعي والعمل لتحقيقها، ولذلك كان الانتظار الصادق مقروناً بالاستعداد والعمل في سبيل تحقّقٍ ما ينتظره، والسبيل لتحقّق هذه الحالة الصادقة من الانتظار هو ترسيخ الإيمان الصحيح المستند إلى الأدلّة النقلية الصحيحة والبراهين العقلية السليمة المثمرة للاعتقاد الصحيح بتحقّق

الفرج الإلهيّ الموعود، فإذا اعتقد بذلك استناداً إلىٰ هذه الأُسس المتينة انتظَره وعمل له بثقةٍ واطمئنان دونما اضطراب، كما لاحظنا في تفسير الآيات المتقدّمة.

تعميق الارتباط بالإمام:

إذن، لتحلّي المؤمنين في عصر الغَيبة بهذه الحالة من التطلّع المستمرّ للفرج المهدوي أثرٌ مهمّ في تعميق الارتباط الوجداني بالإمام المهديّ عجّل الله فرجه وقضيته العادلة، ولذلك تأثيرٌ بالغ في الحيلولة دون «قسوة القلوب» بسبب طول الغَيبة، والحيلولة دون ذلك من التكاليف الخاصّة بعصر الغَيبة أشارت إليه الأحاديث الشريفة المطبقة للآية اللاحقة على القضية المهدوية كما سنرىٰ.

خامساً: اتّقاء قسوة القلوب:

قوله تعالىٰ:

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (١)

تقدّم الحديث في الفصل الخاصّ بالآيات المؤوّلة أو المطبقة علىٰ أصل وقوع الغَيبة عن هذه الآية الكريمة والأحاديث الواردة في تطبيقها على القضية المهدوية، وننقل حديثاً أكثر تفصيلاً، ثمّ نشير إلى التكليف الّذي تحدّده لمؤمني عصر الغَيبة.

---

(١) الحديد: ١٦.

روى الشيخ النعماني قال: حدّثنا به محمّد بن همّام قال: حدّثنا حميد ابن زياد الكوفي قال: حدّثنا أحمد بن الحسن الميثمي عن رجل من أصحاب أبي عبد الله جعفر بن محمّد عليهما السلام أنّه قال: سمعته يقول: نزلت هذه الآيةُ في سورة الحديد ﴿ *ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبلُ فطال عليهِمُ الأمَدُ فقسَتْ قلوبُهم وكثيرٌ منهم فاسقون* ﴾ في أهل زمان الغَيبة، ثمّ قال عزّوجلّ: ﴿ *أنّ الله يُحيي الأرضَ بعدَ موتِها قد بيّنا لكُمُ الآياتِ لعلَّكم تعقِلُون* ﴾ [1] وقال:

إنّما الأمدُ أمدُ الغَيبة فإنّه أرادَ عزّوجلّ ياأُمّةَ محمّد أو يامعشرَ الشيعة، لا تكونوا كالذين أُوتوا الكتابَ من قبلُ فطالَ عليهِمُ الأمدُ، فتأويلُ هذه الآيةِ جاءَ في أهل زمانِ الغَيبة وأيّامها دون غيرهم من أهل الأزمنة وإنّ الله تعالىٰ نهى الشيعة عن الشكّ في حجّة الله تعالىٰ، أو أن يظنّوا أنّ الله تعالىٰ يُخلي أرضَهُ منها طرفةَ عين، كما قال أميرُ المؤمنينَ عليه السلام في كلامه لكميلِ بن زيادٍ: «بلىٰ اللّهُمَّ لا تخلو الأرضُ من حُجّةِ اللهِ إمّا ظاهِرٌ معلومٌ أو خائفٌ مغمورٌ، لئلا تبطُلَ حُجَجُ اللهِ وبيّناتُه» وحذّرَهُم من أن يشُكّوا ويرتابُوا، فيطولَ عليهِمُ الأمَدُ فتقسُوَ قلوبُهم.

ثمّ قال عليه السلام: ألا تسمَعُ قولَهُ تعالىٰ في الآية التالية لهذه الآية ﴿ *اعلَموا أنّ الله يُحيي الأرضَ بعدَ موتِها قد بيّنا لكُمُ الآياتِ لعلّكُمْ تعقِلون* ﴾ أي يحييها اللهُ بعدلِ القائمِ عندَ ظُهوره بعدَ موتها بجور أئمّة الضلال[2].

---

(١) الحديد: ١٧.

(٢) غَيبة النعماني: ٢٤، وقد تكون بعض التوضيحات في الحديث من قول الراوي وليس للإمام الصادق عليه السلام.

قسوة القلوب تُخرج من العبودية لله:

في الآية عتابٌ للمؤمنين علىٰ ما عرض لقلوبهم من القسوة وعدم خشوعها لذكر الله والحقّ النازل من عنده تعالىٰ وتشبيهٌ لحالهم بحال أهل الكتاب الّذين نزل عليهم الكتاب وطال عليهم الأمد فقست قلوبهم.... والقلب القاسي حيث يفقد الخشوع والتأثّر عن الحقّ ربما خرج عن زيّ العبودية فلم يتأثّر عن المناهي، واقترف الإثمّ والفسوق، ولذا أردف قوله: ﴿ *فقست قلوبهم* ﴾ بقوله: ﴿ *وكثيرٌ منهم فاسقون* ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ *اعلموا أنّ الله يحيي الأرض بعد موتها*... إلى آخر الآية ﴾ في تعقيب عتاب المؤمنين علىٰ قسوة قلوبهم بهذا التمثيل تقويةٌ لرجائهم وترغيبٌ لهم في الخشوع.

ويمكن أن يكون من تمام العتاب السابق ويكون تنبيهاً علىٰ أنّ الله لا يخلي هذا الدين علىٰ ما هو عليه الحال بل كلّما قست قلوبٌ وحرموا الخشوع لأمر الله جاء بقلوبٍ حيّةٍ خاشعةٍ له يُعبد بها كما يريد. فتكون الآية في معنىٰ قوله: ﴿ *هَاأنتُم هَؤلَاءِ تُدعَون لِتُنفِقُوا في سَبيلِ اللهِ فَمِنكُم مَن يبخَلُ وَمَن يَبخَلْ فَإنَّما يَبخَلُ عَن نَفسِهِ وَاللهُ الغنيُّ وأنتُمُ الفُقَراءُ وإن تَتَولَّوا يَستبدِل قَوماً غَيرَكُم ثُمّ لَا يَكُونُوا أمثَالَكُم* ﴾ [١]. ولذلك ذيل الآية بقوله: ﴿ *قد بيّنا لَكُم الآيات لَعلَّكُم تَعقِلُون* ﴾ [٢].

يُستفاد من التدبر في الآية الكريمة وتفسيرها المتقدّم والحديث الشريف المطبق لها علىٰ أهل زمان الغَيبة وأنّهم أحد مصاديق المخاطَبين بها أُمورٌ تحدّد

(١) محمّد: ٣٨.

(٢) تفسير الميزان: ١٩ / ١٦١ ـ ١٦٢.

تكليفاً مهمّاً لهم يتناسب مع صعوبات عصر الغَيبة وخاصّة فيما يرتبط بالإيمان بوجود الإمام الغائب وقيامه بمهامّ الإمامة، إذ من المعروف أنّ لوجود الإمام بصورةٍ ظاهرة تأثيراً بالغاً في ترسيخ الإيمان بالحقّ والحيلولة دون قسوة القلوب. وأبرز الدلالات المستفادة من الآية الكريمة والحديث الشريف فيما يرتبط بمعالجة هذه الحالة:

قطع طريق الشك وتقوية الإيمان:

١ـ النهي عن الشكّ في حجّة الله تعالىٰ أو الظنّ بإمكانية خلوّ الأرض من حجّة لله تعالىٰ يهدي إليه بأمره ويقود المؤمنين على الصراط المستقيم ولو بصورةٍ خفيّةٍ غير ظاهرة.

٢ـ التنبيه إلىٰ أنّ الشكّ في وجود الإمام الغائب عجّل الله فرجه وقيامه بمهامّ الأُمّة من خلف أستار الغَيبة، وبعد قيام الأدلّة النقلية والبراهين العقلية الكافية والشافية ـ أي بعدما نزل من الحقّ الساطع المدلّ علىٰ وجوده ـ يؤدّي إلىٰ قسوة القلوب وإعراضها عن الخشوع، الأمر الّذي يفقد المؤمن الحصانة الإلهيّة العاصمة له من الفسوق الّذي يمثّل أبرز الثمار الخبيثة لقسوة القلوب، وبالتالي يؤدّي إلى الخروج من صفّ المؤمنين.

٣ـ التنبيه إلىٰ أنّ الحيلولة دون هذا السقوط تكمن في تقوية الإيمان بالإمام الغائب حجّة الله علىٰ خلقه وترسيخ الاعتقاد بما نزل بشأنه من الحقّ ـ أي الأدلّة النقلية والعقلية الدالّة علىٰ وجوده ـ ثمّ تعزيز هذا الإيمان بالتدبّر في الآيات الدالّة عليه والمبيّنة لحتمية ظهوره، وإحياء الأرض بعدله بعد موتها من جور أئمّة الضلال، أو بالتدبّر في التحذير من أنّ الإعراض عن ذلك يعرّض الإنسان لنقمة

الاستبدال بآخرين يؤمنون بذلك، رغم كلّ الصعوبات ورغم كلّ أساليب محاربة هذه العقيدة وأصحابها، وإلى اتّساع محاربة أنصار القضية المهدوية. هؤلاء تشير الآية اللاحقة حسب الأحاديث المطبقة.

سادساً: الحذر من مكر الأعداء:

قوله تعالىٰ:

﴿ *وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ* ﴾[١]

١ـ روى العيّاشي في تفسيره بإسناده عن جميل بن درّاج قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ﴿ *وإن كان مكرُهم لِتزولَ منهُ الجبال* ﴾ وإنّ كان مكروا العبّاس[٢] بالقائم لتزول منه قلوب الرجال[٣].

٢ـ وروى الطوسي في أماليه قال: أخبرنا الحسين بن إبراهيم القزويني قال: أخبرنا [حدّثنا] أبو عبد الله محمّد بن وهبان قال: حدّثنا أبو القاسم علي ابن حبشي قال: حدّثنا أبو الفضل العبّاس بن محمّد بن الحسين قال: حدّثنا أبي قال: حدّثنا صفوان بن يحيى عن الحسين بن أبي غندر عن أبي بصير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: اتّقوا الله وعليكم بالطاعة لأئمّتكم، قولوا ما يقولون واصمتوا عمّا صمتوا، فإنّكم في سلطان من قال الله تعالى: ﴿ *وإن كان مكرُهم لِتزولَ منهُ الجبال* ﴾. فاتّقوا الله فإنّكم في هدنة، صلّوا في عشايرهم، واشهدوا جنايزهم،

---

(١) إبراهيم: ٤٦.
(٢) كذا في المصدر ولكن في تفسير البرهان «وإنّ مكر بني العبّاس...» وهو الظاهر.
(٣) تفسير العيّاشي: ٢ / ٢٣٥.

وأدّوا الأمانة إليهم، وعليكم بحجّ هذا البيت فأدمنوه، فإنّ في إدمانكمُ الحجّ دفع مكاره الدنيا عنكم وأهوال يوم القيامة[1].

ومعنى المقطع القرآني واضحٌ، فهو يدلّ على أنّ مكر المعادين من العظمة بحيث تزول منه الجبال، وتطبيقه على القضية المهدوية يشير إلى شدّة الحرب الّتي تشنّها الأطراف المعادية لخطّ الولاية الحقّة ضدّ العقيدة والحركة المهدوية والأهداف الّتي تحملها. وعليه، فالمستفاد منه لزوم أن يتّخذ المؤمنون الاجراءات المضادّة اللازمة لإحباط هذه الحرب والتشكيكات الّتي تثيرها، ويحفظوا إيمانهم وعقيدتهم السليمة القائمة على أدلّةٍ متينة، ويحفظوا حركتهم نحو تحقيق الأهداف المقدّسة لإمامهم المنتظر عجّل الله فرجه مع ملاحظة المكائد الخطيرة لأعداء هذه الأهداف. هذا هو الجانب الأوّل المستفاد من تطبيق مقطع الآية الكريمة.

الإعتصام بالعروة الوثقى:

أمّا الجانب الثاني فهو الّذي يشير إليه الحديث الثاني، فهو أن تكون مواجهة مكر الأعداء قائمة على أساس التمسّك بتقوى الله المحصنة للمؤمن من السقوط في هذه المكائد الخطيرة، والتزام عُرى طاعة الأئمّة المعصومين صلوات الله عليهم، فإنّهم هم سفن النجاة القادرة على إنقاذ راكبيها من جميع الأمواج العاتية.

ويُفهم من الحديث الثاني أنّ هذا التكليف عامّ يشمل طول فترة الانحراف وإبعاد خطّ الولاية الإلهيّة والإمامة المعصومة عن قيادة المسلمين خاصّةً في عهود إمامة الأئمّة الأحد عشر الظاهرين، حيث كانت محاربة هذا الخطّ الإيماني

---

(١) أمالي الشيخ الطوسي: ٢ / ٢٨٠.

علىٰ أشدّها. ولكن ذلك لا يمنع جريان هذا التكليف علىٰ عهد الغَيبة الكبرىٰ أيضاً لاستمرار حاكمية أعداء الحقّ خلالها، فتكون متابعة الأئمّة عليهم السلام بالعمل بما سبق من أوامرهم قبل غَيبة خاتمهم.

كما يُفهم من الحديث الثاني أنّ العمل بهذا التكليف لا ينبغي أن يؤدّي العزلة عن المجتمع الإسلامي، فهذا أحد الأهداف البارزة للأعداء. لذا يجب الاندماج بهذا المجتمع مع الحفاظ على القيم الإسلامية كاملة.

ولعلّ المقصود من «الهدنة» في الحديث الشريف هو ما يقابل الثورة الشاملة الحاسمة الّتي يقودها الإمام المهديّ عجّل الله فرجه، فليس في ذلك نهيٌ عن مواجهة الفساد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قدر المستطاع.

الفصل الثامن

الردّة والإفساد والغَيبة والتصحيح المهدوي

عزل الولاية الحقّة مصدر الفساد:

عرفنا من الفقرة الرابعة من الفصل الثاني من الباب الأول أنّ الآيات الكريمة المبيّنة للرؤية القرآنية تجاه القضية المهدوية أخبرت وبنصوص صريحة على وقوع الانحراف في الأُمّة الإسلامية في أواخر الزمان نتيجة تولّيهم اليهود والنصارىٰ وتقليدهم لهم ووقوع ظاهرة التغريب الخطيرة والمدمّرة في العالم الإسلامي وشيوعها بين المسلمين، وعرفنا هناك أنّ أحد أبعاد دَور الإمام المهديّ عجّل الله فرجه الشريف الّذي ذخره الله تعالىٰ للقيام به هو إنهاء هذا الانحراف وقطع دابر تبعية المسلمين للكافرين؛ واستعادة مقام ريادة البشرية للأُمّة الّتي هي خير أُمّة أُخرجت للناس.

وعرفنا هناك أنّ تلك الآيات الكريمة ـ وبالخصوص مطلع الآية ٥٤ من سورة المائدة ـ تصرّح بأنّ سرّ وبداية هذا الانحراف الّذي قاد المسلمين فيما بعد إلىٰ فقدان مقام ريادة البشرية الّذي حباهم به الله تبارك وتعالىٰ علىٰ يدي

رسوله الأكرم ﷺ، والسقوط بالتالي في ذلّ التبعية للغرب الكافر والابتلاء بمختلف انحرافاته الفكرية ـ من النزعات الإقليمية والقومية وغيرها ـ والأخلاقية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية. نقول إنّ بداية هذا الانحراف هو الارتداد عن الدين الحقّ الممثّل بخطّ الإمامة المعصومة للعترة النبوية الطاهرة الّتي أوصىٰ بها خاتم الأنبياء ﷺ وفرض الله على الناس مودّتها، لتكون هذه المودّة وسيلة التمسّك بها لكي تسير بالناس على المحجّة البيضاء والصراط المستقيم، وتحفظ للمسلمين مقام ريادة وقيادة المجتمع البشري في سبل السلام الحقّ.

فلو تمسكت الأُمّة الإسلامية بهذه العروة الوثقى الّتي قرنها الرسول الأعظم بالقرآن الكريم وجعلهما معاً وسيلة النجاة من الضلالة لما سقطت في الانحرافات الخطيرة الّتي قادتهم إلىٰ مستنقع ذلّ التبعية للكافرين.

هذه الحقيقة تنبّه لها مجموعة من الآيات الكريمة الّتي تنبأت مباشرةً أو استناداً إلى الأحاديث الشريفة المؤوّلة لها بوقوع هذه الانحرافات وبالذات عن خطّ الإمامة المعصومة من العترة الطاهرة، وحدّدت دور الإمام المهديّ عليه السلام في إنهاء هذا الانحراف والانتقام من أئمّة الكفر المحاربين للإمامة المعصومة وإعادة الحقوق المغصوبة لأهلها.

نبدأ أوّلاً بعرض هذه الآيات والأحاديث المطبقة لها وتفسير ظواهرها، ثمّ نتطرّق إلىٰ تحليلها وتسجيل دلالاتها.

أوّلاً: تكرار الإفساد الإسرائيلي:

قوله تعالىٰ:

﴿وَقَضينا إلىٰ بَني إسرائيلَ فِي الكِتاب لَتُفسِدُنَّ في

الأرضِ مَرَّتينِ وَلَتعْلُنَّ عُلوّاً كبيراً ـ إلى قوله : ـ وَجعَلناكُم أكثَرَ نَفِيراً ﴾[١]

١ ـ روىٰ محمّد بن يعقوب الكليني عن عدّة من أصحابنا عن سهل بن زياد عن محمّد بن الحسن بن شمّون عن عبد الله بن عبد الرحمن الأصمّ عن عبد الله ابن القاسم البطل عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالىٰ: ﴿ *وقضينا إلىٰ بني إسرائيل في الكتاب لتفسِدُنَّ في الأرض مرّتينِ* ﴾ قال: قتل علي بن أبي طالب وطعن الحسن عليهما السلام ﴿ *ولتعلُن علوّاً كبيراً* ﴾ قال: قتل الحسين عليه السلام ﴿ *فإذا جاء وعد أولاهما* ﴾ فاذا جاء نصر دم الحسين عليه السلام ﴿ *بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديدٍ فجاسوا خلال الديار* ﴾ قومٌ يبعثهم الله قبل خروج القائم عليه السلام فلا يدعون وتراً لآل محمّد إلّا قتلوه ﴿ *وكان وعداً مفعولاً* ﴾ خروج القائم عليه السلام ﴿ *ثمّ رددنا لكمُ الكرّة عليهم* ﴾ خروج الحسين عليه السلام في سبعين من أصحابه عليهم البَيضُ المذهّب لكلّ بيضة وجهان، المؤدّون إلى الناس أنّ هذا الحسين عليه السلام قد خرج حتّى لا يشكّ المؤمنون فيه، وأنّه ليس بدجّالٍ ولا بشيطان، والحجّة القائم عليه السلام بين أظهرهم، فإذا استقرّت المعرفة في قلوب المؤمنين أنّه الحسين عليه السلام جاء الحجّةَ الموتُ، فيكون الّذي يغسّله ويكفّنه ويحنّطه ويلحّده في حفرته الحسين بن علي عليهما السلام ولا يلي الوصيَّ إلّا الوصيّ[٢].

٢ ـ وروى الشيخ الثقة الجليل أبو القاسم جعفر بن محمّد بن قولويه في كتابه القيّم كامل الزيارات قال: حدّثني محمّد بن جعفر القرشي الرزّاز قال: حدّثني محمّد بن الحسين بن أبي الخطّاب عن موسى بن سعدان الحنّاط عن عبد الله بن

---

(١) الإسراء: ٤ ـ ٦.

(٢) الكافي: ٨ / ٢٠٥، والحديث مروي في تأويل الآيات الظاهرة: ١ / ٢٧٧ بتفاوت، وفي مختصر بصائر الدرجات: ٤٨.

قاسم الحضرمي عن صالح بن سهل عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزّوجلّ: ﴿وقضينا إلىٰ بني إسرائيلَ في الكتاب لتُفسِدُنَّ في الأرض مرَّتينِ﴾ قال: قتل أميرالمؤمنين عليه السلام وطعن الحسن بن علي عليه السلام. ﴿ولتعلُن علّواً كبيراً﴾ قال: قتل الحسين بن علي عليهما السلام ﴿فإذا جاء وعد أُولاهما﴾ قال: إذا جاء نصر الحسين عليه السلام ﴿بَعَثنا عَلَيكُم عِباداً لَنا أُولي بَأسٍ شَديدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيار﴾ قوماً يبعثهمُ الله قبل قيام القائم عليه السلام لا يدعون وتراً لآل محمّد إلّا أخذوه. ﴿وكان وعداً مفعولاً﴾[1].

٣ـ وروىٰ رضوان الله عليه أيضاً في الكتاب المذكور قال: حدّثني محمّد بن جعفر الكوفي الرزّاز عن محمّد بن الحسين بن أبي الخطّاب عن موسى بن سعدان [عن أبي عبد الله عن القاسم] الحضرمي عن صالح بن سهل عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وقضينا إلىٰ بني إسرائيلَ في الكتاب لتُفسِدُنَّ في الأرض مرَّتينِ﴾ قال: قتل علي عليه السلام وطعن الحسن عليه السلام ﴿ولتعلُنّ علّواً كبيراً﴾ قال: قتل الحسين عليه السلام[2].

٤ـ وروى الشيخ الجليل الثقة العيّاشي في تفسيره بإسناده عن صالح بن سهل عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله: ﴿وقضينا إلىٰ بني إسرائيلَ في الكتاب لتُفسِدُنَّ في الأرض مرَّتينِ﴾ قال: قتل علي وطعن الحسن عليهما السلام ﴿ولتعلُنّ علّواً كبيراً﴾ قتل الحسين ﴿فإذا جاء وعد أُولاهُما﴾ فاذا جاء نصر دم الحسين عليه السلام ﴿بعثنا عليكم عباداً لنا أُولي بأسٍ شديد فجاسوا خلال الديار﴾ قوم يبعثهمُ الله قبل خروج القائم عليه السلام لا يدعون وتراً لآل محمّد صلى الله عليه وآله إلّا حرقوه ﴿وكان وعداً مفعولاً﴾ قبل قيام القائم عليه السلام. ﴿ثُمّ رَدَدنَا لَكُم الكَرَّةَ عَلَيهم وَأمدَدنَاكُم بِأموَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلنَاكُم أكثَرَ

---

(١) كامل الزيارات: ٦٢.

(٢) كامل الزيارات: ٦٤.

نَفِيراً﴾ خروج الحسين عليه السلام في الكرّة في سبعين رجلاً من أصحابه الّذين قُتلوا معه، عليهم البَيض المذّهب لكلّ بيضة وجهان، المؤدي إلى الناس أنّ الحسين قد خرج في أصحابه حتّى لا يشكّ فيه المؤمنون، وأنّه ليس بدجّالٍ ولا شيطان، الإمام الّذي بين أظهر الناس يومئذٍ، فإذا استقرّ عند المؤمن أنّه الحسين عليه السلام لا يشكّون فيه، وبلغ عن الحسين الحجّة القائم عليه السلام بين أظهر الناس وصدّقه المؤمنون بذلك، جاء الحجّة الموتُ فيكون الّذي غسّله وكفّنه وحنّطه وإيلاجه في حفرته الحسين ولا يلي الوصيَّ إلّا الوصيُّ، وزاد إبراهيم في حديثه ثمّ يملكهم الحسين حتّى يقع حاجباه على عينيه[1].

٥ـ وروىٰ رحمه الله بإسناده عن حمران عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان يقرأ ﴿ *بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأسٍ شديد* ﴾ ثمّ قال: هو القائم وأصحابه أُولي بأسٍ شديد[2].

٦ـ وقال علي بن إبراهيم في تفسيره: وخاطب الله أُمّة محمّد صلى الله عليه وآله فقال: ﴿ *لتُفسدنّ في الأرض مرّتين* ﴾ يعني فلاناً وفلاناً وأصحابهما ونقضهم العهد ﴿ *ولتعلُنّ علوّاً كبيراً* ﴾ يعني ما ادّعوه من الخلافة ﴿ *فإذا جاء وعد أُولاهما* ﴾ يعني يوم الجمل ﴿ *بعثنا عليكم عباداً لنا أُولي بأسٍ شديد* ﴾، يعني أميرالمؤمنين صلوات الله عليه وأصحابه ﴿ *فجاسوا خلال الديار* ﴾ أي طلبوكم وقتلوكم ﴿ *وكان وعداً مفعولاً* ﴾ يتمّ ويكون.

﴿ *ثمّ رددنا لكم الكرّة عليهم* ﴾ يعني بني أُمية علىٰ آل محمّد ﴿ *وأمددناكم بأموالٍ وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً* ﴾ من الحسن والحسين ابني عليّ عليهما السلام وأصحابهما، فقتلوا الحسين بن علي وسبوا نساء آل محمّد.

---

(١) تفسير العيّاشي: ٢ / ٢٨١.
(٢) المصدر السابق.

﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة﴾ يعني القائم ـ صلوات الله عليه ـ وأصحابه ﴿ليسوؤا وجوهكم﴾ يعني يسودون وجوههم ﴿وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة﴾، يعني رسول الله ﷺ وأصحابه وأميرالمؤمنين ﷺ وأصحابه ﴿وليتبروا ما علوا تتبيراً﴾، أي: يعلوا عليكم فيقتلوكم.

ثمّ عطف على آل محمّد ﷺ فقال: ﴿عسىٰ ربكم أن يرحمكم﴾ أي ينصركم علىٰ عدوّكم.

ثمّ خاطب بني أُمية فقال: ﴿وإن عدتم عدنا﴾ يعني إن عدتم بالسفياني عدنا بالقائم من آل محمّد ﷺ ﴿وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً﴾ أي حبساً يُحصرون فيها[1].

تفسير آيات سورة الإسراء:

وقد وردت بشأن هذه الآيات الكريمة النازلة بشأن تجربة بني إسرائيل تطبقها على انحرافات مماثلة وقعت في المسيرة الإسلامية من الإفساد والعلوّ المماثل لما جرىٰ في التجربة الإسرائيلية. كما وردت بعض التفسيرات المطبقة للآيات على العلاقة بين المسلمين واليهود بعد البعثة النبوية[2]. فلنبدأ أوّلاً بنقل أصل الآيات الكريمة، ثمّ نسجّل الدلالات المستفادة من تطبيقها على القضية المهدوية.

يقول العلّامة الطباطبائي في تفسير هذه الآيات:

---

(١) تفسير القمّي: ٢ / ١٣.

(٢) راجع مثلاً كتاب «زوال إسرائيل حتمية قرآنية» للشيخ أسعد بيوض التميمي.

قوله تعالىٰ: ﴿ وقضينا إلىٰ بني إسرائيلَ في الكتاب لتُفسِدُنَّ في الأرض مرَّتينِ ولتعلُنَّ عُلواًكبيراً ﴾ قال الراغب في المفردات: القضاء فصل الأمر قولاًكان ذلك أو فعلاً، وكلّ واحدٍ منهما على وجهين: إلهي وبشري، فمن القول الإلهيّ قوله: ﴿ وَقَضى رَبُّكَ أن لا تَعبُدوا إلّا إيّاهُ ﴾[1] أي أمر بذلك، وقال: ﴿ وقَضَينا إلى بني إسرائيل في الكتاب ﴾ فهذا قضاءٌ بالإعلام والفصل في الحكم، أي أعلمناهم وأوحينا إليهم وحياً جزماً وعلى هذا ﴿ وَقَضينَا إلَيهِ ذَلِكَ الأَمرَ أنَّ دَابِرَ هَـؤُلاءِ مَقطُوعٌ ﴾[2].

ومن الفعل الإلهيّ قوله: ﴿ واللهُ يَقضِي بِالحقِّ وَالَّذِينَ يَدعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقضُونَ بِشَيء ﴾[3]، وقوله: ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبعَ سَمَاوات في يَومين ﴾[4] إشارة إلى إيجاده الإبداعي والفراغ منه نحو: ﴿ بَدِيعُ السَّمَاواتِ وَالأَرضِ ﴾[5].

قال: ومن القول البشري نحو: قضى الحاكم بكذا، فإنّ حكم الحاكم يكون بالقول، ومن الفعل البشري ﴿ فَإذا قَضَيتُم مَّناسِكَكُم ﴾[6]، ﴿ ثُمّ لْيَقضُوا تَفَثَهُم وَلْيُوفُوا نُذُورَهُم ﴾[7]، إنتهى موضع الحاجة.

والعلوّ هو الارتفاع، وهو في الآية كناية عن الطغيان بالظلم والتعدّي، ويشهد بذلك عطفه على الإفساد عطف التفسير، وفي هذا المعنى قوله: ﴿ إنّ فِرعَونَ عَلا

---

(١) الإسراء: ٢٣.
(٢) الحِجر: ٦٦.
(٣) غافر: ٢٠.
(٤) فصّلت: ١٢.
(٥) البقرة: ١١٧، الأنعام: ١٠١.
(٦) البقرة: ٢٠٠.
(٧) الحجّ: ٢٩.

﴿ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً ﴾[1].

ومعنى الآية: وأخبرنا وأعلمنا بني إسرائيل إخباراً قاطعاً في الكتاب وهو التوراة: أُقسم وأُحقّ هذا القول إنكم شعب إسرائيل ستفسدون في الأرض وهي أرض فلسطين وما يتبعها مرّتين، مرّة بعد مرّة، وتعلون علوّاً كبيراً، وتطغون طغياناً عظيماً.

قوله تعالىٰ: ﴿ فإذا جاء وعد أُولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا...إلخ ﴾.

قال الراغب: البؤس والبأس والبأساء الشدّة والمكروه، إلّا أنّ البؤس في الفقر والحرب أكثر والبأس والبأساء في النكاية، نحو: ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً﴾[2]. إنتهى موضع الحاجة.

وفي المجمع: الجوس التخلّل في الديار، يقال: تركت فلان يجوس بني فلان ويجوسهم ويدوسهم أي يطأُهم. قال أبو عبيد: كلّ موضع خالطته ووطأته فقد حسته وجسته، قال: وقيل: الجوس طلب الشيء باستقصاء، إنتهى.

وقوله: ﴿ فإذا جاء وعد أُولاهما ﴾ تفريع على قوله: ﴿ لتفسدنّ...إلخ ﴾ وضمير التثنية راجع إلى المرّتين، وهما الإفسادتان، فالمراد بها الإفسادة الأُولى، والمراد بوعد أُولاهما ما وعدهم الله من النكال والنقمة على إفسادهم، فالوعد بمعنى الموعود، ومجيء الوعد كناية عن وقت انجازه، ويدلّ ذلك على أنّه وعدهم على إفسادهم مرّتين وعدين، ولم يذكرا إنجازاً فكأنّه قيل: لتفسدنّ في الأرض مرّتين، ونحن نعدكم الانتقام على كلٍّ منهما، فإذا جاء وعد المرّة الأُولى... إلخ، كلّ ذلك معونة السياق.

وقوله: ﴿ بعثنا عليكم عباداً لنا أُولي بأسٍ شديد ﴾ أي أنهضناهم وأرسلناهم

---

(١) القصص: ٤.

(٢) النساء: ٨٤.

إليكم ليذلّوكم وينتقموا منكم، والدليل على كون البعث للانتقام والإذلال قوله: ﴿ *أولي بأسٍ شديد*...إلخ ﴾.

ولا ضير في عدّ مجيئهم إلى بني إسرائيل مع ماكان فيه من القتل الذريع والأسر والسبي والنهب والتخريب بعثاً إلهياً، لأنّه كان على سبيل المجازاة على إفسادهم في الأرض وعلوّهم وبغيهم بغير الحقّ، فما ظلمهم الله ببعث أعدائهم وتأييدهم عليهم ولكن كانوا هم الظالمين لأنفسهم.

وبذلك يظهر أن لا دليل من الكلام يدل على قول من قال: إنّ المراد بقوله: ﴿ *بعثنا عليكم*...إلخ ﴾ أمرنا قوماً مؤمنين بقتالكم وجهادكم لاقتضاء ظاهر قوله: «بعثنا» وقوله: «عباداً» ذلك، وذلك لما عرفت أنّ عدّ ذلك بعثاً إلهياً لا مانع فيه بعد ماكان على سبيل المجازاة، وكذا لا مانع من عدّ الكفّار عباداً لله مع ما تعقّبه من قوله: ﴿ *أولي بأسٍ شديد* ﴾.

ونظيره قول من قال: يجوز أن يكون هؤلاء المبعوثون مؤمنين أمَرهم الله بجهاد هؤلاء، ويجوز أن يكونوا كفّاراً فتألّفهم نبيّ من الأنبياء لحرب هؤلاء وسلّطهم على أمثالهم من الكفّار والفسّاق، ويرد عليه نظير ما يرد على سابقه.

وقوله: ﴿ *وكان وعداً مفعولاً* ﴾ تأكيدٌ لكون القضاء حتماً لازماً، والمعنى: فإذا جاء وقت الوعد الّذي وعدناه على المرّة الأُولى من إفسادكم مرّتين بعثنا وأنهضنا عليكم من الناس عباداً لنا أُولي بأسٍ وشدّةٍ شديدة، فدخلوا بالقهر والغلبة أرضكم وتوسّطوا في دياركم فأذلّوكم، وأذهبوا استقلالكم وعلوّكم وسؤددكم، وكان وعداً مفعولاً لا محيص عنه.

قوله تعالى: ﴿ *ثمّ رددنا لكم الكرّة عليهم وأمددناكم بأموالٍ وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً* ﴾ قال في المجمع: الكرّة معناه الرجعة والدولة، والنفير العدد من الرجال قال الزجّاج: ويجوز أن يكون جمع نفر كما قيل: العبيد والضئين والمعيز

والكليب، ونفر الإنسان ونفره ونفيره ونافرته رهطه الّذين ينصرونه وينفرون معه، إنتهى.

ومعنى الآية ظاهر، وظاهرها أنّ بني إسرائيل ستعود الدولة لهم على أعدائهم بعد وعد المرّة الأُولى فيغلبونهم ويقهرونهم ويتخلّصون من استعبادهم واسترقاقهم، وأنّ هذه الدولة سترجع إليهم تدريجاً في برهة معتدّ بها من الزمان كما هو لازم إمدادهم بأموالٍ وبنين وجعلهم أكثر نفيراً.

وفي قوله في الآية التالية: ﴿ *إن أحسنتم أحسنتم لأنفُسكم وإن أسأتم فلها* ﴾ إشعارٌ بل دلالةٌ بمعونة السياق أنّ هذه الواقعة وهي ردّ الكرّة لبني إسرائيل على أعدائهم إنّما كانت لرجوعهم إلى الإحسان بعد ما ذاقوا وبال إساءتهم قبل ذلك. كما أنّ إنجاز وعد الآخرة إنّما كان لرجوعهم ثانياً إلى الإساءة بعد رجوعهم هذا إلى الإحسان.

قوله تعالىٰ: ﴿ *إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها* ﴾ اللام في «لأنفسكم» و«فلها» للاختصاص أي أنّ كلاً من إحسانكم وإساءتكم يختصّ بأنفسكم دون أن يلحق غيركم، وهي سنّة الله الجارية أنّ العمل يعود أثره وتبعته إلى صاحبه إن خيراً وإن شرّاً، فهو كقوله: ﴿ *تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُم* ﴾[1].

فالمقام مقام بيان أنّ أثر العمل لصاحبه خيراً كان أو شرّاً، وليس مقام بيان أنّ الإحسان ينفع صاحبه والإساءة تضرّه حتّى يقال: وإن أسأتم فعليها، كما قيل: ﴿ *لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ* ﴾[2].

---

(١) البقرة: ١٤١.

(٢) البقرة: ٢٨٦.

فلا حاجة إلى ما تكلّفه بعضهم أنّ اللام في قوله: ﴿ وإن أسأتم فلها ﴾ بمعنى على، وقول آخرين: إنّها بمعنى إلى، لأنّ الإساءة تتعدّى بها، يقال: أساء إلى فلان ويسيء إليه إساءةً، وقول آخرين: إنّها للاستحقاق كقوله: ﴿ وَلَهُم عَذابٌ أليم ﴾(١).

وربّما أورد على كون اللام للاختصاص بأنّ الواقع على خلافه فكثيراً ما يتعدّى أثر الإحسان إلى غير محسنه وأثر الإساءة إلى غير فاعلها، وهو ظاهر.

والجواب عنه أنّ فيه غفلة عمّا يراه القرآن الكريم في آثار الأعمال، أمّا آثار الأعمال الأُخروية فإنّها لا تتعدّى صاحبها البتة، قال تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيهِ كُفرُهُ ومَن عَمِلَ صَالِحاً فلأنفُسِهِم يَمهدُون ﴾(٢)، وأمّا الآثار الدنيوية فإنّ الأعمال لا تؤثّر أثراً في غير فاعلها إلّا أن يشاء الله من ذلك شيئاً على سبيل النعمة على الغير أو النقمة أو الابتلاء والامتحان، فليس في مقدرة الفاعل أن يوصل أثر فعله إلى الغير دائماً إلّا أحياناً يريده الله، لكنّ الفاعل يلحقه أثر، فعليه الحسن أو السيئ دائماً من غير تخلّف.

فللمحسن نصيبٌ من إحسانه وللمسيء نصيبٌ من إساءته، قال تعالى: ﴿ فَمَن يَعمَل مِثقَالَ ذَرّةٍ خَيراً يَرَهُ * وَمَن يَعمَل مِثقَالَ ذَرّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾(٣)، فأثر الفعل لا يفارق فاعله إلى غيره، وهذا معنى ما روي عن علي ﷺ أنّه قال: ما أحسنتم إلى أحدٍ ولا أسأت إليه، وتلا الآية.

قوله تعالى: ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ليسؤوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما

---

(١) البقرة: ١٠ و ١٧٤، آل عمران: ٧٧ و ١٧٧ و ١٨٨، المائدة: ٣٦، التوبة: ٧٩، النحل: ٦٣ و ١٠٤ و ١١٧، الحشر: ١٥، التغابن: ٥.

(٢) الروم: ٤٤.

(٣) الزلزلة: ٧ و ٨.

دخلوه *أوّل مرّةٍ وليُتبّروا ما علَوا تتبيراً* ﴾ التتبير الإهلاك من التبار بمعنى الهلاك والدمار.

وقوله: ﴿ *ليسؤوا وجوهكم* ﴾ من المساءة يقال: ساء زيد فلاناً اذا أحزنه، وهو على ما قيل متعلّق بفعل مقدّر محذوف للإيجاز، واللام للغاية والتقدير: بعثناهم ليسؤوا وجوهكم بظهور الحزن والكآبة فيها وبدو آثار الذلّة والمسكنة وصغار الاستعباد عليها بما يرتكبونه فيكم من القتل الذريع والسبي والنهب.

وقوله: ﴿ *وليدخلوا المسجد كما دخلوه أوّل مرّة* ﴾ المراد بالمسجد هو المسجد الأقصى ـ بيت المقدس ـ ولا يعبأ بما ذكره بعضهم أنّ المراد به جميع الأرض المقدّسة مجازاً، وفي الكلام دلالة، أوّلاً أنهم في وعد المرّة الأُولى أيضاً دخلوا المسجد عنوةً وإنّما لم يذكر قبلاً للإيجاز، وثانياً أنّ دخولهم المسجد إنّما كان للهتك والتخريب، وثالثاً يشعر الكلام بأنّ هؤلاء المهاجمين المبعوثين لمجازاة بني إسرائيل والانتقام منهم هم الّذين بعثوا عليهم أوّلاً.

وقوله: ﴿ *وليتبّروا ما علَوا تتبيراً* ﴾ أي ليهلكوا الّذي غلبوا عليه إهلاكاً فيقتلوا النفوس ويحرقوا الأموال ويهدموا الأبنية ويخربوا البلاد، واحتمل أن يكون «ما» مصدرية بحذف مضاف، وتقدير الكلام: وليتبّروا مدّة علوّهم تتبيراً، والمعنى الأول أقرب إلى الفهم وأوفق بالسياق.

والمقايسة بين الوعدين، أعني قوله: ﴿ *بعثنا عليكم عباداً لنا*...إلخ ﴾ وقوله: ﴿ *ليسؤوا وجوهكم*...إلخ ﴾ الخ يعطي أنّ الثاني كان أشدّ على بني إسرائيل وأمرّ، وقد كادوا أن يفنوا ويبيدوا فيه عن آخرهم، وكفى في ذلك قوله تعالى: ﴿ *وليتبّروا ما علَوا تتبيراً* ﴾.

والمعنى: فإذا جاء وعد المرّة الآخرة ـ وهي الثانية من الإفسادتين ـ بعثناهم

ليسؤوا وجوهكم بظهور الحزن والكآبة وبدو الذلّة والمسكنة، وليدخلوا المسجد الأقصى كما دخلوه أوّل مرّة، وليهلكوا الّذي غلبوا عليه ويفنوا الّذي مرّوا عليه إهلاكاً وإفناءً.

قوله تعالىٰ: ﴿ *عسى ربّكم أن يرحمكم وإن عُدتم عُدنا وجعلنا جهنّم للكافرين حصيراً* ﴾ الحصير من الحصر وهو ـ على ما ذكروه ـ التضييق والحبس قوله تعالىٰ: ﴿ *واحصُرُوهُم* ﴾[1] أي ضيّقوا عليهم.

وقوله: ﴿ *عسى ربّكم أن يرحمكم* ﴾ أي بعد البعث الثاني على ما يفيده السياق وهو ترجٍّ للرحمة على تقدير أن يتوبوا ويرجعوا إلى الطاعة والإحسان بدليل قوله: ﴿ *وإن تعودوا نعُد* ﴾ أي وإن تعودوا إلى الإفساد والعلوّ بعد ما رجعتم عنه ورحمكم ربّكم نعُد إلى العقوبة والنكال، وجعلنا جهنّم للكافرين حصيراً ومكاناً حابساً لا يستطيعون منه خروجاً.

وفي قوله: ﴿ *عسى ربّكم أن يرحمكم* ﴾ التفاتٌ من التكلّم مع الغير إلى الغَيبة وكأنّ الوجه فيه الإشارة إلى أنّ الأصل الّذي يقتضيه ربوبيته تعالى أن يرحم عباده إن جروا على ما يقتضيه خلقتهم ويرشد إليه فطرتهم إلّا أن ينحرفوا عن خطّ الخلقة ويخرجوا عن صراط الفطرة. والإيماء إلى هذه النكتة يوجب ذكر وصف الرب، فاحتاج السياق أن يتغيّر عن التكلّم مع الغير إلى الغَيبة، ثمّ لمّا استوفيت النكتة بقوله: ﴿ *عسى ربّكم أن يرحمكم* ﴾ عاد الكلام إلى ما كان عليه.

ثمّ أشار ﷺ في بحثه الروائي إلى بعض الروايات الواردة بشأن هذه الآيات فقال: في تفسير البرهان عن ابن قولويه بإسناده عن صالح بن سهل عن

---

(١) التوبة: ٥.

أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزّوجلّ: ﴿ *وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدنّ في الأرض مرّتين* ﴾ قال: قتل أمير المؤمنين وطعن الحسن بن علي عليه السلام ﴿ *ولتعلنّ علواً كبيراً* ﴾ قال: قتل الحسين عليه السلام ﴿ *فإذا جاء وعد أولاهما* ﴾ قال: إذا جاء نصر الحسين ﴿ *بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار* ﴾ قوم يبعثهم الله قبل قيام القائم لا يدعون لآل محمّد وتراً إلّا أخذوه ﴿ *وكان وعداً مفعولاً* ﴾.

أقول: وفي معناها روايات أُخرى وهي مسوقة لتطبيق ما يجري في هذه الأُمّة من الحوادث على ما جرى منها في بني إسرائيل تصديقاً لما تواتر عن النبيّ صلى الله عليه وآله.

هذه الأُمّة ستركب ما ركبته بنو إسرائيل حذوَ النعل بالنعل والقذة بالقذة حتّى لو دخلوا جحر ضبّ لدخله هؤلاء، وليست الروايات واردة في تفسير الآيات، ومن شواهد ذلك اختلاف ما فيها من التطبيق[1].

تطبيق الآيات على الواقع الإسلامي:

يتّضح ممّا تقدّم أن لا مانع من تطبيق مضمون الآيات الكريمة على ما يرتبط بالقضية المهدوية خاصّةً مع ما تواتر عند المسلمين بمختلف طوائفهم من هذه الأُمّة ستركب ما ركبته بنو إسرائيل بالكامل. وحيث إنّ تأريخ بني إسرائيل شهد مرحلتين رئيسيتين من مراحل الإفساد والعلوّ في الأرض فلا شكّ أنّ المسلمين سيقعون بمثل ذلك، فيمكن تطبيق الآيات المذكورة حتّى لو لم ترد أحاديث في تطبيقها على مسيرة المسلمين، وما تذكره الأحاديث الشريفة

(١) تفسير الميزان: ١٣ / ٣٨ ـ ٤٣.

المطبقة لهذه الآيات علىٰ مسيرة المسلمين قد يكون نماذج بارزة لما جرىٰ عليهم من مرحلتي الإفساد هاتين.

وعلىٰ أيّ حال، فإنّ التدبّر في تفسير هذه الآيات الكريمة وفي الأحاديث المطبقة لها على القضية المهدوية يوصل إلى عدّة من الحقائق والدلالات نكتفي بالإشارة إلى بعضها فيما يرتبط بموضوع البحث:

إخبار النبيّ بتكرار الإفساد الإسرائيلي:

مثلما أنّ بني إسرائيل أخبروا بوقوع هذا الإفساد والعلوّ في التوراة فإنّ تطبيق الآيات علىٰ مسيرة المسلمين يفيد حصول إخبارهم بوقوع مثل ذلك في مسيرتهم، وهذا الإخبار جاء علىٰ لسان النبيّ ﷺ مراراً في مواطن كثيرة، وقد تناقل ذلك المسلمون ودوّنته المجاميع الحديثية المعتبرة عند فِرق المسلمين كافّة كالكتب الستّة المعتبرة عند أهل السنّة وغيرها، وما ورد عن طريق مصادر الحديث عند الإمامية أكثر وأصرح وأوضح تحديداً. وسنتطرّق لذلك في الكتاب الثاني من هذه الموسوعة المخصّص لإثبات وجود المهديّ وغَيبته استناداً لما اتّفق المسلمون علىٰ روايته عن سيّد الرسل ﷺ.

أمّا في القرآن الكريم فقد ورد الإخبار بذلك بصورةٍ مجملة في العديد من الآيات الكريمة، مثل آيات سورة المائدة (٥١ ـ ٥٤) ـ والّتي تقدّم الحديث عنها[١] ـ ونظائرها خاصّة المتحدّثة عن موضوع الاستبدال، ومثل آية الرؤيا والشجرة الملعونة في القرآن الكريم.

---

(١) في صفحة ١٥١.

الانحرافات والتمحيص والمحق:

١ـ إنّ السماح بوقوع هذه الانحرافات يأتي استجابةً لمقتضيات قانون التمحيص والمحق والإمتحان الإلهيّ، كما يُستفاد ذلك من العقوبات الإلهيّة على الانحرافات تطبيقاً لسنّة الله الجارية في خلقه والّتي يبيّنها قوله تعالىٰ: ﴿ *إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم*... الآية ﴾.

٢ـ إنّ وقوع هذا الانحراف والإفساد يقود المجتمع الإسلامي إلى الذلّة وضياع الاستقلال والسؤدد والخضوع لسلطة الأعداء، وفي ذلك تأييد لما نصّت عليه آيات سورة المائدة من تحوّل المسلمين إلى أتباع لليهود والنصارىٰ.

٣ـ والمستفاد من مجمل الأحاديث المطبقة لهذه الآيات الكريمة أنّ مبدأ الانحراف يكون بإقصاء خطّ الولاية الإلهيّة المعصومة ويبلغ ذروته بمحاربته واغتيال أئمّته والتسبيب بغَيبة الثاني عشر منهم.

٤ـ وأنّ هذه الانحرافات تستتبع انتقاماً إلهياً من المنحرفين، كما أنّها تثمر من جهةٍ أُخرىٰ غربلة المؤمنين وظهور خطّ جهاديٍّ حازمٍ وصلب يجاهد في معاقبة المنحرفين، فلا يدع وتراً لآل محمّد ـ أي مظلومية للدين الحقّ ـ إلّا ثأر لها وانتقم من مسببيها، وهذا الخطّ منصورٌ بالقدرة الإلهيّة. ويُفهم من ذلك ظهور تحرّك إيمانيّ قويّ لمواجهة الانحراف يسبق ظهور الإمام المهديّ عجّل الله فرجه ويمثّل ثمرة لسنّة التمحيص والغربلة والمحق الإلهيّة.

ويُستفاد بذلك ممّا تقدّم أنّ وقوع هذه الانحرافات تطبيق لهذه السنّة الّتي عرفنا أن غَيبة الإمام إحدىٰ وسائلها التنفيذية، كما تقدّم الحديث عن ذلك في الآيات المبيّنة لعلّة الغَيبة، وهذا المعنى تصرّح به الآية اللاحقة بلغةٍ أوضح وهي:

ثانياً: فتنة الشّجرة الملعونة في القرآن:

قوله تعالىٰ:

﴿وَإِذ قُلنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرينَاكَ إِلَّا فِتنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ المَلعُونَةَ فِي القُرآنِ وَنُخَوِّفُهُم فَمَا يَزِيدُهُم إِلَّا طُغيَاناً كَبِيراً﴾[1]

تتحدّث الآية الكريمة عن فتنةٍ للناس تسبّبها لهم جهةٌ محدّدة في الآية بوصف «الشجرة الملعونة في القرآن»، والآية الكريمة من آيات الملاحم القرآنية المتحدّثة عن المستقبل الإسلامي بلا ريب، نبدأ أوّلاً بذكر تفسيرها من «الميزان» حيث يقول مؤلّفه العلّامة الطباطبائي:

فقرات الآية ـ وهي أربع ـ واضحة المعاني لكنّها بحسب ما بينها من الاتّصال وارتباط بعضها ببعض لا تخلو من إجمال، والسبب الأصلي في ذلك إجمال الفقرتين الوُسطيين الثانية والثالثة.

فلم يبيّن سبحانه ما هذه الرؤيا الّتي أراها نبيّه ﷺ ولم يقع في سائر كلامه ما يصلح لأن يفسّر به هذه الرؤيا، والّذي ذكره من رؤياه في مثل قوله: ﴿إِذ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَو أَرَاكَهُم كَثِيراً لَفَشِلتُم﴾[2] وقوله: ﴿لَقَد صَدَقَ اللهُ رَسُولَه الرُّؤيَا بِالحَقِّ لَتَدخُلُنَّ المَسجِدَ الحَرَامَ﴾[3] من الحوادث الواقعة بعد الهجرة، وهذه الآية مكّية نازلة قبل الهجرة.

ولا يدري ما هذه الشجرة الملعونة في القرآن الّتي جعلها فتنةً للناس، ولا

---

(١) الإسراء: ٦٠.

(٢) الأنفال: ٤٣.

(٣) الفتح: ٣٧.

توجد في القرآن شجرة يذكرها الله ثمّ يلعنها، نعم ذكر سبحانه شجرة الزقّوم ووصفها بأنها فتنة كما في قوله ﴿أَم شَجَرَةُ الزَّقُّوم * إِنَّا جَعَلنَاهَا فِتنَةً لِلظَّالِمِين﴾ [1]، لكنّه سبحانه لم يلعنها في شيءٍ من المواضع الّتي ذكرها، ولو كان مجرّد كونها شجرة تخرج في أصل الجحيم وسبباً من أسباب عذاب الظالمين موجباً للعنها لكانت النار وكلّ ما أعدّ الله فيها للعذاب ملعونة، ولكانت ملائكة العذاب ـ وهم الّذين قال تعالى فيهم: ﴿وَمَا جَعَلنَا أَصحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلنَا عِدَّتَهمْ إِلَّا فِتنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [2] ملعونين، وقد أثنى الله عليهم ذاك الثناء البالغ في قوله: ﴿عَلَيهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُم وَيَفعَلُونَ مَا يُؤمَرُون﴾ [3]، وقد عدّ سبحانه أيدي المؤمنين من أسباب عذاب الكفار إذ قال: ﴿قَاتِلُوهُم يُعَذِّبهُمُ اللهُ بِأَيدِيكُم﴾ [4] وليست بملعونة.

وبهذا يتأيّد أنه لم يكن المراد بالآية الكشف عن قناع الفقرتين وإيضاح قصّة الرؤيا والشجرة الملعونة في القرآن المجعلوتين فتنةً للناس، بل إنّما أُريدت الإشارة إلى إجمالهما والتذكير بما يقتضيانه بحكم السياق.

نعم، ربما يلوح السياق إلى بعض شأن الأمرين: الرؤيا والشجرة الملعونة، فإنّ الآيات السابقة كانت تصف الناس أنّ آخرهم كأوّلهم وذيلهم كصدرهم في عدم الاعتناء بآيات الله سبحانه وتكذيبها، وأنّ المجتمعات الإنسانية ذائقون عذاب الله قريةً بعد قرية وجيلاً بعد جيل بإهلاكٍ أو بعذابٍ مخوف دون ذلك، والآيات اللاحقة... ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم...إلخ﴾ المشتملة على قصّة

---

(١) الصافّات: ٦٢ و ٦٣.

(٢) المدّثر: ٣١.

(٣) التحريم: ٦.

(٤) التوبة: ١٤.

إبليس وعجيب تسلّطه على إغراء بني آدم تجري على سياق الآيات السابقة.

وبذلك يظهر أنّ الرؤيا والشجرة المشار إليهما في الآية أمران سيظهران على الناس أو هما ظاهران يفتتن بهما الناس فيشيع بهما فيهم الفساد ويتعرّق فيهم الطغيان والاستكبار، وذيل الآية ﴿ *ونخوّفهم فما يزيدُهم إلّا طغياناً كبيراً* ﴾ يشير إلى ذلك ويؤيّده، بل وصدر الآية ﴿ *وإذ قلنا لك إن ربّك أحاط بالناس* ﴾.

مَن هي الشجرة الملعونة في القرآن؟

أضف إلى ذلك أنّه تعالى وصف هذه الشجرة الّتي ذكرها بأنّها ملعونة في القرآن، وبذلك يظهر أنّ القرآن مشتمل على لعنها، وأنّ لعنها بين اللعنات الموجودة في القرآن، كما هو ظاهر قوله: ﴿ *والشجرة الملعونة في القرآن* ﴾. وقد لعن في القرآن إبليس ولعن فيه اليهود ولعن فيه المشركون ولعن فيه المنافقون ولعن فيه أُناس بعناوين أُخر كالذين يموتون وهم كفّار والّذين يكتمون ما أنزل الله والّذين يؤذون الله ورسوله إلى غير ذلك.

معنى الشجرة:

وقد جعل الموصوف بهذه اللعنة شجرة، والشجرة كما تطلق على ذي الساق من النبات كذلك تستعمل في الأصل الّذي تطلع منه وتنشأ عليه فروع بالنسب أو بالاتّباع على أصل اعتقادي، قال في لسان العرب: ويقال: فلان من شجرة مباركة أي من أصل مبارك، إنتهى. وقد ورد ذلك في لسانه ﷺ كثيراً كقوله: أنا وعلي من شجرة واحدة، ومن هذا الباب قوله في حديث العباس: عمّ الرجل صنو أبيه[١].

---

(١) الصنوان: النخلتان تطلعان من عرقٍ واحد.

الشجرة: قومٌ ملعونون في القرآن:

وبالتأمّل في ذلك يتّضح للباحث المتدبّر أنّ هذه الشجرة الملعونة قومٌ من هؤلاء الملعونين في كلامه لهم صفة الشجرة في النشوء والنمو وتفرّع الفروع على أصلٍ له حظّ من البقاء والإثمار، وهم فتنة تفتتن بها هذه الأُمّة، وليس يصلح لهذه الصفة إلّا طوائف ثلاث من المعدودين وهم أهل الكتاب والمشركون والمنافقون ولبثهم في الناس وبقاؤهم على الولاء إمّا بالتناسل والتوالد كأهل بيتٍ من الطوائف المذكورة يعيشون بين الناس ويفسدون على الناس دينهم ودنياهم ويفتتن بهم الناس، وإمّا بطلوع عقيدة فاسدة ثمّ اتّباعها على الولاء من خلَف بعد سلَف.

هؤلاء القوم ليسوا المشركين ولا أهل الكتاب:

ولم يظهر من المشركين وأهل الكتاب في زمن الرسول قبل الهجرة وبعدها قوم بهذا النعت، وقد آمن الله الناس من شرّهم مستقلّين بذلك بمثل قوله النازل في أواخر عهد النبيّ ﷺ: ﴿ *الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي* ﴾[1]، وقد استوفينا البحث عن معنى الآية فيما تقدم.

الشجرة: قومٌ منافقون:

فالذي يهدي إليه الإمعان في البحث أنّ المراد بالشجرة الملعونة قومٌ من المنافقين المتظاهرين بالإسلام يتعرّقون بين المسلمين إمّا بالنسل وإمّا بالعقيدة والمسلك هم فتنة للناس، ولا ينبغي أن يرتاب في أنّ في سياق الآية تلويحاً

---

(١) المائدة: ٣.

بالارتباط بين الفقرتين أعني قوله: ﴿ *وما جعلنا الرؤيا الّتي أريناك إلّا فتنةً للناس والشجرةَ الملعونة* ﴾ وخاصّة بعد الإمعان في تقدّم قوله: ﴿ *وإذ قلنا لك إنّ ربّك أحاط بالناس* ﴾ وتذييل الفقرات جميعاً بقوله: ﴿ *ونخوّفهم فما يزيدُهم إلّا طغياناً كبيراً* ﴾ فإنّ ارتباط الفقرات بعضها ببعض ظاهر في أنّ الآية بصدد الإشارة إلى أمرٍ واحدٍ هو سبحانه محيط به ولا ينفع فيه عظة وتخويف إلّا زيادة في الطغيان.

ويُستفاد من ذلك أنّ الشأن هو أنّ الله سبحانه أرى نبيّه ﷺ في الرؤيا هذه الشجرة الملعونة وبعض أعمالهم في الإسلام ثمّ بيّن لرسوله أنّ ذلك فتنة.

الفتنة سنّة جارية:

فقوله: ﴿ *وإذ قلنا لك إنّ ربّك أحاط بالناس* ﴾ مقتضى السياق أنّ المراد بالإحاطة الإحاطة العلمية، والظرف متعلّق بمحذوف، والتقدير: واذكر إذ قلنا لك كذا وكذا. والمعنى: واذكر للتثبت فيما ذكرنا لك في هذه الآيات أنّ شيمة الناس الاستمرار في الفساد والفسوق واقتداء أخلافهم بأسلافهم في الإعراض عن ذكر الله وعدم الاعتناء بآيات الله، وقتاً قلنا لك انّ ربّك أحاط بالناس علماً، وعَلم أنّ هذه السنّة ستجري بينهم كما كانت تجري.

وقوله: ﴿ *وما جعلنا الرؤيا الّتي أريناك إلّا فتنةً للناس والشجرةَ الملعونة في القرآن* ﴾ محصل معناه على ما تقدّم: أنه لم نجعل الشجرة المعلونة في القرآن الّتي تعرفها بتعريفنا، وما أريناك في المنام من أمرهم إلّا فتنةً للناس وامتحاناً وبلاء نمتحنهم ونبلوهم به وقد أحطنا بهم.

وقوله: ﴿ *ونخوّفهم فما يزيدُهم إلّا طغياناً كبيراً* ﴾ ضميرا الجمع للناس ظاهران، والمراد بالتخويف إمّا التخويف بالموعظة والبيان أو بالآيات المخوّفة الّتي هي دون الآيات المهلكة المبيدة، والمعنى ونخوّف الناس فما يزيدهم

التخويف إلّا طغياناً ولا أي طغيان كان بل طغياناً كبيراً، أي أنهم لا يخافون من تخويفنا حتّى ينتهوا عمّا هم عليه بل يجيبوننا بالطغيان الكبير فهم يبالغون في طغيانهم ويفرطون في عنادهم مع الحقّ.

وسياق الآية سياق التسلية، فالله سبحانه يعزّي نبيه ﷺ فيها بأنّ الّذي أراه من الأمر وعرّفه من الفتن، وقد جرت سنّته تعالى على امتحان عباده بالمحن والفتن، وقد اعترف بذلك غير واحدٍ من المفسرين.

مصداق الرؤيا النبوية:

ويؤيّد جميع ما تقدّم ما ورد من طرق أهل السنّة واتّفقت عليه أحاديث أئمّة أهل البيت عليهم السلام أنّ المراد بالرؤيا في الآية هي رؤيا رآها النبيّ ﷺ في بني أُمية والشجرة شجرتهم، وستوافيك الروايات في البحث الروائي الآتي إن شاء الله تعالى.

وقد ذكر جمعٌ من المفسّرين استناداً إلى ما نقل عن ابن عبّاس أنّ المراد بالرؤيا الّتي أراها الله نبيه هو الإسراء، والمراد بالشجرة الملعونة في القرآن شجرة الزقّوم، وذكروا أنّ النبيّ ﷺ لمّا رجع من الإسراء وأصبح أخبر المشركين بذلك فكذّبوه واستهزوا به، وكذلك لمّا سمع المشركون آيات ذكر الله فيها الزقّوم كذّبوه وسخروا منه، فأنزل الله في هذه الآية أنّ الرؤيا الّتي أريناك وهي الإسراء وشجرة الزقّوم ما جعلناهما إلّا فتنةً للناس.

ثمّ لمّا ورد عليهم أنّ الرؤيا على ما صرّح به أهل اللغة هي ما يراه النائم في منامه والإسراء كان في اليقظة اعتذروا عنه تارةً بأنّ الرؤيا كالرؤية مصدر رأى ولا اختصاص لها بالمنام، وتارةً بأنّ الرؤيا ما يراه الإنسان بالليل سواء فيه النوم واليقظة، وتارةً بأنّها مشاكلة لتسمية المشركين له رؤيا، وتارةً بأنّه جار على

زعمهم كما سمّوا أصنامهم آلهة، فقد روي أنّ بعضهم قال للنبيّ ﷺ لمّا قصّ عليهم إسراءه: لعلّه شيء رأيته في منامك فسمّاه الله رؤيا على زعمهم، كما قال في الأصنام «آلهتهم»، وتارةً بأنه سمّي رؤيا تشبيهاً له بالمنام لما فيها من العجائب أو لوقوعه ليلاً أو لسرعته.

وقد أجاب عن ذلك بعضهم أنّ الإسراء كان في المنام كما روي عن عائشة ومعاوية.

ولمّا ورد عليهم أيضاً أن لا معنى لتسمية الزقّوم شجرة ملعونة ولا ذنب للشجرة اعتذروا عنه تارةً بأنّ المراد من لعنها لعن طاعميها على نحو المجاز في الإسناد للدلالة على المبالغة في لعنهم كما قيل، وتارةً بأنّ اللعنة بمعنى البُعد وهي في أبعد مكان من الرحمة لكونها تنبت في أصل الجحيم، وتارةً بأنّها جعلت ملعونة لأنّ طلعها يشبه رؤوس الشياطين والشياطين ملعونون، وتارةً بأنّ العرب تسمّي كلّ غذاء مكروه ضارّ ملعوناً.

الرؤيا ليست الإسراء:

أمّا ما ذكروه في معنى الرؤيا فما قيل: إنّ الرؤيا مصدرٌ مرادفٌ للرؤية، أو أنها بمعنى الرؤية ليلاً، يردّه عدم الثبوت لغةً ولم يستندوا في ذلك إلى شيءٍ من كلامهم من نظمٍ أو نثرٍ إلّا إلى مجرّد الدعوى.

وأمّا قولهم: إنّ ذلك مشاكلة لتسمية المشركين الإسراء رؤيا أو جرى على زعمهم أنّه رؤيا فيجب تنزيه كلامه سبحانه من ذلك البتة، فما هي القرينة الدالّة على هذه العناية وأنّه ليس فيه اعتراف بكونها رؤيا حقيقة؟ ولم يطلق تعالى على أصنامهم «آلهة» و «شركاء» وإنّما أطلق «آلهتهم» و «شركاءهم»

فأضافها إليهم والإضافة نعمت القرينة على عدم التسليم، ونظير الكلام جارٍ في اعتذارهم بأنّه من تشبيه الإسراء بالرؤيا، فالاستعارة كسائر المجازات لا تصحّ إلاّ مع قرينة، ولو كانت هناك قرينة لم يستدلّ كلّ من قال بكون الإسراء منامياً بوقوع لفظة الرؤيا فيآية بناءً على كون الآية ناظرة إلى الإسراء.

وأمّا قول القائل: إنّ الإسراء كان في المنام فقد اتّضح بطلانه في أوّل السورة في تفسير آية الإسراء.

وأمّا المعاذير الّتي ذكروها تفصّياً عن جعل الشجرة ملعونة في القرآن فقولهم: إنّ حقيقة لعنها لعن طاعميها على طريق المجاز في الإسناد للمبالغة في لعنهم، فهو وإن كان كثير النظير في محاورات العامّة لكنّه ممّا يجب أن ينزّه عنه ساحة كلامه تعالى، وإنّما هو من دأب جهلة الناس وسفلتهم تراهم إذا أرادوا أن يسبّوا أحداً لعنوه بلعن أبيه وأُمّه وعشيرته مبالغةً في سبّه، وإذا شتموا رجلاً أساؤوا ذكر زوجته وبنته وسبّوا السماء الّتي تظلّه والأرض الّتي تقلّه والدار الّتي يسكنها والقوم الّذين يعاشرهم، وأدبُ القرآن يمنعه أن يبالغ في لعن أصحاب النار بلعن الشجرة الّتي يعذّبهمُ الله بأكلّ ثمارها.

وقولهم: إنّ اللعن مطلق الإبعاد ممّا لم يثبت لغةً، والّذي ذكروه ويشهد به ما ورد من استعماله في القرآن أنّ معناه الإبعاد من الرحمة والكرامة. وما قيل: إنّها كما قال الله ﴿ شَجَرَةٌ تَخرُجُ فِي أَصلِ الجَحِيمِ ﴾[1] فهي في أبعد مكان من الرحمة إن أُريدت بالرحمة الجنّة فهو قول من غير دليل، وإن أُريدت به الرحمة المقابلة للعذاب كان لازمه كون الشجرة ملعونة بمعنى الإبعاد من الرحمة والكرامة ومقتضاه كون جهنّم وما أعدّ الله فيها من العذاب، وملائكة

---

(١) الصافّات: ٦٤.

النار وخزنتها ملعونين مغضوبين مبعدين من الرحمة، وليس شيءٌ منها ملعوناً وإنّما اللعن والغضب والبعد للمعذّبين فيها من الإنس والجن.

وقولهم: إنّها جعلت ملعونة، لأنّ طلعها يشبه رؤوس الشياطين والشياطين ملعونون فهو مجازٌ في الإسناد بعيدٌ من الفهم يرد عليه ما أوردناه على الوجه الأول.

وقولهم: إنّ العرب تسمّي كلّ غذاء مكروه ضارّ ملعوناً فيه استعمال الشجرة وإرادة الثمرة مجازاً، ثمّ جعلها ملعونة لكونها مكروهة ضارّة أو نسبة اللعن وهو وصف الثمرة إلى الشجرة مجازاً، وعلى أيّ حال كونها معنى من معاني اللعن غير ثابت بل الظاهر أنّهم يصفونه باللعن بمعناه المعروف، والعامّة يلعنون كلّ ما لا يرتضونه من طعام وشراب وغيرهما.

وأمّا انتساب القول إلى ابن عبّاس فعلى تقدير ثبوته لا حجّية فيه وخاصّةً مع معارضته لما في حديث عائشة الآتي وغيره وهو يتضمّن تفسير النبيّ ﷺ ولا يعارضه قول غيره.

وقال في الكشّاف في قوله تعالى: ﴿ *وإذ قلنا لك إنّ ربّك أحاط بالناس* ﴾: واذكر إذ أوحينا إليك أنّ ربّك أحاط بقريش، يعني بشّرناك بوقعة بدر وبالنصرة عليهم، وذلك قوله: ﴿ *سَيُهزَمُ الجَمعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُر* ﴾[1] ﴿ *قُل لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغلَبُونَ وَتُحشَرُونَ* ﴾[2] وغير ذلك، فجعله كأن قد كان ووجد فقال: ﴿ *أحاط بالناس* ﴾ على عادته في إخباره.

وحين تزاحف الفريقان يوم بدر والنبيّ ﷺ في العريش مع أبي بكر كان

(١) القمر: ٤٥.
(٢) آل عمران: ١٢.

يدعو ويقول: اللّهمّ إنّي أسألك عهدك ووعدك، ثمّ خرج وعليه الدرع يحرّض الناس ويقول: ﴿ *سيُهزمُ الجمعُ ويولّون الدُّبر* ﴾.

ولعلّ الله تعالى أراه مصارعهم في منامه فقد كان يقول حين ورد ماء بدر: والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم ـ وهو يومئ إلى الأرض ويقول: ـ هذا مصرع فلان، هذا مصرع فلان، فتسامعت قريش بما أُوحي إلى رسول الله ﷺ من أمر يوم بدر وما أُري في منامه من مصارعهم فكانوا يضحكون ويستسخرون ويستعجلون به استهزاءً.

وحين سمعوا بقوله: ﴿ *إنّ شَجَرَةَ الزَّقُّوم * طَعَامُ الأَثِيم* ﴾[1] جعلوها سخرية وقالوا: إنّ محمّداً يزعم أنّ الجحيم تحرق الحجارة ثمّ يقول: ينبت فيها الشجر ـ إلى أن قال:[2] ـ والمعنى أنّ الآيات إنّما يرسل بها تخويفاً للعباد، وهؤلاء قد خُوّفوا بعذاب الدنيا وهو القتل يوم بدر، إنتهى، ثمّ ذكر تفسير الرؤيا في الآية بالإسراء ناسباً له إلى قيل.

وهو ظاهر في أنّه لم يرتض تفسير الرؤيا في الآية بالإسراء وإن نسب إلى الرواية فعدل عنه إلى تفسيرها برؤيا النبيّ ﷺ وقعة بدر قبل وقوعها وتسامع قريش بذلك واستهزاءهم به.

وهو وإن تقصّى به عمّا يلزم تفسيرهم الرؤيا بالإسراء من المحذور، لكنّه وقع فيما ليس بأهون منه إن لم يكن أشدّ، وهو تفسير الرؤيا بما رجا أن يكون النبيّ ﷺ يرى في منامه وقعة بدر ومصارع القوم فيها قبل وقوعها ويسخر قريش منه فيجعل فتنةً لهم، فلا حجّة له على ما فسّر إلّا قوله: «ولعلّ الله أراه

---

(١) الدخان: ٤٣ و ٤٤.

(٢) يعني صاحب الكشّاف.

مصارعهم في منامه» وكيف يجترئ على تفسير كلامه تعالى بتوهّم أمرٍ لا مستند له ولا حجّة عليه من أثر يعوّل عليه أو دليل من خلال الآيات يرجع إليه.

وذكر بعضهم: أنّ المراد بالرؤيا رؤيا النبيّ ﷺ أنّه يدخل مكّة والمسجد الحرام وهي الّتي ذكرها الله سبحانه بقوله: ﴿ *لَقَد صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤيا*...الآية ﴾[1].

وفيه أنّ هذه الرؤيا إنّما رآها النبيّ ﷺ بعد الهجرة قبل صلح الحديبية والآية مكّية، وسنستوفي البحث عن هذه الرؤيا إن شاء الله تعالى.

وذكر بعضهم: أنّ المراد بالشجرة الملعونة في القرآن هم اليهود ونسب إلى أبي مسلم المفسّر.

وقد تقدّم ما يمكن أن يوجّه به هذا القول مع ما يرد عليه[2].

مصداق الشجرة الملعونة في الأحاديث المشتركة:

وقال ﷺ في بحثه الروائي عن الآية: وفي الدرّ المنثور: أخرج ابن جرير عن سهل بن سعد قال: رأى رسول الله ﷺ بني فلان ينزون على منبره نزو القردة، فساءه ذلك فما استجمع ضاحكاً حتّى مات، فأنزل الله: ﴿ ***وما جعلنا الرؤيا الّتي أريناك إلّا فتنةً للناس*** ﴾.

وفيه: أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر أنّ النبيّ قال: رأيت ولد الحَكم بن أبي العاص على المنابر كأنّهم القردة وأنزل الله في ذلك: ﴿ ***وما جعلنا الرؤيا الّتي أريناك إلّا فتنةً للناس والشجرةَ الملعونة*** ﴾ يعني الحَكم وولده.

---

(١) الفتح: ٢٧.

(٢) تفسير الميزان: ١٣ / ١٣٦ ـ ١٤٣.

وفيه: أخرج ابن أبي حاتم عن يعلى بن مرّة قال: قال رسول الله ﷺ أُريت بني أُمية على منابر الأرض وسيتملّكونكم فتجدونهم أرباب سوء، واهتمّ رسول الله ﷺ لذلك فأنزل الله: ﴿ *وما جعلنا الرؤيا الّتي أريناك إلّا فتنةً للناس* ﴾.

وفيه: أخرج ابن مردويه عن الحسين بن علي أنّ رسول الله أصبح وهو مهموم فقيل: ما لك يارسول الله؟ فقال: إنّي أُريت في المنام كأنّ بني أُمية يتعاورون منبري هذا، فقيل: يارسول الله لا تهتمّ فإنّها دنيا تنالهم، فأنزل الله: ﴿ *وما جعلنا الرؤيا الّتي أريناك إلّا فتنةً للناس* ﴾.

وفيه: أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل وابن عساكر عن سعيد بن المسيب قال: رأى رسول الله ﷺ بني أُمية على المنابر فساءه ذلك، فأوحى الله إليه: إنما هي دنيا اعطوها فقرّت عينه، وهي قوله: ﴿ *وما جعلنا الرؤيا الّتي أريناك إلّا فتنة للناس* ﴾ يعني بلاء للناس.

أقول: ورواه في تفسير البرهان عن الثعلبي في تفسيره يرفعه إلى سعيد بن المسيّب.

وفي تفسير البرهان عن كتاب فضيلة الحسين يرفعه إلى أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: رأيت في النوم بني الحَكم أو بني العاص ينزون على منبري كما تنزو القردة، فأصبح كالمتغيظ، فما رؤي رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً بعد ذلك حتى مات.

وفي الدرّ المنثور: أخرج ابن مردويه عن عائشة أنها قالت لمروان بن الحَكم: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأبيك وجدّك: إنّكم الشجرة الملعونة في القرآن.

وفي مجمع البيان: رؤيا رآها النبيّ ﷺ أنّ قروداً تصعد منبره وتنزل وساءه

ذلك واغتمّ، رواه سهل بن سعيد عن أبيه. ثمّ قال: وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام وقالوا: على هذا التأويل الشجرة الملعونة في القرآن هو بنو أُمية.

أقول: وليس من التأويل في شيء بل هو تنزيل كما تقدّم بيانه، إلّا أنّ التأويل ربما أُطلق في كلامهم على مطلق توجيه المقصود.

وروى هذا المعنى العيّاشي في تفسيره عن عدّة من الثقات كزرارة وحمران ومحمّد بن مسلم ومعروف بن خر بوذ وسلام الجعفي والقاسم بن سليمان ويونس ابن عبد الرحمن الأشلّ وعبد الرحيم القصير عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام. ورواه القمّي في تفسيره مضمراً، ورواه العياشي أيضاً عن أبي الطفيل عن علي عليه السلام.

وفي بعض هذه الروايات أنّ مع بني أُمية غيرهم، وقد تقدّم ما يهدي إليه البحث في معنى الآية. وقد مرّ أيضاً الروايات في ذيل قوله تعالىٰ: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ... الآية﴾ [1] أنّ الشجرة الخبيثة هي الأفجران من قريش.

وفي الدرّ المنثور: أخرج عبد الرزّاق وسعيد بن منصور وأحمد والبخاري والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عبّاس في قوله: ﴿*وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلّا فتنةً للناس*﴾ قال: هي رؤيا عين أُريها رسول الله صلى الله عليه وآله ليلة أُسري به إلى بيت المقدس وليست برؤيا منام ﴿*والشجرةَ الملعونة في القرآن*﴾ قال: هي شجرة الزقّوم.

---

(١) إبراهيم: ٢٦.

أقول: وروى هذا المعنى أيضاً عن ابن سعد وأبي يعلى وابن عساكر عن أُمّ هاني، وقد عرفت حال الرواية في الكلام على تفسير الآية.

وفيه: أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عبّاس في قوله: ﴿ *وما جعلنا الرّؤيا الّتي أريناك*...الآية ﴾ قال: إنّ رسول الله أُري أنه دخل مكّة هو وأصحابه وهو يومئذٍ بالمدينة، فسار إلى مكّة قبل الأجل فرده المشركون، فقال أُناس: قد ردّ وقدكان حدّثنا أنّه سيدخلها، فكانت رجعته فتنتهم.

أقول: وقد تقدّم ما على الرواية في تفسير الآية على أنها تعارض ما تقدّمها(١).

استمرار تأثير الشجرة الملعونة إلىٰ يوم الفتح:

البحث التفسيري والروائي المتقدّم وافٍ في توضيح معنى الآية الكريمة والمصداق الّذي تدلّ عليه، وعلىٰ نحو التفسير والتنزيل لا علىٰ نحو التأويل والتطبيق. لذا نكتفي هنا بتلخيص الدلالات المستفادة منه فيما يرتبط بموضوع البحث:

١ـ تتحدّث الآية الكريمة عن قضيّة مستقبلية ترتبط بفتنة المسلمين فيما يرتبط بالرسالة الّتي جاء بها النبيّ الأكرم ﷺ، وقد عرّف الله جلّت قدرته نبيّه بهذه الفتنة في رؤيا رآها في المنام صرّح بها النبيّ الأكرم محمّد ﷺ فيما روي عنه من طرق الفريقين السنّة والشيعة، وهي تعريفه بتسلّط بني أُمية علىٰ مقاليد حكم المسلمين، كما هو واضحٌ من قوله ﷺ: «إنّي أُريت في المنام كأنّ بني أُمية يتعاورون منبري هذا». والمنبر رمز قيادة المسلمين، وسيطرتهم تعني إبعاد

(١) تفسير الميزان: ١٣ / ١٤٨ ـ ١٥٣.

القيادة الشرعية الممثّلة للسنّة النبوية وخطّ الوصاية على الرسالة المحمّدية عن قيادة المسلمين، وذلك يعني وقوع الانحراف والفساد.

٢ـ والآية الكريمة في مقام تسلية النبيّ ﷺ، بالتأكيد أنّ الانحراف الّذي يجري على المسلمين بسماحهم بتسلّط بني أُمية علىٰ مقدّراتهم لا يخرج عن دائرة الإحاطة الإلهيّة والكيد الربّاني ولا يغلب الله علىٰ أمره، بل يكون وسيلة لإجراء السنّة الإلهيّة الثابتة في الفتنة والتمحيص والاختبار والغربلة، وهي السنّة الّتي تعطي ثماراً طيّبة في محق الكفر وتنقية المؤمنين فتكون العاقبة للتقوىٰ.

٣ـ ولاحظنا أنّ وصف الآية للجهة الّتي تسبّب هذه الفتنة ينطبق بالكامل علىٰ بني أُمية الّذين مثّلوا تياراً منحرفاً ومتنفّذاً في الحياة الإسلامية، أظهر الإسلام وأبطن النفاق وكاد للإسلام واستعبد المسلمين وحارب خطّ الإمامة المعصومة والامتداد النقي للنهج النبوي والسنّة المحمّدية وسعىٰ لتصفيته بالكامل، فاغتال الحسن عليه السلام وارتكب مجزرة الطفّ الفظيعة ضدّ عائلة الرسول الأكرم ﷺ وقتل سبطه الوحيد المتبقّي يومذاك وسائر رجال أهل بيته فلم يبق منهم إلّا زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام الّذي أنجاه الله جلّت قدرته ليحفظ به استمرار خطّ الولاية الإلهيّة الحقّة، وسبىٰ نساء آل الرسول وارتكب ما ارتكب من المجازر ضدّ المتبقّين من جيل الصحابة والتابعين في واقعة الحرّة وغيرها.

٤ـ وهذا ما تدلّ عليه الآية الكريمة بوصف طغيان هذه الشجرة الملعونة بأنّه كبير، وفيه إشارة إلى اتّساع الفساد والعلوّ والاستكبار في الأرض الّذي تقوم به هذه الشجرة الملعونة، وتشير أيضاً إلى استمراره رغم ظهور آيات الحقّ الرادعة عنه، ولكنها لا تزيدهم إلّا طغياناً كبيراً.

دور الخطّ الاموي في فتنة المسلمين:

ويؤيّد الحقيقة ما تقدّم من وصف هذه الجهة المفسدة بأنها «شجرة» الأمر الّذي يفيد استمرار تيّارهم في الإفساد وفتنة المسلمين عبر أشخاصٍ ينتمون إليه نسبياً أو عقائدياً. ويُستفاد من الروايات الشريفة المتحدّثة عن ظهور «السفياني» ومعاصرته لظهور المهديّ الموعود ومحاربته له واعتبار ظهور السفياني من العلامات الحتمية لظهور المهديّ عجّل الله فرجه استمرار تأثير إفساد هذه الشجرة الملعونة إلى حين الظهور المهدوي.

لذا، فلو خفي تأثير المنتمين نسبياً إلى بني أُمية بعد انقراض دولتهم الأُولىٰ في الشام والثانية في الأندلس فإنّ تأثير المنتمين إليهم عقائدياً واضحٌ وظاهرٌ للعيان طوال التأريخ الإسلامي، حيث ظهرت شخصيات عنيفة في الدفاع عن الخطّ الأُموي أمثال ابن تيمية الحرّاني الّذي استمات في كتابه «منهاج السنّة» وكتابه «رأس الحسين» وكتابه «في فضائل معاوية وفي يزيد أنه لا يُسبّ» وسائر مصنّفاته وفتاواه في التشبّث بكلّ مغالطةٍ وغثٍّ وسمينٍ وافتراءٍ للدفاع عن الأُموية ويزيد.

تيّار الوهّابية:

وقد تحوّلت أفكاره اليوم إلى تيّار يمتلك إمكانات واسعة هو تيّار الوهّابية المستميت في ترويج النزعة الأُموية والدفاع عن يزيد ومحاربة خطّ الولاية المعصومة والشعائر والروح الحسينية تحت شعار الدعوة للعودة إلى ماكان عليه السلف الصالح. ولا شكّ بأنّ السفياني الّذي تحدّثت عنه الأحاديث الشريفة هو صنيعة الوهّابية الّتي لا نظير لها في الدفاع عن النزعة الأُموية ومحاربة منهج

أهل البيت النبوي، كما يتّضح لكلّ مَن راجع تأريخها وأفكارها. ومع ملاحظة الإمكانات المالية والتبليغية الواسعة الّتي تمتلكها يتّضح اتّساع نطاق تأثيرها في إضلال المسلمين وتحريف الدين والصدّ عن خطّ الإمامة المعصومة ومحاربته، خاصّةً وأنّها تتستّر بغطاء الدعوة للإسلام النقي والعودة لماكان عليه السلف الصالح، فهي مصداق بارز للأئمّة المضلّين الّذين يساهمون في الترويج للانحراف والدعوة للباطل الأُموي وغيره، كما تشير لذلك الأحاديث المطبقة للآيات التالية من سورة الشعراء علىٰ هذا الموضوع، وهي:

ثالثاً: دور الأئمّة المضلّين في الغواية:

قوله تعالىٰ:

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُون * أَلَم تَرَ أَنَّهُم فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُون * وَأَنَّهُم يَقُولُونَ مَا لَا يَفعلُون * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِن بَعدِمَا ظُلِمُوا وَسَيَعلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُون﴾ (١)

١ـ روى الشيخ الصدوق في كمال الدين قال: حدّثني محمّد بن علي ماجيلويه رضي الله عنه قال: حدّثنا علي بن إبراهيم عن أبيه عن علي بن معبد عن الحسين بن خالد عن علي بن موسى الرضا عليه السلام عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من أحبّ أن يتمسّك بديني ويركب سفينة النجاة بعدي فليقتدي بعلي ابن أبي طالب عليه السلام وليعادِ عدوّه وليوالِ وليّه، فإنّه ووصيّي وخليفتي على أُمتي في حياتي وبعد وفاتي، وهو إمام كلّ مسلم، وأمير كلّ

(١) الشعراء: ٢٢٤ ـ ٢٢٧.

مؤمن بعدي، قوله قولي، وأمره أمري ونهيه نهيي، وتابعه تابعي، وناصره ناصري، وخاذله خاذلي.

ثمّ قال ﷺ: من فارق علياً بعدي لم يرني ولم أره يوم القيامة، ومن خالف علياً حرّم الله عليه الجنة وجعل مأواه النار [وبئس المصير]، ومن خذل علياً خذله الله يوم يعرض عليه، ومن نصر علياً نصره الله يوم يلقاه، ولقّنه حجّته عند المساءلة.

ثمّ قال ﷺ: الحسن والحسين إماما أُمتي بعد أبيهما، وسيّدا شباب أهل الجنّة، وأُمهما سيّدة نساء العالمين، وأبوهما سيّد الوصيّين، ومن ولد الحسين تسعة أئمّة تاسعهم القائم عليه السلام من ولدي، طاعتهم طاعتي، ومعصيتهم معصيتي، إلى الله أشكو المنكرين لفضلهم والمضيّعين لحرمتهم بعدي، وكفى بالله وليّاً، وناصراً لعترتي وأئمّة أُمّتي، ومنتقماً من الجاحدين لحقّهم ﴿ *وسيعلمُ الّذين ظَلموا أيَّ منقلَبٍ ينقلبون* ﴾[(١)].

٢ـ وروى الشيخ الصدوق في كتاب معاني الأخبار قال: أبي رحمه الله قال: حدّثنا سعد بن عبد الله عن محمّد بن الحسين بن أبي الخطّاب عن الحسن بن محبوب عن حمّاد بن عثمان عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عزّوجلّ: ﴿ *والشعراء يتّبعهمُ الغاوون* ﴾ قال: هل رأيت شاعراً يتبعه أحد؟ إنّما هم قومٌ تفقّهوا لغير الدين فضلّوا وأضلّوا[(٢)].

٣ـ وفي مجمع البيان للطبرسي في تفسير الآية المتقدّمة: وروى العيّاشي بالإسناد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: هم تعلّموا وتفقّهوا بغير علمٍ فضلّوا وأضلّوا[(٣)].

٤ـ وفي كتاب تأويل الآيات: محمّد بن جمهور بإسناده يرفعه إلى أبي

---

(١) كمال الدين: ٢٦٠ ـ ٢٦١.

(٢) معاني الأخبار: ٣٨٥.

(٣) مجمع البيان: ٤ / ٢٠٨.

عبد الله ﷺ في قوله عزّوجلّ: ﴿ *والشعراء يتّبعهمُ الغاوون* ﴾، فقال: مَن رأيتم من الشعراء يُتبّع؟ إنّما عنىٰ هؤلاء الفقهاء الّذين يُشعرون قلوب الناس بالباطل فهم الشعراء الّذين يُتّبعون[١].

٥ـ وروىٰ علي بن إبراهيم في تفسيره في الآيات المتقدّمة: نزلت في الّذين غيّروا دين الله وخالفوا أمر الله عزّوجلّ، هل رأيتم شاعراً قطّ تبعه أحد؟ إنّما عنىٰ بذلك الّذين وضعوا ديناً بآرائهم فتتبعهم الناس علىٰ ذلك، ويؤكد ذلك قوله جلّ ذكره: ﴿ *ألم ترَ أنهم في كلّ وادٍ يَهيمون* ﴾ يعني: يناظرون بالأباطيل، ويجادلون بالحجج المضلّة، وفي كلّ مذهب يذهبون. ﴿ ***وأنهم يقولون ما لا يفعلون*** ﴾ قال: يعظون الناس ولا يتّعظون، وينهون عن المنكر ولا ينتهون، ويأمرون بالمعروف ولا يعملون، وهم الّذين غصبوا آل محمّد حقّهم.

ثمّ ذكر آل محمّد ﷺ وشيعتهم المهتدين فقال: ﴿ ***إلّا الّذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظُلِموا*** ﴾. ثمّ ذكر أعداءهم ومَن ظلمهم فقال: ﴿***وسيعلم الّذين ظلموا*** آل محمّد حقّهم ***أي منقلب ينقلبون***﴾. هكذا والله نزلت[٢].

٦ـ وروى الشيخ الصدوق في كمال الدين قال: حدّثنا عبد الواحد بن محمّد ابن عبدوس النيسابوري العطّار ﵀ قال: حدّثنا علي بن محمّد بن قتيبة النيسابوري عن حمدان بن سليمان قال: حدّثني أحمد بن عبد الله بن جعفر الهمداني عن عبد الله بن الفضل الهاشمي عن هشام بن سالم عن الصادق جعفر ابن محمّد عن أبيه عن جدّه ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) تأويل الآيات الظاهرة: ١ / ٣٩٩.

(٢) تفسير القمّي: ٢ / ١٢٥.

القائم من ولدي اسمه اسمي، وكنيته كنيتي، وشمائلُهُ شمائلي، وسنّته سنّتي، يقيمُ الناس على ملّتي وشريعتي، ويدعوهم إلى كتاب ربّي عزّوجلّ، مَن أطاعه فقد أطاعني، ومَن عصاه فقد عصاني، ومَن أنكره في غَيبته فقد أنكرني، ومَن كذّبه فقد كذّبني، ومَن صدّقه فقد صدّقني. إلى الله أشكو المكذّبين لي في أمره والجاحدين لقولي في شأنه والمضلّين لأُمّتي عن طريقته ﴿*وسيعلم الّذين ظلموا أي منقلب ينقلبون*﴾[١].

عزل أوصياء النبيّ ﷺ بداية الانحراف:

الآيات الكريمة المتقدّمة تختم سورة الشعراء المكّية، وقد جاءت ضمن سياق اشتمل على قوله تعالى: ﴿ *أفرأيتَ إن متّعناهُم سِنين * ثُمّ جاءَهُم مّا كَانُوا يُوعَدُون * ما أغنىٰ عَنهُم مّا كَانُوا يُمَتَّعُون* ﴾[٢] والّذي روي أنه نزل لتطييب نفس النبيّ الأكرم ﷺ بعد أن رأىٰ رؤيا فيها بني أُمية يتسلّطون علىٰ حكم المسلمين، وهذا المعنىٰ مرويّ من طرق أهل السنّة والشيعة. وقد أورد العلّامة الطباطبائي ﵀ ضمن بحثه الروائي لهذه الآيات بعض هذه الروايات نكتفي بنقل اثنين منها، قال ﵀:

في الكافي بإسناده عن علي بن عيسى القمّاط عن عمّه عن أبي عبد الله ﵇ قال: أُري رسول الله ﷺ في منامه بني أُمية يصعدون على منبره من بعده ويضلّون الناس عن الصراط القهقرى، فأصبح كئيباً حزيناً.

قال: فهبط جبرائيل فقال: يارسول الله مالي أراك كئيباً حزيناً؟ قال:

---

(١) كمال الدين: ٤١١.

(٢) الشعراء: ٢٠٥ ـ ٢٠٧.

ياجبرائيل إنّي رأيت بني أُمية في ليلتي هذه يصعدون منبري من بعدي يضلّون الناس عن الصراط القهقرى، فقال: والّذي بعثك بالحقّ نبيّاً إنّي ما اطّلعت عليه، فعرج إلى السماء فلم يلبث أن نزل عليه بآي من القرآن يؤنسه بها، قال: ﴿ **أفرأيت إن متّعناهم سنين * ثمّ جاءهم ماكانوا يوعَدون * ما أغنىٰ عنهم ماكانوا يُمتّعون** ﴾ وأنزل عليه: ﴿ **إِنّا أنزلنَاهُ فِي لَيلَةِ القَدر * وَمَا أدرَاكَ مَا لَيلَةُ القَدر * لَيلَةُ القدرِ خَيرٌ مِن أَلفِ شَهر** ﴾ [1] جعل الله ليلة القدر لنبيّه ﷺ خيراً من ألف شهر ملك بني أُمية.

وفي الدرّ المنثور: أخرج ابن أبي حاتم عن أبي جهضم قال: رؤي النبيّ ﷺ كأنه متحيّر فسألوه عن ذلك فقال: ولِمَ ورأيت عدوّي يلون أمر أُمّتي من بعدي فنزلت ﴿ **أفرأيت إن متّعناهم سنين * ثمّ جاءهم ماكانوا يوعَدون * ما أغنىٰ عنهم ماكانوا يُمتّعون** ﴾ فطابت نفسه.

أقول: وقوله «ولِمَ ورأيت... إلخ» فيه حذف والتقدير ولِمَ لا أكون كذلك وقد رأيت... إلخ [2].

ثمّ تلت هذه الآيات المطيبة لنفس النبيّ ﷺ آياتٌ تأمره بإعلان دعوته والبدء بعشيرته الأقربين وتأمره بخفض جناحه للمؤمنين والتوكّل على العزيز الرحيم الّذي يرعىٰ حركته. ثمّ تتحدّث عن تنزّل الشياطين علىٰ كلّ أفّاكٍ أثيم، ولتختم السياق الآيات مورد التطبيق بالحديث عن نموذج للأئمّة المضلّين وهم الشعراء الّذين يمتازون بقدرتهم الفائقة علىٰ تزيين القبيح وغواية الآخرين وإضلالهم به، ثمّ تصرّح باستثناء المؤمنين الصالحين الذاكرين الله كثيراً والّذين ينتصرون للحقّ بعدما ظُلِموا، وتؤكّد بأنّ الخسران المبين للظالمين الّذين

---

(١) القدر: ١ ـ ٣.

(٢) تفسير الميزان: ١٥ / ٣٣٢ ـ ٣٣٣.

سيرون أيّ منقلب فاضح ينقلبون وفظاعة الانحدار والسقوط الّذي إليه يتّجهون.

دلالات الآيات:

ومن خلال معرفة السياق الّذي جاءت فيه الآيات الكريمة مورد البحث وتطبيقها علىٰ ما يرتبط بالقضية المهدوية يمكن تسجيل الدلالات التالية :

إنّ السبب الأهمّ في انحراف المسلمين عن الدين الحقّ وخطّ الولاية المعصومة هو إبعاد آل محمّد ﷺ عن قيادة المسلمين، وتولّي آل أُمية للحكم بعد رحيل سيّد المرسلين ﷺ كما يُفهم من روايتي الكليني في الكافي، والسيوطي في الدرّ المنثور المتقدّمتين، وسيأتي مزيد توضيح لهذه الحقيقة التأريخية في الكتاب الثاني من الموسوعة وضمن الحديث عن الصورة الّتي ترسمها الأحاديث المتّفق علىٰ نسبتها للنبيّ ﷺ للقضية المهدوية.

الأئمّة المظلّون وتزيين الباطل:

١ـ والدور المهمّ في إيجاد هذا الانحراف هو للأئمّة المضلّين الّذين يضلّون الناس عن الصراط المستقيم بتزيين الباطل الأُموي وما هو علىٰ شاكلته كما يفعل الشعراء، ولكنّ الّذين يتّبعونهم هم الغاوون، بمعنىٰ أنّ من الممكن الخلاص من غوايتهم وتضليلهم. وفي ذلك إشارة إلى خطورة دور علماء السوء في إضلال المسلمين وحرف مسيرتهم عن الصراط المستقيم.

٢ـ إنّ انتصار الإمام المهديّ عجّل الله فرجه للحقّ من بعد ما عُرض خطّ الولاية المعصومة ـ الّذي يمثّله ـ للظلم يعني إعادة المسيرة الإسلامية إلى الصراط المستقيم، فيزيل حاكمية الظالمين بالكامل، وفي تطبيق وصف الانتصار بعد الظلم إشارة إلى أنّ العاقبة للتقوىٰ والدين الحقّ الّذي يحمله المهديّ الموعود،

وهذا ما يشير إليه النبيّ الأكرم ﷺ خاصّةً في الحديث السادس وهو يؤكّد على أنّ المهديّ يقتفي أثره ويعبّر عن سنّته.

٣ـ والمستفاد من تطبيق هذه الآيات وما قبلها وبالخصوص آية الشجرة الملعونة في القرآن أنّ تسلط هذه الشجرة الملعونة وتسخيرها الأئمّة المضلّين لغواية المسلمين لا يخرج عن نطاق سنّة الامتحان الإلهيّ والفتنة للناس بما تشتمل عليه من محقٍ وتمييز، فهي وإن حاربت عترة النبيّ ﷺ بتلك الطريقة الشرسة الّتي تجلّت في واقعة كربلاء الدامية وتابعهم بنو العبّاس في السير على هذا النهج الانحرافي حتّى أدّىٰ إلى غَيبة الإمام الثاني عشر من أئمّة العترة النبوية الطاهرة، إلّا أنّ العاقبة للتقوىٰ والمكر السيئ لا يحيق إلّا بأهله، فتحوّل مكرهم إلى وسيلة لزيادة المهتدين هدىً حتّى يتأهّل الخطّ الإيماني لوراثة الأرض وإقامة المجتمع الصالح والدولة العادلة وإظهار الدين الحقّ على الدين كلّه وبالتالي تحوّل انحرافهم إلى وسيلة لمحق الكافرين.

والحقيقة المتقدّمة تؤكّدها الأحاديث المطبقة لآيات سورة محمّد ﷺ على القضية المهدوية، والآيات المقصودة هي:

رابعاً: الإفساد والردّة ومحاربة خطّ الولاية:

قوله تعالىٰ:

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ (١)

---

(١) محمّد: ٢٢ و ٢٣.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ (١)

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ (٢)

روي في كتاب تأويل الآيات مرفوعاً عن ابن أبي عمير عن حمّاد بن عيسىٰ عن محمّد الحلبي قال: قرأ أبو عبد الله عليه السلام: ﴿فهل عسيتم إن تولّيتم﴾ وسلطتم وملكتم ﴿أن تُفسدوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم﴾، ثمّ قال: نزلت هذه الآية في بني عمّنا بني العبّاس وبني أُمية.

ثمّ قرأ: ﴿أُولئك الّذين لعنهمُ الله فأصمّهم﴾ عن الدين ﴿وأعمىٰ أبصارهم﴾ عن الوصي.

ثمّ قرأ: ﴿إنّ الّذين ارتدّوا علىٰ أدبارهم﴾ بعد ولاية علي ﴿من بعد ما تبيّن لهمُ الهدى الشيطان سوّل لهم وأملىٰ لهم﴾.

ثمّ قرأ: ﴿والّذين اهتدَوا﴾ بولاية علي ﴿زادهم هدىً﴾ حيث عرّفهم الأئمّة من بعده والقائم عليه السلام ﴿وآتاهم تقواهم﴾ أماناً من النار (٣).

تفسير آيات سورة محمّد صلى الله عليه وآله:

في تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿فهل عسيتم إن تولّيتم أن تُفسدوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم﴾ قال العلّامة الطباطبائي رحمه الله: الخطاب للّذين في قلوبهم مرض المتثاقلين في أمر الجهاد في سبيل الله، وقد التفت إليهم بالخطاب لزيادة التوبيخ والتقريع، والاستفهام للتقرير، والتولّي الإعراض، والمراد به الإعراض عن

---

(١) محمّد: ٢٥.

(٢) محمّد: ١٧.

(٣) تفسير البرهان: ٤ / ١٩٠ ح ٤، بحار الأنوار: ٢٤ / ٣٢٠.

كتاب الله والعمل بما فيه والعود إلى الشرك ورفض الدين.

والمعنى: فهل يتوقّع منكم إن أعرضتم عن كتاب الله والعمل بما فيه ومنه الجهاد في سبيل الله أن تُفسدوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم بسفك الدماء ونهب الأموال وهتك الأعراض تكالباً على جيفة الدنيا، أي إن تولّيتم كان المتوقّع منكم ذلك.

وقد ظهر بذلك أنّ الآية في مقام التعليل لقوله في الآية السابقة: ﴿ *لكان خيراً لهم* ﴾ ولذا صدّر بالفاء.

وقيل: المراد بالتولّي التصدّي للحكم والولاية، والمعنى: هل يتوقع منكم إن جُعلتم ولاة أن تُفسدوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم بسفك الدماء الحرام وأخذ الرشاء والجور في الحكم هذا، وهو معنى بعيدٌ عن السياق.

قوله تعالىٰ: ﴿ *أولئك الّذين لعنهمُ الله فأصمّهم وأعمىٰ أبصارهم* ﴾ الإشارة إلى المفسدين في الأرض المقطّعين للأرحام وقد وصفهم الله بأنّه لعنهم فأصمّهم وأذهب بسمعهم فلا يسمعون القول الحقّ، وأعمىٰ أبصارهم فلايرون الرأي الحقّ فإنها لا تعمىٰ الأبصار ولكن تعمىٰ القلوبُ الّتي في الصدور[1].

معنى الردّة:

أمّا في تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿ *إن الّذين ارتدّوا...إلخ* ﴾ فقال ﷺ: «الارتداد على الأدبار الرجوع إلى الاستدبار بعد الاستقبال وهو استعارة أُريد بها الترك بعد الأخذ، والتسويل تزيين ما تحرّض النفس عليه وتصوير القبيح لها في صورة

(١) تفسير الميزان: ١٨ / ٢٤٠ ـ ٢٤١.

الحسن، والمراد بالإملاء الإمداد أو تطويل الآمال[1].

الإفساد في جميع الحالات:

يُستفاد من التدبّر في معنى الآيات الكريمة وتطبيق الحديث الشريف لها على القضية المهدوية:

١ ـ إنّ امتلاك المعرضين عن الدين الحقّ المعادين لخطّ الولاية الإلهيّة المعصومة لزمام السلطة في العالم الإسلامي يؤدّي إلى وقوع الفساد في الأرض وتقطيع الأرحام ونهب الأموال وهتك الأعراض، أي الفساد الاقتصادي والاجتماعي والأخلاقي وانتشار الظلم والجور والفساد. وفي ذلك كشفٌ لبطلان دعاوي التيّارات المنحرفة عن خطّ الولاية الحقّة بأنها لو ملكت لأقامت العدل، إذ أنّ ضمانة إقامة العدل هو أن يكون القائم بذلك منزّهاً عن جميع أشكال الظلم. وكشف بطلان هذه الدعاوي يتمّ الحجّة الإلهيّة ويمهّد لدولة المهديّ الإلهيّة.

٢ ـ إنّ الّذين يهتدون للهدىٰ وخطّ الولاية الإلهيّة الحقّة يفوزون برعاية إلهية خاصّة في ظلّ أوضاع الانحراف هذه، فيهديهم الله تبارك وتعالىٰ إلى معرفة الإمام الحقّ في زمانهم ليتمسّكوا به، وينجوا بذلك من الضلالة وميتة الجاهلية ويأمنوا السقوط في النار.

٣ ـ في الآية الكريمة نصٌّ صريحٌ علىٰ لعن الله جلّت قدرته لهؤلاء المفسدين في الأرض، فيشتركون في هذا اللعن مع الشجرة الملعونة في القرآن الكريم الّتي حرفت حركة المسلمين عن المسار الإلهيّ والصراط المستقيم. ويبدو أنّ هذا اللعن هو بسبب هذا الإفساد.

---

(١) تفسير الميزان: ١٨ / ٢٤١.

٤ـ واضحٌ أنّ ذكر بني العبّاس وبني أُمية هو من باب ذكر المصداق، فالتطبيق يشمل كلّ التيّارات المحاربة لخطّ الولاية المعصومة الّتي تعمد إلى الإفساد في الأرض.

يوم الفتح يوم إنهاء الردّة والإفساد:

وعلىٰ ضوء الدلالات المتحصلة من تطبيق الآيات الكريمة المتقدّمة يتّضح وجه تطبيق آيات يوم الفتح علىٰ ظهور الإمام المهديّ عجّل الله فرجه باعتباره يمثّل يوم الفتح الّذي تتّضح فيه أحقّية الخطّ الممثّل للدين الحقّ وبطلان التيّارات الظالمة. وقد تقدّم الحديث عن دلالاتها في الفصل السادس، كما أنّ يوم الفتح هذا هو يوم إنهاء الردّة عن الدين الحقّ وإنهاء حاكميّة المرتدّين عن خطّ الولاية الإلهيّة المعصومة الّذي يمثّله خاتم الأوصياء المهديّ الموعود عجّل الله فرجه كما سنلاحظ في الآية اللاحقة.

خامساً: المهديّ عليه السلام ينهي الردّة عن الدين الحقّ:

قوله تعالىٰ:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرتَدَّ مِنكُم عَن دِينِهِ فَسَوفَ يَأتِي اللهُ بِقَومٍ يُحِبُّهُم وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى المُؤمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ ﴾ (١)

١ ـ روىٰ محمّد بن إبراهيم المعروف بابن أبي زينب النعماني في كتاب

(١) المائدة: ٥٤.

الغَيبة قال: أخبرنا أحمد بن محمّد بن سعيد بن عقدة قال: حدّثنا الحسن بن علي [علي بن الحسن] بن فضّال (قال: حدّثنا محمّد بن عمرو ومحمّد بن الوليد) قال: حدّثنا [محمّد بن حمزة ومحمّد بن سعيد قالا: حدّثنا] حمّاد بن عثمان عن سليمان بن هارون العجلي، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول [قال أبو عبد الله عليه السلام]:

إنّ صاحب هذا الأمر محفوظ له [أصحابه] ولو ذهب الناس جميعاً أتى الله بأصحابه، وهم الّذين قال الله [عزّوجلّ]: ﴿ ***فإن يَكفُر بِهَا هَؤلَاءِ فَقَد وَكَّلنَا بِهَا قَوماً لَيسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ*** ﴾[1] وهم الّذين قال الله [عزّوجلّ فيهم] ﴿ ***فسوف يأتي الله بقومٍ يُحبّهم ويُحبّونه أذلّةٍ على المؤمنين أعزّةٍ على الكافرين*** ﴾[2].

٢ـ وروى العياشي في تفسيره باسناده عن سليمان بن هارون قال: قلت له: إنّ بعض هؤلاء العجلة يزعمون أنّ سيف رسول الله صلى الله عليه وآله عند عبد الله بن الحسن، فقال: والله ما رآه ولا أبوه بواحدة من عينيه، إلّا أن يكون رآه أبوه عند الحسين عليه السلام وإنّ صاحب هذا الأمر محفوظ له، فلا تذهبنّ يميناً ولا شمالاً، فإنّ الأمر والله واضحٌ، والله لو أنّ أهل السماء والأرض اجتمعوا على أن يحوّلوا هذا الأمر من موضعه الّذي وضعه الله فيه ما استطاعوا، ولو أنّ الناس كفروا جميعاً حتّى لا يبقى أحد لجاء الله لهذا الأمر بأهل يكونون من أهله.

ثمّ قال: أما تسمع الله يقول: ﴿ ***ياأيّها الّذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقومٍ يُحبّهمُ ويُحبّونه أذلّةٍ على المؤمنين أعزّةٍ على الكافرين*** ﴾ حتّى فرغ من الآية، وقال في آيةٍ أُخرى: ﴿ ***فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكّلنا بها قوماً***

(١) الأنعام: ٨٩.
(٢) غَيبة النعماني: ٣١٦.

ليسوا بها بكافرين ﴾. ثمّ قال: إنّ [أهل] هذه الآية هم أهل تلك الآية(١).

٣ـ وقال علي بن إبراهيم في تفسيره للآية: وأمّا قوله: ﴿ *ياأيّها الّذين آمنوا مَن يرتدّ منكم... في سبيل الله* ﴾ هو مخاطبة لأصحاب رسول الله ﷺ الّذين غصبوا آل محمّد حقّهم وارتدّوا عن دين الله ﴿ *فسوف يأتي الله بقومٍ يُحبّهم ويُحبّونه* ﴾ نزلت في القائم وأصحابه ﴿ *يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم* ﴾(٢).

الّذين ينهون الردّة هم الموكّلون بحفظ الدين:

استوفينا الحديث عن تفسير ودلالات آية سورة المائدة المباركة ضمن البحث في الآيات المتحدّثة عن دور الإمام المهديّ عجّل الله فرجه في تصحيح المسيرة الإسلامية، ونقلنا هنا الأحاديث الناصّة علىٰ أنّ الإمام وأصحابه هم مصداق الآية الكريمة. وقبل التحدّث عن الدلالات المستفادة من الأحاديث الشريفة المتقدّمة نشير إلى أنّ من الضروري الرجوع إلى الدلالات المستفادة من آية سورة الأنعام الّتي طبّقاها الحديثان الشريفان ـ من باب الجري ـ على المصداق نفسه، وهي من الآيات الكريمة الّتي أوردناها في الفصل الأول من الباب الأول من الكتاب(٣) لدلالتها علىٰ حتمية وجود واحدٍ أو أكثر في كلّ زمان من عباد الله المعصومين الّذين وكّلهم الله تبارك وتعالىٰ بحفظ الرسالة المحمّدية

---

(١) تفسير العيّاشي: ١ / ٣٢٦، وروىٰ نحوه الصفّار في بصائر الدرجات: ١٧٤ عن العبّاس بن المعروف عن حمّاد بن سليمان عن ابن مسكان عن سليمان بن هارون عن الإمام الصادق عليه السلام، كما روىٰ نحوه في المصدر نفسه: ١٧٧ عن محمّد بن عبدالجبّار عن البرقي عن فضالة بن أيّوب عن سليمان بن هارون العجلي عن الإمام الصادق عليه السلام.

(٢) تفسير القمّي: ١ / ١٧٠.

(٣) راجع صفحة ٣٧.

النقية من تحريفات المبطلين بعد وفاة خاتم النبيّين ﷺ.

١ـ يُستفاد من الأحاديث الشريفة تأكيد دلالات الآيتين الكريمتين علىٰ حتمية وقوع الانحراف في المسيرة الإسلامية عن الدين الحقّ المتمثّل بخطّ الولاية الحقّة الّذي يتولّىٰ أئمّتُهُ مهمّة حفظ الرسالة المحمّدية.

٢ـ ويُستفاد أيضاً تبعاً لذلك حتمية ظهور المهديّ عجّل الله فرجه للقيام بتصحيح هذا الانحراف وإعادة الحاكمية للدين الحقّ ليقيم الدولة الإلهيّة العادلة.

٣ـ ويُستفاد أيضاً من الأحاديث الشريفة تحديد أوضح لهوية الّذين يقومون بإنهاء الردّة عن الدين الحقّ وإعادة المجد الإسلامي، فهؤلاء هم من خطّ المعصومين الّذين لا يكفرون بالله طرفة عين والموكّلين بحفظ الرسالة المحمّدية، بمعنىٰ أنّ قائدهم هو من المعصومين الموكّلين بحفظ الرسالة الإلهيّة، وهم من الصفوة المتفانية في اتّباعه.

سادساً: الكيد الإلهيّ وإمهال المفسدين:

قوله تعالىٰ:

﴿*إنّهم يكيدون كيداً * وأكيدُ كيداً * فمهّل الكافرينَ أمهِلْهم رُوَيداً*﴾[1]

روىٰ علي بن إبراهيم قال: حدّثنا جعفر بن أحمد عن عبيدالله بن موسى عن الحسن بن علي عن ابن أبي حمزة عن أبي بصير في قوله: ﴿*فَمَا لَهُ مِن قوّةٍ وَلَا نَاصِرٍ*﴾[2] قال عليه السلام: ما له قوّةٌ يقوى بها على خالقه ولا ناصرٌ من الله ينصره إن أراد به سوءً.

(١) الطارق: ١٥ ـ ١٧.

(٢) الطارق: ١٠.

قلت: ﴿إنهم يكيدون كيداً﴾ قال: كادوا رسول الله ﷺ وكادوا علياً عليه السلام وكادوا فاطمة عليها السلام، فقال الله: يامحمّد ﴿إنّهم يكيدون كيداً * وأكيد كيداً * فمهّل الكافرينَ﴾ ـ يامحمّد ـ ﴿أمهِلْهم رُوَيداً﴾ لوقت بعث القائم عليه السلام فينتقم لي من الجبّارين والطواغيت من قريش وبني أُمية وسائر الناس[1].

وقال العلّامة الطباطبائي في معنى الآيات الكريمة: أي الكفّار يحتالون بكفرهم وإنكارهم المعاد احتيالاً يريدون به إطفاء نور الله وإبطال دعوتك، وأحتال عليهم بعين أعمالهم بالاستدراج والإملاء والإضلال بالطبع على قلوبهم وجعل الغشاوة على سمعهم وأبصارهم احتيالاً أسوقهم به إلى عذاب يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿فمهّل الكافرينَ أمهِلْهم رُوَيداً﴾ التمهيل والإمهال بمعنى واحد، غير أنّ باب التفعيل يفيد التدرّج والإفعال يفيد الدفعة، والرويد القليل. والمعنى: إذا كان منهم كيدٌ عليهم بعين ما يكيدون به والله غالبٌ على أمره، فانتظر بهم ولا تعاجلهم، انتظر بهم قليلاً فسيأتيهم ما أُوعدهم به فكلّ ما هو آتٍ قريب.

وفي التعبير أوّلاً بـ«مهّل» الظاهر في التدريج وثانياً مع التقييد برويداً بأمهل الظاهر في الدفعة لطفٌ ظاهر[2].

ويُفيد التدبّر في تفسير الآية الكريمة، والحديث الوارد في تطبيقها الدلالتين التاليتين:

هدف المفسدين إطفاء النور الإلهيّ:

١ ـ إنّ أهداف أعداء خطّ الإمامة المعصومة والولاية الإلهيّة الحقّة من كيدهم برموز هذا الخطّ المبارك هو إطفاء نور الله تبارك وتعالى وإبطال الدعوة

---

(١) تفسير القمّي: ٢ / ٤١٦.

(٢) تفسير الميزان: ٢٠ / ٢٦١.

المحمّدية، فيكون الكيد الإلهيّ المحبط لأهدافهم ـ حسب تطبيق الآيات الكريمة على القضية المهدوية ـ هو إحباط هدفهم هذا بإتمام نوره وإظهار الشريعة المحمّدية النقية، بل وتحويل انحرافهم وعدائهم لخطّ الإمامة المعصومة إلى وسيلةٍ لإثبات أحقّيتها وتحقيق هدفه في إتمام نوره وإظهار دينه الحقّ الّذي تمثّله الإمامة المعصومة والإمام المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه.

٢ـ يُستفاد من استخدام فعل «مهّل» من التمهيل التدريجي أوّلاً، ثمّ استخدام فعل «أمهل» من الإمهال الفوري خاصّة مع التقييد برويداً الّذي يفيد الفترة الوجيزة أنّ أمد الانحراف يطول ولكن ظهور الإمام وإنجازه لمهمّته في تحقيق ما أوعد به الظالمين من الانتقام يكون سريعاً يتمّ في فترة قصيرة يقيم بعدها الدولة العادلة والمجتمع الصالح.

اتّضاح التأييد الإلهيّ لخطّ الولاية المعصومة:

في يوم الفتح وعند ظهور المهديّ الموعود عجّل الله فرجه تتضح أسرار ومظاهر نصرة الله تبارك وتعالىٰ لخطّ الولاية الإلهيّة المعصومة ومكره عزّوجلّ بأعدائهم، فيظهر أنّ أعداءهم هم في غاية العجز والضعف بحيث فشلوا في كلّ مساعيهم لإطفاء النور الإلهيّ وإبادة العترة الطاهرة، وفشلوا في مساعيهم لمنع ظهور خاتمهم المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه، وأنّ مكرهم السيّئ قد أحاق بهم، وأنّ الكيد الربّاني قد استدرجهم من حيث لا يعلمون، فأصبحوا وسيلةً لإثبات أحقّية خطّ الولاية المعصومة.

وبالتالي، فعند ظهور المهديّ عجّل الله فرجه يحيط العذاب بالظالمين والمفسدين ويحيق بهم الخزي الدنيوي حيث يتضح أنّهم ﴿ *شرّ مكاناً وأضعفُ جُنداً* ﴾، وبذلك يظهر الدين الحقّ على الدين كلّه.

الحقائق المتقدّمة نلاحظها بوضوح في تطبيق الحديث الشريف التالي للآيات التالية من سورة مريم على القضية المهدوية، وهي:

سابعاً: المفسدون شرّ مكاناً وأضعف جنداً:

قوله تعالىٰ:

﴿حَتَّى إِذَا رَأَوا مَا يُوعَدُون إِمَّا العَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيعلَمُون مَن هُوَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضعَفُ جُنداً﴾ [1]

فقد روىٰ محمّد بن يعقوب الكليني عن محمّد بن يحيى عن سلمة بن الخطّاب عن الحسن بن عبد الرحمن عن علي بن أبي حمزة عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزّوجلّ: ﴿وَإِذا تُتلَى عَلَيهِم آياتُنا بَيِّناتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الفَرِيقَينِ خَيرٌ مَّقَاماً وَأَحسَنُ نَدِيّاً﴾ [2] قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله دعا قريشاً إلى ولايتنا فنفروا وأنكروا: ﴿فقال الّذين كفروا﴾ من قريش ﴿للّذين آمنوا﴾ والّذين أقرّوا لأميرالمؤمنين ولنا أهل البيت ﴿أيُّ الفريقين خيرٌ مقاماً وأحسنُ نديّاً﴾ تعييراً منهم، فقال الله عزّوجلّ ردّاً عليهم: ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرنٍ﴾ من الأمم السالفة ﴿هُم أَحسَنُ أَثاثاً وَرِءْياً﴾ [3]. قلت: قوله ﴿مَن كَانَ فِي الضَّلالةِ فَليَمدُد لَهُ الرَّحمنُ مَدّاً﴾ [4]؟ قال: كلّهم كانوا في الضلالة لا يؤمنون بولاية أميرالمؤمنين عليه السلام ولا بولايتنا، فكانوا ضالّين مضلّين، فيمدّ لهم في ضلالتهم وطغيانهم حتّى يموتوا فيصيّرهم الله شرّاً مكاناً

---

(١) مريم: ٧٥.

(٢) مريم: ٧٣.

(٣ و ٤) مريم: ٧٤ و ٧٥.

وأضعف جنداً. قلت: قوله: ﴿ *حتّى إذا رأوا ما يوعَدون إمّا العذابَ وإمّا الساعةَ فسيعلمون مَن هو شرٌّ مكاناً وأضعفُ جُنداً* ﴾؟ قال: أمّا قوله: ﴿ *حتّىٰ إذا رأوا ما يوعَدون* ﴾ فهو خروج القائم عليه السلام وهو الساعة، فسيعلمون ذلك اليوم وما نزل بهم من الله على يديه قائمه، فذلك قوله ﴿ *مَن هو شرٌّ مكاناً* ﴾ يعني عند القائم ﴿ *وأضعفُ جُنداً* ﴾. قلت: قوله: ﴿ *وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهتَدَوا هُدى* ﴾[١]؟ قال: يزيدهم ذلك اليوم هدىً على هدىً باتّباعهم القائم حيث لا يجحدونه ولا ينكرونه. قلت: قوله: ﴿ *لَا يَملِكُونَ الشَّفاعَةَ إلّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحمَنِ عَهداً* ﴾[٢]؟ قال: إلّا من دان الله بولاية أميرالمؤمنين والأئمّة من بعده فهو العهد عند الله. قلت: قوله: ﴿ *إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجعَلُ لَهُمُ الرَّحمَنُ وُداً* ﴾[٣]؟ قال: ولاية أميرالمؤمنين عليه السلام هي الودّ الّذي قال الله تعالى. قلت: ﴿ *فَإنّما يَسّرنَاهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ المُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوماً لُدّاً* ﴾[٤]؟ قال: إنّما يسّره الله على لسانه حين أقام أميرالمؤمنين عليه السلام عَلَماً، فبشّر به المؤمنين وأنذر به الكافرين وهم الّذين ذكرهم الله في كتابه «لُدّاً» أي كفّاراً[٥].

---

(١) مريم: ٧٦.

(٢) مريم: ٨٧.

(٣ و ٤) مريم: ٩٦ و ٩٧.

(٥) الكافي: ١ / ٤٣١، وعنه في تأويل الآيات الظاهرة: ١ / ٣٠٦.

الفصل التاسع

حتمية وقوع الفتح المهدوي

مدخل:

يمكن استفادة حتمية ظهور المهديّ الموعود عجّل الله فرجه من الكثير من الآيات المتحدّثة عن قضيته بصورةٍ مباشرة أو غير مباشرة، سواءٌ الّتي تدلّ علىٰ حتمية تحقّق الوعود الإلهيّة بإظهار الإسلام على الدين كلّه وإتمام النور الإلهيّ واستخلاف صالحي المؤمنين في الأرض وتوريثها المستضعفين في سبيله تبارك وتعالىٰ، أو المتحدّثة عن حتمية مجيء يوم الفتح الّذي يفصل فيه الله تبارك وتعالىٰ في الدنيا بين التيارات المختلفة في فهم الدين ويكشف فيه زيف المناهج المضلّة، أو المتحدّثة عن بعض السنن الإلهيّة الثابتة والجارية في خلقه تعالىٰ والّتي يكون الظهور المهدوي أحد أو أبرز مصاديقها.

في هذا الفصل نتناول بعض الآيات الكريمة الّتي يُستفاد منها هذا الأمر، ومنها ما تطرّقنا للحديث عن تفسيرها وتثبيت دلالاتها بشأن القضية المهدوية في الباب الأول من هذا الكتاب، فنكتفي هنا بنقل الأحاديث الشريفة الواردة

بشأنها وهي تؤيّد الدلالات المستفادة منها وتصرّح بنزولها بشأن الظهور المهدوي، ومنها الآيات المطبقة على هذا الظهور كأحد أو أبرز مصاديقها، وهذه الطائفة نتطرّق لتفسيرها وتوضيح وجه تطبيقها والدلالات المستفادة منها ـ على ضوء هذا التطبيق ـ فيما يرتبط بموضوع البحث.

أوّلاً: ظهور المهديّ رزقٌ سماويٌّ حتميّ:

قوله تعالى:

﴿ ***وَفي السَّماءِ رِزقُكُم وَمَا تُوعَدُون * فَوربِّ السَّماءِ والأرضِ إنّهُ لَحَقٌّ مِثلَ مَا أَنَّكُم تَنطِقُون*** ﴾ (١)

١ ـ روى محمّد بن العبّاس ﵀: قال: حدّثنا علي بن عبد الله عن إبراهيم بن محمّد الثقفي عن الحسن بن الحسين عن سفيان بن إبراهيم عن عمرو بن هاشم عن إسحاق بن عبد الله عن علي (بن الحسين) ﵉ في قول الله عزّوجلّ: ﴿ ***فوربِّ السماءِ والأرضِ إنّهُ لحقٌّ مثلَ ما أنّكم تنطِقون*** ﴾ قال: قوله ﴿ ***إنّه لحقٌّ*** ﴾ [هو] قيام القائم ﵇، وفيه نزلت: ﴿ ***وَعَدَ اللهُ الّذِينَ آمَنُوا مِنكُم وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ليستَخلِفنَّهُم فِي الأرضِ كَمَا استَخلَفَ الّذِينَ مِن قبلِهِم وليمكّننّ لَهُم دِينَهم الّذِي ارتضى لَهُم وَليبدّلنَّهُم مِن بَعدِ خَوفِهِم أمناً*** ﴾ (٢).

٢ ـ وروى الشيخ الطوسي في الغَيبة: قال: أخبرنا الشريف أبو محمّد المحمدي ﵀ عن محمّد بن علي بن تمام عن الحسين بن محمّد القطعي عن علي بن أحمد بن حاتم البزّار عن محمّد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح

---

(١) الذاريات: ٢٢ و ٢٣.

(٢) تأويل الآيات الظاهرة: ٢ / ٦١٥، ورواه الشيخ الطوسي في كتاب الغَيبة: ١١٠.

عن عبد الله بن العبّاس في قول الله تعالى: ﴿ *وفي السماء رزقكم وما توعَدون * فوربِّ السماءِ والأرضِ إنّهُ لحقٌّ مثلَ ما أنّكم تنطِقون* ﴾ قال: [قيام] القائم عليه السلام، ومثله: ﴿ *أينَما تكُونُوا يأتِ بِكُمُ اللهُ جَميعاً* ﴾[١] قال: أصحاب القائم عليه السلام يجمعهم الله في يومٍ واحد[٢].

٣ـ وعنه قال: روى إبراهيم بن مسلمة [سلمة] عن أحمد بن مالك الفزاري عن حيدر بن محمّد الفزاري عن عبّاد بن يعقوب عن نصر بن مزاحم عن محمّد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عبّاس في قوله تعالىٰ: ﴿ *وفي السماء رزقكم وما توعَدون* ﴾ قال: هو خروج القائم [المهديّ] عليه السلام[٣].

٤ـ وروى الحافظ القندوزي الحنفي قال: روي عن إسحاق بن عبد الله عن زين العابدين [علي بن الحسين] عليه السلام قال في قوله تعالىٰ ﴿ *فوربِّ السماءِ والأرضِ إنّهُ لحقٌّ* ﴾: أي أنّ قيام (قائمنا) لحقّ ﴿ *مثلَ ما أنّكم تنطِقون* ﴾[٤].

من الأمر الثابت المحتوم:

نبدأ بنقل تفسير الآيتين الكريمتين من «الميزان» حيث وردت في الأحاديث الشريفة المتقدّمة قبل التعرّف علىٰ وجه تطبيقهما على الظهور المهدوي ومدلولات هذا التطبيق. قال رحمه الله:

قوله تعالىٰ: ﴿ *وفي السماء رزقكم وما توعَدون* ﴾ قيل: المراد بالسماء جهة العلوّ، فإنّ كلّ ما علاك وأظلّك فهو سماء لغةً، والمراد بالرزق المطر الّذي ينزله

---

(١) البقرة: ١٤٨.

(٢) غَيبة الطوسي: ١١٠.

(٣) غَيبة الطوسي: ١٠٩.

(٤) ينابيع المودّة: ٤٢٦.

الله على الأرض فيخرج به أنواع ما يقتاتونه ويلبسونه وينتفعون به، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِن رِزقٍ فَأَحيا بِهِ الأرضَ بَعدَ مَوتِها﴾ (١) فسمّى المطر رزقاً، فالمراد بالرزق سببه، أو بتقدير مضاف أي سبب رزقكم.

وقيل: المراد أسباب الرزق السماوية من الشمس والقمر والكواكب واختلاف المطالع والمغارب الراسمة للفصول الأربعة وتوالي الليل والنهار، وهي جميعاً أسباب الرزق، فالكلام على تقدير مضاف أي أسباب رزقكم، أو فيه تجوّز بدعوى أنّ وجود الأسباب فيها وجود ذوات الأسباب.

وقيل: المراد بكون الرزق فيهاكون تقديره فيها، أو أنّ الأرزاق مكتوبة في اللوح المحفوظ فيها.

ويمكن أن يكون المراد به عالم الغَيب فإنّ الأشياء ومنها الأرزاق تنزل من عند الله سبحانه، وقد صرّح بذلك في أشياء كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِنَ الأنعَامِ ثَمانِيَةَ أَزوَاجٍ﴾ (٢)، وقوله: ﴿وَأَنزَلنَا الحَدِيدَ فِيهِ بَأسٌ شَدِيد﴾ (٣)، وقوله على نحو العموم: ﴿وإنْ مِن شَيءٍ إلّا عِندَنَا خَزائِنُهُ وَمَا نُنزّلُهُ إلّا بِقَدَرٍ مَّعلُوم﴾ (٤) والمراد بالرزق كلّ ما ينتفع به الإنسان في بقائه من مأكلٍ ومشربٍ وملبسٍ ومسكنٍ ومنكحٍ وولدٍ وعلمٍ وقوّةٍ وغير ذلك.

وقوله: ﴿وما توعَدون﴾ عطف على ﴿رزقكم﴾. الظاهر أنّ المراد به الجنّة لقوله تعالى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ المَأوى﴾ (٥)، وقول بعضهم: إنّ المراد به الجنّة

---

(١) الجاثية: ٥.

(٢) الزمر: ٦.

(٣) الحديد: ٢٥.

(٤) الحِجر: ٢١.

(٥) النجم: ١٥.

والنار أو الثواب والعقاب لا يلائمه قوله تعالىٰ: ﴿إنّ الّذِينَ كَذّبُوا بِآياتِنا وَاستَكبَرشوا عَنهَا لا تُفتّحُ لَهُم أبوابُ السّماءِ وَلا يَدخُلونَ الجَنّةَ حَتّى يَلِجَ الجَمَلُ في سَمِّ الخِياط﴾[1].

نعم، تكرّر في القرآن نسبة نزول العذاب الدنيوي إلى السماء كقوله: ﴿فَأنزَلنَا عَلَى الّذِينَ ظَلَمُوا رِجزاً مِنَ السّماءِ﴾[2]، وغير ذلك.

وعن بعضهم أنّ قوله: ﴿وما توعَدون﴾ مبتدأ خبره قوله: ﴿فوربِّ السماءِ والأرضِ إنّهُ لحقٌّ﴾ والواو للاستئناف وهو معنى بعيدٌ عن الفهم.

قوله تعالىٰ: ﴿فوربِّ السماءِ والأرضِ إنّهُ لحقٌّ مثلَ ما أنّكم تنطِقون﴾ النطق التكلّم، وضمير «إنّه» راجع إلى ما ذكر من كون الرزق وما توعدون في السماء، والحقّ هو الثابت المحتوم في القضاء الإلهيّ دون أن يكون أمراً تبعياً أو اتفاقياً.

والمعنى: أُقسم بربّ السماء والأرض إنّ ما ذكرناه من كون رزقكم وما توعدونه من الجنّة ـ وهو أيضاً من الرزق فقد تكرّر في القرآن تسمية الجنّة رزقاً كقوله: ﴿لَهُم مَغفِرةٌ وَرِزقٌ كَرِيم﴾[3]، وغير ذلك ـ في السماء لثابت مقضيّ مثل نطقكم وتكلّمكم الّذي هو حقّ لا ترتابون فيه.

وجوّز بعضهم أن يكون ضمير «إنّه» راجعاً إلى «ما توعدون» فقط أو إلى الرزق فقط أو إلى الله أو إلى النبيّ ﷺ أو إلى القرآن أو إلى الدين في قوله: ﴿وإنّ الدِّينَ لَواقِع﴾[4] أو إلى اليوم في قوله: ﴿أيّانَ يَومَ الدِّين﴾[5] أو إلى

---

(١) الأعراف: ٤٠.

(٢) البقرة: ٥٩.

(٣) الأنفال: ٧٤.

(٤) الذاريات: ٦.

(٥) الذاريات: ١٢.

جميع ما تقدّم من أوّل السورة إلى هاهنا، ولعلّ الأوجه رجوعه إلى ما ذكر في قوله: ﴿ *وفي السماء رزقكم وما توعَدون* ﴾ كما قدّمنا.

كلامٌ في تكافؤ الرزق والمرزوق

الرزق بمعنى ما يرتزق به هو ما يمدّ شيئاً آخر في بقائه بانضمامه إليه أو لحوقه به بأيّ معنى كان، كالغذاء الّذي يمدّ الإنسان في حياته وبقائه بصيرورته جزء من بدنه، وكالزوج يمدّ زوجه في إرضاء غريزته وبقاء نسله، وعلى هذا القياس.

ومن البين: أنّ الأشياء المادّية يرتزق بعضها ببعض كالإنسان بالحيوان والنبات مثلاً، فما يلحق المرزوق في بقائه من أطوار الكينونة ومختلف الأحوال كما أنها أطوار من الكون لاحقة به منسوبة إليه كذلك هي بعينها أطوار من الكون لاحقة بالرزق منسوبة إليه وإن كان ربما تغيّرت الأسماء، فكما أنّ الإنسان يصير بالتغذّي ذا أجزاء جديدة في بدنه، كذلك الغذاء يصير جزء جديد من بدنه اسمه كذا.

ومن البين أيضاً: أنّ القضاء محيطٌ بالكون مستوعبٌ للأشياء يتعيّن به ما يجري على كلّ شيءٍ في نفسه وأطوار وجوده. وبعبارة أُخرى: سلسلة الحوادث بما لها من النظام الجاري مؤلّفة من علل تامّة ومعلولات ضرورية.

ومن هنا يظهر أنّ الرزق والمرزوق متلازمان لا يتفارقان، فلا معنى لموجود يطرأ عليه طور جديد في وجوده بانضمام شيء أو لحوقه إلّا مع وجود الشيء المنضمّ أو اللاحق المشترك معه في طوره ذلك، فلا معنى لمرزوق مستمدّ

في بقائه ولا رزق له، ولا معنى لرزق متحقّق ولا مرزوق له كما لا معنى لزيادة الرزق على ما يحتاج إليه المرزوق، وكذا لبقاء مرزوق من غير رزق، فالرزق داخل في القضاء الإلهيّ دخولاً أولياً لا بالعرض ولا بالتبع، وهو المعنيّ بكون الرزق حقّاً(١).

دلالات الآيتين

يُفهم من التدبّر في تفسير الآيتين الكريمتين والأحاديث الشريفة المطبقة لها عدّة أُمور، أبرزها:

١ـ حتمية ظهور المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه، وهذا هو المستفاد من تطبيق الإمام زين العابدين سلام الله عليه لقوله تعالىٰ: ﴿إنّه لحقٌّ﴾ علىٰ قيام القائم عليه السلام، وقد لاحظنا في تفسير الآية أنّ المراد بالحقّ فيها هو الأمر الثابت المحتوم في القضاء الإلهيّ الّذي لا تبديل فيه ولا تغيير.

٢ـ ويُفهم من تشبيه الظهور المهدوي بالرزق الموعود سواء كان بمعنىٰ الجنّة أو الرزق المادّي أنّ هذا الظهور المقدّس هو رحمةٌ وبركةٌ للناس في كلّ حال وإن اشتمل على العذاب الأليم للمعاندين والكافرين.

ظهور المهديّ حاجة فطرية:

ويُفهم من هذا التشبيه أيضاً حتمية وقوع ظهور القائم المهديّ عجّل الله فرجه انطلاقاً من حتمية نزول الرزق الّذي ضمنه الله لعباده. والأهمّ من ذلك هو ما يدلّ التدبّر في المقطع الأخير من بيان العلّامة الطباطبائي رحمه الله،

---

(١) تفسير الميزان: ١٨ / ٣٧٤ ـ ٣٧٦.

وإشارته إلى التناسب بين الرزق والمرزوق وحتمية وجود الرزق بوجود المرزوق وبالمقدار الّذي يحتاج إليه المرزوق، إذ أنّ ذلك يدلّ ـ استناداً إلى تطبيقه علىٰ ظهور المهديّ المنقذ ـ علىٰ أنّ ظهور الإمام وحركته التأريخية في إقامة الدولة الإلهيّة العادلة يعبّر عن رزقٍ ربّاني يلبّي حاجة فطرية أساسية في الإنسان لا غنىٰ له عنها، وهذا الأمر ينسجم مع القول بأنّ عقيدة المصلح العالميّ المنتظر ذات جذور فطرية، كما يؤكّد ذلك آية الله السيّد الشهيد محمّد باقر الصدر في مقدّمة كتاب «بحث حول المهديّ» ويستدلّ عليها باتفاق الأديان السماوية وحتّى المدارس الفكرية الأرضية والمادّية ـ مثل الماركسية ـ على الإيمان بحتمية تحقّق اليوم الموعود. هذا أوّلاً.

وثانياً فإنّ ما يتحقّق في ظلّ دولة المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه هو بالمقدار الّذي يلبّي بالكامل هذه الحاجة الفطرية، وقد يكون ذلك بتوفير جميع الأوضاع اللازمة لتحقّق الغاية من خلق الإنسان المتمثّلة في تحقيق الصورة الكاملة للعبودية الحقّة لله تبارك وتعالىٰ.

ثانياً: قضاء الله بتوريث الأرض لصالحي عباده:

قوله تعالىٰ:

﴿ *وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ * أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ* ﴾ (١)

١ـ روىٰ علي بن إبراهيم في تفسيره عن الإمام الباقر عليه السلام في معنى قوله تعالى ﴿ *ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر* ﴾ قال: الكتب كلّها ذكر ﴿ *أنّ الأرض يرثها*

(١) الأنبياء: ١٠٥.

عبادي الصالحون ﴾ قال: القائم عليه السلام وأصحابه(١).

٢ـ وروى محمّد بن العبّاس قال: حدّثنا أحمد بن محمّد بن أحمد بن الحسن عن أبيه عن الحسين بن محمّد بن عبد الله بن الحسن عن أبيه عن أبي جعفر عليه السلام قال: قوله عزّوجلّ: ﴿ *أنّ الأرض يرثُها عبادي الصالحون* ﴾ هم أصحاب المهديّ عليه السلام آخر الزمان(٢).

٣ـ وروى الطبرسي في تفسير الآية قال أبو جعفر عليه السلام: هم أصحاب المهديّ في آخر الزمان(٣).

٤ـ وروى الحافظ القندوزي سليمان الحنفي بإسناده قال عن الباقر والصادق رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ *وَلَقَد كَتَبنا في الزَّبُورِ مِن بَعدِ الذِّكر أنَّ الأرضَ يَرِثُها عبادِيَ الصَّالِحُون* ﴾ قالا: هم القائم وأصحابه(٤).

٥ـ وقال علي بن إبراهيم في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ *وَلَقَد آتَينا دَاوُدَ وَسُلَيمَانَ عِلماً ـ إلىٰ قوله ـ مُبِين* ﴾(٥): أعطىٰ داود وسليمان ما لم يعط أحداً من أنبياء الله من الآيات، علّمهما منطق الطير، وألان لهما الحديد والصفر من غير نار، وجعلت الجبال يسبّحن مع داود، وأنزل الله عليه الزبور فيه توحيد وتمجيد ودعاء وأخبار رسول الله صلى الله عليه وآله وأميرالمؤمنين عليه السلام والأئمّة، من ذرّيتهما عليهما السلام وأخبار الرجعة والقائم عليه السلام لقوله: ﴿ *ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أنّ الأرض يرثُها عبادي الصالحون* ﴾(٦).

(١) تفسير القمي: ٢ / ٧٧.
(٢) تأويل الآيات الظاهرة: ١ / ٣٣٢.
(٣) مجمع البيان: ٤ / ٦٦.
(٤) ينابيع المودّة: ٤٢٥.
(٥) النمل: ١٦ ـ ٢١.
(٦) تفسير القمّي: ٢ / ١٢٦.

ثالثاً: استخلاف صالحي المؤمنين:

قوله تعالى:

﴿ *وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُم وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَستَخلِفَنَّهُم فِي الأَرضِ كَمَا استَخلَفَ الَّذِينَ مِن قَبلِهِم* ﴾[1]

١ ـ روى محمّد بن إبراهيم النعماني في الغَيبة: قال: حدّثنا أحمد بن محمّد ابن سعيد بن عقدة، قال: حدّثني [ثنا] أحمد بن يوسف بن يعقوب الجعفي من كتابه قال: حدّثنا إسماعيل بن مروان [مهران] قال: حدّثنا علي بن أبي حمزة عن أبيه ووُهَيب عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في [معنى] قوله: ﴿ *وعَد الله الّذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الّذين من قبلهم وليمكننّ لهم دينهمُ الّذي ارتضى لهم وليبدّلنّهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يُشركون بي شيئاً* ﴾ قال: [نزلت في] القائم وأصحابه[2].

٢ ـ أخرج العلّامة النيسابوري في تفسيره عند تفسير سورة البقرة، آية ﴿ *الّذين يؤمنون بالغَيب* ﴾[3] قال: المهديّ المنتظر الّذي وعد الله به في القرآن بقوله تعالى: ﴿ *وعَد الله الّذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض* ﴾.

وما ورد عنه صلى الله عليه وآله:

لو لم يبق من الدنيا إلّا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتى يخرج رجل من

---

(١) النور: ٥٥.

(٢) غيبة النعماني: ٢٤٠.

(٣) البقرة: ٣.

أُمّتي يواطئ اسمه اسمي وكنيته كنيتي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً[١].

٣ـ وروى محمّد بن العباس عن الحسين [الحسن] بن محمد عن معلّى بن محمّد عن الوشّاء عن عبد الله بن سنان قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّوجلّ: ﴿ *وعَدَ اللهُ الّذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الّذين من قبلهم* ﴾ قال: نزلت في علي بن أبي طالب والأئمّة من ولده عليهم السلام ﴿ *وليمكننّ لهم دينهمُ الّذي ارتضى لهم وليبدّلنّهم من بعد خوفهم أمناً [يعبدونني لا يُشركون]* ﴾ قال: عنى به ظهور القائم عليه السلام[٢].

٤ـ وعنه رحمه الله قال: حدّثنا علي بن عبد الله عن إبراهيم بن محمّد الثقفي عن الحسن بن الحسين عن سفيان بن إبراهيم عن عمر [و] بن هاشم، عن إسحاق ابن عبد الله بن [عن] علي بن الحسين عليه السلام في قول الله عزّوجلّ: ﴿ *فَوَربِّ السّماءِ وَالأرضِ إنّهُ لَحَقٌّ مِثلَ مَا أنّكم تَنطِقُون* ﴾[٣] قال: قوله: ﴿ *إنه لحقٌّ* ﴾ قيام القائم ـ عليه السلام ـ وفيه نزلت هذه الآية ﴿ *وعَدَ اللهُ الّذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الّذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهمُ الّذي ارتضى لهم وليبدّلنّهم من بعد خوفهم أمناً* ﴾[٤].

٥ـ وروى الصدوق قال: حدّثنا أبو المفضل محمّد بن عبد الله بن المطّلب

---

(١) تفسير النيسابوري من علماء أهل السنّة المطبوع في هامش تفسير الطبري: في تفسير الآية ٥ من سورة البقرة.

(٢) تأويل الآيات الظاهرة: ١ / ٣٦٨ ـ ٣٦٩.

(٣) الذاريات: ٢٣.

(٤) تأويل الآيات الظاهرة: ٢ / ٦١٥، ورواه الشيخ الطوسي في غيبته: ١١٠، والحافظ القندوزي في ينابيع المودّة: ٤٢٦.

الشيباني رضي الله عنه قال: حدّثنا أبو مزاحم موسى بن عبد الله بن يحيى بن خاقان المقري ببغداد قال: حدّثنا أبو بكر محمّد بن عبد الله بن إبراهيم الشافعي قال: حدّثنا محمّد بن حمّاد بن هامان الدبّاغ أبو جعفر قال: حدّثنا عيسى بن إبراهيم قال: حدّثنا الحرث بن نبهان قال: حدّثنا عيسى بن يقظان عن أبي سعيد عن مكحول عن وائلة بن الأصقع بن قرضاب عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال:

دخل جندل بن جنادة بن حبير على رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله أخبرني عمّا ليس لله وعمّا ليس عند الله وعمّا لا يعلمه الله؟

فقال رسول الله ﷺ: أمّا ما ليس لله فليس لله شريك، وما ليس عند الله فليس عند الله ظلم للعباد، وأمّا ما لا يعلمه الله فذلك قولكم يامعشر اليهود: إنّ عزير ابن الله والله لا يعلم له ولداً.

فقال جندل: أشهد أن لا إله إلّا الله وأنك محمّد رسول لله حقّاً، ثمّ قال: يارسول الله ﷺ: إنّي رأيت البارحة في النوم موسى بن عمران عليه السلام فقال لي: ياجندل أسلم على يد محمّد واستمسك بالأوصياء من بعده، فقلت: أسلمت، ورزقني الله ذلك، فأخبرني عن الأوصياء بعدك لأتمسّك بهم.

فقال: ياجابر أوصيائي من بعدي بعدد نقباء بني إسرائيل.

فقال: يارسول الله ﷺ إنّهم كانوا اثني عشر، هكذا وجدناهم في التوراة.

قال: نعم الأئمّة بعدي اثنا عشر.

فقال: يارسول الله كلّهم في زمن واحد؟

قال: لا ولكن خلف بعد خلف وإنّك لن تدرك منهم إلّا ثلاثة: أوّلهم سيّد الأوصياء بعدي أبو الأئمّة علي بن أبي طالب عليه السلام، ثمّ ابناه الحسن والحسين عليهما السلام، فاستمسك بهم من بعدي ولا يغرّنّك جهل الجاهلين، فاذا

أوقت ولادة ابنه علي بن الحسين سيّد العابدين عليه السلام يقضي الله عليك ويكون آخر زادك من الدنيا شربة من لبن تشربه.

فقال: يارسول الله هكذا وجدت في التوراة اليانقطة (اليانقطو ـ خ ل) شبراً وشبيراً، فلم أعرف اسماءهم، فكم بعد الحسين من الأوصياء وما اسماؤهم؟

فقال: تسعة من صلب الحسين والمهديّ منهم، فإذا انقضت مدّة الحسين عليه السلام قام بالأمر من بعده عليّ ابنه ويلقّب زين العابدين عليه السلام، فإذا انقضت مدّة علي قام بالأمر من بعده محمّد [ابنه] ويدعىٰ الباقر عليه السلام، فإذا انقضت مدّة محمّد قام بالأمر بعده ابنه جعفر يدعى بالصادق عليه السلام، فإذا انقضت مدّة جعفر قام بالأمر ابنه موسى ويدعى بالكاظم عليه السلام، ثمّ إذا انقضت مدّة موسى قام بالأمر من بعده علي ابنه يدعى بالرضا عليه السلام، فإذا انقضت مدّة علي قام بالأمر بعده محمّد ابنه يدعى بالزكي عليه السلام، فإذا انقضت مدّة محمّد قام بالأمر بعده ابنه علي يدعى بالنقي عليه السلام، فإذا انقضت مدّة علي قام بالأمر من بعده ابنه الحسن يدعى بالأمين عليه السلام، ثمّ يغيب عنهم إمامهم.

قال: يارسول الله هو الحسن يغيب عنهم؟

قال: لا، ولكن ابنه.

قال: يارسول الله فما اسمه؟ قال: لا يسمّى حتّى يظهر.

فقال جندل: يارسول الله وجدنا ذكرهم في التوراة وقد بشّرنا موسى بن عمران عليه السلام بك وبالأوصياء من ذرّيتك.

ثمّ تلا رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿ *وعَد الله الّذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الّذين من قبلهم وليمكننّ لهم دينهمُ الّذي ارتضى لهم وليبدّلنّهم من بعد خوفهم أمناً* ﴾.

فقال جندل: يارسول الله فما خوفهم؟

قال: ياجندل في زمن كلّ واحدٍ منهم سلطان يعيِّره ويؤذيه، فاذا عجّل الله خروج قائمنا يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً. ثمّ قال ﷺ: طوبى للصابرين في غَيبته، طوبى للمقيمين على محبّتهم، أُولئك مَن وصفهم الله في كتابه فقال: ﴿ الَّذِينَ يُؤمِنُونَ بِالغَيبِ ﴾[١] ثمّ قال: ﴿ أُولَئِكَ حِزبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزبَ اللهِ هُمُ المُفلِحُونَ ﴾[٢].

قال ابن الأصقع: ثمّ عاش جندل إلى أيام الحسين بن علي عليه السلام ثمّ خرج إلى الطائف فحدّثني نعيم بن [أبي] قيس قال: دخلت عليه بالطائف وهو عليل ثمّ دعا بشربةٍ من لبن، فقال: هكذا عهد لي رسول الله ﷺ أن يكون آخر زادي من الدنيا شربةً من لبن، ثمّ مات ودفن بالطائف بالموضع المعروف بالكورا رضي الله عنه[٣].

الموعودون هم أتباع المهديّ:

١ـ وروى الشيخ أبو علي الطبرسي قال: اختُلف في الآية، وذكر الأقوال، إلى أن قال: والمروي عن أهل البيت عليهم السلام أنها في المهديّ [من آل محمّد] عليهم السلام، ثمّ قال: وروى العيّاشي: بإسناده عن علي بن الحسين عليهما السلام أنّه قرأ الآية [وقال]: هم والله شيعتنا أهل البيت، يفعل [الله] ذلك بهم على يد [ي] رجل منّا، وهو مهديّ هذه الأُمّة، وهو الّذي قال رسول الله ﷺ : لو لم يبق من الدنيا إلّا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتّى يأتي [يلي] رجل من عترتي اسمه اسمي يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً.

---

(١) البقرة: ٣.

(٢) المجادلة: ٢٢.

(٣) نقله السيّد البحراني في المحجّة عن الشيخ الصدوق: ١٤٩ ـ ١٥١، ورواه الخزّاز في كفاية الأثر: ٥٦.

ثمّ قال الطبرسي: وروي مثل ذلك عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام[١].

٢ـ وفي تفسير العيّاشي عن زرارة قال: أبو عبد الله عليه السلام: سئل أبي عن قول الله ﴿ قاتلوا المشركين كافّة كما يقاتلونكم كافّة ﴾ [وقوله: وَقَاتِلُوهُم] حَتَّى لَا تَكُونَ فِتنَةٌ وَيكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلهِ ﴾[٢]، فقال: «إنه لم يجئ تأويل هذه الآية، ولو قد قام قائمنا بعده سيرىٰ مَن يدركه ما يكون من تأويل هذه الآية، وليبلغنَّ دين محمّد صلى الله عليه وآله ما بلغ الليل حتّى لا يكون شرك علىٰ ظهر الأرض، كما قال الله[٣].

وفي مجمع البيان كما في العياشي مع إضافة كما قال الله: ﴿ يعبدونني لا يشركونَ بي شيئاً ﴾[٤].

تقدّم تفسير الآية الكريمة في الفصل الثاني من الباب الأول من الكتاب، واتّضح هناك أنّها دالّة على الدولة المهدوية علىٰ نحو التنزيل والتفسير المباشر وليس التطبيق، فهي مصداق الآية، والأحاديث المتقدّمة مؤيدة لهذا التفسير. فيمكن القول أنّ تفسيرها بالدولة المهدوية هو التفسير الوحيد المنسجم مع دلالاتها ومع صحاح الأحاديث الشريفة.

رابعاً: إتمام النور الإلهيّ:

قوله تعالىٰ:

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفوَاهِهِم وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَو كَرِهَ الكَافِرُونَ ﴾[٥]

---

(١) مجمع البيان: ٤ / ١٥٢، ورواه الاسترآبادي في تأويل الآيات الظاهرة: ١ / ٣٦٩.

(٢) الأنفال: ٣٩.

(٣) تفسير العيّاشي: ٢ / ٥٦.

(٤) مجمع البيان: ٣ / ٥٤٣.

(٥) الصفّ: ٨.

١ـ روىٰ محمّد بن يعقوب الكليني عن علي بن محمّد عن بعض أصحابنا عن ابن محبوب عن محمّد بن الفضيل عن أبي الحسن الماضي عليه السلام قال: سألته عن قول الله عزّوجلّ: ﴿ يريدون ليُطفئوا نور الله بأفواهِهم ﴾ قال عليه السلام: يريدون ليطفئوا ولاية أمير المؤمنين عليه السلام بأفواههم. قلت: ﴿ والله متمّ نوره ﴾ قال: والله متمُّ الإمامة لقوله عزّوجلّ، ﴿ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا ﴾ [١] فالنور هو الإمام. قلت: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَىٰ وَدِينِ الحَقِّ ﴾ [٢] قال عليه السلام: هو الّذي أمر رسوله محمّداً صلى الله عليه وآله بالولاية لوصيه، والولاية هي دين الحقّ. قلت: هذا تنزيل؟ قال: نعم، أمّا هذا الحرف فتنزيل، وأمّا غيره فتأويل [٣].

٢ـ وروىٰ علي بن إبراهيم في تفسيره قال: وقوله: ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متمّ نوره ﴾ قال: القائم من آل محمّد عليه السلام إذا خرج يُظهره الله على الدين كلّه حتى لا يُعبد غير الله، وهو قوله صلى الله عليه وآله: يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً [٤].

الإمام هو النور المهتدىٰ به:

نقلنا في الفصل الأول من الباب الثاني حديثاً عن سيّد المرسلين صلى الله عليه وآله يطبق وصف «نور الله» على الإمام المهديّ وإتمامه علىٰ إظهار الإسلام علىٰ الدين كلّه، وهذا التطبيق لا يعارض ما ورد في الحديث الأول من تطبيق الوصف نفسه علىٰ ولاية أمير المؤمنين عليه السلام، فالخطّ واحد هو خطّ الإمامة المعصومة، وولاية

(١) التغابن: ٨.
(٢) الصفّ: ٩.
(٣) الكافي: ١ / ٤٣٢، والمقصود من أبي الحسن الماضي هو الإمام موسى الكاظم عليه السلام.
(٤) تفسير القمّي: ٢ / ٣٦٥.

المهديّ امتداد لولاية الإمام علي عليه السلام ، وإتمام النور الإلهيّ يعني استمرار خطّ الإمامة المعصومة حتّى يحقّق أهدافها المرسومة الّتي تحدّدها الآية اللاحقة بإظهار الإسلام النقي على الدين كلّه. ووصف الإمام بالنور لأنّه يُستضاء به للاهتداء إلى الصراط المستقيم كما هو حال القرآن الكريم.

خامساً: إظهار الدين الحقّ:

قوله تعالىٰ:

﴿ *هُوَ الَّذِي أَرسَلَ رَسُولِهِ بِالهُدىٰ وَدِينِ الحَقِّ لِيُظهِرَهُ عَلَى الدّينِ كُلِّهِ وَلَو كَرِهَ المُشرِكُون* ﴾ (١)

١ـ روىٰ الشيخ الصدوق قال: حدّثنا محمّد بن موسى بن المتوكّل رحمه الله قال: حدّثنا علي بن الحسين السعدآبادي عن أحمد بن أبي عبد الله البرقي عن أبيه عن محمّد بن أبي عمير عن علي بن أبي حمزة عن أبي بصير قال: قال أبو عبد الله عليه السلام في قول الله عزّوجلّ: ﴿ *هو الّذي أرسل رسوله بالهدىٰ ودين الحقّ ليُظهِرَهُ على الدينِ كلّه ولو كرِهَ المشركون* ﴾ فقال: والله ما نزل تأويلها بعد، ولا ينزل تأويلها حتّى يخرج القائم عليه السلام ، فإذا خرج القائم عليه السلام لم يبق كافر بالله العظيم ولا مشرك بالإمامة إلّا كره خروجه، حتّى أن لو كان كافراً أو مشركاً في بطن صخرة لقالت يامؤمن في بطني كافر، فاكسرني واقتله (٢).

٢ـ وروىٰ العيّاشي في تفسيره بإسناده عن سماعة عن أبي عبد الله عليه السلام : ﴿ *هو الّذي أرسل رسوله بالهدىٰ ودين الحقّ ليُظهِرَهُ على الدينِ كلّه ولو كرِهَ*

---

(١) التوبة: ٣٣، الصفّ: ٩.

(٢) كمال الدين: ٦٧٠، ورواه فرات الكوفي في تفسيره: ١٨٤ بسند آخر.

المشركون ﴾ قال: إذا خرج القائم عليه السلام لم يبق مشرك بالله العظيم ولا كافر إلّا كره خروجه[١].

٣ـ وروى الشيخ الكليني عن علي بن محمّد عن بعض أصحابنا عن ابن محبوب عن محمّد بن الفضيل عن أبي الحسن الماضي عليه السلام: قلت: ﴿ *هو الّذي أرسل رسوله بالهدىٰ ودين الحقّ* ﴾؟ قال: هو الّذي أمر رسوله بالولاية لوصيّه، والولاية هي دين الحقّ. قلت: ﴿ *ليُظهِرَهُ على الدينِ كلّه* ﴾؟ قال: يظهره على جميع الأديان عند قيام القائم عليه السلام[٢].

٤ـ وفي مجمع البيان روى الشيخ الطبرسي: قال أبو جعفر عليه السلام: إنّ ذلك يكون عند خروج المهديّ من آل محمّد، فلا يبقى أحد إلّا أقرّ بمحمّد صلى الله عليه وآله[٣].

٥ـ روى الشيخ علي بن إبراهيم في تفسيره في الآية أنّها نزلت في القائم من آل محمّد عليه السلام، وهو الّذي ذكرنا [ه ممّا] تأويله بعد تنزيله[٤].

٦ـ وروىٰ محمّد بن العبّاس: قال: حدّثنا أحمد بن هوذة عن إسحاق بن إبراهيم عن عبد الله بن حماد عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّوجلّ في كتابه: ﴿ *هو الّذي أرسل رسوله بالهدىٰ ودين الحقّ ليُظهِرَهُ على الدينِ كلّه ولو كرِهَ المشركون* ﴾ فقال عليه السلام: والله ما نزل تأويلها بعد، قلت: جعلت فداك ومتى ينزل تأويلها؟ قال: حتّى يقوم القائم عليه السلام إن شاء الله تعالى، فإذا خرج القائم لم يبق كافر ولا مشرك إلّا كره خروجه، حتّى لو أنّ كافراً أو مشركاً

---

(١) تفسير العيّاشي: ٢ / ٨٧.

(٢) الكافي: ١ / ٤٣٢.

(٣) مجمع البيان: ٥ / ٢٥.

(٤) تفسير القمّي: ١ / ٢٨٩.

في بطن صخرة لقالت الصخرة: يامؤمن في بطني كافر أو مشرك فاقتله، قال: فيجيئه فيقتله[١].

٧ـ وروى الحسين بن حمدان الحضيني قال: حدّثني محمّد بن إسماعيل وعلي بن عبد الله الحسنيان عن أبي شعيب عن محمّد بن بصير عن عمر بن الوان عن محمّد بن الفضل عن المفضّل بن عمر عن أبي عبد الله جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام ـ في حديثٍ طويل يذكر فيه أمر القائم عليه السلام ـ قال المفضّل: يامولاي فكيف بدو ظهوره عليه السلام؟

قال: يامفضّل يظهر في سنة الستين أمره، ويعلو ذكره، وينادي باسمه وكنيته ونسبه ويكثر ذكره في أفواه المحقّين والمبطلين ليلزمهم الحجّة بمعرفتهم به، على أنّا قصصنا ذلك ودللنا عليه ونسبناه وسمّيناه وكنيناه وقلنا سميُّ جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله وكنيه لئلّا تقول الناس ما عرفنا اسماً ولا كنيةً ولا نسباً، فوالله ليحقن الإفصاح به وباسمه وكنيته على ألسنتهم حتّى ليسمّيه بعضهم لبعضٍ، كلّ ذلك للزوم الحجّة عليهم، ويظهره كما وعده جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله في قول الله عزّوجلّ: ﴿ ***هو الّذي أرسل رسوله بالهدىٰ ودين الحقّ ليُظهِرَهُ على الدّينِ كلّه ولو كرِهَ المشركون*** ﴾ قال: هو قوله ﴿ ***وقاتلوهم حتّى لا تكون فتنة ويكونَ الدين كلّه لله*** ﴾.

فوالله يامفضل ليفقدنَّ المللُ والأديان والآراء والاختلاف ويكون الدين كلّه لله كما قال تعالى: ﴿ ***إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسلامُ*** ﴾[٢] ﴿ ***وَمَن يَبتَغِ غَيرَ الإِسلامِ دِيناً فَلَن يُقبَلَ مِنهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِين*** ﴾[٣][٤].

---

(١) تأويل الآيات الظاهرة: ٢ / ٦٨٨.

(٢) آل عمران: ١٩.

(٣) آل عمران: ٨٥.

(٤) الهداية الكبرىٰ: ٧٤ ـ ٨٢، ورواه في مختصر بصائر الدرجات: ١٧٨ ـ ١٧٩.

٨ـ وروى العيّاشي عن أحمد بن ادريس عن عبد الله بن محمّد عن صفوان ابن يحيى عن يعقوب بن شعيب عن عمران بن ميثم عن عباية بن ربعي أنه سمع أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «﴿ *هو الّذي أرسل رسوله بالهدىٰ ودين الحقّ ليُظهِرَهُ على الدينِ كلّه ولو كرِهَ المشركون* ﴾ أظهر ذلك بعدُ؟ كلّا والّذي نفسي بيده حتّى لا تبقى قرية إلّا [و]نودي فيها بشهادة أن لا إله إلّا الله، وأن محمّداً رسول الله صلى الله عليه وآله بكرةً وعشياً»[١].

٩ـ وروىٰ رحمه الله، قال: حدّثنا يوسف بن يعقوب عن محمّد بن أبي‌بكر المقري عن نعيم بن سليمان، عن ليث عن مجاهد عن ابن عبّاس في قوله عزّوجلّ: ﴿ *ليُظهِرَهُ على الدينِ كلّه ولو كرِهَ المشركون* ﴾ قال: لا يكون ذلك حتّى لا يبقى يهودي ولا نصراني ولا صاحب ملّة إلّا الإسلام، حتّى تأمن الشاة والذئب والبقرة و الأسد والإنسان والحية وحتّى لا تقرض الفأرة جراباً، وحتّى توضع الجزية ويكسر الصليب ويقتل الخنزير و (هو) قوله تعالى: ﴿ *ليُظهِرَهُ على الدّينِ كلّه ولو كرِهَ المشركون* ﴾ وذلك يكون عند قيام القائم عليه السلام[٢].

١٠ـ روى الحافظ القندوزي الحنفي بإسناده قال: عن جعفر الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ *هو الّذي أرسل رسوله بالهدىٰ ودين الحقّ ليُظهِرَهُ على الدّينِ كلّه ولو كرِهَ المشركون* ﴾ قال: والله ما يجيء تأويلها حتّى يخرج القائم المهديّ عليه السلام، فإذا خرج لم يبق مشرك إلّا كره خروجه، ولا يبقى كافر إلّا قُتل، حتّى لو كان كافر في بطن صخرة قالت: يامؤمن في بطني كافر فاكسرني واقتله[٣].

---

(١) كما في مجمع البيان: ٥ / ٢٨٠، ورواه في تأويل الآيات الظاهرة: ٢ / ٦٨٩.

(٢) تأويل الآيات الظاهرة: ٢ / ٦٨٩، ورواه ـ باستثناء ذيله ـ عدد من علماء أهل السنّة، عن جابر وابن عبّاس ومجاهد، مثل السيوطي في الدرّ المنثور: ٣ / ٢٣١، والبيهقي في كتاب السنن الكبرىٰ: ٩ / ١٨٠.

(٣) ينابيع المودّة: ٤٢٣.

مصداق الآية في المصادر السنّية:

١ـ وروى الطبري في تفسيره[١] والسيوطي[٢] والبيهقي[٣] في تفسير الآية عن جابر وأبي هريرة أن تحقّقها يكون حين خروج عيسى بن مريم.

٢ـ كما روى البيهقي في سننه عن مجاهد في تفسير الآية أنه قال: إذا نزل عيسى بن مريم لم يكن في الأرض إلّا الإسلام، ليظهره على الدين كلّه[٤].

٣ـ كما روى الشافعي عن سعيد بن جبير في الآية قال: هو المهديّ من عترة [ولد] فاطمة عليها السلام. وقال الشافعي معقباً على الحديث: وأما مَن قال إنه عيسىٰ عليه السلام فلا تنافي بين القولين، إذ هو مساعدٌ للإمام علىٰ ما تقدّم[٥].

٤ـ وروى الفخر الرازي في تفسيره عن أبي هريرة قال: هذا وعدٌ من الله بأنه تعالىٰ يجعل الإسلام عالياً علىٰ جميع الأديان. ثمّ قال الراوي: وتمام هذا إنّما يحصل عند خروج المهديّ، لا يبقىٰ أحدٌ إلّا دخل الإسلام أو أدّى الخراج[٦].

سادساً: وراثة المستضعفين في الله للأرض:

قوله تعالىٰ:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[٧]

---

(١) جامع البيان «تفسير الطبري»: ١٠ / ٨٢.
(٢) السيوطي في الدرّ المنثور: ٣ / ٢٤١.
(٣) السنن الكبرىٰ: ٩ / ١٨٠.
(٤) السنن الكبرىٰ: ٩ / ١٨٠.
(٥) بيان الشافعي: ٥٢٨.
(٦) التفسير الكبير: ١٦ / ٤٠.
(٧) القصص: ٥.

رویٰ أبو جعفر الطبري الإمامي في كتاب دلائل الإمامة قال : أخبرنا أبو المفضّل قال : حدّثني علي بن الحسين المنقري الكوفي قال : حدّثني أحمد بن زيد الدّهان عن المحول [مكحول] بن إبراهيم عن رشدم [رستم] بن عبد الله ابن خالد المخزومي عن سليمان الأعمش عن محمّد بن خلف الطاهري عن زازان عن سلمان قال : قال لي رسول الله : إنّ الله تبارك وتعالى لم يبعث نبيّاً ولا رسولاً إلّا جعل له اثني عشر نقيباً ، فقلت يارسول الله: لقد عرفت هذا من أهل الكتابين ، فقال : (ياسلمان) هل علمت مَن نقبائي الاثني عشر الّذين اختارهم الله للأمّة من بعدي ؟ فقلت : الله ورسوله أعلم ، فقال : ياسلمان خلقني الله من صفوة نوره ودعاني فأطعته ، وخلق من نوري علياً عليه السلام ودعاه فأطاعه ، وخلق (منّي) ومن نور علي فاطمة عليها السلام فدعاها فأطاعته ، وخلق منّي ومن علي وفاطمة الحسن عليه السلام فدعاه فأطاعه ، وخلق منّي ومن علي وفاطمة الحسين عليه السلام فدعاه فأطاعه.

ثمّ سمّانا بخمسة أسماء من أسمائه ، فالله المحمود وأنا محمّد ، والله العلي فهذا علي ، والله الفاطر فهذه فاطمة ، والله [ذو] الإحسان وهذا الحسن ، والله المحسن وهذا الحسين ، ثمّ خلق منّا ومن نور الحسين تسعة أئمّة فدعاهم فأطاعوه قبل أن خلق الله [يخلق] سماءً مبنية ولا أرضاً مدحية ولا ملكاً ولا بشراً (دوننا) نوراً [وكنّا] نسبّح الله و [ثمّ] نسمع [له] ونطيع.

[قال سلمان]: فقلت : يارسول الله بأبي أنت وأُمّي فما لمن عرف هؤلاء ؟ فقال ياسلمان : من عرفهم حقّ معرفتهم واقتدى بهم ووالى وليّهم وتبرّأ من عدوّهم فهو والله منّا يرد حيث نرد ويسكن حيث نسكن ، فقلت : يارسول الله فهل يمكن إيمان بهم بغير معرفة بأسمائهم وأنسابهم ؟ فقال : لا [ياسلمان]، فقلت : يارسول الله فأنىٰ لي بهم وقد عرفت إلى الحسين عليه السلام ؟ قال : ثمّ سيّد

العابدين علي بن الحسين عليه السلام، ثمّ ابنه محمّد بن علي عليه السلام باقر علم الأوّلين والآخرين من النبيّين والمرسلين، ثمّ [ابنه] جعفر بن محمّد لسان الله الصادق عليه السلام ثمّ [ابنه] موسى بن جعفر عليه السلام الكاظم غيظه في سبيل الله عزّوجلّ [صبراً في الله]، ثمّ [ابنه] علي بن موسى الرضا لأمر الله عليه السلام، ثمّ [ابنه] محمّد ابن علي عليه السلام المختار من خلق الله، ثمّ [ابنه] علي بن محمّد الهادي إلى الله، ثمّ الحسن ابن علي عليه السلام الصامت الأمين لسرّ الله، ثمّ ابنه محمّد بن الحسن المهديّ القائم بحقّ الله [بأمر الله] عليه السلام.

ثمّ قال صلى الله عليه وآله: ياسلمان إنّك مدركه ومن كان مثلك ومن تولّاه بحقيقة المعرفة.

قال سلمان: فشكرت الله ثمّ قلت: (يارسول الله) وإنّي مؤجّل إلى عهده؟ قال: ياسلمان اقرأ [فقرأ قوله تعالى]: ﴿ ***فَإِذا جاءَ وَعدُ أولاهُما بَعَثنا عَلَيكُم عِباداً لَنا أُولي بَأسٍ شَديدٍ فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ وَكانَ وَعداً مَفعُولاً * ثُمّ رَدَدنا لَكُم الكَرَّةَ عَلَيهِم وَأَمدَدناكُم بِأَموالٍ وَبَنينَ وَجَعَلناكُم أَكثَرَ نَفيراً*** ﴾[1]. قال سلمان: فاشتد بكائي وشوقي ثمّ قلت: يارسول الله أبعهدٍ منك؟ فقال: أي والله الّذي أرسل محمّداً [أرسلني] بالحقّ منّي ومن علي وفاطمة والحسن والحسين والتسعة، وكلّ من هو منّا [ومعنا] ومضام فينا، إي والله ليحضرنّ إبليس [له] وجنوده، وكلّ من محض الإيمان محضاً ومحض الكفر محضاً حتّى يؤخذ بالقصاص والأوتار ولا يظلم ربّك أحداً، ويحقّق [وذلك] تأويل هذه الآية: ﴿ ***ونريد أن نمُنَّ على الّذين استُضعفوا في الأرض ونجعلَهم أئمّةً ونجعلَهمُ الوارثين * ونُمكّنَ لهم في الأرض ونُريَ فرعونَ وهامانَ وجنودَهما منهم ما كانوا يحذرون*** ﴾.

قال سلمان: فقمت من بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وما يبالي سلمان متى لقي

---

(١) الإسراء: ٥ و ٦.

الموت أو الموت لقاه [فقمت من بين يديه وما أُبالي لقيت الموت أو لقيني] [١].

اختصاص الوراثة في الإسلام بآل محمّد:

١ـ وروى الشيخ الطوسي في كتاب الغَيبة عن محمّد بن علي عن الحسين بن محمّد القطعي عن علي بن حاتم عن محمّد بن مروان عن عبيد بن يحيى الثوري عن محمّد بن الحسين عن أبيه عن جدّه عن علي عليه السلام أنّه قال في هذه الآية: هم آل محمّد، يبعث الله مهديّهم بعد جهدهم فيعزّهم ويذلّ عدوّهم [٢].

٢ـ وروى الحاكم الحسكاني الحنفي في شواهد التنزيل بسنده عن ربيعة بن ناجذ قال: قال علي عليه السلام: ليعطفنّ علينا الدنيا عطف الضروس علىٰ ولدها، ثمّ قرأ: ﴿ *ونريد أن نمُنَّ على الّذين استُضعفوا في الأرض*...الآية ﴾ [٣].

٣ـ والحديث المتقدّم مروي في نهج البلاغة مرسلاً وقد روى الحاكم الحسكاني بمضمونه عدّة أحاديث أُخرىٰ، منها ما رواه مسنداً عن الإمام الصادق عليه السلام قال: إنّ رسول الله نظر إلى علي والحسن والحسين فبكىٰ وقال: أنتم المستضعفون بعدي.

قال المفضّل (راوي الحديث): فقلت له: ما معنىٰ ذلك يابن رسول الله؟ قال: معناه أنكم الأئمّة بعدي، إنّ الله تعالى يقول: ﴿ *ونريد أن نمُنَّ على الّذين استُضعفوا في الأرض ونجعلَهم أئمّة ونجعلَهمُ الوارثين* ﴾ فهذه الآية فينا جارية إلى يوم القيامة [٤].

---

(١) دلائل الإمامة: ٢٣٧.

(٢) غَيبة الطوسي: ١١٣.

(٣) شواهد التنزيل: ١ / ٥٥٦.

(٤) شواهد التنزيل: ١ / ٥٥٥، وروي في معاني الأخبار للشيخ الصدوق: ٧٩.

٤ـ وروىٰ محمّد بن الحسن الشيباني في كتاب كشف البيان عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام أنّهما قالا في هذه الآية: إنّ هذه مخصوصة بصاحب الأمر الّذي يظهر في آخر الزمان ويبيد الجبابرة والفراعنة ويملك الأرض شرقاً وغرباً، فيملأها عدلاً كما مُلئت جوراً[1].

تفسير آية سورة القصص:

والأحاديث الأُخرىٰ بهذا المضمون كثيرة وهي تصرّح بتعريض العترة النبوية للاستضعاف بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، ثمّ تطبق الآية عليهم، ومعلومٌ أنّ الآية الكريمة تأتي في سياق مجموعة من الآيات الكريمة المتحدّثة عن استخلاف بني إسرائيل في الأرض، فلنلاحظ أوّلاً تفسيرها قبل التطرّق إلىٰ دلالات تطبيقها على القضية المهدوية، يقول العلّامة الطباطبائي في تفسير الآية:

قوله تعالىٰ: ﴿ *ونريد أن نمُنَّ علىٰ الّذين استضعفوا في الأرض* ـ إلى قوله ـ *ما كانوا يحذرون* ﴾ والأصل في معنى المنّ ـ على ما يُستفاد من كلام الراغب ـ الثقل ومنه تسمية ما يوزن به منّاً، والمنّة النعمة الثقيلة ومنّ عليه منّاً أي أثقله بالنعمة. قال: ويقال ذلك على وجهين: أحدهما بالفعل كقوله: ﴿ *ونريد أن نمُنَّ على الّذين استُضعفوا* ﴾ أي نعطيهم من النعمة ما يثقلهم، والثاني بالقول كقوله: ﴿ *يَمُنُّونَ عَلَيكَ أن أسلَمُوا* ﴾[2] وهو مستقبح إلّا عند كفران النعمة، إنتهى ملخّصاً.

---

(١) كما في حلية الأبرار للسيّد البحراني: ٢ / ٥٩٧.
(٢) الحجرات: ١٧.

وتمكينهم في الأرض إعطاؤهم فيها مكاناً يملكونه ويستقرّون فيه، وعن الخليل: أنّ المكان مفعل من الكون ولكثرته في الكلام أُجري مجرى فعال. فقيل: تمكن وتمسكن نحو تمنزل، إنتهى.

وقوله: ﴿ *ونريد أن نمنّ*...إلخ ﴾ الأنسب أن يكون حالاً من «طائفة» والتقدير يستضعف طائفة منهم ونحن نريد أن نمنّ على الّذين استضعفوا... إلخ، وقيل: معطوف على قوله: ﴿ *إنّ فرعون علا في الأرض* ﴾ والأوّل أظهر، و «نريد» على أيّ حال لحكاية الحال الماضية.

وقوله: «ونجعلهم أئمّة» عطف تفسير على قوله: «نمنّ» وكذا ما بعده من الجمل المتعاقبة.

والمعنى: أنّ الظرف كان ظرف علوّ فرعون، وتفريقه بين الناس واستضعافه لبني إسرائيل استضعافاً يبيدهم ويفنيهم، والحال أنا نريد أن ننعم على هؤلاء الّذين استُضعفوا من كلّ وجه نعمة تثقلهم، وذلك بأن نجعلهم أئمّة يُقتدى بهم فيكونوا متبوعين بعد ماكانوا تابعين، ونجعلهم الوارثين لها بعد ما كانت بيد غيرهم، ونمكّن لهم في الأرض بأن نجعل لهم مكاناً يستقرّون فيه ويملكونه بعد ما لم يكن لهم من المكان إلّا ما أراد غيرهم أن يبوءهم فيه ويقرّهم عليه، ونُري فرعون وهو ملك مصر وهامان وهو وزيره وجنودهما منهم أي من هؤلاء الّذين استُضعفوا ماكانوا يحذرون وهو أن يظهروا عليهم فيذهبوا بملكهم ومالهم وسنّتهم كما قالوا في موسى وأخيه لما أُرسلا إليهم: ﴿ *يُرِيدَانِ أَن يُخرِجَاكُم مِن أَرضِكُم بِسِحرِهِمَا وَيَذهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ المُثلَى* ﴾[١].

والآية تصوّر ما في باطن هذا الظرف الهائل الّذي قضى على بني إسرائيل أن

(١) طه: ٦٣.

لا يعيش منهم متنفّس ولا يبقى منهم نافخ نار، وقد أحاطت بهم قدرة فرعون الطاغية وملأ أقطار وجودهم رعبه وهو يستضعفهم حتّى يقضي عليهم بالبيد، هذا ظاهر الأمر. وفي باطنه الإرادة الإلهيّة تعلّقت بأن تنجيهم منهم وتحوّل ثقل النعمة من آل فرعون الأقوياء العالين إلى بني إسرائيل الأذلّاء المستضعفين، وتبدّل من الأسباب ما كان على بني إسرائيل لهم وما كان لآل فرعون عليهم، والله يحكم لا معقّب لحكمه(١).

ونقل ﷺ في بحثه الروائي عن الآية الكريمة الحديث الرابع من الأحاديث المتقدّمة في تطبيق الآية الكريمة، ثمّ علّق عليه بالقول: والروايات من طرق الشيعة في كون الآية في أئمّة أهل البيت عليهم السلام كثيرة وبهذه الرواية [يقصد الحديث الرابع المصرّح بجريان الآية فيهم عليهم السلام إلى يوم القيامة] يظهر أنّها جميعاً من قبيل الجري والانطباق(٢).

دلالات تطبيق الآية:

وواضحٌ أنّ تطبيق الآية الكريمة على القضيّة منسجمٌ بالكامل مع منطوقها ودلالاتها، فالإمام المهديّ عجّل الله فرجه يمثّل خط أئمّة أهل بيت النبيّ ﷺ، وهؤلاء عُرّضوا لأبشع أشكال الاستضعاف وحرب الإبادة والتشريد الّتي بلغت ذروتها في واقعة الطفّ الفظيعة واستمرّت باغتيال الأئمّة من ذرّية الحسين عليهم السلام بالسمّ واحداً بعد الآخر حتّى اضطرّ هذا الإفساد الفرعوني خاتمهم المهديّ عليه السلام إلى الغَيبة بأمر الله تعالى حفظاً للحجّة الإلهيّة، فيما جسّد ظالموهم وغاصبوا

(١) تفسير الميزان: ١٦ / ٩ ـ ١٠.
(٢) تفسير الميزان: ١٦ / ١٤ ـ ١٥.

حقوقهم أبشع أنواع الإفساد والعلوّ الفرعوني في الأرض، لأنّ محاربتهم للعترة النبوية الطاهرة لم يكن إلّا بدافع الشهوات المادّية والرغبة في الاستئثار بالنِعم الإلهيّة واستعباد الناس، وعليه يُستفاد من تطبيق الآية:

حتمية استخلاف آل محمّد بعد استضعافهم:

١ـ حتمية إنهاء هذا الإفساد الفرعوني والظلم لآل محمّد ﷺ وتحقّق استخلافهم في الأرض وتمكينهم فيها لتعلّق الإرادة الإلهيّة بذلك، ولا معقّب لحكم الله.

٢ـ إنّ اختيار آل محمّد للإمامة اختيار إلهيّ.

٣ـ ظهور ذلك بتوريثهم الأرض وحكمهم الظاهري الكامل.

٤ـ إنّ الخطّ الفرعوني الظالم لن يحقّق أهدافه بإطفاء النور الإلهيّ عبر قتل أئمّة العترة الطاهرة ومحاربتهم، فالله غالبٌ علىٰ أمره وسيري الظلمة ما كانوا يحذرونه ويسعون لدفعه من إتمام النور الإلهيّ وإظهار الدين كلّه علىٰ أيدي آل محمّد ﷺ.

سابعاً: إزهاق الباطل وإحقاق الحقّ بكلماته:

قوله تعالىٰ:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً فَإِنْ يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ [1]

روىٰ علي بن إبراهيم: قال: حدّثني أبي عن ابن أبي نجران عن عاصم

---

(١) الشورىٰ: ٢٤.

ابن حميد عن محمّد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول في قول الله: ﴿ قُل لَا أَسأَلُكُم عَلَيهِ أَجرًا إِلَّا المَوَدَّةَ فِي القُربَىٰ ﴾[١] يعني في أهل بيته، قال: جاءت الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا: إنّا قد آوينا ونصرنا، فخذ طائفة من أموالنا فاستعن بها على ما نابك، فأنزل الله تعالى: ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً ﴾ يعني على النبوّة ﴿ إلّا المودّة في القربىٰ ﴾ أي في أهل بيته.

ثمّ قال: ألا ترى أنّ الرجل يكون له صديق وفي نفس ذلك الرجل شيء على أهل بيته فلا يسلم صدره، فأراد الله أن لا يكون في نفس رسول الله صلى الله عليه وآله شيء على أهل بيته ففرض عليهم المودّة في القربىٰ فإن أخذوا أخذوا مفروضاً، وإن تركوا تركوا مفروضاً.

قال عليه السلام: فانصرفوا من عنده وبعضهم يقول: عرضنا عليه أموالنا فقال قاتلوا عن أهل بيتي من بعدي، وقالت طائفة: ما قال هذا رسول الله وجحدوه وقالوا كما حكى الله تعالى: ﴿ أم يقولون افترىٰ على الله كَذباً ﴾ فقال الله: ﴿ فإن يشأِ اللهُ يختِمْ علىٰ قلبِكَ ﴾ قال: لو افتريت، ﴿ ويمحُ اللهُ الباطلَ ﴾ يعني يبطله ﴿ ويُحقّ الحقَّ بكلماته ﴾ يعني بالنبيّ وبالأئمّة والقائم من آل محمّد عليهم السلام، ﴿ إنّه عليمٌ بذات الصدور ﴾. ثمّ قال: ﴿ وهو الّذي يَقبلُ التوبةَ عن عباده ﴾ إلى قوله: ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ يعني الّذين قالوا القول: ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله، ثمّ قال: ﴿ والكافرون لهم عذابٌ شديد ﴾[٢].

---

(١) الشورىٰ: ٢٣.

(٢) تفسير القمّي: ٢ / ٢٧٥، والآيات الواردة في ذيل الحديث هي اللاحقة للآية مورد الحديث.

وعدٌ للنبيّ صلى الله عليه وآله بالنصر:

تأتي الآية الكريمة بعد الآية الّتي أمرت بمودّة ذوي القربىٰ من عترة الرسول صلى الله عليه وآله والّذين جعل الله تعالى مودّتهم سبيلاً للنجاة فيعود نفعها على الّذين يودّون قرباه وليس عليه صلى الله عليه وآله، والمقصود منهم أهل بيته عترته كما هو الثابت[1] والحديث المتقدّم يبيّن سبب نزول الآيةمورد التطبيق ثمّ يطبقها على الانتصار المهدوي، وانطباقها واضحٌ كما يفهم من التدبّر فيها، فلنلاحظ أوّلاً ما ذكره العلّامة الطباطبائي في تفسيره للآية:

قوله تعالىٰ: ﴿*أم يقولون افترىٰ على الله كَذباً*... إلى آخر الآية﴾ أم منقطعة، والكلام مسوق للتوبيخ ولازمه إنكار كونه صلى الله عليه وآله مفترياً على الله كذباً.

وقوله: ﴿*فإن يشأِ اللهُ يختِمْ علىٰ قلبِكَ*﴾ معناه على ما يعطيه السياق أنّك لست مفترياً على الله كذباً فإنّه ليس لك من الأمر شيء حتّى تشاء الفرية فتأتي بها، وإنّما هو وحيٌ من الله سبحانه من غير أن يكون لك فيه صنع والأمر إلى مشيّته تعالى، فإن يشأ يختم على قلبك وسدّ باب الوحي إليك، لكنّه شاء أن يوحي إليك ويبيّن الحقّ، وقد جرت سنّته أن يمحو الباطل ويحقّ الحقّ بكلماته.

فقوله: ﴿*فإن يشأِ اللهُ يختِمْ علىٰ قلبِكَ*﴾ كنايةٌ عن إرجاع الأمر إلى مشيّة الله وتنزيهٌ لساحة النبيّ صلى الله عليه وآله أن يأتي بشيءٍ من عنده.

وهذا المعنى ـ كما سترىٰ ـ أنسب للسياق بناءً على كون المراد بالقربىٰ قرابة النبيّ صلى الله عليه وآله والتوبيخ متوجّهاً إلى المنافقين ومرضى القلوب.

وقد ذكروا في معنى الجملة وجوهاً أُخر:

---

(١) راجع تفسير الميزان: ١٨ / ٤٢ وما بعدها.

(منها) ما ذكره الزمخشري في الكشّاف حيث فسّر قوله: ﴿ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ بقوله: فإن يشأِ الله يجعلك من المختوم على قلوبهم حتّى تفتري عليه الكذب، فإنّه لا يفتري على الله الكذب إلّا من كان في مثل حالهم.

وهذا الأُسلوب مؤدّاه استبعاد الافتراء من مثله وأنه في البُعد مثل الشرك بالله والدخول في جملة المختوم على قلوبهم، ومثال هذا أن يخوّن بعض الأُمناء فيقول: لعلّ الله خذلني، لعلّ الله أعمىٰ قلبي وهو لا يريد إثبات الخذلان وعمى القلب وإنّما يريد استبعاد أن يخوّن مثله، والتنبيه على أنه ركب من تخوينه أمر عظيم، إنتهىٰ.

(ومنها) ما قيل: إنّ المعنى لو حدّثت نفسك بأن تفتري على الله الكذب لطبع الله علىٰ قلبك ولأنساك القرآن فكيف تقدر أن تفتري على الله، وهذا كقوله: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾[1].

(ومنها) ما قيل: إنّ معناه فإن يشأِ الله يربط علىٰ قلبك بالصبر على أذاهم حتّى لا يشقّ عليك قولهم: إنّه مفترٍ وساحر، وهي وجوه لا تخلو من ضعف.

(ومنها) ما قيل: إنّ المعنىٰ فإن يشأِ الله يختم علىٰ قلبك كما ختم علىٰ قلوبهم وهو تسلية للنبيّ ﷺ ليشكر ربه علىٰ ما آتاه من النعمة.

(ومنها) ما قيل: إنّ المعنىٰ فإن يشأِ الله يختم علىٰ قلوب الكفّار وعلىٰ ألسنتهم ويعاجلهم بالعذاب، وعدل عن الغَيبة إلى الخطاب وعن الجمع إلى الأفراد، والمراد: يختم علىٰ قلبك أيّها القائل: إنّه افترىٰ على الله كذباً.

---

(١) الزمر: ٦٥.

محو الباطل وإحقاق الحقّ سنّة جارية:

وقوله: ﴿ويمحُ اللهُ الباطلَ ويُحقُّ الحقَّ بكلماته﴾: الإتيان بالمضارع ـ يمحو ويحقّ ـ للدلالة على الاستمرار، فمحو الباطل وإحقاق الحقّ بالكلمات سنّة جارية له تعالىٰ، والمراد بالكلمات ما ينزل علىٰ الأنبياء من الوحي الإلهيّ والتكليم الربوبي ويمكن أن يكون المراد نفوس الأنبياء من حيث إنّها مفصحة عن الضمير الغيبي.

وقوله: ﴿إنّه عليمٌ بذات الصدور﴾ تعليل لقوله: ﴿ويمحُ اللهُ الباطلَ... إلخ﴾ أي أنّه يمحو الباطل ويحقّ الحقّ بكلماته، لأنّه عليمٌ بالقلوب وما انطوت عليه، فيعلم ما تستدعيه من هدىً أو ضلال أو شرحٍ أو ختم بإنزال الوحي وتوجيه الدعوة.

قيل: وفي الآية إشعارٌ بوعد النبيّ ﷺ بالنصر ولا يخلو من وجه[1].

جريان هذه السنّة في الإسلام علىٰ يد المهديّ:

التدبّر في تفسير الآية الكريمة والحديث الشريف المبيّن لسبب نزولها والمطبق لها على النصر المهدوي يدلّنا علىٰ عدّة أُمور، أهمّها:

١ـ أنّ محو الله للباطل وإحقاق الحقّ سنّة إلهية جارية في جميع الأقوام والأُمم، كما هو المستفاد من إيرادها بصيغة المضارع المفيدة للاستمرار، فهي تجري مع أُمّة الرسول ﷺ وما جرىٰ بشأن عترته وقرباه الّذين أمر بمودّتهم كوسيلة للنجاة من الضلالة. فتحقّق هذه السنّة حتميّ لا مردّ له.

٢ـ أنّ تحقّق هذه السنّة يكون بكلمات الله تبارك وتعالىٰ وهم الأنبياء ـ كما

---

(١) تفسير الميزان: ١٨ / ٤٩ ـ ٥٠.

تقدّم في تفسير الآية ـ ومن يقوم مقامهم من الأوصياء حسب ما ورد في تطبيق الحديث الشريف للآية، والمهديّ هو خاتم الأوصياء وممثّل خطّ قربى الرسول من العترة الطاهرة الّذين أمر الله بمودّتهم.

٣ـ وعليه، يتّضح حتمية ظهور الإمام المهديّ عجّل الله فرجه؛ لأنه يعبّر عن سنّةٍ إلهيةٍ جارية في إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل. وهذا ما تؤيّده الآية التالية وهي:

ثامناً: إزالة دولة الباطل:

قوله تعالىٰ:

﴿ *وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً* ﴾(١)

روى الشيخ الكليني في كتاب الروضة من الكافي بهذا الإسناد: علي بن محمّد عن علي بن العبّاس عن الحسن بن عبد الرحمن عن عاصم بن حميد عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام في قوله عزّوجلّ: ﴿ *وقل جاء الحقُّ وزهق الباطلُ* ﴾ قال: إذا قام القائم عليه السلام ذهبت دولة الباطل(٢).

الشطر الثاني من الآية الكريمة يؤكّد ـ بلغةٍ واضحة ـ السنّة الإلهيّة الجارية في إزهاق الباطل؛ لأنّه ممّا لا ينفع الناس، فيما يتضمّن الشطر الأول إعلاناً بتحقّق هذه السنّة الإلهيّة في الكامل.

وقال العلّامة الطباطبائي في تفسيره للآية الكريمة: قوله تعالىٰ: ﴿ *وقل جاء*

---

(١) الإسراء: ٨١.

(٢) الكافي: ٨ / ٢٨٧.

الحقُّ وزهق الباطلُ إنّ الباطلَ كان زهوقاً ﴾ قال في المجمع : الزهوق هو الهلاك والبطلان يقال : زهقت نفسه إذا خرجت فكأنّها قد خرجت إلى الهلاك ، إنتهى والمعنى ظاهر.

وفي الآية أمره ﷺ بإعلام ظهور الحقّ وهو لوقوع الآية في سياق ما مرّ من قوله : ﴿ *وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ*... إلى آخر الآيات ﴾[1] أمر بإياس المشركين من نفسه وتنبيههم أن يوقنوا أن لا مطمع لهم فيه ﷺ.

وفي الآية دلالة على أنّ الباطل لا دوام له كما قال تعالى في موضع آخر : ﴿ *وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ* ﴾[2][3].

إزالة الباطل ببركة جهاد أنصار المهديّ:

يُستفاد من دلالات الآية الكريمة وتطبيقها على الثورة المهدوية الكبرىٰ عدّة أُمور ، ابرزها :

١ ـ حتمية الظهور المهدوي لأن يعبّر عن إجراء وتنفيذ السنّة الإلهيّة الثابتة في إزهاق الباطل.

٢ ـ كما يُستفاد من الأمر الإلهيّ للنبيّ الأكرم ﷺ بإعلام ذلك أنّ تحقّق هذا الأمر يعبّر عن الإرادة الإلهيّة ، كما دلّت عليه الآيات السابقة والآية اللاحقة.

٣ ـ أنّ ظهور المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه يعني زوال حاكمية الباطل كما يُستفاد من نصّ الحديث الشريف بأنّ قيامه عليه السلام يُذهب دولة الباطل ، فلا يبقىٰ للباطل حكم على الأرض.

---

(١) الإسراء: ٧٣.

(٢) إبراهيم: ٢٦.

(٣) تفسير الميزان: ١٣ / ١٧٧.

٤ ـ الربط بين مجيء الحقّ وزهوق الباطل يشير إلى أنّ إزهاق الباطل يكون علىٰ أيدي أنصار الحقّ وبجهادهم وعدم خشيتهم في الله لومة لائم، فلن يكون إزهاق الباطل دون جهاد. وهذا الأمر يؤيّد ما ورد في آيات سورة المائدة الّتي أكدت أنّ إزالة الردّة عن الدين الحقّ تكون ببركة جهاد أحبّاء الله تبارك وتعالىٰ الّذين لا يخافون في الله لومة لائم.

٥ ـ يشكّل ظهور الإمام المهديّ عجّل الله فرجه أبرز وأهمّ مصاديق ظهور الحقّ وإزهاق الباطل؛ لأنّه يقيم دولة الحقّ في العالم كلّه وبأعمق وأشمل صوّرها ويزهق الباطل في كلّ الأرض وينهي حكمه بمختلف أشكاله، ولذلك فهو أشمل مصاديق تطبيق الآية الكريمة وإن كان ليس مصداقها الوحيد.

تاسعاً: المهديّ كلمة الله الّتي يحقّ بها الحقّ:

قوله تعالىٰ:

﴿ *وَيُرِيدُ اللهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقطَعَ دَابِرَ الكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الحَقَّ وَيُبطِلَ البَاطِلَ وَلَو كَرِهَ المُجرِمُونَ* ﴾ (١)

روى العيّاشي عن جابر قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن تفسير هذه الآية في قول الله عزّ وجلّ: ﴿ *يريدُ الله أن يُحِقَّ الحقّ بكلماتِهِ ويقطعَ دابِرَ الكافرين* ﴾ قال أبو جعفر عليه السلام: تفسيرها في الباطن يريد الله فإنّه شيءٌ يريده ولم يفعله بعد، وأمّا قوله ﴿ *يحقَّ الحقّ بكلماته* ﴾ فإنّه يعني يحقّ حقّ آل محمّد. وأمّا قوله: ﴿ *بكلماته* ﴾ قال: كلماته في الباطن، علي هو كلمة الله في الباطن. وأمّا قوله:

(١) الأنفال: ٧ ـ ٨.

﴿ ويقطعَ دابرَ الكافرين ﴾ فهم بنو أُمية، هم الكافرون يقطع الله دابرهم. وأمّا قوله: ﴿ ليحقَّ الحقَّ ﴾ فإنّه يعني ليحقّ حقّ آل محمّد ﷺ حين يقوم القائم عليه السلام. وأمّا قوله: ﴿ ويبطلَ الباطل ﴾ يعني القائم عليه السلام، فاذا قام يبطل باطل بني أُمية وذلك قوله: ﴿ ليحقَّ الحقَّ ويبطلَ الباطلَ ولو كَرِه المجرمون ﴾[1].

تأتي الآيتان الكريمتان في سياق قرآني يتحدّث عن معركة بدر الكبرىٰ. قال العلّامة الطباطبائي في تفسيره لهذه الآية: قوله تعالىٰ: ﴿ وإذ يَعِدُكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودّون أنّ غير ذات الشوكة تكونُ لكم ويريدُ الله أن يُحقَّ الحقّ بكلماته ويقطعَ دابرَ الكافرين ﴾ أي واذكروا إذ يعدكم الله، وهو بيان منن الله وعدّ نعمه عليهم ليكونوا على بصيرة من أنّ الله سبحانه لا يستقبلهم بأمرٍ ولا يأتيهم بحكمٍ إلّا بالحقّ وفيه حفظ مصالحهم وإسعاد جدّهم، فلا يختلفوا فيما بينهم، ولا يكرهوا ما يختاره لهم، ويكلوا أمرهم إليه فيطيعوه ورسوله.

والمراد بالطائفتين العير والنفير، والعير قافلة قريش وفيها تجارتهم وأموالهم وكان عليها أربعون رجلاً منهم أبو سفيان بن حرب، والنفير جيش قريش وهم زهاء ألف رجل.

وقوله: «إحدى الطائفتين» مفعول ثان لقوله: «يعدكم» وقوله: «أنّها لكم» بدل منه، وقوله: «وتودّون...الآية» في موضع الحال، والمراد بـ«غير ذات الشوكة» الطائفة غير ذات الشوكة وهي العير الّذي كان أقلّ عِدّة وعُدّة من النفير، والشوكة الحدّة، استعارة من الشوك.

---

(١) تفسير العيّاشي: ٢ / ٥٠.

القضاء الإلهيّ بنصرة أوليائه:

وقوله: «ويريد اللهُ أن يُحقَّ الحقَّ بكلماته» في موضع الحال، والمراد بإحقاق الحقّ إظهاره وإثباته بترتيب آثاره عليه، وكلمات الله هي ما قضىٰ به من نصرة أنبيائه وإظهار دينه الحقّ، قال تعالى: ﴿*وَلَقَد سَبَقَت كَلِمَتُنا لِعِبادِنا المُرسَلِين * إنّهم لَهُمُ المَنصُورون * وَإنَّ جُندَنا لَهُمُ الغَالِبُون*﴾[1] وقال تعالى: ﴿*يُريدُونَ لِيُطفِئوا نُورَ اللهِ بِأفَواهِهِم وَاللهُ مُتمُّ نُورِهِ وَلَو كَرِهَ الكَافِرُون * هُوَ الّذي أرسَلَ رَسُولَه بِالهُدىٰ وَدِينِ الحَقِّ لِيُظهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَو كَرِهَ المُشرِكُون*﴾[2].

وقرئ: «بكلمته»: وهو أوجه وأقرب، والدابر ما يأتي بعد الشيء ممّا يتعلّق به ويتّصل إليه، وقطع دابر الشيء كناية عن إفنائه واستئصاله بحيث لا يبقى بعده شيء من آثاره المتفرّعة عليه المرتبطة به.

ومعنى الآية: واذكروا إذ يعدكم الله أنّ إحدى الطائفتين لكم تستعلون عليها بنصر الله، إمّا العير وإما النفير، وأنتم تودّون أن تكون تلك الطائفة هي العير لما تعلمون من شوكة النفير وقوّتهم وشدّتهم، مع ما لكم من الضعف والهوان، والحال أنّ الله يريد خلاف ذلك وهو أن تلاقوا النفير فيظهركم عليهم ويظهر ما قضى ظهوره من الحقّ، ويستأصل الكافرين ويقطع دابرهم.

قوله تعالىٰ: ﴿*لِيُحِقَّ الحقَّ ويبطلَ الباطلَ ولو كَرِه المجرمون*﴾ ظاهر السياق أنّ اللام للغاية، وقوله: «ليحقَّ... الآية» متعلّق بقوله: «يعدكم الله» أي إنّما وعدكم الله ذلك وهو لا يخلف الميعاد ليحقّ بذلك الحقّ ويبطل الباطل ولو كان المجرمون يكرهونه ولا يريدونه.

---

(١) الصافّات: ١٧١ ـ ١٧٣.

(٢) الصفّ: ٨ و ٩.

وبذلك يظهر أنّ قوله: «ليُحقَّ الحقَّ... الآية» ليس تكراراً لقوله: «ويريدُ الله أن يُحِقَّ الحقّ بكلماتِه» وإن كان في معناه[1].

قطع دابر الكافرين بالكلمات الإلهيّة:

يُستفاد من تطبيق الآيتين على القضية المهدوية حتمية ظهوره عليه السلام وإحقاق الحقّ الإلهيّ على يده، لتعلّق الإرادة الإلهيّة بذلك وتعبيره عن سنّة إلهية جارية في الأقوام الأُخرىٰ الّذين نزلت إليهم الرسالات السماوية لا تشذّ عنها الرسالة المحمّدية الخاتمة. وإضافة لذلك يُستفاد من التدبّر في الآية الكريمة والحديث الشريف الوارد في تطبيقها أُمور، أهمّها:

كيد الكافرين لا يمنع ظهور المهديّ:

١ـ إنّ كيد الكافرين والمنحرفين وجهودهم المضادّة للقضية المهدوية ومحاربتهم لها لن تمنع من تحقّق أهدافها وظهور الإمام وإحقاق الحقّ وإزهاق الباطل علىٰ يديه، فمهما اشتدّت هذه المساعي العدائية لن تفلح في تحقيق ما تريده من إبادة الحقّ، فهي وإن أدّت إلى اغتيال أئمّة خطّ الحقّ وغَيبة خاتمهم صلوات الله علىٰ جدهم وعليهم أجمعين إلّا أنّها عاجزة عن إبادة الحقّ بالكامل، بل على العكس فإنّ كيدهم يتحوّل إلىٰ وسيلة لاتّضاح أحقّية الحقّ الّذي يمثّله آل محمّد عليهم السلام وبطلان ما يدّعيه أعداؤهم بمختلف مشاربهم.

٢ـ إنّ تحقّق هذا الوعد وما تعلّقت به الإرادة الإلهيّة لن يكون بالإعجاز وحده بل بتحمّل المؤمنين مشاقّ الجهاد وتحلّيهم بالصبر في مجاهدة الكافرين

---

(١) تفسير الميزان: ٩ / ١٩ ـ ٢٠.

والمنحرفين والاستقامة والثبات في السير في طريق ذات الشوكة، ويتأكّد هذا الأمر في عصر الغَيبة، وفي ذلك تحقيق لسنّةٍ إلهيةٍ جاريةٍ في خلقه أيضاً فيما يرتبط بكيفية إحقاق الحقّ.

٣ـ إنّ تحقّق ذلك يستلزم من المؤمنين تفويض الأمر لله تبارك وتعالىٰ والتسليم لما يختاره لهم في طريق ذات الشوكة، فلا يكرهون شيئاً من فِتَنها وصعوباتها لأنّها جميعاً تأتي في سياق إحقاق الحقّ بكلماته.

٤ـ إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل يكون «بكلمات الله»، وهم حسب الحديث الشريف المطبق للآية الكريمة العترة الطاهرة، وهذا التطبيق يفيد أنّ إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل يكون باتّباعهم وموالاتهم عليهم السلام.

٥ـ إحقاق الحقّ مقرونٌ بإزهاق الباطل وقطع دابر الكافرين بما يعنيه من عدم بقاء شيء من آثارهم ومظاهر حاكميّتهم وتأثيرهم في إضلال الناس، وبالتالي إنهاء الفتنة الّتي تسبّبها للناس الشجرة الملعونة في القرآن الكريم، وبذلك تتوفّر الأوضاع المناسبة لإقامة المجتمع التوحيدي الصالح.

الحقّ المقصود هو الدين النقي الّذي تمثّله الإمامة المعصومة:

١ـ ويُفهم من الحديث الشريف المتقدّم أنّ الحقّ المقصود هو الدين الإلهيّ النقي والحقّ الّذي يمثّله خطّ الإمامة المعصومة من آل محمّد عليهم السلام، والباطل هو خطّ الإضلال والفساد الّذي تمثّله الشجرة الملعونة في القرآن.

٢ـ إنّ ما تعلّقت به الإرادة الإلهيّة لم يتحقّق في مصداقه الأكمل ولن يتحقّق إلّا بالفتح المهدوي، كما يصرّح بذلك الحديث الشريف المتقدّم، وإن كان ذلك لا يمنع أن يكون الانتصار النبوي في معركة بدر وغيرها من مصاديق إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل.

عاشراً: حقّ الانتقام للمظلومية الحسينية:

قوله تعالىٰ:

﴿وَمَن قُتِلَ مَظلُوماً فَقَد جَعَلنَا لِوَلِيِّهِ سُلطَاناً فَلَا يُسرِف فِي القَتلِ إِنَّه كَانَ مَنصُوراً﴾[1]

١ ـ روى الشيخ أبو القاسم جعفر بن محمّد بن قولويه في كامل الزيارات قال: حدّثني محمّد بن الحسن بن أحمد عن محمّد بن الحسن الصفار عن العبّاس بن معروف عن محمّد بن سنان عن رجلٍ قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سلطاناً فلا يُسرفْ في القتل إنّه كان منصوراً﴾ قال: ذلك قائم آل [بيت] محمّد صلى الله عليه وآله، يخرج فيقتل بدم الحسين عليه السلام، فلو قتل أهل الأرض لم يكن مسرفاً. ثمّ قال أبو عبد الله عليه السلام: يقتل والله ذراري قتلة الحسين عليه السلام لفعال آبائهم [بفعال آبائها][2].

٢ ـ وروى الشيخ الصدوق قال: حدّثنا أحمد بن زياد بن جعفر الهمداني رحمه الله قال: حدّثنا علي بن إبراهيم بن هاشم عن أبيه عن عبد السلام بن صالح الهروي قال: قلت لأبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام: يابن رسول الله ما تقول في حديث روي عن الصادق عليه السلام أنه قال: إذا قام [خرج] القائم عليه السلام قتل ذراري قتلة الحسين عليه السلام بفعال آبائهم؟ فقال عليه السلام: هو كذلك، فقلت: فقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزرَ أُخرَىٰ﴾[3]، ما معناه؟ فقال: صدق الله في جميع أقواله ولكن ذراري قتلة الحسين يرضون بفعال آبائهم ويفتخرون بها،

---

(١) الإسراء: ٣٣.

(٢) كامل الزيارات: ٦٣.

(٣) الأنعام: ١٦٤، الإسراء: ١٥، فاطر: ١٨، الزمر: ٧.

ومن رضي شيئاً [كان] كمن أتاه، ولو أنّ رجلاً قُتل في المشرق فرضي قتله رجل في المغرب لكان الراضي عند الله عزّوجلّ شريك القاتل، فإنّما يقتلهم القائم عليه السلام إذا خرج لرضاهم بفعل آبائهم. قال: فقلت له: بأيّ شيءٍ يبدأ القائم منكم [إذا قام]؟ قال: يبدأ ببني شيبة فيقطع أيديهم لأنّهم سرّاق بيت الله عزّوجلّ(١).

٣ـ وروى الشيخ محمّد بن يعقوب عن علي بن محمّد بن صالح عن الحجّال عن بعض أصحابه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن قول الله عزّوجلّ: ﴿ ***ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سلطاناً فلا يُسرفْ في القتل*** ﴾ قال: نزلت في الحسين عليه السلام لو قتل أهل الأرض به ماكان مسرفاً(٢).

٤ـ وروىٰ علي بن إبراهيم عن أبيه عن عثمان بن سعيد عن المفضّل بن صالح عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عزّوجلّ: ﴿ ***ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سلطاناً فلا يُسرفْ في القتل إنّه كان منصوراً*** ﴾ قال: نزلت في قتل الحسين عليه السلام(٣).

٥ـ وروى العيّاشي في تفسيره بإسناده عن سلام بن المستنير عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿ ***ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سلطاناً فلا يُسرفْ في القتل إنّه كان منصوراً*** ﴾ قال: هو الحسين بن علي عليه السلام قُتل مظلوماً ونحن أولياؤه، والقائم عليه السلام منّا إذا قام طلب بثأر الحسين عليه السلام فيقتُل حتّى يقال قد أسرف في القتل، قال: المسمّى المقتول الحسين عليه السلام، ووليه القائم عليه السلام، والإسراف في القتل أن يقتل

(١) عيون أخبار الرضا: ١٥١.
(٢) الكافي: ٨ / ٢٥٥.
(٣) المحجّة: ١٢٨.

غير قاتله، ﴿ *إنه كان منصوراً* ﴾ فإنّه لا يذهب من الدنيا حتّى ينتصر رجل من آل الرسول [رسول الله] ﷺ يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً[١].

٦ـ وروىٰ شرف الدين النجفي قال: روى بعض الثقات بإسناده [روى الرجال الثقات بإسنادهم] عن بعض أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن قول الله عزّوجلّ: ﴿ *ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سلطاناً فلا يُسرفْ في القتل إنّه كان منصوراً* ﴾ قال: نزلت في الحسين عليه السلام، لو قَتل وليّه أهل الأرض [به] ما كان مسرفاً، ووليّه القائم عليه السلام[٢].

٧ـ وروىٰ فرات الكوفي في تفسيره قال: حدّثني جعفر بن محمّد الفزاري معنعناً عن أبي جعفر عليه السلام في تفسير الآية قال: الحسين، ﴿ *فلا يُسرفْ في القتل إنّه كان منصوراً* ﴾ قال: سمّى الله المهديّ المنصور كما سمّىٰ أحمداً محمّداً وكما سمّىٰ عيسى المسيح عليه السلام[٣].

٨ـ وروى الشيخ الطوسي في كتاب الغَيبة قال: أخبرني به جماعة عن التلعكبري عن أحمد بن علي الرازي عن محمّد بن إسحاق المقري عن علي بن العبّاس المقانعي عن بكار بن أحمد عن الحسن بن الحسين عن سفيان الجريري عن الفضيل بن الزبير قال: سمعت زيد بن علي عليه السلام يقول: هذا المنتظر من ولد الحسين بن علي في ذرّية الحسين وفي عقب الحسين عليه السلام. وهو المظلوم الّذي قال الله تعالىٰ [عنه]: ﴿ *ومَن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سلطاناً* ﴾ قال:

---

(١) تفسير العيّاشي: ٢ / ٢٩٠.

(٢) تأويل الآيات الظاهرة: ١ / ٢٨٠.

(٣) تفسير فرات الكوفي: ١٢٢.

وليّه رجل من ذرّيته من عقبه، ثمّ قرأ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾[١]، ﴿سلطاناً فلا يُسرف في القتل﴾ قال: سلطانه حجّته على جميع مَن خلق الله، حتّى يكون له الحجّة على الناس ولا يكون لأحد عليه حجّة[٢].

وفي تفسير هذه الآية الكريمة قال العلّامة الطباطبائي ﵀: قوله تعالى: ﴿ولا تقتلوا النفس الّتي حرّم الله إلّا بالحقّ... إلى آخر الآية﴾ نهي عن قتل النفس المحترمة إلّا بالحقّ أي إلّا أن يكون قتلاً بالحقّ بأن يستحقّ ذلك لقود أو ردّة أو لغير ذلك من الأسباب الشرعية، ولعلّ في توصيف النفس بقوله: ﴿حرّم الله﴾ من غير تقييد إشارة إلى حرمة قتل النفس في جميع الشرائع السماوية فيكون من الشرائع العامة، كما تقدّمت الإشارة إليه في ذيل الآيات ١٥١ ـ ١٥٣ من سورة الأنعام.

وقوله: ﴿ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سلطاناً فلا يُسرفْ في القتل إنّه كان منصوراً﴾ المراد بجعل السلطان لوليّه تسليطه شرعاً على قتل قاتل وليّه قصاصاً والضميران في «فلا يسرف» و «إنّه» للولي، والمراد بكونه منصوراً هو التسليط الشرعي المذكور.

والمعنى: ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا بحسب التشريع لوليّه وهو وليّ دمه سلطنة على القصاص وأخذ الدية والعفو فلا يُسرف الوليّ في القتل بأن يقتل غير القاتل أو يقتل أكثر من الواحد ﴿إنّه كان منصوراً﴾ أي فلا يسرف فيه، لأنّه كان منصوراً فلا يفوته القاتل بسبب أنّا نصرناه أو فلا يسرف اعتماداً على أنّا نصرناه.

---

(١) الزخرف: ٢٨.
(٢) غَيبة الطوسي: ١١٥.

وربما احتمل بعضهم رجوع الضمير في قوله: «فلا يسرف» إلى القاتل المدلول عليه بالسياق، وفي قوله: «إنّه» إلى «من» والمعنى: قد جعلنا لوليّ المقتول ظلماً سلطنة فلا يُسرف القاتل الأول بإقدامه على القتل ظلماً فإنّ المقتول ظلماً منصور من ناحيتنا لما جعلنا لوليّه من السلطنة، وهو معنى بعيد من السياق ودونه إرجاع ضمير «إنّه» فقط إلى المقتول[1].

القصاص من خطّ الظلم:

يُستفاد من التدبّر في الآية الكريمة وتطبيقها على القضية المهدوية طبقاً للأحاديث الشريفة المتقدّمة أنّ ما يقوم به الإمام المهديّ عجّل الله فرجه من الانتقام من خطّ الظلم والجور والعدوان علىٰ خطّ الإمامة المعصومة، والّذي تجلّىٰ بأفظع صوَره في واقعة الطف الدامية الّتي أراد الأُمويون منها إبادة هذا الخطّ بالكامل وعدم الإبقاء علىٰ أحدٍ منهم إلّا أنّهم فشلوا في كيدهم إذ حفظ الله من ولد الحسين ابنه علياً عليه السلام لتستمرّ به وبولده الإمامة الإبراهيمية، كما حفظ من ذرّية الحسن المجتبىٰ عليه السلام ابنه الحسن المثنّىٰ رضوان الله عليه الّذي استمرّت منه الذرّية الحسنية، نقول: ما يقوم به الإمام المهديّ هو الانتقام من أصل هذا الخطّ الظالم المعتدي والثأر لمظلومية خطّ الهدىٰ والإصلاح، وفي ذلك قصاص عادل يعاقب الظالمين علىٰ ظلمهم وجورهم وفسادهم، وهذه هي لحكمة من تشريع الجهاد، فلا يمكن فهم ذلك علىٰ أنّه انتقامٌ شخصي والعياذ بالله.

---

(١) تفسير الميزان: ١٣ / ٩٠.

وهذا الأمر يؤكّد تطبيق آية الحجّ النازلة في تشريع الجهاد على الانتقام المهدوي، كما سنرىٰ لاحقاً، وعلىٰ أيّ حال فالمستفاد من تطبيق هذه الآية والآيتين اللاحقتين على القضية المهدوية هو أنّ الانتقام المهدوي من خطّ الضلال والجور والعدوان منصورٌ بالنصرة الإلهيّة.

يُضاف إلى ذلك أنّ المستفاد من التدبّر في حكمة القصاص هو أنّ إنجاز هذه العملية الانتقامية العقابية ضروري لتحقّق المهمّة الكبرىٰ للإمام المهديّ عجّل الله فرجه في إقامة الدولة العادلة الخالية من جميع أشكال الظلم والجور.

الحادي عشر: نصرة المظلومين في سبيل الله:

قوله تعالىٰ:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُم ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصرِهِم لَقَدِير﴾ (١)

١ـ روىٰ محمّد بن العبّاس قال: حدّثنا الحسين بن أحمد المكّي [المالكي] عن محمّد بن عيسى عن يونس عن مثنّى الحنّاط عن عبد الله بن عجلان عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عزّوجلّ: ﴿أُذنَ للّذين يُقاتَلون بأنّهم ظُلِموا وإنّ اللهَ على نصرهم لقدير﴾ قال: في القائم عليه السلام وأصحابه (٢).

٢ـ وروىٰ علي بن إبراهيم قال: حدّثني أبي عن ابن أبي عمير عن ابن مسكان عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله: ﴿أُذنَ للّذين يُقاتَلون بأنّهم ظُلِموا وإنّ اللهَ على نصرهم لقدير﴾ قال: إنّ العامّة يقولون نزلت في رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا

(١) الحجّ: ٣٩.

(٢) تأويل الآيات الظاهرة: ١ / ٣٣٨، ورواه النعماني في غَيبته: ٢٤١ بسندٍ آخر عن الإمام الصادق عليه السلام.

أخرجته قريش من مكّة، وإنّما هي للقائم إذا خرج يطلب بدم الحسين عليه السلام، وهو قوله: أولياء الدم وطلّاب الدية[1].

الآية الكريمة نازلة في تشريع الجهاد والدفاع للّذين يُعرَّضون للظلم والعدوان عليهم، كما كان حال المسلمين في بداية الدعوة حيث عرّضهم المشركون لجميع أنواع الظلم، وفيها تصريح بنصرة الله لهم، وهي آية عامّة تشمل جميع الأزمان، لنلاحظ أوّلاً تفسير العلّامة الطباطبائي لها:

قوله تعالى: ﴿ *أُذنَ للّذين يُقاتَلون بأنّهم ظُلِموا وإنّ اللهَ على نصرهم لقدير* ﴾ ظاهر السياق أنّ المراد بقوله: «أُذن» إنشاء الإذن دون الاخبار عن إذن سابق وإنّما هو إذن في القتال كما يدلّ عليه قوله: ﴿ *للّذين يقاتَلون*...إلخ ﴾ ولذا بدّل قوله: ﴿ *الّذين آمنوا* ﴾ من قوله: ﴿ *الّذين يقاتَلون* ﴾ ليدلّ على المأذون فيه.

والقراءة الدائرة «يقاتَلون» بفتح التاء مبنياً لمفعول، أي الّذين يقاتلهم المشركون لأنّهم الّذين أرادوا القتال وبدأُوهم به، والباء في «بأنّهم ظُلموا» للسببية وفيه تعليل الإذن في القتال، أي أُذن لهم فيه بسبب أنّهم ظُلموا، وأمّا ما هو الظلم؟ فتفسيره قوله: ﴿ *الَّذِينَ أُخرِجُوا مِن دِيارِهِم بِغَيرِ حَقٍّ*...إلخ ﴾[2].

وفي عدم التصريح بفاعل «أُذن» تعظيم وتكبير، ونظيره ما في قوله: ﴿ *وإنّ اللهَ على نصرهم لقدير* ﴾ من ذكر القدرة على النصر دون فعليته، فإنّ فيه إشارة إلى أنّه ممّا لا يهتمّ به، لأنه هيّنٌ على مَن هو على كلّ شيءٍ قدير.

والمعنى: أُذن ـ من جانب الله ـ للّذين يقاتلهم المشركون وهم المؤمنون بسبب أنّهم ظلموا ـ من جانب المشركين ـ وإنّ الله على نصرهم لقدير، وهو كناية عن النصر[3].

---

(١) تفسير القمّي: ٢ / ٨٤.

(٢) الحجّ: ٤٠.

(٣) تفسير الميزان: ١٤ / ٣٨٤.

وفي بحثه الروائي قال ﷺ: في المجمع روي عن الباقر عليه السلام أنّه قال: لم يؤمر رسول الله ﷺ بقتال ولا أُذن له فيه حتّى نزل جبرئيل بهذه الآية: ﴿*أُذِنَ لِلَّذين يُقاتَلون بأنّهم ظُلِموا*﴾ وقلّده سيفاً.

وفيه كان المشركون يؤذون المسلمين، لا يزال يجيء مشجوج ومضروب إلى رسول الله ﷺ ويشكون ذلك إلى رسول الله ﷺ فيقول لهم: اصبروا فإنّي لم أُومر بالقتال، حتّى هاجر فأنزل الله عليه هذه الآية بالمدينة، وهي أوّل آيةٍ نزلت في القتال.

أقول: وروي في الدرّ المنثور عن جمٍّ غفير من أرباب الجوامع عن ابن عبّاس وغيره أنّها أوّل آيةٍ نزلت في القتال. وما اشتمل عليه بعض هذه الروايات أنّها نزلت في المهاجرين من أصحاب النبيّ ﷺ خاصّة إن صحّت الرواية فهو اجتهاد من الراوي لما مرّ أنّ الآية مطلقة وأنّه لا يعقل توجيه حكم القتال إلى أشخاص من الأمّة بأعيانهم وهو حكم عامّ.

ونظير الكلام جارٍ في قوله تعالىٰ: ﴿*الّذِينَ إن مَكّنّاهُم في الأرضِ...إلخ*﴾[1] بل وفي قوله: ﴿*الّذين أُخرجوا من ديارهم بغير حقّ... إلخ*﴾ على ما تقدّم في البيان.

وفيه في قوله تعالىٰ: ﴿*الّذين أُخرجوا من ديارهم*﴾: وقال أبو جعفر عليه السلام: نزلت في المهاجرين وجرت في آل محمّد الّذين أُخرجوا من ديارهم وأُخيفوا. أقول: وعلى ذلك يُحمل ما في المناقب عنه عليه السلام في الآية: نحن نزلت فينا. وفي روضة الكافي عنه عليه السلام: جرت في الحسين عليه السلام[2].

---

(١) الحجّ: ٤١.

(٢) تفسير الميزان: ١٤ / ٣٩٥.

مظلومية آل محمّد عليهم السلام :

يُستفاد من تفسير الآية الكريمة والبحث الروائي الوارد في تطبيقها أنّ الإذن الإلهيّ للمؤمنين بمجاهدة المشركين مقرونٌ بوعدهم بالنصر، وهذا الوعد بالنصر لكونهم قد ظُلموا، وصدق هذه العلّة علىٰ آل محمّد صلى الله عليه وآله من أوضح الواضحات، وقد تجلّىٰ ذلك الظلم في واقعة الطّف الفظيعة، والظلم الّذي تعرّضوا له كان بسبب دفاعهم عن دين الله تعالىٰ، فهم منصورون إلهياً بلا شكّ، وتحقّق ذلك يكون علىٰ يد خاتمهم المهديّ الموعود عجّل الله فرجه.

الثاني عشر: القصاص من البُغاة:

قوله تعالىٰ:

﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ (١)

١ ـ قال علي بن إبراهيم في تفسيره للآية: فهو رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا أخرجته قريش من مكّة وهرب منهم إلى الغار وطلبوه ليقتلوه، فعاقبهم الله يوم بدر فقتلَ عتبة وشيبة والوليد وأبا جهل وحنظلة بن أبي سفيان وغيرهم، فلمّا قبض رسول الله صلى الله عليه وآله طُلب بدمائهم فقُتل الحسين عليه السلام وآل محمّد بغياً وعدواناً، وهو قول يزيد حين تمثّل بهذا الشعر :

ليت أشياخي ببدرٍ شهدوا	جزع الخزرج من وقع الأسل
لأهلّوا واستهلّوا فرحاً	ثمّ قالوا يا يزيد لا تشل
لستُ من خندف إن لم أنتقم	من بني أحمد ما كان فعل
قد قتلنا القوم من ساداتهم	وعدلناه ببدرٍ فاعتدل

(١) الحجّ: ٦٠.

وقال الشاعر في مثل ذلك:

وكذلك الشيخ أوصاني به فاتّبعت الشيخ فيما قد سأل

وقال يزيد أيضاً والرأس مطروح يقلّبه:

ياليت أشياخنا الماضين بالحضر حتّى يقيسوا قياساً لا يقاس به

أيام بدر لكان الوزن بالقدر

فقال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿ *ومَن عاقب* ﴾ يعني رسول الله ﷺ، ﴿ *بمثل ما عوقب به* ﴾ يعني حسيناً أرادوا أن يقتلوه ﴿ *ثمّ بُغي عليه لَينصرنّه الله* ﴾ يعني بالقائم عليه السلام من ولده[1].

٢ ـ وروى الحافظ القندوزي الحنفي بإسناده قال: عن سلام بن المستنير عن الصادق عليه السلام في قوله تعالىٰ: ﴿ *ومَن عاقب بمثل ما عوقب به ثمّ بُغي عليه لَينصرنّه الله إنّ الله لعفوٌّ غفور* ﴾ قال: إنّ رسول الله ﷺ لمّا أخرجته قريش من مكّة وهرب منهم إلى الغار وطلبوه ليقتلوه فعوقب، ثمّ في بدر عاقب، لأنّه قتل عتبة ابن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وحنظلة بن أبي سفيان وأبا جهل وغيرهم، فلمّا قبض رسول الله ﷺ بغى عليه ابن هند بنت عتبة بن ربيعة [يعني: معاوية بن أبي سفيان] بخروجه عن طاعة أمير المؤمنين، وبقتل ابنه يزيد الحسين بغياً وعدواناً، ثمّ قال تعالى: ﴿ *لَينصرنّه الله* ﴾ يعني: بالقائم المهديّ من ولده[2].

الحكمة في معاقبة البُغاة بالمثل:

الآية الكريمة تؤكّد مضامين الآيات السابقة وتضيف إليها ـ استناداً إلى

---

(١) تفسير القمّي: ٢ / ٨٧.

(٢) ينابيع المودّة: ٤٢٥.

تطبيقها ـ الحكمة الإلهيّة في الانتقام المهدوي وسرّ معاقبة الظالمين بالمثل، كما يتّضح من تفسيرها، فقد ذكر العلّامة الطباطبائي ﷺ أنّ:

العقاب بمثل العقاب كناية عن المعاملة بالمثل، ولمّا لم يكن هذه المعاملة بالمثل حسناً إلّا فيما كان العقاب الأول من غير حقّ قيّده بكونه بغياً فعطف قوله: «بغي عليه» بـ«ثمّ» عليه.

وقوله: ﴿*لينصرنه الله*﴾ ظاهر السياق ـ والمقام مقام الإذن في الجهاد ـ أنّ المراد بالنصر هو إظهار المظلومين على الظالمين الباغين وتأييدهم عليهم في القتال لكن يمكن أن يستظهر من مثل قوله: ﴿*وَمَن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سلطاناً فلا يُسرف في القتل إنّه كان منصوراً*﴾(١) أنّ المراد بالنصر هو تشريع حكم للمظلوم يتدارك به ما وقع عليه من وصمة الظلم والبغي، فإنّ في إذنه أن يعاملَ الظالم الباغي عليه بمثل ما فعل بسطاً ليده على من بسط عليه اليد.

وبهذا يتّضح معنى تعليل النصر بقوله: ﴿*إنّ الله لعفوٌّ غفور*﴾ فإنّ الإذن والإباحة في موارد الإضطرار والحرج وما شابه ذلك من مقتضيات صفتي العفو والمغفرة، كما تقدّم مراراً في أمثال قوله تعالى: ﴿*فَمَنِ اضطُرَّ فِي مَخمَصَةٍ غَيرَ مُتَجانِفٍ لإثمٍ فَإنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيم*﴾(٢) وقد أوضحنا ذلك في المجازاة والعفو في آخر الجزء السادس من الكتاب.

والمعنى ـ على هذا ـ: ومَن عامل مَن عاقبه بغياً عليه بمثل ما عاقب نصره الله بإذنه فيه ولم يمنعه عن المعاملة بالمثل، لأنّ الله عفوٌّ غفور، يمحو ما تستوجبه هذه المعاملة والانتقام من المساءة والتبعة، كأنّ العقاب وإيصال

(١) الإسراء: ٣٣.
(٢) المائدة: ٣.

المكروه إلى الناس مبغوضٌ في نظام الحياة، غير أنّ الله سبحانه يمحو ما فيه من المبغوضية ويستر على أثر السيّئ إذا كان عقاباً من مظلومٍ لظالمه الباغي عليه بمثل ما بغي عليه، فيجيز له ذلك ولا يمنعه بالتحريم والحظر.

وبذلك يظهر أيضاً مناسبة ذكر وصف الحلم في آخر الآية السابقة ﴿ *إنّ الله لعليمٌ حليم* ﴾. ويظهر أيضاً أن «ثمّ» في قوله: ﴿ *ثمّ بُغِيَ عليه* ﴾ للتراخي بحسب الذكر لا بحسب الزمان.

وأمّا ما أوردوه في معنى الآية: ومن جازى الجاني بمثل ما جنى به عليه ثمّ بغي عليه بالمعاودة إلى العقاب لينصرنّه الله على من بغي عليه إنّ الله لعفوٌّ غفور لمن ارتكبه من العقاب إذ كان تركاً للأولى، لأنّ الأولى هو الصبر والعفو عن الجاني كما قال تعالىٰ: ﴿ *وَأَن تَعفُوا أَقرَبُ للتَقوَىٰ* ﴾(١)، وقال: ﴿ *فمن عفا وأصلح فأجره على الله* ﴾(٢)، وقال: ﴿ *وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إنّ ذَلِكَ لَمِن عَزمِ الأمور* ﴾(٣).

ففيه أوّلاً: أنّه لمّا أُخذت «ثمّ» للتراخي بحسب الزمان أفاد كون العقاب غير البغي ومطلق العقاب أعمّ من أن يكون جناية، وعمومها للجناية غيرها يفسد معنى الكلام، وإرادة خصوص الجناية منه ـ كما فسّر ـ إرادة معنى لا دليل عليه من جهة اللفظ.

وثانياً: أنه فسّر النصرة بالنصرة التكوينية دون التشريعية، فكان إخباراً عن نصره تعالى المظلوم على الظالم إذا قابله بالمجازاة على جنايته ثمّ بغيه، والواقع ربما يتخلّف عن ذلك.

---

(١) البقرة: ٢٣٧.

(٢) الشورىٰ: ٤٠.

(٣) الشورىٰ: ٤٣.

وثالثاً: أنّ قتال المشركين والجهاد في سبيل الله من مصاديق هذه الآية قطعاً، ولازم ما ذكر أن يكون تركه بالعفو عنهم أولى من فعله، وهو واضح الفساد[1].

النصر الإلهيّ لمنفّذي القصاص:

يُستفاد من التدبر في الآية الكريمة والأحاديث المطبقة لها على الانتقام المهدوي، أنّ قيام الإمام المهديّ عجّل الله فرجه بمعاقبة أعداء خطّ الولاية الحقّة والبغاة والظالمين ومعاملتهم بالمثل جزاءً علىٰ ما إرتكبوه من جرائم ضدّ المظلومين من عترة النبيّ محمّد ﷺ وأتباعهم. هذا الانتقام يحظىٰ بالنصر الإلهيّ لما جرت سنّته تبارك وتعالىٰ في نصرة المظلومين علىٰ ظالميهم، لضرورة ذلك في إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل والردع عن الظلم وإنهاء الفتنة الّتي يسبّبها أعداء آل محمّد ﷺ للناس، ولكي يتمكّنوا من اتّباع الحقّ. وعليه فهذا الانتقام منسجمٌ بالكامل مع دور المهديّ في تهيئة الأوضاع اللازمة لتحقّق الهدف والغاية من خلق الإنسان والمتمثّلة في تحقّق العبودية الحقّة الخالصة لله تبارك وتعالىٰ على الصعيدين الفردي والاجتماعي، لأن يمهّد لها بإزالة عوامل الصدّ عنها وصرف المسلمين عن سبيلها.

إزالة آثار الظلم من الرحمة:

وحيث إنّ في هذه المعاقبة بالمثل إجراء لسنّةٍ إلهية، لذا فإنّ الله تبارك وتعالىٰ يؤيّد المعاقبين بمحو الآثار الّتي تبدو سيّئة لهذا الانتقام ويظهر حكمته، وهذا الأمر يتأكّد في حالة تطبيق الآية على الانتقام المهدوي، لاتّساع

---

(١) تفسير الميزان: ١٤ / ٤٠٠ ـ ٤٠١.

نطاقه وشموله معاقبة الظالمين علىٰ مختلف جرائمهم. وكذلك لأنّ المهديّ الموعود هو منْ مصاديق الرحمة الإلهيّة الواسعة الّذي يحقّق أهداف الرسالات السماوية ويقيم الدولة العادلة والمجتمع الصالح.

فلابدّ من اتّضاح حقيقة أنّ انتقامه الحازم من الظالمين هو الخطوة الأُولىٰ لتحقّق هذه الأهداف الكريمة، ولابدّ من إزالة آثار الانتقام المهدوي ذات الظاهر السيّئ من نفوس الناس لتقبل على الدعوة المهدوية للتوحيد الخالص والعبادة الحقّة لله تبارك وتعالىٰ. ولابدّ من اتّضاح حقيقة أنّ الانتقام المهدوي ضروري لإنهاء البغي في الأرض بغير الحقّ والظلم للناس الّذي يصدّ عن العبادة الحقّة، كما يُستفاد من تطبيق الآيات اللاحقة، وهي:

الثالث عشر: إنهاء البغي في الأرض:

قوله تعالىٰ:

﴿ وَلَمَن انتَصَرَ بَعدَ ظُلمِهِ فَأُولئِكَ مَا عَلَيهِم مِن سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظلِمُونَ النَّاسَ وَيَبغُونَ فِي الأَرضِ بِغَيرِ الحَقِّ أُولئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١)

وقد رويت في تطبيقها على القضية المهدوية عدّة أحاديث، منها:

١ ـ ما رواه محمّد بن العبّاس قال: حدّثنا علي بن عبد الله عن إبراهيم ابن محمّد عن علي بن هلال الأخمسي عن الحسن بن وهب عن جابر الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام في قوله عزّوجلّ: ﴿ ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾ قال: ذلك القائم عليه السلام إذا قام انتصر من بني أُمية ومن

(١) الشورىٰ: ٤١ و ٤٢.

المكذّبين والنّصاب[1].

٢ـ وروىٰ علي بن إبراهيم قال: حدّثنا جعفر بن أحمد قال: حدّثنا عبد الكريم بن عبد الرحيم عن محمّد بن علي عن محمّد بن الفضيل عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول: «﴿ *ولمن انتصر بعد ظُلمه* ﴾ يعني القائم عليه السلام وأصحابه ﴿ *فأولئك ما عليهم من سبيل* ﴾ والقائم إذا قام انتصر من بني أُمية ومن المكذّبين والنصّاب هو وأصحابه، وهو قول الله: ﴿ *إنّما السبيل على الّذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحقّ أُولئك لهم عذابٌ أليم* ﴾[2].

وفي تفسيره للآيتين الكريمتين والآية الّتي بعدها قال العلّامة الطباطبائي رحمه الله: قوله تعالىٰ: ﴿ *ولمن انتصر بعد ظُلمه فأُولئك ما عليهم من سبيل* ـ إلى قوله: ـ *من عزم الأمور* ﴾ ضمير «ظُلمه» راجع إلى المظلوم. والإضافة من إضافة المصدر إلى مفعوله.

الآيات الثلاث تبيين ورفع لبس من قوله في الآية السابقة: ﴿ *فمن عفا وأصلح فأجره على الله* ﴾ فمن الجائز أن يتوهّم المظلوم أنّ في ذلك إلغاء لحقّ انتصاره، فبيّن سبحانه بقوله أوّلاً: ﴿ *ولمن انتصر بعد ظُلمه فأُولئك ما عليهم من سبيل* ﴾ أن لا سبيل على المظلومين ولا مجوّز لإبطال حقّهم في الشرع الإلهيّ، وإرجاع ضمير الإفراد إلى الموصول أوّلاً باعتبار لفظه، وضمير الجمع ثانياً باعتبار معناه.

وبيّن بقوله ثانياً: ﴿ *إنّما السبيل على الّذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحقّ* ﴾ أنّ السبيل كلّه على الظالمين في الانتقام منهم للمظلومين، وأكّد ذلك

---

(١) تأويل الآيات الظاهرة: ٢ / ٥٤٩، ورواه بسند آخر فرات الكوفي في تفسيره: ١٥٠.

(٢) تفسير القمّي: ٢ / ٢٧٨.

ذيلاً بقوله: ﴿أولئك لهم عذابٌ أليم﴾.

وبيّن بقوله ثالثاً: ﴿ولمن صبر وغفر إنّ ذلك لمن عزم الأمور﴾ أنّ الدعوة إلى الصبر والعفو ليست إبطالاً لحقّ الانتصار وإنّما هي إرشاد إلى فضيلةٍ هي أعظم الفضائل، فإنّ في المغفرة الصبر الّذي هو من عزم الأُمور، وقد أكّد الكلام بلام القسم أوّلاً وباللام في خبر إنّ ثانياً لإفادة العناية بمضمونه[1].

معاقبة الظالمين رحمة:

واضحٌ من التدبّر في تفسير الآيات الكريمة وتطبيقها على الانتقام المهدوي أنّ الرحمة الإلهيّة الّتي تقتضي الصبر والمغفرة والعفو عن الناس لا تبطل حقّ الانتظار للمظلومين والانتقام من الظالمين، بل إنّها نفسها تقضي قطع دابر الّذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض، إذ الحجّة قائمة عليهم، فهم الجناة علىٰ أنفسهم ببغيهم وظلمهم الناس، فتجب معاقبتهم توطئة لإقامة الحقّ وتهيئة الظروف اللازمة لكي يعيش المجتمع البشري الحياة الكريمة الّتي أرادها الله تبارك وتعالىٰ له.

الرابع عشر: استجابة دعوة المضطرّ:

قوله تعالىٰ:

﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾[2]

١ ـ روىٰ محمّد بن العباس كما في تأويل الآيات عن حميد بن زياد عن

---

(١) تفسير الميزان: ١٨ / ٦٥.

(٢) النمل: ٦٢.

الحسين بن محمّد بن سماعة عن إبراهيم بن عبد الحميد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنّ القائم عليه السلام إذا خرج دخل المسجد الحرام فيستقبل الكعبة ويجعل ظهره إلى المقام ثمّ يصلّي ركعتين ثمّ يقوم فيقول:

ياأيها الناس أنا أولى الناس بآدم عليه السلام، يا أيها الناس أنا أولى الناس بإبراهيم عليه السلام، ياأيّها الناس أنا أولى الناس بإسماعيل عليه السلام، ياأيّها الناس أنا أولى الناس بمحمّد صلى الله عليه وآله. ثمّ يرفع يديه إلى السماء ويدعوا ويتضرّع حتّى يقع على وجهه، وهو قول الله عزّوجلّ: ﴿ *أمَّن يُجيبُ المضطرَّ إذا دعاهُ ويَكشفُ السُّوء ويجعَلُكم خُلفاءَ الأرض أَإلهٌ مع الله قليلاً مّا تذكّرون* ﴾[1].

٢ـ وعنه أيضاً: بالإسناد عن عبد السلام بن عبد الحميد عن محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عزّوجلّ: ﴿ *أمن يُجيبُ المضطرَّ إذا دعاهُ* ﴾ قال: هذه نزلت في القائم من آل محمّد عليهم السلام إذا خرج تعمّم وصلّىٰ عند المقام وتضرّع إلىٰ ربّه فلا تُردّ له راية[2].

٣ـ وروىٰ علي بن إبراهيم قال: حدّثني أبي عن الحسن بن علي بن فضّال عن صالح بن عقبة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: نزلت في القائم من آل محمّد عليهم السلام، وهو والله المضطرّ إذا صلّىٰ في المقام ركعتين ودعا الله فأجابه ويكشف السوء ويجعله خليفةً في الأرض. وهذا ممّا ذكرنا أنّ تأويله بعد تنزيله[3].

٤ـ وروىٰ محمّد بن إبراهيم النعماني قال: أخبرنا أحمد بن محمّد بن سعيد قال: حدّثني محمّد بن علي التيملي عن محمّد بن إسماعيل بن بزيع وحدّثني

---

(١) تأويل الآيات الظاهرة: ١ / ٤٠٢.
(٢) تأويل الآيات الظاهرة: ١ / ٤٠٣.
(٣) تفسير القمّي: ٢ / ١٢٩.

غير واحد عن منصور بن يونس بن بزرج عن إسماعيل بن جابر عن أبي جعفر محمّد بن علي عليه السلام أنه قال: يكون لصاحب هذا الأمر غَيبة في بعض هذه الشعاب ـ وأومى بيده إلى ناحية ذي طوى ـ حتّى إذاكان قبل خروجه إنتهى [أتى] المولّى الّذي معه حتّى يلقى بعض أصحابه فيقول: كم أنتم هاهنا؟ فيقولون [فيقول]: نحو من أربعين رجلاً، فيقول: كيف أنتم إذا [لو] رأيتم صاحبكم؟ فيقولون: والله لو نادى [بنا] الجبال لناويناها معه، ثمّ يأتيهم من القابلة فيقول: أشيروا إلى رؤسائكم وأخياركم عشرة، فيشيرون له إليهم، فينطلق بهم حتّى يلقوا صاحبهم ويعدهم الليلة الّتي تليها.

ثمّ قال أبو جعفر عليه السلام: والله لكأني أنظر إليه وقد أسند ظهره إلى الحجر فينشد الله حقّه، ثمّ يقول: ياأيّها الناس من يحاجّني في الله فأنا أولى الناس بالله، ياأيّها الناس من يحاجّني في آدم فأنا أولى الناس بآدم عليه السلام، أيّها الناس من يحاجّني في نوح فأنا أولى الناس بنوح عليه السلام، أيّها الناس من يحاجّني في إبراهيم فأنا أولى الناس بإبراهيم عليه السلام، أيّها الناس من يحاجّني في موسىٰ فأنا أولى الناس بموسىٰ عليه السلام، أيّها الناس من يحاجّني بعيسىٰ [في عيسىٰ] فأنا أولى الناس بعيسىٰ عليه السلام، أيّها الناس من يحاجّني في محمّد فأنا أولى الناس بمحمّد صلى الله عليه وآله، أيّها الناس من يحاجّني في كتاب الله فأنا أولى الناس بكتاب الله، ثمّ ينتهي إلى المقام فيصلّي عنده ركعتين وينشد الله حقّه.

ثمّ قال أبو جعفر عليه السلام: وهو والله المضطرّ الّذي يقول الله [فيه] ﴿ *أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ* ﴾ فيه نزلت(١).

(١) غَيبة النعماني: ١٨١، ورواه العيّاشي في تفسيره: ٢ / ٥٦، وروىٰ بعضه الكليني في ←

دعاء المهديّ خيرٌ للجميع:

تصرّح الآية الكريمة بأنّ الاضطرار سبب لاستجابة الدعاء، لكونه يكشف عن صدق حقيقة الدعاء، فاذا تحقّق صدق الدعاء لله تبارك وتعالىٰ وحده تحققت الاجابة أيضاً(١).

وواضحٌ أنّ تحقّق هذا الشرط حاصل في المهديّ الموعود عجّل الله فرجه بأعلى مراتبه خاصّةً، وأنّ حركته هي حركة المظلومين الّذين تعرّضوا لأقصىٰ مراتب الظلم بسبب الدفاع عن الدين الحقّ، لذا فهو ﷺ من أسمىٰ مصاديق المضطرّ الّذي يُستجاب دعاؤهُ ولا ريب، وكيف لا والسوء الّذي يدعو لكشفه هو الظلم والانحراف والفساد؟!

أمّا بالنسبة للشطر الثاني من الآية الكريمة فإنّ الإمام المهديّ عجّل الله فرجه يمثّل أسمىٰ مصاديقها أيضاً، فهو الموعود بالاستخلاف الربّاني الخاصّ في الأرض كما دلّت علىٰ ذلك الآيات الكريمة، حيث إنّه يتصرّف في هذه الخلافة علىٰ وفق الإرادة الإلهيّة، كيف لا وهو ممثّل نهج الأنبياء ومحقّق آمالهم؟!

وعليه، يُستفاد من تطبيق الآية الكريمة حتمية الظهور المهدوي وتحقّق أهدافه استناداً إلىٰ حتمية استجابة الله تبارك وتعالىٰ لدعوة المضطرّ إذا تحقّق صدق الدعاء لله عزّوجلّ وحده. وواضحٌ من التأمّل في الأحاديث الشريفة المطبقة للآية أنّ دعاء الإمام ﷺ هو بشأن تحقّق أهداف حركته الإلهيّة الكبرىٰ.

← الكافي: ٨ / ٣١٣، وعليّ بن إبراهيم في تفسيره: ٢ / ١٢٩، ورواه الحافظ المقدسي الشافعي من علماء أهل السنّة في عقد الدرر: ١٣٣.

(١) تفسير الميزان: ١٥ / ٣٨١ ـ ٣٨٣.

الفصل العاشر

العلامات العامّة للظهور المهدوي

مدخـل:

تنبّأت مجموعة من الآيات الكريمة ـ واستناداً للأحاديث الشريفة المؤوّلة أو المطبقة لها على القضية المهدوية، أو استنباطاً من دلالالتها الضـمنية دون الحاجة إلى تأويل أو تطبيق ـ بعدد من العلائم الرئيسة الّتي تسبق ظهور المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه، وكما دأبنا عليه في الأبواب السابقة نبدأ أوّلاً بتسجيل الآيات الكريمة هذه والأحاديث الواردة بشأنها قبل تسجيل دلالاتها.

أوّلاً: إستكمال التمحيص والغربلة:

قوله تعالىٰ:

﴿وَلَنَبلُوَنَّكُم بِشَيءٍ مِنَ الخَوفِ وَالجُوعِ وَنَقصٍ مِنَ الأموَالِ وَالأنفُسِ والثَّمراتِ وبشِّرِ الصَّابِرِين﴾ (١)

---

(١) البقرة: ١٥٥.

١ـ روى الشيخ محمّد بن إبراهيم النعماني المعروف بابن أبي زينب قال: حدّثنا محمّد بن همّام قال: حدّثنا عبد الله بن جعفر الحميري قال: حدّثنا (أحمد بن هلال قال: حدّثنا الحسن بن) محبوب عن علي بن رئاب، عن محمّد بن مسلم، عن أبي عبد الله جعفر بن محمّد عليه السلام [أنه] قال: «إنّ قدّام القائم عليه السلام علامات بلوىٰ من الله للمؤمنين، قلت: وما هي؟

قال: [ف] ذلك قول الله عزّوجلّ: ﴿ *ولنبلونّكم بشيءٍ من الخوف والجوع ونقصٍ من الأموالِ والأنفسِ والثّمراتِ وبشِّرِ الصابرين* ﴾ [فذلك] قال: ﴿ *ولنبونّكم* ﴾ يعني المؤمنين ﴿ *بشيءٍ من الخوف* ﴾ من ملوك [خوف ملك] بني فلان في آخر سلطانهم ﴿ *والجوع* ﴾ بغلاء أسعارهم ﴿ *ونقصٍ من الأموال* ﴾ فساد التجارات وقلّة الفضل فيها ﴿ *والأنفُس* ﴾ موت ذريع ﴿ *والثمرات* ﴾ قلّة ريع ما يزرع وقلّة بركة الثمار ﴿ *وبشّر الصابرين* ﴾ عند ذلك بخروج القائم عليه السلام.

ثمّ قال [لي]: يامحمّد هذا تأويله [إنّ الله عزّوجلّ يقول]: ﴿ *وَمَا يَعلَمُ تأويلَهُ إلّا اللهُ وَالرّاسِخُونَ فِي العِلمِ* ﴾[1][2].

٢ـ وروىٰ رحمه الله قال: أخبرنا أحمد بن محمّد بن سعيد بن عقدة، قال: أخبرني [حدّثني] أحمد بن يوسف بن يعقوب والحسين [أبو الحسين] الجعفي من كتابه قال: حدّثنا إسماعيل بن مهران عن الحسن بن علي بن أبي حمزة عن أبيه عن أبي بصير قال أبو عبد الله عليه السلام: لابدّ أن يكون قدّام القائم سنة تجوع فيها الناس، ويصيبهم خوف شديد من القتل ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وإنّ ذلك في كتاب الله لبيّن، ثمّ تلا هذه الآية: ﴿ *ولنبلونّكم بشيءٍ من*

---

(١) آل عمران: ٧.

(٢) غَيبة النعماني: ٢٥٠، ورواه الشيخ الصدوق في كمال الدين: ٦٤٩، والشيخ المفيد في الإرشاد: ٣٦١، وأُخرجه الحافظ القندوزي الحنفي في ينابيع المودّة: ٤٢١.

الخوف والجوع ونقصٍ من الأموالِ والأنفُسِ والثّمراتِ وبشِّرِ الصابرين ﴾[١].

٣ـ وروىٰ أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري قال: أخبرني أبو الحسين محمّد بن هارون (قال: حدّثني أبي ﷺ) قال: حدّثنا أبو علي محمّد بن همّام قال: حدّثنا عبد الله بن جعفر الحميري قال: حدّثنا أحمد بن هلال قال: حدّثني الحسن بن محبوب عن علي بن رئاب وأبي أيّوب الخزّاز عن محمّد بن مسلم عن أبي عبد الله ﷺ قال: إنّ لقيام قائمنا علامات... وذكر الحديث[٢].

٤ـ وروى العيّاشي بإسناده عن الثمالي قال: سألت أبا جعفر ﷺ عن قول الله [عزّوجلّ]: ﴿ *ولنبلونّكم بشيءٍ من الخوف والجوع* ﴾، قال: ذلك جوعٌ خاصّ، وجوعٌ عامّ، فأمّا بالشام فإنّه عامّ، وأمّا الخاصّ بالكوفة يخصّ ولا يعمّ، ولكنّه يخصّ بالكوفة أعداء آل محمّد عليه الصلاة والسلام، فيهلكهم الله بالجوع. وأمّا الخوف فإنه عام بالشام، وذاك الخوف إذا قام القائم ﷺ، وأمّا الجوع فقبل قيام القائم ﷺ وذلك قوله: ﴿ *ولنبلونّكم بشيءٍ من الخوف والجوع* ﴾[٣].

٥ـ أخرج الحافظ القندوزي الحنفي في قول الله تعالىٰ في سورة البقرة: ﴿ *ولنبلونّكم بشيءٍ من الخوف والجوع ونقصٍ من الأموالِ والأنفُسِ والثّمراتِ وبشِّرِ الصابرين*...إلى آخرها ﴾.

قال: عن محمّد بن مسلم عن جعفر الصادق ﷺ قال:

إنّ قدّام (القائم) علامات بلوىٰ من الله للمؤمنين، قلت: وما هي؟ قال: هذه الآية ﴿ *ولنبلونّكم بشيءٍ من الخوف* ﴾ من تلقهم بالأسقام و ﴿ *الجوع* ﴾ بغلاء

---

(١) غَيبة النعماني: ٢٥٠.

(٢) دلائل الإمامة: ٢٥٩.

(٣) تفسير العيّاشي: ١ / ٦٨.

أسعارهم ﴿ونقص من الأموال﴾ بالقحط ﴿والأنفس﴾ بموت ذائع ﴿والثمرات﴾ بعدم المطر ﴿وبشر الصابرين﴾ عند ذلك.

ثمّ قال: يامحمّد هذا تأويله ﴿وما يعلم تأويله إلّا الله والراسخون في العلم﴾ ونحن الراسخون في العلم(١).

سياق الآية وتفسيرها:

تأتي الآية الكريمة في سياق قرآني متّحد يضمّ خمسَ آياتٍ كريمة تتحدّث عن سنّة إلهية جارية، وتبيّن أوامر إلهية بشأنها خاصّة للمؤمنين، فالخطاب في هذه الآيات هو للمؤمنين، كما وردت الإشارة لذلك في الأحاديث الشريفة المتقدّمة، وكما ورد في الآية الأُولىٰ منها وهي الآية ١٥٣ من سورة البقرة. ننقل هنا هذه الآيات والبيان الإجمالي الّذي قدّم به العلّامة الطباطبائي لتفسيرها إضافةً إلىٰ تفسير الآية مورد البحث:

﴿ يَاأَيُّها الّذِينَ آمَنُوا استَعِينُوا بِالصَّبرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِين * وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقتَلُ فِي سبيلِ اللهِ أَموَاتٌ بَل أحياءٌ وَلكِن لَا تَشعُرُون * وَلَنَبلُوَنَّكُم بِشَيءٍ مِنَ الخَوفِ وَالجُوعِ وَنَقصٍ مِنَ الأموالِ والأَنفُسِ والثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِين * الّذِينَ إذا أَصَابَتهُم مُصِيبَةٌ قَالوا إِنّا للهِ وَإِنّا إِليهِ رَاجِعُون * أُولئِكَ عَلَيهِمْ صَلَوَاتٌ مِن رَبِّهِمْ وَرَحمَةٌ وَأُولئِكَ هُمُ المُهتَدُون ﴾(٢)

---

(١) ينابيع المودّة: ٤٢١.

(٢) البقرة: ١٥٣ ـ ١٥٧.

البلاء المقصود من نمط خاصّ:

خمس آيات متحدة السياق متّسقة الجُمل ملتئمة المعاني، يسوق أوّلها إلى آخرها ويرجع آخرها إلى أوّلها، وهذا يكشف عن كونها نازلة دفعة غير متفرّقة، وسياقها ينادي بأنّها نزلت قبيل الأمر بالقتال وتشريع حكم الجهاد، ففيه ذكر من بلاء سيقبل على المؤمنين ومصيبة ستصيبهم، ولا كلّ بلاء ومصيبة، بل البلاء العمومي الّذي ليس بعادي الوقوع مستمرّ الحدوث، فإنّ نوع الإنسان كسائر الأنواع الموجودة في هذه النشأة الطبيعية لا يخلو في أفراده من حوادث جزئية يختلّ بها نظام الفرد في حياته الشخصية ـ من موت ومرض وخوف وجوع وغمّ وحرمان ـ سنّة الله الّتي جرت في عباده وخلقه، فالدار دار التزاحم، والنشأة نشأة التبدّل والتحوّل ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾[1] ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبدِيلاً﴾[2].

والبلاء الفردي وإن كان شاقاً على الشخص المبتلى بذلك مكروهاً لكن ليس مهولاً مهيباً تلك المهابة الّتي تتراءىٰ بها البلايا والمحن العامّة، فإنّ الفرد يستمدّ في قوّة تعقّله وعزمه وثبات نفسه من قوىٰ سائر الأفراد. وأمّا البلايا العامّة الشاملة فإنّها تسلب الشعور العمومي وجملة الرأي والحزم والتدبير من الهيئة المجتمعة، ويختلّ به نظام الحياة منهم، فيتضاعف الخوف وتتراكم الوحشة ويضطرب عندها العقل والشعور وتبطل العزيمة والثبات، فالبلاء العامّ والمحنة الشاملة أشقّ وأمرّ، وهو الّذي تلوح له الآيات.

ولا كل بلاء عامّ كالوباء والقحط بل بلاءٌ عامّ قرّبتهم منها أنفسهم، فإنّهم

(١) فاطر: ٤٣.
(٢) الفتح: ٢٣.

أخذوا دين التوحيد وأجابوا دعوة الحقّ، وتخالفهم فيه الدنيا وخاصّة قومهم، وما لهؤلاء هم إلّا إطفاء نور الله واستيصال كلمة العدل وإبطال دعوة الحقّ، ولا وسيلة تحسم مادّة النزاع وتقطع الخلاف غير القتال، فسائر الوسائل كإقامة الحجّة وبث الفتنة وإلقاء الوسوسة والريبة وغيرها صارت بعدُ عقيمة غير منتجة، فالحجّة مع النبي والوسوسة والفتنة والدسيسة ماكانت تؤثّر أثراً تطمئنّ إليه أعداء الدين، فلم يكن عندهم وسيلة إلّا القتال والاستعانة به على سدّ سبيل الحقّ، وإطفاء نور الدين اللامع المشرق. هذا من جانب الكفر. والأمر من جانب الدين أوضح، فلم يكن إلى نشر كلمة التوحيد وبثّ دين الحقّ وحكم العدل وقطع دابر الباطل وسيلة إلّا القتال، فإنّ التجارب الممتدّ من لدن كان الإنسان نازلاً في هذه الدار يعطي أنّ الحقّ إنّما يؤثّر إذا أُميط الباطل، ولن يماط إلّا بضربٍ من إعمال القدرة والقوّة.

وبالجملة، ففي الآيات تلويح إلى إقبال هذه المحنة بذكر القتل في سبيل الله، وتوصيفه بوصف لا يبقى فيه معه جهة مكروهة، ولا صفة سوء، وهو أنه ليس بموت بل حياة، وأيّ حياة!

فالآيات تستنهض المؤمنين على القتال، وتخبرهم أنّ أمامهم بلاءً ومحنة لن تنالوا مدارج المعالي وصلاة ربّهم ورحمته والاهتداء بهدايته إلّا بالصبر عليها وتحمّل مشاقها، ويعلمهم ما يستعينون به عليها، وهو الصبر والصلاة، أمّا الصبر فهو وحده الوقاية من الجزع واختلال أمر التدبير، وأمّا الصلاة فهي توجّه إلى الربّ، وانقطاع إلىٰ مَن بيده الأمر، وأنّ القوّة لله جميعاً[1].

ثمّ قال ﷻ في قوله تعالىٰ: ﴿ *ولنبلونّكم بشيءٍ من الخوف والجوع ونقصٍ من*

---

(١) تفسير الميزان: ١ / ٣٤٣ ـ ٣٤٤.

الأموالِ والأنفُسِ والثّمرات ﴾ : لمّا أمرهم الله بالاستعانة بالصبر والصلاة ونهاهم عن القول بموت من يُقتل منهم في سبيل الله بل هم أحياءٌ بيّن لهم السبب الّذي من أجله خاطبهم بما خاطب، وهو أنّهم سيُبتلون بما لا تتمهّد لهم المعالي ولا يصفو لهم الأمر في الحياة الشريفة والدين الحنيف إلّا به، وهو الحرب والقتال، لا يدور رحى النصر والظفر على مرادهم إلّا أن يتحصّنوا بهذين الحصنين ويتأيّدوا بهاتين القوّتين، وهما الصبر والظفر، ويضيفوا إلى ذلك ثالثاً وهو خصلة ما حفظها قوم إلّا ظفروا بأقصى مرادهم وحازوا الغاية القصوى من كمالهم واشتدّ بأسهم وطابت نفسهم، وهو الإيمان بأنّ القتيل منهم غير ميّت ولا فقيد، وأنّ سعيهم بالمال والنفس غير ضائع ولا باطل، فإن قَتلوا عدوّهم فهم على الحياة وقد أبادوا عدوّهم وماكان يريده من حكومة الجور والباطل عليهم، وإن قتلهم عدوّهم فهم على الحياة ولم يتحكّم الجور والباطل عليهم، فلهم إحدى الحُسنيين على أيّ حالٍ.

وعامّة الشدائد الّتي يأتي بها هو الخوف والجوع ونقص الأموال والأنفُس فذكرها الله تعالى: وأمّا الثمرات فالظاهر أنها الأولاد، فإنّ تأثير الحرب في قلّة النسل بموت الرجال والشبّان أظهر من تأثيره في نقص ثمرات الأشجار. وربّما قيل: إنّ المراد ثمرات النخيل وهي الثمر، والمراد بالأموال غيرها وهي الدوابّ من الإبل والغنم.

بشرىٰ للصابرين:

قوله تعالىٰ: ﴿ *وبشّر الصابرين * الّذين إذا أصابتهم مصيبةٌ قالوا إنّا لله وإنّا إليه راجعون* ﴾ أعاد ذكر الصابرين ليبشّرهم أوّلاً، ويبيّن كيفية الصبر بتعليم ما هو الصبر الجميل ثانياً، ويظهر به حقّ الأمر الّذي يقضي بوجوب الصبر ـ وهو

ملكه تعالىٰ للإنسان ـ ثالثاً، ويبيّن جزاءه العامّ ـ وهو الصلاة والرحمة والاهتداء ـ رابعاً.

فأمر تعالى نبيّه أوّلاً بتبشيرهم، ولم يذكر متعلّق البشارة لتفخيم أمره فإنّها من الله سبحانه فلا تكون إلّا خيراً وجميلاً، وقد ضمنها ربّ العزّة، ثمّ بيّن أنّ الصابرين هم الّذين يقولون: كذا وكذا عند إصابة المصيبة، وهي الواقعة الّتي تصيب الإنسان، ولا يستعمل لفظ المصيبة إلّا في النازلة المكروهة، ومن المعلوم أن ليس المراد بالقول مجرّد التلفّظ بالجملة من غير حضور معناها بالبال، ولا مجرّد الإخطار من غير تحقّق بحقيقة معناها، وهي أنّ الإنسان مملوكٌ لله بحقيقة الملك، وأنّ مرجعه إلى الله سبحانه، وبه يتحقّق أحسن الصبر الّذي يقطع منابت الجزع والأسف، ويغسل رين الغفلة[1].

دلالات الآية وتطبيقها:

يُستفاد من التدبّر في السياق القرآني الّذي جاءت فيه الآية الكريمة مورد التطبيق والأحاديث المطبقة علىٰ عصر الغَيبة والقضية المهدوية أُمورٌ، أبرزها:

١ ـ البلاء هنا هو من ربّ العالمين جلّت قدرته للمؤمنين بالخصوص وأنّه من نمطٍ خاصّ، لذا فهو ليس محقاً وتدميراً لهم بل هو تمحيصٌ وتقويةٌ لهم، وثمرته تأهيلهم للحياة الطيّبة الكريمة، سواءٌ في الدنيا بتأهيل الخطّ الإيماني لوراثة الأرض أو في الحياة الآخرة، فهو بلاءُ رحمة.

٢ ـ اجتياز هذا الابتلاء بنجاح رهينٌ بالاستعانة بالصبر ـ وهو من أهمّ التكاليف المأمور بها في عصر الغَيبة ـ، أو بالصبر بمعنى الصوم وبالصلاة، وفي

(١) تفسير الميزان: ٣٥٢ ـ ٣٥٣.

ذلك إشارة إلى ترسيخ وتقوية الارتباط بالله تبارك وتعالىٰ والاستعانة به في تحمّل هذه الصعاب وتجاوزها.

٣ـ يشتمل هذا الابتلاء على السماح بتعريض المؤمنين لأشكال الإرهاب السياسي والحرب النفسية والاقتصادية من قِبل حكّام الجور والسلطات الظالمة.

ويُستفاد من الأحاديث الشريفة المتقدّمة أنّ بعض هذه المصائب عامّة تشمل الجميع وبعضها خاصّ بغير المؤمنين، وهي نتيجة طبيعية للانحراف عن الدين الحقّ، وهي ـ في كلّ الأحوال ـ لا تخرج عن سنّة الامتحان والتمحيص للمؤمنين والمحق للكافرين، والّتي عرفنا أنّها سنّة إلهية ثابتة تشكّل الغَيبة إحدىٰ وسائلها التنفيذية المهمّة.

الأمر بمجاهدة الظالمين بحكمة:

كما يُستفاد من سياق الآية الكريمة أنّ أحد مصاديق الابتلاء الإلهيّ للمؤمنين هو الأمر بمجاهدة الظالمين، لأنّ إقامة الحياة الكريمة يستلزم التصدّي لتجاوزاتهم، وهذا أمرٌ ثابتٌ يشمل عصري الغَيبة والظهور، فالمقدار الثابت من الجهاد في عصر الغَيبة هو الدفاع عن النفس والدين الحقّ، وفي عصر الظهور يشمل الابتدائي وجهاد الفتح أيضاً. وعليه، فإنّ الحركة الجهادية للدفاع عن الدين الحقّ وحفظه ونشره مستمرّة خلال عصر الغَيبة أيضاً.

إشتداد البلاء قبيل الظهور:

ويُفهم من الأحاديث الشريفة المتقدّمة أنّ اكتمال هذه العملية التمحيصية التربوية شرطٌ للظهور المهدوي، فتحقّقه من العلامات الكاشفة عن قربه،

ولعلّ في تأكيدها على سبق الابتلاءات المذكورة للظهور إشارةً إلى اشتداد الابتلاء قبيل الظهور، فيزداد الجوع والقتل ونقص الثمرات والأنفُس. كما يُستفاد ممّا تقدم أنّ حصول التمايز بين المؤمنين والكافرين نتيجة لهذا الصراع الطويل، والتمحيص والمحق هو أحد علائم الظهور، وهذا ما تؤكّده بدلالةٍ أوضح وأصرح الآيات اللاحقة.

ثانياً: قوله تعالى:

﴿ *هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً* ﴾[1]

روى الشيخ الطبرسي في كتاب الاحتجاج قال: جاء بعض الزنادقة إلى أميرالمؤمنين عليّ عليه السلام وقال له: لولا ما في القرآن من الاختلاف والتناقض لدخلت في دينكم، فقال له عليه السلام ـ في حديث طويل فيه ـ:

أما إنّهُ سيأتي على الناس زمانٌ يكون الحقّ فيه مستوراً، والباطلُ ظاهراً مشهوراً، وذلك إذاكان أولى الناس بهم أعداءهم له، واقترب الوعد الحق، وعظُم الإلحادُ وظهر الفسادُ، ﴿ *هنالك ابتُلي المؤمنون وزُلزلوا زلزالاً شديداً* ﴾. ونحَلَهُمُ الكفّارُ أسماءَ الأشرار، فيكونُ جهدُ المؤمن أن يحفَظَ مُهجتَهُ من أقرب الناس إليهِ. ثمّ يُتيحُ الفرجَ لأوليائِه، ويَظهَرُ صاحِبُ الأمر على أعدائِه[2].

تصاعد الحرب النفسية والإرهابية ضدّ المؤمنين:

تأتي الآية الكريمة في سياق طائفةٍ من الآيات الكريمة المتحدّثة عن حالة المسلمين في معركة الخندق حيث تكالبت أحزاب اليهود والمشركين على

---

(١) الأحزاب: ١١.

(٢) الاحتجاج: ١ / ٢٥١.

المسلمين لاستئصالهم. والزلزال الاضطراب، والشدّة القوّة، وتختلفان في أنّ الغالب في استخدام الشدّة هي أنها تكون في الحالات المحسوسة بخلاف القوّة، ولذلك يُطلق القويّ عليه تعالىٰ دون الشديد. فيكون معنىٰ الآية: في ذلك الحين والزمن الشديد امتُحن المؤمنون واضطربوا خوفاً اضطراباً شديداً(١).

ويُستفاد من تطبيقها على القضية المهدوية اشتداد البلاء على المؤمنين قبيل الظهور كما تقدّمت الإشارة لذلك في تطبيق الآية السابقة، وواضح من الحديث الشريف المطبق للآية أنه يطبقها بخصوصياتها الرئيسة حيث يشير إلى تكالب الأعداء على المؤمنين بشدّةٍ بالغة واشتداد جهودهم لملاحقتهم ومراقبتهم وإرهابهم بكلّ الوسائل. كما يُستفاد من قوله عليه السلام: «واقترب الوعدُ الحقّ» أنّ هذه العلامة من العلائم القريبة لظهور المهديّ الموعود أرواحنا فداه.

ثالثاً: اتّضاح الحقّ المهدوي:

ثمّة قضية مهمّة ترتبط بالإيمان بالمهديّ المنتظر عجّل الله فرجه وعلائم ظهوره تشير إليها الآيات الكريمة المؤوّلة أو المطبقة علىٰ قضيته عليه السلام، وهي التأكيد على الدور الإلهيّ في إيجاد أسباب انتشار الإيمان بحتمية ظهور المهديّ المنتظر بين الناس قبيل ظهوره والشعور العامّ بالحاجة إليه، وبالتالي ترقّب ظهوره كمنقذٍ إلهي لا يصلح أوضاع العالم سواه.

والآية المقصودة هي قوله تعالىٰ:

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾(٢)

---

(١) تفسير الميزان: ١٦ / ٢٨٥ ـ ٢٨٦.

(٢) فصّلت: ٥٣.

فقد وردت عدة أحاديث تطبقها على انتشار الإيمان بالمهديّ المنتظر، منها:

١ـ ما رواه النعماني في غَيبته قال: أخبرنا [حدّثنا] أحمد بن محمّد ابن سعيد قال: حدّثني [حدّثنا] أحمد بن يوسف بن يعقوب من كتابه قال: حدّثنا إسماعيل بن مهران قال: حدّثنا الحسن بن علي بن أبي حمزة عن أبيه ووهيب عن أبي بصير قال: سئل أبو جعفر عليه السلام عن تفسير قول الله عزّوجلّ: ﴿ سنريهم *آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتىٰ يتبيّن لهم أنه الحقّ* ﴾ فقال عليه السلام: يريهم في أنفسهم المسخ ويريهم في الآفاق إنتقاص الآفاق عليهم فيرون قدرة الله في أنفسهم وفي الآفاق، وقوله: ﴿ *حتّىٰ يتبيّن لهم أنه الحقّ* ﴾ يعني بذلك خروج القائم عليه السلام [و] هو الحقّ من الله عزّوجلّ يراه هذا الخلق لابدّ منه[(١)].

٢ـ وروى الكليني في روضة الكافي قال: عن عدّة من أصحابنا عن سهل ابن زياد عن ابن فضّال عن ثعلبة بن ميمون عن الطيّار عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزّوجلّ: ﴿ سنريهم *آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتّىٰ يتبيّن لهم أنه الحقّ* ﴾ قال: خسفٌ ومسخٌ وقذفٌ.

قال: قلت ﴿ *حتّىٰ يتبيّن لهم* ﴾ قال: دع ذا، ذاك قيام القائم عليه السلام[(٢)].

٣ـ وروى الاسترآبادي في كتاب تأويل الآيات، قال: حدّثنا جعفر بن محمّد بن مالك عن القاسم بن إسماعيل الأنباري عن الحسن بن علي بن أبي حمزة عن أبيه عن إبراهيم عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالىٰ: ﴿ سنريهم *آياتنا*

---

(١) غَيبة النعماني: ٢٦٩: كما رواه الكليني في الكافي: ٨ / ٣٨١ بسنده عن الإمام الصادق عليه السلام بتفاوتٍ يسير.

(٢) الكافي: ٨ / ١٦٦.

في الآفاق وفي أنفسهم حتّىٰ يتبيّن لهم أنّه الحقّ ﴾ قال: ﴿*في الآفاق*﴾ انتقاص الأطراف عليهم ﴿*وفي أنفسهم*﴾ بالمسخ ﴿*حتّىٰ يتبيّن لهم أنّه الحقّ*﴾ أي أنّه القائم عليه السلام(١).

٤ـ روى الحافظ القندوزي الحنفي بإسناده عن أبي بصير قال: سئل الباقر عليه السلام عن هذه الآية: ﴿ *سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتّىٰ يتبيّن لهم أنّه الحقّ* ﴾ قال: يرون قدرة الله في الآفاق، ﴿*وفي أنفسهم*﴾ الغرائب والعجائب ﴿*حتّىٰ يتبيّن لهم*﴾ أنّ خروج (القائم) هو الحقّ من الله عزّوجلّ، يراه الخلق لابدّ منه(٢).

٥ـ وروى الشيخ المفيد في كتاب الإرشاد عن علي بن أبي حمزة عن الإمام الكاظم عليه السلام أنّه قال بشأن هذه الآية الكريمة: الفتنُ في الآفاق والمسخ في أعداء الحقّ(٣).

ظهور آياتٍ أنّ المهديّ حقّ:

قال العلّامة الطباطبائي في تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿ *سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتّىٰ يتبيّن لهم أنه الحقّ...إلخ* ﴾: الآفاق جمع أُفق وهو الناحية، والشهيد بمعنى الشاهد أو بمعنى المشهود وهو المناسب لسياق الآية.

وضمير «أنّه» للقرآن على ما يعطيه سياق الآية، ويؤيده الآية السابقة الّتي تذكر كفرهم بالقرآن، وعلى هذا فالآية تعد إراءة آياتٍ في الآفاق وفي أنفسهم

(١) تأويل الآيات الظاهرة: ٢ / ٥٤١.
(٢) ينابيع المودّة: ٤٢٧.
(٣) الإرشاد: ٣٥٩.

حتى يتبيّن بها كون القرآن حقاً، والآيات الّتي شأنها إثبات حقّية القرآن هي الحوادث والمواعيد الّتي أخبر القرآن أنّها ستقع، كإخباره بأنّ الله سينصر نبيّه ﷺ والمؤمنين ويمكّن لهم في الأرض ويظهر دينهم على الدين كلّه وينتقم من مشركي قريش، إلى غير ذلك.

فأمر الله تعالى نبيّه ﷺ بالهجرة إلى المدينة وقد اشتدّ الأمر عليه وعلى مَن آمن به غايتها، فلا سماء تظلّهم ولا أرض تقلّهم، ثمّ قتل صناديد قريش في بدر ولم يزل يرفع ذكره ويفتح على يديه حتى فتح مكّة ودانت له جزيرة العرب، ثمّ فتح بعد رحلته للمسلمين معظم المعمورة، فأرى سبحانه المشركين آياته في الآفاق وهي النواحي الّتي فتحها للمسلمين ونشر فيها دينهم، وفي أنفسهم وهو قتلهم الذريع في بدر.

وليست هذه آيات في أنفسها، فكم من فتحٍ وغلبةٍ يذكره التاريخ ومقاتل ذريعة يقصّها لكنّها آيات بما أنّ الله سبحانه وعد بها والقرآن الكريم أخبر بها قبل وقوعها ثمّ وقعت على ما أخبر بها.

ويمكن أن يكون المراد بإراءة الآيات وتبيّن الحقّ بذلك ما يُستفاد من آيات أُخرى أنّ الله سيظهر دينه بتمام معنى الظهور على الدين كلّه فلا يُعبد على الأرض إلّا الله وحده وتظلّ السعادة على النوع الإنساني وهي الغاية لخلقتهم، وقد تقدّم استفادة ذلك من قوله تعالى: ﴿ *وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُم وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَستَخلِفَنَّهُم فِي الأَرضِ*... الآية ﴾[١] وغيره، وأيّدناه بالدليل العقلي.

والفرق بين الوجهين أنّ وجه الكلام على الأوّل إلى مشركي مكّة ومَن

---

(١) النور: ٥٥.

يتّبعهم خاصّة، وعلى الثاني إلى مشركي الأُمّة عامّة، والخطاب على أيّ حال اجتماعي، ويمكن الجمع بين الوجهين.

ويمكن أن يكون المراد ما يشاهده الإنسان في آخر لحظة من لحظات حياته الدنيا حيث تطير عنه الأوهام وتضلّ عنه الدعاوى وتبطل الأسباب ولا يبقى إلّا الله عزّ اسمه، ويؤيّده ذيل الآية والآية التالية، وضمير «أنّه الحقّ» على هذا لله سبحانه.

ولهم في الآية أقوال أُخرى أغمضنا عن إيرادها.

وقوله: ﴿*أوَ لم يكف بربّك أنّه على كلّ شيء شهيد*﴾ فاعل «لم يكف» هو «بربّك» والباء زائدة، و «أنّه على كلّ شيء شهيد» بدل من الفاعل، والاستفهام للإنكار، والمعنى: أوَ لم يكف في تبيّن الحقّ كون ربّك مشهوداً على كل شي إذ ما من شيء إلّا وهو فقير من جميع جهاته إليه متعلّق به، وهو تعالى قائمٌ به قاهرٌ فوقه، فهو تعالى معلومٌ لكلّ شيء وإن لم يعرفه بعض الأشياء.

واتّصال الجملة أعني قوله: «أوَ لم يكف بربك...إلخ» بقوله: «سنريهم...إلخ» على الوجه الأخير من الوجوه الثلاثة الماضية ظاهر، وأمّا على الوجهين الأوّلين فلعلّ الوجه فيه أنّ المشركين إنّما كفروا بالقرآن لدعوته إلى التوحيد فانتقل من الدلالة على حقّية القرآن للدلالة على حقّية ما يدعو إليه إلى الدلالة على حقّية ما يدعو إليه مستقيماً من غير واسطة كأنّه قيل: سنريهم آياتنا ليتبيّن لهم أنّ القرآن الّذي يخبرهم بها حقّ فيتبيّن أنّ ربّك واحد لا شريك له. ثمّ قيل: وهذا طريقٌ بعيد، هناك ما هو أقرب منه، أوَ لم يكفهم أنّ ربّك مشهودٌ على كلّ شيء[1]؟

---

(١) تفسير الميزان: ١٧ / ٤٠٤ ـ ٤٠٥.

انتشار الشعور العامّ بالحاجة للمهديّ:

يتّضح من تفسير الآية الكريمة أنّ أحد أوجه تفسيرها المباشرة يرتبط بما يحقّقه الله تبارك وتعالىٰ علىٰ يد الإمام المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه بعد ظهوره وإقامة الدولة الإلهيّة والمجتمع الصالح، حيث يتبيّن الحقّ بصورة كاملة وتتّضح الكثير من أسرار وحقائق التوحيد الخالص. ومفهومها - في جميع الأوجه المذكورة - لا يأبىٰ تطبيقها علىٰ ما يحدث قبل ظهور الإمام المنتظر من وقوع آياتٍ مشهودة تؤدّي إلىٰ تبيين الحق سواءٌ كان الضمير عائداً إلى القرآن الكريم تصديقاً لما أخبر عنه بشأن المهديّ أو حقائق التوحيد الخالص، أو كان الضمير عائداً إلى الله تبارك وتعالىٰ - كما في الوجه الثالث - حيث تبيّن الآيات مظاهر تفرّده بالربوبية، أو كان الضمير عائداً إلى المهديّ أرواحنا لتراب مقدمه الفداء، فتتّضح دلائل حتمية ظهوره لإحقاق الحقّ وإزهاق الباطل وتحقيق السعادة للمجتمع البشري. وهذا هو ما تدلّ عليه الأحاديث الشريفة الّتي نقلناها بشأن الآية الكريمة.

ويُستفاد من تطبيقها الآية على القضية المهدوية عدّة أُمور، أبرزها:

١ـ أنّ من علائم ظهور المهديّ عجّل الله فرجه ظهور آيات واضحة تنصبّ باتّجاه إيجاد شعورٍ عامٍ في المجتمع البشري بضرورة وحتمية خروج المنقذ الإلهيّ للإنسانية، كما يصرّح بذلك الحديث الأوّل والأخير.

مسخ أعداء الحقّ واتّضاح زيف دعاواهم:

٢ـ ولعلّ من هذه الآيات تعاظم الأزمات الّتي تعصر المجتمع البشري، ومسخ أعداء الحقّ بمعنىٰ ظهور زيفهم وعدم صدقهم في دعاواهم بشأن

قدرتهم علىٰ تحقيق السعادة للبشرية، أو اتّضاح انسلاخهم الكامل عن أدنىٰ أشكال الالتزام بالقيم الإنسانية وانغماسهم في مستنقعات التوسّل بكلّ وسيلة لتحقيق مطامعهم وأهدافهم السلطوية.

وعلىٰ هذا يكون المراد بالمسخ النوع المعنوي منه، لكنّه علىٰ كلّ حال ظاهر وواضحٌ للجميع يعرفونه بيُسر. وإن كان المسخ المادّي أيضاً غير مستبعد خاصّة وأنه أقرب في صدق مفهوم الآية عليه من المسخ المعنوي، ولا مانع أن يتحقّق ظهور المصداقين في الوقت نفسه.

تحديد هوية المنقذ:

يُفهم من الأحاديث الشريفة المتقدّمة أنّ الآيات الربانية المقصودة تدلّ بوضوح علىٰ هوية هذا المنقذ العالمي، وأنه المهديّ الإسلاميّ المعروف الّذي يمثّل خطّ الولاية المعصومة ومنهج أهل بيت النبوّة صلوات الله عليهم أجمعين، وعليه يكون اتّضاح حقيقة وأحقّية منهج أهل البيت وانتشاره مقدّمة وعلامة للظهور، واتّضاح ذلك لا ينحصر بالعالم الإسلامي كما يُفهم من استخدام الأحاديث الشريفة لوصف الخلق الّذي يشمل المجتمع البشري برمّته.

رابعاً: التمايز الكامل بين خطّي الحقّ والباطل:

قوله تعالىٰ:

﴿لَو تَزَيَّلُوا لَعَذَّبنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنهُم عَذَاباً أَلِيماً﴾ (١)

روى الشيخ الصدوق في كتاب كمال الدين قال: حدّثنا جعفر بن محمّد بن

---

(١) الفتح: ٢٥.

مسرور ﷺ قال: حدّثنا الحسين بن محمّد بن عامر عن عمّه عبد الله بن عامر عن محمّد بن أبي عمير عمّن ذكره عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: ما بال أميرالمؤمنين عليه السلام لم يقاتل مخالفيه في الأوّل فلاناً وفلاناً؟ قال: لآيةٍ في كتاب الله تعالى: ﴿ *لو تزيّلوا لعذّبنا الّذين كفروا منهم عذاباً أليماً* ﴾ قال: قلت: وما معنى تزايلهم؟ قال: ودائع مؤمنون في أصلاب قومٍ كافرين، وكذلك القائم عليه السلام لا يظهر أبداً حتّىٰ يخرج ودائع الله عزّوجلّ، فإذا خرجت ظهر على من ظهر من أعداء الله عزّوجلّ فيقتلهم[1].

تحدّثنا فيما سبق ـ وضمن الحديث عن علل الغَيبة ـ عن مدلولات الآية الكريمة ووجه تطبيقها على القضية المهدوية، ونشير هنا إلى دلالتها فيما يرتبط بعلائم الظهور في النقاط التالية:

١ـ لا تخرج عملية التزايل المذكورة في الآية الكريمة عن إطار سنّة التمحيص والمحق الإلهيّة، لذا فإنّ ظهور نتائج هذه السنّة هو بحدّ ذاته من العلائم الكاشفة عن قرب الظهور.

٢ـ وظهور هذه النتائج فيما يرتبط بموضوع هذه الآية الكريمة يكون باتّضاح مميزات وخصائص خطّ الولاية الإلهيّة المعصومة بالكامل، وفي المقابل اتّضاح مميزات الخطّ المعادي لها بالكامل وتمايز المؤمنين بالخطّ الإيماني الصحيح عن غيرهم.

ظهوره «ودائع الله»:

ظهور عناصر مؤمنة علىٰ درجة عالية من الإيمان والتمسّك بخطّ الولاية الإلهيّة الحقّة بحيث يصدق عليها وصف أنّها «ودائع الله عزّوجلّ» الوارد في

---

(١) كمال الدين: ٦٤١.

الحديث الشريف، وهذه العناصر تنتمي وراثياً إلى الخطّ الآخر فتنتقل منه إلىٰ خطّ الولاية والإمامة المعصومة، وفي ذلك إشارة إلى أنّ الظهور المهدوي مسبوقٌ بظاهرة الإقبال على التوجه إلىٰ مذهب أهل البيت عليهم السلام وتبنّيه.

خامساً: اليأس من اهتداء الباقين:

قوله تعالىٰ:

﴿ *حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا* ﴾ (١)

١ـ روى الشيخ محمّد بن جرير الطبري في كتابه دلائل الإمامة بإسناده عن أبي علي النهاوندي قال: حدّثنا القاشاني [يعني محمّد بن أحمد القاشاني] قال: حدّثنا محمّد بن سليمان قال: حدّثنا علي بن سيف قال: حدّثني أبي عن المفضّل بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: جاء رجل إلى أميرالمؤمنين عليه السلام فشكا إليه طول دولة الجور، فقال له أميرالمؤمنين عليه السلام: والله (لا يكون) ما تأملون حتّىٰ يهلك المبطلون ويضمحلّ الجاهلون ويأمن المتّقون وقليلٌ مّا يكون حتّىٰ [لا] يكون لأحدكم موضع قدمه، وحتى تكونوا على الناس أهون من الميتة عند صاحبها، فبينا أنتم كذلك إذ جاء نصر الله والفتح، وهو قول ربي [قوله] عزّوجلّ في كتابه: ﴿ *حتى إذا استيأس الرسلُ وظنُّوا أنّهم قد كُذِبوا جاءَهُم نصرُنا* ﴾ (٢).

٢ـ وروى الحافظ القندوزي الحنفي بإسناد عن أميرالمؤمنين علي بن أبي

---

(١) يوسف: ١١٠.

(٢) دلائل الإمامة: ٢٥١.

طالب ﷺ قال: ما يجيء نصر الله حتى تكونوا أهون على الناس من الميتة، وهو قول ربي عزّوجلّ في كتابه في سورة يوسف: ﴿ *حتى إذا استيأس الرسلُ وظنّوا أنّهم قد كُذِبوا جاءَهُم نصرُنا* ﴾ وذلك عند قيام (قائمنا) المهديّ[1].

تفسير الآية:

يفيد التدبّر في الحديث الشريف أنّه ﷺ يبيّن تطوّرات الأوضاع الّتي تسبق ظهور المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه الشريف، والّتي تؤدّي إلىٰ إيجاد الحالة العامّة الّتي يصدق عليها مفهوم الآية المباركة، فلنلاحظ أوّلاً تفسير الآية الكريمة ثمّ نعقب بتسجيل الدلالات، يقول العلّامة الطباطبائي في تفسير الآية:

ذكروا أن يئس واستيأس بمعنى، ولا يبعد أن يقال: إنّ الاستيآس هو الاقتراب من اليأس بظهور آثاره لمكان هيئة الاستفعال وهو ممّا يعدّ يأساً عرفاً وليس باليأس القاطع حقيقةً.

وقوله: ﴿ *حتّىٰ إذا استيأس... إلخ* ﴾ متعلّق الغاية بما يتحصّل من الآية السابقة، والمعنى: تلك الرسل الّذين كانوا رجالاً أمثالك من أهل القرىٰ وتلك قراهم البائدة دعوهم فلم يستجيبوا وأنذروهم بعذاب الله فلم ينتهوا حتى إذا استيأس الرسل من إيمان أُولئك الناس وظنّ الناس أنّ الرسل قد كذِبوا ـ أي أخبروا بالعذاب كذباً ـ جاء نصرنا، فننجي بذلك مَن نشاء وهم المؤمنون، ولا يرد بأسنا ـ أي شدّتنا ـ عن القوم المجرمين.

أما استيآس الرسل من إيمان قومهم فكما اخبر في قصّة نوح: ﴿ *وَأُوحِيَ إِلَىٰ*

---

(١) ينابيع المودّة: ٤٢٤.

نوحٍ أنّه لَن يُؤمِنَ مِن قَومِكَ إلّا مَن قَد آمَنَ ﴾[١]، ﴿ وَقَالَ نُوحٌ ربِّ لَا تَذَر عَلَى الأرضِ مِنَ الكَافِرِين دَيّاراً * إنّكَ إن تَذَرهُم يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدوا إلّا فَاجِراً كَفّاراً ﴾[٢] ويوجد نظيره في قصص هود وصالح وشعيب وموسىٰ وعيسىٰ عليهم السلام.

وأمّا ظنّ أُممهم أنّهم قد كذِبوا فكما اخبر عنه في قصّة نوح من قولهم: ﴿ بَل نَظُنُّكُم كَاذِبين ﴾[٣]، وكذا في قصّة هود وصالح، وقوله: ﴿ فقالَ لَهُ فِرعَونُ إنّي لَأَظُنُّكَ يَامُوسَىٰ مَسحُوراً ﴾[٤].

وأمّا تنجية المؤمنين بالنصر فكقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَينا نَصرُ المُؤمِنِين ﴾[٥]، وقد أخبر به في هلاك بعض الأُمم أيضاً كقوله ﴿ نَجّينا هُوداً وَالّذِينَ آمنُوا مَعَه ﴾[٦]، ﴿ نَجّينَا صَالِحاً وَالّذِينَ آمَنُوا مَعَه ﴾[٧]، ﴿ نَجّينا شُعَيباً والّذِينَ آمَنُوا مَعَه ﴾[٨]، إلىٰ غير ذلك.

وأمّا أنّ بأس الله لا يرد عن المجرمين فمذكورٌ في آياتٍ كثيرة عموماً وخصوصاً كقوله: ﴿ وَلكلِّ أمّةٍ رَّسُولٌ فَإذَا جَاءَ رَسُولُهُم قُضِيَ بَينَهُم بِالقِسطِ وَهُم لَا يُظلَمُون ﴾[٩]، وقوله: ﴿ وَإذا أَرَادَ اللهُ بِقَومٍ سُوءاً فَلا مَرَدَّ لَه وَمَا لَهُم مِن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾[١٠] إلىٰ غير ذلك من الآيات.

---

(١) هود: ٣٦.
(٢) نوح: ٢٦ و ٢٧.
(٣) هود: ٢٧.
(٤) الإسراء: ١٠١.
(٥) الروم: ٤٧.
(٦) هود: ٥٨.
(٧) هود: ٦٦.
(٨) هود: ٩٤.
(٩) يونس: ٤٧.
(١٠) الرعد: ١١.

وقال ﷺ في بحثه الروائي عن الآية:

في العيون بإسناده عن علي بن محمّد بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا علي بن موسىٰ عليه السلام فقال له المأمون: يابن رسول الله أليس من قولك إنّ الأنبياء معصومون؟ قال: بلى ـ وذكر الحديث إلى أن قال فيه: ـ قال المأمون لأبي الحسن: فأخبرني عن قول الله تعالى: ﴿ *حتّى إذا استيأس الرسلَ وظنّوا أنّهم قد كُذِبوا جاءَهُم نصرُنا* ﴾ قال الرضا: يقول الله: حتى إذا استيأس الرسل من قومهم فظنّ قومهم أنّ الرسل قد كذِبوا جاء الرسلَ نصرُنا.

أقول: وهو يؤيّد ما قدّمناه في بيان الآية، وما في بعض الروايات أنّ الرسل ظنّوا أنّ الشيطان تمثّل لهم في صورة الملائكة لا يُعتمد عليه.

وفي تفسير العيّاشي عن زرارة قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: كيف لم يخف رسول الله فيما يأتيه من قبل الله أن يكون ذلك ممّا ينزغ به الشيطان؟ قال: فقال: إنّ الله إذا اتّخذ عبداً رسولاً أنزل عليه السكينة والوقار وكان الّذي يأتيه من الله مثل الّذي يراه بعينه.

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن جرير وابن المنذر عن إبراهيم عن أبي حمزة الجزري قال: صنعت طعاماً فدعوت ناساً من أصحابنا منهم سعيد بن جبير والضحّاك بن مزاحم، فسأل فتىً من قريش سعيد بن جبير فقال: ياأبا عبد الله كيف تقرأ هذا الحرف؟ فإنّي إذا أتيت عليه تمنّيت أني لا أقرأ هذه السورة: ﴿ *حتّى إذا استيأس الرسلَ وظنّوا أنّهم قد كُذِبوا* ﴾ قال: نعم حتى إذا استيأس الرسل من قومهم أن يصدّقوهم وظنّ المرسل إليهم أنّ الرسل قد كذبوا، فقال الضحّاك: لو رحلتُ في هذه إلى اليمن لكان قليلاً[1].

---

(١) تفسير الميزان: ١١ / ٢٧٩ و ٢٨٢.

دلالات الآية وتطبيقها:

يُستفاد من فهم الآية الكريمة وتطبيقها علىٰ القضية المهدوية أنّ من علائم مجيء النصر الإلهيّ بظهور المنتظر الموعود عجّل الله فرجه إقتراب الأولياء من حالة اليأس من إمكانية اهتداء المزيد ممّا تبقّىٰ من الناس من غير المؤمنين إلىٰ معرفة إمام زمانهم والتمسك بولايته قبل ظهوره، وبما يؤهّلهم للفوز بدرجات أعلىٰ من الانتفاع بهذا الإيمان بعد ظهوره، كما فصّلنا الحديث عن ذلك ضمن الحديث عن يوم الفتح وآثار الإيمان قبله وبعده.

أقرب العلامات العامّة:

أي أنّ المنكرين يستمرّون علىٰ عنادهم وإنكارهم وتكذيبهم رغم اتّضاح الحقّ وتمايز المؤمنين، كما أشرنا لذلك ضمن الحديث عن الآيات السابقة، فلا تبقىٰ وسيلة إلّا ظهور المهديّ في يوم الفتح ومجيء الآيات الربّانية الّتي لن ينفع نفساً إيمانها ما لم تؤمن من قبل، طبق التوضيحات الّتي قدّمناها في الحديث عن يوم الفتح.

وعليه، يتّضح أنّ هذه العلامة تكون أقرب للظهور من سابقاتها بل لعلّها أقرب العلامات العامّة.

تمادي الأعداء في محاربة المؤمنين:

١ـ ويُستفاد من الحديث المطبق للآية الكريمة أنّ من علائم الظهور العامّة تمادي المنكرين المعاندين في محاربة المؤمنين المنتظرين للظهور المهدوي العاملين في سبيله، وإلىٰ أقصىٰ حدود المحاربة، حتّىٰ يكون قتل المؤمن أهون

من قتل الميتة، أو أن يتصوّر الكافرون أنّ نتائج حربهم ضدّ المؤمنين قد أضعفت الصف الإيماني حتّىٰ لم يعد ثمّة مبرّر للخوف منه.

٢ـ لعلّ في قوله ﷺ: «يهلك المبطلون ويضمحلّ الجاهلون» إشارة إلى اتّضاح أحقّية الدين الحقّ الّذي يمثّله خطّ الولاية المعصومة والمهديّ المنتظر عجّل الله فرجه، وبحيث لا يبقىٰ مجالٌ للشكّ والريب وعدم الإيمان بسبب الجهل، فيما يكون المتقون في أعلىٰ مراتب الأمن بفضل رسوخ عقائدهم ومعرفتهم بما ينبغي عليهم اتّخاذه من مواقف تجاه الحوادث الواقعة، فيأمنوا السقوط في الضلال عندما تُحيط بهم الفتن المضلّة الّتي تشتدّ مع اشتداد اتّضاح الحقائق.

سادساً: بلوغ التطوّر المادّي ذروته:

قوله تعالىٰ:

﴿*حَتّىٰ إذا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَها وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهلُها أَنَّهُم قَادِرُونَ عَلَيها أَتَاها أَمرُنا لَيلاً أو نَهاراً*... الآية﴾[1]

روىٰ أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري قال: أخبرني أبو الحسين محمّد ابن هارون بن موسىٰ عن أبيه قال: حدّثنا أبو علي الحسن بن علي النهاوندي قال: حدّثنا محمّد بن أحمد القاشاني قال: حدّثنا علي بن سيف قال: حدّثني أبي عن المفضّل بن عمر عن أبي عبد الله ﷺ: قال: نزلت في بني فلان ثلاث آيات:

قوله عزّوجلّ: ﴿*حتّىٰ إذا أخذتِ الأرضُ زخرُفها وازيّنتْ وظنّ أهلُها أنّهم*

(١) يونس: ٢٤.

﴿قادرونَ عليها أتاها أمرُنا ليلاً أو نهاراً﴾ يعني القائم بالسيف ﴿فجعلناها حصيداً كأن لم تغنَ بالأمس﴾.

وقوله عزّوجلّ: ﴿فَتَحْنا عَلَيهم أبوابَ كُلِّ شَيءٍ حَتّىٰ إذا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذنَاهُم بَغتَةً فإذا هُم مُّبلِسُون * فَقُطِعَ دَابِرُ القَومِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالحَمدُ للهِ ربِّ العَالَمين﴾ [١] قال أبو عبد الله عليه السلام: بالسيف.

وقوله عزّوجلّ: ﴿فَلمَّا أحَسُّوا بَأسَنا إذَا هُم مِنها يَركُضُون * لَا تَركُضُوا وَارجِعُوا إلى مَا أُترِفتُم فِيهِ وَمَسَاكِنِكُم لَعَلَّكُم تُسأَلُون﴾ [٢] يعني القائم عليه السلام يسأل بني فلان (عن) كنوز بني أُمية [٣].

الزخرف هو الزينة والبهجة، والمراد هو الجانب المادّي، كما هو المستفاد من السياق الّذي تقع الآية الكريمة في وسطه والآية الّتي قبلها ومطلع الآية نفسها حيث الحديث فيها عن المتاع الدنيوي [٤].

ويُستفاد من تطبيق الآية الكريمة على القضية المهدوية ومعها آيتا سورة الأنعام أمران فيما يرتبط بالظهور المهدوي:

١ ـ أنّ من علائم اقتراب ظهور المهديّ الموعود عجّل الله فرجه بلوغ التطوّر المادّي ذروته وإلىٰ درجة تجعل أهل الدنيا يتوهّمون أنّهم قادرون على القيام بكلّ شيء، وقد يُستفاد من آية سورة الأنعام المذكورة في الحديث الشريف حصول الإنسان علىٰ مختلف أشكال المتع الدنيوية بمعنى اختراع أساليب

---

(١) الأنعام: ٤٤ و٤٥.

(٢) الأنبياء: ١٢ و ١٣.

(٣) دلائل الإمامة: ٢٥٠، وروى الصفّار حديثاً بالمضمون في بصائر الدرجات: ٧٨، وعليّ بن إبراهيم في تفسيره: ١ / ٢٠٠.

(٤) راجع تفسير الميزان: ١٠ / ٣٧ ـ ٣٨.

متنوّعة للتمتّع والوصول إلى اللذائذ الماديّة لا قدرة الجميع على الحصول على كلّ هذه المتع.

وعليه، يُستفاد أنّ من علائم الظهور بلوغ التطوّر العلمي المادّي مراحل متقدّمة تجعل الإنسان يتوهّم أنّه قادرٌ على التصرّف في الكثير من الشؤون الدنيوية الّتي كان عاجزاً في السابق عن التصرّف فيها.

٢ـ أنّ الظهور المهدوي يكون فجأةً وفي ظلّ غفلة الظالمين أو المادّيين أو عموم غير المؤمنين بالمهديّ الموعود عجّل الله فرجه، وهذا الأمر مستفاد من مجموعة من الآيات المطبقة على هذا الظهور منها آية سورة الأنعام المتقدّمة الذكر، ومنها:

سابعاً: الظهور المهدوي يباغت المجرمين:

قوله تعالى:

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ﴾ (١)

روى الحسين بن حمدان الحضيني قال: حدّثنا محمّد بن إسماعيل وعلي ابن عبد الله الحسنيان عن أبي شعيب محمّد بن بصير عن عمر بن ألوان عن محمّد ابن الفضل عن المفضّل بن عمر قال: سألت سيدي أبا عبد الله الصادق عليه السلام: هل للمأمول المنتظر المهديّ عليه السلام وقت مؤقت تعلمه الناس؟ فقال: حاش لله أن يؤقّت له وقتاً قال: قلت: مولاي ولم ذلك؟ قال: لأنه الساعة الّتي قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا

---

(١) محمّد: ١٨.

إلّا هُوَ ثَقُلتْ في السّماواتِ وَالأرضِ لَا تَأتيكُم إلّا بَغتَةً يَسألونَكَ كأنَّكَ حَفِيٌّ عَنها قُل إنَّما عِلمُها عِندَ اللهِ وَلكنَّ أكثرَ النَّاسِ لَا يَعلَمُون ﴾[١] وقوله: ﴿*وَعِندَهُ عِلمُ السَّاعَةِ*﴾[٢] ولم يقل عن أحد دونه، وقوله: ﴿ *فهل ينظرون إلّا الساعة أن تأتيهم بغتةً فقد جاء أشراطها فأنّى لهم إذا جاءتهم ذكراهم* ﴾ وقوله: ﴿ *اقتَرَبَت السَّاعَةُ وَانشَقَّ القَمَر* ﴾[٣] وقوله: ﴿ *وَمَا يُدرِيك لَعَلَّ السَّاعةَ قَريب * يَستَعجِلُ بِهَا الّذِينَ لَا يُؤمِنُونَ بِهَا وَالّذِينَ آمَنُوا مُشفِقُونَ مِنهَا وَيَعلَمُونَ أنَّها الحَقُّ ألَا إنَّ الّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعةِ لَفِي ضَلالٍ بَعيد* ﴾[٤]. قلت: يامولاي ما معنى يمارون؟ قال: يقولون متى ولد؟ ومن رآه؟ وأين هو ؟ ومتى يظهر ؟كل ذلك استعجالاً لأمره وشكّاً في قضائه وقدرته، أُولئك الّذين خسروا أنفسهم في الدنيا والآخرة وإنّ للكافرين لشرّ مآب.

قال المفضّل: يامولاي فلا توقِّت له وقتاً؟ قال: يامفضّل لا توقِّت فإنّ من وقَّت لمهديّنا وقتاً فقد شارك الله في علمه وادّعى أنّه أظهره على علمه وسرّه[٥].

وقوله تعالى:

﴿ *هَل يَنظُرُون إلّا الساعةَ أَن تَأتيَهُم بَغتَةً وَهُم لَا يَشعُرُون* ﴾[٦]

---

(١) الأعراف: ١٨٧.
(٢) الزخرف: ٨٥.
(٣) القمر: ١.
(٤) الشورىٰ: ١٧ و ١٨.
(٥) الهداية الكبرىٰ كما في المحجّة: ٢٠٤ ـ ٢٠٥.
(٦) الزخرف: ٦٦.

روىٰ محمّد بن العبّاس قال: حدّثنا علي بن عبد الله بن أسد عن إبراهيم بن محمّد عن إسماعيل بن بشّار عن علي بن جعفر الحضرمي عن زرارة بن أعين قال: سألت أبا جعفر ـ عليه السلام ـ عن قول الله عزّوجلّ: ﴿ *هل ينظرون إلّا الساعةَ أن تأتيهُم بغتةً* ﴾ قال: هي ساعة القائم عليه السلام تأتيهم بغتة[1].

علائم الظهور وتوقيته:

الآيتان الكريمتان تتحدّثان عن انتظار يوم القيامة، وقد عرفنا وجه تطبيق الآيات الواردة بشأن يوم القيامة علىٰ يوم الظهور المهدوي وهو اشتراكهما في كونهما من أبرز أيّام تجلّي القدرة الإلهيّة. ويفيد تطبيقهما على القضية المهدوية أنّ ظهور الإمام المنتظر عجّل الله فرجه يأتي مباغتاً مفاجئاً، ويتضمّن الحديث الأوّل التأكيد على النهي عن التوقيت، وهو نهيٌّ متكرّر في الأحاديث الشريفة، إلّا أنه لا ينافي علىٰ أيّ حال ملاحظة المؤمنين لعلائم الظهور وتحقّقها لتحديد اقتراب موعد الظهور علىٰ نحو الإجمال؛ لأنّ هذا التحديد صادر من ينابيع الوحي وهو مجمل فلا ينافي التوقيت المنهيّ عنه، فيكون المقصود عن النهي من التوقيت تحديد وقت معيّن للظهور دون الاستناد إلى العلامات الحتمية السابقة له.

كما أنّه يؤكّد ما أكّدته الأحاديث الشريفة من لزوم توقّع ظهور الإمام في كلّ حين، والتحلّي بحالة الاستعداد الدائم لوقوعه والقيام بواجبات النصرة.

---

(١) تأويل الآيات الظاهرة: ٢ / ٥٧١.

الفصل الحادي عشر

من مظاهر النصرة الإلهيّة للمهدي

مدخـل:

يمكن تقسيم الآيات المؤوّلة أو المطبقة بشأن النصرة الإلهيّة للمهدي المنتظر عجّل الله فرجه الشريف إلىٰ ثلاثة أقسامٍ رئيسية:

القسم الأوّل: الآيات الكريمة الدالّة علىٰ أنّ تحرّكه وثورته الإلهيّة هي تعبيرٌ وتجسيدٌ واستجابةٌ للإرادة الإلهيّة الحتمية، ويُستفاد من هذه الآيات حتمية ظهوره وحتمية انتصاره في تحقيق أهدافه لتعلّق الإرادة الإلهيّة بذلك.

القسم الثاني: الآيات المصرّحة ـ حسب تطبيق الأحاديث الشريفة لها علىٰ القضية المهدوية ـ بأنّ ما يتحقّق علىٰ يديه عجّل الله فرجه هو نصرٌ إلهي وفتحٌ عظيم، بل من أكمل وأوضح مصاديق النصر الإلهيّ المظفّر.

القسم الثالث: الآيات الكريمة المتحدّثة ـ طبق الأحاديث المؤوّلة لها ـ عن بعض مظاهر النصرة الإعجازية له سلام الله عليه قبل ظهوره وبعده.

وقد تقدّمت في الفصول السابقة عدّة آيات كريمة دالّة علىٰ هذه النصرة

استناداً إلىٰ تفسيرها ومفهومها المباشر، أو انطلاقاً من الأحاديث المطبّقة لها على القضية، وتدخل ضمنها جميع آيات الفصل الخاصّ بحتمية ظهوره عليه السلام.

ونعرض في هذا الفصل طائفةً من الآيات الكريمة المبيّنة ـ طبقاً للأحاديث الشريفة الواردة في تطبيقها على القضية المهدوية ـ لأبرز مظاهر النصرة الإلهيّة للمهديّ الموعود عجّل الله فرجه.

أوّلاً: ظهور المهديّ بإذن الله:

قوله تعالىٰ:

﴿ *فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ * فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ* ﴾ (١)

١ـ روى الشيخ الكليني محمّد بن يعقوب عن أبي علي الأشعري عن محمّد ابن حسّان عن محمّد بن علي عن عبد الله بن القاسم عن المفضّل بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله عزّوجلّ: ﴿ *فإذا نُقِرَ في النّاقور* ﴾ قال: إنّ منّا إماماً مظفّراً مستتراً فإذا أراد الله عزّ ذكره إظهار أمره نكت في قلبه نكتةً فظهر فقام بأمر الله تعالى (٢).

٢ـ وروى الشيخ المفيد عن محمّد بن يعقوب بإسناده عن المفضّل بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنّه سُئل عن قول الله عزّوجلّ: ﴿ *فإذا نُقِرَ في النّاقور* ﴾ قال: إنّ منّا إماماً يكون مستتراً فإذا أراد الله إظهار أمره نكت في قلبه نكتة فنهض وقام بأمر الله عزّوجلّ.

---

(١) المدثر: ٨ ـ ١٠.

(٢) أُصول الكافي: ١ / ٣٤٣، ورواه المسعودي بسندٍ آخر في إثبات الوصية: ٢٢٨، وكذلك النعماني في الغَيبة: ١٨٧.

وفي حديثٍ آخر عنه عليه السلام قال: إذا نُقر في إذن القائم عليه السلام أذن له في القيام(١).

٣ـ وروى الاسترآبادي في كتاب تأويل الآيات عن عمرو بن شمر عن جابر بن يزيد عن أبي جعفر عليه السلام قال: قوله عزّوجلّ: ﴿ فإذا نُقِرَ في النَّاقور ﴾ قال: الناقور هو النداء من السماء «ألا إنّ وليّكم فلان بن فلان القائم بالحقّ» ينادي به جبرائيل عليه السلام في ثلاث ساعات من ذلك ﴿ فَذلِكَ يَومٌ عَسير * عَلَى الكَافِرِين غَيرُ يَسير ﴾ يعني بـ«الكافرين» المُرجئة الّذين كفروا بنعمة الله وبولاية علي بن أبي طالب عليه السلام(٢).

٤ـ وروىٰ الشيخ الصدوق قال: حدّثني [حدّثنا] أبي ومحمّد بن الحسن رضي الله عنهما قالا: حدّثنا عبد الله بن جعفر الحميري قال: حدّثنا محمّد بن الحسين بن أبي الخطّاب عن سعدان بن مسلم عن عبد الله بن القاسم عن المفضّل بن عمر قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن تفسير جابر [ف] قال عليه السلام: لا تحدّث به السفلة [السفل] فيُذيعوه، أما تقرأ في كتاب الله عزّوجلّ: ﴿ فإذا نُقِرَ في النَّاقور ﴾ إنّ منّا إماماً مستتراً، فإذا أراد الله عزّوجلّ إظهار أمره نكت في قلبه نكتة فظهر وأمر بأمر الله [عزّوجلّ](٣).

٥ـ روى الحافظ القندوزي الحنفي قال: روى عن المفضّل بن عمر عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ فإذا نُقِرَ في النَّاقور * فذلك يومئذٍ يومٌ عسير * على الكافرين غيرُ يسير ﴾ قال: إذا نودي في إذن (القائم) بالإذن في قيامه فيقوم، فذلك اليوم عسيرٌ على الكافرين.

---

(١) المحجّة: ٢٣٨.

(٢) تأويل الآيات الظاهرة: ٢ / ٧٣٢، وروىٰ فيه حديثاً آخر بالمضمون.

(٣) كمال الدين: ٣٤٩، ورواه الطوسي في كتاب الغَيبة: ١٠٣ والكشّي في رجاله: ١٩٢.

قال [الصادق ﷺ]: والقرآن ضرب منه الأمثال، ونحن نعلمه فلا يعلمه غيرنا[١].

حتمية تحقّق الأهداف المهدوية:

الآيات الكريمة تتحدّث عن يوم القيامة الكبرىٰ وإعلانه بإذن الله تبارك وتعالىٰ، فالنقر القرع، والناقور ما يُقرع فيه للتصويت، وهو كالنفخ في الصور[٢]. والمراد الإعلان للقيامة. وتطبيق الآيات الكريمة علىٰ يوم ظهور القائم المهديّ عجّل الله فرجه هو من باب الجري ولاشتراك هذين اليومين ـ كما أسلفنا ـ في تجلّي القدرة الإلهيّة فيهما وإن اختلفت درجات التجلّي بينهما في الشدّة والضعف. وظهور المهديّ عسيرٌ على الكافرين حيث ينتهي حكمهم وسلطانهم كما هو معلوم. والحكم نفسه يجري على الكافرين بنعمة الولاية وأعداء خطّ الأوصياء والإمامة المعصومة.

والمستفاد من تطبيق الأحاديث الشريفة للآيات الكريمة علىٰ ظهور المهديّ هو أنّ هذا الظهور المقدّس يكون بأمر الله تبارك وتعالىٰ، فهو منصورٌ محقّق لأهدافه بلا شكّ لأنّ الله غالبٌ علىٰ أمره، وقد وردت آيات أُخرىٰ تطبّق مجيء أمر الله جلّت قدرته علىٰ خروج المهديّ عجّل الله فرجه.

ويُلاحظ أنّ الحديث الثالث المروي في كتاب تأويل الآيات يطبّق الآيات على النداء السماوي فيما تطبّقها الأحاديث الأُخرىٰ على النكت الإلهيّة في قلب المهديّ إيذاناً بالخروج، ولا يبدو ثمّة مانع من تطبيقها علىٰ كلا الموردين،

---

(١) ينابيع المودّة: ٥١٥.

(٢) راجع تفسير الميزان: ٢٠ / ٨٥.

فيكون الأوّل إيذاناً وإعلاناً عاماً بقرب الخروج، ويكون الثاني إذناً خاصّاً به عليه السلام لبدء التحرّك.

ثانياً: أمر الله الغالب علىٰ أمره:

قوله تعالىٰ:

﴿ *أَتَىٰ أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ* ﴾ (١)

١ ـ روى الشيخ الصدوق قال: حدّثنا محمّد بن الحسن بن أحمد بن الوليد رضي الله عنه قال: حدّثنا محمّد بن الحسن الصفار عن يعقوب بن يزيد عن محمّد ابن أبي عمير عن أبان بن عثمان عن أبان بن تغلب قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: أوّل من يبايع القائم عليه السلام جبرئيل عليه السلام ينزل في صورة طير أبيض فيبايعه ثمّ يضع رجلاً علىٰ بيت الله الحرام ورجلاً على بيت المقدس، ثمّ ينادي بصوت ذلق [طلق تسمعه] يسمع الخلائق: ﴿ *أتىٰ أمرُ الله فلا تستعجلوهُ* ﴾ (٢).

٢ ـ ورواه العيّاشي بإسناده عن أبان بن تغلب عن أبي عبد الله عليه السلام: إنّ أوّل من يبايع القائم عليه السلام جبرئيل عليه السلام ينزل عليه في صورة طير أبيض فيبايعه... وساق الحديث إلى آخره.

ثمّ قال العيّاشي عقيب الحديث: وفي رواية أُخرىٰ عن أبان عن أبي جعفر عليه السلام نحوه (٣).

٣ ـ وروىٰ محمّد بن إبراهيم النعماني في الغَيبة قال: أخبرنا علي بن أحمد

(١) النحل: ١.
(٢) كمال الدين: ٦٧١.
(٣) تفسير العيّاشي: ٢ / ٢٥٤.

عن عبـ [ـيـ] ـد الله بن موسى [العلوي] قال: حدّثنا [عن] علي بن الحسين عن علي حسان عن عبد الرحمن بن كثير عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزّوجلّ: ﴿ *أتىٰ أمرُ الله فلا تستعجلوه* ﴾، قال: هو أمرنا أمر الله عزّوجلّ فلا يُستعجل به، يؤيّده بثلاثة أجناد الملائكة والمؤمنين والرعب، وخروجه كخروج رسول الله صلى الله عليه وآله وذلك قوله عزّوجلّ: ﴿ *كَمَا أَخرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيتِكَ بِالحَقِّ [وإنّ فَرِيقاً مِنَ المُؤمِنِينَ لَكَارِهونَ]* ﴾ (١) (٢).

٤ـ ورواه المفيد في كتاب الغَيبة بإسناده عن عبد الرحمن بن كثير عن أبي عبد الله عليه السلام (٣).

٥ـ وروىٰ أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري قال: أخبرني أبو المفضّل محمّد بن عبد الله قال: أخبرنا محمّد بن همّام قال: أخبرنا جعفر بن محمّد بن مالك قال: حدّثنا علي بن يونس الخزّاز عن إسماعيل بن عمر عن [بن] أبان عن أبيه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا أراد الله قيام القائم عليه السلام بعث جبرائيل في صورة طائر أبيض فيضع إحدىٰ رجليه على الكعبة والأُخرى علىٰ بيت المقدس ثمّ يُنادي بأعلىٰ صوته: ﴿ *أتىٰ أمرُ الله فلا تستعجلوه* ﴾ قال: فيحضر القائم عليه السلام فيصلّي عند مقام إبراهيم عليه السلام ركعتين ثمّ ينصرف وحواليه أصحابه وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، إنّ فيهم لمن يسري من فراشه ليلاً فيخرج ومعه الحجر فيلقيه فتعشب الأرض (٤).

---

(١) الأنفال: ٥.

(٢) غَيبة النعماني: ١٩٨.

(٣) تأويل الآيات الظاهرة: ١ / ٢٥٢.

(٤) دلائل الإمامة: ٢٥٢.

أوضح مصاديق النصر الإلهيّ:

المستفاد من التدبّر في الآية الكريمة والسياق الّذي جاءت فيه أنّ المراد بالأمر فيها ما وعد الله النبي ﷺ وما أوعد به المشركين مرّة بعد مرّة في كلامه من أنه سينصر المؤمنين ويخزي الكافرين ويعذّبهم ويظهر دينه بأمرٍ من عنده، وليس المراد به يوم القيامة[١]. وتطبيق الآية علىٰ ظهور المهديّ الموعود هو من جري القرآن أو بطنه[٢]. والتطبيق هو باعتبار أنّ هذا الظهور إيذاناً بتحقّق أكمل مصاديق حلول النصر الإلهيّ وإظهار الإسلام على الدين كلّه وخزي الكافرين والمشركين بالكامل.

وقد يكون في نسبة الأحاديث الشريفة الجهر بهذه الآية لجبرئيل عليه السلام إيذاناً بخروج المهديّ عجّل الله فرجه إشارة إلىٰ إعلان التأييد الإلهيّ لتحرّكه الثوري. وعلىٰ أيّ حال فإنّ أصل تطبيق الآية على الخروج المهدوي يفيد بأنه تحرّك منصورٌ إلهياً، كما تقدّم في الآية السابقة.

ثالثاً: نصرته بالآيات السماوية:

قوله تعالىٰ:

﴿إِن نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِنَ السَّماءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْناقُهُم لَهَا خَاضِعِينَ﴾[٣]

١ـ روىٰ محمّد بن يعقوب الكليني عن محمّد بن يحيىٰ عن أحمد بن محمّد

(١) راجع تفسير الميزان: ١٢ / ٢٠٤ ـ ٢٠٥.
(٢) تفسير الميزان: ١٢ : ٢٢٤.
(٣) الشعراء: ٤.

ابن عيسىٰ عن علي بن الحكم عن أبي أيّوب الخزّاز عن عمر بن حنظلة قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: خمس علامات قبل قيام القائم عليه السلام: الصيحة، والسفياني، والخسف، وقتل النفس الزكية، واليماني، فقلت: جعلت فداك إن خرج أهل بيتك قبل هذه العلامات أنخرج معه؟ قال: لا.

قال: فلمّا كان من الغد تلوت هذه الآية ﴿ *إن نشأ نُنزِّلْ عليهم من السماء آيةً فظلَّتْ أعناقُهم لها خاضعين* ﴾ فقلت له: أهي الصيحة؟ فقال: أمّا لو كانت خضعت أعناق أعداء الله عزّوجلّ (١).

٢ـ أخرج الحافظ الحنفي القندوزي بإسناده المذكور قال: عن علي بن موسى الرضا عليه السلام في حديث ـ أنّه قال: إنّ الرابع من ولده ابن سيّدة الإماء، يطهر الله به الأرض من كلّ جور وظلم ـ إلى أن قال: ـ وهو الّذي له ينادي منادٍ من السماء يسمعه جميع أهل الأرض: ألا إنّ حجّة الله قد ظهر عند بيت الله فاتّبعوه فإنّ الحقّ فيه ومعه.

[ثمّ قال:] وهو قول الله عزّوجلّ: ﴿ *إن نشأ نُنزِّلْ عليهم من السماء آيةً فظلَّتْ أعناقُهم لها خاضعين* ﴾ (٢).

٣ـ وروىٰ علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن هشام عن أبي عبد الله عليه السلام قال: تخضع رقابهم، ـ يعني بني أُمية ـ وهي الصيحة من السماء باسم صاحب الأمر عليه السلام (٣).

---

(١) الكافي: ٨ / ٣١٠، ورواه الشيخ الصدوق بسند آخر في كمال الدين: ٦٤٩، والطوسي في غَيبته: ٢٦٧، وغيرهم.

(٢) ينابيع المودّة: ٤٨٩، ورواه الشيخ الصدوق ضمن حديث طويل مسند إلى الإمام الرضا عليه السلام في كمال الدين: ٣٧١، كما رواه الخزّاز في كفاية الأثر: ٢٧٠، كما رواه من علماء أهل السنّة الحافظ الجويني في فرائد السمطين: ٢ / ٣٣٦.

(٣) تفسير القمّي: ٢ / ١١٨.

٤ـ وروىٰ محمّد بن إبراهيم النعماني في الغَيبة قال: أخبرنا أحمد بن محمّد ابن سعيد قال: حدّثنا علي بن الحسن [الحسين] عن أبيه عن أحمد بن عمر الحلبي عن الحسين بن موسى عن فضيل بن محمّد مولى محمّد بن راشد الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أما إنّ النداء [من السماء] باسم القائم عليه السلام في كتاب الله لبيّن، فقلت: [فـ] أين هو أصلحك الله؟ فقال في: ﴿ *طسم * تلك آياتُ الكتاب المبين* ﴾ قوله: ﴿ *إن نشأ نُنزِّل عليهم من السماء آيةً فظلَّتْ أعناقُهم لها خاضعين* ﴾ قال: إذا أصبحوا سمعوا الصوت [سمعوا الصوت أصبحوا] وكأنّما على رؤوسهم الطير(١).

٥ـ وعنه قال: أخبرنا أحمد بن محمّد بن سعيد قال: حدّثنا علي بن الحسن [الحسين] التيملي قال: حدّثنا عمرو بن عثمان عن الحسن بن محبوب عن عبد الله بن سنان قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فسمعت رجلاً من همدان يقول [له]: إنّ هؤلاء العامّة يعيّرونا ويقولون [لنا]: إنّكم تزعمون أنّ منادياً ينادي [من السماء] باسم صاحب هذا الأمر، وكان متكياً فغضب وجلس ثمّ قال: لا ترووه عنّي وارووه عن أبي ولا حرج عليكم في ذلك، أشهد أني [قد] سمعت أبي عليه السلام يقول: والله إنّ ذلك في كتاب الله عزّوجلّ لبيّن حيث يقول: ﴿ *إن نشأ نُنزِّل عليهم من السماء آيةً فظلَّتْ أعناقُهم لها خاضعين* ﴾ ولا يبقى في الأرض يومئذٍ أحدٌ إلّا خضع وذلّت رقبته [لها] فيؤمن أهل الأرض إذا سمعوا الصوت من السماء: ألا إنّ الحقّ في علي بن أبي طالب عليه السلام وشيعته.

فإذا كان من الغد صعد إبليس في الهواء حتّىٰ يتوارىٰ عن (أهل) الأرض ثمّ ينادي ألا إنّ الحقّ في عثمان بن عفان [وشيعته] فإنّه قُتل مظلوماً فاطلبوا

---

(١) غَيبة النعماني: ١٣٩.

بدمه، قال عليه السلام: فيثبّت الله الّذين آمنوا بالقول الثابت على الحقّ، وهو النداء الأوّل ويرتاب يومئذٍ الّذين في قلوبهم مرض، والمرض والله عداوتنا، فعند ذلك يتبرأون منّا ويتناولونا ويقولون: إنّ المنادي الأوّل سحرٌ من سحر أهل هذا البيت، ثمّ تلا أبو عبد الله عليه السلام [قول الله عزّوجلّ]: ﴿ *وإن يروا آيةً يُعرضوا ويقولوا سحرٌ مستمرّ* ﴾ [1] [2].

٦ـ وعنه ﷺ قال: أخبرنا أحمد بن محمّد بن سعيد قال: حدّثنا محمّد بن المفضّل [الفضل] بن إبراهيم وسعدان بن إسحاق بن سعيد وأحمد بن الحسين ابن عبد الملك [الكريم] ومحمّد بن أحمد بن الحسن القطواني جميعاً عن الحسن بن محبوب عن عبد الله بن سنان مثله سواء بلفظه [3].

وعنه قال: أخبرنا أحمد بن محمّد بن سعيد قال: حدّثنا القاسم بن محمّد بن الحسين بن حازم قال: حدّثنا عبيس بن هشام الناشري عن عبد الله بن جبلة عن عبد الصمد بن بشير عن أبي عبد الله جعفر بن محمّد عليه السلام وقد سأله عمارة الهمداني فقال [له]: أصلحك الله إنّ الناس يعيّرونا ويقولون: إنّكم تزعمون أنّه سيكون صوت من السماء.

فقال له: لا ترووه عنّي وارووه عن أبي، كان أبي يقول: هو في كتاب الله ﴿ *إن نشأ ننزّل عليهم من السماء آيةً فظلّت أعناقهم لها خاضعين* ﴾ فيؤمن أهل الأرض جميعاً للصوت [الأوّل]، فإذا كان من الغد صوّت إبليس اللعين حتّى يتوارىٰ [من الأرض] في جوّ السماء ثمّ ينادي: ألا إنّ عثمان قُتل مظلوماً فاطلبوا بدمه، فيرجع من أراد الله عزّوجلّ به شرّاً ويقولون هذا سحر الشيعة،

---

(١) القمر: ٢.
(٢) غَيبة النعماني: ١٣٧.
(٣) غَيبة النعماني: ١٣٨.

وحتىٰ يتناولونا ويقولون هو من سحرهم، وهو قول الله عزّوجلّ: ﴿ وإن يروا آية يُعرِضُوا وَيقُولُوا سِحرٌ مُستمِرّ ﴾ (١).

٧ـ وعنه قال: أخبرنا أحمد بن محمّد بن سعيد قال: حدّثنا محمّد بن المفضّل [الفضل] بن إبراهيم بن قيس قال: حدّثنا الحسن بن علي بن فضّال قال: حدّثنا ثعلبة بن ميمون عن معمر بن يحيى عن داود الدجاجي عن أبي جعفر محمّد بن علي عليهما السلام قال: سئل أميرالمؤمنين عليه السلام عن قول الله عزّوجلّ: ﴿ فَاختَلَفَ الأحزابُ مِن بَينِهِم ﴾ (٢) فقال: انتظروا الفرج في [من] ثلاث، فقيل: وما [هنَّ]؟ فقال: اختلاف أهل الشام بينهم، والرايات السود من خراسان، والفزعة في شهر رمضان، فقيل: وما] الفزعة في شهر رمضان؟ فقال: أوَ ما سمعتم قول الله عزّوجلّ [في القرآن] ﴿ إن نشأ نُنزِّل عليهم من السماء آيةً فظلَّت أعناقُهم لها خاضعين ﴾ هي أنّ [آية] تخرج الفتاة من خدرها وتوقظ النائم وتفزع اليقظان (٣).

٨ـ وروىٰ محمّد بن العباس قال: حدّثنا أحمد بن الحسن بن علي قال: حدّثنا أبي عن أبيه عن محمّد بن إسماعيل عن حنّان بن سدير [عن أبي بصير] عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن قول الله عزّوجلّ: ﴿ إن نشأ نُنزِّل عليهم من السماء آيةً فظلَّت أعناقُهم لها خاضعين ﴾ قال: نزلت في قائم آل محمّد عليه السلام ينادى باسمه من السماء (٤).

---

(١) غَيبة النعماني: ١٣٨.

(٢) مريم: ٣٧.

(٣) المصدر السابق: ١٣٩، ورواه من علماء أهل السنّة الحافظ الشافعي يوسف بن يحيىٰ بن علي المقدسي في كتابه عقد الدرر في أخبار المنتظر: ١٠٤.

(٤) تأويل الآيات الظاهرة: ١ / ٣٨٦، وهو مروي في ينابيع المودّة: ٤٢٦.

٩ ـ عنه قال: حدّثنا علي بن عبد الله بن أسد عن إبراهيم بن محمّد [عن أحمد] بن معمر الأسدي عن محمّد بن فضيل عن الكلبي عن أبي صباح عن ابن عبّاس في قوله عزّوجلّ: ﴿ *إن نشأ نُنزِّل عليهم من السماء آيةً فظلّتْ أعناقُهم لها خاضعين* ﴾ قال: هي [وهذه] نزلت فينا وفي بني أُمية [يكون] لنا دولة تذلّ أعناقهم لنا بعد صعوبة و [هوان] بعد عزّ(١).

١٠ ـ وعنه قال: حدّثنا الحسين بن محمّد [أحمد] عن محمّد بن عيسى عن يونس عن بعض أصحابنا عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن قول الله عزّوجلّ: ﴿ *إن نشأ نُنزِّل عليهم من السماء آيةً فظلّتْ أعناقُهم لها خاضعين* ﴾ قال: تخضع لها رقاب بني أُمية، قال: ذلك بارز الشمس، قال: وذلك علي بن أبي طالب عليه السلام يبرز عن [عند] زوال الشمس، وتركد الشمس على رؤوس الناس ساعة حتّىٰ يبرز وجهه ويعرف الناس حسَبه ونسَبه.

ثمّ قال: إنّ بني أُمية ليختبي الرجل منهم إلىٰ جنب شجرة فتقول: خلفي رجل من بني أُمية فاقتلوه(٢).

١١ ـ وعنه قال: حدّثنا الحسين بن أحمد عن محمّد بن عيسى عن يونس قال: حدّثنا صفوان بن يحيى عن أبي عثمان عن معلّى بن خنيس عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أميرالمؤمنين عليه السلام: انتظروا الفرج في ثلاث، قيل: وما هي؟ قال: اختلاف أهل الشام [فيما] بينهم، والرايات السود من خراسان، والفزعة في شهر رمضان، فقيل له: وما الفزعة في شهر رمضان؟ قال: أما سمعتم قول الله عزّوجلّ في القرآن: ﴿ *إن نشأ نُنزِّل عليهم من السماء آيةً فظلّتْ*

---

(١) تأويل الآيات الظاهرة: ١ / ٣٨٦، والحديث مروي أيضاً في مختصربصائرالدرجات: ٢٠٦.
(٢) تأويل الآيات الظاهرة: ١ / ٣٨٦.

أعناقُهم لها خاضعين ﴾ قال: إنّه تخرج الفتاة من خدرها، ويستيقظ النائم، ويفزع اليقظان[١].

١٢ـ وروي بالإسناد عن أبي الورد عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿ *إن نشأ نُنزِّلْ عليهم من السماء آيةً* ﴾ قال: النداء باسم رجل واسم أبيه[٢].

١٣ـ وروى الشيخ المفيد في كتاب الإرشاد عن وهب بن أبي حفص عن أبي بصير قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول في قوله تعالىٰ شأنه: ﴿ *إن نشأ نُنزِّلْ عليهم من السماء آيةً فظلَّتْ أعناقُهم لها خاضعين* ﴾، قال: سيفعل الله ذلك لهم، قلتُ: ومَن هم؟ قال: بنو أُميّة وشيعتهم، قلتُ: وما الآية؟ قال: ركود الشمس ما بين زوال الشمس إلىٰ وقت العصر، وخروج صدر رجلٍ ووجهٌ في عين الشمس يُعرفُ بحسَبه ونسَبه، وذلك في زمان السفياني، وعندها يكونُ بواره وبوارُ قومه[٣].

١٤ـ وروىٰ من علماء أهل السنّة الحافظ المقدّسي في عقد الدرر والمتقي الهندي في البرهان عن الإمام الحسين عليه السلام بتفاوتٍ يسير ما رواه النعماني في غَيبته عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: للقائم خمس علامات: (ظهور) السفياني، واليماني، والصيحة من السماء، وقتل النفس الزكية، والخسف بالبيداء[٤].

١٥ـ وفي مجمع البيان للطبرسي وعقد الدرر للمقدّسي الشافعي واللفظ للمقدّسي قال: قال أبو حمزة الثمالي في هذه الآية: بلغنا ـ والله أعلم ـ أنها صوتٌ

---

(١) تأويل الآيات الظاهرة: ١ / ٣٨٧.

(٢) البرهان في تفسير القرآن للسيّد البحراني: ٣ / ١٨١.

(٣) الإرشاد: ٣٥٩.

(٤) غَيبة النعماني: ٢٥٢، عقد الدرر: ١١١، البرهان في علامات مهديّ آخر الزمان: ١١٤.

يُسمع من السماء في النصف من شهر رمضان وتخرج له العواتق من البيوت[١].

النداء السماوي باسم صاحب الأمر:

معنى الآية الكريمة هو: إن نشأ أن ننزّل على المعاندين والكافرين والجاحدين آيةً تخضعهم وتلجئهم إلى القبول وتضطرّهم إلى الإيمان، فإنا ننزل عليهم آيةً كهذه يخضعوا لها[٢] وتطبيقها هو من باب الجري[٣]. واختصاصها بالنداء السماوي باسم صاحب الأمر عجّل الله فرجه، لوضوح الجانب الإعجازي في هذا النداء السماوي الّذي وردت الكثير من الأحاديث الشريفة المصرّحة بأنه من علائم الظهور وإن كان هذا التخصيص لا يمنع تطبيق الآية على آيات سماوية أُخرىٰ تشترك مع النداء في الجانب الإعجازي، نظير ما ورد في الحديث الثالث عشر المروي في إرشاد الشيخ المفيد، والقاسم المشترك بينهما هو أنّها جميعاً تمثّل علامات جليّة في الدلالة على النصرة الإلهيّة للتحرّك المهدوي.

رابعاً: فضح المبطلين والّذين في قلوبهم مرض:

قوله تعالىٰ:

﴿وَإِن يَرَوا آيَةً يُعرِضُوا وَيَقُولُوا سِحرٌ مُستَمِرٌ﴾[٤]

١ـ روى الشيخ محمّد بن إبراهيم النعماني في الغَيبة قال: أخبرنا أحمد بن محمّد بن سعيد قال: حدّثنا القاسم بن محمّد بن الحسين بن حازم قال: حدّثنا

---

(١) مجمع البيان: ٤ / ١٨٤، عقد الدرر: ١٠١.
(٢) راجع تفسير الميزان: ١٥ / ٢٥٠.
(٣) المصدر السابق: ٢٥٤.
(٤) القمر: ٢.

عبيس بن هشام الناشري عن عبد الله بن جبلة عن عبد الصمد بن بشير عن أبي عبد الله جعفر بن محمّد عليه السلام وقد سأله عمّارةُ الهمداني فقال له: أصلحك الله إنّ الناس يُعيّرونا ويقولون إنكم تزعمون أنّه سيكون صوت من السماء، فقال له:

لا ترو عنّي وأروه عن أبي، كان أبي يقول: هو في كتاب الله ﴿ *إن نشأ نُنزِّلْ عليهم من السماء آيةً فظلَّتْ أعناقُهم لها خاضعين* ﴾ فيؤمن أهل الأرض جميعاً للصوت [الأوّل] فإذا كان من الغد صعد اللعين حتّىٰ يتوارى من الأرض في جوّ السماء ثمّ ينادي: ألا إنّ عثمان قُتل مظلوماً فاطلبوا بدمه، فيرجع من أراد الله عزّوجلّ به شرّاً [سوءً] ويقولون هذا سحر الشيعة وحتّىٰ يتناولونا، ويقولون هو من سحرهم، وهو قول الله عزّوجلّ: ﴿ *وإن يَرَوا آيةً يُعرضوا ويقولوا سحرٌ مستمرّ* ﴾[1].

٢ـ وروىٰ رحمه الله قال: أخبرنا أحمد بن محمّد بن سعيد قال: حدّثنا علي بن الحسن [الحسين] التيملي قال: حدّثني عمرو بن عثمان عن الحسن بن محبوب عن عبد الله بن سنان قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فسمعت رجلاً من همدان يقول: إنّ هؤلاء العامّة يعيّرونا ويقولون لنا إنّكم تزعمون أنّ منادياً ينادي من السماء باسم صاحب هذا الأمر. وكان عليه السلام متّكياً فغضب وجلس ثمّ قال:

لا ترووه عنّي وارووه عن أبي ولا حرج عليكم في ذلك، أشهد أنّي [قد] سمعت أبي عليه السلام يقول: والله إنّ ذلك في كتاب الله عزّوجلّ لَبيّنٌ حيث يقول: ﴿ *إن نشأ نُنزِّلْ عليهم من السماء آيةً فظلَّتْ أعناقُهم لها خاضعين* ﴾ فلا يبقىٰ في الأرض

---

(١) غَيبة النعماني: ١٣٨.

يومئذٍ أحدٌ إلّا خضع وذلّت رقبته [لها] فيؤمن أهل الأرض إذا سمعوا الصوت من السماء: ألا إنّ الحقّ في علي أبي طالب عليه السلام وشيعته.

قال: فإذا كان من الغد صعد إبليس في الهواء حتّىٰ يتوارىٰ عن الأرض ثمّ ينادي: ألا إنّ الحقّ في عثمان بن عفّان [وشيعته] فإنّه قُتل مظلوماً فاطلبوا بدمه، قال عليه السلام: فيثبّت اللهُ الّذين آمنوا بالقول الثابت على الحقّ وهو النداء الأوّل، ويرتاب يومئذٍ الّذين في قلوبهم مرض، والمرض والله عدواتنا، فعند ذلك يبرأون [يتبرّأون] منّا ويتناولونا ويقولون إنّ المنادي الأوّل سحر من [سحر] أهل هذا البيت. ثمّ تلا أبو عبد الله عليه السلام قول الله عزّوجلّ: ﴿ *وإن يَرَوا آيةً يُعرضوا ويقولوا سحرٌ مستمرّ* ﴾[1].

٣ـ وعنه أيضاً قال: أخبرنا [حدّثنا] أحمد بن محمّد بن سعيد قال: حدّثنا محمّد بن المفضّل [الفضل] بن إبراهيم وسعدان بن إسحاق بن سعيد وأحمد ابن الحسين بن عبد الملك [الكريم]، ومحمّد بن أحمد بن الحسن القطواني جميعاً عن الحسن بن محبوب عن عبد الله بن سنان مثله سواء بلفظه[2].

إنكار الآيات السماوية:

الآية الكريمة تأتي في سياق الآيات الكريمة المتحدّثة عن معجزة شقّ القمر للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بمكّة قبل الهجرة إثر طلبِ المشركين منه ذلك، وهي من المعاجز الّتي اتّفق أهل الحديث والمفسّرون علىٰ قبولها كما قيل[3]،

(١) غَيبة النعماني: ١٣٧.
(٢) المصدر السابق: ١٣٨.
(٣) راجع تفسير الميزان: ١٩ / ٥٥ ـ ٥٦.

والآية تتحدّث عن انكار المعاندين لصدق المعجزة ونسبها إلى السحر[1]، وتطبيق الآية علىٰ موقف المعاندين قبال معجزة النداء السماوي باسم المهديّ الموعود قبيل خروجه عجّل الله فرجه يشير إلىٰ سعي المعاندين والكافرين لتلافي آثار النداء السماوي باصطناع نداء يشابهه بعض الشيء لإثارة الفتنة بين المسلمين. ولعلّ القيام بهذا النداء الشيطاني يكون بالاستعانة بأجهزة الاتّصالات المتطوّرة، وإمكانية ذلك مفهومة في ظلّ التطوّر العلمي الحاصل اليوم، وإن كان هذا النداء الشيطاني عاجز عن إبطال النداء السماوي الإعجازي إلّا أنّه يحدث بلبلة فيستجيب له الّذين في قلوبهم مرض، وفي ذلك إكمال لعملية الغربلة والمحق. وعلىٰ أيّ حال فالآية ـ استناداً إلى أحاديث تطبيقها على النداء السماوي ـ تدلّ أيضاً علىٰ النصرة الإلهيّة للتحرّك المهدوي.

خامساً: طمس وجوه الأعداء:

قوله تعالىٰ:

﴿ *يَاأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا* ﴾[2]

روىٰ محمّد بن إبراهيم النعماني في الغَيبة عن ابن محبوب عن محمّد بن يعقوب الكليني [عن] علي بن إبراهيم عن أبيه. وحدّثني محمّد بن يحيىٰ بن عمران عن [قال: حدّثنا] أحمد بن محمّد بن عيسىٰ وحدّثني [ثنا] علي بن محمّد وغيره عن سهل بن زياد جميعاً عن الحسن بن محبوب.

---

(١) راجع تفسير الميزان: ١٩ / ٥٥ ـ ٥٦.
(٢) النساء: ٤٧.

وحدّثنا عبد الواحد بن عبد الله الموصلي عن أبي علي أحمد بن محمّد بن ناشر عن أحمد بن هلال عن الحسن بن محبوب قال: حدّثنا [عن] عمرو بن أبي المقدام عن جابر بن يزيد الجعفي قال:

قال أبو جعفر محمّد بن علي الباقر عليه السلام: ياجابر الزم الأرض فلا تحرّك يداً ولا رجلاً حتّىٰ ترىٰ علامات أذكرها لك إن أدركتها: أوّلها اختلاف ولد فلان (بني العبّاس) وما أراك تدرك ذلك ولكن حدّث به من بعدي. [و] منادٍ ينادي من السماء، ويجيئكم الصوت من ناحية دمشق بالفتح. وتخسف قرية من قرى الشام تسمّى الجابية. وتسقط طائفة من مسجد دمشق الأيمن. ومارقة تمرق من ناحية الترك فيعقبها هرج الروم. ويستقبل إخوان الترك حتّىٰ ينزلوا الجزيرة. وتستقبل مارقة الروم حتّىٰ ينزلوا الرملة. فتلك السنة ياجابر فيها اختلاف كثير في كل ناحية [أرض] من ناحية المغرب.

فأوّل أرض تخرب أرض الشام (ثمّ) يختلفون عند ذلك علىٰ ثلاث رايات: راية الأصهب، وراية الأبقع، وراية السفياني، فيلتقي السفياني بالأبقع فيقتتلون، فيقتله السفياني ومن معه [تبعه]، ثمّ يقتل الأصهب، ثمّ لا يكون له همة إلّا الإقبال نحو العراق، ويمرّ جيشه بقرقيسا فيقتتلون بها، فيقتل من الجبّارين مائة ألف، ويبعث السفياني جيشاً إلى الكوفة وعدّتهم سبعون ألفاً، فيصيبون من أهل الكوفة قتلاً وصلباً وسبياً، فبينما هم كذلك إذ أقبلت رايات من نحو خراسان تطوي المنازل طيّاً حثيثاً ومعهم نفر من أصحاب القائم عليه السلام، و [ثمّ] يخرج رجل من موالي أهل الكوفة في ضعفاء فيقتله أمير جيش السفياني بين الحيرة والكوفة، ويبعث السفياني بعثاً إلى المدينة فيفرّ [فينفر] المهديّ عليه السلام منها إلى مكّة، فيبلغ [أمير] جيش السفياني بأنّ

المهديّ عليه السلام قد خرج إلى مكّة، فيبعث جيشاً على أثره فلا يدرك حتّى يدخل مكّة خائف يترقب على سنّة موسى بن عمران عليه السلام.

قال: وينزل [أمير] جيش السفياني البيداء فينادي منادٍ من السماء: يابيداء أبيدي القوم، فيخسف بهم فلا يفلت منهم إلّا ثلاثة نفر يحول الله وجوههم إلى أقفيتهم وهم من كلب، وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿ *ياأيها الّذين أوتوا الكتاب آمِنوا بما نزّلنا مصدّقاً لما معكم من قبلِ أن نطمِس وجوهاً فنردّها على أدبارها*... الآية ﴾ قال: والقائم عليه السلام يومئذٍ بمكّة قد أسند ظهره إلى البيت الحرام مستجيراً [به] فينادي: ياأيّها الناس إنّا نستنصر الله فمن أجابنا من الناس فإنّا أهل بيت نبيّكم [محمّد] ونحن أولى الناس بالله وبمحمّد صلى الله عليه وآله فمن حاجّني في آدم فأنا أولى الناس بآدم عليه السلام، ومن حاجّني في نوح فأنا أولى الناس بنوح عليه السلام، ومن حاجّني في إبراهيم فأنا أولى الناس بإبراهيم عليه السلام، ومن حاجّني في محمّد فأنا أولى الناس بمحمّد صلى الله عليه وآله، ومن حاجّني في النبيّين فأنا أولى الناس بالنبيّين.

أليس الله يقول في محكم كتابه: ﴿ *إِنَّ اللهَ اصطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إبراهيمَ وَآلَ عِمرانَ عَلَى العَالَمِين * ذُرِّيَّةً بَعضُها مِن بَعضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيم* ﴾[1]؟ فأنا بقيةٌ من آدم وذخيرةٌ من نوح ومصطفىً من إبراهيم وصفوةٌ من محمّد [صلوات الله عليهم أجمعين] ألا ومن حاجّني في كتاب الله فأنا أولى الناس بكتاب الله، ألا ومَن حاجّني في سنّة رسول الله، فأنا أولى الناس بسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله، فأُنشد الله من سمع كلامي اليوم لمّا بلغ الشاهد منكم الغائب، وأسألكم بحقّ الله وحقّ رسوله و [بـ] حقّي فإنّ لي عليكم حقّ القربى من رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا [إلّا] أعنتمونا ومنعتمونا ممّن يظلمنا، فقد أُخفنا وظُلمنا وطُردنا

---

(١) آل عمران: ٣٣ و ٣٤.

من ديارنا وأبنائنا وبُغِيَ علينا ودُفعنا عن حقّنا، وافترىٰ أهل الباطل علينا، فالله الله فينا لا تخذلونا وانصرونا ينصركم الله[١].

الطمس المعنوي والظاهري:

يقول العلّامة الطباطبائي بعد بحث تفسيري للآية الكريمة: فتبيّن ممّا مرّ أنّ المراد بطمس الوجوه في الآية نوع تصرّف إلهي في النفوس يوجب تغيير طباعها من مطاوعة الحقّ وتجنّب الباطل إلى اتّباع الباطل والاحتراز عن الحقّ في باب الإيمان بالله وآياته، كما يؤيّده صدر الآية... وكذا تبيّن أنّ المراد باللعن المذكور فيها المسخ[٢].

الآية الكريمة نازلة في مخاطبة اليهود والاحتجاج عليهم وتحذيرهم من الاصرار على العناد وعدم قبول الحقّ والآيات البالغة، وإنذارهم من اليوم الّذي يتصرّف في نفوسهم بما يؤدّي إلىٰ إدبار فطرتها عن الحقّ عقاباً علىٰ عنادهم. ولعلّ تطبيقها على القضية المهدوية يرتبط بأحد مصاديق هذا التصرّف الإلهيّ الإعجازي نصرة المهديّ الموعود عجّل الله فرجه وإن كان الخسف بالبيداء بجيش السفياني ـ وهو من وقائع الظهور الّتي ذكرتها الكثير من الأحاديث الشريفة ـ هو بحدِّ ذاته من مصاديق النصرة الإلهيّة بالآيات الإعجازية. والمصداق الّذي يذكره الحديث الشريف المتقدّم ـ أي طمس وجوه بعض أفراد جيش السفياني بتحويلها إلى أقفيتها ـ منسجمٌ مع ظاهر الآية، كما هو المستفاد من معنى الطمس الّذي يعني المحو وتحويل الوجوه إلىٰ أدبارها.

---

(١) كتاب الغَيبة للنعماني: ١٤٩.

(٢) تفسير الميزان: ٤ / ٣٦٩.

سادساً: تعريفه بالمجرمين:

قوله تعالىٰ:

﴿يُعرَفُ المُجرِمُونَ بِسِيمَاهُم فَيُؤخَذُ بِالنَّواصِي وَالأقدام﴾ [1]

١ـ روى الشيخ محمّد بن إبراهيم النعماني قال: أخبرنا علي بن أحمد قال: أخبرنا عبد [عبيد] الله بن موسىٰ عن أحمد بن محمّد بن خالد عن أبيه عن محمّد بن سليمان الديلمي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿يُعرَفُ المجرمونَ بسيماهم﴾ قال: الله يعرفهم ولكن [اُ] نزلت في القائم عليه السلام، يعرفهم بسيماهم فيخبطهم بالسيف هو وأصحابه خبطاً[2].

٢ـ وروى الشيخ محمّد بن الحسن الصفّار عن إبراهيم بن هاشم عن سليمان الديلمي (أو عن سليمان) عن معاوية الدهني عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله تبارك وتعالىٰ: ﴿يُعرَفُ المجرمونَ بسيماهم فَيُؤخَذُ بالنواصي والأقدام﴾ فقال: يامعاوية ما يقولون في هذا؟ قلت: يزعمون أنّ الله تبارك وتعالى يعرف المجرمين بسيماهم في القيامة فيأمر بهم فيؤخذ بنواصيهم وأقدامهم فيُلقون في النار.

فقال عليه السلام لي: وكيف يحتاج تبارك وتعالىٰ إلىٰ معرفة خلقٍ أنشأهم وهو خلقهم؟ فقلت: جعلت فداك، وما ذاك [ذلك] ؟ قال: [ذلك] لو قام قائمنا عليه السلام أعطاه الله السّيما فيأمر بالكافر فيؤخذ بنواصيهم وأقدامهم ثمّ تُخبط بالسيف خبطاً[3].

---

(١) الرحمن: ٤١.

(٢) غَيبة النعماني: ٢٤٢، ورواه في تأويل الآيات الظاهرة: ٢ / ٦٣٩ بتفاوتٍ يسير وفيه في آخر الرواية «ما يُعرف به سيماهم أي علاماتهم بأنهم مجرمون».

(٣) بصائر الدرجات: ٣٥٦، ورواه في ص: ٣٥٩ بتفاوت يسير، ورواه الشيخ المفيد في كتاب الاختصاص: ٣٠٤.

٣ـ وأخرج الحافظ القندوزي الحنفي روىٰ عن معاوية بن عمّار عن [جعفر ابن محمّد] الصادق عليه السلام قوله تعالى: ﴿ *يُعرَفُ المجرمونَ بسيماهم فيُؤخَذُ بالنواصي والأقدام* ﴾ قال: إذا قام (قائمنا) يعرف أعداءنا بسيماهم، فيؤخذ بنواصيهم وأقدامهم، يخبطهم هو وأصحابه بالسيف خبطاً[1].

تأتي الآية الكريمة في سياق مجموعة من الآيات المتحدّثة عن أحوال يوم القيامة الكبرىٰ، وقد أشرنا سابقاً إلىٰ وجه تطبيق وقائع هذا اليوم علىٰ وقائع يوم الظهور المهدوي. والمراد بسيماهم علامتهم البارزة في وجوههم[2]، الأمر الّذي يُستفاد منه إلىٰ ظهور علامات مشخّصة لهم يُعرفون بها، وهذا من مصاديق النصرة الإعجازية للإمام المهديّ عجّل الله فرجه ينسجم مع ما تحدّثت عنه الآيات الكريمة الّتي أوردناها في الفصل الثاني من الباب الأوّل وخاصّةً الآية ٥٥ من سورة النور حيث اتّضح دلالتها علىٰ خلق المجتمع الصالح الّذي يقيمه من الكافرين والمنافقين، الأمر الّذي يستلزم معرفتهم لإنهاء كيدهم.

سابعاً: خسف الأرض بالمعاندين:

قوله تعالىٰ:

﴿ *أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ العَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ* ﴾[3]

١ـ روى العيّاشي بإسناده عن إبراهيم بن عمر عمّن سمع أبا جعفر عليه السلام يقول: إنّ عهد نبيّ الله صار عند علي بن الحسين عليه السلام، ثمّ صار عند محمّد بن علي عليه السلام ثمّ

---

(١) ينابيع المودّة: ٤٢٩.

(٢) راجع تفسير الميزان: ١٩ / ١٠٧.

(٣) النحل: ٤٥.

يفعل الله ما يشاء، فالزم هؤلاء، فإذا خرج رجل منهم معه ثلاثمائة رجل ومعه راية رسول الله ﷺ عامداً إلى المدينة حتّىٰ يمر بالبيداء فيقول: هذا مكان القوم الّذين خسف بهم، وهي الآية الّتي قال الله عزّوجلّ: ﴿أفأمِنَ الّذينَ مَكَرُوا السَّيِّئاتِ أن يَخسِفَ اللهُ بِهِمُ الأرضَ أو يَأتيَهُمُ العذابُ مِن حَيثُ لاَ يشعرون * أو يَأخُذَهُم في تَقَلُّبِهِم فَمَا هُم بِمَعجِزِين﴾[1].

٢ـ وروىٰ البحراني في البرهان بإسناده عن جابر الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام في حديث طويل قال له: وإيّاكم وشذاذاً من آل محمّد عليهم السلام فإنّ لآل محمّد علىٰ راية ولغيرهم علىٰ راية، فالزم هؤلاء، وإيّاك ومن ذكرت لك، فإذا خرج رجل منهم معه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً ومعه راية رسول الله ﷺ عامداً إلى المدينة حتّىٰ يمرّ بالبيداء حتّىٰ يقول: هذا مكان القوم الّذين خسف بهم، وهي الآية الّتي قال الله تعالىٰ: ﴿أفأمِنَ الّذين مكروا السيّئاتِ أن يخسِفَ اللهُ بهِمُ الأرضَ أو يأتيَهُمُ العذابُ من حيثُ لا يشعرون * أو يَأخُذَهُم في تَقَلُّبِهِم فَمَا هُم بِمَعجِزِين﴾[2].

٣ـ وروى العيّاشي بإسناده عن ابن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام سئل عن قول الله عزّوجلّ: ﴿أفأمِنَ الّذين مكروا السيّئاتِ أن يخسِفَ اللهُ بهِمُ الأرضَ﴾ قال: هم أعداء الله وهم يمسخون ويقذفون ويسيحون في الأرض[3].

الدلالة على المهديّ الحقيقي بنصرته:

تأتي الآية الكريمة في سياق إنذار وتهديد للّذين يعبدون غير الله سبحانه

---

(١) تفسير العيّاشي: ٢ / ٢٦١.
(٢) تفسير البرهان: ٢ / ٣٧٢.
(٣) تفسير العيّاشي: ٢ / ٢٦١.

ويشرّعون لأنفسهم سنناً يستنّون بها معرضين عن شرائع الله، وكلّها ذنوب يقترفونها استكباراً وغروراً ومكراً بالله ربّهم وبرسله الداعين إلى الأخذ بدين الله ولزوم سبيله(١).

ويُستفاد من الأحاديث الشريفة المطبقة لها أنّ هذا التهديد يقع عملياً بعد ظهور الإمام المهديّ عليه السلام وكتعبيرٍ عن نصرته، ويشكّل دليلاً للناس على أنه هو المهديّ الموعود وعلامة مميّزة له عن سواه عليه السلام كما يصرّح بذلك الحديثان الأوّلان.

ثامناً: نزول عيسى المسيح لنصرته:

قوله تعالىٰ:

﴿ وإن من أهل الكتاب إلّا ليؤمننّ به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴾(٢)

روى علي بن إبراهيم قال: حدّثني أبي عن القاسم بن محمّد عن سليمان ابن داود المنقري عن أبي حمزة عن شهر بن حوشب قال: قال لي الحجّاج بأنّ آيةً في كتاب الله قد أعيتني، فقلت: أيها الأمير أيّةُ آيةٍ هي؟ فقال: قوله: ﴿ وإن من أهل الكتاب إلّا ليؤمننّ به قبل موته ﴾ والله إنّي لآمر باليهودي والنصراني فيضرب عنقه، ثمّ أرمقه بعيني فما أراه يحرّك شفتيه حتىٰ يخمد، فقلت: أصلح الله الأمير ليس على ما تأوّلت، قال: كيف هو؟ قلت: إنّ عيسىٰ ينزل قبل يوم القيامة إلى الدنيا فلا يبقىٰ أهل ملّة يهودي ولا نصراني إلّا آمن

---

(١) راجع تفسير الميزان: ١٢ / ٢٦٢.

(٢) النساء: ١٥٩.

به قبل موته ويصلّي خلف المهديّ، قال: ويحك أنّىٰ لك هذا ومن أين جئت به؟

فقلت: حدّثني به محمّد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، فقال: جئت بها والله من عين صافية[1].

الاتّفاق علىٰ نزوله في عهد المهديّ:

وروى الحديث المتقدّم من علماء السنّة السيوطي في الدرّ المنثور علىٰ ما نقله العلّامة الطباطبائي في بحثه الروائي من الآية قال ﵀:

«وفي الدرّ المنثور: أخرج ابن المنذر عن شهر بن حوشب قال: قال لي الحجّاج: يا شهر آيةٌ من كتاب الله ما قرأتها إلّا اعترض في نفسي منها شيء، قال الله: ﴿ *وإن من أهل الكتاب إلّا ليؤمننّ به قبل موته* ﴾ وإنّي أوتي بالأُسارىٰ فأضرب أعناقهم ولا أسمعهم يقولون شيئاً، فقلت: رفعت إليك علىٰ غير وجهها، إنّ النصراني إذا خرجت روحه ضربته الملائكة من قبله ومن دبره، وقالوا: أي خبيث إنّ المسيح الّذي زعمت أنّه الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة عبد الله وروحه وكلمته، فيؤمن حين لا ينفعه إيمانه، وإنّ اليهودي إذا خرجت نفسه ضربته الملائكة من قبله ومن دبره، وقالوا: أي خبيث إنّ المسيح الّذي زعمت أنّك قتلته عبد الله وروحه، فيؤمن به حين لا ينفعه الإيمان، فإذا كان عند نزول عيسىٰ آمنت به أحياؤهم كما آمنت به موتاهم، فقال: من أين أخذتها؟ فقلت: من محمّد بن علي، قال: لقد أخذتها من معدنها. قال شهر: وأيم الله ما حدّثنيه إلّا أُمّ سلمة، ولكنّي أحببت أن أغيظه.

---

(١) تفسير القمّي: ١ / ١٥٨.

أقول: ورواه أيضاً ملخّصاً عن عبد بن حميد وابن المنذر عن شهر بن حوشب عن محمّد بن علي بن أبي طالب وهو ابن الحنفية والظاهر أنّه روىٰ عن محمّد بن علي، ثمّ اختلف الرواة في تشخيص ابن الحنفية أو الباقر عليه السلام، والرواية ـ كما ترى ـ تؤيّد ما قدّمناه في بيان معنى الآية.

وفيه: أخرج أحمد والبخاري ومسلم والبيهقي في الأسماء والصفات قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم وإمامكم منكم؟

وفيه: أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً يقتل الدجّال، ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويضع الجزية، ويقبض المال، وتكون السجدة واحدة لله ربّ العالمين، واقرأوا إن شئتم: ﴿ *وإن من أهل الكتاب إلّا ليؤمننّ به قبل موته* ﴾ موت عيسىٰ بن مريم. ثمّ يعيدها أبو هريرة ثلاث مرّات.

أقول: والروايات في نزول عيسىٰ عليه السلام عند ظهور المهديّ عليه السلام مستفيضة من طرق أهل السنّة، وكذا من طرق الشيعة عن النبيّ والأئمّة من أهل بيته عليهم الصلاة والسلام[1].

تفسير آية سورة النساء:

نتقل تفسير العلّامة الطباطبائي للآية الكريمة وذيل تفسيره للآية السابقة لها النافية لقتل عيسىٰ عليه السلام وصلبه، قال رحمه الله:

ليس من المستحيل أن يتوفّى الله المسيح ويرفعه إليه ويحفظه، أو يحفظ الله حياته على نحوٍ لا ينطبق على العادة الجارية عندنا، فليس يقصر عن ذلك

(١) تفسير الميزان: ٥ / ١٤٣ ـ ١٤٤.

سائر ما يقتصّه القرآن الكريم من معجزات عيسى نفسه في ولادته وحياته بين قومه، وما يحكيه من معجزات إبراهيم وموسىٰ وصالح وغيرهم، فكلّ ذلك يجري مجرىً واحداً يدلّ الكتاب العزيز علىٰ ثبوتها دلالةً لا مدفع لها إلّا ما تكلّفه بعض الناس من التأويل تحذّراً من لزوم خرق العادة وتعطّل قانون العلّية العامّ، وقد مرّ في الجزء الأوّل من هذا الكتاب استيفاء البحث عن الإعجاز وخرق العادة.

بقاء عيسىٰ عليه السلام حيّاً:

وبعد ذلك كلّه فالآية التالية لا تخلو عن إشعارٍ أو دلالةٍ على حياته عليه السلام وعدم توفّيه بعد.

قوله تعالىٰ: ﴿ *وإن من أهلِ الكِتَابِ إلّا لَيُؤمِنَنَّ بِهِ قَبلَ مَوتِهِ وَيَومَ القِيامةِ يَكُونُ عَلَيهِم شَهِيداً* ﴾. «إن» نافية والمبتدأ محذوف يدلّ عليه الكلام في سياق النفي، والتقدير : وإن أحد من أهل الكتاب إلّا ليؤمننّ، والضمير في قوله «به» وقوله «يكون» راجع إلىٰ عيسىٰ، وأمّا الضمير في قوله «قبل موته» ففيه خلاف.

فقد قال بعضهم: إنّ الضمير راجع إلى المقدّر من المبتدأ وهو أحد، والمعنىٰ: وكلّ واحد من أهل الكتاب يؤمن قبل موته بعيسىٰ، أي يظهر له قبيل الموت عند الاحتضار أنّ عيسى كان رسول الله وعبده حقّاً وإن كان هذا الإيمان منه إيماناً لا ينتفع به، ويكون عيسىٰ شهيداً عليهم جميعاً يوم القيامة سواء آمنوا به إيماناً ينتفع به أو إيماناً لا ينتفع به كمن آمن به عند موته.

ويؤيّده أنّ إرجاع ضمير «قبل موته» إلىٰ عيسى يعود إلى ما ورد في بعض الأخبار أنّ عيسى حيٌّ لم يمت، وأنّه ينزل في آخر الزمان فيؤمن به أهل

الكتاب من اليهود والنصارىٰ، وهذا يوجب تخصيص عموم قوله: ﴿ *وإن من أهل الكتاب* ﴾ من غير مخصّص، فإنّ مقتضى الآية على هذا التقدير أن يكون يؤمن بعيسى عند ذلك النزول من السماء الموجودون من أهل الكتاب دون المجموع منهم، ممّن وقع بين رفع عيسى ونزوله فمات ولم يدرك زمان نزوله، فهذا تخصيص لعموم الآية من غير مخصّص ظاهر.

وقد قال آخرون: إنّ الضمير راجع إلىٰ عيسىٰ عليه السلام والمراد به إيمانهم به عند نزوله في آخر الزمان من السماء، استناداً إلى الرواية كما سمعت.

هذا ما ذكروه، والّذي ينبغي التدبر والإمعان فيه هو أنّ وقوع قوله ﴿ *ويومَ القيامةِ يكونُ عليهِم شهيداً* ﴾ ظاهرٌ في أنّ عيسىٰ شهيدٌ علىٰ جميعهم يوم القيامة كما أنّ جميعهم يؤمنون به قبل الموت، وقد حكىٰ سبحانه قول عيسىٰ في خصوص هذه الشهادة علىٰ وجه خاصّ، فقال عنه: ﴿ *وَكُنتُ عَلَيهِم شَهِيداً مَّا دُمتُ فِيهِم فَلَمَّا تَوفَّيتَنِي كُنتَ أنتَ الرَّقيبَ عَلَيهِم وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ شَهِيد* ﴾[1].

فقصّر عليه السلام شهادته في أيّام حياته فيهم قبل توفّيه، وهذه الآية ـ أعني قوله: ﴿ *وإن من أهل الكتاب... إلخ* ﴾ ـ تدلّ على شهادته علىٰ جميع من يؤمن به، فلو كان المؤمن به هو الجميع كان لازمه أن لا يتوفّىٰ إلّا بعد الجميع، وهذا ينتج المعنى الثاني، وهو كونه عليه السلام حيّاً بعد، ويعود إليهم ثانياً حتىٰ يؤمنوا به. نهاية الأمر أن يقال: إنّ مَن لا يدرك منهم رجوعه إليهم ثانياً يؤمن به عند موته، ومَن أدرك ذلك آمن به إيماناً اضطراراً أو اختياراً.

على أنّ الأنسب بوقوع هذه الآية: ﴿ *وإن من أهل الكتاب إلّا ليؤمننّ به* ﴾ فيما وقع فيه من السياق ـ أعني بعد قوله تعالى: ﴿ *وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبّه*

(١) المائدة: ١١٧.

لهم ـ إلى أن قال: ـ *بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً* ﴾ ـ أن تكون الآية في مقام بيان أنّه لم يمت وأنّه حيٌّ بعد إذ لا يتعلّق ببيان إيمانهم الاضطراري وشهادته عليهم في غير هذه الصورة غرضٌ ظاهر.

فهذا الّذي ذكرناه يؤيّد كون المراد بإيمانهم به قبل الموت إيمانهم جميعاً به قبل موته عليه السلام.

لكن هاهنا آياتٌ أُخر لا تخلو من إشعار ذلك كقوله تعالى: ﴿ *إذ قَالَ اللهُ يَاعيسىٰ إنّي مُتوفّيك وَرَافِعُكَ إليّ وَمُطهِّرك مِنَ الّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوقَ الّذِينَ كَفَرُوا إلىٰ يَومِ القِيَامَةِ* ﴾ [1] حيث يدلّ على أنّ من الكافرين بعيسىٰ من هو باقٍ إلىٰ يوم القيامة، وكقوله تعالىٰ: ﴿ *وَقَولِهِم قُلُوبُنا غُلفٌ بَل طَبَعَ اللهُ عَلَيهَا بِكُفرِهِم فَلا يُؤمِنُونَ إلّا قَلِيلاً* ﴾ [2] حيث إنّ ظاهره أنّه نقمة مكتوبة عليهم، فلا يؤمن مجتمعهم بما هو مجتمع اليهود أو مجتمع أهل الكتاب إلىٰ يوم القيامة.

بل ظاهر ذيل قوله ﴿ *وكنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم فلمّا توفّيتني كنتَ أنت الرقيبَ عليهم* ﴾ حيث إنّ ذيله يدلّ علىٰ أنهم باقون بعد توفّي عيسىٰ عليه السلام.

لكنّ الإنصاف أنّ الآيات لا تنافي ما مرّ فإنّ قوله ﴿ *وجاعل الّذين اتّبعوك فوق الّذين كفروا إلىٰ يوم القيامة* ﴾ لا يدلّ علىٰ بقائهم إلىٰ يوم القيامة علىٰ نعت أنهم أهل الكتاب.

وكذا قوله تعالى: ﴿ *بل طبع الله عليها بكفرهم... الآية* ﴾ إنّما يدلّ على أنّ الإيمان لا يستوعبهم جميعاً، ولو آمنوا في حينٍ من الأحيان شمل الإيمان منهم قليلاً من كثير. على أنّ قوله ﴿ *وإن من أهل الكتاب إلّا لَيُؤمِنَنَّ به قبلَ موتِه* ﴾

---

(١) آل عمران: ٥٥.

(٢) النساء: ١٥٥.

لو دلّ علىٰ إيمانهم به قبل موته فإنّما يدلّ علىٰ أصل الإيمان، وأمّا كونه إيماناً مقبولاً غير اضطراري فلا دلالة له علىٰ ذلك.

وكذا قوله ﴿ *فلما توفّيتني كنتَ أنت الرقيب عليهم*... الآية ﴾ مرجع الضمير فيه إمّا هو الناس دون أهل الكتاب أو النصارىٰ بدليل قوله تعالىٰ في صدر الكلام: ﴿ *وَإِذ قَالَ اللهُ يَاعِيسى بنَ مَريمَ أأنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُوني وَأُمّيَ إلـٰهَينِ مِن دُونِ اللهِ*...الآية ﴾[1]. ويدلّ علىٰ ذلك أيضاً أنه عليه السلام من أُولي العزم من الرسل مبعوثٌ إلى الناس كافّة، وشهادته علىٰ أعمالهم تعمّ بني إسرائيل والمؤمنين به وغيرهم.

وبالجملة، الّذي يفيده التدبّر في سياق الآيات وما ينضمّ إليها من الآيات المربوطة بها هو أنّ عيسىٰ عليه السلام لم يتوفّ بقتلٍ أو صلبٍ ولا بالموت حتف الأنف علىٰ نحو ما نعرفه من مصداقه ـ كما تقدّمت الإشارة إليه ـ وقد تكلّمنا بما تيسّر لنا من الكلام في قوله تعالىٰ: ﴿ *ياعيسىٰ إنّي متوفّيك ورافعُك إليّ* ﴾ في الجزء الثالث من هذا الكتاب.

ومن غريب الكلام في هذا الباب ما ذكره الزمخشري في الكشّاف أنّه يجوز أن يراد أنّه لا يبقىٰ أحد من جميع أهل الكتاب إلّا ليؤمننّ به علىٰ أنّ الله يحييهم في قبورهم في ذلك الزمان، ويعلّمهم نزوله، وما أنزل له، ويؤمنون به حين لا ينفعهم إيمانهم، وهذا قولٌ بالرجعة[2].

تصحيح انحرافات النصرانية وقتل الدجّال:

وكما تقدّم، فإنّ الأحاديث الشريفة المتحدّثة من نزول عيسىٰ مستفيضة من طرق الفريقين بل متواترة، كما صرّح بذلك الكشميري من علماء السنّة في

(١) المائدة: ١١٦.

(٢) تفسير الميزان: ٥ / ١٣٤ ـ ١٣٦.

كتابه «التصريح»[١] الّذي ألّفه لإثبات تواتر الأحاديث الواردة بشأن نزول عيسىٰ عند خروج المهديّ عليه السلام. وهي مروية في صحاح أهل السنّة الستة وغيرها. وهي تصرّح بأنّ في نزوله علىٰ نبيّنا وآله وعليه السلام هو لنصرة المهديّ كما يُفهم من رفضه التقدّم للصلاة عندما يطلب منه المهديّ ذلك وتقديمه الإمام المهديّ وصلاته خلفه، وقيامه بكسر الصليب وقتل الدجّال ـ أو المشاركة في قتله طبق روايات أُخرىٰ ـ وغير ذلك من الأعمال الّتي يُفهم منها إنهاء انحرافات النصرانية وخاصّةً فيما يرتبط بقولهم بتأليهه عليه السلام كما سنرىٰ في الآية اللاحقة.

والتدبّر في الآية الكريمة يفيد بأنّ من غير الممكن تفسيرها بما ينسجم مع منطوقها وسياقها إلّا علىٰ وفق القول بنزوله في عصر المهديّ عليه السلام [٢]. لذا يمكن القول بأنّها من الآيات الكريمة المتحدّثة عن وقائع عصر ظهور المهديّ علىٰ نحو التنزيل ودلالة ظاهرها وليس علىٰ نحو التأويل أو التطبيق والجري.

رجوع النصارىٰ عن تأليه عيسىٰ:

قوله تعالىٰ: ﴿ *إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ* ﴾[٣].

روى السيوطي في الدرّ المنثور قال: وأخرج أبو الشيخ عن ابن عبّاس أنّه قال في الآية: عبيدك قد استوجبوا العذاب بمقالتهم، ﴿ *وإن تغفر لهم* ﴾ أي من

---

(١) هو الشيخ محمّد أنور شاه الكشميري وكتابه هو «التصريح بما تواتر في نزول المسيح» وتوجد كتب أُخرىٰ ألّفها علماء أهل السنّة في إثبات تواتر هذه الأحاديث.

(٢) راجع تفسير الميزان: ٥ / ١٣٤ ـ ١٣٧ وقد نقلنا تفسيره لها آنفاً.

(٣) المائدة: ١١٨.

تركت منهم ومُدَّ في عمره حتىٰ أحبط من السماء إلى الأرض بقتل الدجّال، فنزلوا عن مقالتهم، ووحدّوك وأقرّوا أنّا عبيد، وإن تغفر لهم حيث رجعوا عن مقالتهم ﴿ فإنّك أنتَ العزيزُ الحَكيم ﴾ (١).

تاسعاً: نصرته بالملائكة البدريين:

قوله تعالىٰ:

﴿ بَلَىٰ إِن تَصبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأتُوكُم مِن فَورِهِم هَٰذَا يُمدِدكُم رَبُّكُم بِخَمسَةِ آلافٍ مِنَ المَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ (٢)

روى العيّاشي في تفسيره عن ضريس بن عبد الملك عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: إنّ الملائكة الّذين نصروا محمّداً صلى الله عليه وآله يوم بدرٍ في الأرض ما صعدوا بعد ولا يصعدون حتىٰ ينصروا صاحب هذا الأمر، وهم خمسة آلاف (٣).

ومعلومٌ أنّ الآية الكريمة تتحدّث عن أحد مصاديق النصرة الإلهيّة الغَيبية لخاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله في معركة بدر الكبرىٰ (٤).

وقد يُستفاد من تطبيقها علىٰ نصرة المهديّ الموعود عجّل الله فرجه بعد ظهوره علىٰ أن تحرّك الملائكة لنصرته يكون في خضّم معاركه ضدّ الظالمين وفي المواطن الّتي تشتدّ فيها المعارك وتظهر الحاجة للمدد الغيبي كما هو المستفاد من صدر الآية: ﴿ بلىٰ إن تصبروا وتتّقوا ويأتوكم من فورهم هذا ﴾.

---

(١) الدرّ المنثور: ٢ / ٣٥٠.

(٢) آل عمران: ١٢٥.

(٣) تفسير العيّاشي: ١ / ١٩٧.

(٤) راجع تفسير الميزان: ٤ / ٨.

عاشراً: نصرته بأصحاب أُولي بأسٍ شديد:

قوله تعالىٰ:

﴿ قَالَ لَو أَنَّ لِي بِكُم قُوَّةً أَو آوِي إِلىٰ رُكنٍ شَدِيد ﴾ (١)

١ـ روى العيّاشي في تفسيره بإسناده عن صالح بن سعيد عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله: ﴿ لو أنّ لي بكم قوّةً أو آوي إلىٰ ركنٍ شديد ﴾ قال: قوّة القائم عليه السلام، والركن الشديد الثلثمائة وثلاثة عشر أصحابه (٢).

٢ـ وروى الشيخ الصدوق بإسناده عن أبي بصير قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: ما كان قول لوط عليه السلام لقومه: ﴿ لو أنّ لي بكم قوّةً أو آوي إلىٰ ركنٍ شديد ﴾ إلّا تمنّياً لقوّة القائم عليه السلام، ولا ذكر إلّا شدّة أصحابه، فإنّ الرجل منهم ليعطىٰ قوّة أربعين رجلاً، وإنّ قلبه لأشدّ من زبر الحديد، ولو مرّوا بجبال الحديد لقلعوها، ولا يكفون سيوفهم حتىٰ يرضى الله عزّ وجلّ (٣).

٣ـ وروى العيّاشي في تفسيره بإسناده عن حمران عن أبي جعفر عليه السلام: كان يقرأ: ﴿ بعثنا عليكم عباداً لنا أُولي بأسٍ شديد ﴾ ثمّ قال: هو القائم وأصحابه ﴿ أُولي بأسٍ شديد ﴾ (٤).

٤ـ روى الحافظ القندوزي الحنفي بإسناده قال: عن جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: ما كان قول لوط عليه السلام لقومه: ﴿ لو أنّ لي بكم قوّةً أو آوي إلىٰ ركنٍ شديد ﴾ إلّا تمنّياً لقوّة (القائم المهديّ) وشدّة أصحابه، وهم الركن الشديد، فإنّ الرجل منهم

---

(١) هود: ٨٠.

(٢) تفسير العيّاشي: ٢ / ١٥٦، ورواه القمّي في تفسيره: ١ / ٣٣٥.

(٣) كمال الدين: ٦٧٣.

(٤) تفسير العيّاشي: ٢ / ٢٨١، والآية الكريمة الّتي في الرواية هي ٥ من سورة الإسراء.

يُعطىٰ قوّة أربعين رجلاً، وإنّ قلب رجل أشدّ من زبر الحديد، لو مرّوا بالجبال الحديد لتدكدكت، لا يكفون سيوفهم حتىٰ يرضىٰ الله عزّوجلّ[1].

ركنٌ شديد في تحقيق الأهداف الإلهيّة:

تأتي الآية الكريمة ضمن حكاية القرآن الكريم لقصّة نبيّ الله لوط ﷺ مع قومه واستضعافهم له واستفرادهم به، ومعناها واضح، وقد تقدّم تفسير الآية الكريمة الثانية في الفصل الثامن من هذا الباب.

وواضحٌ من الآية الأُولىٰ أنّ ما تمنّاه نبيّ الله لوط ﷺ هو ما يقدر أن يدفع به شرور الأعداء ويردعهم عن ظلمهم، وتطبيق الوصف علىٰ أنصار المهديّ الموعود عجّل الله فرجه فيفيد أنّهم ركنٌ شديد يدفع الله بهم عنه شرور الأعداء وظلمهم. كما يُستفاد من تطبيق الوصف الوارد في آية سورة الإسراء علىٰ هؤلاء الأنصار أنّ الله يحقّق بهم أهدافه في محق الظالمين وإنهاء افسادهم.

ويصرّح الحديث الثاني من الأحاديث المتقدّمة أنّ القوّة الّتي يتحلّىٰ بها هؤلاء الأنصار هي قوّة ربّانية كما هو المستفاد من قول الإمام الصادق ﷺ: «فإنّ الرجل منهم ليُعطىٰ قوّة أربعين رجلاً». والتفضّل عليهم بهذا العطاء الجزيل هو ثمرةٌ لإخلاصهم في العبودية لله تبارك وتعالىٰ والسعي لرضاه، كما ينبّه لذلك قوله ﷺ: «لا يكفون سيوفهم حتىٰ يرضى الله عزّوجلّ»، فجهادهم في سبيل الله وسعياً لرضاه سبحانه هو نصرةٌ لله تعالىٰ والله ناصرُ من ينصره.

وإضافةً إلى الكفاءة العسكرية يتحلّىٰ أنصار المهديّ أرواحنا فداه بصفاتٍ أُخرىٰ مهمّة، فهم «النجباء والقضاة والحكّام والفقهاء في الدين، يمسح بطونهم

---

(١) ينابيع المودّة: ٤٢٤.

وظهورهم فلا يشتبه عليهم حُكم» كما ورد في الحديث العاشر من الأحاديث الواردة في تطبيق الآية اللاحقة، أي أنّهم عونٌ له عليه السلام في تحقيق أهدافه الإلهيّة في مختلف المجالات.

الحادي عشر: الإتيان بأصحابه بصورة إعجازية:

قوله تعالى:

﴿فَاستَبِقُوا الخَيراتِ أينَمَا تَكُونُوا يأتِ بِكُمُ اللهُ جَميعاً﴾ (١)

١ـ روى النعماني في غَيبته مسنداً عن الإمام الباقر عليه السلام ضمن حديثٍ قال: قال أبو جعفر عليه السلام: والله لكأني أنظر إلى القائم ـ عليه السلام ـ وقد أسند ظهره إلى الحجر ثمّ ينشد الله حقّه، ثمّ يقول: ياأيّها الناس من يحاجّني في الله فأنا أولى بالله، أيّها الناس من يحاجّني في آدم فأنا أولى بآدم عليه السلام، (يا) أيّها الناس من يحاجّني في نوح فأنا أولى بنوح عليه السلام، أيّها الناس من يحاجّني في إبراهيم فأنا أولى بإبراهيم عليه السلام، يا أيّها الناس من يحاجّني في موسىٰ فأنا أولى بموسىٰ عليه السلام، أيّها الناس من يحاجّني في عيسىٰ فأنا أولى بعيسىٰ عليه السلام، أيّها الناس من يحاجّني في رسول الله [محمّد] فأنا أولى برسول الله [بمحمّد] صلى الله عليه وآله، أيّها الناس من يحاجّني في كتاب الله فأنا أولى بكتاب الله، ثمّ ينتهي إلى المقام فيصلّي ركعتين وينشد الله حقّه.

ثمّ قال أبو جعفر عليه السلام: هو والله [المضطرّ في كتاب الله] في قوله: ﴿أمّن يُجيبُ المضطرّ إذا دعاه ويَكشفُ السوءَ ويجعلُكم خلفاءَ الأرض﴾ (٢) فيكون أوّل

---

(١) البقرة: ١٤٨.

(٢) النمل: ٦٢.

من يبايعه جبريل ثمّ الثلاثمائة والثلاثة عشر رجلاً، فمن كان ابتلي بالمسير وافى [وافاه] ومن لم يبتلِ بالمسير فُقِدَ من فراشه، وهو قول أميرالمؤمنين عليه السلام: «هم المفقودون من [عن] فرشهم» [و] ذلك قول الله: ﴿ *فاستبِقوا الخيرات أينما تكونوا يأتِ بكمُ الله جميعاً* ﴾ [قال]: الخيرات الولاية[1].

٢ـ روى الشيخ الطوسي في الغَيبة بسنده الشريف: أبو محمّد المحمّدي رحمه الله عن محمّد بن علي بن تمّام [همّام] عن الحسين بن محمّد القطعي عن علي بن أحمد بن حاتم البزّاز عن محمّد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن عبد الله بن العبّاس في قوله تعالىٰ: ﴿ *وفي السماء رزقكم وما توعَدون فوربّ السماء والأرض إنّه لحقٌّ مثل ما أنكم تنطقون* ﴾[2] قال: قيام القائم عليه السلام، ومثله: ﴿ *أينما تكونوا يأتِ بكمُ الله جميعاً* ﴾ قال: أصحاب القائم عليه السلام يجمعهم الله في يومٍ واحد[3].

أنصاره الأُمة المعدودة:

وروىٰ رحمه الله أيضاً عن الفضل بن شاذان عن محمّد بن علي عن وهب بن حفص عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام يقول: كان أميرالمؤمنين عليه السلام يقول: لا يزال الناس ينقصون حتىٰ لا يُقال (الله)، فإذا كان ذلك ضرب يعسوب الدين بذنبه، فيبعثُ الله قوماً من أطرافها، يجيئون قزعاً كقزع الخريف. والله إني لأعرفهم وأعرف أسماءهم وقبائلهم واسم أميرهم، وهم قومٌ يحملهمُ الله كيف شاء، من القبيلة الرجل والرجلين ـ حتىٰ بلغ تسعة ـ فيتوافون من الآفاق ثلاثمائة وثلاثة

(١) غَيبة النعماني: ١٨١.
(٢) الذاريات: ٢٢ و٢٣.
(٣) غَيبة الطوسي: ١١٠.

عشر رجلاً عدّة أهل بدر، وهو قول الله: ﴿ *أينما تكونوا يأتِ بكمُ اللهُ جميعاً إنّ اللهَ علىٰ كلّ شيءٍ قدير* ﴾ حتّىٰ أنّ الرجل ليحتبي فلا يحُلُّ حبوتَهُ حتّىٰ يبلّغَهُ اللهُ ذلك[1].

أنصاره السبّاقون للالتزام بالولاية:

١ـ وروى الشيخ الكليني ـ عليه الرحمة ـ في روضة الكافي عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن منصور بن يونس عن إسماعيل بن جابر عن أبي خالد عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عزّوجلّ: ﴿ *فاستبِقوا الخيرات أينما تكونوا يأتِ بكمُ اللهُ جميعاً* ﴾ قال: الخيرات: الولاية، وقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿ *أينما تكونوا يأتِ بكمُ اللهُ جميعاً* ﴾ يعني أصحاب القائم عليه السلام الثلاثمائة والبضعة عشر رجلاً، قال: وهم والله الأُمّة المعدودة، قال: يجتمعون والله في ساعةٍ واحدة قزعٌ كقزع الخريف[2].

٢ـ وروى الشيخ الصدوق قال: حدّثنا أحمد بن محمّد بن يحيى العطّار رضي الله عنه قال: حدّثنا أبو جعفر عن محمّد بن الحسين بن أبي الخطّاب عن محمّد بن سنان عن أبي خالد القمّاط عن ضريس عن أبي خالد الكابلي عن سيّد العابدين علي بن الحسين عليه السلام قال: المفقودون عن فرشهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً عدّة أهل بدر، فيصبحون بمكّة، وهو قول الله عزّوجلّ: ﴿ *أينما تكونوا يأتِ بكمُ اللهُ جميعاً* ﴾ وهم أصحاب القائم عليه السلام[3].

٣ـ وروى الشيخ النعماني في غَيبته قال: أخبرنا محمّد بن يعقوب الكليني

---

(١) غَيبة الطوسي: ٢٨٤، وكذلك الأُصول الستة عشر: ٦٤.
(٢) الكافي: ٨ / ٣١٣، والقزع: السحاب المتقطّع.
(٣) كمال الدين: ٦٥٤، وقريبٌ منه ما رواه النعماني في غَيبته: ١٦٨ بسندٍ آخر.

أبو جعفر قال: حدّثنا علي بن إبراهيم بن هاشم عن أبيه ومحمّد بن يحيىٰ بن عمران عن أحمد بن محمّد بن عيسىٰ قال: وحدّثني علي بن محمّد وغيره عن سهل بن زياد عن الحسن بن محبوب قال: وحدّثنا عبد الواحد بن عبد الله الموصلي عن أبي علي أحمد بن محمّد أبي ناشر عن أحمد بن هلال عن الحسن بن محبوب قال: حدّثنا عمر ابن أبي المقدام عن جابر بن يزيد الجعفي قال: قال أبو جعفر عليه السلام ـ في حديث يذكر فيه علامات القائم إلىٰ أن قال: ـ فيجمع الله له أصحابه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، ويجمعهم الله له علىٰ غير ميعاد قزعٌ كقزع الخريف، وهم ياجابر الآية الّتي ذكرها [الله] في كتابه: ﴿ *أينما تكونوا يأتِ بكمُ اللهُ جميعاً إنّ اللهَ علىٰ كلّ شيءٍ قدير* ﴾ فيبايعونه بين الركن والمقام، ومعه عهدٌ من رسول الله صلى الله عليه وآله وقد توارثته الأبناء عن الآباء[1].

٤ـ وروى الشيخ الصدوق قال: حدّثنا محمّد بن علي ماجيلويه رضي الله عنه قال: حدّثنا عمّي محمّد بن أبي القاسم عن أحمد بن أبي عبد الله الكوفي عن أبيه عن محمّد بن سنان عن المفضّل بن عمر قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: لقد نزلت هذه الآية في المفتقدين من أصحاب القائم عليه السلام قوله عزّوجلّ: ﴿ *أينما تكونوا يأتِ بكمُ اللهُ جميعاً* ﴾ إنّهم ليفتقدون عن في فرشهم ليلاً فيصبحون بمكّة، وبعضهم يسير في السحاب يعرف باسمه واسم أبيه وحليته ونسَبه. قال: فقلت: جعلت فداك أيّهم أعظم إيماناً؟ قال: الّذي يسير في السحاب نهاراً[2].

---

(١) غَيبة النعماني: ٢٧٩، وروىٰ قريبٌ منه العيّاشي في تفسيره: ١ / ٦٤، كما رواه الشيخ المفيد في كتابيه الاختصاص: ٢٥٥ والإرشاد: ٣٥٩، والطوسي في الغَيبة: ٢٦٩. كما رواه من علماء أهل السنّة ابن الصبّاغ المالكي في الفصول المهمّة: ٣٠١ والمقدسي الشافعي في عقد الدرر: ٤٩، والحافظ القندوزي الحنفي في ينابيع المودّة: ٤٢١.

(٢) كمال الدين: ٦٧٢.

٥ ـ وروى العيّاشي في تفسيره عن أبي سمينة عن مولىً لأبي الحسن الرضا عليه السلام قال: سألت أبا الحسن عليه السلام عن قوله: ﴿ *أينما تكونوا يأتِ بكمُ اللهُ جميعاً* ﴾، قال: وذلك والله أنّ لو قد قام قائمنا جمع الله إليه شيعتنا من جميع البلدان[1].

أهل الإخلاص:

وروى الشيخ الخزّاز في كفاية الأثر والشيخ الصدوق في كمال الدين واللفظ له قال: حدّثنا محمّد بن أحمد الشيباني رضي الله عنه قال: حدّثنا محمّد بن أبي عبد الله الكوفي عن سهل بن زياد الآدمي عن عبد العظيم بن عبد الله الحسني قال: قلت لمحمّد بن علي بن موسى عليهم السلام: إنّي لأرجو أن تكون القائم من أهل بيت محمّد الّذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئتْ ظلماً وجوراً، فقال عليه السلام: ما منّا إلّا وهو قائم بأمر الله عزّوجلّ وهادٍ إلىٰ دين الله، ولكنّ القائم الّذي يطهّر الله به الأرض من أهل الكفر والجحود ويملأها عدلاً وقسطاً هو الّذي تخفىٰ على الناس ولادته ويغيب عنهم شخصه، ويحرم عليهم تسميته، وهو سميُّ رسول الله صلى الله عليه وآله وكنيّه، وهو الّذي تطوىٰ له الأرض، ويذلّ له كلّ صعب، [و]يجتمع إليه من أصحابه عدّة أهل بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً من أقاصي الأرض، وذلك قول الله عزّوجلّ: ﴿ *أينما تكونوا يأتِ بكمُ اللهُ جميعاً إنّ الله علىٰ كلّ شيءٍ قدير* ﴾ فإذا اجتمعت له هذه العدّة من أهل الإخلاص أظهر الله أمره، فإذا كمل له العقد وهو عشرة آلاف رجل خرج بإذن الله عزّوجلّ، فلا يزال يَقتل أعداء الله حتّىٰ يرضى الله عزّوجلّ[2].

---

(١) تفسير العيّاشي: ١ / ٦٦.

(٢) كمال الدين: ٣٧٧، كفاية الأثر: ٢٧٧.

الفقهاء، النجباء، الحكّام والقضاة المسددون:

وروى الشيخ أبو جعفر الطبري في كتاب دلائل الإمامة قال: حدّثني أبو الحسين محمّد بن هارون قال: حدّثنا أبو هارون [بن] موسىٰ بن أحمد رحمه الله قال: حدّثنا أبو علي الحسن بن أحمد [محمّد] النهاوندي قال: حدّثنا أبو جعفر محمّد بن إبراهيم بن عبـ [ـيـ] ـد الله القمّي القطّان المعروف بابن الخزّاز قال: حدّثنا محمّد بن زياد عن أبي عبد الله الخراساني قال: حدّثنا أبو الحسين عبد الله بن الحسن الزهري قال: حدّثنا أبو حسان سعيد بن جناح عن مسعود [مسعدة] بن صدقة عن أبي بصير عن الإمام الصادق عليه السلام في حديث طويل يتحدّث عن أنصار المهديّ وبلدانهم يطبّق الآية المتقدّمة علىٰ طريقة جمعهم لنصرة المهديّ عندما يخرج ويقول عليه السلام في كفاية الحديث:

«..... [وإنّ أصحاب القائم عليه السلام] يلقىٰ بعضهم بعضاً كأ نّهم بنو أبٍ وأُمٍّ وإن افترقوا افترقوا عشيّاً والتقوا غدوة، وذلك تأويل هذه الآية: ﴿ *فاستبقوا الخيرات أينما تكونوا يأتِ بكمُ اللهُ جميعاً* ﴾.

قال أبو بصير : قلت: جعلت فداك ليس على الأرض يومئذٍ مؤمن غيرهم؟ قال: بلى، ولكن هذه الّتي يخرج الله فيها القائم عليه السلام ، وهم النجباء والقضاة والحكّام والفقهاء في الدين، يمسح بطونهم وظهورهم فلا يشتبه عليهم حُكم[١].

التمسّك بالولاية طريق الدخول في زمرة أنصاره:

تأتي الآية الكريمة في سياق طائفة من الآيات الكريمة النازلة بشأن جعل

---

(١) دلائل الإمامة: ٣٠٧.

الكعبة قبلةً للمسلمين[١]، ومعنىٰ ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ أي سارعوا إليها بالاستباق لأنها وسيلة الفوز والفلاح يوم المعاد. وظاهر الآية الكريمة يشير أنّ الإتيان المقصود فيها هو البعث يوم القيامة للفصل بينهم وظهور ثمار تسابقهم في الخيرات، وقد ورد في أحاديث كثيرة من طرق أهل البيت عليهم السلام أنها بشأن الإتيان بأصحاب المهديّ عليه السلام وفي بعضها من باب التطبيق والجري[٢]. وفي كلا الحالين فإنّ الإتيان هو بصورةٍ إعجازية، وهذا ما تصرّح به الأحاديث المطبقة بلغةٍ أصرح محدّدة بعض الوسائل الإعجازية في جمع هؤلاء الأصحاب في مكّة المكرّمة. ولا يستبعد أن يكون الإتيان ببعضهم طبق قانون الرجعة، خاصةً مع ملاحظة أنّ هؤلاء الأصحاب يمثّلون عصارة وصفوة الخطّ الإيماني علىٰ مدى التأريخ الإسلامي.

وتطبيق وصف «الخيرات» على الولاية ـ كما في الحديث الرابع ـ هو باعتبار أنّ معرفة إمام الزمان عليه السلام والتمسك بولايته هو مفتاح كلّ خير، لأنّه ينقذ من ميتة الجاهلية ويهدي إلى الصراط الإلهيّ المستقيم. ويُستفاد من هذا التطبيق أنّ التمسك بالولاية الحقّة هو طريق الدخول في زمرة أصحاب المهديّ أرواحنا فداه فهم متميّزون بأنّهم أهل الإخلاص التوحيدي النقي الّذي يتمظهر في الذوبان بالولاية الإلهيّة الّتي يمثّلها إمام العصر عليه السلام والتفاني في طاعته.

يُستفاد من الحديث الثاني من الأحاديث المتقدّمة أنّ هذا المظهر من مظاهر النصرة الإلهيّة للمهدي عجّل الله فرجه حتمي الوقوع مثلما أنّ أصل ظهوره حتميّ الوقوع، كما يشير لذلك تطبيق آية الرزق السماوي علىٰ هذا الظهور.

---

(١) راجع تفسير الميزان: ١ / ٣١٧ وما بعدها.

(٢) راجع تفسير الميزان: ١ / ٣٣٤ ـ ٣٣٥.

الفصل الثاني عشر

من خصائص دولة المهديّ الموعود

مدخل:

حدّدت الآيات الكريمة الّتي تطرّقنا لتفسيرها في الفصل الثاني من الباب الأوّل الخصائص العامّة للدولة الإلهيّة العادلة الّتي يقيمها المهديّ الموعود عجّل الله فرجه، مثل: إظهار الإسلام فيها على الدين كلّه وإتمام النور الإلهيّ، وانتشار الأمن والسلام، وإقامة المجتمع الصالح، وعبودية الله وحده لا شريك، وزوال جميع مظاهر الشرك والانحراف، وإقامة القسط والعدل، وغير ذلك.

كما نقلنا في الفصل التاسع من الباب الثاني الأحاديث الواردة علىٰ تطبيق هذه الآيات على الإمام المهديّ ودولته ضمن الحديث عن حتمية ظهوره عليه السلام.

وإضافةً لذلك فقد طبقت الأحاديث الشريفة طائفة من الآيات الكريمة على القضية المهدوية تلقي المزيد من الأضواء علىٰ خصائص عصره ودولته الإلهيّة، فهي تكمّل الصورة الّتي يرسمها القرآن المجيد للدولة الموعودة. ونعرض في هذا الفصل طائفةً من هذه الآيات والأحاديث المطبقة لها مع بعض الإشارات إلىٰ أبرز دلالاتها:

أوّلاً: دولة المهديّ أكمل صور الدولة الإلهيّة:

قوله تعالىٰ:

﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (١)

روى العيّاشي في تفسيره عن زرارة عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالىٰ: ﴿وتلك الأيّام نداولها بين الناس﴾ قال: ما زالَ مُذ خلق الله آدم: دولة لله ودولة لإبليس، فأين دولة الله؟ أما هو إلّا قائمٌ واحد(٢).

تقدّم الحديث عن مدلولات الآية الكريمة ضمن الحديث عن حكمة غَيبة الإمام المهديّ عليه السلام وأسرارها، ونشير هنا إلى دلالة الحديث الشريف علىٰ جريان السنّة الإلهيّة في مداولة الأيّام بين الناس في الأُمّة المحمّدية، وحتمية تشكيل دولة الله الكاملة في نهاية مسيرة هذه الأُمّة، وفي ذيل الحديث إشارة إلىٰ أنّ الدولة الإلهيّة في صورتها الكاملة الشاملة والمعبّرة عن خاتمية وعالمية الشريعة المحمّدية لا تُقام إلّا في عهد المهديّ الموعود المحقّق لجميع أهداف وآمال الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين.

ومفهومٌ أنّ وصف دولة المهديّ بأنّها دولة الله جلّت قدرته يعني اتّصاف هذه الدولة بجميع مميّزات العدالة الإلهيّة وتحقّق جميع قيم السماء في ظلّها.

ثانياً: نزول البركات الإلهيّة في عهده عليه السلام:

قوله تعالىٰ:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ (٣)

---

(١) آل عمران: ١٤٠.

(٢) تفسير العيّاشي: ١ / ١٩٩.

(٣) الأعراف: ٩٦.

روى القطب الراوندي في كتاب الخرائج عن أبي سعيد سهل بن زياد : حدّثنا الحسن بن محبوب ، حدّثنا ابن فضيل ، حدّثنا سعيد الجلّاب عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام أنّ الامام الحسين عليه السلام قال لأصحابه قبل أن يُقتل وضمن حديث طويل عن وقائع قيام القائم عليه السلام والرجعة :

ولتنزلن البركة من السماء إلى الأرض حتّىٰ أنّ الشجرة لتقصف بما يُريد الله فيها من الثمرة وليأكُلُن ثمرة الشتاء في الصيف وثمرة الصيف في الشتاء. وذلك قوله تعالىٰ : ﴿ *ولو أنّ أهل القرىٰ آمنوا واتّقوا لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماء والأرض ولكن كذّبوا* ﴾ ثمّ إنّ الله ليهب شيعتنا كرامةً لا يخفىٰ عليهم شيءٌ في الأرض وماكان فيها ، حتّىٰ أنّ الرجل منهم يريد أن يعلم عِلمَ أهل بيته فيخبرهم بعلم ما يعملون[1].

المصداق الأكمل للدولة المؤمنة:

التدبّر في الآية الكريمة يفيد أن تحقّقها منحصرٌ بدولة الإمام المهديّ عجّل الله فرجه أو علىٰ الأقل تحقّق مصداقها الأكمل في ظلّ هذه الدولة الموعودة ، لأنّ الآية تربط نزول البركات الإلهيّة بهذا الاتّساع بإيمان وتقوىٰ «أهل القرىٰ» ككلّ وليس بإيمان وتقوىٰ بعضهم ، فتحقّقها مشروطٌ بإقامة المجتمع المؤمن الصالح والمتّقي وليس الأفراد الصالحين وحسب ، وإقامة مثل هذا المجتمع منحصرةٌ في ظلّ الدولة المهدوية. لنلاحظ أوّلاً تفسير هذه الآية الكريمة ، قال العلّامة الطباطبائي :

قوله تعالىٰ : ﴿ *ولو أنّ أهل القرىٰ آمنوا واتّقوا لفتحنا عليهم بركاتٍ*... إلى آخر

---

(١) الخرائج : ٢ / ٨٤٨.

الآية ﴾ البركات أنواع الخير الكثير ربما يُبتلى الإنسان بفقده كالأمن والرخاء والصحّة والمال والأولاد وغير ذلك.

وقوله: ﴿ *لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماء والأرض* ﴾ فيه استعارة بالكناية، فقد شبّهت البركات بمجاري تجري منها عليهم كلّ ما يتنعّمون به من نعم الله لكنّها سدت دونهم فلا يجري عليهم منها شيء، لكنّهم لو آمنوا واتقوا لفتحها الله سبحانه، فجرىٰ عليهم منها بركات السماء من الأمطار والثلوج والحرّ والبرد وغير ذلك كلّ في موقعه وبالمقدار النافع منه، وبركات الأرض من النبات والفواكه والأمن وغيرها، ففي الكلام استعارة المجاري لبركات، ثمّ ذكر بعض لوازمه وآثاره وهو الفتح للمستعار له.

وفي قوله: ﴿ *ولو أنّ أهل القرىٰ آمنوا واتّقوا*... الآية ﴾ دلالة علىٰ أنّ افتتاح أبواب البركات مسبب لإيمان أهل القرىٰ جميعاً وتقواهم، أي أنّ ذلك من آثار إيمان النوع الإنساني وتقواه لا إيمان البعض وتقواه، فإنّ إيمان البعض وتقواه لا ينفكّ عن كفر البعض الآخر وفسقه، ومع ذلك لا يرتفع سبب الفساد وهو ظاهر.

وفي قوله: ﴿ *ولكن كذّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون* ﴾ دلالة على أنّ الأخذ بعنوان المجازاة، وقد تقدّم في البيان المذكور آنفاً ما يتبيّن به كيفية ذلك، وأنه في الحقيقة أعمال الإنسان ترد إليه[(١)].

١ ـ يتّضح ممّا تقدّم أن تحقّق المصداق الأكمل لهذه الآية يكون في ظلّ دولة الإمام المهديّ والمجتمع الصالح الّذي يقيمه ﷺ، وهو مجتمع يتحلّىٰ بأعلىٰ درجات الإيمان والتقوىٰ ـ وهما شرطا نزول البركات الإلهيّة الشاملة علىٰ أهل القرى المؤمنة ـ، ومظهر تحلّيه بذلك عبادته المخلصة لله وحده لا شريك، فلا

---

(١) تفسير الميزان: ٨ / ٢٠١.

يمكن تصوّر تحقّق هذه الدرجة العالية من العبادة إلّا بتوفّر أعلىٰ مراتب الإيمان والتقوىٰ.

٢ـ كما يتّضح من تفسير الآية الكريمة أنّ البركات المقصودة خاصّة غير النِعم والبركات العامّة وقد منعت عن الناس بماكانوا يكسبون، وحيث إنّ شرط نزولها لا يتحقّق إلّا في ظلّ الدولة المهدوية، لذا فإنّها من النِعم الّتي لم يألفها الناس قبل ظهور المهديّ عجّل الله فرجه.

٣ـ وواضحٌ من إطلاق الآية أنّ البركات المقصودة عامّة تشمل البركات المادّية والبركات المعنوية، وقد ذكر الحديث الشريف نموذجاً لكلّ نوع، وكلاهما من النِعم الّتي لم يألفها المجتمع الإنساني، كما يشير تطبيق الآيات اللاحقة إلى نماذج أُخرىٰ من البركات المادّية المعنوية.

ثالثاً: إحياء الأرض بالخيرات:

قوله تعالىٰ:

﴿ *وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ المَيْتَةُ أَحيَيْنَاهَا وَأَخرَجنَا مِنهَا حَبّاً فَمِنهُ يَأكُلُون* ﴾[1]

روىٰ السيّد علي بن عبد الحميد في كتاب الغَيبة بإسناده عن الكابلي عن الإمام علي بن الحسين عليهما السلام قال: يقتل القائم عليه السلام من أهل المدينة حتّىٰ ينتهي إلى الأجفر ويصيبهم مجاعةٌ شديدة. قال: فيضجّون، وقد نبتت لهم ثمرةٌ يأكلون منها ويتزوّدون منها، وهو قوله تعالىٰ شأنه: ﴿ *وَآيَةٌ لهمُ الأرضُ الميتة أحييناها*

---

(١) يس: ٣٣.

وأخرجنا منها حبّاً فمنه يأكلون ﴾[١].

وتطبيق الآية الكريمة يتحدّث عن إحدىٰ البركات المادّية الإعجازية الّتي ينصر بها الله جلّت قدرته أولياءه. فيما تطبق مجموعة من الأحاديث الشريفة على النوع الثاني من البركات، وهو بركة إحياء الأرض بالعدل.

رابعاً: إحياء الأرض بالعدل:

قوله تعالىٰ:

﴿ *اعلَمُوا أنَّ اللهَ يُحيي الأرضَ بَعدَ مَوتِها* ﴾[٢]

وقد رويت في تطبيقها على القضية المهدوية عدّة أحاديث، منها:

١ـ روى الشيخ الكليني في الكافي عن أحمد بن مهران عن محمّد بن علي عن موسى بن سعدان عن عبد الرحمن بن الحجّاج عن أبي إبراهيم عليه السلام في قول الله عزّوجلّ: ﴿ *يحيي الأرض بعد موتها* ﴾ قال: ليس يحييها بالقطر، ولكن يبعث الله عزّوجلّ رجالاً فيحيون العدل فتحيي الأرض لإحياء العدل، ولإقامة الحدّ لله أنفع في الأرض من القطر أربعين صباحاً[٣].

٢ـ وعنه عليه السلام عن محمّد بن أحمد بن الصلت عن عبد الله بن الصلت عن يونس بن المفضّل بن صالح عن محمّد الحلبي أنه سأل أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّوجلّ: ﴿ *اعلموا أنّ الله يحيي الأرض بعد موتها* ﴾ قال عليه السلام: العدل بعد الجور[٤].

---

(١) بحار الأنوار: ٥٢ / ٣٨٧.

(٢) الحديد: ١٧.

(٣) الكافي: ٧ / ١٧٤.

(٤) الكافي: ٨ / ٢٦٧.

٣ـ روى الشيخ الصدوق قال: أخبرني علي بن حاتم فيما كتب إليّ قال: حدّثنا حميد بن زياد عن الحسن بن علي بن سماعة عن أحمد بن الحسن الميثمي عن الحسن بن محبوب عن مؤمن الطاق عن سلام بن المستنير عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عزّوجلّ: ﴿ *اعلموا أنّ الله يحيي الأرض بعد موتها* ﴾ قال عليه السلام: يحييها الله عزّوجلّ بالقائم عليه السلام ﴿ *بعد موتها* ﴾ بموتها كفر أهلها والكافر ميّت[1].

٤ـ وروى محمّد بن العباس عن حميد بن زياد عن الحسن بن محمّد بن سماعة عن الحسن بن محبوب عن أبي جعفر الأحول عن سلام بن المستنير عن أبي جعفر عليه السلام في قوله عزّوجلّ: ﴿ *اعلموا أنّ الله يحيي الأرض بعد موتها* ﴾ يعني بموتها كفر أهلها والكافر ميّت، فيحييها الله بالقائم عليه السلام فيعدل فيها فيحيي الأرض ويحيي أهلها بعد موتهم[2].

٥ـ وروى الشيخ الطوسي قال: روى إبراهيم بن سلمة عن أحمد بن مالك الفزاري عن حيدر بن محمّد الفزاري عن عباد بن يعقوب عن نصر بن مزاحم عن محمّد بن مروان الكلبي عن أبي صالح عن ابن عبّاس في قوله تعالى: ﴿ *اعلموا أنّ الله يحيي الأرض بعد موتها* ﴾ يعني يصلح الأرض بقائم آل محمّد عليهم السلام ﴿ *بعد موتها* ﴾ يعني [من] بعد جور أهل هلكتها [مملكتها ﴿] *قد بيّنا لكم الآيات* ﴾ بقائم آل محمّد عليه السلام ﴿ *لَعلَّكُم تَعقِلُون* ﴾[3].

ظهور البركات المعنوية:

ومفهومٌ أنّ سيادة العدل تفتح أبواب ظهور الكثير من البركات المعنوية، ومن نماذجها نشر المعارف التوحيدية وما يرتبط بمقامات أهل الولاية الإلهيّة

---

(١) كمال الدين: ٦٦٨.

(٢) تأويل الآيات الظاهرة: ٢ / ٦٦٣.

(٣) كتاب الغَيبة: ١١٠.

الحقّة، إذ أنّ العدل الحاكم في دولة المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه يوفّر الأوضاع اللازمة لنشر هذه الحقائق، كما يشير لذلك تطبيق الآية اللاحقة وهي:

خامساً: قوله تعالىٰ:

﴿ وَلَتَعلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعدَ حِينٍ ﴾ [1]

فقد روى الكليني في الكافي عن علي بن محمّد عن علي بن العبّاس عن الحسن بن عبد الرحمن عن عاصم بن حميد عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام في قوله عزّوجلّ: ﴿ *قُل مَا أَسأَلُكُم عَلَيهِ مِن أَجرٍ وَمَا أَنَا مِنَ المُتَكَلِّفِينَ * إن هُوَ إلّا ذِكرٌ لِلعَالَمِينَ* ﴾ [2]، قال: هو أميرالمؤمنين عليه السلام، ﴿ *ولتعلمنّ نبأه بعد حين* ﴾ قال: عند خروج القائم عليه السلام [3].

رفع التقية:

وهذه من ثمار زوال حكم التقية بسبب زوال العوامل المسبّبة لها بإقامة العدل، كما يشير لذلك ما رواه الشيخ الصدوق عن الإمام الرضا ـ عليه السلام ـ في تطبيق «الوقت المعلوم» علىٰ يوم ظهور المهديّ، قال: حدّثنا أحمد بن زياد الهمداني رحمه الله قال: حدّثنا علي بن إبراهيم بن هاشم عن أبيه عن علي بن معبد عن الحسين بن خالد قال: قال علي بن موسى الرضا عليه السلام: لا دين لمن لا ورع له، ولا إيمان لمن لا تقية له، وإنّ أكرمكم عند الله أعملكم بالتقية، فقيل له: يابن رسول الله إلى متىٰ؟

(١) ص: ٨٨.
(٢) ص: ٨٦ و ٨٧.
(٣) الكافي: ٨ / ٢٨٧.

قال: إلىٰ يوم الوقت المعلوم، وهو يوم خروج قائمنا، فمن ترك التقية قبل خروج قائمنا فليس منّا.

فقيل له: يابن رسول الله ومَن القائم منكم أهل البيت؟

قال: الرابع من ولدي ابن سيّدة الإماء، يطهّر الله به الأرض من كلّ جور ويقدّسها من كل ظلم، وهو الّذي يشكّ الناس في ولادته، وهو صاحب الغَيبة قبل خروجه، فاذا خرج أشرفت الأرض بنوره، ووضع ميزان العدل بين الناس فلا يظلم أحد أحداً، وهو الّذي تطوىٰ له الأرض ولا يكون له ظلّ، وهو الّذي ينادي منادٍ من السماء باسمه يسمعه جميع أهل الأرض بالدعاء إليه يقول: ألا إنّ حجّة الله قد ظهر عند بيت الله فاتّبعوه، فإنّ الحقّ معه وفيه، وهو قول الله عزّوجلّ: ﴿ *إن نَّشأ نُنزِّل عَليهِم مِنَ السَّماءِ آيةً فَظلَّت أعناقُهُم لَها خَاضِعين* ﴾ [(١)] [(٢)].

سادساً: قتل الإغراءات الشيطانية:

قوله تعالىٰ:

﴿ *قَالَ رَبِّ فأَنظِرني إلى يَومِ يُبعثُونَ * قَالَ فَإنّكَ مِنَ المُنظَرِينَ * إلىٰ يَومِ الوَقتِ المَعلُوم* ﴾ [(٣)]

١ ـ روىٰ أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري قال: أخبرني أبو الحسن علي قال: حدّثني [ثنا] أبو جعفر قال: حدّثنا المظفّر بن جعفر بن المظفّر العلوي قال: حدّثنا جعفر بن محمّد بن مسعود عن أبيه عن علي بن الحسن بن فضّال

(١) الشعراء: ٤.

(٢) كمال الدين: ٣٧١، والأحاديث المصرّحة برفع التقية عند ظهور القائم عليه السلام كثيرة.

(٣) الحِجر: ٣٦ ـ ٣٨.

قال: حدّثني [ثنا] العبّاس بن عامر عن وهب بن جميع مولىٰ إسحاق بن عمّار قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن إبليس قوله: ﴿ *ربِّ فأنظِرْني إلى يومِ يُبعثُونَ * قال فإنّكَ من المنظَرين إلى يومِ الوقتِ المعلوم* ﴾ أيّ يومٍ هو؟ قال: ياوهب أتحسب أنه يوم يبعث الله تعالى الناس؟ [لا] ولكنّ الله عزّوجلّ أنظره إلى يوم يبعث الله عزّوجلّ قائمنا، فاذا بعث الله عزّوجلّ قائمنا فيأخذ بناصيته ويضرب عنقه فذلك يوم الوقت المعلوم[1].

٢ـ ورواه العيّاشي بإسناده عن وهب بن جميع مولى إسحاق بن عمّار قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول إبليس... وذكر الحديث بتفاوتٍ يسير[2].

٣ـ وروي في كتاب الأنوار المضيئة[3] ومنتخبه عن إسحاق بن عمّار أنه سأل الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام عن إنظار الله تعالىٰ إبليس وقتاً معلوماً ذكره في كتابه قال: فإنّك من المنظَرين إلى يوم الوقت المعلوم، فقال عليه السلام: الوقت المعلوم يوم قيام القائم، فإذا بعثه الله وكان في مسجد الكوفة وجاء إبليس حتّىٰ يجثو علىٰ ركبتيه فيقول: ياويلاه من هذا اليوم، فيأخذ بناصيته فيضرب عنقه، فذلك يوم الوقت المعلوم منتهىٰ أجله[4].

تطهير الأرض من الكفر والشرك والمعاصي:

٤ـ وروى السيّد الجليل عليبن طاووس في كتابه سعد السعود قال: فصل فيما نذكره من صحائف إدريس عليه السلام: وجدت هذه الصحف بنسخة

(١) دلائل الإمامة: ٢٤٠.
(٢) تفسير العيّاشي: ٢ / ٢٤٢، وروي أيضاً في تأويل الآيات الظاهرة: ٢ / ٥٠٩.
(٣) كما نقل ذلك العلّامة المجلسي في البحار: ٥٢ / ٣٧٦ عن الأنوار المضيئة.
(٤) منتخب الأنوار المضيئة: ٢٠٣.

عتيقة يوشك أن يكون تاريخها من مائتين من السنين، بخزانة كتب مشهد مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وقد ذهب أوّلها وآخرها، فكان الموجود منها نحو سبعة كرّاساً وقوائمه بقالب ربع الورقة الكبيرة ـ إلىٰ أن قال: ـ فصل فيما نذكره من القائمة الثامنة من الكرّاس الخامس من سؤال إبليس وجواب الله بلفظ ما وجدناه:

﴿ *قال ربِّ فأنظِرْني إلى يوم يُبعثُون* ﴾ قال: لا. ولكنّك من المنظَرين إلىٰ يوم الوقت المعلوم، فإنّه يوم قضيتُ وحتمتُ أنّ أطهّر الأرض ذلك اليوم من الكفر والشرك والمعاصي، وأنتخب لذلك الوقت عباداً لي امتحنت قلوبهم للإيمان، وحشوتها بالروح والإخلاص واليقين والتقوىٰ والخشوع والصدق والحلم والصبر والوقار والشعار والزهد في الدنيا والرغبة فيما عندي بعد الهدىٰ.

وأجعلهم دعاة الشمس والقمر وأستخلفهم في الأرض وأُمكّن لهم دينهم الّذي ارتضيته لهم، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً، يقيمون الصلاة لوقتها، ويؤتون الزكاة لحينها، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر [1].

وأُلقي في ذلك الزمان الأمانة على الأرض فلا يضرّ شيءٌ شيئاً، ولا يخاف شيءٌ من شيء، ثمّ تكون الهوامّ والمواشي بين الناس فلا يؤذي بعضهم بعضاً، وأنزع حمّة كلّ ذي حمّة من الهوامّ وغيرها، وأُذهب سمّ كل ما يلدغ، وأنزل

---

(١) لا يخفىٰ أنّ المقصودين بهذه الأوصاف الكريمة ليسوا المعصومين من أهل بيت النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله بل صفوة أتباعهم وعصارة الجيل المؤمن الّذي أثمرته جهود المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين طوال مسيرة الدعوة المحمّدية قبل فترة الغَيبة وخلالها، وهو الجيل الجدير بوراثة الأرض وتشكيل المجتمع التوحيديّ الصالح الّذي يقوده المهديّ المنتظر. ولعلّ المقصود بالشمس والقمر في قوله: «واجعلهم دعاة الشمس والقمر» هو خطّ محمّد وعليّ صلوات الله عليهما وآلهما أو ما يعبّر عن هذا الخطّ.

بركاتٍ من السماء والأرض، وتزهر الأرض بحسن نباتها، وتخرج كلّ ثمارها وأنواع طيبها... وأُلقي الرأفة والرحمة بينهم، فيتواسون ويقتسمون بالسوية، فيستغني الفقير، ولا يعلو بعضهم على بعض بل يخضع بعضهم لبعض، ويرحم الكبير الصغير ويوقّر الصغير الكبير، ويدينون بالحقّ وبه يعدلون ويحكمون.

أُولئك أوليائي اخترت لهم نبيّاً مصطفىً وأميناً مرتضى، فجعلته لهم نبيّاً ورسولاً وجعلتهم له أولياءَ وأنصاراً، تلك أئمّة اخترتها للنبيّ المصطفىٰ وأميني المرتضىٰ.

ذلك وقتٌ حجبته في علم غيبي ولابدّ أنّه واقع لبيبدك يومئذٍ وخيلك ورجلك وجنودك أجمعين، فاذهب ﴿ *فإنّك من المنظَرين * إلىٰ يومِ الوقتِ المعلوم* ﴾[1].

دور إبليس في غواية البشر:

يقول العلّامة الطباطبائي في تفسير الآية وما قبلها ممّا يرتبط بها: قد تقدّم في قوله تعالىٰ: ﴿ *وَلَقَد خَلَقنَاكُم ثُمّ صَوّرنَاكُم ثُمّ قُلنا لِلملائِكةِ اسجُدُوا لآدَمَ فَسجَدُوا إلّا إبليَس* ﴾[2] أنّهم إنّما أُمروا بالسجدة لنوع الإنسان لا لشخص آدم ﷺ، ولم تكن هذه السجدة تشريفاً اجتماعياً من غير غاية حقيقية، بل كانت خضوعاً بحسب الخلقة، فهم بحسب ما أُريد من خلقتهم خاضعون للإنسان بحسب ما أُريد من كمال خلقته، أي أنّهم مسخّرون لأجله عاملون في سبيل سعادة حياته، أي أنّ للإنسان منزلة من القرب ومرحلة من كمال السعادة تفوق ما للملائكة من ذلك.

---

(١) راجع كتاب سعد السعود: ٣٢ ـ ٣٤.

(٢) الأعراف: ١١.

الدعوة للسجود دعوة لمساعدة الإنسان:

فسجودهم جميعاً له دليل أنّهم جميعاً مسخّرون في سبيل كماله من السعادة عاملون لأجل فوزه وفلاحه، كملائكة الحياة وملائكة الموت وملائكة الأرزاق وملائكة الوحي والمعقبات والحفظة والكتبة، وغيرهم ممّن تذكرهم متفرّقات الآيات القرآنية، فالملائكة أسباب إلهية وأعوان للإنسان في سبيل سعادته وكماله.

ومن هنا يظهر للمتدبّر الفطن أنّ إباء إبليس عن السجدة استنكافٌ منه عن الخضوع لنوع الإنسان والعمل في سبيل سعادته وإعانته على كماله المطلوب على خلاف ما ظهر من الملائكة، فهو بإبائه عن السجدة خرج من جمع الملائكة كما يفيده قوله تعالىٰ: ﴿ *مَا لَكَ أَن لَا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِين* ﴾[١] وأظهر الخصومة لنوع الإنسان والبراءة منهم ما حيوا وعاشوا أو خالداً مؤبّداً.

ويؤيّده جعله تعالى اللعنة المطلقة عليه من يوم أبىٰ إلى يوم الدين وهو مدّة مكث النوع الإنساني في هذه الدنيا، فجعلها عليه كذلك، ولما يدع إبليس أنّه سيغويهم ولم يقل بعد: ﴿ *ولأُغوينّهم أجمَعين* ﴾[٢] مشعرٌ بأنّ إباءه عن السجدة نوع خصومة وعداوة منه لهذا النوع آخذاً من آدم إلىٰ آخر من سيولد ويعيش من ذرّيته.

فكأنّه عليه اللعنة فهِم من قوله تعالىٰ: ﴿ *وإنّ عَلَيكَ اللَّعنَةَ إلىٰ يَومِ الدِّين* ﴾[٣] أنّ له شأناً مع النوع الإنساني إلىٰ يوم القيامة وأنّ لشقائهم وفساد أعمالهم

---

(١) الحِجر: ٣٢.
(٢) الحِجر: ٣٩.
(٣) الحِجر: ٣٥.

ارتباطاً به من حيث امتنع عن السجود، ولذلك سأل النظرة إلىٰ يوم يبعثون مفرّعاً ذلك على اللعنة المجعولة عليه فقال: ﴿ ربِّ فأنظرني إلىٰ يوم يُبعثون ﴾ ولم يقل: ربِّ أنظرني إلىٰ يوم يُبعثون ولم يقل: أنظرني إلىٰ يوم يموت آدم أو أنظرني ما دام حيّاً يعيش، بل ذكر آدم وبنيه جميعاً وطلب النظرة إلىٰ يوم يبعثون مفرّعاً ذلك على اللعنة إلىٰ يوم الدين، فلما أُجيب إلىٰ ما سأل أبدىٰ ما في كمون ذاته وقال: ﴿لأغوينهم أجمعين﴾.

الغواية الشيطانية مستمرة إلى اليوم المعلوم:

قوله تعالىٰ: ﴿ قال فإنّك من المنظَرين إلىٰ يوم الوقت المعلوم ﴾ جوابٌ منه سبحانه لإبليس، وفيه إجابة وردّ. أمّا الإجابة فبالنسبة إلىٰ أصل الإنظار الّذي سأله، وأمّا الردّ فبالنسبة إلى القيد وهو أن يكون الإنظار إلىٰ يوم يُبعثون فإنّ من الواضح اللائح بالنظر إلىٰ سياق الآيتين أنّ يوم الوقت المعلوم غير يوم يُبعثون فلم يسمح له بإنظاره إلىٰ يوم يُبعثون، بل إلىٰ يومٍ هو غيره ولا محالة هو قبل يوم البعث.

وبذلك يظهر فساد قول من قال: إنّه لعنه الله أُجيب إلىٰ ما سأل واليومان في الآيتين واحد، ومن الدليل عليه قوله في سورة الأعراف في القصّة: ﴿ قَالَ إِنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ ﴾ (١) من غير أن يقيّد بشيء.

أمّا فساد دعواه اتّحاد اليومين في الآيتين فقد ظهر ممّا تقدّم وأمّا فساد الاستدلال بإطلاق آية الأعراف فلأنها تتقيّد بما في هذه السورة وسورة ص (٢) من التقييد بقوله ﴿ إِلىٰ يَومِ الوَقتِ المَعلُوم ﴾ وهذا كثير شائع في كلامه تعالىٰ

(١) الأعراف: ١٥.
(٢) ص: ٨١.

والقرآن يشهد بعضه علىٰ بعض وينطق بعضه ببعض.

وظاهر يوم الوقت المعلوم أنه وقت تعيّن في العلم الإلهيّ نظير قوله: ﴿ *وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ* ﴾[1]، وقوله: ﴿ *أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ* ﴾[2] فهو معلومٌ عند الله قطعاً، وأمّا أنّه معلومٌ لإبليس أو مجهولٌ عنده فغير معلوم من اللفظ، وقول بعضهم: أنّه سبحانه أبهم اليوم ولم يبيّن فهو معلومٌ لله غير معلومٍ لإبليس لأنّ في بيانه إغراء بالمعصية كلامٌ خالٍ عن الدليل، فإبهام اللفظ بالنسبة إلينا غير إبهام ما أُلقي إلى إبليس من القول بالنسبة إليه، علىٰ أنّ إغراء إبليس بالمعصية وهو الأصل لكلّ معصية مفروضةٌ لا يخلو عن إشكال، فافهمه.

علىٰ أنّ قول إبليس ثانياً: ﴿ *لأغوينّهم أجمعين* ﴾ شاهدٌ علىٰ أنه سيبقىٰ إلىٰ آخر ما يعيش الإنسان في الدنيا ممّن يمكنه إغواؤه، فقد كان فهِم من قوله تعالىٰ: ﴿ *إلىٰ يوم الوقت المعلوم* ﴾ أنّه آخر عمر البشر العائشين في الأرض الجائز له إغواؤهم.

ونسب إلىٰ ابن عبّاس ومال إليه الجمهور أنّ اليوم هو آخر أيّام التكليف وهو النفخة الأُولىٰ يوم يموت الخلائق، وكأنّه مبنيّ علىٰ أنّ إبليس باقٍ ما بقي التكليف وأمكنت المخالفة والمعصية، وهو مدّة عمر الإنسان في الدنيا، وينتهي ذلك إلى النفخة الأُولى الّتي بها يموت الخلائق فهو يوم الوقت المعلوم الّذي أنظره الله إليه، وبينه وبين النفخة الثانية الّتي فيها يُبعثون أربعمائة سنة أو أربعون سنة علىٰ اختلاف الروايات، وهي ما به التفاوت بين ما سأله إبليس وبين ما أجاب إليه الله سبحانه.

---

(١) الحِجر: ٢١.

(٢) الصافّات: ٤١.

وهذا وجهٌ حسن لولا ما فيه من قولهم: إنّ إبليس باقٍ ما بقي التكليف وأمكنت المخالفة والمعصية، فإنّها مقدمة لا بيّنة ولا مبيّنة، وذلك أنّ تعويل القوم في ذلك علىٰ أنّ المستفاد من الآيات والأخبار كون كلّ كفر وفسوق موجود في النوع الإنساني مستنداً إلىٰ إغواء إبليس ووسوسته، كما يدلُّ عليه أمثال قوله تعالىٰ: ﴿ *أَلَم أعهَد إليكُم يَابني آدَمَ أن لا تَعبُدُوا الشَّيطَانَ إنَّه لَكُم عَدُوٌّ مُبِين* ﴾[1] وقوله: ﴿ *وَقَالَ الشيطَانُ لَمّا قُضيَ الأمرُ إنّ اللهَ وَعَدكُم وعْدَ الحقِّ وَوَعَدتُكُم فأخلَفتُكُم*... إلخ ﴾[2] إلىٰ غير ذلك من الآيات، ومقتضاها أن يدوم وجود إبليس ما دام التكليف باقياً، والتكليف باقٍ ما بقي الإنسان، وهو المطلوب.

وفيه: أنّ كون المعصية الإنسانية مستندة بالجملة إلىٰ إغواء إبليس مستفادة من الآيات والروايات لا غبار عليه، لكنه إنّما يقتضي بقاء إبليس ما دامت المعصية والغواية باقية لابقاءه ما دام التكليف باقياً، ولا دليل على الملازمة بين المعصية والتكليف وجوداً.

ظهور المهديّ مصداق اليوم المعلوم:

بل الحجّة قائمة من العقل والنقل علىٰ أنّ غاية الإنسان النوعية وهي السعادة ستعمُّ النوع ويتخلّص المجتمع الإنساني إلى الخير والصلاح ولا يعبد على الأرض يومئذٍ إلّا الله سبحانه، وينطوي وقتئذٍ بساط الكفر والفسوق، ويصفو العيش وترتفع أمراض القلوب ووساوس الصدور، وقد تقدّم تفصيل ذلك في

(١) يس: ٦٠.
(٢) إبراهيم: ٢٢.

مباحث النبوّة في الجزء الثاني، وفي قصص نوح في الجزء العاشر من الكتاب، قال تعالى: ﴿ *ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البرّ وَالبَحرِ بِمَا كَسَبَت أيدي النَّاسِ لِيُذِيقَهم بَعضَ الّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُم يَرجِعُون* ﴾[1]، وقال: ﴿ *وَلَقَد كَتَبنا فِي الزَّبورِ مِن بَعدِ الذِّكرِ أنَّ الأرضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحون* ﴾[2].

ومن ذلك يظهر أنّ الّذي استندوا إليه من الحجّة إنّما يدلّ علىٰ كون يوم الوقت المعلوم الّذي جعله الله غاية إنظار إبليس هو يوم يصلح الله سبحانه المجتمع الإنساني فينقطع دابر الفساد ولا يعبد يومئذٍ إلّا الله لا يوم يموت الخلائق بالنفخة الأُولىٰ[3].

وقال ﷺ في بحثه الروائي:

في تفسير البرهان عن ابن بابويه بإسناده عن أبي عبد الله ﷺ في قوله تعالىٰ: ﴿ *إنك لمن المنظَرين * إلىٰ يوم الوقت المعلوم* ﴾ يوم يُنفخ في الصور نفخة واحدة فيموت إبليس ما بين النفخة الأُولىٰ والثانية.

وفي تفسير العيّاشي عن وهب بن جميع وفي تفسير البرهان عن شرف الدين النجفي بحذف الإسناد عن وهب ـ واللفظ للثاني ـ عن أبي عبد الله ﷺ قال: سألته عن إبليس وقوله: ﴿ *ربّ فأنظرني إلىٰ يوم يُبعثون * قال فإنّك من المنظرين * إلىٰ يوم الوقت المعلوم* ﴾ أيّ يوم هو؟ قال: ياوهب أتحسب أنه يوم يبعث الله فيه الناس؟ ولكنّ الله عزّوجلّ أنظره إلىٰ يوم يبعث فيه قائمنا فيأخذ بناصيته ويضرب عنقه فذلك اليوم هو الوقت المعلوم.

---

(١) الروم: ٤١.

(٢) الأنبياء: ١٠٥.

(٣) تفسير الميزان: ١٢ / ١٥٨ ـ ١٦١.

وفي تفسير القمّي بإسناده عن محمّد بن يونس عن رجل عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله تبارك وتعالى: ﴿ *فأنظرني* ـ إلىٰ قوله ـ *إلى يوم الوقت المعلوم* ﴾ قال: يوم الوقت المعلوم يذبحه رسول الله صلى الله عليه وآله على الصخرة الّتي في بيت المقدس.

أقول: وهو من أخبار الرجعة، وفي معناه ومعنى الرواية السابقة عليه أخبار أُخرىٰ من طرق أهل البيت عليهم السلام.

ومن الممكن أن تكون الرواية الأُولىٰ من هذه الثلاث الأخيرة صادرة علىٰ وجه التقية، ويمكن أن توجّه الروايات الثلاث من غير تنافٍ بينها بما تقدّم في الكلام على الرجعة في الجزء الأوّل من الكتاب وغيره أنّ الروايات الواردة من طرق أهل البيت عليهم السلام في تفسير غالب آيات القيامة تفسّرها بظهور المهديّ عليه السلام تارةً وبالرجعة تارةً وبالقيامة أُخرىٰ لكون هذه الأيام الثلاثة مشتركة في ظهور الحقائق وإن كانت مختلفة من حيث الشدّة والضعف، فحكم أحدها جارٍ في الآخرين، فافهم ذلك[1].

إنهاء النشاط الإبليسي مقدّمةٌ لإقامة المجتمع الصالح:

يُستفاد من تفسير الآية الكريمة وتطبيقها علىٰ يوم ظهور المهديّ عجّل الله فرجه أنّ دوره عليه السلام في إقامة المجتمع التوحيدي الصالح والدولة الإلهيّة العادية مسبوق بقيامه بإنهاء النشاط الإبليسي في غواية وإضلال البشر وصدّهم عن العبادة الخالصة لله تبارك وتعالىٰ وجرّهم إلىٰ مستنقعات الشرك والضلال.

وواضحٌ أنّ إيقاف الإغراءات والوسوسة الشيطانية للإنسان أمرٌ ضروري لإقامة

---

(١) تفسير الميزان: ١٢ / ١٧٤ ـ ١٧٥.

المجتمع الصالح الّذي يعبد الله تبارك وتعالىٰ بأمنٍ من تلك الإغراءات. ويُستفاد من ذكر الأحاديث الشريفة للمصاديق الثلاثة الآنفة الذكر لليوم المعلوم ـ ظهور المهديّ، الرجعة، ما بين النفختين ـ أنّ إنهاء النشاط الإبليسي قد يكون علىٰ مراحل وليس دفعة واحدة أو علىٰ مراتب.

ومن المعلوم أنّ الإغراءات والوساوس الشيطانية هي أبرز أسباب الحروب والظلم والعدوان والدولة المهدوية خالية منها ـ كما سيأتي ـ ، لذا فلا محلّ لهذه الاغراءات فيها. يُضاف الىٰ ذلك أنّ الحكمة من السماح الإلهيّ بهذا الدور الإبليسي هو الامتحان وتربية الإنسان، والجيل الّذي يشكّل المجتمع الصالح في الدولة المهدوية هو ثمرة التجربة الطويلة من الامتحان والغربلة، فلا حاجة لاستمرار نشاط إبليس بعد إقامة هذا المجتمع الصالح.

سابعاً: دخول الجميع في الإسلام:

قوله تعالىٰ:

﴿ *وَلَهُ أَسلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرضِ طَوعَاً وَكَرهَاً وإِلَيهِ يُرجَعُونَ* ﴾ (١)

١ ـ روى العيّاشي بإسناده عن رفاعة بن موسى قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ﴿ *وله أسلمَ مَن في السماواتِ والأرض طوعاً وكرهاً* ﴾ قال: إذا قام القائم عليه السلام لا تبقىٰ أرض إلّا نودي فيها بشهادة أن لا إله إلّا الله وأن محمّداً رسول الله صلى الله عليه وآله (٢).

---

(١) آل عمران: ٨٣.

(٢) تفسير العيّاشي: ١ / ١٨٣.

٢ـ وروىٰ أيضاً بإسناده عن ابن بكير قال: سألت أبا الحسن عليه السلام عن قوله: ﴿ وله أسلمَ مَن في السماواتِ والأرض طوعاً وكرهاً ﴾ قال: أُنزلت في القائم عليه السلام إذا خرج باليهود والنصارىٰ والصابئين والزنادقة وأهل الردّة والكفّار في شرق الأرض وغربها فعرض عليهم، فمَن أسلم طوعاً أمرَه بالصلاة والزكاة وما يؤمر به المسلم ويجب لله عليه، ومَن لم يسلم ضرب عنقه، حتىٰ لا يبقىٰ في المشارق والمغارب أحد إلّا وحّد الله.

قلت: جعلت فداك: إنّ الخلق أكثر من ذلك؟ فقال: إنّ الله إذا أراد أمراً قلَّل الكثير وكثَّر القليل[1].

٣ـ وأيضاً عنه بإسناده عن عبد الأعلى الجبلي (الحلبي ـ خ ل) عن أبي جعفر عليه السلام في حديث طويل يذكر فيه أمر القائم عليه السلام إذا خرج، قال: ولا تبقىٰ أرضٌ إلّا نودي فيها شهادة أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له وأن محمّداً رسول الله وهو قوله: ﴿ وله أسلمَ مَن في السماواتِ والأرض طوعاً وكرهاً وإليهِ يُرجعون ﴾ ولا يقبل صاحب هذا الأمر الجزية كما قبلها رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو قول الله: ﴿ وَقَاتِلُوهُم حَتَىٰ لَا تَكُونَ فِتنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّه لله ﴾ [2] [3].

حتمية تحقّق التسليم الاختياري لله:

تأتي الآية الكريمة في مقام الاحتجاج علىٰ أتباع الديانات الأُخرىٰ وعدم اتّخاذهم الإسلام ديناً، مشيرة إلىٰ أنّ صاحب دين الإسلام هو الّذي يخضعون له جميعاً بالتسليم التكويني طوعاً أو كرهاً وليس بالتسليم الاختياري بمعنى

(١) تفسير العيّاشي: ١ / ١٨٣.
(٢) الأنفال: ٣٩.
(٣) تفسير العيّاشي: ٢ / ٦٠.

الخضوع العبودي[1]، فصلاح الإنسان هو بالتسليم العبودي واتّخاذ الإسلام ديناً لأنه دين الله تبارك وتعالىٰ الّذي يخضع له تكوينياً الجميع دونما تخلّف عن إرادته التكوينية.

وتطبيق الآية الكريمة على القضية المهدوية يشير إلىٰ أنّ من خصائص دولة المهديّ الموعود اتّخاذ الجميع الإسلام ديناً طوعاً أو كرهاً، بمعنىٰ أنّ الله تبارك وتعالىٰ يوفّر الأوضاع اللازمة لتحقّق ذلك علىٰ نحو الحتم مثلما أنّ التسليم التكويني لإرادته حتمي. فالتشابه هو في حتمية التسليم العبودي لله تبارك وتعالىٰ من قِبل الجميع في دولة المهديّ عجّل الله فرجه، فيكون ظهور الإسلام علىٰ الدين كلّه.

اتّضاح أحقّية الإسلام:

وقد يكون توفير الأوضاع المناسبة لذلك بظهور أحقّية الإسلام وكونه الدين الحقّ الّذي يحقّق للمجتمع البشري السعادة الحقّة، بعد أن يتّضح بطلان الأديان والتيّارات الفكرية وزيف إدعاءاتها بتحقيق السعادة للإنسانية أو فشلها في تطبيق وعودها عملياً، وحينئذٍ يقبل الناس طواعيةً على الإسلام ويعتنقونه، ويتّخذونه ديناً طوعاً.

إزالة عوامل الصدّ عن سبيل الله:

وقد يكون ذلك بإزالة أسباب الصدّ عن سبيل الله تبارك وتعالىٰ كما لاحظنا في الفقرة السابقة، أو بإزالة أسباب ومصادر الفتنة الّتي تسلب الناس الأمن المطلوب للإقبال الطوعي على اعتناق الإسلام كما سنلاحظ في تطبيق الآيات

---

(١) راجع تفسير الميزان: ٣ / ٣٣٦.

اللاحقة الّتي تتحدّث عن شمولية الجهاد بعد ظهور المهديّ وإزالة جميع مصادر الفتنة حتىٰ يكون الدين كلّه لله، حيث تزول جميع العوامل المسوّغة لعدم اتّخاذه ديناً، فلا يبقىٰ ما يتعلّل به الكفّار لعدم قبولهم به فيدخلونه كرهاً، كما يشير لذلك الحديث الثالث من الأحاديث الشريفة المتقدّمة.

ثامناً: إنهاء مصادر الفتنة والإضلال:

قوله تعالىٰ:

﴿ *وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ* ﴾(١)

وقوله تعالى:

﴿ *وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً* ﴾(٢)

١ـ روى الشيخ محمّد بن يعقوب عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن عمر بن أُذينة عن محمّد بن مسلم قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: قول الله عزّوجلّ: ﴿ *وقاتلوهم حتىٰ لا تكون فتنةٌ ويكون الدينُ كلّه لله* ﴾ فقال: لم يجئ تأويل هذه الآية بعد، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله رخّص لهم لحاجته وحاجة أصحابه، فلو قد جاء تأويلها لم يقبل منهم، ولكنّهم يقتلون حتىٰ يوحّدَ الله عزّوجلّ، وحتىٰ لا يكون شرك(٣).

٢ـ وروى العيّاشي بإسناده عن زرارة قال: قال أبو جعفر عليه السلام سئل [أبو عبد الله عليه السلام، سئل أبي] عن قول الله: ﴿ *قاتلوا المشركين كافّة كما يُقاتلونكم كافّة* ﴾ ﴿ *حتىٰ لا تكون فتنةٌ ويكون الدينُ كلّه لله* ﴾.

---

(١) الأنفال: ٣٩.

(٢) التوبة: ٣٦.

(٣) الكافي: ٨ / ٢٠١.

فقال: إنّه [تأويل] لم يجئ تأويل هذه الآية، ولو قد قام قائمنا عليه السلام بعده سيرىٰ من يدركه ما يكون من تأويل هذه الآية، وليبلغنّ دين محمّد صلى الله عليه وآله ما بلغ الليل حتىٰ لا يكون شرك (مشرك ـ خ ل) علىٰ ظهر الأرض كما قال الله[1].

٣ـ وروى الطبرسي في مجمع البيان حديث الإمام الباقر الثاني وفي نهايته: «... كما قال: ﴿ يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ﴾[2].

٤ـ وروى العيّاشي عن عبد الأعلىٰ الجبلي (الحلبي ـ خ ل) عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: ... ولا يقبل صاحب هذا الأمر الجزية كما قبلها رسول الله صلى الله عليه وآله وهو قولُ الله: ﴿ *وقاتلوهم حتىٰ لا تكون فتنةٌ ويكون الدينُ كلّه لله* ﴾. ثمّ قال عليه السلام: يُقاتلون والله حتّىٰ يُوحّد الله ولا يشرك به شيئاً، وحتىٰ تخرج العجوز الضعيفة من المشرق تريد المغرب ولا ينهاها أحدٌ، ويخرج الله من الأرض بذرها وينزل من السماء قطرها...[3].

شمولية مكافحة جميع أشكال الشرك:

الآيتان الكريمتان من آيات الجهاد، الأُولىٰ تأمر بالقتال ومجاهدة الكفار حتىٰ إنهاء ما كانوا يقومون به من أذى المؤمنين وصدّهم عن الدين الحقّ وإرجاعهم إلى الكفر[4]، والثانية نازلة في الأمر بمحاربة المشركين جميعاً[5]. وتطبيقها على القضية المهدوية يشير إلىٰ أنّ ما يجري عند ظهور المهديّ الموعود عجّل الله فرجه هو أشمل مصاديقها، بمعنىٰ أنّ جهاده عليه السلام سينهي

(١) تفسير العيّاشي: ٢ / ٥٦.
(٢) مجمع البيان: ٣ / ٥٤٣.
(٣) تفسير العيّاشي: ٢ : ٥٦.
(٤) راجع تفسير الميزان: ٩ / ٧٥.
(٥) راجع المصدر السابق: ٢٦٩ ـ ٢٧٠.

جميع أشكال فتنة الناس المعنوية والمادّية وسيوجّه إلىٰ جميع المشركين بمختلف مراتب الشرك الظاهرة وغيرها.

والقيام بذلك ضروري لتوفير الأمن والسلام وإقرار العدل وإنهاء الظلم والجور لكي يكون بالإمكان إقامة المجتمع التوحيدي الصالح في جميع أرجاء المعمورة وإظهار الإسلام على الدين كلّه، وانتهاء الجهاد مرهونٌ بتحقّق هذه الأهداف المرجوّة منه بأكمل صوَرها، كما يُستفاد من تطبيق الآية اللاحقة على القضية المهدوية، وهي:

تاسعاً: وضع الحرب أوزارها:

قوله تعالىٰ:

﴿فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ حَتَّىٰ إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها ذٰلِكَ وَلَوْ يَشاءُ اللهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلٰكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ﴾ (١)

١ ـ روى الصدوق في كتابه الخصال قال: حدّثنا أحمد بن الحسن القطّان ومحمّد بن أحمد السناني وعلي بن موسى الدقّاق والحسين بن إبراهيم بن أحمد بن هشام المكتب وعلي بن عبد الله الورّاق رضي الله عنهم قالوا: حدّثنا أبو العبّاس أحمد بن يحيىٰ بن زكريا القطّان قال: حدّثنا بكر بن عبد الله بن حبيب قال: حدّثنا تميم بن بهلول قال: حدّثنا سليمان بن حكيم عن ثور

(١) محمّد: ٢.

ابن يزيد عن مكحول قال: قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: لقد علم المستحفظون من أصحاب النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله أنّه ليس فيهم رجل له منقبةٌ إلّا وقد شركته فيها وفضّلتُه، ولي سبعون منقبةً لم يشركني فيها أحد منهم، قلت: ياأميرالمؤمنين فأخبرني بهن، فقال عليه السلام:

... وأما الثالثة والخمسون، فإنّ الله تبارك وتعالىٰ لن يذهبَ بالدنيا حتىٰ يقومَ منّا القائمُ، يقتل مبغضينا ولا يقبلُ الجزية، ويكسر الصليبَ والأصنامَ، وتضع الحربُ أوزارها، ويدعو إلىٰ أخذِ المال فيقسمُهُ بالسويَّةِ ويعدلُ في الرعيَّةِ...(١).

٢ـ روى البيهقي في السنن الكبرىٰ قال: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرني عبد الرحمن بن الحسن القاضي حدّثنا إبراهيم بن الحسين حدّثنا آدم بن أبي إياس حدّثنا ورقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله عزّوجلّ: ﴿ *حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا* ﴾ قال: يعني حتّىٰ ينزل عيسى بن مريم فيسلم كلّ يهودي وكلّ نصراني وكلّ صاحب ملّة، وتأمن الشاة الذئب، ولا تقرض فأرة جراباً، وتذهب العداوة من الأشياء كلّها، وذلك ظهور الإسلام على الدّين كلّه(٢).

سيادة الأمن والسلام الشامل:

الآية الكريمة تدعو المؤمنين إلىٰ مجاهدة الكفّار ليحيا الحقّ الّذي عليه المؤمنون ويزهق الباطل الّذي عليه الكفّار، وأوزار الحرب أثقالها وهي الأسلحة الّتي يحملها المحاربون، والمراد به وضع المقاتلين وأهل الحرب أسلحتهم كنايةً عن انقضاء القتال(٣).

(١) الخصال للشيخ الصدوق: ٢ / ٥٧٢.

(٢) السنن الكبرىٰ للبيهقي: ٩ / ١٨٠.

(٣) تفسير الميزان: ١٨ / ٢٢٥.

وواضحٌ أنّ ما يحققّه الله تبارك وتعالىٰ علىٰ يد حجّته المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه هو أسمىٰ وأشمل مصاديق الآية الكريم، فالجهاد الشامل الّذي يخوضه يسفر عن إحياء الحقّ بالكامل وإزهاق الباطل وتطهير الأرض منه بالكامل، وعندئذٍ تنتهي الحاجة للقتال، فتضع الحربُ أوزارها، ويعمّ الأمن والسلام بصورةٍ كاملة، وينتهي الاختلاف في الأديان، فيتمّ تحطيم الأوثان بمختلف أشكالها الظاهرة والخفية وإنهاء عبادتها، ولا يبقىٰ غير الإسلام الدين الإلهيّ الحقّ، وتذهب العداوة من الأشياء كلّها بزوال أسبابها، وتظهر بذلك خصوصية سيادة الأمن والسلام الكامل في المجتمع البشري، وهي من المميّزات الخاصّة بالدولة المهدوية المعينة علىٰ تحقيق أهدافها في إقامة المجتمع الصالح، كما سنرىٰ في تطبيق الآية اللاحقة.

عاشراً: إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف:

قوله تعالىٰ:

﴿ *الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالمعروفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ* ﴾ (١)

١ـ روىٰ علي بن إبراهيم في تفسيره: قال: في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿ *الّذين إن مكّنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزّكاة* ﴾ فهذه [الآية] لآل محمّد صلى الله عليه وآله إلى آخر الآية، والمهديّ وأصحابه يملكهم الله مشارق الأرض ومغاربها، ويظهر الدين، ويميت الله به وأصحابه البدع

---

(١) الحجّ: ٤١.

والباطل كما أمات السفهةُ الحقّ حتىٰ لا يرىٰ أثر الظلم[1].

٢ـ وجاء في كتاب تأويل الآيات عن محمّد بن العبّاس قال: حدّثنا محمّد ابن الحسين بن حميد عن جعفر بن عبد الله (الكوفي) عن كثير بن عيّاش عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله عزّوجلّ: ﴿ ***الّذين إن مكّنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزّكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبةُ الأمور*** ﴾ قال: هذه لآل محمّد المهديّ عليه السلام وأصحابه، يملّكهم الله مشارق الأرض ومغاربها، ويظهر الدين، ويميت الله عزّوجلّ به وبأصحابه البدع والباطل كما أمات السفهةُ الحقّ حتىٰ لا يرىٰ أثر من الظلم ويأمرون بالمعروف وينهَون عن المنكر ولله عاقبة الأُمور[2].

٣ـ وروىٰ فرات الكوفي في تفسيره قال: حدّثني الحسين بن علي بن بزيع معنعاً عن زيد بن علي عليه السلام قال: إذا قام القائم من آل محمّد صلى الله عليه وآله يقول: أيّها الناس، نحن الّذين وعدكم الله في كتابه: ﴿ ***الّذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزّكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبةُ الأُمور*** ﴾[3].

إنهاء البدع:

المجتمع الصالح الّذي يقيمه المهديّ الموعود أرواحنا فداه هو أبرز وأشمل مصاديق الآية الكريمة الّتي تصف سلوك صالحي المؤمنين عندما يمكّنهم الله تبارك وتعالىٰ ويستخلفهم في الأرض، فهم يحيون العدل والدين الحقّ ولا يبقىٰ أثرٌ للظلم والبدع والباطل.

---

(١) تفسير القمّي: ٢ / ٨٧.

(٢) تأويل الآيات الظاهرة: ١ / ٣٤٣.

(٣) تفسير فرات الكوفي: ١٠٠.

وعمل هؤلاء هو بناءٌ بالدرجة الأُولىٰ وما يزيلونه هو الباطل وآثاره وحسب، فلا يشمل غير ذلك كما يُستفاد من تطبيق الآية اللاحقة، وهي:

الحادي عشر: دولة البناء الشامل:

قوله تعالىٰ:

﴿وَسَكَنتُم فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُم﴾ (١)

روى العيّاشي بإسناده عن سعد بن عمر عن غير واحدٍ ممّن حضر أبا عبد الله عليه السلام، ورجل يقول قد ثبت دار صالح ودار عيسى بن علي ذكر دور العبّاسيّين فقال رجل: أراناها الله خراباً أو خرّبها بأيدينا، فقال له أبو عبد الله عليه السلام: لا تقل هكذا، بل يكون مساكن القائم وأصحابه، أما سمعت الله يقول: ﴿وسكنتُم في مساكنِ الّذين ظَلموا أنفسَهُم﴾ (٢).

تسخير التطوّر المادّي للأهداف المقدّسة:

وقد يُستفاد من تطبيق الآية الكريمة أنّ الدولة المهدوية المرتقبة تستفيد من إمكانات التطوّر المادّي الكبير الّذي يشهده المجتمع البشري قبل ظهوره عليه السلام وتواصل تطويره ولكن مع تسخيره وتوجيهه لما يخدم أهدافها المعنوية الأصلية في إقامة العبادة الحقّة وقيادة الفرد والمجتمع البشري باتّجاه التكامل وسلوك معارج القرب من الله تبارك وتعالىٰ، فيكون الأمر مصداقاً لاستثمار النِعم والبركات الإلهيّة في هذا السبيل المقدّس.

---

(١) إبراهيم: ٤٥.

(٢) تفسير العيّاشي: ٢ / ٢٣٥.

الخاتمة

خلاصة الدلالات القرآنية بشأن القضية المهدوية

مدخـل:

في ختام هذه الجولة التفصيلية مع الآيات الكريمة المبيّنة للرؤية القرآنية بشأن قضية المهديّ الموعود عجّل الله فرجه نلخّص في هذه الخاتمة أهمّ المعطيات والنتائج المستفادة من دلالاتها ضمن النقاط التالية:

الآيات الكريمة مستقلّة بالنصّ علىٰ وجود الإمام المهديّ وغَيبته:

إنّ النقطة المحورية الّتي تتميّز بها عقيدة أهل البيت صلوات الله عليهم أجمعين في المهديّ المنتظر هي أنّها تقول بوجوده فعلاً وغَيبته، وأنّ ظهوره يكون بعد غَيبةٍ طويلة، وهي تحدّد هويته بأنّه ابن الحسن العسكري عليه السلام الإمام الحادي عشر من أئمّة أهل البيت، وأنّ المهديّ هو خاتمهم، فهو الثاني عشر، وقد ولد في النصف من شعبان سنة ٢٥٥ للهجرة.

وقد لاحظنا أنّ محكمات الآيات الكريمة تدلّ مباشرةً علىٰ صحّة هذه العقيدة، بل وتصرّح بأُصولها، فهي تنصّ علىٰ أنّ الحكمة الإلهيّة وسنن التربية الربّانية لعباده تبارك وتعالىٰ اقتضت جعل وتعيين إمام هادٍ إلى الله سبحانه بأمره

في كل عصر، يكون من الذرّية الإبراهيمية، معصوماً، مهتدياً بنفسه من الله مباشرةً، مسدّداً بالعصمة الإلهيّة، موكّلاً بحفظ الرسالة السماوية، الأمر الّذي يوجب الإيمان بوجود مثل هذا الإمام حتماً، وحيث إنّه ليس ظاهراً فلابدّ من القول بغَيبته لاستحالةِ تخلّف ما نصّت عليه الآيات.

ثمّ قارنّا هذه الصفات بالعقيدة الإمامية فوجدناها تنطبق علىٰ مهديّها الموعود عجّل الله فرجه بالكامل لا علىٰ سواه، بل لم نجد من يقدّم الجواب المنسجم معها غير عقيدة أهل البيت عليهم السلام، خاصّةً وأنّها تنصّ علىٰ حتمية وجود مثل هذا الإمام في كلّ عصر، وليس ثمّة من يقول بوجود مثل هذا الإمام غير الإمامية، والصفات الّتي يذكرونها له هي الصفات الّتي تحدّدها الآيات نفسها. فأكملت المقارنة دلالات الآيات علىٰ وجوده وغَيبته عليه السلام، فالآيات دالّة علىٰ ذلك مستقلّة بالنصّ علىٰ وجوده الحتمي وتحديد صفاته، فيما بيّنت المقارنة هويته المنسجمة مع تلك الصفات.

النصّ القرآني علىٰ وجود المعصوم الموكّل بحفظ الشريعة:

كما دلّت محكمات الآيات الكريمة علىٰ حتمية استمرار وجود من يحفظ شريعة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله بعد وفاته وإلى يوم القيامة، لأنّها الشريعة الخاتمة الباقية إلى يوم القيامة، وهؤلاء موكّلين بحفظها من قِبل الله تبارك وتعالىٰ، وهم يتحلّون بالعصمة من الكفر بها ـ بجميع مراتبه ـ، فلا يخلو زمان من واحدٍ منهم ـ على الأقل ـ للقيام بهذه المهمّة.

وعندما نطبّق دلالات الآيات على الواقع ونبحث عن هؤلاء الموكّلين الأوصياء المعصومين عن جميع مراتب الكفر بالشريعة المحمّدية فلن نجد

جواباً يستجيب لها بالكامل سوىٰ لدىٰ عقيدة الإمامية في العترة النبوية صلوات الله عليهم.

وعندما نبحث عن الموكّل بحفظ الشريعة في عصرنا الحاضر فلن نجد مَن تنطبق عليه المواصفات المذكورة في الآية الكريمة سوى المهديّ الموعود الّذي تقول به عقيدة مذهب أهل البيت عليهم السلام.

القيام بمهامّ الإمامة والوصاية في الغَيبة:

واستناداً لدلالات هذه الآيات والآيات المشار إليها في الفقرة الأُولىٰ عرفنا أنّ هذا الإمام الابراهيمي الهادي بأمر الله الموكّل بحفظ رسالة جدّه خاتم الأنبياء محمّد صلى الله عليه وآله يقوم بمهامّ الإمامة في الهداية إلى الله بأمره ومهامّ الوصاية في حفظ الشريعة الخاتمة في غَيبته مثلما يقوم بها في ظهوره. وغاية الأمر أنّ قيامه بذلك في غَيبته يكون بأساليب تناسب أوضاع الغَيبة قد لا نعرف معظمها، مثلما لا نعرف الكثير من أساليب قيام الإمام الظاهر بهذه المهامّ.

أجل، ثمّة بعض الأُمور والثمار المتحصّلة من وجوده عليه السلام لا يمكن الحصول عليها في عهد الغَيبة بحكم فقدان الاتّصال العلني والظاهر به عليه السلام خلالها، ومحدودية الالتقاء به إلّا في أوضاع وشروطٍ خاصّة، إلّا أنّ الانتفاع الأصلي من وجوده حاصلٌ مثلما يحصل الانتفاع بالشمس إذا غيّبتها عن الأبصار السحاب.

إذن، معطيات الآيات الكريمة تدلّ علىٰ وجود إمامٍ هادٍ بأمر الله وموكّل منه تبارك وتعالىٰ بحفظ الشريعة الخاتمة، كما تدلّ علىٰ غَيبة هذا الإمام في هذا العصر، لأنّ وجوده حتمي وهو غير ظاهر. فلا مناص من القول بغَيبته، كما تدلّ علىٰ حتمية قيامه بمهامّ الإمامة في الهداية وحفظ الشريعة في غَيبته، لأنّ القيام بما هو غاية وثمرة وجوده عليه السلام، وهذا عين ما تقول به عقيدة الإمامية في المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه.

هذه هي الثمرة الّتي حصّلنا عليها من التدبّر في آيات الفصل الأوّل من الباب الأوّل من هذا الكتاب.

دور المهديّ الموعود كاشفٌ عن هويته:

في الفصل الثاني من الباب الأوّل التقينا بالآيات الكريمة المبيّنة لما يحقّقه الله تبارك وتعالىٰ علىٰ يد المهديّ الموعود عند ظهوره عجّل الله تعالىٰ فرجه فصنّفناها ضمن أربعة عناوين رئيسة، تؤكّد جميعاً معطيات آيات الفصل الأوّل بشأن تحديد هوية المهديّ الموعود.

العنوان الأوّل أو قل المهمّة الأُولى الّتي ينجزها المهديّ المنتظر بعد ظهوره هي تحقيق الإرادة الإلهيّة في إتمام نوره تبارك وتعالىٰ وإظهار الإسلام على الدين كلّه. وتبيّن أنّ الّذي ينجز هذه المهمّة الكبرىٰ يجب أن يكون عارفاً بالكامل الشريعة الخاتمة الّتي يريد الله أن يظهرها على يديه على الدين كلّه، منزّهاً بالكامل عن أيّ ظلمٍ وكفرٍ بها بأيّ مرتبةٍ من مراتب الكفر، لأنّ وجود أيّ درجةٍ من درجات الكفر بها يعني استحالة إظهار ما يرتبط بهذه الدرجة من الشريعة، إذ أنّ فاقد الشيء لا يعطيه. كما عرفنا أنّه ينبغي أن يكون مهتدياً بنفسه من الله تبارك وتعالىٰ ويحظىٰ بالتأييد الإلهيّ الخاصّ وإلّا لما كان قادراً علىٰ هداية الآخرين للإسلام الّذي يريد إظهاره على الدين كلّه.

وبذلك اتّضح أنّه ينبغي أن يتحلّىٰ بجميع الصفات المستفادة من آيات الفصل الأوّل بشأن المهديّ الموعود، والّتي عرفنا أنّها لا تنطبق إلّا على الإمام المهديّ الّذي تقول به عقيدة مذهب أهل البيت عليهم السلام.

والدلالة نفسها حصلنا عليه من البحث في العنوان الثاني المرتبط باستخلاف صالحي المؤمنين في الأرض، حيث اتّضح من بحثٍ تفسيريّ مفصّل أنّ هذا

الأمر لم يتحقّق عبر التأريخ ولن يتحقّق إلّا في عهد الدولة المهدوية العالمية. وأنّه عليه السلام هو الّذي يقيم المجتمع الصالح الموحّد لله بالكامل العابد له بإخلاص ودونما خوفٍ أو شركٍ بجميع مراتبه، فعرفنا أنّ القائد الّذي يقيم هذا المجتمع التوحيديّ الصالح يجب أن تتوفّر فيه الصفات نفسها المذكورة في الآيات السابقة.

والدلالة نفسها مستفادة من العنوان الثالث المرتبط بتحقّق الغاية من خلق الإنسان في عهد الدولة المهدوية بأكمل صوَرها، وهي تحقّق العبادة الخالصة لله جلّت قدرته على الصعيدين الفردي والاجتماعي. وقد تعرّفنا في هذا المجال علىٰ ملامح التخطيط الإلهيّ في الهداية لتحقّق هذه الغاية، ورأينا أنّ غَيبة الإمام المهديّ المعصوم سلام الله عليه تشكّل حلقةً أساسيةً في هذا التخطيط والتمهيد لتحقّق الغاية المذكورة.

محاربة خطّ الإمامة المعصومة السبب المباشر للغَيبة:

وفي العنوان الرابع عرفنا دور المهديّ الموعود عجّل الله فرجه في إنهاء الردّة عن الدين الحقّ وإنهاء انحراف المسيرة الإسلامية بسبب التخلّي عن واجب موالاة خطّ الإمامة المعصومة، وموالاة اليهود والنصارىٰ والسقوط في ذلّ التبعية لهم. واتّضح هناك أنّ هذا الانحراف ـ بما تضمّنه من أبعاد للإمامة المعصومة ومحاربة لهم ـ هو الّذي أدّىٰ إلىٰ غَيبة الإمام المهديّ. وعرفنا أنّ فتنة الشجرة الملعونة في القرآن الكريم وما أسفرت عنه من سيطرة بني أُمية علىٰ مقاليد المسلمين، مثّلت بداية هذا الانحراف الّذي أدّىٰ إلى الابتعاد عن الإسلام وعن الدين الحقّ.

ولكنها ـ علىٰ أيّ حال ـ كانت «فتنة» للناس لتمحيصهم وغربلتهم و تربيتهم

إعداداً لهم ليوم الفتح الفصل بعد كشف الزيف والتيارات الباطلة وإعداد أحباب الله الّذين يجاهدون في سبيله ولا يخشون لومة لائم، وينهون الردّة بأمرٍ منه تبارك وتعالىٰ. وعرفنا أنّ هؤلاء لابدّ أن يكونوا من أتباع الدين الحقّ يقودهم العارف له بالكامل الحافظ له، العارف بجميع مصاديق الانحراف عنه، والقادر بالتالي علىٰ إنهاء الردّة عنه وإظهاره. فاتّضح أنّ الّذي يقوم بذلك يجب أن يتحلّىٰ بالصفات المذكورة في آيات الفصل الأوّل. وبعبارة أُخرىٰ: يتحلّىٰ بصفات المهديّ الموعود الّذي تقول به عقيدة مذهب أهل البيت عليهم السلام.

وقد تعرّفنا من خلال فقرات هذا الفصل على الملامح العامّة للدولة الّتي يقيمها المهديّ الموعود بعد ظهوره عجّل الله فرجه. ففيما كانت آيات الفصل الأوّل دالّة علىٰ وجود الإمام المهديّ وغَيبته جاءت آيات الفصل الثاني لتبيّن دوره التأريخي وخصائص عصر ظهوره العامّة، دالّة علىٰ أن مَن يحقّق الله علىٰ يديه ما تذكره يجب أن يتحلّىٰ بالصفات المذكورة في الطائفة الأُولىٰ. واتّضح بالتالي أنّ كلا الطائفتين تشيران إلى المصداق نفسه.

وكان البحث بالكامل في هذين الفصلين في دائرة التنزيل القرآني والمعنى المباشر للآيات وليس علىٰ نحو التأويل والتطبيق.

تطبيق الآيات الكريمة يحدّد التفصيلات:

وفي الباب الثاني تناولنا طائفة كبيرة من الآيات الكريمة استناداً إلىٰ ما ورد من أحاديث شريفة مروية في الكتب المعتبرة، وكثيرٌ منها مرويٌّ في مصادر الفريقين، تطبقها على القضية المهدوية، وقد صنّفناها موضوعياً ضمن اثني عشر فصلاً، وقد وجدنا أنّها تكمل معالم الصورة العامّة الّتي حدّدتها آيات الباب الأوّل وتحدّد تفصيلاتها، وتجيب على الكثير من الأسئلة بشأنها.

وقد قدّمنا لها بتوضيح معنى التأويل والتطبيق وجريان مفاهيم الآيات الكريمة علىٰ أكثر من مصداق، فثبت أنّ نزول الآية الكريمة بشأن مصداق معيّن لا يعني حصرها به ففي ذلك تعطيلٌ خطيرٌ لفاعلية القرآن الكريم وتأثيره بالمنع من تطبيق مفاهيم آياته على المصاديق المختلفة إلى يوم القيامة.

أجل، عرفنا أنّ الّذي يحقّ له تطبيق الآيات على المصاديق المختلفة هو العارف بتأويلها وأُصول المفاهيم الّتي تتحدّث عنه، وهذا الأمر مختصّ بالله تبارك وتعالىٰ وبالمطهّرين الّذين أطلعهم الله علىٰ حقائقه، وهم أهل البيت الّذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً. من هنا عرفنا حجّية أحاديثهم الشريفة في تطبيق الآيات علىٰ مصاديقها المختلفة، ومنها ما يرتبط بالقضية المهدوية.

وقد أوردنا في هذا الباب أيضاً بعض الأحاديث الشريفة المرتبطة بآيات الباب الأوّل والمصرّحة بأنها مختصّة بالقضية المهدوية، وقد نقلناها في الباب الثاني تأييداً لمدلولات آيات الباب الأوّل وإكمالاً لدلالات تطبيق آيات الفصل الّتي صنّفت ضمنه.

جريان السنن الإلهيّة في القضية المهدوية:

ولاحظنا في هذا الباب أنّ الكثير من الآيات المطبقة على القضية المهدوية تبيّن سنناً إلهيةً ثابتة جارية في خلقه تبارك وتعالىٰ لا تبديل لها، جرت علىٰ الأُمم السابقة. وتجارب الرسالات السماوية السالفة، فهي تجري ولا شكّ على الأُمّة المحمّدية، مثل سنّة التمحيص والغربلة، وسنّة الفصل بين المختلفين في الدين بعدما جاءهم من العلم، وسنّة تعذيب المكذّبين المعاندين في الدنيا قبل الآخرة في يوم الفتح، وأمثالها.

كما عرفنا أنّ جريان هذه السنن يرتبط بحكمةٍ إلهيةٍ ثابتة في تربية العباد، فهي من مظاهر اللطف الربّاني بهم. وعرفنا أنّ لتجربة الرسالة المحمّدية خصوصية خاصّة في جريان السنن عليها، لكونها الشريعة الخاتمة والعالمية الّتي يحقّق الله تبارك وتعالىٰ بها أهداف خلق الإنسان بأشمل صوَرها. لذلك لزم أن تجري فيها هذه السنن مجتمعة بأوسع صوَرها، فتستوفي ـ مثلاً ـ الآثار التربوية لغَيبات الأنبياء في غَيبة الإمام المهديّ، وتتوفّر فيها جميع عوامل التمحيص والغربلة والمحق للكفر والنفاق بأوسع صوَرها، وهكذا.

الغَيبة حفظٌ للحجّة وتربيةٌ للعباد:

في الفصل الأوّل من الباب الثاني التقينا بطائفةٍ من الآيات الكريمة المطبقة فيما يرتبط بتوضيح مقامات الإمام المهديّ وخصائصه، فوجدنا هذه المقامات والخصال منسجمة مع ما دلّت عليه آيات الباب الأوّل. فالصفات والخصائص المذكورة تستجيب بالكامل لمقتضيات دوره التأريخي وما يحقّقه الله عزّوجلّ علىٰ يديه.

وفي الفصل الثاني تعرّفنا علىٰ طائفةٍ من الآيات الكريمة المطبقة علىٰ أمر غَيبته، فوجدناها تدلّ علىٰ أنّ الإمام نعمةٌ سابغةٌ في غَيبته وظهوره ينتفع به العباد في كلا الحالين، وأنّ أستار الغَيبة لا تحجبه عن القيام بمهامّ الهداية وحفظ الرسالة وإن خفت أساليب القيام بها، فجاءت هذه الآيات المطبقة مؤيّدة لدلالات آيات الفصل الأوّل، وأكملتها بالإشارة إلى طول أمد غَيبته واستيفاء مدد غَيبات الأنبياء.

ثمّ تعرّفنا في الفصل الثالث ـ ومن خلال الآيات المطبقة ـ علىٰ سرّ وقوع الغَيبة وأسبابها وحكمتها، فاتّضح أنه يعبّر من جريان سنن الله جلّت قدرته في

امتحان عباده وتمحيصهم وغربلتهم إيصالاً للمستعدّين المخلصين منهم للمقامات السامية، وسنّة مداولة الأيّام بين الناس لكشف أدعياء تحقيق الحياة الكريمة للناس، وإثبات عجز جميع المناهج ـ باستثناء الدين الإلهيّ الحقّ ـ عن تحقيق السعادة للبشرية، وبالتالي إيجاد حالة التطلّع للإسلام. وكذلك السماح بوصول الدين الحقّ للجميع والسماح بظهور «ودائع الله» من العناصر الخيّرة. كما عرفنا أنّ الغَيبة ـ في حقيقة أمرها ـ تمهيدٌ للظهور المهدوي تتحقّق خلالها شروطه، بعدما عرفنا أنّ السبب المباشر لها هو حفظ وجود الإمام المهديّ بأمر الله من سيوف الظالمين لكي يستمرّ في القيام بمهامّ الهداية، فهي إذن لطفٌ من الله بعباده ـ من هذه الزاوية ـ أحبط مساعي الظالمين لإبادة خطّ الإمامة المعصومة.

الغَيبة تمهيدٌ للظهور:

الفصل الرابع اختص بالآيات المبيّنة لثمار وآثار الإيمان بالمهدي المنتظر والتمسّك بولايته في غَيبته، استناداً للأحاديث المطبقة لها على القضية المهدوية، فوجدناها ثماراً وآثاراً تكشف في واقعها عن تأثير غَيبته عجّل الله فرجه في تربية الجيل الإيماني في كل عصر، وتمحيص أفراده وهدايتهم إلى معارج الكمال الإنساني والحياة الطيّبة والمقامات السامية، وتأهيل الخطّ الإيماني لنصرة المهديّ الموعود عند ظهوره في ثورته العالمية الكبرىٰ، فتبيّن أنّ الغَيبة هي دورةٌ تربوية وإعدادية تمهّد لظهور من خلال تعريض الخطّ الإيماني للصعوبات الناشئة من الإيمان بالإمام الغائب والتمسّك بولايته في ظلّ الأوضاع المضادّة لها بالكامل.

والأمر نفسه لاحظناه في آثار المماراة في المهديّ وإنكار وجوده في

غَيبته، وهي الّتي بيّنتها آيات الفصل الخامس، ودلّت على أنّ هذا الإنكار العنادي يقود إلى المحق والخسران المبين للمكذّبين الّذين أسرتهم الدنيا بزخارفها وسلبتهم الكرامة الإنسانية فاستحقّوا العذاب الأليم.

ثمّ وجدنا في الفصل السادس ـ الخاصّ بالآيات المتحدّثة عن يوم الفتح المهدوي ـ دلالات الآيات صريحةً على حتمية مجيء هذا اليوم في الدنيا قبل الآخرة، ليفصل بين المؤمنين والمكذّبين فيما اختلفوا فيه من الحقّ، فتتجلّى فيه ثمار الإيمان بالمهدي والتمسك بولايته ونصرته في غَيبته أرواحنا فداه، وينفعهم يومئذٍ إيمانهم السابق بجعلهم في المراتب المتقدّمة من أنصاره ﷺ، فيما يظهر الخسران المبين الّذي سقط فيه المكذّبون والظالمون فيحيق بهم العذاب الأليم ولا ينفعهم الإيمان يومئذٍ بعد نزول الآيات الربّانية.

تكاليف عصر الغَيبة تقويةٌ للصفّ الإيماني:

وتعرّفنا في الفصل السابع على ما تحدّده الآيات الكريمة من تكاليف للمؤمنين في عصر الغَيبة، فوجدناها تتمحوَر حول هدايتهم إلى ما به الفوز والنجاح في الامتحان الكبير الّذي يمثّله عصر الغَيبة، وعملية التمحيص والغربلة والمحق الّتي يشتمل عليها، وتمليكهم مقوّمات الصمود في وجه صعوبات عصر الغَيبة وعدم السقوط في تحدّياته.

كما لاحظنا أنّها تكاليف تهدف إلى تقوية الصفّ الإيماني أفراداً وجماعات، وجعل كل مؤمن يتحرّك في إطار تقوية هذا الصفّ على مستويين: المستوى الفردي والمستوى الاجتماعي، فيرسخ في نفسه الإيمان بإمام زمانه ومعرفته ويوصي إخوانه المؤمنين بذلك، ويصبر على صعوبات عصر الغَيبة ويعين إخوانه على الصبر.

كما لاحظنا أنّها تكاليف تسعىٰ إلى ربط المؤمن بإمام زمانه وترسيخ هذا الارتباط، وجعله يتطلّع باستمرار إلىٰ ساعة الظهور ويترقّبها وهو علىٰ اُهبّة الاستعداد لنصرة إمامه المنتظر، يتحرّك عملياً للتمهيد لهذا الظهور بتوفير شروطه والأرضية المناسبة له، ملتزماً اليقظة والحذر في مواجهة مكر الأعداء به، معتصماً بعروة الإمامة المعصومة وإطاعة ما أمر به أئمّتها عليهم السلام.

الردّة والنهج الأُموي والأئمّة المضلّون:

في الفصل الثامن كانت لنا جولة مع الآيات الكريمة المبيّنة لوقوع الانحراف في المسيرة الإسلامية والّذي أدّىٰ إلىٰ محاربة أئمّة أهل البيت النبوي صلوات الله عليهم، وبتلك الشراسة البشعة الّتي أدّت إلىٰ وقوع غَيبة خاتمهم المهديّ الموعود أرواحنا فداه حفظاً لاستمرار وجود حجّة الله علىٰ خلقه وأمينه في أرضه.

وتعرّفنا فيه علىٰ فتنة الشجرة الأُموية الملعونة في القرآن الكريم ودورها في هذا الانحراف واستمرار تأثيرها إلى اليوم وإلى حين الظهور، وإن غابت الأسماء وضاعت الأنساب الأُموية وسقطت دولتهم، فتعرّفنا علىٰ بعض مصاديق ظهور النهج الأُموي وخاصّةً في تيار الوهّابية المعاصرة المستميتة في الدفاع عن النزعة الأُموية ومحاربة خطّ أهل بيت النبوّة صلوات الله عليهم أجمعين.

كما عرفنا دلالات الآيات بشأن دور الأئمة المضلّين من فقهاء السلاطين في ترسيخ هذا الانحراف والباطل وتزيينه وإظفاء الصبغة الشرعية عليه، وهو دور خطير في إضلال المسلمين وغوايتهم. وعرفنا أنّ هذا الانحراف يمثّل ردّة عن الدين الحقّ الممثّل بخطّ العترة النبوية، وهي ردّة تقود إلى الفساد والإفساد

والذلّة للكيان الإسلامي، وعرفنا أيضاً أنّ المهديّ الموعود الممثّل لخطّ الموكّلين بحفظ الشريعة المحمّدية هو الّذي ينهي هذه الردّة ويعيد المجد الإسلامي في يوم الفتح، حيث تتّضح فيه حقيقة أنّ كيد المنحرفين في ضلالٍ بعيد، وأنّ المفسدين هم شرٌّ مكاناً وأضعفُ جنداً. فأكملت هذه الآيات دلالات آيات سورة المائدة المتحدّثة عن الموضوع نفسه والّتي فصّلنا الحديث عنها في الفصل الثاني من الباب الأوّل.

حتمية إزهاق الباطل:

وفي الفصل التاسع تعرّفنا علىٰ طائفة من الآيات الكريمة الدالّة ـ حسب تطبيقها ـ علىٰ حتمية وقوع الفتح المهدوي وظهوره ﷺ، لأنّ ما يقوم به وما يحقّقه الله جلّ وعلا علىٰ يديه يعبّر عن حاجة فطرية في النوع الإنساني حتمية التحقّق، ولأنّه يعبّر عن إرادةٍ إلهيةٍ حتمية الوقوع ووعدٍ إلهي والله لا يُخلف الميعاد، وسنّة إلهية جارية في إزهاق الباطل وإحقاق الحقّ بكلماته وعلىٰ أيدي أوليائه، وسنّة إلهية جارية في نصرة المظلومين ومعاقبة الظالمين والثأر للمستضعفين في سبيله وللمظلومية الحسينية، وسنّة إلهية جارية في إزالة البغي من الأرض، وسنّة إلهية ثابتة في إجابة المضطرّ إذا دعاه.

فالقول بحتمية ظهوره ﷺ يستند إلىٰ سننٍ إلهيةٍ ثابتة ووعودٍ صادقة لابدّ من تحقّقها.

علامات الظهور واكتمال شروطه:

وفي الفصل العاشر تعرّفنا علىٰ ما تهدي إليه الآيات الكريمة المطبقة علىٰ القضية المهدوية بشأن العلامات العامّة لظهور المهديّ ﷺ، فوجدناها تعبّر عن

حقيقة أنّ ظهوره يأتي إثر اكتمال عملية إعداد شروطه وتحقّق الثمار المرجوّة من عملية التمحيص والغربلة والمحق الّتي يشهدها عصر الغَيبة واتّضاح الحقّ المهدوي، وانتشار حالة من الشعور العامّ بالحاجة إليه عليه السلام لإنقاذ البشرية من إزماتها الخانقة وشعورها بالإحباط بعد اتّضاح فشل جميع المناهج المادّية عن تحقيق السعادة المنشودة للبشرية وإقرار العدالة والأمن في الأرض، ولذلك لاحظنا الآيات تشير إلىٰ أنّ ظهوره عجّل الله فرجه يأتي في ذروة التقدّم والتطوّر المادّي.

وكذلك يأتي بعد اليأس من اهتداء من تبقّىٰ من المعرضين عن النهج الإلهيّ، وظهور التمايز الكامل بين جبهتي الهدىٰ والحقّ، والباطل والضلال. وظهور «ودائع الله» من أصلاب الكافرين بمعنىٰ إقبال المنتمين تأريخياً إلى المناهج الأُخرىٰ على الانتماء إلى مدرسة أهل البيت عليهم السلام. ولكن كلّ هذه العلامات لا تنفي احتمال ظهوره في كلّ حين، بل إنّ ظهوره أساساً مفاجئ مباغت للظالمين.

النصرة الإلهيّة للمهديّ وإثبات أحقّيّته:

التقينا في الفصل الحادي عشر بطائفةٍ من الآيات الكريمة المبيّنة لمظاهر النصرة الإلهيّة للمهديّ المنتظر أرواحنا لتراب مقدمه الفداء، فوجدنا أنّ بعض هذه المظاهر إعجازية بالكامل، الهدف منها إرشاد العباد إلى أحقّية تحرّكه عليه السلام وإثبات أنّه هو المهديّ الموعود المؤيّد بالملائكة والمنصور بالله تبارك وتعالىٰ، وتمييزه بذلك عن أدعياء المهدوية، ومن هذه المظاهر نصرته بالآيات السماوية والملائكة والنداء الإعجازي من السماء باسمه سلام الله عليه، وطمس وجوه إعدائه وخسف الأرض ببعضهم، وأمثالها.

ووجدنا بعض هذه المظاهر يرتبط بعالمية الأهداف المهدوية وشموليتها لجميع البشرية، مثل نزول عيسى المسيح ﷺ لنصرته وتصحيحه انحرافات النصارىٰ وكسره الصليب ودعوته لهم إلى الاقتداء بالمهدي ﷺ، حيث إنّ الهدف من ذلك إتمام الحجّة عليهم في وجوب دخولهم الإسلام مقدّمة لإظهاره على الدين كلّه.

دولة المهديّ تحقّق أهداف كلّ الأنبياء:

وفي الفصل الأخير تعرّفنا علىٰ دلالات طائفة من الآيات الكريمة المطبقة على القضية المهدوية فيما يرتبط بخصائص الدولة الّتي يقيمها ﷺ، واتّضح أنها تمثّل أكمل صوَر الدولة الإلهيّة العالمية، والمصداق الأشمل للدولة المؤمنة الّتي تحيي الأرض بالعدل والإيمان، فتخرج الأرض كنوزها، وتنزل البركات الإلهيّة المادّية والمعنوية، وتنحسر الإغراءات الشيطانية، وتُطهّر الأرض من جميع أشكال الظلم والشرك والبغي، وتُزال جميع مصادر الفتنة والإضلال، ويظهر الإسلام علىٰ جميع الأديان، ويعمّ الأمن والسلام، وتضع الحربُ أوزارها، وتبدأ عملية البناء الشامل، وتزال البدع، وتكون الحاكمية لقيَم السماء.

وبعبارة جامعة: اتّضح أنّ جميع آمال الأنبياء وأهدافهم السامية ﷺ تتحقّق في ظلّ هذه الدولة المباركة، وتتحقّق بالتالي جميع الطموحات الفطرية المشروعة والسليمة لبني الإنسان.

تناسق أجزاء الرؤية القرآنية للقضية المهدوية:

هذه هي خلاصة النتائج الّتي توصّلنا إليها في بحثنا عن الرؤية القرآنية بشأن القضية المهدوية، وهي ناطقة بكمال الصورة الّتي تعرضها وانسجام كل جزءٍ

منها مع الأجزاء الأُخرىٰ، فهي صورة متناسقة بالكامل لا باطل فيها ولا مغالاة، يقبلها العقل السليم والفطرة النقية، وهذا هو شأن جميع الحقائق القرآنية.

وعندما نقارن هذه الصورة المتكاملة المتناسقة مع عقيدة منهج أهل البيت عليهم السلام في المهديّ المنتظر نجدها منطبقة عليها، بل وإنّ هذه العقيدة منطلقةٌ أساساً من تلك الرؤية القرآنية ومعبّرة عنها، وهذه كبرىٰ مميّزاتها، ولذلك فإنّ هذه العقيدة تعرض صورة متناسقة لهذه القضية المهمّة في الحياة الإسلامية، تفتقدها العقائد الأُخرىٰ بشأنها، وسرّ هذا التمايز هو شموليتها في الاستجابة لجميع السنن الإلهيّة الّتي يعرضها القرآن الكريم بشأن هذه القضية، والحقائق الّتي تعرّفنا عليها في أبواب وفصول هذا الكتاب.

ولذلك وجدنا عقيدة منهج أهل البيت في المهديّ الموعود عجّل الله فرجه متناسقة في جميع أجزائها يكمل بعضها بعضاً، تحمل الإجابات الشافية علىٰ جميع الأسئلة المثارة بشأن هذه القضية، ولذلك فإنّها عقيدة يقبلها العقل السليم والفطرة النقية؛ لأنّ المنطلق من القرآن الكريم يقبله العقل السليم والفطرة النقية.

محتويات الكتاب

المقدمة ٥

التقديم ١٣

اهتمام النصوص الشرعية بالقضية المهدوية ١٣

ضرورات التعرّف على العقيدة الإسلامية في المهديّ الموعود ١٥

مميزات عقيدة الإمامية في الإمام المنتظر ١٦

الاستناد إلى المتّفق عليه من النقل والعقل ١٧

البُعد الإصلاحي الأصيل ١٨

وضوح هوية المصلح العالمي ١٩

المنطلق التوحيدي ١٩

الصورة الكاملة للإنتظار الإيجابي ٢١

التّحريك للإصلاح الفردي والاجتماعي ٢٢

حفظ الارتباط الفاعل بالسماء ٢٣

محور للحوار وتمييز الأقوال ٢٤

محتويات الموسوعة : الرؤية القرآنية للقضية المهدوية ٢٥

القضية المهدوية في المتّفق عليه من السنّة ٢٦

ولادة المهديّ المنتظر ٢٧

غَيبة الإمام ٢٧

رؤية الإمام ٢٨

منهج العمل في الموسوعة

الانطلاق من النصوص الشرعية : ٢٨

الباب الأوّل: القضية المهدوية في التنزيل القرآني

مدخـل ٣٥
الفصل الأوّل: دلالات الآيات على وجود الإمام وغَيبته ٣٧
مدخـل ٣٧
أوّلاً : دعوة أهل كلّ عصر بإمامهم ٣٩
تفسير الآية ٣٩
الإمام في الآية مَن يقتدىٰ به من البشر ٤١
الأقوال في تفسير «الإمام» في الآية ٤٢
دلالات النصّ القرآني ٤٧
ثانياً : لكلّ قومٍ هاد ٤٩
الهداية المقصودة الإيصال للمطلوب ٥١
مهتدٍ بنفسه هادٍ بأمر الله ٥٢
ثالثاً : استمرار الموكّلين بحفظ الدين ٥٣
تفسير الآية ٥٤
مَن هم الموكّلون بحفظ الدين في الآية ٥٥
الموكّلون هم أهل العصمة الإلهيّة ٥٩
دلالات الآية ٦١
مقارنة الدلالات بعقيدة الإمامية ٦٣
رابعاً : الإمام الهادي معصوم من الذرية الإبراهيمية ٦٤

تفسير الآية ٦٤
الابتلاء بالكلمات ٦٦
معنى «الكلمات» في لغة القرآن ٦٧
الأهلية للإمامة ٦٩
الإمامة غير النبوّة ٧٠
تمييز المصطلح القرآني عن غيره ٧١
معنىٰ الإمامة ٧٢
مسؤولية الإمام ٧٣
صفات الإمام ٧٤
عصمة الإمام والتسديد الإلهيّ ٧٥
الإمامة في ذرّية إبراهيم ٧٨
دلالات الآية ٧٩
خامساً : عدم انقطاع الإمامة في ذرّية إبراهيم عليه السلام ٨١
تفسير الآية ٨١
دلالات الآية ٨٣

ملخّص دلالات آيات الفصل

مَن هو الإمام الجامع للصفات المذكورة في الآيات ؟ ٨٥
انسجام عقيدة الإمامية في المهديّ مع دلالات الآيات ٨٦
دلالة القرآن علىٰ وجود المهديّ وغَيبته ٨٧
الفصل الثاني : منجزات الظهور المهدوي ٨٩
مدخـل ٨٩
أوّلاً : إتمام النور الإلهيّ وإظهار الإسلام على الدين كلّه ٩٠

تفسير الآيات ٩٠
إظهار الإسلام بأيدي المؤمنين ٩٢
آيتا سورة الصف........ ٩٢
غلبة الإسلام علىٰ كلّ الأديان........ ٩٤
دلالات الآيات ٩٤
عدم تحقّق هذا الوعد إلى الآن........ ٩٥
معنىٰ إظهار الإسلام على الدين كلّه ٩٥
بشرىٰ بإقامة الدولة الإسلامية العالمية ٩٦
إقامة هذه الدولة يكون بالجهاد ٩٦
القائد الّذي يُظهر الله الإسلام علىٰ يديه ٩٧
اشتهار دلالة الآيات علىٰ الدولة المهدوية ٩٩
ثانياً : استخلاف صالحي المؤمنين في الأرض ١٠٠
تفسير الآيات ١٠١
آية سورة الأنبياء ١٠٢
دلالات الآية ١٠٤
صفات وارثي الأرض........ ١٠٥
آية سورة النور ١٠٥
المقصود باستخلافهم في الأرض ١٠٧
تمكين الإسلام وإظهاره ١٠٨
سيادة الأمن........ ١٠٩
زوال الشرك........ ١١٠
أقوال المفسّرين في مصداق الآية ١١٠

المصداق المنسجم مع دلالات الآية ١١١
زوال الاختلاف في الدين ١١٢
الآية تعد بمجتمعٍ صالحٍ خالٍ من الكفر والنفاق ١١٣
الدولة المهدوية هي مصداق الآية ١١٥
دلالات الآية ١١٦
الاستخلاف لطائفة من المسلمين ١١٧
المستخلفون عصارة الخطّ الإيماني ١١٨
مقارنة بعقيدة أهل البيت عليهم السلام ١١٨
آية سورة الحجّ ١١٩
صفات المستخلفين في الأرض ١٢١
ثالثاً: تحقّق غاية خلق الإنسان ١٢٢
الغاية من خلق الإنسان: تفسير الآية ١٢٢
العبادة الحقّة غاية الخلق ١٢٣
دولة المهديّ وتحقّق العبادة ١٢٧
حتمية ظهور المهديّ ١٢٧
النقطة الأُولىٰ: الحصول على الكمال ١٢٨
النقطة الثانية ١٢٩
النقطة الثالثة ١٣٠
تحقّق الغاية بالسنن الطبيعية ١٣٠
النقطة الرابعة ١٣١
آياتٌ أُخرىٰ مؤيّدة ١٣١
النقطة الخامسة ١٣٤

دور الأنبياء في التمهيد للدور المهدوي ١٣٤
تنامي الإخلاص للشرع الإلهيّ ١٣٥
النقطة السادسة ١٣٦
الصعوبات إعداد للأُمّة ١٣٧
النقطة السابعة ١٣٩
النقطة الثامنة ١٤١
لزوم التمحيص والاختبار ١٤١
خلاصة الاستدلال بالآية ١٤٦
دلالات الآية والعقيدة المهدوية ١٤٨
رابعاً: إنهاء الردة عن الدين الحقّ ١٥٠
تفسير الآيات الكريمة ١٥١
مقدّمة والمعنى الإجمالي ١٥١
تفصيل تفسير الآيات ١٥٣
معنى التولّي والولاية ١٥٣
النهي عن تبعية اليهود والنصارىٰ ١٥٩
اتّحاد اليهود والنصارىٰ على المسلمين ١٦٠
نتيجة موالاة اليهود والنصارىٰ ١٦١
حجج اتباع اليهود والنصارىٰ ١٦٢
الفتح الإلهيّ الفصل ١٦٤
معنى الفتح في الآية ١٦٥
ندم الموالين لليهود والنصارىٰ ١٦٦
كلامٌ في معنىٰ مرض القلب ١٦٧

الّذين في قلوبهم مرض غير المنافقين........ ١٦٨
معنى الردّة المقصودة في الآية ١٧١
آثار موالاة اليهود والنصارىٰ ١٧٢
الآيات تتحدّث عن ملحمة غَيبية ١٧٤
موالاة اليهود والنصارىٰ ردّة عن الدين........ ١٧٦
انهاء الله للردّة ونصرته لدينه........ ١٧٧
إنهاء الردّة بأيدي أحبّاء الله ١٧٨
من صفات أحبّاء الله ١٨٠

بحث روائي

مناقشة المصاديق المذكورة للآيات ١٨١
كلام وبحث مختلط من القرآن والحديث........ ١٨٩
فقدان نعمة مودّة قربى الرسول ﷺ........ ١٩٠
عواقب كفران نعمة موالاة أولياء الله ١٩١
ظهور وقوع الانحراف في المجتمع الإسلامي ١٩٣
الأحاديث الشريفة تصف مظاهر الردة........ ١٩٤
تفسير أحد علماء السنّة لآيات الردّة عن الدين........ ٢٠٤
خلاصة دلالات الآيات........ ٢١٢
تضييع عزّ الانتماء الإسلامي........ ٢١٢
التبعية لليهود والنصارىٰ ٢١٣
العلّة في الإعراض عن الولاية الحقّة........ ٢١٣
الردّة عن الدين الحقّ........ ٢١٤

الردّة المقصودة غير الردّة المصطلحة ٢١٤
حتمية وقوع الفتح المنهي للردّة ٢١٥
صاحب الفتح الإلهيّ ٢١٥
مظهر الفتح الإلهيّ إظهار الإسلام ٢١٦
مقارنة دلالات الآيات بعقيدة الامامية ٢١٧
آية الشجرة الملعونة في القرآن الكريم ٢١٩

الباب الثاني :

القضية المهدوية في الآيات المؤولة أو المطبقة عليها

مدخل ٢٢٣
معنى التأويل ٢٢٣
التأويل من علم الغَيب ٢٢٥
النبيّ والعترة عالمون بالتأويل ٢٢٧
معنىٰ تطبيق الآيات ٢٢٧
التطبيق لا يعني حصر الآية بالمصداق ٢٢٩
التطبيق فرع المعرفة بالتأويل ٢٢٩
الفصل الأوّل : مقامات المهديّ وخصائصه ٢٣١
أوّلاً : المهديّ إمام الزمان ٢٣٢
معرفة المهديّ شرط معرفة الله ٢٣٢
ثانياً : المهديّ هادٍ لأهل زمانه ٢٣٣
ثالثاً : المهديّ معيّنٌ من الله للهداية بأمره ٢٣٥
المهديّ مؤيد بالله في غَيبته وظهوره ٢٤٠

رابعاً : المهديّ من الكلمة الإبراهيمية الباقية ٢٤١
خامساً : المهديّ مهديّ بالله لا بسواه ٢٤٣
سادساً : أولىٰ الناس بإبراهيم ٢٤٥
الأولىٰ بتمثيل منهاج النبيّين ٢٤٧
سابعاً : سرّ حفظ النظام الكوني ٢٤٨
ثامناً : المهديّ من أُولي الأمر........ ٢٤٩
ذو الطاعة الواجبة ٢٥١
تاسعاً : المهديّ صاحب ليلة القدر ٢٥٢
عاشراً : المهديّ من قرىٰ الأمن المباركة ٢٥٤
الحادي عشر : بقية الله في أرضه ٢٥٥
أسمىٰ طيّبات النِعم الإلهيّة........ ٢٥٦
الثاني عشر : صاحب الدين القيّمة ٢٥٧
الثالث عشر : صاحب السيف الربّاني........ ٢٥٩
الرابع عشر : النور الإلهيّ المظهرنّ للدين........ ٢٦٠
الخامس عشر : المهديّ مجلي الظلمات ٢٦٣
النور الشامل ٢٦٤
السادس عشر : الفجر الربّاني الصادق........ ٢٦٤
السابع عشر : النهار الإلهيّ المتجلي ٢٦٥
الفصل الثاني : ولادة الإمام وغَيبته ٢٦٦
الشّمس الغائبة ٢٦٦
أوّلاً : قوله تعالىٰ : فلا أُقسِمُ بالخُنسّ * الجوار الكُنسّ ٢٦٦

غَيبَةٌ بين ظهورين ٢٦٩
قيامه بمهامّ الإمامة في غَيبته ٢٧٠
ثانياً : الماء الغائر ٢٧١
غَيبة الإمام بأمر الله ٢٧٥
الحرمان من الرؤية العلنية ٢٧٧
ثالثاً : طول أمد الغَيبة ٢٧٨
للغَيبة نهاية ٢٧٩
رابعاً : استيفاء مدد غيبات الأنبياء عليهم السلام ٢٨٠
تكرار العوامل الّتي أدّت إلىٰ غَيبات الأنبياء ٢٨١
خامساً : المهديّ نعمة سابغة في غَيبته وظهوره ٢٨٣
أسمىٰ النِعم الإلهيّة ٢٨٤
الانتفاع بالإمام في غَيبته ٢٨٦
الفصل الثالث: علل وقوع الغَيبة ٢٨٧
مدخل ٢٨٧
أوّلاً : الغَيبة والتمحيص والمحق ٢٨٨
معنى التمحيص للإيمان والمحق للكفر ٢٨٩
حكمة مداولة الأيّام بين الناس ٢٩٠
مداولة الأيّام وسيلة التمحيص والمحق ٢٩١
حتمية الامتحان ٢٩٢

كلامٌ في الامتحان وحقيقته

الهداية العامّة إلى الغاية من الخلق ٢٩٣

هداية كلّ مخلوق إلىٰ كمال وجوده ٢٩٤
حقّ المخلوقات على الله ٢٩٥
معنى الامتحان........................ ٢٩٨
الامتحان سنّة إلهية جارية ٣٠١
الدلالات المستفادة من الآية........................ ٣٠٢
الغَيبة إجراءٌ لسنّةٍ إلهية........................ ٣٠٣
شرط انتهاء الغَيبة ٣٠٥
ثانياً : الغَيبة وسيلة لاختبار صدق الإيمان ٣٠٥
خصوصية الإيمان بالمهديّ في غَيبته........................ ٣٠٧
ثالثاً : خروج الودائع وتمايز المؤمنين........................ ٣٠٨
تبليغ الحقّ للجميع........................ ٣١٠
تربية العباد ٣١١
رابعاً : حفظ استمرار وجود الإمامة........................ ٣١٢
الغَيبة تمهيدٌ للظهور ٣١٣
السبب المباشر هو الانحراف عن الولاية........................ ٣١٤
الفصل الرابع : ثمار الإيمان بالمهديّ في غَيبته ٣١٦
مدخل........................ ٣١٦
علامة التقوىٰ........................ ٣١٧
أوّلاً : قوله تعالىٰ : الٓمٓ * ذَٰلِكَ الكِتابُ........................ ٣١٨
معنى الإيمان بالغَيب........................ ٣٢٠
ثانياً : النّجاة من الهلع والجزع........................ ٣٢١

ثالثاً : الفوز بالتأييد الإلهيّ ٣٢٢
الدخول في حزب الله........ ٣٢٥
الفلاح في الدنيا والآخرة ٣٢٧
رابعاً : الفوز بالخير الكثير........ ٣٢٩
خامساً : التأهّل لزيادة الهدىٰ والتقوىٰ........ ٣٣٠
سادساً : الفوز بالحياة الطيّبة ٣٣٢
الحياة الطيّبة في التمسك بالإمامة في الغَيبة ٣٣٥
سابعاً : استيفاء نصيبه من دولة المهديّ ٣٣٦
ثامناً : الإلتحاق بالصديقين والشهداء عند ربّهم ٣٣٩
تاسعاً : الاهتداء للصراط السوي ٣٤١
عاشراً : قوله تعالىٰ : وإنّي لغفار لِمَن تَابَ........ ٣٤٢
مصداق الصراط المستقيم ٣٤٣
تحذير الممارين ٣٤٣
المهتدي للولاية المهدوية يفوز بالمغفرة الخاصّة........ ٣٤٥
الإيمان بالمهديّ فرع للإيمان بالله ٣٥٠
الفصل الخامس : عواقب المماراة في المهديّ في غَيبته ٣٥٢
مدخل ٣٥٢
أوّلاً : الإنكار يستتبع الندم........ ٣٥٢
ثانياً : المنكرون عن عنادٍ في ضلال بعيد........ ٣٥٤
معنىٰ المماراة ٣٥٤
المعاندون يخسرون أنفسهم........ ٣٥٥

ثالثاً : الخسران المبين........................ ٣٥٦
المنكرون عن جهل غير الممارين........................ ٣٥٨
رابعاً : خسران نصيبهم في دولة الحقّ........................ ٣٥٨
خامساً : الاستهزاء بالحقّ........................ ٣٥٩
العجز عن مواجهة البراهين الساطعة........................ ٣٥٩
سادساً : استحباب العمىٰ على الهدىٰ........................ ٣٦٠
سابعاً : قوله تعالىٰ :كَذَّبت ثَمُودُ بطغوَاها........................ ٣٦٠
الفصل السادي : يوم الفتح والفصل........................ ٣٦٣
يوم جني الثمار........................ ٣٦٣
أوّلاً : حتمية مجيء يوم الفتح........................ ٣٦٤
يوم الفتح يقع في الدنيا........................ ٣٦٦
التكذيب سبب لنزول العذاب........................ ٣٦٧
ثانياً : عذاب يوم الفتح غير مصروفٍ عن المكذّبين........................ ٣٦٨
أوان الفتح مع بعث أحباب الله........................ ٣٦٩
العذاب الموعود يقع في الدنيا........................ ٣٧٠
ثالثاً : عدم نفع تأخر الإيمان إلىٰ يوم الفتح........................ ٣٧١
نصرة الإمامة قبل يوم الفتح........................ ٣٧٢
يوم الفتح في أحاديث المصادر السّنية........................ ٣٧٥
تفسير آية سورة الأنعام بشأن يوم الفتح........................ ٣٧٦
الانكشاف التام لآية التوحيد........................ ٣٧٧
الإتيان بالآيات للفصل........................ ٣٧٨

الوعيد للكافرين ٣٨٠
التفرّق عن خطّ النبيّ ﷺ ٣٨١
ثمار الالتفاف حول الحقّ والتفرّق عنه ٣٨٣

بحث روائي

يوم ظهور القُدرة الإلهيّة ٣٨٤
خصوصية المؤمنين بخطّ الولاية ٣٨٦
دلالات الآية والأحاديث المطبقة ٣٨٦
يوم الفصل فيما اختُلف فيه بين الأُمّة المحمّدية ٣٨٦
مصاديق يوم الفتح ٣٨٧
الإيمان النافع في يوم الفتح ٣٨٨
إيمان غير المعاندين في يوم الفتح ٣٨٨
الإيمان الّذي لا ينفع أبداً ٣٨٩
إنهاء الاختلاف بين الأُمّة المحمّدية ٣٩٠
الفصل السابع: تكاليف المؤمنين في عصر الغَيبة ٣٩٢
مدخل ٣٩٢
أوّلاً: الصبر والمصابرة والمرابطة والتقوىٰ ٣٩٢
معاني الأوامر الأربعة ٣٩٤
الثبات على الدين الحقّ ٣٩٥
تقوية الصفّ الإيماني ٣٩٦
الالتفاف حول الراية المهدوية ٣٩٦
ترسيخ ملكة التقوىٰ ٣٩٧

ثانياً : التواصي بالحقّ وبالصبر ٣٩٧
تفسير سورة العصر ٣٩٨
مواساة الإخوان والتكافل الإيماني ٤٠٢
التواصي بموالاة الإمام........................ ٤٠٣
ثالثاً : الاستعانة بالله........................ ٤٠٤
التمهيد لظهور المهديّ عبادةً لله ٤٠٧
الفوز بحسن العاقبة ٤٠٨
التصرّف بالنعم بإذن الإمام ٤٠٩
رابعاً : انتظار الفرج........................ ٤١٠
سير الآيات المطبقة على الانتظار ٤١٢
الانتظار مشروطٌ بالاستعداد والعمل والصبر ٤١٥
التطلّع المستمر للفتح المنتظر ٤١٦
تعميق الارتباط بالإمام........................ ٤١٧
خامساً : اتّقاء قسوة القلوب ٤١٧
قسوة القلوب تُخرج من العبودية لله ٤١٩
قطع طريق الشك وتقوية الإيمان ٤٢٠
سادساً : الحذر من مكر الأعداء ٤٢١
الإعتصام بالعروة الوثقىٰ........................ ٤٢٢
الفصل الثامن: الردّة والإفساد والغَيبة والتصحيح المهدوي........................ ٤٢٤
عزل الولاية الحقّة مصدر الفساد........................ ٤٢٤
أوّلاً : تكرار الإفساد الإسرائيلي ٤٢٥

تفسير آيات سورة الإسراء ٤٢٩
تطبيق الآيات علىٰ الواقع الإسلامي ٤٣٧
إخبار النبيّ بتكرار الإفساد الإسرائيلي ٤٣٨
الانحرافات والتمحيص والمحق ٤٣٩
ثانياً : فتنة الشّجرة الملعونة في القرآن ٤٤٠
مَن هي الشجرة الملعونة في القرآن ؟ ٤٤٢
معنىٰ الشجرة ٤٤٢
الشجرة: قومٌ ملعونون في القرآن ٤٤٣
هؤلاء القوم ليسوا المشركين ولا أهل الكتاب ٤٤٣
الشجرة : قومٌ منافقون ٤٤٣
الفتنة سنّة جارية ٤٤٤
مصداق الرؤيا النبوية ٤٤٥
الرؤيا ليست الإسراء ٤٤٦
مصداق الشجرة الملعونة في الأحاديث المشتركة ٤٥٠
استمرار تأثير الشجرة الملعونة إلىٰ يوم الفتح ٤٥٣
دور الخطّ الاموي في فتنة المسلمين ٤٥٥
تيار الوهّابية ٤٥٥
ثالثاً : دور الأئمة المضلّين في الغواية ٤٥٦
عزل أوصياء النبيّ ﷺ بداية الانحراف ٤٥٩
دلالات الآيات ٤٦١
الأئمة المظلّون وتزيين الباطل ٤٦١

رابعاً : الإفساد والردّة ومحاربة خطّ الولاية ٤٦٢
تفسير آيات سورة محمّد ﷺ ٤٦٣
معنى الردّة ٤٦٤
الإفساد في جميع الحالات ٤٦٥
يوم الفتح يوم إنهاء الردّة والإفساد ٤٦٦
خامساً : المهديّ عليه السلام ينهي الردّة عن الدين الحقّ ٤٦٦
الّذين ينهون الردّة هم الموكّلون بحفظ الدين ٤٦٨
سادساً : الكيد الإلهيّ وإمهال المفسدين ٤٦٩
هدف المفسدين إطفاء النور الإلهيّ ٤٧٠
اتّضاح التأييد الإلهيّ لخطّ الولاية المعصومة ٤٧١
سابعاً : المفسدون شرّ مكاناً وأضعف جنداً ٤٧٢
الفصل التاسع : حتمية وقوع الفتح المهدوي ٤٧٤
مدخـل ٤٧٤
أوّلاً : ظهور المهديّ رزقٌ سماويٌّ حتميّ ٤٧٥
من الأمر الثابت المحتوم ٤٧٦

كلامٌ في تكافؤ الرزق والمرزوق

دلالات الآيتين ٤٨٠
ظهور المهديّ حاجة فطرية ٤٨٠
ثانياً : قضاء الله بتوريث الأرض لصالحي عباده ٤٨١
ثالثاً : استخلاف صالحي المؤمنين ٤٨٣
الموعودون هم أتباع المهديّ ٤٨٧

رابعاً : إتمام النور الإلهيّ ٤٨٨
الإمام هو النور المهتدىٰ به ٤٨٩
خامساً : إظهار الدين الحقّ ٤٩٠
مصداق الآية في المصادر السنّية ٤٩٤
سادساً : وراثة المستضعفين في الله للأرض ٤٩٤
اختصاص الوراثة في الإسلام بآل محمّد ٤٩٧
تفسير آية سورة القصص ٤٩٨
دلالات تطبيق الآية ٥٠٠
حتمية استخلاف آل محمّد بعد استضعافهم ٥٠١
سابعاً : إزهاق الباطل وإحقاق الحقّ بكلماته ٥٠١
وعدٌ للنبيّ ﷺ بالنصر ٥٠٣
محو الباطل وإحقاق الحقّ سنّة جارية ٥٠٥
جريان هذه السنّة في الإسلام علىٰ يد المهديّ ٥٠٥
ثامناً : إزالة دولة الباطل ٥٠٦
إزالة الباطل ببركة جهاد أنصار المهديّ ٥٠٧
تاسعاً : المهديّ كلمة الله الّتي يحقّ بها الحقّ ٥٠٨
القضاء الإلهيّ بنصرة أوليائه ٥١٠
قطع دابر الكافرين بالكلمات الإلهيّة ٥١١
كيد الكافرين لا يمنع ظهور المهديّ ٥١١
الحقّ المقصود هو الدين النقي الّذي تمثّله الإمامة المعصومة ٥١٢
عاشراً : حقّ الانتقام للمظلومية الحسينية ٥١٣

القصاص من خطّ الظلم ٥١٧
الحادي عشر : نصرة المظلومين في سبيل الله ٥١٨
مظلومية آل محمّد ﷺ ٥٢١
الثاني عشر : القصاص من البُغاة ٥٢١
الحكمة في معاقبة البُغاة بالمثل ٥٢٢
النصر الإلهيّ لمنفّذي القصاص ٥٢٥
إزالة آثار الظلم من الرحمة ٥٢٥
الثالث عشر : إنهاء البغي في الأرض ٥٢٦
معاقبة الظالمين رحمة ٥٢٨
الرابع عشر : استجابة دعوة المضطرّ ٥٢٨
دعاء المهديّ خيرٌ للجميع ٥٣١
الفصل العاشر : العلامات العامّة للظهور المهدوي ٥٣٢
مدخـل ٥٣٢
أوّلاً : إستكمال التمحيص والغربلة ٥٣٢
سياق الآية وتفسيرها ٥٣٥
البلاء المقصود من نمط خاصّ ٥٣٦
بشرىٰ للصابرين ٥٣٨
دلالات الآية وتطبيقها ٥٣٩
الأمر بمجاهدة الظالمين بحكمة ٥٤٠
إشتداد البلاء قبيل الظهور ٥٤٠
ثانياً : قوله تعالىٰ : هُنَالِكَ ابتُلِىَ المُؤمِنُونَ... .... ٥٤١

تصاعد الحرب النفسية والإرهابية ضدّ المؤمنين............ ٥٤١
ثالثاً : اتّضاح الحقّ المهدوي ٥٤٢
ظهور آياتٍ أنّ المهديّ حقّ............ ٥٤٤
انتشار الشعور العامّ بالحاجة للمهديّ ٥٤٧
مسخ أعداء الحقّ واتّضاح زيف دعاواهم ٥٤٧
تحديد هوية المنقذ............ ٥٤٨
رابعاً : التمايز الكامل بين خطّي الحقّ والباطل ٥٤٨
ظهوره «ودائع الله»............ ٥٤٩
خامساً : اليأس من اهتداء الباقين ٥٥٠
تفسير الآية............ ٥٥١
دلالات الآية وتطبيقها ٥٥٤
أقرب العلامات العامّة............ ٥٥٤
تمادي الأعداء في محاربة المؤمنين ٥٥٤
سادساً : بلوغ التطوّر المادّي ذروته ٥٥٥
سابعاً : الظهور المهدوي يباغت المجرمين ٥٥٧
علائم الظهور وتوقيته............ ٥٥٩
الفصل الحادي عشر : من مظاهر النصرة الإلهيّة للمهدي ٥٦٠
مدخـل............ ٥٦٠
أوّلاً : ظهور المهديّ بإذن الله............ ٥٦١
حتمية تحقّق الأهداف المهدوية............ ٥٦٣
ثانياً : أمر الله الغالب علىٰ أمره............ ٥٦٤

أوضح مصاديق النصر الإلهيّ ٥٦٦
ثالثاً : نصرته بالآيات السماوية ٥٦٦
النداء السماوي باسم صاحب الأمر ٥٧٣
رابعاً : فضح المبطلين والّذين في قلوبهم مرض ٥٧٣
إنكار الآيات السماوية ٥٧٥
خامساً : طمس وجوه الأعداء ٥٧٦
الطمس المعنوي والظاهري ٥٧٩
سادساً : تعريفه بالمجرمين ٥٨٠
سابعاً : خسف الأرض بالمعاندين ٥٨١
الدلالة على المهديّ الحقيقي بنصرته ٥٨٢
ثامناً : نزول عيسى المسيح لنصرته ٥٨٣
الاتّفاق علىٰ نزوله في عهد المهديّ ٥٨٤
تفسير آية سورة النساء ٥٨٥
بقاء عيسىٰ عليه السلام حيّاً ٥٨٦
تصحيح انحرافات النصرانية وقتل الدجّال ٥٨٩
رجوع النصارىٰ عن تأليه عيسىٰ ٥٩٠
تاسعاً : نصرته بالملائكة البدريين ٥٩١
عاشراً : نصرته بأصحاب أُولي بأسٍ شديد ٥٩٢
ركنٌ شديد في تحقيق الأهداف الإلهيّة ٥٩٣
الحادي عشر : الإتيان بأصحابه بصورة إعجازية ٥٩٤
أنصاره الأُمة المعدودة ٥٩٥

أنصاره السبّاقون للالتزام بالولاية ٥٩٦
أهل الإخلاص ٥٩٨
الفقهاء ، النجباء ، الحكّام والقضاة المسددون ٥٩٩
التمسّك بالولاية طريق الدخول في زمرة أنصاره ٥٩٩
الفصل الثاني عشر: من خصائص دولة المهديّ الموعود ٦٠١
مدخـل ٦٠١
أوّلاً : دولة المهديّ أكمل صوَر الدولة الإلهيّة ٦٠٢
ثانياً : نزول البركات الإلهيّة في عهده ﷺ ٦٠٢
المصداق الأكمل للدولة المؤمنة ٦٠٣
ثالثاً : إحياء الأرض بالخيرات ٦٠٥
رابعاً : إحياء الأرض بالعدل ٦٠٦
ظهور البركات المعنوية ٦٠٧
خامساً : قوله تعالىٰ ٦٠٨
رفع التقية ٦٠٨
سادساً : قتل الإغراءات الشيطانية ٦٠٩
تطهير الأرض من الكفر والشرك والمعاصي ٦١٠
دور إبليس في غواية البشر ٦١٢
الدعوة للسجود دعوة لمساعدة الإنسان ٦١٣
الغواية الشيطانية مستمرة إلى اليوم المعلوم ٦١٤
ظهور المهديّ مصداق اليوم المعلوم ٦١٦
إنهاء النشاط الإبليسي مقدّمةٌ لإقامة المجتمع الصالح ٦١٨

سابعاً : دخول الجميع في الإسلام ٦١٩
حتمية تحقّق التسليم الاختياري لله ٦٢٠
اتضاح أحقّية الإسلام ٦٢١
إزالة عوامل الصدّ عن سبيل الله ٦٢١
ثامناً : إنهاء مصادر الفتنة والإضلال ٦٢٢
شمولية مكافحة جميع أشكال الشرك ٦٢٣
تاسعاً : وضع الحرب أوزارها ٦٢٤
سيادة الأمن والسلام الشامل ٦٢٥
عاشراً : إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف ٦٢٦
إنهاء البدع ٦٢٧
الحادي عشر : دولة البناء الشامل ٦٢٨
تسخير التطوّر المادّي للأهداف المقدّسة ٦٢٨
الخاتمة : خلاصة الدلالات القرآنية بشأن القضية المهدوية ٦٢٩
مدخـل ٦٢٩
الآيات الكريمة مستقلّة بالنصّ علىٰ وجود الإمام المهديّ وغَيبته ٦٢٩
النصّ القرآني علىٰ وجود المعصوم الموكّل بحفظ الشريعة ٦٣٠
القيام بمهامّ الإمامة والوصاية في الغَيبة ٦٣١
دور المهديّ الموعود كاشفٌ عن هويته ٦٣٢
محاربة خطّ الإمامة المعصومة السبب المباشر للغَيبة ٦٣٣
تطبيق الآيات الكريمة يحدّد التفصيلات ٦٣٤
جريان السنن الإلهيّة في القضية المهدوية ٦٣٥

الغَيبة حفظٌ للحجّة وتربيةٌ للعباد ٦٣٦
الغَيبة تمهيدٌ للظهور ٦٣٧
تكاليف عصر الغَيبة تقويةٌ للصفّ الإيماني ٦٣٨
الردّة والنهج الأُموي والأئمّة المضلّون ٦٣٩
حتمية إزهاق الباطل ٦٤٠
علامات الظهور واكتمال شروطه ٦٤٠
النصرة الإلهيّة للمهديّ وإثبات أحقّيته ٦٤١
دولة المهديّ تحقّق أهداف كلّ الأنبياء ٦٤٢
تناسق أجزاء الرؤية القرآنية للقضية المهدوية ٦٤٢
محتويات الكتاب ٦٤٥